

١٧١

الجزء الأول

في تفسير القرآن الكريم

استعمل على عجائب بديع المكنون وغرائب الآيات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا  
سبح الله المسلمين بجلالة آمين

الجزء الثاني في الخشوع

طبع بطبعة

مصطفى السباني الحسيني وأولاده بمصر

وحقوق الطبع محفوظة

وباشر طبعه - محمد أمين عمران

صفر سنة ١٣٥١ هـ

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## تفسير سورة ق

هي مكة

إلا آية : « ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب » فدنية

آياتها ٤٥ — نزلت بعد المرسلات

وهي في : اثبات النبوة والحشر

وذلك في مبحثين

الأول : في النظر في السموات والأرض ، وأخبار الأمم الماضية ، من أول السورة إلى قوله : « بل هم في لبس من خلق جديد » .

المبحث الثاني : في الكلام على الموت وسكرته ، وعلى الملائكة المراقبين حركات الإنسان وسكناته ، وفي أحوال يوم القيامة ، من قوله : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه » إلى آخر السورة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ \* بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ \*  
 أَوِذَانًا مِثْلَ نَوَاتِكُمْ كُنَّا تُرَاكِبًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ \* قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ  
 حَفِيفٌ \* بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ \* أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ  
 فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ \* وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَالْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ  
 وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ \* تَبْصِرَةٌ وَذِكْرٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ \* وَنَزَّلْنَا مِنَ  
 السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ \* وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ \*  
 رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ \* كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ  
 الرَّسِّ وَثَمُودُ \* وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ \* وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ  
 الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ \* أَفَعَيِّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ \* وَلَقَدْ  
 خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ \* إِذْ يَتَلَقَّى  
 الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ \* مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ \* وَجَاءَتْ  
 سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ \* وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ \*  
 وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ \* لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ  
 غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ \* وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَى عَتِيدٍ \* أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ  
 كَفَّارٍ عَتِيدٍ \* مَتَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ \* الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي  
 الْعَذَابِ الشَّدِيدِ \* قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ \* قَالَ  
 لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ \* مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ \*  
 يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ \* وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ \*  
 هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ \* مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ \*  
 ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ \* لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ \* وَكَمْ أَهْلَكْنَا  
 قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيسٍ \* إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَذِكْرِي لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ \* وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ \* فَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ \* وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ الشُّجُودِ \* وَأَسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ \* يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ \* إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ \* يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاحًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ \* نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ \*

### المبحث الأول فيه ثلاث مقامات

المقام الأول في تفسير البسملة .

المقام الثاني في معنى « ق » .

المقام الثالث في تفسير الآيات من أول السورة إلى قوله « بل هم في لبس من خلق جديد » .

### المقام الأول في تفسير البسملة

للرجة في هذه السورة أدوار ثلاثة : دور البداية ، ودور أهرم النشاط في الأعمال ، ودور النهاية ، وذلك كأدوار الانسان ، فهو شاب ، وكهل ، وهرم . وكأدوار قصة يوسف :

- (١) فهو مع اخوته في مشا كل الحسد ، والمنافسة ، واللقاء في البئر ، ووقوعه في شرك امرأة العزيز .
- (٢) ثم في حفظ مال الدولة المصرية والقيام بسياستها ، وإكرامه اخوته وأبويه .
- (٣) ثم انتهى إلى الله وقال : « رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين » :

\*\*\*

- (١) هكذا الحكماء الذين عرفوا الله بعقولهم كسقراط ، فأول حياته شك في نظام العالم ، وفي خالقه ، وعموم علمه ، في مقابلة حسد إخوة يوسف ورميه في الحب إلى آخر ما تقدم .
- (٢) ثم انه عثر على رأى أنكساغورس ، فعرف شيئاً من الألوهية ، ثم استكمل علمه .
- (٣) ثم انتهى إلى انقضاء حياته .

\*\*\*

- (١) وهكذا خاتم الأنبياء ، فهو في مكة في مشا كل ومجادلات ومخاصمات مع كفار قريش
- (٢) وهو في المدينة فاتح البلاد وناسر الاسلام .
- (٣) ولما انتهى الأمر رجع إلى ربه .

فهكذا هذه السورة ، فأولها انكار النبوة والبعث ، وأوسطها الحث على النظر في السماء وزينتها وبهجتها بنائها ، وفي الأرض وجبالها الشايعات ، وزروعها النضرات ، وطررها المدرار ، ونخلها الباسقات ، ودولها المالكات ، من عاد إلى أصحاب الأيكة وقوم تبع ، وما استحقوا من وعيد ومحاسبة ، ونهايتها تقرير



الانسان على أعماله ، وأنه مسئول عن دخائل نفسه ، في مجالس أنسه ، وعند اخوته ، وفي خلوته ، وأنه محوط بالكرام الكائنين ، يحصون أعماله ، ويرقبون أقواله ، حتى اذا جاءت سكرته ، وحانت منيته ، حوسب على قول كل كلمة ، وحوسب على كل عمل عمله ، وشهدت عليه الشهود ، وكشف له الغطاء ، ووقع الخصام ، واضطرب النظام ، وتعدى المحبون ، وافترق المجتهدون وغضب الرب غضبه ، فلا جهنم بأهائها ، ورحم أعظم الرحمات بمل الجنسة بذوى الايمان والصالح ، ذلك لأنه لا يجعل المتقين كالفجار ، ولا المؤمنين كالكفار ، ولو استوى الخبيث والطيب لكان خلق هذه العوالم باطلا ، ولكان نظامه حائلا ، ولكن النظام معلوم ، ودوامه مصون .

### وجه الرحمة هنا

وانما منى الانسان بهذه الوقائع ، واتصف بتلك المناقب والمثالب لأنه لا يتسنى له الارتقاء الى الملأ الأعلى إلا بمعاناة الضدين ، ومقاساة الأمرين ، حتى اذا جاءت سكرة الموت كانت سكرة الطرب ، لاسكرة الجزع والهلوع ، فبينما هو ينظر في السماء كيف بنيت ، وفي الأرض كيف ازينت ، وفي الزروع كيف ابتهجت ، اذا به ارفع الى عالم أجل ، وبهاء أكمل ، ومقام أرفع ، فمعاناة الضدين ، ومقاساة الأمرين ، سلام يصعد الانسان عليها الى العلا ، وصفت سكرة الموت المكروهة ليحترس منها ، ويجعل حياته حياة وهو وعمل وعمل ، ليفارقها وهو مسرور ، لا مختبط وهو مجبور . والى هنا تم الكلام على المقام الأول في تفسير البسملة . كتب ليلة الأحد ١٥ نوفمبر سنة ١٩٣١ م

### المقام الثاني في معنى : ق

قد تقدم الكلام في ﴿ آل عمران ﴾ وفي غيرها من السور كالعنكبوت والروم ويس وص وماينها ، ووضح فيها بعض الحكم والنجائب التي تضمنتها هذه الحروف التي في أوائل السور ، ولكن البحث هنا يكون خاصا بالحرف « ق » الذي في أول هذه السورة . واعلم أن هذا يحتاج لمقال يتقدمه فأقول : اعلم أن الله علم قبل أن ينزل القرآن أن أمة الاسلام ستجمع الأجر والأبيض والأسود ، وأنه سيأتي عليها زمان يتناكرون وهم مسلمون ، ويتعدون وهم موحدون ، ويجهلون وهم مؤمنون ، ويدلون وهم متفرون .

علم الله أننا سنكون على هذه الحال فأنزل لنا من أعاجيب القرآن هاتين الهيئتين : الحجرات وق ، هاتان سورتان تضمنتا مابه معرفة الأنفس ، ومابه معرفة الآفاق ، أما مابه معرفة الأنفس ، أى أخلاقها وتهذيبها فهو مامر في ﴿ سورة الحجرات ﴾ وأما مابه معرفة الآفاق فهو علم السموات والأرض والبحث في عجائبهما وبدائعهما ، وحكمهما وغرائبهما ، فيصبح المسلم مهذب النفس ، عارفا بما يحيط به من العوالم . علم الله أن المسلمين ستمر عليهم أجيال وقرون وهم لا يعرفون من القرآن إلا الاحكام الشرعية ، يعيشون ويموتون وهم لا يعقلون إلا هو ، وما هو إلا علم القضاء وبعض العبادات الظاهرة .

علم الله أن العالم بالأحكام الشرعية الذي يقبل المسلمون يده يواظب على شروط الصلاة ، ويواظب على طهارة ثوبه ، ونظافة مكانه ، والاتجاه للقبلة في الصلاة ، وفي الوقت نفسه يطلق لسانه العنان ، ويغتاب الاخوان ، مستحلا ذلك لايبالي .

علم الله أننا نحن الآن سنترك أحكام الأنفس فنجهلها ولا نعرف كيف نطهرها ، ولا كيف نحسن أخلاقها ،

ولا كيف نصلها بالمعارف الحققة ، والعلوم المكتسبة ، التي تحيط بنا في الآفاق من نبات وحيوان ، وهواء وماء ، وكهرباء وبخار ، ومغناطيس ، ونجوم وسما ، وأنوار ، وأنزل سورة ق ناظما تلك المباحث في عقدها لتتخلى بها بعد التخلي من الرذائل .

علم الله أن المسلمين سينامون جاهلين كسلا وغفلة آمادا وآمادا ، ويتبع الآخرون الأولين ، ولا ينظرون الى القرآن إلا نظرة البركة ، لا نظرة الحكمة والموعظة ، ويقولون : قد نظر فيه الأئمة فاستخرجوا لنا علم الفقه ، وهو كل شيء ، وما القرآن إلا بركة ، وإذا ذكر آية في الاستدلال فأنما نتبع من قبلنا ، وما لم يذكر في الفقه من الآيات فلا نأخذ فيها إلا نظرا سطحيًا تارة ، وتبركا تارة أخرى .

علم الله قبل أن ينزل القرآن أننا سنجهل كيف نتعارف ، وأن أبناء العرب الذين تقاربت ديارهم ، واتحدت لغتهم وجنسهم ودينهم يجهل بعضهم بعضا ، فلا يتحدون بلغتهم ولا بدينهم ولا بجنسهم ولا بوطنهم الذي جمعهم وهم متجاورون فيه .

علم الله ذلك ، وعلم أن أم أوروبا تتحد وجهة كل منها ، وأن الولايات المتحدة في أمريكا التي هي أمة جامعة لقوم من شتات الأمم لما علموا وعقلوا اتحدوا وطنا ولغة والتعليم وإن اختلفوا أجناسا وديانات ، فأما أم الاسلام فلا اتحاد بينهم لأنهم لم يتعلموا ولم يدرس أبناء العرب تاريخ أسلافهم ، ولا منشأهم ، ولا أحوالهم الاجتماعية دراسة تشوقهم الى أصلهم القديم فيرجعوا مجدهم كما كان ويتحدوا ، وليس معنى هذا أنهم سيكونون عذابا على الناس . كلا . بل ينظرون الى أم الترك الذين اتحدوا معهم في الدين وفي الجوار ، وهكذا الفرس وأنهم أم شرقية ويتحدون معهم ، وهكذا يتحدون مع جميع الأمم الاسلامية ، ويكونون عوننا مع جميع الأمم ليعيشوا بسلام .

علم الله قبل أن ينزل القرآن أننا سنكون هكذا في هذا الزمان خاملين نائمين ، فلا علوم ولا تهذيب ولا حكمة فنكون متفرقين ، وتدوسنا القرنية ، ونحن أذلاء بين أيديهم ، كل هذا بجهلنا وعلم الأمم ، فعلمهم هو الذي سلطهم ، وجهلنا هو الذي أذلنا ، فانظر ماذا قال الله لتتلافى هذا العيب . قال « لتعارفوا » في سورة الحجرات فالتعارف ان يكون إلا بعلم ، فان لم يكن علم ودرس فلا تعارف . إن التعارف ان يكون إلا بعلم ، فاذا لم تعلم أن زيدا أبوك لم تكرمه ، واذا لم تعلم أن خالدا من أقاربك لم تحافظ عليه ، واذا لم يعلم المسلمون علم تاريخهم ولغتهم ، ومنشأ دولتهم ، وجغرافية بلادهم ، وظلم أوروبا لهم ، وموازنة هذا بما كان عليه آباؤهم .

اذا لم يفعلوا ذلك وغيره كدراسة الأرض التي يسكنونها ، ومعرفة خباياها في مصر واليمن وغيرها ، ويعرفوا معادنها وحاصلاتها وخيراتها وما أشبه ذلك ، اذا لم يعرفوا ذلك فكيف يتعارفون ؟ انهم اذا رأوا ذلا جامعا ، ولغة متحدة ، وأما جاحة لاذلهم ، وأرضا ذات خيرات يطمع العدو في الانتفاع بها ، هناك هناك تكون الحمية ، حمية الاسلام والمحافظة على الأوطان ، ومجاعة الزمان ، وحفظ الاخوان ، واذا لم يعرف العرب أم الترك ، ولا الترك أم العرب ، ولم يدرسوا الثمرة التي تفتح من اتحادهم فكيف يتحدون ؟ واذا لم يدرس هذان الشعبان أحوال الأمم الاسلامية فكيف يتحدون معها ؟ واذا لم يدرس هؤلاء المسلمون جميعا نظام الأمم في الأرض كلها ولم يعرفوا أحوالها فكيف يتحدون معها على رقي الانسانية ؟

كل هذه المعاني داخلية في قوله تعالى : « لتعارفوا » ، بغير هذا لا يكون تعارف ، وبغير هذا لا يكون اتحاد ، وبغير هذا لا يكون سلام في الأرض ، وبغير هذا لا يكون تمام قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » وبغير هذا لا يتم تماما واضحا قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

نحن ، الذين خلفاؤه ﷺ فلنسكن رحمة للعالمين ، ولنقم بالأمر بعد أن نتعلم ونترقي ، فلا تسبقنا أم الممالك

المتحدة في التعليم ، والتهذيب ، والرقى ، ونظام المدارس ، ونظام السجون التي جعلوها للتهذيب لا للتعذيب .  
وأقول أيضا : علم الله أن هذا الداء سيحيط بالمسلمين ويشملهم جميعا ، فأى دواء أعدّه له ؟ الدواء  
« ق » ولعلك تقول : وهل هذه المعاني كلها في « ق » ؟ وهل كلمة « ق » تفيدنا أن المسلمين يقتصرون  
على علم الفقه ويجهلون في الغالب آداب النفوس ، ويشتمت شملهم ، ويسبقهم غيرهم ، وهكذا ثم يصف بها  
الدواء ؟ أقول لك نعم : فاعلم أن ق أول حرف في القرآن المذكور في آخر سورة ق قال تعالى : « فذكر  
بالقرآن من يخاف وعيد » ، كأن الله تعالى يقول : إذا نزلت بكم أيها المسلمون صاعقة التفريق ، وأصبح  
كل منكم كالغريق ، وتخطبتم في دياجير الظلام ، وكنتم عبرة الأمم ، وسلاوة الزمن ، وأنتم فرق متشاكسون ،  
وأفذاذ متفرقون ، ونبتذتم فهم القرآن ، فلا ذكركم بالقرآن ، فارجعوا إليه ولا تسمعوا كلام بعض قدامى الفقهاء  
الذين ادّعوا أن الدين ما عرفوه ، وما سواه فلا حاجة إليه ، كذلك لا تصفوا لقول العباد ، ولا لقول الصوفية ، ولا  
لأقوال الأغنياء ، فإن كلا منهم يعيب الآخرين ظنا منه أنه هو المخصوص بالكرامة ، وما عداه فهو في جهالة ،  
لا تسمعوا هؤلاء جميعا ، وادرسوا القرآن ، فقد جرت بتم صغار الصوفية ، وجرت بتم صغار الفقهاء ، وجرت بتم الأغنياء  
(١) وجرت بتم العباد [ بتشد يد الباء ] والصالحين ، فقد استبد كل فريق بناحيته ، واستقل بأمره ، وجعل  
ماعد سواه ، فتفرقت الأمم الإسلامية شذرمذر ، وأحاطت بهم الأمم من كل جانب ، وأذاقوهم عذاب الحزى  
في الحياة الدنيا « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » ، والوعيد قسمان : قسم يختص بهلاك الأمم في الحياة  
الدنيا ، وقسم يختص بعذاب يوم القيامة وكلاهما في القرآن فلنقرؤه وعلى مقتضاه تدرسون جميع الكائنات  
هذه المعاني كلها مخبوءة في كلمة « ق » التي جاءت بين السورتين المختومتين بقوله « فذكر بالقرآن من  
يخاف وعيد » المشتملتين على ما يصفى النفوس وعلى معرفة الآفاق ، وهذان الصنفان من العلوم داخلان تحت  
قوله تعالى « لتعارفوا » كما أوضحناه

الأنجب معي بعد هذا أن يقول بعض علماء التفسير : ان [ ق ] اسم من أسماء القرآن ، وهذا هو المعنى  
الذي أوضحناه لك الآن . انتهى تفسير كلمة « ق » والحمد لله رب العالمين .

## المقام الثالث في تفسير الآيات

### بسم الله الرحمن الرحيم

(ق ١ والقرآن المجيد) أى الشريف الكريم على الله ، الكثير الخير والبركة ، وجواب القسم لتبعثن  
(بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم) انكار لتعجبهم مما ليس بعجب وهو أن ينذرهم بالخوف رجل منهم قد عرفوا  
عدالته وأمانته ، ومثله لا يكون إلا ناصحا لقومه ، خائفا عليهم من وقوع مكروه ، ومتى أظلمهم مكروه وعلمه لزمه  
أن ينذرهم (فقال الكافرون هذا شيء عجب) حكاية لتعجبهم ! يتعجبون من اصطفاء محمد صلى الله عليه  
وسلم للرسالة (أئذا متنا وكنا ترابا) أى أنرجع إذا متنا وصرنا ترابا (ذلك رجع بعيد) أى بعيد عن الوهم  
والعادة والامكان ، قال تعالى (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) أى ماتا كل من أجسادهم بعد موتهم ،  
انهم لما استبعدوا البعث ردّ الله عليهم بأن من لطف علمه حتى علم ما تنقص الأرض من أجساد الموتى وتأكله  
من لحومهم وعظامهم كان قادرا على رجوعهم أحياء كما كانوا (وعندنا كتاب حفيظ) محفوظ من الشياطين ،  
ومن التغير ، وهو اللوح المحفوظ ، وهو حافظ لما كتب فيه ، ثم انهم جاءوا بما هو أفضح مما قبله ، فاستحق  
الاضراب عنه ، فلذلك قال (بل كذبوا بالحق) أى النبوة الثابتة بالمعجزات من أول وهلة بغير تفكير (لما

(١) هذه أقسام المفرورين المذكورة في سورة [ آل عمران ] عند آية : « وغرّهم في دينهم ما كانوا

يفترون » ملخصا من الإحياء للغزالي اه المؤلف

جاءهم فهم في أمر مريب) مضطرب ، يقال مرّج الخاتم في الأصبع إذا اضطرب من سعته ، فيقولون تارة شاعر ومرة كاهن ، ومرة ساحر ، لا يثبتون على رأى (أفلم ينظروا) حين كفروا بالله وبالبعث (إلى السماء فوقهم) إلى آثار قدرة الله تعالى في خلق العالم (كيف بيناها) رفعناها بلا عمد (وزيناها) بالكواكب (وماها من فروج) فتوق بأن خلقناها ملساء ، متلاصقة الطباق ، وهذا هو الرأى الحديث في عالم السموات ، بل الرأى الحديث مجزة للقرآن ، وبيانه أن العلماء في عصرنا الحاضر يقولون : إن هنا عالما لطيفا أرق من الهواء ، وألطف من كل ما نراه ، هو مبدأ كل شيء ، وأول كل شيء ، هو العالم المسمى بالآثير ، وهذا العالم لم يره الناس وإنما عرفوه من وصول أضواء الكواكب إلينا ، فإن من الكواكب ما لا يصل ضوءه إلينا إلا فيما يزيد على ألف ألف سنة نورية ، ومعلوم أن نور الشمس [ التي تبعد عنا مقدار سيرا قطار إليها لو أمكن نحو ثمانمائة وخمس وستين سنة ] يصل إلينا في مدة ثمان دقائق و ١٨ ثانية ، فانظر كيف يكون بعد تلك الكواكب التي تحتاج بسيرا النور إلى مليون سنة ونصف مليون سنة ، وانظر كيف يدل هذا على أن ذلك الضوء يحول على شيء موجود ، والشيء الموجود هو الآثير ، فلأن طبقة من الطبقات لم يكن فيها الآثير لا تقطع سيرا النور إلى الأرض ولم نره . هذا هو السر في قوله تعالى : « وماها من فروج » فلو كان هناك فروج تتخلل السموات لا تقطع سيرا النور إلينا ، ومعلوم أن آراء الجهلة في كل أمة أن كل سماء منفصلة عن الأخرى ، وبينهما فضاء ، كما يظن لأول وهلة فيما بيننا وبين السماء الدنيا ، فجاء القرآن على عكس ذلك تماما وقال لا فروج في السماء ، وبعبارة أخرى لا خلا في العالم .

### رأى القدماء

هكذا كان رأى بعض القدماء في « اخوان الصفاء » إذ قالوا : « إن النور والظلمة إما أن يكونا جوهرين أو عرضين ، فإن كانا جوهرين فليس في العالم خلا لأنه لا يخلو من نور وظلمة ، وإن كانا عرضين فالعرض لا بد له من جوهر يقوم به ، وإن كان أحدهما عرضا والآخر جوهرًا فهو معلوم من سابقه ، فاذن العالم لا خلا فيه كما ذكرناه في (سورة البقرة) فانظر كيف كان نظرا الحكماء قديما وحديثا هو عين ما جاء في هذه الآية « وماها من فروج » (والأرض مددناها) بسطناها (وألقينا فيها رواسي) جبالاتها (وأنبتنا فيها من كل زوج) من كل صنف (بهيج) حسن (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) راجع إلى ربه ، متفكر في عجائب صنعه ، يقول الله : بنينا السماء وزيناها ، ومددنا الأرض ، وألقينا فيها رواسي ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، كل ذلك فعلناه لأجل تبصرة العبد المنيب وذكره ، وهذا من حيث المعنى وإن كانا في الاعراب منتصبين بالفعل الأخير ، فإن رفعت السماء فلذلك كراه ، وإن زيتها بالكواكب والنور فليتبر بما يراه ، وإن بسطت الأرض وأرستها بالجبال فكذلك ، وإن أنبت النبات زينة للأرض ، فليعتبر ويدكر بما يراه (ونزلنا من السماء ماء مباركا) كثير المنافع (فأنبتنا به جنات) أشجارا وثمارا (وحب الحصيد) وحب الزرع الذي من شأنه أن يحصد كالخطة والشعير والأرز والعدس وغيرها (والنخل باسقات) طوالا أو حوامل ، يقال : أبسقت الشاة إذا حملت (لها طلع نعيد) الطلع كل ما يطلع من ثمر النخل ، والنضيد المنضود بعضه على بعض لكثرة الطلع وتراكبه ، أو لكثرة ما فيه من الثمر (رزقا للعباد) أي أنبتنا رزقا للعباد كما جعلناها تبصرة وذكرى للنيب منهم ، فالتبصرة للمفكرين والرزق لجميع الأحياء من آدميين ، فهي ما كل الآكلين من نوع الإنسان « كلا نعمه هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا » فنحن نطعم عبادنا ونرزقهم ولكننا لا نجعل هذه البساتين والأشجار والثمار درسا معروفا ، وعلمًا مقروءا ، إلا للمنازين من نوع الإنسان ، فالخواص للنبات دارسون ، والعامة والخاصة منها آكلون ، ولما كانت دراسة النباتات



والاستفادة من علومهما لم يظهر له . مثال أعقبه بذكر مثال يبين كيف يدرس فقال ( وأحيينا به ) بذلك الماء ( بلدة ميتة ) أرضا جديبة لانعدام فيها ( كذلك الخروج ) أى كما حيت هذه البلدة يكون خروجكم أحياء بعد موتكم ، فالناس يتغذون وينمون ، ويتزوجون ويلدون ، ويحيون ويموتون ، وهذه الأحوال كلها فى النبات فهو له حياة وغذاء ونمو وتوالد وفوت ، ثم تيبس الأرض ، ثم تحيا بالنبات ، فليقس عليه حال الانسان فانه بعد موته يحيا ، وهذا برهان اقناعى ، ونظيره فى كلام سقراط ، يقول : « ان الانسان يحيا بعد الموت لأن كل ضد يتولد عنه ضده ، فالصحة بعد المرض ، والعز بعد الفل ، وهكذا مما لانهاية له ، فلتكن الحياة من الموت » فانظر كيف أتى الله بهذا القياس التمثيلى الذى يجعل للنفس انتاسا بالموضوع وفهما فيه من النبات ليفتح للعقول مجال التبصرة بمئات من المسائل العلمية ، فتفكر فيما قدمته فى ( سورة الشعراء ) وغيرها من أنواع النبات الكثيرة انى تفرعت كلها من أصل واحد ، وكان تنوعها كلها ظاهرا فى زهراتها ، فلزهرة تنوعت أنواعا كثيرة لكل صنف من النبات شكل فى الزهرة خاص ، فاذا قرأت ذلك دخلت فى بحر لا ساحل له من العلم والحكمة ، وعرفت سر البدائع الالهية ، وهناك ثم هناك تفهم قوله تعالى « تبصرة وذكري لكل عبد منيب » وهكذا مواضع أخرى من هذا التفسير ، ثم قال تعالى ( كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون ) أى فرعون وقومه ( وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل ) كل واحد أو قوم منهم الخ ( فخلق وعيد ) فوجب وحل عليه وعيدى فلتفسد يا محمد واستعدوا لنزول العذاب بأهل مكة ، وانظر أيها الذكى كيف كان ترتيب سور القرآن ، ان قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون قد تقدموا فى السور السابقة ، فانظر كيف ذكرنا فى هذه السور بطريق اجالى ، فهناك ذكرت القصص والتاريخ وهنا ليكون الاعتبار .

يقول الله : ها أنتم أولاء قرأتم قصص السابقين ، وأخبار الأولين فى السور المتقدمة ، فلا تذكركم بأحوالهم فقد كذبوا فهلكوا .

يقول الله : أذكركم بالسما والارض والجبال والماء والنبات ، أذكركم بهذا كله ، وأذكركم بالأمر الخالية والأجيال البائدة ، كيف هلكوا وهم مكذبون ، وكيف نصرنا الأنبياء ، فليكن هكذا محمد وكل مصلح من أمته ، فهم منصورون وبضد هاتمير الاشياء .

يقول مؤلف هذا التفسير : إن ظنى بالله جليل أن يجعل هذا التفسير نافعا للأمة الاسلامية ، وأن يكون مساعدا على الانقلاب الفكرى فى العالم الاسلامى حتى يصبح المسلمون أمة حكمة وعلم ، وينصرون الله من ينصره إن الله لقوى عزيز .

[ تذكرة ] هذه الجلة كتبناها حين تأليف الكتاب ، وهو الآن يطبع الطبعة الأولى ، ولقد صدق ظنى وأجبت جميع مطالبى وانى أجد الله فقد تقدم فى المجلد السابق فى سورة الفتح أن الفكرة قد عمت مسلمى بلاد الصين والتركستان الصينية فضلا عن سائر بلاد الاسلام .

ثم قال تعالى ( أفعيينا بالخلق الأول ) أى أفجزنا عن الابداء حتى نجز عن الاعادة ، يقال عبي بالامر اذا لم يهتد لوجه عمله ، والهمزة للإنكار ( بل هم فى لبس من خلق جديد ) يقول تعالى : هم لا ينكرون قدرتنا على الخلق الأول ، بل هم فى خلط وشبهة ، قد لبس عليهم الشيطان وحيرهم ، وذلك تسويله لايهم أن إحياء الموتى أمر خارج عن العادة . انتهى المبحث الأول من السورة .

### المبحث الثانى

فى الكلام على الموت وسكرته ، وعلى الملائكة المراقبين حركات الانسان وسكناته ، وفى أحوال يوم القيامة قال الله تعالى ( واقعد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ) ما تحدث به نفسه ، وهو ما يخطر بالبال ،

والوسوسة الصوت الخفى ، ومنه وسواس الخلى (ونحن أقرب إليه من جبل الوريد) أى ونحن أعلم بحاله ممن كان أقرب إليه من جبل الوريد ، فهذا مثل فى فرط القرب ، والوريد عرق فى باطن العنق ، والجبل العرق أى جبل هو الوريد ، فأجزاء الانسان وأعضاه يحجب بعضها بعضا ، ولا يحجب عن علم الله شيء ، فهو بيان اكمال علم الله تعالى بالانسان ، أو يقال بالاختصار نحن أعلم به منه فيكون تجاوزا بقرب الذات لقرب العلم ، وقوله (إذ يتلقى المتلقيان) ظرف لقوله أقرب إليه ، يقول الله : نحن أعلم بحاله من كل قريب حين يتلقى ، أو يتلقن الحفيظان ما يلائم به مع أننا أغنياء عن استحفاظ المكين لشدة قربنا منه ، لكن هكذا كان نظامنا لالزام الحجة ، وقوله (عن اليمين وعن الشمال قعيد) أى عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد ، أى مقاعد كجائس ، وقد حذف الأول لدلالة الثانى عليه كقوله :

ومن يك أسمى بالمدينة رحله \* فالى وقياربها لغريب  
وكقول الآخر

رمانى بأمر كنت منه والذى \* بريثا ومن أجل الطوى رمانى

أى كنت منه بريثا وكان والذى منه بريثا ، وقد يطلق الفعيل للواحد والمتعدد كقوله تعالى « والملائكة بعد ذلك ظهير » (ما يلفظ من قول) ما يرمى به من فيه (إلا لديه رقيب) ملك يرقب أعماله (عبيد) حاضر معه فيكتب ما فيه ثواب أو عقاب ، وكل شيء حتى أنينه فى مرضه ، وفى الحديث : « كاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرا ، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر » .

واعلم أن هذا الحديث هو الموافق لنظام هذا العالم ، ألا ترى رعاك الله أن الله لم يخلق الناس لتعذيبهم ، وإنما خلقهم لتهديهم وتربيتهم ، وليس معنى التربية أن تكون كلها تعديبا ، فكل ألم فهو لرقى النفس ، فإذا كان كاتب الحسنات أميرا على كاتب السيئات ، فلا أن العالم المادى الموجود من طبعه أن يكون نفعه أكثر من ضرره ، وعلى هذا التاموس يكون خلقنا لغاية شريفة نافعة لنا ، والحسنات أصل والسيئات عارضة كما أن المنافع فى الطبيعة أصل والمضار عارضة ، النار خلقت لمنفعة ، والماء لمنفعة ، والهواء لمنفعة ، فإذا أحرق ثوب الناسك ، وأغرق رب صبية لأعائل لهم ، وأصاب البرد عالما فأنهى بموته ، فهذا كله عارض ، والأصل فى هذه كلها المنافع ، هكذا نوع الانسان خلق للخير ولكن الشر عارض ، والحسنات لكن السيئات عارضة ، فتقول النبوة من منع النظام الأصلى العام ، ثم إن الله لما ذكر استبعادهم البعث للجزاء ، وأراح ذلك بتحقيق قدره وعلمه أعلمهم بأنهم يلاقون ذلك قريبا عند الموت وعند قيام الساعة ، ولذلك عبر بالماضى تنبيها على اقتراب ذلك فقال (وجاءت سكرة الموت بالحق) أى شدته الذاهبة بالعقل ملتبسة بالحق : أى بحقيقة الأمر وبالْحكمة (ذلك) الموت أيها الانسان (ما كنت منه تحيد) وتهرب (وتفخ فى الصور) نفخة البعث (ذلك يوم الوعيد) أى ذلك اليوم الذى وعد الله الكفار أن يعذبهم فيه (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) كاتب السيئات سائق ، وكاتب الحسنات شهيد ، ويقال له (تذكرت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك) أى الغطاء الحاجب لأموال المعاد كالغفلة والانهماك فى المحسوسات ، والالاف بها ، وقصور النظر عليها (فبصرك اليوم حديد) نافذ لزوال المانع للابصار ، فكأن الغفلة غطاء غطى بها جسدك ، وأغشاوة غطى بها عيناه فلا يبصر شيئا ، فإذا كان يوم القيامة تيقظ وزالت عنه الغفلة وغشاؤها فيبصر ما لم يبصره من الحق ، ويكون مبدأ ذلك عقب الموت (وقال قرينه) وقال الملك الموكل به (هذا مالى عبيد) أى معد محضر : أى يقول الملك : هذا الذى وكلتني به من نبي آدم قد أحضرته وأحضرت ديوان عمله ، فلما قال قرينه ذلك ، قال الله للسائق والشهيد (ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد) معابد للحق (مناع للخير) كثر المنع للمال عن حقهم

المفروضة ، وللإسلام أن يذاع وينشر كالوليد بن الغيرة لما منع بنى أخيه عنه (عند) مدد (مريب) شك  
 في الله وفي دينه (الذى جعل مع الله إلهها آخر) بدل من ككل كفار، وقوله (فألقياه) تكرر للتأكيد  
 (في العذاب الشديد) فقال الكافر: يارب ان قربنى من الشياطين أطعاني (قال قرينه) أى الشيطان المقيض  
 له (ربنا ما أطعته ولكن كان فى ضلال بعيد) عن الحق لأنه هكذا استعداده ، وهكذا كان ديدنه وطبعه  
 فسار على النهج الذى يناسب أخلاقه : أى فى ضلال بعيد طويل لا يرجع عنه الى الحق ، وهذا كقوله تعالى :  
 « وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى » (قال) الله تعالى (لا تخضعوا لى) فى  
 موقف الحساب إذ لا فائدة فيه (وقد قدمت اليكم بالوعيد ) وقد أوعدتكم بعذابي على الطغيان فى كتيبى وعلى  
 أسنة رسلى فما تركت لكم حجة ، وقدمت بمعنى تقدمت فعصى بالباء (ما يبدل القول لى) أى بوقوع  
 الخلف فيه فلا تطمعوا أن أبدل قولى ووعيدى بادخال الكفار النار (وما أأنا بظلام للعبيد) فلا أعذب عبدا  
 بغير ذنب جناه ، وظلام إما بمعنى ذى ظلم ، وإما للبالغة ، يقول الله : واذكر (يوم نقول لجهنم هل امتلأت  
 وتقول هل من مزيد) مزيد مصدر كالجيد أى هل من زيادة ، وهذا السؤال والجواب جىء بهما للتخييل  
 والتصوير ، والمعنى أنها مع شدة زفيرها وحتتها لا تزال فى شغف بدخول العصاة فيها ، فهى كالنهم الذى لا يشبع ،  
 فكما أن الجنة لا نهاية لها ، هكذا النار لا نهاية لها ، ويقول ابن عباس رضى الله عنهما : سبقت كلمته  
 لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ، فلما سبق أعداء الله إليها صارت لا يلقى فيها فوج إلا ذهب فيها ولا يملأها شيء  
 فنقول : ألسنت قد أقسمت ثلثتى ؟ فيضع قدمه عليها فيقول هل امتلأت ؟ فتقول قط قط قد امتلأت وأيس  
 من مزيد . وزوى البخارى ومسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تزال  
 جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العرش [وفى رواية] رب العزة فيها قدمه فيزوى بعضها  
 الى بعض وتقول قط قط بعزتك ولا يزال فى الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقا فيسكنهم فضول الجنة .  
 ولأبى هريرة نحوه ، وزاد : « ولا يظلم الله من خلقه أحدا » .

واعلم أن هذا القول يرجع الى النظام العام ، وهو أن الله تعالى خلق العالم للخير لا للشر ، وأن الشر  
 عرض والخير أصل ، فإذا سمعت أن الرب أسكت النار وقالت قط قط ، وأنه خلق للجنة قوما يسكنون فى  
 فضولها فذلك هو الذى يفهم من أعماله فى هذه الحياة ، فإن الحياة طائفة بالخير فى هذا العالم مع نقصه ،  
 فتراه لا يدع حالا من الأحوال إلا أدخل فيها الحياة ، فالنبات يعيش فى الشمس ، وخلق للظل نباتا يعيش  
 فيه ، ولم يذر البحر ولا البر من حيوان ولا نبات ، فلا ملوحة البحر ، ولا برودة الثلج ، ولا حرارة القيظ ،  
 ولا غور البحر بمناغات من الحياة ، ومعنى هذا أن الرحمة فائضة ، وهذا دلالة على أن جنته التى هى الرحمة  
 الكبرى أوسع من جهنم التى هى دار العذاب ، ومثل هذه الأحاديث لا يدرك سرها ولا المقصد منها إلا  
 بدراسة علوم الحكمة ، وفهم نظام العالم ، وحكمه المدهشة ، واذ ذاك يدرك الناس ماذا يقصد النبى صلى الله  
 عليه وسلم بمثل هذه الأحاديث ، فأما تفسير الألفاظ فهو سهل متى عرفنا أن هذا تمثيل وهو ظاهر فى علم المعانى  
 ولا حاجة الى التطويل (وأزلقت الجنة) قربت وأدنت (للمتقين) الذين اتقوا الشرك حال كونها شيئا (غير  
 بعيد) ويقال لهم (هذا ما توعدون) هذا الذى وعدتم به فى الدنيا على أسنة الأنبياء ، وقوله (لكل أواب)  
 رجاع عن المعصية الى الطاعة بدل من المتقين باعادة الجار ، وقوله (حفيظ) أى حافظ لحدوده (من خشى  
 الرحمن بالغيب) أى خاف الرحمن فأطاعه وان لم يره ، وفى الخلوة بحيث لا يراه أحد (وجاء بقلب منيب)  
 مخلص مقبل على طاعة الله يقال لهم (ادخلوها بسلام) سالمين من العذاب وزوال النعم ، أو مسلما عليكم من  
 الله والملائكة (ذلك يوم الخلود) فى الجنة إذ لا موت فيها ، والخلود هنا مقدر كقوله تعالى « ادخلوها خالدين »

ثم ان الناس يسألون الله ما يشتهون في الجنة فيعطون ما يسألون ، ثم يزيد الله عباده فوق ما سألوا ، وذلك قوله تعالى ( لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ) مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ومن أجلها النظر الى وجه الله الكريم ، إذ يتجلى لهم الرب في كل جمعة في دار كرامته ، فهذا من المزيد . (وكم أهلكنا قباهم) قبل قومك (من قرن هم أشد منهم بطشا) قوة كهاد وثمود وقوم تبع (فنبهوا في البلاد) التنقيب والتنقيب عن الأمر والبحث والطلب ، فهم ساروا وتقلبوا في البلاد ، وسلكوا كل طريق ، وتصرفوا فيها ، وجالوا في الأرض كل مجال حذر الموت (هل من محيص) أي هل لهم محيص من الله : أي فلم يجدوا لهم مهربا من أمر الله ، ولا مفرًا من الموت الذي يعقبه عذاب الله ، فهكذا أهل مكة ، لأن ما جاز على أحد المثليين جاز على الآخر ، فهم أيضا تصرفوا وتقلبوا في البلاد ، فلامهرب لهم من عذاب الله إما بانزال العذاب عليهم كهاد وثمود ، وإما أن يموتوا فيدخلوا النار .

ولما كان ما تقدم في هذه السورة وما قبلها من أبداع الحكم والعلوم ، وهما مع اختصارهما قد جعلا تفصيلا آداب الأمم مع النبي ﷺ ومع أنفسهم ، وكيف يكون السلام بين الناس ، وكيف يكون الصلح ، وكيف يسان اللسان ، وكيف يتعارفون ويتعاملون وينظرون في خلق السموات والأرض ، وفي العجائب المدهشة ، بحيث ان هاتين السورتين اللتين فصل بينهما بلفظ [ ق ] الذي شرحناه لك قريبا يكفيان لرقى الأمة الاسلامية واسعاها متى رجعوا إليهما ، فيذهب التقاطع ، ويتعلم الجهال ، ويجمع الشمل ، وينتظم الجمع ، ويحجم الأمن في ربوع الأمم الاسلامية ، لذلك قال الله تعالى (إن في ذلك) الذي تقدم في السورتين لأن الأولى للتخلية والثانية للتجلية (لذكرى) لذكرى (لمن كان له قلب) أي قلب واع يتفكر في حقائق الأشياء المذكورة فيه (أولئك السمع) أي أصفى لاستماعه (وهو شهيد) حاضر بذنه ليفهم معانيه ، ليس بساه ولا غافل ، وفي تكبير القلب اشعار بأن كل قلب لا يتفكر ولا يتدبر كالأقارب ، ثم أعقبه بما يجول فيه القلب ويتفكر فقال (ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب) إعياء ونهب فنحن قد ملأناهما بالعجائب ولا نزال نزيدها كل حين لأننا لا يباحقنا التعب والإعياء ، فافقروا عجبنا التي لانهاية لمدائها ، ولتتجه قلوبكم اليها ولتلقوا فيما تسمعون من القول السمع وأنتم حاضروا الذهن فحجائبنا لاتنتهي ، واتكذبوا اليهود الذين قالوا [ ان الله خلق السموات والأرض في ستة أيام أولها الأحد وآخرها الجمعة ، واستراح يوم السبت ، واستلقى على العرش ، فنحن لا يمسننا لغوب ، وعجائبنا لاتقف عند حد ] (فاصبر على ما يقولون) على ما يقوله المشركون من انكارهم البعث فإني خلقت العالم بلا إعياء ، فاذن أنا أقدر على بعثهم مما أنتقم منهم (وسبح بحمدي ربك) ونزهه عن العجز عن أي يمكن كان كالبعث حامدا له على ما أنعم عليك من اصابة الحق وغيرها من النعم الكثيرة التي لاتنتهي (قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) أي وقت الفجر ووقت الظهر والعصر (ومن الليل فسبحه) أي وسبحه بعض الليل (وأدبار السجود) وأعقاب الصلاة ، ومعنى هذا أن يقول « سبحان الله والحمد لله » في أحوال أربعة : وقت الفجر ، ووقت الظهر والعصر ، أو العصر فقط ، وفي الليل ، وعقب الصلوات ، فيكون التسبيح على ظاهره ، وقيل : إن التسبيح نفس الصلاة ، فيكون صلاة الفجر ، وصلاة الظهر والعصر ، وصلاة المغرب والعشاء ، أو التهجد ، والرابع النوافل بعد الصلوات ، وانما سميت هذه الصلوات تسبيحا تسمية بالجزء منها ، وهو ما في الركوع والسجود من التسبيح ، فالتسبيح على الأول خارج الصلاة ، والتسبيح في الثاني صلاة وتسبيح داخل فيها ، ولا جرم أن الحمد مذكور في الفاتحة والتسبيح في الركوع والسجود ، ومعنى « أدبار السجود » وقت انقضاء السجود كقولهم [ آتاك خفوق النجم ] وفي حديث البخاري عن ابن عباس قال : أمر رسول الله ﷺ أن يسبح في أدبار الصلوات كلها يعني قوله « وأدبار



السجود» . وفي حديث مسلم : تحديد التسبيح ٣٣ والحمد ٣٣ والتكبير ٣٣ وتنام المائة لإله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ، وذلك كله دبر كل صلاة .  
وعلى هذا يكون التسبيح أعم منه ومن الصلاة ، فالآية تشمل القسمين ، فليصل المؤمن الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء ، وليصل النوافل التي هي وقت أدبار السجود ، وليصل بالليل ، وليسبح بعد الصلوات كل ذلك داخل في الآية ، فكأنه تسبيح بالحمد ، وبهذا جمع بين الأقوال كلها (واستمع) يا محمد لما أخبرك به من أهوال يوم القيامة ، وفي ذلك تهويل وتعظيم لشأن المخبر به ، وما هو ذلك الخبر ؟ أنهم يخرجون من القبور (يوم ينادى المناد) وهو اسرافيل ، أوجبرائيل ، فيقول : أيتها العظام البالية ، والأوصال المنقطعة ، واللحوم المتمزقة ، والشعور المتفرقة ، إن الله أمركن أن تجتمعن لفصل القضاء . يقول الله : يوم ينادى المناد (من مكان قريب) بحيث يصل نداؤه إلى الكل على السواء ، ونظيره في الدنيا أن الرزق والحياة والنور والنوم واليقظة ، كل هذه تأتي إلى أهل الأرض جميعا كأن مناديا يناديهم من قرب ، ويأمرهم باليوم والحياة والاستيقاظ بالأكل والشبع وما أشبه ذلك ، فهكذا يوم القيامة ، لأن الله مع كل نسمة خلقها ، فنداؤه قريب في الدنيا وفي الآخرة ، وقوله (يوم يسمعون الصيحة) أي النفخة الثانية ، وهذا بدل من يوم ينادى المناد ، وقوله (بالحق) متعلق بالصيحة ، والمراد به البعث والجزاء (ذلك يوم الخروج) من القبور . قال الله تعالى تلخيصا لما تقدم كله من أول السورة إلى هذه الآية (إنا نحن نحيي ونميت) أي نحيي في الدنيا ونميت عند انقضاء الأجل (وإلينا المصير) في الآخرة (يوم تشقى الأرض عنهم سراعا) أي يوم تتصدع عنهم فتخرج الموتى من صدوعها حال كونهم مسرعين (ذلك حشر علينا يسير) هين ، وقوله يوم متعلق بقوله يسير وقدم للاختصاص (نحن أعلم بما يقولون) فيك وفينا ، وهذا تهديد لهم (وما أنت عليهم بجبار) بمسيطر أي ما أنت بمسلط عليهم ، إنما أنت داع وبعث ، أو ما أنت بوال عليهم تجبرهم على الإيمان (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) كقوله « إنما أنت منذر من يخشاها » إذ لا ينفع التكبير إلا فيه . انتهى التفسير اللفظي

### في هذه السورة ثلاث لطائف

الأولى في عجائب السموات ، وهو قوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم » .  
الثانية في عجائب الأرض في قوله تعالى « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » .  
الثالثة في قوله تعالى : « إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » .

### اللطيفة الأولى : عجائب السموات

لقد أطنبت في هذا التفسير في السموات وعجائبها وغرائبها وحكمها وبدائعها ونظمها في البقرة وفي آل عمران ، وفي الأنعام ، وفي سور كثيرة فلترجع إليها .

### اللطيفة الثانية في عجائب الأرض والنبات

لقد جاء في سورة الأنعام والشعراء وغيرها بدائع النبات ورسم الزهرة ، وكيف كانت أنواع النبات التي تعد بالآلاف قد ظهر تنوعها في الزهرة وتقسيمها ناجم منها ، وكذلك في كثير من السور ولكن لا بد من أن آخذ بيدك الساعة ، وأطوف معك في الحقائق والجنان ، ذلك لأن السور السالفة قريبا لم نذكر فيها من الكلام

على الجباب النباتية ، فلتقم معي ، ولتطف حدائق الأرض ، ولتتظرفأفانين الزهر ، وأعاجيب الثمر ، وأصناف  
الشجر ، والطرف الشائقة ، والنعم الواردة من المقام الأقدس ، والهدايا والتحف والمزايا ، ولست أقف بك مع  
طائفة الجامدين الذين لا يقصدون إلا لذات الجسم التي لها حد محدود ، ومقدار موقوف ، بل أريد أن نكون  
من الذين قال الله فيهم : « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » وأن ترتقي عن الطوائف التي قال فيها :  
« رزقا للعباد » ، فلتكن تلك رزقك ، وليكن علمها نورا لقلبك ، لجسمك ينفعني بأثمارها ، وروحك  
تحتل بحكمها ، إن الأشجار والمزارع كتاب كتبه الله بيده ، خطه في الأرض ورسمه وهندسه وزوقه ،  
ورفع الأسرار عن بعض القلوب ، وقال : يا عبادي انظروا جلال الذي احتجب عنكم فهذه آثاره ، وعلى مقدار  
علمكم به يكون نظركم لوجهي يوم القيامة ، ألم أفل : « نورهم يسمي بين أيديهم وبأييمانهم بشراكم اليوم »  
ولأنور إلا ما اكتسبه الفكر ، واقتبس النظر من العوالم المشاهدة المسطرة ، والمصورة المنمقة المشروحة ،  
الشارحة للصدور .

إن الدراسة تكون لأربعة أشياء : للكتب السماوية ، وللناظر الطبيعية ، وللكتب الحكمية ، التي  
اقتصنها من العوالم العقول البشرية ، وللنفوس الانسانية .

هذه هي الصحائف الأربعة التي يدرسها الانسان ، في كتاب الطبيعة كتابي ، وكتاب نفوسكم كتابي ،  
وكتاب الدين كتابي ، وكتاب الفلسفة والحكمة اشراق من نوري على عبادي فهو كتابي ، وما كتب الفلاسفة  
ولا كتب الوحي والديانات إلا مرشدات لبحثكم العلمي في العالم السماوي والأرضي ، وعمهديات لكتاب النفس  
وكتاب الأفق ، وكل ما قرأتموه في الطبيعة فانه مخزون في صحائف قلوبكم ويكون نورا مبينا .

إن من نظر في الجباب النباتية ، وفكر في الغرائب الحكمية ازدادت بصيرته هدى ، وعقله حكمة ،  
وازداد أجنحة يطير بها إلى العلا ، إن للملائكة أجنحة مشي وثلاث ورابع يزيد في الخلق ما يشاء ، تلك  
أجنحة القدرة والعلم ، والعلم هو الأصل ، فليزدد الناس فكرا في النبات وغيره تزدد عقولهم عددا كما ازداد  
الملائكة مددا ، إن النظر في النبات ازدياد أجنحة للطيران الى عالم الأفلاك فوق السماك .

### حديقة فيها ٢١ نوعا من الشجر ، وأفانين العبر ، مختلفة الثمر

النخل ، والرمان ، والنبق ، والجوز ، واللوز ، والتين ، والعنب ، والاجاص ، والشمش ،  
والخوخ ، والأترج ، والنارنج ، والليمون ، والحبة الخضراء ، والفسق ، والسمان ، والصنوبر  
والبلوط ، والعفص ، والسرو ، والاهليلج

(١) — الثمر الذي هو ثمر النخل

طويل الشكل ، مدحرج الخلقة ، مختلف الألوان ، على نواه قشرة رقيقة ، حورية ، لينة اللس ، صلبة  
النسج ، وعلى هذه النواة شحمة ثخينة ، عليها قشرة صلبة ملساء ، وعلى ظهر النواة نقرة ، وفي الجانب المقابل  
نقرة مستطيلة فيها حشوليفي ، وعلى رأس النمرة من خارج قمة ، عليها شظيات متفرقة متشبثة بالنمرة ، ومادة  
هذه النمرة قبل النضج عفصة ، وبعد النضج حلوة لزجة ، فهذه خمسة عشر وصفا للنمرة .

(٢) — شجرة الرمان وثمرها

ثمر الرمان : شكله مستدير ، وخلقته كبيرة ، عليه قشرة كثيفة ليفية ثخينة ، مخوفة من داخل ، واسعة ،  
فيها خزانين مقسومة ، فيها دعاص مقسمة ، عليها حبوب مرصعة ، أشكالها مخروطية ، في جوف تلك الحبوب نواة  
خرفية ، رخوة ، في داخلها لبة دسمة ، وفي خارج رأس النمرة من خارج فتحة مستديرة ، فيها غشاوة ليفية ،

وعليها شظيات ناتئة زبيرية ، وحولها شرفات قائمة مخروطة .

(٣) — النبق وثمره

ثمر النبق : مستدير ، أملس ، شحمته نخبية ، في جوفه نواة مستديرة ، حسن اللون ، خشن الملمس ، في داخل النواة لبة دسمة .

(٤) — الجوز

ثمر الجوز : أشكاله مستديرة ، سبطية ، عليها قشرة ليفية نخبية ، في داخلها قشرة أخرى خزفية صلبة ، مجوفة ، فيها خزان مقسومة ، فيها لبة دسمة ، عليها قشرة رقيقة ، وبينها حجب ، منخرقة أقسامها ، مهندمة وإذا فصلت هذه الثمرة انفصلت بنصفين كالسفطين .

(٥) — اللوز

ثمر اللوز : شكله مخروط ، سبطى عليه قشرة ليفية ، في داخلها قشرة خزفية صلبة ، فيها ثقب نافذة ، فيها فتائل ليفية ، في داخل هذه القشرة لبة دسمة ، عليها قشرة رقيقة صلبة .

(٦) — التين

ثمره ليس له نوى ، عليه قشرة لحمية ، وشكله مخروط صنوبرى ، وفي أسفله ثقبه مستديرة ، فيها شظيات زبيرية ، وفي جوف هذه الثمرة حبوب صفار رخوة ، وطعم مادته قبل النضج لبن أبيض غليظ حاد محرق ، وبعد النضج طعمه حلو .

(٧) — العنب

ثمره مختلف الأشكال : مستدير ومستطيل ومدحرج ومخروط ، ومختلف الألوان : أسود وأبيض وأحمر وأصفر وأخضر ، عليها قشور رقيقة صلبة ملساء ملتزقة بشحمتها ، وفي جوف شحمتها حبوب مختلفة الأشكال ، زيتونية ، قفاعية ، مفردة ومزدوجة ، وثلاثة وأربعة ، خزفية وعظامية ، ومنها صلبة ، ومنها رخوة ، في جوف تلك الحبوب لبة دسمة ، ومادة شحمتها قبل النضج حامضة ، وقبل ذلك عفصة ، وبعد النضج حلوة .

(٨) — الاجاص (٩) — والمشمش (١٠) — والخوخ

أشكال أثمارها مخروطة ، أو صدفية ، عليها قشور رقيقة ملتزقة بشحمتها وهي غليظة نخبية ، في داخلها نواة خزفية ، أشكالها صدفية داخلها ملساء ، فيها لبة دسمة ، وألوان هذه الثمار مختلفة .

(١١) — الاترج (١٢) — والتارنج (١٣) — والليمون

أشكال أثمارها كروية ، أو مستطيلة ، أو مدحرجة ، وعليها قشور لحمية غليظة ، شحمتها حامضة ، ودانتها حب صفار ، على دعاص مرصعة شبه النلال ، ما بين خللها لحم ، طعمها حامض ، وألوان قشرها حمر وخضر وصفر ، ومادتها قبل النضج عفصة .

(١٤) — الحبة الخضراء (١٥) — الفستق (١٦) — السماق (١٧) حب السنوبر

ثمارها ذات حبة صغيرة ، وفي داخلها نواة خزفية ، وفي جوفها لبة دسمة .

(١٨) — البلوط (١٩) — العفص (٢٠) — السرو (٢١) — الاهليلج

ثمار هذه الأشجار لا تنضج . انتهى الكلام على هذه الحديقة وأشجارها ٢١ شجرة .

وهناك عشرين حكمة لتقيس عليها حكما أخرى في الشجر والنبات :

(١) الحب : تنظر الحب انما مخلوقا في أوعية تشبه الخرائط ، وتلك الخرائط على رءوسها أمثال الأسنة لمنع الطير أن يأكلها لتحفظ للانسان ، فكأن الحبوب في حصون محصنة لتحفظ للانسان .

يرى الانسان سنابل القمح تمايل ذات اليمين وذات الشمال ، ويرى تلك السفا كالأسنة فوقها فالجاهل لا يدري والحكيم يعرف نعمة الله : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

( ٢ ) الشجر وأصناف النبات مخلوقات لا قدرة لها على الحركات كما الحيوان ، فوقفت رابضة في أماسكها ، وأخذت ترضع من الأرض كما يرضع ولد الحيوان ابن أمه ، وتجتذب الأغذية من الأرض ، وتلك الأغذية تقسم على الورق والأغصان والأزهار والأثمار ، كل يأخذ ما يناسبه .

( ٣ ) جذور النبات تمتد في الأرض كما تمتد الأطناب ، فكما أن الخيام تمتد أطناها من كل جانب لثبت تلك الخيام فلا تسقط ولا تميل ، هكذا النبات عروقه منتشرة في الأرض ، ممتدة إلى كل جانب لتدعيمه ، ولولا ذلك لم تثبت الأشجار العالية ، لاسيما في الرياح العاصفة ، إن حكمة الله سبقت في النبات فامتدت عروقه الى الجهات كلها ليحفظ الشجر عند العواصف ، هكذا صنع الناس الخيام ، وجعلوا أطناها ممتدة من سائر الجهات تقليدا لما رأوا في الأشجار .

( ٤ ) نسج الورق : انظر الى الورقة الواحدة كيف ترى فيها ما يشبه العروق مبثوثة ، فمنها الغلاظ الممتدة في طولها وعرضها ، ومنها لدقائق المتخللة تلك الغلاظ ، المنسوجة نسجاً دقيقاً عجيباً ، ولو كان البشرهم الصانعون له لم يفرغوا من ورقة واحدة في طول الأزمان ، وبالنظر إليها يرى أنها كجسم الانسان المنبث في العروق الغلاظ ، ثم الدقاق ، ثم الشعيرية الدقيقة جداً ، ثم ان العروق الغليظة تمسك الورقة بصلابتها وقوتها . انظر هذا المقام موضحاً بالأشكال في سورة يس عند قوله : سبحانه الذي خالق الأزواج كلها الخ .

( ٥ ) الحزم والنوى : اعلم أن الله جعلنا مكرمين بكنز الذهب والفضة والأحجار الثمينة ، فترانا نخزنها ونصونها ، وهذا معروف عند العامة والخاصة ، فأما العامة فانهم يموتون ولا يدرون حكمة غرامنا بتلك الجواهر ، وأما الخاصة فانهم يقولون : لننظر الى ما كنزه الله أمامنا ، إن الله حكيم ولا يخزن شيئاً إلا لحكمة ، فما الحكمة إذن في وضع النواة في باطن النمرة ، والحزم في باطن الفاكهة ؟ اننا نكنز الأشياء ذات القيمة ولكن الله يكنز ما لا قيمة له في نظرنا ، كنز النواة ، والنواة لا ثمن لها ، وربما طحنناها وجعلناها علفاً للابل ، وبعد التفكير العظيم يقولون : عجبا ! إن النواة أفضل ألف مرة من الماس والياقوت والمرجان ، ان النواة تستحق أن تخزن في أعز خزائننا في خرائط الجواهر الثمينة ، هذا هو السبب في أن الله خزنها ، ان النواة أصل النخلة كما أن الجنة أصل نبات القمح ، فالله خزن النواة وحصلها ، وجعل جرم النمرة غطاء لها لأنها أصل النخلة وهكذا بقية النوى ، فإذا حافظ الله عليها وأكثر منها فذلك للمحافظة على حياتنا ، أما اذا وضعنا الدرّة اليتيمة في حوز فليس لها منفعة إلا في التحلى بها ، والنواة منفعتها حياتنا وبقاؤنا ، وما به البقاء خير مما به التحلى ، إذ لاحلية إلا للأحياء ، فجّل الله إذ عرفنا قيمة هذه المخازن والخرائط والصناديق المقتلة .

( ٦ ) الصلابة في النواة : إن صلابتها ممسكة لرخاوة الثمار ولرقتها ، فلو أن النواة لم تكن صلبة لسرى الفساد إليها قبل إدراكها .

( ٧ ) قشرة الحب والنوى : خلق لكل منهما في ظاهره قشرة ، فإذا سقطا في التراب أو غيره لم يفسدا سريعاً ، وإذا ادخرا لوقت الزراعة بقيا محفوظين ، فصار قشرهما الخارج حافظاً لما في باطنهما ، فلدى في باطنهما كالشيء النفيس الذي له صندوق يحفظه ، ولولا تلك القشرة على النواة والحبه لأسرع إليهما العطب ، ولم يصلحاً لزراعتهما مرة أخرى ، وكمن امرئ يأكل القمح والذرة وهو



لا يدري لم كانت هذه الصلابة ، ولو علم الحقيقة لأدرك أن تلك الصلابة عليها مدار بقائنا وحياتنا ، وأن هذه القشرة أشرف من كل ما يحفظ أجل الجواهر ، فباطن الحبة محفوظ أولاً بغلافها وبسقاتها ثم بصلابتها ، وباطن النمرة محفوظ أولاً بالكفرا رهو وعاء الطلع ، ثم بجرم النمرة ، ثم بالصلابة .

( ٨ ) نبات الحب والنوى متى وضع كل منهما في الأرض وسقى خرج منه عرق في الثرى ، وغصن في الهواء ، وكما ازداد غصنا ازداد عرقا تتقوى به أصل الشجرة ، وينصرف الغذاء منه إلى الغصن فتكبر الفروع محفوظة عن السقوط بالهواء والانكسار ، ويصعد الماء في جذرها إلى أعالي الشجرة .

( ٩ ) تقسيم الغذاء على أجزاء الشجر والزرع تقسما عادلا كما تقدم .

( ١٠ ) خروج الأوراق قبل الأثمار : انظر إلى النمرة تجدها ضعيفة عند خروجها تستضر بحرّ الشمس وبرد الهواء ، فخرجت الأوراق قبلها لصيانتها كما خلق النبات والحيوان قبل الإنسان لحياه ومنفعته .

( ١١ ) نظام الأوراق : إن الأوراق تكون سائرة للثمرة لحفظها من الحرّ والبرد ، ولكن الثمرة لا تزال في احتياج إلى الحرارة الشمسية لتنضجها ، لذلك ترى بين الأوراق مداخل وفروجا في خللها لدخول الشمس والهواء التي لاغنى للثمرة عنها ، وكما جعلت الأهداب على العين مانعة الغبار ، مدخلة الضياء ، هكذا هنا منعت الأوراق الحرّ والبرد ، وأدخلت ما يلزم من الهواء والحرارة . هذا هو العلم الذي يرقى العقول . هذا هو الذي يقول الله فيه [ ق ] على ما فهمت من معناها . هذا هو الذي قال الله فيه : « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » هذه هي الحكمة الشريفة ، والآيات المنيفة ، والعلوم العالية ، والجواهر الغالية ، ألا تعجب لكنوز مكشوفة مستورة ، وجواهر محجوبة منظورة ، وأسرار ظاهرة خافية وبدائع غالية ، رخيصة ، انظر كيف يجلس المسلم تحت الأشجار والأثمار ، والريح تهب بالفصوص والأوراق ، ولا يدري لم هذه الأوراق ؟ انظر لمسلم الزمان المستقبل كيف يفهم ما حجب الله عن المسلم القديم ، يقرأ سطور الكائنات في خلال الأوراق ، ويعجب من شمس تتخللها ، وهواء يداخلها ، ويعطي الثمرة حظها ، ويقرأ المسلم في المستقبل : « وكل شيء عنده بمقدار » . أما أكثر المسلمين والفقهاء فيما مضى ، فقد كانوا عن الفهم محجوبين ، العلم أمامهم مكشوف ولكنهم لا يفقهونه ، اقرأ قول الله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » فإذا أقفلت القلوب لم تفهم الحكم التي سمعتها في حبّ الحصيد ، ولا في النخل الباسقات التي لها طلع نضيد .

( ١٢ ) النمرة في غلافها : منذ أيام كنت ماراً أمام [ كوبرى الملك الصالح ] ومضى نحلة قد انشق [ كنراها ] أى غلاف طامعها ، وانشقاقه كان من الجهة الغربية حيث تصيبه الشمس لأنه مكشوف من جهتها ، أما الذي في جهة الشرق فلم ينشق ، ثم انى عجت كيف كان انشقاقه تدريجياً شيئاً فشيئاً ، فأخذت أفكر في ذلك العجب ، وأن الذي برز إلى الشمس هو الذي قوى على تحمل الجوّ ، وأن الذي لا يزال مستورا هو الذي لم يقو ، وكما اشتدّ مستور ظهر للشمس والريح ، ومنذ يومين مررت فوجدت جميع طلع هذا الغلاف قد ظهر ، فأما غيره فإنه لا يزال بحاله لم يشق لبعده عن ضوء الشمس .

( ١٣ ) موازنة بين الثمار وبين الأجنة : كلاهما مادام لا يقوى على الجوى يبقى في مكمنه ، فتى قوى

خرج منه .

(١٤) اعتبر ذلك في أمم الأرض من حيث الدين والعلم ، يعلم الناس الدين ويحججون عن الحكمة المحبوبة فيه كما ترى في أمة الاسلام يقرءون الأحكام الشرعية فإذا قويت العقول والفطن أطلعهم الله على بدائع صنعته ، فهذا الذي نقوله الآن يفهمه أكثر الناس ، لكن لا يذوق الحكمة ويحس بها في نفسه إلا من أصبحوا أشبه بالجنين وقد نزل من الرحم ، وبالثمرات وقد خرجت من الأكمام ، فأما من عقله لم يزل ناقصا فهو أشبه بالتمر في الأكمام ، فليلزمه شيوخه بالعبادات ، ولينعوه من هذه الآيات .

(١٥) حب الرمان المرصع المتقدم ذكره : ترى في داخل الرمان كما تقدم شحما مرصوما غليظا ، الأسفل رقيق الأعلى كأمثال التلال في ألوانه ، أو كالبناء الذي وسع أسفله للاستقرار عليه ، ورقق أعلاه حتى صار مرصوفا رصفا كأنه منضد بالأيدى ، ولا جرم أن الأيدى تهجز عن ذلك التدخل الذي نظم حبها في الشحم المذكور ، وترى هناك أقساما كل قسم منها مقسوم بلطائف رقيقة مذسوجة أعجب نسج وأطفه ، لتحجب حبها حتى لا يلتقي بعضها ببعض فيفسد ولا يباحق البلوغ والنهاية .

(١٦) غذاء الحب في الرمان : لو أن الحب كان هو الحشول للرمان لا سواه ولم تكن هناك حواجز فمن أين يستمد الحب الغذاء ؟ فلذلك جعل ذلك الشحم خلاله ليمتده بالغذاء ، فلذلك ترى أصول الحب مركوزة فيه ، لماذا ؟ ليمتدها الشحم بالغذاء ، وهناك عروق رقاق توصل للحب غذاءه ، وإلى حبة حبة غذاءها .

(١٧) في حب الرمان أيضا الحلاوة في المرارة : ترى الحب حلوا وهو مغروس في أصول مرة شديدة المرارة قابضة ، وهناك لفائف لطيفة على الحب لتمسكه فلا يضطرب وتحفظه ، وحفظ جميع ذلك في قشر غليظ واقى تمام الوقاية .

(١٨) عود الرمان : قد جعل متينا قويا حتى تستكمل خلقها فلا تسقط قبل بلوغها الغاية .

(١٩) البطيخ واليقطين والفقوس : عود هذه النباتات محتاج الى الماء أشد الاحتياج ، لأنه على الدوام يجذب ماء كثيرا ، ولذلك نرى الفلاحين في ضواحي مصر يسقون تلك النباتات كل يوم مرة ، لأنها تجذب ماء كثيرا ليملا ثمرها العظيم جدا ، فترى البطيخة مثلا كبيرة كالجرة العظيمة ، وربما كان في الشجرة الواحدة كثير ، فكان العود دائما مشبعا بالماء ليوصله الى ثمره ، فكان أشبه بالقناة الرطبة ، فلن يستطيع أن يكون قائما ، لذلك انبسط على الأرض ، وترك ثمره على الأرض والأرض تحمله ، لأن هذا العود الطرى اللين لا يقدر على حمل نفسه فضلا عن حمل هذا الثمر العظيم .

(٢٠) البطيخ وما معه : لا تخلق إلا عند الحاجة إليها ، وفي الأزمنة المناسبة ، فلا يخلق في الشتاء لأنه بالصيف أليق .

فهذه عشرون حكمة ذكرتها لك لتدرس رياض الجنات في الدنيا ، وتقال رياض الجنات بدراسة هذه الرياض في الآخرة ، والله هو الولي الجيد .

## شذرات علمية في النبات

(١) نبات يفيد ويستفيد : قال اللورد أفبري في كتابه [محاسن الطبيعة] : هناك أنواع الفطر [بضم الفاء والطاء] والكمامة التي تنمو بين الأشجار ، وقد تكون على الجذوع أيضا ، وقد ترى القسم الظاهر من جذور الشجرة مغطى بطبقة من هذه النباتات المجهولة الفصائل حتى الآن ، هذا النبات قد كان يظن النباتيون أنه يضر الشجر ضررا كبيرا ، وقد عرفوا أخيرا أنه يمتص الغذاء بالجذور ويصير عصيرا في تلك النباتات ، ويسرّب في عروق الشجرة ويزيدها نماء ،

(٢) وصف الغابات في البلاد الحارة : قال اللورد المذكور : عجب ، عجب للغابات في المناطق الحارة ، ترى الشجرة ملتفة بالشجرة متعانقة الأغصان ، محبوكة منسوجة نسيج الثياب سدى ولجة ، فكأنها بساط عظيم ، ترفع بصرك فتري شبائيك من الأغصان المشتبكة المختلطة المتدخلة المتعانقة ، والأزهار تقبل الأزهار ، والأثمار تحيط بالثمار ، والأوراق متلاصقات ، وربما وقفت بين جذوع عاريات لاجال فيها ، ثم ترفع بصرك فتري نفسك تحت قبة في جوّ السماء ، خضراء ، بهجة تسرّ الناظرين ، قد حجب نور الشمس وقت الظهيرة بذلك السقف المرفوع الزبرجدي البهيج المنسوج البديع .

(٣) كيف خربت أقطار واسعة من سورية وفلسطين وآسيا الصغرى وشمالى افريقية ، يقول اللورد المذكور : إن تلك الأقطار كانت أكثر سكانا ، وأعظم مدنا ، وأنعم عيشا ، وبلادها تدرّ لنا وعسلا ، ثم تحوّلت إلى صحارى قاحلة ، وأراض جرداء خالية ، قال : إن الأمم انقرضت لما انقرضت أشجارها وغاباتها ، ولوأنهم حرصوا على غاباتهم لم يكنوا أشدّ حرصا على دولتهم ، يريد أن من أوع بالتهريب صار ذلك ديدنه ، فيؤول أمره إلى البوار . انتهى الكلام على اللطيفة الثانية .

### اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : « إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد » ما يلفظ من قول إلأله رقيب عتيد »

لقد أسلفت في هذا التفسير في مواطن كثيرة آراء القدماء والمحدثين في عالم الملائكة ، وعالم الجن ، وسأذكر هنا مختصرا موجزا منه فأقول :

(١) لقد ترى أن الناس يختلفون في أشكالهم وألوانهم وأخلاقهم ، حتى أن كل امرئ يكاد ينطق بما استكن في نفسه ، وهيئة الانسان وسيماه تدل على ما في نفسه من المحاسن والمساوى كما شرحه العلامة ابن خلدون في المقدمة

(٢) إن الأمم اليوم ومنها أمتنا المصرية قد عرفت أن خطوط ابهام اليد في المرء لا تشبه فيها بسواه ، فلذلك جعلوه علامة على صاحبها لا تختلط بسواه .

(٣) قد رأى الناس اليوم الآلة الخاكية وهي [الفونوغراف] فهو كصدى الصوت يحكى ما قيل بلاخل وقد أمكن الناس اليوم أن يحفظوا الأصوات في اسطوانة ويديرونها فتنتطق بما نطق به الانسان ويتمكّر ذلك سنين وسنين ، قد زاد الانسان على ذلك ، فتري علماء النفس في بلاد أمريكا عرفوا علما يسمى علم الأثر ، وملخصه كما تقدم موضحا في (سورة النساء) أن بعض النفوس اذا غابت بتوهم مغناطيسى ، ثم أعطى لها أثر انسان أو حيوان أو جاد أو نحوه أخذت تلك النفس

تقص ماجرى لصاحب الأثر ، حتى ان أحد هؤلاء القادرين على ذلك ، المتعودين عليه اذا دخل في حجرة ذكر كل مامر بها من خير وشر ، ووصف هيئات الذين عاشوا فيها وحسناتهم وسيئاتهم (٤) قد علمت أن علم الأرواح انتشر ، ولقد قدمت لك آراء آلاف من العلماء قرروا هذه الحقائق ، ولقد مضى في هذا التفسير أن اللورد [ أوليفر لودج ] قال في محفل عام أيام الحرب الكبرى : « إن هناك عوالم أعقل منا تحيط بنا وتساعدنا ، والله نفسه يساعدنا » كل ذلك بالتجربة العلمية (٥) أفلمت ترى معي أن العلم الحديث كأنه إنما جاء ليعرف الناس دين الاسلام ، والافكيف يقول الله تعالى : إن هنا ملكين أحدهما على اليمين والآخر على الشمال ، ويقول : ان الانسان له قرين من الملائكة وقرين من الجن ، ويقول : لكل امرئ ملك يسوقه وملك يشهد عليه .

هذه أمور سمعية ليس للعقل فيها مدخل ، ولكن العلم الحديث أثبت هذا كله ، أثبت ماهو أعجب ! أثبت أن الجاد الذي يحيط بنا يرسم فيه مايجول بخواطرها فضلا عما نعمل أو نتكلم به حتى قال أحد علماء النفس في أمريكا كما تقدم في هذا التفسير : « سيأتي قوم بعد ألفي سنة أو أكثر وهذا العلم بمسكون بحجر مما كان حولنا ، ويقصون حسناتنا وسيئاتنا وآراءنا وأخلاقنا ، وما كنا نخشى أن نقوله بالسنتنا » .

ياعجبا كل العجب ! فإذا كان الجاد أصبح يخبرنا ويخبر غيرنا بما عملنا فكيف لا نعرف ذاك الأرواح المجرّدة من المادة ؟ المادة أصبحت مخزنا لعلومنا فكيف بالأرواح المجرّدة التي أثبتها العلم الحديث .

اللهم إن دين الاسلام لا يظهر إلا في المستقبل ، أما القرون الماضية فلم يكن بعد الصدر الأول من العلم إلا القشور ، اللهم انك أنزلت الاسلام ، وهأنذا ذا سبحانه تفهمنا قولك : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » فدين الاسلام الآن يظهر في الأنفس ويظهر في الآفاق ، وما نحن فيه الآن ظهوره في الأنفس .

فقد يعلم تكن حيا به أبدا \* الناس موتى وأهل العلم أحياء

### اللطائف العامة في هذه السورة (١)

اللطيفة الأولى في سر [ ا ل م ] في قوله تعالى : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » .

اللطيفة الثانية في أسرار قوله تعالى : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم » الخ . وفي هذه اللطيفة مبحثان ( المبحث الأول ) في عجائب العين التي اختصت بنظر السماء ( المبحث الثاني ) في عجائب نفس السماء ، وذلك بفهم آلة النظر والجسم المنظور .

اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأبنتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » .

اللطيفة الرابعة في قوله تعالى : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » .

(١) هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ، ولم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السورة للطبع

[ المؤلف ]



## اللطيفة الأولى

في سرّ [ ال م ] في قوله تعالى : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بيناها وزيناها وما لها من فروج »

ما كنت أكتب هذا العنوان حتى حضر صديق العلامة الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير . فقال : إن غرامك بالعلويات والسفليات من الكواكب والريوع والشجر والجبل جعلك مغرماً بالكلام فيها حتى إن أكثر هذا التفسير راجع الى هذه المعاني ، فهلا أقالت من هذه المعاني في نحو هذه الآيات ؟ فقلت يا صاحب : قد تهجئت ولم تستطع صبراً على ما أريد أن أقوله ، إن كتابتي في هذه الليلة إحدى ليالي شهر شعبان سنة ١٣٥٠ هجرية الموافقة ليلة الخميس ٣١ شهر ديسمبر سنة ١٩٣١ م ترجع إلى [ ال م ] في قوله : « أفلم ينظروا » . فقال : وما هذه في هذا المقام ؟ فقلت يا صاحب : إن هذه بيننا وبين [ ال م ] في أول ﴿ سورة البقرة ﴾ صلة . فقال : وأي صلة بين البقرة وسورة ق وما فيها من الآيات ؟ فقلت صلة وثيقة عجيبة ، إن هنا سرّاً كان مخبواً والله أبرزه اليوم في هذا التفسير ، وحرام عليّ أن أكنم عن الأمم الإسلامية ما وقع في صدري في هذا المقام من عجائب القرآن . فقال : إنك نصف أمراً عظيماً فاهو ؟ قلت [ ال م ] من مفاتيح علوم القرآن . فقال : أرجو الايضاح ؟ فقلت : ابتداء الله القرآن بالفاتحة ، وابتداء الفاتحة بالبسملة ، فالبسملة أشبه بمقدمة للفاتحة ، وبراعة استهلال ، والفاتحة كذلك بالنسبة للقرآن ، ولم يبق بعد براعة الاستهلال أو المقدمة وهي الفاتحة التي هي أم الكتاب إلا أن يبتدىء في تفصيل ذلك الجمل ، فكان الابتداء برمز هو [ ال م ] وهي من الحروف التي في أول السور ، وقد تقدم الكلام عليها في كل سورة على حدة ، وأعمّ الكلام فيها ما جاء في أول ﴿ سورة آل عمران ﴾ فقد ذكرت هناك آراء طوائف المتقدمين الثلاثة ، وهي ما يذكره أشبال ابن عباس رضي الله عنهما ، وأشبال ما يذكره بعض الصحابة والتابعين من مناسبات هذه الحروف من حيث أوصافها وأحوالها ، وانتظام أوضاعها [ راجعه هناك ] ومن حيث مناسبتها للعالم المحيط بنا الى آخر ما هنالك ، ومثل ما يبتدىء لنا في هذا الزمان من العجائب والبدائع ، مثل أن [ ال م ] في سورة ﴿ آل عمران ﴾ تذكر مسامى زماننا بما قصه الله من حال اليهود في زمن النبوة ، وأنهم باتكاهم على شفاعته آبائهم وتخفيف العذاب عنهم يوم القيامة ، أو تحديد أيامه في جهنم قد أخلوا بشرائط الدين فذلوا وزال ملكهم واستولى المسلمون على ما يملكون ، فإذا عرف المسلمون أن [ ال م ] في أول آل عمران قد أشارت بطرف خفي الى هذه المعاني ، ورأوا أن ذلك ايقاظ من الله لهم في زماننا هذا ، يدعوهم ذلك الى الجدة والتشهير في العمل وأن من ظن أن الشفاعات التي أجمع عليها المسلمون يعقبا الكسل والتواكل وترك العمل كما كان اليهود في زمن النبوة فهو مغرور ، وأن الأمة الإسلامية التي تكون هذه حالها لا محالة آيلة الى الاضمحلال والزوال . أقول : إذا عرف المسلمون ذلك جتوا حالا في العلم والعمل وعدم التواكل كما هو الحال فعلاً الآن ، وهذه المعاني هي التي ذكرت في سورة ﴿ آل عمران ﴾ هي الموافقة لقوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » ولا جرم أن [ ال م ] من القرآن ، ولقد تدبرناها فألفيناها ناطقة بهذه المعاني ، وهذه المعاني سائغة ، وفيها من البلاغة ما لا حد له ، والمعنى المأخوذ منها عظيم الأثر جليل النفع . فقال صاحبي : نعم هذا تقدم ولكن نحن الآن في سورة [ ق ] و [ ال م ] فيها في وسطها لا في أولها . قلت : أيها الصديق لا تهجل ، إن المفتاح الذي جاء بعد الفاتحة قد فتح به أول خزائن علوم الصبر على مكاره القتال . وعدم الفرار منه ، وعن الشهوات ، حتى يقدر الجندي على المصارعة في الحرب ، فهما صبران : صبر على اصطلاء نار الحرب ، وصبر عن شهوات النفس ، وهذان لا يتم نصر إلا بهما ، فالأول في آية : « ألم نر الى الذين خرجوا من

ديارهم وهم ألوف » والثاني في آية : « ألم تر إلى الملا من بني إسرائيل من بعد موسى » فقد جاء في هذه الآيات مسألة شرب الماء وأن من شرب منه قليلا أمكنه المصابرة في القتال ، ومن شرب كثيرا كثر راجعا مهزوما ، فالقليل من هؤلاء الصابرون فازوا في الحرب على الكثير من الأعداء الشهوانيين الكافرين ، فهاتان خزانتان فتحتا بهذا المفتاح في ﴿ سورة البقرة ﴾ : خزنة الصبر على مكاره نفس الحرب ، وعلى مكاره ترك الشهوة ، أى الشجاعة والعفة ، وباجتماعهما مع العلم يكون كمال الانسان ، والخزنة الثالثة جاء مفتاحها [ ا ل م ] في سورة ﴿ آل عمران ﴾ وهى ترك الأمانى والتعليل بالأباطيل كما ذكرناه ، بل يجب تجريد الشفاعة من المعانى المناقضة للنشاط والاقدام والمثابرة والا كان هذا الفهم مجتثا لدين من أساسه ، وكمن خزائن في القرآن فتحت بهذا المفتاح مثل قوله تعالى : « أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطع على قلوبهم فهم لا يسمعون » وقوله تعالى : « أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال » فهنا في هاتين الآيتين جاء ذكر [ ا ل م ] وجعل ما بعدها مذكرا لمن فوق الأرض بأحوال من هم تحتها في قبورهم ، وأن الله قد ضرب الأمثال للأحياء فإذا لم يتعظوا أصابهم الله بذنوب الأموات الذين سكنوا ديارهم ، وهذا بعينه هو الذى حصل في ديار الاسلام .

يا سبحان الله ، ويا عجباً ياربنا ! ألم يسكن المسلمون أيام الدولة الأموية والعباسية ديار أمم الروم والفرس ، ألم يصب الله هذه الممالك بعدوى الفرس والروم ، فابتدأ معاوية رضى الله عنه بتقليد الروم في أبهة الملك الظاهري كما قتمناه ، واتسع ذلك النطاق فكانت الدول الاسلامية شديدة الاسراف ، وانبعوا سنن من قبلهم ، أليس هذا بعينه قوله تعالى : « أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطع على قلوبهم » وقوله تعالى : « وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم » الخ .

ولاجرم أن المسلمين السابقين واللاحقين تبين لهم كيف فعل الله بدولتي فارس والروم اللتين حلّ المسلمون بديارهم وسكنوها ورأوها فلم يعتبروا خُلّ بهم ما حلّ بمن قبلهم ، لأن الله بالمرصاد وعدل حكيم [ اقرأ هذا المقام في سورة الاحقاف عند آية : « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا » ثم اقرأ تفسير سورة القتال والفتح ، ففي غضون ذلك ترى هذه العجائب من تاريخ الاسلام ] فانك ترى أن الله طبع على قلوب هذه الأمم بحيث ترى الاسلوب في النظام واحدا في بغداد ودمشق وقرطبة ومصر قريبا . كل ذلك يرجع للمفتاح الذى في أول ﴿ سورة البقرة ﴾ الذى ذكره الله بعد الفاتحة .

هذه هى الخزنة الرابعة من خزائن العلم التى مفتاحها [ ا ل م ] ولنتجاوز ذكر الخزائن الأخرى التى يفتحها هذا المفتاح ، لأنك أيها الذكىّ سهل عليك فتحها بعد ما اقتصرنا عليه مما بيناه ، ولندكر الخزائن التى فى هذه السورة فى هذه الآية ، وهى خزائن علوم السموات والأرض ، إذ يلفت الله نظرنا نحن المسلمين إلى آيات الكواكب والأقمار والشموس والمجرات والسدم ، فهذا المفتاح الذى فتحت به خزائن العلوم فى سور كثيرة جىء به هنا لفتح العلوم . فقال : إن هذه العلوم مفتحة الأبواب ، وقد فصلت فى هذا التفسير كثيرا كما قلته فى أول سؤالى . فقلت نعم ولكنها لم تفتح خزائنها إلا فى هذا الزمان ، ولما فتحت عرفنا بعض أسرار [ ا ل م ] التى جاءت مفتاحا فى أوائل السور ، وهامى هنا بها فتحت تلك العلوم .

فقال : إن التماس هذه المعانى من الحروف فيه تساهل ، وهل سبقك بهذه المعانى أحد ؟ أوليس هذا يعتد تفسيراً بالرأى ؟ ثم ان تكرار الكلام على عجائب السموات والأرض يشعر المسلمين بأن المفسر يجب عليه أن يعرف علوم الفلك والطبيعة وغيرها من علوم عصرنا ولم يقل به أحد ، ألا ترى أن صاحب الاتقان

ذكر شروط المفسر وحصرها في ١٥ علما وهي :

- (١) اللغة .
- (٢) والنحو .
- (٣) والصرف .
- (٤) والاشتقاق كاشتقاق [ المسيح ] هو من السياحة ، أو من المسح ؟ والمعنى يختلف تبعاً للاشتقاق
- (٥) والمعاني .
- (٦) والبيان .
- (٧) والبديع .
- (٨) وعلم القراءات .
- (٩) وأصول الدين .
- (١٠) وأصول الفقه .
- (١١) وأسباب النزول والقصص .
- (١٢) والناسخ والمنسوخ .
- (١٣) والفقه .
- (١٤) والأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم .
- (١٥) وعلم الموهبة ، وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم الخ .

قال ثم قال : فهذه هي العلوم التي أوجبها العلماء على المفسر . فلما أتم سؤاله قلت له : أما قولك : ان هذه المعاني لم يسبقني بها أحد ، وإني فسرت بالرأي ، وأن العلوم الكونية من العلوم التي تشترط في المفسر فجوابه أن أقول :

اعلم أن فعل العاقل يكون مشابها لقوله ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم » فنأصلح قوله صلح فعله ، وبين أدب النفس وأدب الدرس مناسبة ، والله الذي ليس كمثله شيء قال وفعل ، ونحن لم نعرف من قوله إلا الوحي ، وفعله هي هذه العجائب في السموات والأرض ، نراه أبدع المجرات والسدم والشموس والأرضين ، فأولا خلق الأثير ، ثم من الأثير خلق المجرات والسدم ، ومن هاتين أخرج الشمس ، ومنها أبدع السيارات والأرضين ، ومن هذه أبدع الأشجار والزرع ، وعلى هذه ثمر الأزهار والأثمار ، فكل عالم من هذه العوالم زهر لما قبله ، فالزهر للشجر ، والشجر زهر الأرض ، والأرض والكواكب أزهار الشمس ، والشموس أزهار المجرات ، والمجرات أزهار الأثير ، والأثير صنع الله بلامادة . هذا كله في عوالم المادة التي منها الانسان الذي هو من زهر الأرض ، فهذا الانسان أيضا زهر وزهره هي الحكم التي تلقى على قلبه ، وقد اختص به دون سواه من العوالم ، ان عوالم الحيوان كذوات الفترات من الطير والسمك ، وذوات الأربع ، وكل الحشرات ، كل هذه زهرات في الأرض ولكن الانسان أرقى ، ان كل حيوان فيها يعيش بغير رتبة ، والفرصة منحة من الله لا نصب في تحصيلها ، ولكن الله يريد علما أرقى من ذلك العالم يجب أن يتعلم الاستقلال في عمله ورأيه ، وذلك بوقوعه بين متضادين ، وهما الخير والشر ، فيربي ملكته وبحكم بعقله ولا يتسكل على الفرصة ، لأن الله يريد عقولا مدبرة لها استقلال ، وهذه العقول لن يملكها إلا الانسان ، فهو يربي ليتعلم الاستقلال ، والاستقلال لا يكون إلا على هذا المنوال : نصب وجد في الاختيار والأعمال ، واصدار أحكام فيما تشابه من الامور خيرها وشرها ، ومنى كملت تلك العقول عرجت إلى ملائ أعلى والابقيت مع العوالم المنحطة ، فهذه العقول الانسانية لها زهر أيضا وهي الحكم التي يلقها الله على

القلوب وهي الشرط الخامس عشر الذي ذكرته أنت من شروط المفسر، وقد جاء في صفحة ١٨١ في نفس كتاب [ الاتقان ] بعدما ذكرته أنت من شروط المفسر مانعه : « علم الموهبة علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم » واليه الإشارة بحديث : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .  
قال ابن أبي الدنيا : « وعلوم القرآن وما يستنبط منه بحر لا ساحل له » . قال : « فهذه العلوم التي هي كالآلة للمفسر لا يكون مفسرا إلا بها فنفس بدونها كان مفسرا بالرأى المنهي عنه ، وإذا فسر مع حصولها لم يكن مفسرا بالرأى المنهي عنه » . قال : « والصحابة والتابعون كان عندهم علوم الدين بالطبع لا بالاكتساب واستفادوا العلوم الأخرى من النبي صلى الله عليه وسلم » انتهى .

فانظر الى قوله « علوم القرآن وما يستنبط منه بحر لا ساحل له » . أيها الأخ : نحن جئنا في زمان فيه وجدنا أوائلنا قد محصوا هذه العلوم تمحيصا وسهلوا دراستها لنا ، فهذه القرون الطويلة بعد النبوة لم تدع قولنا لقائل ومهدت الطرق لنا ، وسهلت السبل لنا ، وأصبحتنا حين نقرأ القرآن نجد أمامنا الأبواب مفتحة في كتب أوائلنا فنجدهم قد استوفوا لنا تلك الشرائط وأكملوها فلا نصب اليوم في تحصيلها ، إنما نصب في تحصيل العلوم الأخرى التي أشاروا لها بالموهبة والتي قالوا : إن علوم القرآن وما يستنبط منه بحر لا ساحل له .

فهذا الذي نقوله نحن من أن [ ا ل م ] في أول البقرة مفتاح ، وهذا المفتاح فتحت به خزائن وخزائن ومنها خزائن العلوم الكونية في هذه السورة وفي غيرها ، فالعلوم العصرية تعين على علم الموهبة المذكور ، إذن ثبت أن كلام المتقدمين دخلت فيه هذه العلوم من حيث أنها معينة على تلك الموهبة التي ذكروها ، فأما التفسير بالرأى والهوى فمثل تفسير الروافض : « مرج البحرين يلتقيان » انهما على وفاطمة « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » يعني الحسن والحسين . فأما نحن فالحمد لله قد راعينا هذه الشروط الخمسة عشر بفضل آبائنا العظماء ، ثم وجدنا أن أمتنا الإسلامية قد نامت نوما عميقا وتركت علومها وعلومها ، وألفينا هذا القرآن منسيا مجهولا ، مقروءا لفظا ، متروكا معني ، وكل طائفة من طوائف المسلمين نامت عند أقوال شيوخها ، ثم تركت حبل الأمور على غاربها ، فلم نجد بدا من إيقافها وبعث همم أبنائها ، ونحن إذا قلنا إن هذه الحروف التي في أول السورة قد أشارت الى هذه المعاني التي أسلفناها فقد قلناه ونحن مطمئنون لما نقول ، ألا ترى رعاك الله أن هذه العلوم التي قلنا إن الحروف تشير لها كلها فروض كفايات ، إذن استخراج المعاني على هذا المنوال لم يكن موجبا بدعة ، ولا أمرا منافيا للدين ، بل هو من واجباته ، وفروض الكفايات نام عنها المسلمون قرونا وقرونا وناموا نوما عميقا ، فهذه الحروف في أوائل السور يقرؤها المسلمون ويكتفون بقولهم « الله أعلم بمراده » مع أن الله قال : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » فهذه من القرآن وقد تدبرها آبائنا فقالوا : ما فتح عليهم بحسب ما ينفع زمانهم ، ونحن تدبرناها فألفيناها مفاتيح هذه العلوم التي في زماننا ولغيرها والا فلماذا نرى « أولم يروا » و « ألم تر الخ » كلها تحت على علوم نحن أجهل الناس بها ولا يعرفها إلا الفرنجة ، فما هذا التوبيخ في القرآن على الترك والتفريع ؟ نرى علماء أوروبا يدرسون الأجيال الغابرة والأجيال الحاضرة ، ويستخرجون نتائجها لينفعوا بها في حياتهم ، أفليس هذا نفسه هو قوله تعالى فيما قدمنا : « أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات لأولي النهي » وهو نفس قوله تعالى أيضا : « وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم » أليس هذا حضا على دراسة آثار قدماء المصريين والفرس والروم وسبا جميع الأمم التي سكنا بلادها كما ندرس جميع النجوم والزرورع ، أوليست هذه هي العلوم التي جهلها المسلمون جهلا فاضحا فصاروا هزءا بين الأمم وأذلاء ، وأي ذل أشد من هذا الذل ! نعيش ويدرُسنا ويدرُس آبائنا الفرنجة ، ونحن نعيش ولا ندرس أنفسنا ، ولا ندرس آبائنا إلا قليلا فضلا عن

الأم التي سكنا ديارها فلا نستخرج منها نتائج تنفعنا لنحترس مما وقعوا فيه ، ان ما كتبته في هذا التفسير من معاني هذه الحروف لا أزال أزداد فيه يقينا كلما طلعت شمس .

أيها الصديق : انظر إلى ما أقصه عليك من أنباء ملوك الاسلام السابقين ، واعجب كيف انتفعوا برمز الحروف المذكورة . وهالك ما جاء في الجزء الثالث من كتاب [ تاريخ الفتن الاسلامي ] صفحة ١٢ وما بعدها وهذا نصه :

« على أنهم لفرط اشتغالهم بحفظ القرآن وفهمه لوز كرا الرجل حرفا أو كلمة انتبه السامع للآية كلها ، وكثيرا ما كانوا يرمزون بالكلمة الواحدة الى آية يفهمها العارف بها ويعمل بها ، وقد تخفى على كثير ، وما يحكى من هذا القبيل أن السلطان محمود الغزنوي الشهير بعث إلى الخليفة يطلب أن يذكر اسمه في الخطبة ببغداد ، وينقش اسمه في سكة الذهب والفضة ، فامتنع الخليفة من ذلك ، فبعث إليه كتابا فيه تهديد ووعد ، قال في جلته : [ لو أردت نقل حجارة بغداد على ظهور الفيلة إلى غزنة لفعلت ] فبعث إليه الخليفة كتابا مخنوما ، فلما فتحه لم يجد فيه بعد البسملة إلا ألفا ممدودة ، وفي وسطه لام ، وفي آخره ميم ، والصلاة ، والحمد لله ، فخر السلطان وأهل مجلسه من ذلك حتى دخل عليهم أبو بكر القهستاني ، ففكر في ذلك وقال : عندي شرحه فقال : اذكر لك ما تريد ، فقال : بعث إليهم السلطان يهتد بهم بالفيلة فبعثوا له هذا الكتاب وفيه ألف ولام وميم إشارة إلى قوله تعالى : « ألم تركيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول » فارناع السلطان محمود لذلك ووقع في قلبه الخوف والندم ، وعاد إلى أحسن الأحوال من الرضا والأدب (١) » اهـ

\*\*\*

فانظر كيف انتفع الخليفة العباسي برسم الفيل مع ذكر [ ا ل م ] وكيف ارتاع السلطان محمود الغزنوي من هذا المعنى ، وترتب على ذلك حقن الدماء ، وحفظ البلاد ، في أعظم بقاع الأرض من سفك دماء مئات الألوف من الجيوش ، وتخريب الديار ، وحلول الدمار . ولقد تقدم مختصر هذا في سورة البقرة في الطبعة الثانية . فهذا كله نمم بمعونة [ ا ل م ] والسر في ذلك أن هذا الانسان المخلوق في المادّة لاسعادة له إلا بالسعي ولذلك تجده لا يحب إلا ما منع عنه ، والمبذول مبتذل ، والعزيز مرغوب فيه ، هذا دأب هذا الانسان وهذا شأنه ، ومعاني الرموز محيرة مشبهة ، فتى وصل الانسان إلى حلها سارع إلى العمل بها بفرح وسرور ، لأن تحصيل معانيها جاء بنصب وتعب ، وكل ما حصلناه بنصب وتعب أحببناه ، وهذا سر حياتنا في الدنيا ، هذه الحياة الدنيا جعلت لتدربنا على تعقل الأشياء وعلى العمل فيها ، وهذا هو الذي يهتدنا ما نزاله فكرا وقولا وعملا ، وليس قرل القائل للسلطان محمود الغزنوي : إن الظلم مرتته وخيم كما حلّ بأصحاب الفيل كقول خليفة بغداد [ ا ل م ] فهذه حيرت العقول فلما اهتدى إلى المعنى عمل الناس به ، وإذا كنا نرى هذه الحروف الثلاثة في الحديث السابق كان هذا نتائج معانيها ، أفليس من أعاجيب القرآن أننا نرى المسلمين كانوا ناعمين قرونا وقرونا وهم يقولون « الله أعلم بما راده » أولئك هم من معاني جزئية علمية حتى إذا جاء وعد ربك بالفتوح على الأمم الاسلامية برزت هذه المعاني بعد اللتيا والتي ، فكتبناها لأنها تناسب زماننا ، وقد ضرب الله مثلا لأحوال المسلمين اليوم بما كان بين هذين المسكين وان كان ذلك أمرا جزئيا وههنا أمرا كلي ، وليس مادار بين المسكين إلا مجرد تنظير ومجرد تذكرة ، فذلك أشبه بقطرة وما هنا أشبه ببحر ، وكما تفتن القوم لمعنى الرمز في مخاطباتهم العادية ، فهكذا يتفتن المسلمون في أمرهم العظيم وهو رقيهم وسعادتهم .

(١) من ابن خلكان ٣٠٨ ج ٢ — ترتيب الدول ٦٩



ان [ ا ل م ] في سورة ق مفتاح فتحت به خزائن الذكاء والطبيعة والعلوم المبينة عليها ، وهذا زمان الفتح لاخير ، لأن هذا الزمان هو الزمان الذي فيه ظهرت هذه العلوم والمسامون في حاجة اليها كما أن المسامون في بغداد في حاجة الى هذا الرمز ، ففسره علماء الساطان محمود الغزنوي بما انتفع به المسامون ، فحقت السماء هكذا هذا تحفظ دول الاسلام بهذه المعاني المستخرجات في هذا الزمان بعد نصب العلماء فيها أجيالا وأجيالا ، فزال الاشكال ، وحل العقال ، وارتق الاسلام .

قلنا ان قول الله كفعله ، واللفعل ثمرات تقدم وصفها ، هكذا للقول زهرات وهذا شرحها ، هي هذه الحروف في أوائل السور ، وحروف أوائل السور متميزات منيرات ، والزهرات رمز الثمرات ، فهذه الحروف رمز لثمرات هي علوم ومعارف قد أظلمت أوانها ، وأقبل ابانها ، وحان حينها ، ( وبعبارة أخرى ) ان هذه الحروف دلالات على علوم هي سعادات أمم الاسلام في هذه الأيام وفي مستقبل الزمان ، إن هذه العلوم والسعادات قد ظهر نموذجها في هذا التفسير ، إن أمم الاسلام قد أخذت تخطو إلى العلا ، إن أمما وأممنا في زماننا وبعد مبارحتنا هذه الدار سيقروا به ويأتون بعلوم وحكم لم يحسن حينها ، وليس هذا الجيل يستعد لها ، ولنعلمق نبأه بعد حين ، فالجد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

فلما سمع ذلك صاحبي قال : لقد شفيت نفسي ، فقلت : الحمد لله رب العالمين . انتهى الكلام على اللطيفة الأولى في سر [ ا ل م ] في قوله تعالى : « أفلم ينظروا » الخ ابتدأت في كتابة هذا المقال قبل فجر هذا اليوم وهو آخر ديسمبر سنة ١٩٣١ وانتهيت من كتابته بعد صلاة الفجر الساعة السادسة لإدقائق فالجد لله على التمام .

### اللطيفة الثانية

في أسرار قوله تعالى : أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج أي في المبحث الأول من مبحثها ، وهو مبحث عجائب العين التي اختصت بنظر السماء

هذا ما انشرح له صدرى قبيل الفجر ليلة الجمعة ١١ ديسمبر سنة ١٩٣١ م — استيقظت قبل الفجر في ذلك التاريخ ، ونظرت إلى السماء ، ولحظت نفسى الكواكب التي كنت ألاحظها في الأعوام السابقة في مثل هذه الأيام ، وهي اثريا والديبران والطقع والهزعه وما يشبهها ، وقد تقدم الكلام عليها في ( سورة الصافات ) في أولها . وتقدم أيضا قبل ذلك في سورة أخرى ، ولكن الذي توجه له نظرى في تلك الليلة غير ذلك وهو أمران : كيف أنظر السماء ؟ وما نوع الرجاء التي أنعم الله بها على في عيني حتى نظرت هذه السموات ، أخذ منى العجب كل مأخذ ، وأخذت أقول : يا ليت شعرى سماء واسعة سعة لا تدرى مداها ؛ ها هم أولاء بنو آدم في الأرض يبحثون ، فها هم أولاء لم يجدوا للسموات نهاية ، وقد وصلت نجومها إلى ٢ على يمينها ٢٤ صفرا ، وهذا عدد مدهش وعظيم ، هذه جنات نجات للمفكرين في الدنيا ، وانما الذى زاد دهشتى أن لى عينين تنظران هذه السماء ، والعين صغيرة عبارة عن كرة قدرا لجوزة وهي مدججة فيها صور وعجائب لا حد لها ، وباجتماعها أمكننى النظر ، عين صغيرة تجمع هذه العوالم كلها ، كيف بنيت عيني ؟ وماهى المناسبة بين عيني وبين الشمس والقمر والكواكب والأضواء في أرضنا ؟ أنت عجيبة جدا أيتها العين ، لتترك الكلام على السموات الآن ، ولنشرع في معرفة عيونا حتى نعرف بذلك بعض ما أعطينا من الرجاء في الأرض ونحن ذاهلون جاهلون ، ضعفاء أغبياء ، مبعدون عن الجمال والحكم والبديع ، كل ذلك لمعرفة الرحمة في أول هذه السورة التي جاء فيها الحصى على النظر إلى هذه السموات .

## مساخرة بيني وبين صديقي العلامة الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير

بينما أنا أكتب هذا إذ حضر صديقي العالم وقرأ ما تقدم فظهر عليه السرور والبهجة والنور ، وأخذ يظهر الإعجاب بهذا الموضوع ، ثم سكت قليلا وقل : انك الآن تريد البحث في العين ، والبحث في السموات حتى تفهم كيف ننظر وبعد ذلك تبحث في عالم السموات . فقلت نعم . فقال : أليس هذا مكررا مع ما تقدم في أول سورة ﴿ آل عمران ﴾ ومع ما تقدم في ﴿ سورة المؤمنون ﴾ عند ذكر السمع والبصر هناك ، وأقد شرحت العين في ﴿ سورة آل عمران ﴾ شرحا بديها جيلا لم أر له نظيرا ، وهناك وضعت رسمها ، وهكذا فعلت في ﴿ سورة المؤمنون ﴾ ولكن الرسم في هذه كان أوضح من الرسم في الأولى التي أبدت فيها عجائب للعين بديعة تشرح الصدور وتسر الناظرين ، فأما السموات فأنك شرحتها في البقرة عند ذكر السماء في أول السورة وفي : « إن في خلق السموات والأرض » فيها أيضا ، وفي أول ﴿ آل عمران ﴾ وفي ﴿ سورة الأنعام ﴾ في أولها ، وفي آية إبراهيم : « وإذ قل إبراهيم لأبيه آزر » الخ وفي آية : « إن الله فائق الحب والنوى » وفي سور أخرى مثل ﴿ سورة يونس ﴾ في أولها عند ذكر السماء ، وفي أواخرها عند قوله تعالى : « فاليوم ننجيك بيدك » فهناك تبذت عجائب مثل صور البروج التي وجدت مرسومة على صندوق أحد الفراغة ، وهي صور واضحة عجيبة وتبعها هناك صورة الهرم وعجائبه المدهشة ، وكيف كان للهرم نسبة عجيبة إلى الشمس وبعدها عنا ومدار الأرض حولها في السنة ، وكيف كان بين مساحات الهرم وبين المكاييل والموازين المصرية ومساحاتها نسب عجيبة . كل هذا تقدم وهكذا في آخر الكهف وسورة الفرقان ويس وأول الصافات وهكذا فالكلام على العين وعلى السموات قد استوفيته فيما تقدم أفليس يكون الكلام هنا تكرارا ؟ فقلت : أما أجد الله إذ وفقني أن أرى أشالك من الفضلاء أهل العلم وأنا لأرل حيا يقرءون هذا التفسير في أثناء تأليفه وطبعه ويتعقبونه ويذكرونني بما نسبت .

ومما يشجعني على السير في هذا الموضوع الآن أن أجده قد استوعبت أكثر ما كتبتة وهو حاضر في ذهنك ، ومن استوعب ماضى فقد استعد استعدا تاما لما ألقبه الآن ، لأنى سأذكر في العين ما لم أذكره قبل الآن ، ومن فهم ما تقدم فهو جدير أن يفهم ما أكتبه الآن وهكذا ماسأ كتبه في السموات .

الله أكبر : إن حياتنا كلها جمال ولكن يظهر لى أننا أشبه بقوم حبسوا في قصر ملك عظيم كريم ، وأمروا أن يعضوا أعينهم ، لأنهم لو نظروا جمال القصر لزال عنهم العناء ولأحسوا بفرح كاهل الجنة في الجنة ، أننا الآن في الأرض محبوسون ، وهذا الحبس به قلت سعادتنا ، ولكن الله عز وجل يريد لشدة رحمته بنا أن يفتح لنا باب السجن شيئا فشيئا حتى نشاهد النور خارجة ، ولا أعرف بابا لهذا السجن إلا الدرس والعلم والنظر في هذا الكون .

أيها الصديق : من نحن ؟ وما هذه الحياة ؟ وما هذه العناية العظيمة بنا ؟ لو أن شابا أحب فتاة وهو محبوس عنها ولكنه يعلم أن لها به عناية وعظما لفرح بهذه العناية فرحا لا حد له ، ويصبح الحب غذاء له ، وسعادة لا حد لها ، ونحن الآن في الأرض عبي عن أجسامنا وعقولنا ، لا نفكر في خلقها والأعمار قصيرة ، فكيف تمر هذه الأعمار ولا نفتح هذا الكتاب الذي نعيش بين دفتيه ؟ وهو هذه الدنيا ، وأقرب شيء إلينا أجسامنا ومن عجائب أجسامنا عيوننا التي ننظر هذه السماء ، ومتى عرفنا العناية أحينا من هذه أعماله ، وصارت دار الدنيا سعادة .

اننى أيها الذكى ليلة الجمعة الماضية لما نظرت إلى السماء أخذ هذا الفكر بمجامع عقلى ، وما كادت الشمس تطلع حتى فتحت كتاب « علوم للجميع » في الجزء الثالث منه ، فرأيت فيه ما يأتى :

## العين ومنفعتها

وقد كتب تحت هذا العنوان ما ترجمته : « ما أسهل على الانسان أن يستعمل آلة وهو مجهل تركيبها ، ولا يعلم أى شىء عن أجزائها مطلقا ، إن آلافا من السياح فى كل سنة يأخذون الصور فى الجبل والسهل ، وهم لا يعلمون أى شىء عن عجائب تلك الآلة التى بها يأخذون تلك الصور ، وبأى وسيلة تمكنت هذه الآلات العجيبة من احضار الصور البعيدة عنهم فجعلتها أمامهم .

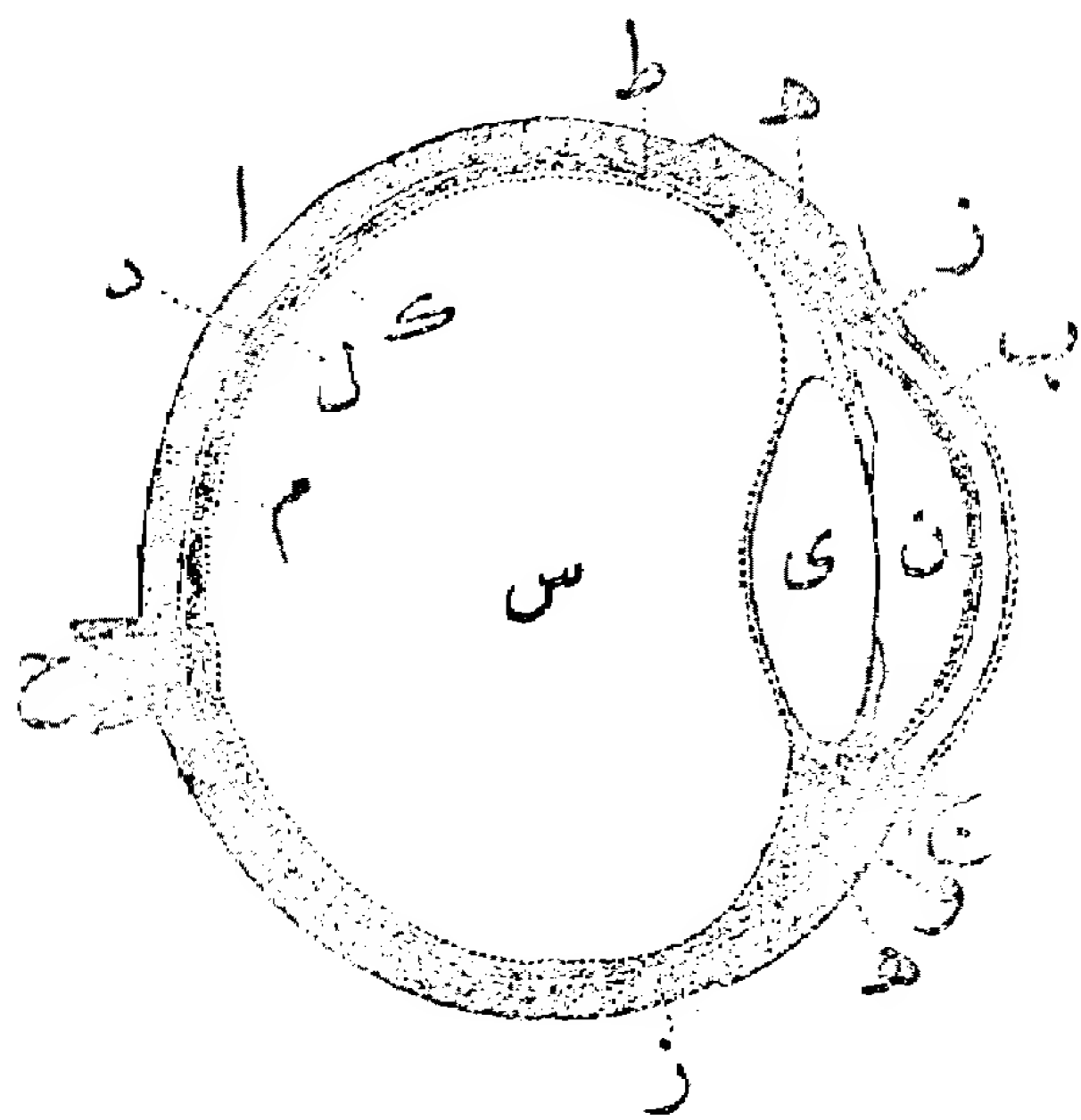
وكم آلاف آلاف الملايين من الناس يستعملون عيونهم فى جميع الساعات التى هم فيها مستيقظون مدى حياتهم وهم مع ذلك لا يعلمون شيئا عن بناء تلك العين وهندستها ونظامها ، وبدائع طبقاتها الباهرة النافعة للناظرين ، ولكن اذا أخذ الانسان يبحث فى عجائب العين فما أسهل أن يفهمها ، وأن يدرس دراسة كافية حتى يفهم :

- (١) كيف ركب طبقات العين ؟ .
  - (٢) وكيف كانت طبقاتها تعمل متحدة بهيئة موسيقية منظمة عجيبة .
  - (٣) وكيف أمكننا بهذه الآلة المنظمة أن نعرف الصور ، والأحجام والمسافات وغيرها .
- وهنا أخذ يضرب لذلك مثلا ، فقال : اذا أردنا أن نعرف الآلة المسماة [ بالتلسكوب ] فالتنا لابد أن نفك تلك الآلة ونجعل كل جزء منها على حدته ، وندرس تلك الأجزاء ، ومتى انتهينا من دراستها كلها عرفنا نفس [ التلسكوب ] هكذا فلنعمل فى العين ، فكما فصلنا ونظرنا ودرسنا أجزاء التلسكوب هكذا يجب أن نفصل أجزاء العين واحدا واحدا ، ومتى تابعنا البحث فيها بدقة ، ووالينا التجارب والموازنات فيها فالتنا لاجرم نصل تماما إلى ما توجهت نفوسنا إلى فهمه وهو : كيف تركبت العين وما منفعتها ؟
- ومن حسن الحظ لهذا الموضوع أن عين بقرة أرنججة أود كريبها كافية لدراسة هذا الموضوع ، فالتنا أرسلت إلى [ القصاب ] الجزار وطلبت منه زوجا من العيون أرسل لك ذلك بسهولة كما اتفق لى ، فالتنا حصلت على العين فأولا أزل ما عليها من اللحم المحيط بجوانبها وأذن ترى بعينك أن العين كرة وفيها حبل أبيض خارج من خلفها ، وهذا الحبل يمتد فى داخل العين ، وقد كان قبل أن يقطع قويا متينا موصلا العين بالمنخ ، التنا نستطيع أن ندرس العين من غير قطعها بأن ننظر فى المرآة بها وندرس أجزائها الظاهرة دراسة سطحية بمجرد النظر إلى المرآة :

- (١) فلننظر أولا الجزء المقدم الشفاف الكروى البارز المقبب ألا وهو [ القرنية ] .
- (٢) إن هذه القرنية متصلة بالطبقة البيضاء المسماة بالصلبة ، وهى التى بها تحفظ كرة العين وتثبت فهى لها حفاظ يصونها .
- (٣) وتحت هذه القرنية الشفافة يرى الانسان حلقة ذات لون وماهى هذه إذن ؟ هى القزحية أو العنبية قد نسبت لقوس قزح من حيث ألوانه ، وللعنبية من حيث لونها كذلك .
- (٤) وفى وسط هذه القزحية ترى [ البؤبؤ ] وهو انسان العين ، وهى فتحة يدخل منها الضوء فيصل إلى البلورية ويتجه إلى الشبكية كما ستراه مفصلا .
- (٥) وهنا نستطيع أن نصنع فتحة لفتح بها داخل العين ، فلنأت إذن بآلة حادة ونجعل فى عين البقرة مثلا فتحة ، ولالتنا كاد القرنية تفتح حتى يظهر لنا حالا سائل مائى يسمونه بالفرنجية [ كويس هيويس ] وبالعربية يسمونه [ الرطوبة البيضاء ] وهوسائل أبيض .
- (٦) فالتنا اتسعت هذه الفتحة اتساعا كافيا فاضغط على كرة العين بلطف فانك ترى عضوا هو أجل

(٧) ثم أخذ المؤلف يصف المادّة الزجاجية التي تقع تحت البلورية التي تتصل بها من فوقها الرطوبة السطحية .

ووصف الشبكية ومن ورأها المشيمية التي تليها الصلبة التي تقدم الكلام عليها ، وأنا لا أطيل الكلام في هذا المقام ، لأنني أعرف أيها الأخ أنك تعلم تفصيل هذه الأجزاء مما تقدم في هذا التفسير ، فلنجمع القول أولاً برسم هذه الصورة التي رسمها المؤلف المسمى [ويليم اكرويد] وهي هذه (انظر شكل ١)

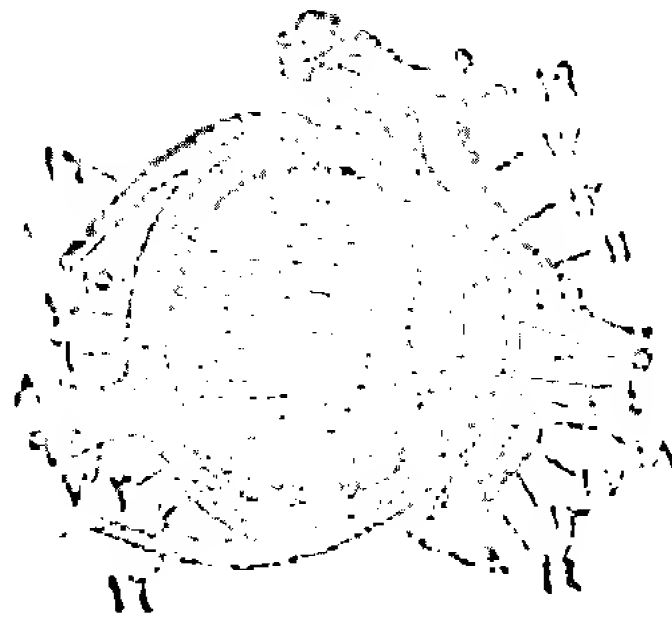


( شكل ١ - قطعة من العين الانسانية )

- |                                       |                                      |
|---------------------------------------|--------------------------------------|
| (١) - (أ) الصلبة .                    | (٩) - (ط) محيط الشبكية .             |
| (٢) - (ب) القرنية .                   | (١٠) - (ي) الجليدية وتسمى البلورية . |
| (٣) - (ج) الملتحمة .                  | (١١) - (ك) المشيمية                  |
| (٤) - (د) غطاء المشيمة .              | (١٢) - (ل) الشبكية .                 |
| (٥) - (هـ) عضلات هدية شعرية .         | (١٣) - (م) البقعة الصفراء في الشبكية |
| (٦) - (و) ابتداء الأهداب الشعرية .    | (١٤) - (ن) الرطوبة البيضية           |
| (٧) - (ز) القرنية المسماة أيضا عنيدية | (١٥) - (س) الرطوبة الزجاجية .        |
| (٨) - (ح) مبدأ العصب البصرى .         | .....                                |

فلما سمع صاحبي ذلك وظن أني قد انتهيت من المقال ونظر هذه الصورة . قال : هذا حسن ولكننا الآن أولا  
لم نصل للمقصود وهو اتصال هذه العيون بالكواكب ، وكيف تمت الصلة بينهما ، وثانيا : إذا رسمت صورة  
العين التي تقدمت في سورة المؤمنون هنا فإن القارئ بموازنة كل واحدة منهما بالأخرى يفهم الحقائق حقاً

الفهم ، ثالثا : انك ذكرت أن المؤلف يقول : علينا أن ننظر عيون البقر والنعيم ، ولا جرم أن المشاهدة بالعين أقوى أثرا من قراءة الكتب ، وقد جرت عادة الله ألا يجعل للتأملين قبولا عند سامعيهم ، ولا للمؤلفين عند قراء كتبهم إلا إذا كانوا هم موقنين بما يقولون ، وأى إيقان لكم أكثر من اطلاعكم بأنفسكم كما قال تعالى « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » وهذه هي الشهادة بالحق التي ذكرها الله فقل : « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » وأى شهادة بالحق أكثر من الاطلاع على نفس العين وتزريحها ، لاسيما أن المؤلف الذي ترجت أنت كلامه قد فتح الباب أمامك ، وسهل الطريق لجعلها معبدة ، فما أسهل السير فيها على السارين ، وما أسهل عيون البقر والنعيم للطالبيين والمؤلفين . فقلت أيها الذكى : أما فؤلك انما لم نصل للمقصود فهو حق وما ذكره الآن إنما هو مقدمة ، وهالك صورة العين المرسومة في ﴿ سورة المؤمنون ﴾ فيما تقدم في الجزء الحادى عشر من التفسير ( انظر شكل ٢ )



( شكل ٢ )

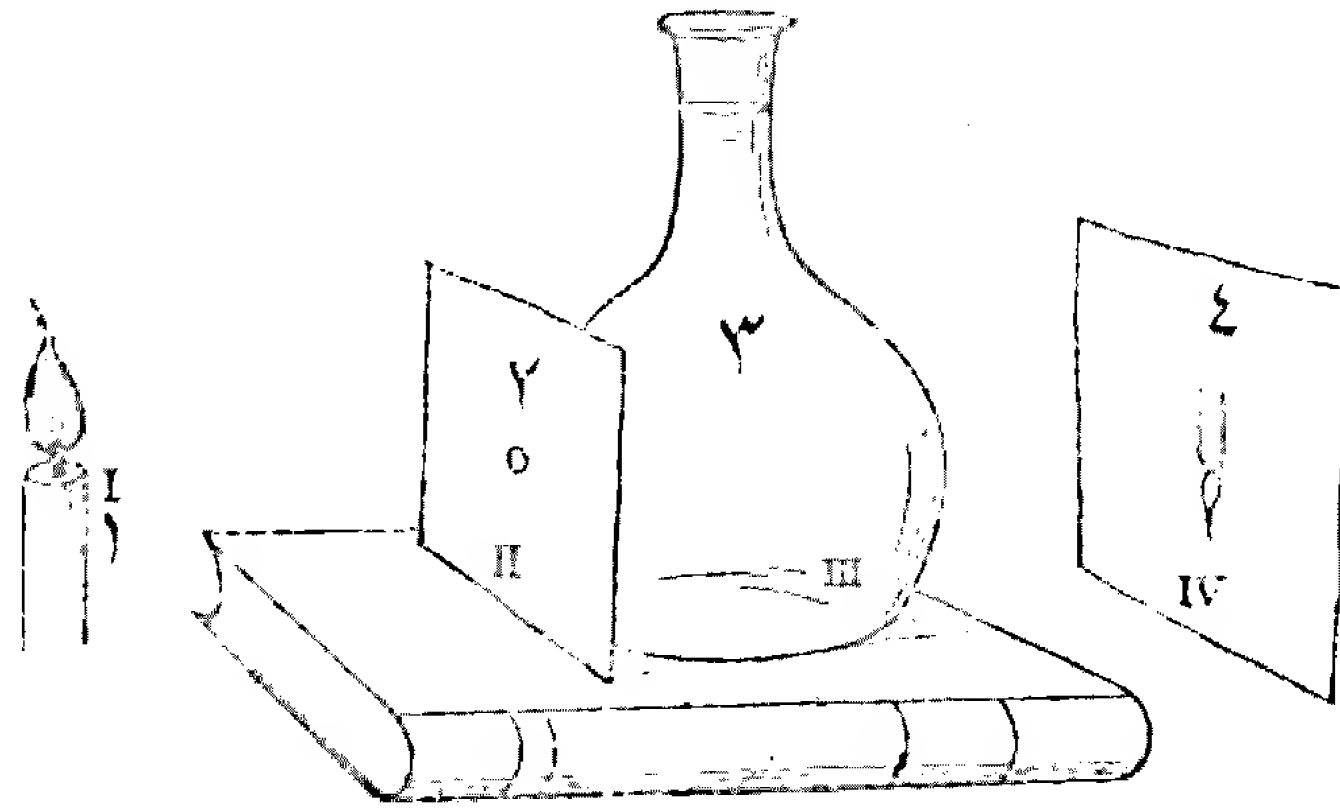
وأما ما ذكرت من أنه يحسن بى أن أنظر بعينى هذا فقد تم هذا اليوم صباحا ، وذلك أننى لما نظرت إلى السماء قبل غروب الجمعة الفائتة ، وتاقت نفسى للمعرفة المفصلة قرأت ذلك الكتاب يوم السبت ، وفى هذا اليوم ( الأحد ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣١ ميلادية ) توجهت إلى [ السلخانة الأميرية ] وهى قريبة من منزلنا ، وأخذت منها عبنى بقرة ، وتوجهت بهما إلى المستشفى الرمدى بالجيزة ، وقابلنى أحد الأطباء هناك ، وطلبت منهم تشرح العين ، إذ هم أدري بذلك ، فشرحوها لى ، ونظرت كل هذه الأجزاء المذكورة المتقدمة ، وفوق ذلك أرانى مدير المستشفى العين الصناعية وهى مكبرة جدا ، وشاهدت البلورية وما فوقها من الأوردة والشرايين والقزحية والبلورية ، وبقية الطبقات ، ورجعت وقت الظهر ، وهأنا ذا الآن أكتب ما أيقنت به بعد المطالعة . فقال : الحمد لله إذ فعلت ذلك وهأنا الآن جالس معك وأقر أن كثيرا من الشبان فى هذا الزمان وفى المستقبل سيبحثون بأنفسهم فى كل شىء كما بحثت أنت الآن ، وستصير هذه ملكة راسخة فى بلاد الاسلام فيبحثون كل شىء كما بحثت أنت الآن ، وتصير هذه أعظم اللذات للشباب وللشبان . فقلت : أما بذلك من الموقنين .

## جمال العين وبهجتها ، وعجائب اتقانها

وما فيها من الآلات البصرية ومنافعها

ثم قلت . أيها الأخ الذكى : هانحن أولاء فرغنا من تعداد الآلات البصرية فى العين ، وقد عرفنا نظامها وتزريحها ، وأشهرها هذه الخمسة : القرنية الرطوبية ، البصية ، البلورية ، الزجاجية ، الشبكية ، وهذه الآلات لا يستطيع العقل فهمها فهما حقيقيا إلا بضرب أمثال مما يشاهدونه ، إن العلم ان لم يتصل بما يعرفه الناس كل يوم فلا ثبات له ، وهذه الآلات البصرية يمثلها ما أتى ( انظر شكل ٣ ) فى الصفحة التالية





( شكل ٣ — تجربة تبين منفعة أجزاء معلومة من العين )

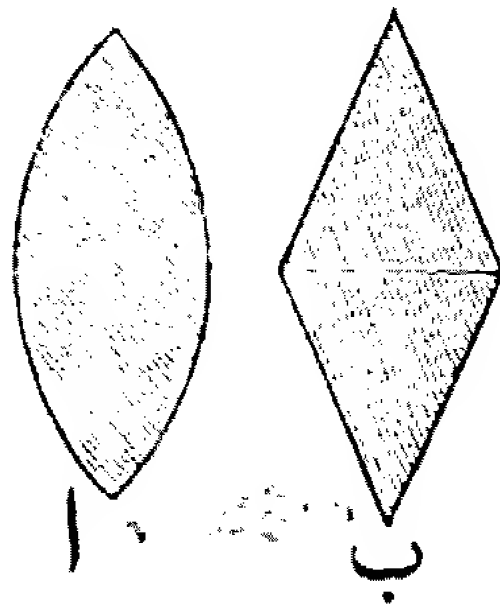
(١) المصباح (٢) لوح أبيض مثقوب (٣) زجاجة مملوءة ماء (٤) لوح أبيض غير مثقوب لقبول الصورة الواردة من نمرة (١) المنخرقة ثقب نمرة (٢) الواصلة إلى الزجاجة المائية نمرة (٣) . ومن صفات هذه الزجاجة وأمثالها أن الضوء إذا اخترقها ولم يكن هناك نمرة (٢) قبلها ووصل إلى نمرة (٤) فإنه لا يكون واضح الصورة (وهي مقلوبة طبعاً) بل هي تكون أقرب إلى الزرقة ، ولكن اللوحة المثقوبة نمرة (٢) لابد منها لاصلاح تلك الصورة

وإذا تأملت هذه الآلات ألفت نمرة (٢) تمثل القرصية ونمرة (٣) وهي الزجاجة المائية تمثل البلورية واللوح نمرة (٤) التابل للصورة يمثل الشبكية ، وعلى هذا ظهرت هنا قيمة القرصية لأنها في علم البصر لها منفعة عظيمة في بعض الصور إذ هي المساعدة لتمام الصورة على اللوحة .

وأنت من هذا أيها الأخ الذكي عرفت أن أهم الأدوات البصرية في أعيننا إنما هي القرصية والبلورية والشبكية التي مثلتها (١) اللوحة البيضاء المثقوبة (٢) والزجاجة المملوءة ماء ، واللوحة البيضاء القابلة التي لا ثقب فيها ، هذه أهم تلك الأدوات .

### الكلام على المنشورات البلورية القائمة مقام الزجاجة المملوءة ماء

إنما قدّمنا المثال المذكور لسهولته ، ولأنه في متناول الجميع ، ذلك أن الزجاجة يعرفها العام والخاص ، وهي تمثل لنا البلورية التي في أعيننا والتي رأيتموها أمس حين تشرح عين البقرة في مستشفى الجيزة ، ولكن العلم يعوزه ما هو أرقى من تلك الزجاجة ألا وهي أجسام زجاجية مضلعة يسمى كل منها بالمنشور (انظر شكل ٤)



( شكل ٤ )

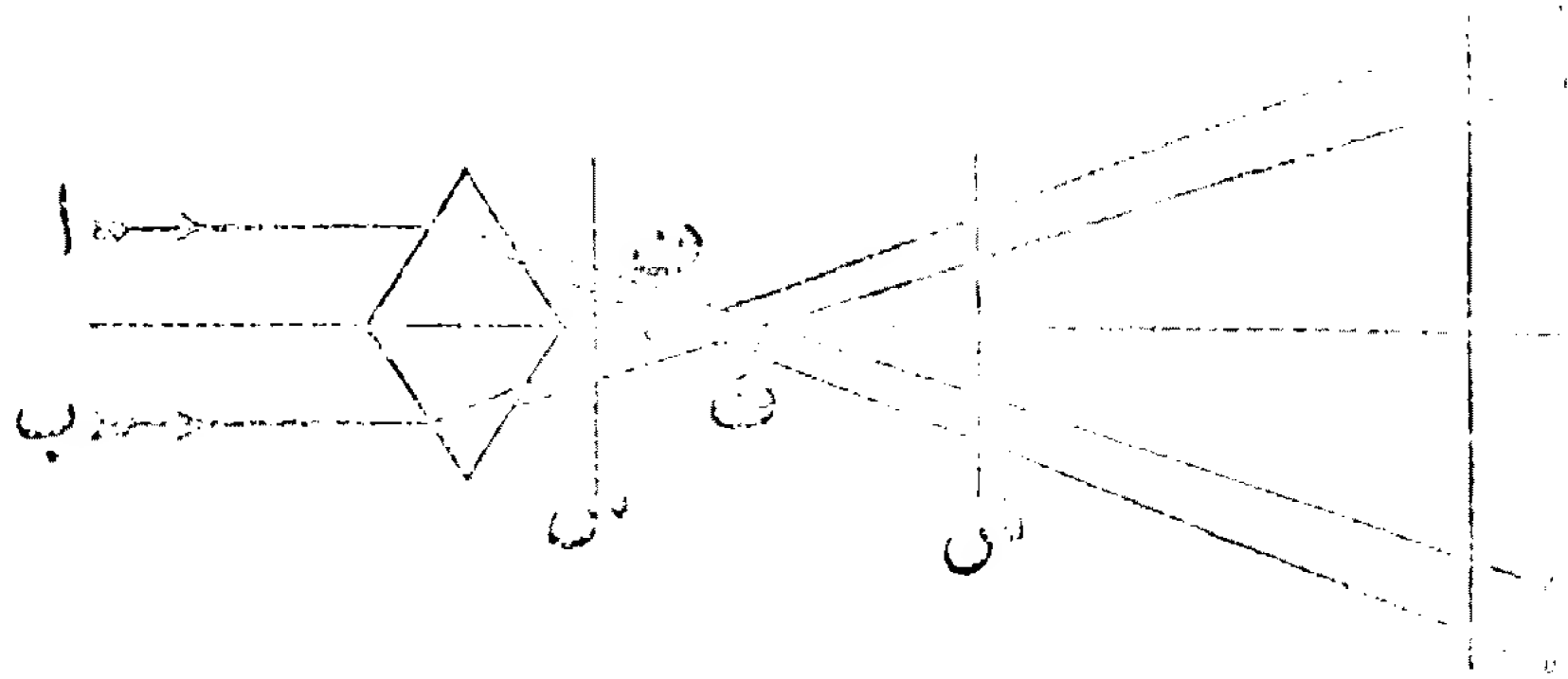
( أ ) قطعة من بلورين محدبتين .

( ب ) جزء من منشورين وضعت قاعدة أحدهما ملاصقة لقاعدة الآخر  
لقد بسطنا الكلام على القرصية وما يشبهها ، وأنها ذات نفع عظيم في إكمال الصورة التي مرّت في الزجاجة المائية ، فلنبحث الآن في منفعتها إذا مرّ النور من منشور بلوري مثل ( ب ) التي رسمناها لفهم

بها ( ١ ) وهى البلورية المحدبة ، وبيانه أن البلورية فى العين ثخينة من وسطها ، رقيقة عند طرفيها ، وهذه الصفة تجعلها مشبهة منشورين معا ، فلأنا ضمنا بلورتين ثم قسمناهما قسمين لرأينا أحد القسمين المذكورين من مجموع البلورتين يشبه ما فى صورة ( ١ ) شكل ٤ وهذه الصورة ليست مخالفة لصورة ( ب ) التى فيها قد وضع المنشوران معا قاعدة أحدهما ملتصقة بقاعدة الآخر ، ولا جرم أن النور وهو مارت بالضلعات المنشورية تجتمع أصوله السبعة فتصير لونا أبيض ، وهكذا يفعل الضوء فى صورة ( ١ ) لأنها تماثل صورة ( ب ) فهنا تشابهت البلورية والمنشور فى توحيد أجزاء الضوء اذا مرّ منهما .

### تحليل الضوء إلى ألوانه السبعة اذا مرّ فى المنشور

إنك أيها الذكى تعرف من دراسة العلوم ، أو ما تقدم فى كتابنا هذا أن الضوء اذا مرّ فى منشور فانه يحال إلى أصوله السبعة وهى : الأحمر ، والبرتقالى ، والأصفر ، والأخضر ، والأزرق ، والنيلى ، والبنفسجى . ومن عادة الأزرق أن يميل ميلا كثيرا ، وللازرق ميل أقل كثيرا ( انظر شكل ٥ )



( شكل ٥ - ميل الضوء )

انظر إلى نقطتى ( ١ ) و ( ب ) المضيئتين المشبهتين قلمى رصاص رقيقين فى ( شكل ٥ ) وقد مرّ هذا الضوء فى المنشورين المرسومين أمامك ، وقاعدة أحدهما ملتصقة بقاعدة الآخر ، فتأمل فى سير الضوء أيها الاخ فانك ترى الأشعة الزرقاء أسرع فاجتمعت عند حرف ( ف ) فأما الأشعة الحمراء فانها اجتمعت بعد ذلك عند حرف ( ح ) .

واذا نحن وضعنا بلورتين معا كما وصفنا فالتا نرى سير الضوء فيهما كسير الضوء فى المنشورين الموضوعة قاعدة أحدهما ملاصقة لقاعدة الآخر .

### حال الضوء فى وسط الحقل الضوئى وفى أطرافه

وهنا نلاحظ أن الضوء الجارى فى هذين المنشورين المتلاصقين منضمة أجزاؤه ، متحدة فى وسطه ، فيكون لونا أبيض ، فأما فى الجانبين فان الأمر يخالف ذلك على خط مستقيم ، كيف لا ونحن نرى النور عند حرف ( س ) التى قبل البؤرة الضوئية التى اجتمع فيها الضوء يميل الى الحرة والبرتقالية ، ولكننا نراه بعد مفارقة البؤرة الضوئية يميل إلى الزرقة عند حرف ( س ) .

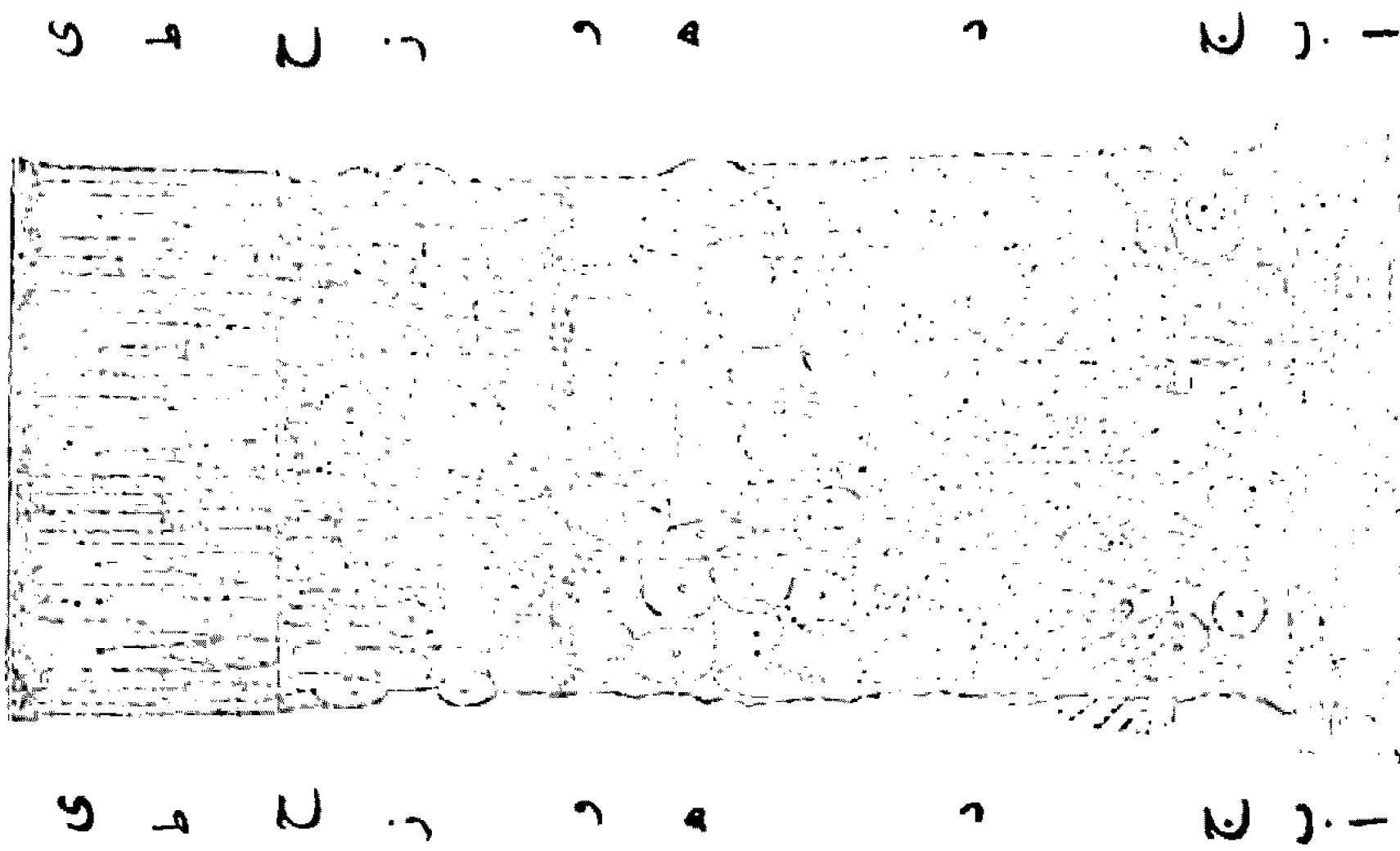
هذه صفة الضوء فى المنشورين المذكورين اللذين ذكرناهما لنقرب بهما فهم البلورية التى فى أعيننا ، والتى وجدنا أنها أشبه بقطعة من بلورتين متحدتين معا كما تقدم ، وهاتان البلورتان المتحدتان معا تشبهان المنشورين المتصلين كما تقدم ، ولقد وجد العلماء أن سير الضوء فى البلورتين الموصوفتين بما ذكر يشبه تمام المشابهة سيره فى المنشورين المذكورين .

### فائدة القزحية

ها أنت ذا أيها الأخ الذكي عرفت أن الضوء في وسط الحقل الضوئي أبيض ، وفي حافة هذا الحقل يكون أزرق أو أحمر برتقاليا ، ولا جرم أن ذلك نقص يعوق النظر ، وإن احتال علماء الضوء فوضعوا ستارة حلقة في الآلة البصرية [ التلسكوب ] فذهبت هذه الستارة التي تشبه الحلقة ، فلما الفصل في حفظ الصورة الضوئية من ميل بعض أجزاء الضوء الأبيض كالزرق والحمرة فيما تقدم عند مروره بالبلورية المسماة بالجليدية أيضا والعديسة ، إذن ظهر أن للقزحية فائدتين : إحداهما أنها تفعل فعل اللوح المثقوب في أنها تجعل الصورة واضحة على اللوحة التي تقبل الصورة ، وثانيتهما أنها إذا مر الضوء من منشورين أو بلوريتين فإنها تحفظ هذا الضوء من ميل بعض عناصره إلى الجوانب .

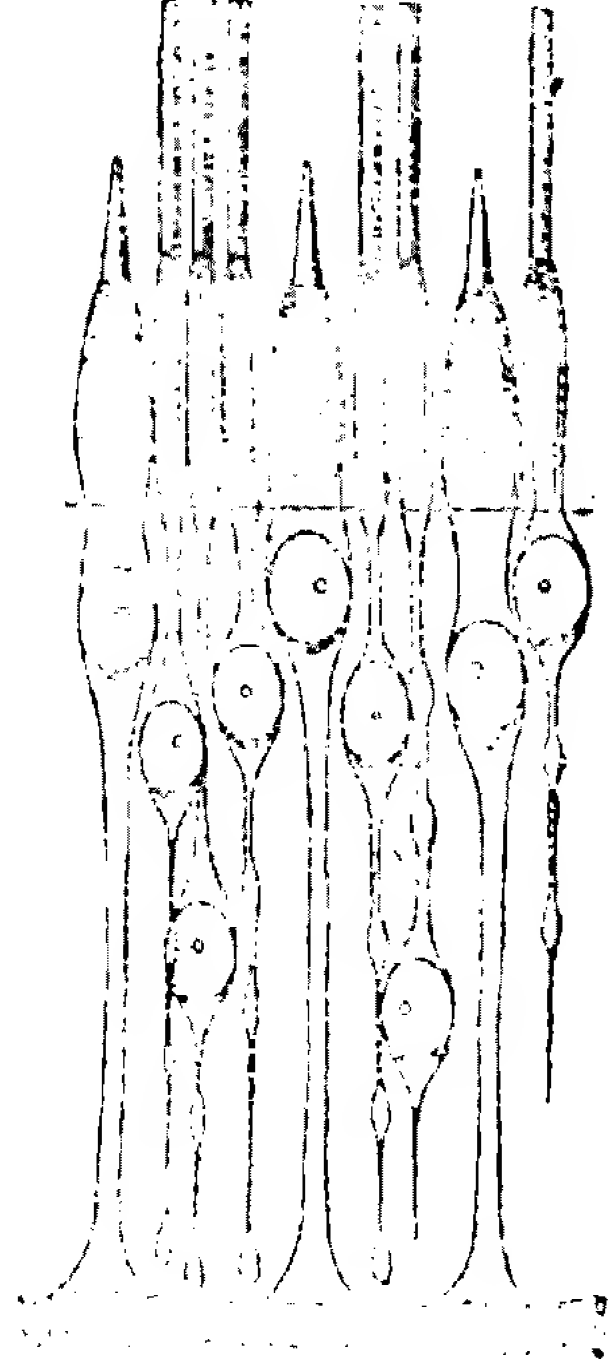
### وظائف القزحية والبلورية والشبكية

فهنا استبان أن وظيفة القزحية أن تحفظ الصورة واضحة لا تداخل فيها ، ووظيفة البلورية أنها ترسلها إلى ما وراءها فترسم على الشبكية ، ووظيفة الشبكية أنها تصدرها إلى الدماغ فيراها الإنسان والحيوان ، ولقد فصلنا القول في القزحية والبلورية فلنفض الكلام على الشبكية فنقول :  
إن الشبكية عضو شفاف يختلف في ثخنه من جزء من ٨٠ إلى جزء من ١٦٠ من البوصة الواحدة وهو مبطن للسطح الداخلي من محيط كرة العين كما رأيته فيما تقدم ، وكما رأيته أنا في العين الحقيقية ، وفي صورتها المجسمة كما تقدم .  
إن أي بقعة رقيقة من بقع الشبكية ماعدا مركزها الذي يسمى البقعة الصفراء ، وكذلك مدخل العصب البصري كلاهما إذا نظر بالمكسكوب فإنه يبين لنا هذا الهيكل الذي تراه في هذه الصورة ( انظر شكل ٦ )



( شكل ٦ - شبكية العين الانسانية )

فأنت ترى أن هذا الجسم من حرف (ب) الى حرف (ح) أجزاء عصبية مجمعة بما يسمونه [النسيج الحافظ] وما وراء حرف (ح) المذكور هو بقية الشبكية المشتمل على الأغشية العصبية ذات الشكل الذي يشبه بعضه [العود] وبعضه يشبه [القصب] وهذا الأخير أشبه بورق قصب السكر (انظر شكل ٧)



( شكل ٧ - العيدان والقصب بهيئة مكبرة ، فهنا ثلاث قصبات تتخلل ستة عيدان )

- ( ا ) سطح الشبكية عند اتصاله بالمادة الزجاجية .
- ( ب ) امتداد ألياف العصب البصرى
- ( ج ) ذرات ذات اجتماع بشكل دوائر ونحوها
- ( د ) طبقات ذرية وألياف عصبية
- ( هـ ) ذرات مجمعات تشبه الحب والنوى
- ( و ) طبقات متدخلة وألياف عصبية حاملات ما يشبه الحب فى الداخل
- ( ز ) ههنا ما يشبه الحب فى الطبقات الخارجة
- ( ح ) سطح جعل حدا لما تحته ومقاما يحمل العيدان والقصبات وبه ينتهى النسيج المحكم تحته
- ( ط ) العصبات والقصبات
- ( ي ) سطح وضع حدا للمشيمة فوقه .

إن العصب البصرى وهو داخل فى كرة العين تتفرع منه أغشية فى جميع الجهات به تتكون الطبقة الأمامية عند حرف (ب) فى شكل هـ المشتمل على الشبكية وهى بلا ريب مرتبطة بالعصى والقصب من خلف . هذا ماعنق لى أيها الصديق فى هذا المقام والحمد لله رب العالمين

هنالك قال صديق العالم : ما هذه العجائب والبدائع ؟ أهذا كله لأجل أن نبصر الأشياء حولنا ؟ فقلت نعم . قال عجب عجاب ! انك قد فتحت لى باب الكلام بهذه المباحث ، فاسمع لى بذلك . فقلت : سل ما تشاء . فقال : هل الجزء الذى يقابل الضوء من الشبكية هو الذى يتأثر به فينقله إلى المخ . فقلت له : إن الكلام فى هذا يحتاج إلى إيضاح ، إن العصى والقصبات المرسومات فيما تقدم هنّ القائمات بأمر الاحساس ، ولا جرم

أنهم في آخر الشبكية من خلفها ، فهناك يقوم بهنّ الاحساس بالضوء بعد أن مرّ في تلك الأوساط الشفافة الموضوعة قبل الشبكية في طريق النور . فقال : لقد ذكرت في هذا الموضوع ما كتبته أنت في سورة آل عمران ٢٦ إذ رسمت العين والأذن هناك وشرحتهما ، وذكرت للعين نحو ١٤ حكمة ، وللأذن نحو ٢٦ حكمة ، ونقلت عن [ اللورد أفبري ] في كتابه [ مسرات الحياة ] ما يأتي :

« إن في الجسم الانساني أكثر من مائتي عظم ، ولكل منها شكل مخصوص بها ، ولولا حسن صنعها لعاقبت حركاتنا التي نأثيها كل يوم [ يقول مؤلف هذا التفسير : وسيرد عليك قريباً هندسة الأعضاء وقياسها العجيب منقولاً عن آباءنا حكماء الاسلام ] » .

ثم قال : « وفيه ٥٠٠ عضلة كل منها تنغذى بمئات الأوردة والعروق تدبرها أعصاب كثيرة ، والقلب وهو بين هذه العضلات ينبض في السنة ثلاثين مليون مرة ، فإذا توقف عن الخفقان قضى الأمر وانقطعت الحياة ، ولولا ثقلنا في أدوات الحس كالعين مثلاً بما فيها من قرنية ، وعدسية ، وطبقات مائية ، وزجاجية تنتهي في الشبكية لتولانا العجب ، فإن هذه الشبكية التي لا تزيد عن ثخن الورقة تتألف من تسع طبقات مختلفة أبعدها يتألف من نحو ثلاث ملايين مخروط ، ونحو ثلاثين مليون اسطوانة ، وأعجب من هذا كله الدماغ فقد حسب أحد الفسيولوجيين أن المادة السنجابية التي في تلافيق الدماغ نحو ستمائة مليون خلية تتألف كل منها من ألوف من الدقائق الظاهرة ، وكل دقيقة تتكوّن من ملايين الجواهر » . وقد قال قبل ذلك : « لقد نحيا السنين الطوال ولا نكاد نشعر أن لنا جسماً » انتهى

فهل ثلاثة الملايين من نوع الأشكال المخروطة والثلاثون مليوناً من الاسطوانات كلها من هذا القبيل ؟ فقلت نعم وربّي ، فالأشكال المخروطة يراد بها هنا القصبات ، والأشكال الاسطوانية هي المعبر عنها هنا بالعصى . فقال : إذن هذه المخاريط ، وهذه الاسطوانات كلها لأجل احساسنا . قلت نعم . فقال : ولماذا هذا كله ؟ قلت لأن النور من عالم الحس وأمره سهل ، ولكن وصول صورته إلى نفوسنا التي ليست من المادة في شيء يعوزه آلات لها خواص فوق عقولنا ، وهذه الآلات هي الاسطوانات والمخاريط اللاتي تعدّ بعشرات الملايين ، نحن هنا في مقام الجبال والبهجة .

إن أكثر هذا النوع الانساني يعيشون ويموتون ولا هم يدركون ، وكمن رجل يدرس علم الضوء وعلم التشريح وهو غافل عن هذه العجائب التي يقرؤها ولا لذة لها في نفسه لأنه مجبور على الدرس ، مقهور على التحصيل ، والله عز وجل لم يرفع أمة بعد ضعتها إلا بأناس يختارهم هو ، يخلقون في الأمم ، وهم الذين يعشقون هذا الجبال الذي يتضائل في جنبه كل جبال ، فهو لا يؤثر في أهمهم لأن القلوب تحس بالقلوب وإن طال المدى ومضت عصور ودهور ، وأي أمة خلت من هؤلاء العشاق لهذا الجبال فهي لا محالة مريضة مرضاً لا يزيله إلا ظهور حكماء عشاق لهذا الجبال ، فهو لا إذا اطلعوا على هذه الحكم يدهشون من كوكب بيننا وبينه آلاف السنين وضوؤه يصل إلى عيوننا ، وهذه العيون لما خلقت وضعت على مقتضى نواحيس الضوء المرسل من أبعاد شاسعة ، وهذا الضوء يمرّ في أوساط لكل وسط منزلة خاصة ، فمنها ما يلفظ الصورة التي يحملها الضوء ، ومنها ما يجمع الضوء ، ومنها ما ترسم الصورة عليه وبوصلها إلى ما خلفها .

إن الانسان اذا نظر إلى هذه الشبكية يدهشه أمرها ، فما هذه الطبقات في تلك المسافة الضيقة ؟ فهل سمك الحدقة بتخلله تلك الملايين ومئات الملايين ؟ إن ذلك أمر عجب !

علم الله أن المسلمين سينامون نوماً عميقاً ، وهم يجهلون رحمة الواسعة لغفلة أكثرهم عن العلوم ، فأنزل بسم الله الرحمن الرحيم تقرأ في الصلوات ، وفي الغدوات والروحات ، وفي مبدأ الأكل والملبس ، وكل أمر ذي بال ، إذن ذكر الرحمة ملازم للإسلام في جميع أحواله ، أليس هذا معناه ادرسوا الرحمة أيها المسلمون



« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » وهذه آية من القرآن ، فأين التدبر إذن ؟ إن العين وعجائبها وعجائب الضوء من الرحمة العامة التي غفل عنها أكثر الناس في الأرض ، وكل من درسها وتعمق فيها فانه في هذه الدنيا قد مال السعادة الحقيقية ، وأى سعادة لهذا الانسان أعظم من الاطلاع على الحقائق ، إن الحقائق وفهمها هي السعادة الحقيقية لهذا النوع الانساني ولكن أكثر الناس لا يسمعون ولا يسمعون . ومن أعجب العجب أن الاطلاع على هذا الجمال بدراسة العلوم سعادة للنفس فما نكتبه في هذا التفسير وغيره يرقى الناس في هذه الحياة الدنيا ، إذن فهم الرحمة في هذه العجائب مسعد للنفس في الدنيا والآخرة ومصدق للمدنية في هذه الحياة .

الله أكبر : أنا أقول سيكون في بلاد الاسلام كثيرون من هؤلاء العشاق ، لأن الله أذن بذلك اليوم ، وهؤلاء هم الذين يملئون بلاد الله علما ، ويكونون رحمة لجميع الأمم بعد أن يرقوا أعم الاسلام ، لهذا أنزل الله « بسم الله الرحمن الرحيم » وكررت في كل مقام في جميع الأحوال .

### تأثير الضوء في النبات والحيوان والجماد

فقال صاحبي : أتذكر أن في ﴿ سورة يس ﴾ كلاما حسنا على الضوء وتأثيره ، وهناك الصور الشمسية للورق ، وفي كل ورقة حبات تمتد بالآلاف ؟ فقلت نعم اننا ذكرنا هناك أن مقادير غاز حوض الكربونيك في الجو قليلة ، فهي بالنسبة إلى الهواء كنسبة واحد إلى ألف ألف ، والفحم الصافي في الجو ١٣٨ ألف ألف طن تقريبا ، والنبات بتعرضه للهواء يمتص غاز حوض الكربونيك من الجو بمساعدة الأوراق ، وإن يتم ذلك إلا بمساعدة الشمس ، إذن الشمس لها أثر في أعيننا نمتدى به في أعمالنا وطرقنا ، وفي النبات بأحداثها في معامل الأوراق تفاعلا به يكمل النبات ويعيش الحيوان والانسان ، وهذا الموضوع قد تعرض له مؤلف كتاب [ علوم للجميع ] وقد أوضحناه الآن ايضا أتم ، وذكر أن المستشفيات أما كنهها المعرضات للشمس أكثر تكون أقرب الى صحة المرضى من غيرها . فقال : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات . وبهذا تم الكلام على تركيب العين ومعرفة أجزائها ليعرف المسلمون ماهو النظر المذكور في آية : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » وهو المبحث الأول من اللطيفة الثانية

### المبحث الثاني من اللطيفة الثانية

في عجائب السماء والكواكب

ولاذ فرغنا من الكلام على العين فلنبحث الآن في نجوم السماء وشموسها ومجراتها وسداسها فنقول ومن الله التوفيق :

### الكلام على السماء

قلت لك أيها الأخ الذكي فيما تقدم ان هذا العالم مملوء جلالا ، وهذا الجمال مخبوء عنا ، وهو حاضر لدينا هذه عيوننا كيف نرى تركيبها في غاية العجب ، بل هو كالسحر ، فما هذه الشبكية التي تبلغ عشر طبقات ، وإذا كان غلظها لا يزيد على نحو جزء من ستة أجزاء من المليم فكيف تنقسم إلى عشر طبقات ؟ وكيف يكون في الطبقة الواحدة (٣) ملايين مخروط و (٣٠) مليون عمود ، والأعمدة والمخاريط تقدم تصويرها موضحة في صورة مرسومة آنفا لا يوضح الأعمدة والأساطين نجد ثلاثة مخاريط تتداخل ست أساطين موضحة باهرة جيلة . فباليت شعري كيف تكون الطبقات الباقية من الشبكية فكيف فيها من أشكال ، وإذا ضربنا عشرة في

(٣٣) مليون يكون عندنا (٣٣٠) مليونا كلها في الشبكية والشبكية طبقة واحدة يحيط بها نحو سبع طبقات فتكون (٣٣٠) أخرى الطبقة واحدة من التسع وبصير الطبقتان نحو (٦٦٠) مليونا ، وليس هذا الحساب مدقنا بل هو تقريبي ، وعلى هذا بقية الطبقات ، والعين الثانية كذلك فيكون عندنا ملايين تعد بالآلاف اذا فرض أنها مثلها في تعداد أشكالها ، واذا فكرنا فيما هو أعظم من ذلك وهو الدماغ وأخذنا جزءا صغيرا منه ، وهو المادة السنجابية فاننا نراها (٦٠٠) مليون خلية ، والمادة السنجابية بالنسبة للدماغ مثلية فكيف يكون جميع الدماغ ؟ وكيف يكون عدد خلاياه ، إن هذه العجائب العلمية المتقدمة في النظر تلفت عقولنا للظهورات السماوية والكواكب ، ونحن إذا أردنا الكلام على السموات فاننا لا ندرى في أى باب نكتب وهذا العلم له شعب كثيرة ، وخير ما نخناره اليوم أن نذكر سعة السموات وكثرة نجومها حتى نوازن ما بين كثرة الكواكب وكثرة الأشكال العجيبة من أعين الحيوان والانسان :

(١) فنحن لا نقف في هذا المقام على بعد القمر عن الأرض .

(٢) وانه ٢٣٨٨٨١٧ ميلا

(٣) ولاعلى عطارد الذي يتم دورته المحورية في ٢٤ ساعة و ٨ دقائق .

(٤) ولاعلى الزهرة التي لا يزيد يومها عن ٢٣ ساعة ونصف .

(٥) ولاعلى المريخ الذي ظهر للعلماء أن الثلج في قطبيه لا يذوب إلا ببطء وبؤكد الاستاذ [ بكرنج ]

أن ترع المريخ حقيقة لاخداع فيها وله غيوم تسير حوله ، ومن رأيه أيضا أن النبات في المريخ مؤكدا الآن ، وكذلك بعض الحيوان ، وقد كان الرأي السائد أولا أن في المريخ سكانا ثم تغير الرأي فقالوا لا سكان فيه ، ثم رجعوا الآن وقالوا فيه سكان ، وقاسوا طول بعض النجم فيه فوجدوه بلغ (١٢٠٠) ميل والعرض (٥٠٠) ميل ويسير بسرعة ١٤ ميلا في الساعة . ولم يقتصر العلامة [ بكرنج ] على أن فيه نباتا وبعض الحيوان ، بل قال ان فيه عقلاء وهم يريدون مخاطبتنا

(٦) وهكذا المشتري وأقماره التسعة .

(٧) ولانكتفى أيضا بمعرفة زحل وحلقاته الثلاث المتقدمة في هذا التفسير وأقماره العشرة .

(٨) ولا بأورانوس وأقماره الأربعة .

(٩) ولا ببلوتون الذي يدور حول محوره في سبع ساعات وخمسين دقيقة .

(١٠) ولا بالسيار الجديد الذي كشف سنة ١٩٣٠ في ١٣ مارس المسمى [ بلوتو ] .

(١١) واذا بحثنا في نظام شمسنا الآن فانما نجعله توطئة لما بعده ، لأن ذلك شرحناه سابقا في سور كثيرة

إن الشمس نجم صغير جدا بين مئات الملايين من الشمس الكبيرة وهي فوق سطح المجرة وتبعد عنه

(٥٠٠.٠٠٠) خمسين ألف سنة نورية ، وليست مقيدة بذلك بل هي سائرة مع شمس أخرى بسرعة مليون

ميل في اليوم ، وآخر كشف لبعدها عن الأرض أنه ٩٢.٨٣١.٠٠٠ ميلا وحرارتها على سطحها (٧٤٠٠)

درجة بمقياس سنغراد ، وذلك سنة ١٩١٠ م وعلى سطح الشمس قد ترى كلف كثيرة كاتى رأيا للعلماء سنة

١٩٠٧ م ومجموع مساحتها (٨٠٠) مليون ميل مربع ، ثم ظهر مجموع آخر بعد ذلك مساحته ألفا مليون

ميل مربع ، وكما ظهرت هذه الكلف نقصت الحرارة على الأرض ، وهي من نتيجة ظهور كلف الشمس ،

ان الشفق القطبي الشمالى يظهر إذ ذاك ويظهر ويقال : ان أحوال كلف الشمس انظواهرات على وجهها تشبه

براكين ثائرة فتدفع منها مواد مكمربة تتشرب في الفضاء فيصل بعضها إلى الأرض ويسبب الشفق القطبي ، ومنه

الذي ظهر في أوروبا أبهر بشكل بديع حتى وصل إلى سوريا ورؤى رأى العين .

وإذا ذكرنا نبذة عن الشمس فلنتقل إلى عوالم أخرى ونجوم جديدة ، إن أول نجم جديد عرفه الناس كان قبل الميلاد سنة ١٣٤ ق . م ثم ظهر من ذلك الزمن إلى الآن ١٩ نجما جديداً أي انها ظهرت أو خلقت بعد أن لم تكن .

ويقول الاستاذ شابل في جامعة [هرفرد] : إن النجم الصغير الذي اسمه [دورادس] تابع لغيوم مجلان بعده عنا (١٢٠) ألف سنة نورية ويلمع فوق لمعان شمسنا (٦٠٠) ألف مرة ، وظهر في غيوم [مجلان] نجوم يفوق لمعانها لمعان شمسنا من (١٥٠٠٠) إلى (٦٠) ألف شمس .  
يقول الدكتور (ديزن) في خطبة تلاها في المعهد العلمي بلندن : « إن من النجوم ما يبعد عنا (١٠٠) برسك والبرسك (٢٠٠.٠٠٠) مائتا ألف ضعف بعد الشمس عنا ، واشراقها يختلف أيضا فترى :

٢٤	نجما	إشراق	كل	منها	مثل	١٠٠	شمس
٣٤٠	»	»	»	»	»	٥٠	شمسا
١٣٥٠	»	»	»	»	»	٢٥	»
٤٨٤٠	»	»	»	»	»	١٠	شموس
١٣٢٠٠	»	»	»	»	»	شمس	واحدة
٩٣٣٠٠	»	»	»	»	»	١/٣	شمس

فنجم القطب من النوع الأول وبعده عنها أربعة ملايين بعد الشمس عن الأرض أي ٣٧٢٠ مليون ميل ، وهناك نجوم أبعد من نجمة القطب وأشد إشراقا منها ، فترى هناك ٢٦٩ من النجوم الجراء بعدها عنا (٢٠٠) مليون بعد الشمس عن الأرض والنجوم الصفراء منها ما يبعد عنا أقل من ٢٠ مليون بعد الشمس عن الأرض ، ومنها ما يبعد عنا أكثر من ١٠٠ مليون بعد الشمس عن الأرض .

### شمس الشموس

لقد تقدم في الجزء الأول في هذا الكتاب في أوله أن جميع الشموس في مجرتنا تجري حول شمس عظيمة ، وهذه الشمس تسمى [شمس الشموس] وهي العيوق [بتشديد الياء] الذي تدور كواكب المجرة كلها حوله ، ويقولون : « إن جرمه أكبر من الشمس مليونين ٤٢٠ ألف مرة ، واشراقه أكبر منها ٤٩٧٠٠ مرة وبعده عنا ٤٨٩ سنة نورية .

ويقولون : إن جميع الشموس ومنها شمسنا تدور حوله ، وعدد هذه النجوم في مجرتنا ٣٠ ألف مليون نجم أو شمس ، وقطر المجرة يقدر بنحو ٣٠٠ ألف سنة نورية ، وقطر السديم الذي في المرأة المسلسلة يبلغ عشرين ألف سنة نورية ، وأخفى السديم يبعد عنا ١٠ مليون سنة نورية .  
ومن أعجب العجائب أن تظهر اليوم [سديم] جديدة ، فقد كشف [هنزل] أكثر من ألفي سديم في ٩٠ صورة فوتوغرافية ، ووجد منها ٨٠٠ سديم ألمع من غيرها ، ومن هذه ٣٠ حلزونية ، وهناك سديم لولبية ومنها سديم المثلث ، وهذا السديم يبعد عنا ٨٠٠.٠٠٠ سنة نورية ، فهو أبعد جدا من المجرة ، ومجرتنا المذكورة يظن بعض علماء الفلك أنها سديم لولبي أيضا ، ولا يراها هكذا إلا من كان بعيدا جدا ، وبعد سديم المرأة المسلسلة ٦٠٠.٠٠٠ سنة نورية ، وطول قطره ٢٠.٠٠٠ سنة نورية .

ويقول [هبر] : إن بعده ٩٥٠ ألف سنة نورية ، وهو أبعد سديم عرف إلى الآن . إن السديم على اختلاف أنواعها عبارة عن عوالم كعالم مجرتنا التي تحوى ٣٠ ألف مليون شمس كما تقدم ، ولقد قلنا إن سديم المرأة المسلسلة فيما تقدم إن بعده فوق ٩٠٠ ألف سنة نورية ، وهناك في جهة كوكبة [شعر برنقي]

والسنبلة سدم بعدها عنا مليون سنة نورية ، وسرعة بعضها ٣٠٠ كيلومترا في الثانية ، وبعضها ٦٠٠ كيلومترا فيها ، وقد ظهرت أبعاد مجموع من نجوم و سدم تبلغ ٢٨٢٢ للاستاذ شالي اذ أبعدها كلها مليون سنة نورية ، فلأن كوكبا منها فقد منذ ٩٠٠ ألف سنة فان نوره لا يزال يجري الى الأرض ، ويبقى بعدنا مائة ألف سنة ، وهذه عجائب فوق عقولنا ، ما أوسع هذا الكون ؟ ان النور يسير في الثانية ١٨٦ ألف ميل ، واذا دار حول الارض لم يستغرق أكثر من سبع ثانية ، واذا دار حول هذا العالم احتاج الى مائة مليون سنة نورية . وأرضنا لو صغرت كالجوهرة الفرد ( كما قدّمنا ) وصغر العالم على مقتضاها لرأينا ألف مليون أرض منتشر حولها .

قدّمنا أن في مجرتنا (٣٠) ألف مليون شمس ، وكل شمس لها سياراتها وتوابعها كشمسنا ، وفي الفضاء مليونان من السدم ، وكل سديم أشبه بمجرتنا ، وفي الكون فضاء يفوق الفضاء الذي يرى بالتلسكوب ألف مليون ضعف ، ويقدر عدد السدم فيه إذ ذاك بما يبلغ ألفي مليون مليون سديم ، فاذا كان في كل سديم منها ألف مليون نجم كان عدد النجوم في الفضاء المنظور وغير المنظور نحو ٢ على يسارها ٢٤ صفرا ، أو ٢ مليون مليون مليون مليون كوكب ، أو ٢ ألف ألف ألف ألف ألف ألف ألف كوكب .

ولأقتصر على هذه الخلاصة الآن من علم السماء لتعرف أيها الأخ رحمة الله الواسعة ، واسعاها لنا ، واشراق نوره علينا .

الله أكبر : ما هي هذه السماء ؟ وما هي عيني التي تنظر السماء ؟ اللهم حارفكرنا في جمالك ، ما هذه السماء ؟ وأي عالم تسير فيه الكواكب ؟

الله أكبر : انظر أيها الأخ الذكي - فيما كتبناه في ﴿ سورة الصافات ﴾ في أولها ، وأعجب من أن عالم الأثير الذي تجري فيه هذه الكواكب المذكورة عالم لا يحس ولا يرى ولا سكه وهو كالمعدوم أثقل من الحديد والرصاص والذهب أضعافا مضاعفة ، أي انه لو كان جرما لكان كذلك ، فارجع إليه هناك وادرسه ، فهذا الفضاء المملوء بالأثير الذي لا ندرك وجوده أثقل من أثقل المواد الأرضية ، وهذا أمر عجيب غريب ، وهو مع غرابته تسبح فيه عوالم تبلغ اذا عرفت كلها ملايين الملايين ، وكل عالم منها يشابه مجرتنا التي تجمع ٣٠ ألف مليون شمس ، وهذه الأعداد مدهشة .

هذا هو الفضاء فوقنا ، وهذه عوالمه ، ألسنت أيها الذكي - وأما أدرس العين معك قد رأينا هناك ملايين من الأشكال في طبقة واحدة من عشر طبقات من الشبكية ، وهناك طبقات أخرى ، والعين جزء صغير من أجسامنا فكيف تكون حال المخ ؟ وكيف تكون حال بقية الجسم كله ؟ أفلا ترى معنى أيها الذكي - أن عيوننا تحوى من العوالم نحو عدد ما تحويه مجرتنا من الشمس ، وأن مخنا في عظمتة يشبه شمس الشمس في عظمتها ، وأن جسمنا كله يشبه المجرات كلها والسدم كلها في عدد كواكبها .

دهشنا يا الله من عجائب عيوننا ، ومن عجائب أجسامنا ، ومن عجائب عوالمك الكثيرة ، وبهذا عرفنا بصيصا من قولك : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » .

إن في هذه السورة : (١) الرحمة في البسملة (٢) والنظر (٣) والسماء في الآية ، واعرفه هذه الثلاث كتبنا هذه المقالة ، رسي درس ذلك المسلمون بعد ما قرؤنا وقرؤنا ، وستفتح لهم أبواب وأبواب في هذه الثلاث ، ولكنهم بعد آلاف السنين يخاطبهم الله قائلا « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

أيها المسلمون : « السنة الخلق أقلام الحق » ، قد اشتهر في كل مجلس ومقام ما يقوله العاقل والعلماء على حد سواء وهو : « القرآن لا ينتهي عجائبه ، ولا تنقضي غرائب » ، وفي الحديث : « إن أعلاه لمثمر ، وإن

أسفله لمصدق ، وأنه يعلم ولا يعلم عليه .  
الله أكبر : هاهنا باب العجائب قد فتح الآن : فاجوه وادرسوا ، فتح على مصراعيه فاستبشروا  
بالسعادات والهناء والكمال .

### تطبيق أقوال الصلاة على عجائب البصر وعجائب السموات

سيقرأ هذا المقال في تفسير الرحمة ، وتفسير : قل انظروا ماذا في السموات والأرض ، فيقولون : اننا في  
الرفع والاعتدال نقول : « ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء  
بعد » ، ثم يقولون : « إن الحمد ليس فائدة تملأ بها السموات ، وإنما الحمد ثناء بالجليل على من له جليل  
اختياري » ، وهذا الثناء لفظي لا يفبعث إلا عن امتلاء القلب بجميل أفعال الممدوح ، إذن الحمد لا يصح إلا بعد العلم  
بمزايا الممدوح ، والله أبرز لنا هذه العوالم وكلها بديعة ، فنحن نحمده عليها وليس يصح حمدنا عليها إلا بعلمنا بها ، والعلم  
إنما هو حضور صورة المعلوم في نفس العالم ، وعلى مقدار استكمال العلم في نفس الحامد يكون استكمال حبه للمحمود ،  
وهذا الحب يحرك اللسان بالثناء ، والجوارح بالأفعال ، فالمصلي يكون حده على مقدار إحاطته بالعوالم ، فذكر  
المصلي للسموات والأرض وما بينهما وما بعدهما يراد علمها سواء أكان قليلا أم كثيرا والحمد على مقتضاه ،  
وكما ازداد المصلي علما بهذا ازداد من ربه قربا .

هذا معنى ملء السموات والأرض إلى آخره ، لأن صفات الله ظهرت آثارها في هذه العجائب ، وعبر عن  
إحاطتها بالعلم بلفظ الملء ، كأن المصلي العالم قد أدرك الأشياء فكأن علمه أحاط بها وملأها ، وكل امرئ بما  
العوالم ، هذا في حال الرفع والاعتدال ، فأما في حال السجود فإن المصلي يقول : « سجد وجهي للذي خلقه  
وصوره ، وشق سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين » فهنا ذكر المصلي السمع والبصر والله يقول :  
« فاسجد واقترب » فهنا الاقتراب لأن الدقة في صنع السمع والبصر كما قدمناه أخرى بأن تقرب العبد من  
ربه « والنظر للسماء في حال الرفع أشبه بالمقدمة لذلك ، فلمسلم في ذكره السموات كالمتبدي ، وفي ذكره السمع  
والبصر في السجود كالمنتهى ، وهذا هو الحق الصراح ، ألا ترى رعاك الله أن موضوع البصر الذي شرحناه  
في هذا المقام يأخذ بلب العارف به ويرى في نفسه شوقا وحبا وغراما ، ويكاد فؤاده يطير من الحب والبهجة  
والجمال ، ولكن ذلك لا يكون إلا لقليل من الأذكياء في هذا النوع الانساني ، بهذا يقترب الانسان من ربه  
اقتربا علميا مع الحب والبهجة .

هذا معنى قوله تعالى : « واسجد واقترب » فهنا هوذا سبحانه ذكر السجود والاقتراب بعد ذكر السمع  
والبصر ، وتشرح السمع والبصر ، والوقوف على عجائبهما ، وهذا يذهل اللب فيكون الحب والقرب ، أما  
النظر إلى السماء فليس فيه هذه البدائع ، فليس المدار على عظمة الأجرام كأجرام الكواكب ، ولكن المدار  
على احكامها ودقتها كدقة حذقة العين التي تقدم شرحها .

الله أكبر : ان الآلات الدقيقة المعدنية الفلكية قد لا تساوي درهما أو دراهم قبل صنعها وهي بعد الصنع  
قد تساوي مئات الجنيات ، وهل هذا الثمن إلا لدقة صنعها ؟ ولما كان المدار على دقة الصنع والإحكام ، لا على  
عظم الأجرام حشرنا الله في هذه الأرض وأمرنا ألا نظير منها إلى عوالم أخرى ، يريد منا أن ندرس هذه  
الأرض وما حولها وهو يعلم أننا لن ندرسها إلا إذا احتجنا إلى ما فيها ، وهل هناك حاجة أكبر من حياتنا نحن  
وبقائنا لحكم علينا ان نغتذي منها هي ، وأحوجنا إلى العمل لاستخراج كنوزها ، وكل هذا نتيجة ارتقاء  
نفوسنا ، كل هذا يفهم من أقوال المصلي في صلاته إذ يشكر ربه على السمع والبصر بعد أن شكره على  
السموات والأرض ، ثم سمع الله يقول : « واسجد واقترب » ، إذن السجود به يكون الاقتراب ، لماذا ؟



لأنه درس أدق الأعضاء ، فأما دراسة العوالم كلها اجالا فأنما هو تشويق للباحث الجزئية .  
 اللهم إنا نحمدك جدا كثيرا على نعمك ، ونشكرك على آلائك ، نحمدك على العلم ، ونشكرك على  
 الفهم ، ومن أجل النعم أن دين الاسلام بمنزج بمصالح الدنيا بحيث أن أجل العبادات وأشرف الأعمال ما كانت  
 وجهته المنفعة العامة للأمة ، فهذه هي ذمة مسألة العين وطبقاتها وابداعها وجمالها كيف كانت دراستها من أسباب  
 حبك ، والاستغراق في بهجة جالك ، والقيام بالحكمة ، والازدياد من العلم ، وكيف كان المصلي في رفعه ،  
 وفي سجوده في أقواله يجمع ما بين مبادئ العلوم في الأول ونهاياتها في الثاني ، وكيف كانت أقواله في الرفع  
 منطبقة على الدراسة العامة في المدارس الثانوية في جميع مدارس العالم ، لأن تلك الدراسة يراد بها الامام  
 بالعوالم المحيطة بنا بقدر الامكان ، ثم كيف كانت أقواله في السجود في حال اقترابه منك موافقة كل الموافقة  
 للدراسة الخاصة التي بها يكون الانسان مستحوذا على علم خاص قد ملك ناصيته .  
 ومن أعجب العجب أن ما تقدم في دراسة العين وما فيها من دقة الوضع وحسن الاتقان بصائر للناس  
 وهدى ورجة .

### تسبيح المخلوقات

فهذا يفهمنا بصيحا من معنى قوله تعالى : « وان من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم  
 إنه كان حليما غفورا » ، ألم تر يا رعاك الله إلى سواد القزحية ، وضبطه للنور فيما تقدم ، وحفظه للصورة التي  
 جعلها حتى تصل الى المخ ، فهذا السواد ينظر له كل امرئ على مقتضى ادراكه ، فأما العاشق فلا يهمه إلا  
 أنه جال ظاهري فيكون إذ ذاك سببا للتناسل ودوام العيش في الحياة ، وأما الطبيب فانه ينظر اليه من حيث  
 الصحة والمرض ، وفي الحال الثانية يستعمل العقاقير ، فأما الحكماء فانهم أرقى منزلة ، وأرفع قدرا ، ألا ترى  
 رعاك الله أنهم ينظرون نظرا عاما فيقولون : ان هذا السواد انما وضع هنا لحكم ، فيه حفظ الصورة وضبط  
 الضوء ، وهذه تذكرنا بألوان الحيوان المذكورة في ﴿ سورة المؤمنون ﴾ وفي ﴿ سورة الروم ﴾ وكيف نرى  
 أن الجمل والأسد والنمر كانت ألوانها موافقات لبيئتها ، والرمال والجبال حولها ، وكيف كان سواد الفأر لكثرة  
 أعدائه ، فلو كان بلون غيره لأظهره النور فصار طعمة للمفترسات ! ثم كيف نرى ذلك الطائر الأبيض في أمريكا  
 يظهر بذيله الطويل ليلا وهو غير خائف ولا وجل مما حوله من الفائنات ، ذلك لأن له رائحة خبيثة يطلقها  
 على كل من اقترب منه وآذاه ، كما يفعل الظربان من ذوات الأربع في القفار ، ثم كيف نرى الزنبور ظاهرا برقشه  
 ونقشه لا يخاف عدوا ، ولا يبالي بصروف الأيام ، ذلك لأن له حجة تفتك بالأعداء .

هذا كله مشروح شرحا وافيا في ﴿ سورة المؤمنون ﴾ وفي ﴿ سورة الروم ﴾ مع الصور الشمسية فارجع  
 إليه ، أليس هذا كله تنزيها لله عن العبث في أفعاله ، وأنه لا يضيع لونا ولا شكلا ولا حجما إلا لحكمة ، ولم  
 يلقن العين ويجعل في قزحتها السواد مثلا ، ولم يجعل لها قرنية ولا رطوبة بيضية ولا قزحية ولا انسان عين  
 وهي الفتحة في القزحية ، ولا بلورية ، ولا رطوبة زجاجية ، ولا شبكية ، ولا مشيمية ، ولا صلبة إلا لحكمة خاصة  
 ترجع للنظر .

فيأليت شعري هل للتسبيح معنى إلا هذا ؟ هذا تسبيح وهذا حمد ، أما الحمد فعلى هذه النعمة وهي نعمة  
 العين ، وأما التسبيح والتنزيه فذلك أن هذه الأشكال وهذه الطبقات وهذه الألوان ظهر أنها كلها محكمة  
 تفوق الوصف ، بهذا يفهم المسلمون قوله تعالى : « وان من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم »  
 أوليس من العجب أن التعبير بلفظ الفقه وهو دقة الفهم يذكر بآية الأنعام إذ يقول : « فالتق الاصباح  
 وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم » .

ثم قال : « وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فستقرّ ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون »  
 فجعل العلم في جانب علم الفلك ، والفقه في جانب الانسان وعلم التشرّح ، إذن قوله تعالى : « ولكن لاتفقهون »  
 تسيبهم » يشير إلى ما في الطبيعة من العجائب كطبقات العين وبدائعها المذكورة ، وقوله : « إنه كان حليما غفورا » ، فأما حلمه فهو ظاهر ، فإن الانسان مناجم على الأطفال والجهال إذا أخطأوا وجهلوا ، ويرى الانسان طفله لا يعقل نعمه ولا يفهم مقدارها فيحلم الانسان عليه لقلة إدراكه ، وهذا هو السبب في قوله تعالى : « إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » فهكذا يعامل الله عباده ، فهو يعلم أنهم يجهلون جهلا فاضحا ما أعطاهم من النعم ، فأننا لا نجد عالما ولا جاهلا في نوع الانسان يدرك نعمة العين مثلا ، ولكنه يفهم مقدار الطعام عند من أكرمه به ، ويفهم العطايا المعتادة ويصبح محبا لمن أعطاه ، ولكنه قط لا يتذكر نعمة العين ، بل هو يجهل تفصيلها ، إذن الله يعامل عباده لجهلهم بنعمه معاملة أجدنا ولده ومعاملة أشرافنا وأنبيائنا الفقراء والمساكين لأنهم لا يعرفون نعم المحسنين لهم ، فهذا معنى كون الله « حليما » في هذا المقام ، وأما الغفران فهو راجع لمن أعطاهم الله استعدادا للعلم والفهم فدرسوا هذه العلوم فعرفوا النعمة فأحبوا مسديها كما يحب الرجل العاقل من أعطاه مالا ، أو كساء ثوبا ، والغفران هنا كالغفران في أول سورة الفتح الذي جعل بابا للفتح بالعلم والمعرفة ، فالله حلیم على عبده لجهله ، فإذا استعد للعلم وبه يعرف النعمة ويحب ربه يجعل الغفران مقدمة لذلك الفتح والله هو الولي الجيد .

### سر من أسرار حكم العين وسواد قزحيتها

سواد القزحية حفظ النور كما تحفظ الجسور ماء الأنهر ، وكما تحفظ القوة الغضبية أشخاص الحيوان ، فهنا نور حافظة سواد القزحية في العين ، وههنا ماء حفظه الجسور ، وههنا قوة شهوية في الحيوان أحاطت بها قوة غضبية لتحفظ بقاءها بمدافعة الفاتكات ، وههنا أم تحفظها جيوشها من هجوم الأعداء ، إذن سواد العين ، وجسر النهر ، وغضب الحيوان ، وجيوش الدول ، كل هذه حافظات لما ينفع الناس من نور وماء وحياة فرد أوحياة أمة . انتهى الكلام على اللطيفة الثانية في آية : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها فروج » أي مبجستها معا وهما مبحث العين وطبقاتها ، ومبحث السماء ونجومها ، وكل هذا قد لوحظ في بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين .

### اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج

بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب »

في هذه اللطيفة مقالتان

### المقالة الأولى في قوله تعالى : وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج

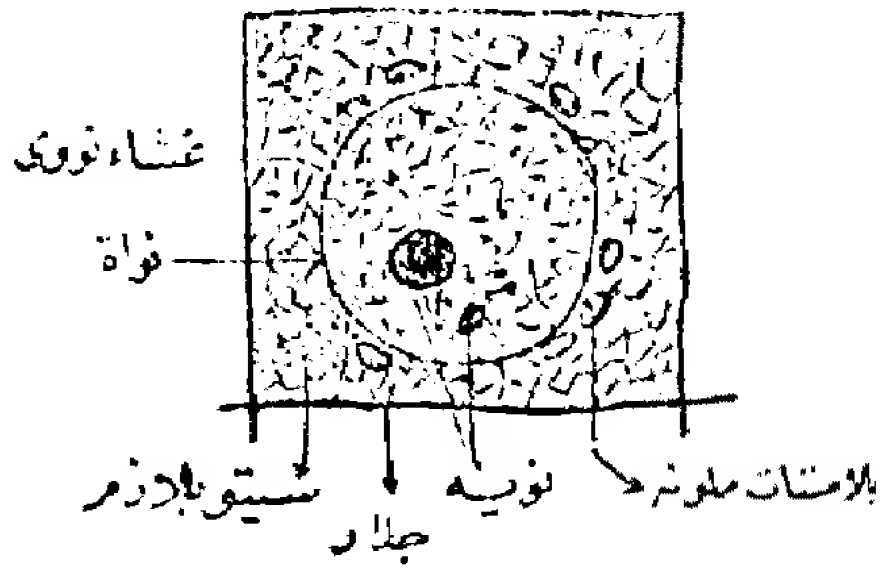
لما وصلت إلى هذا المقام حضر صاحبي العالم وقال : لقد تقدم في هذا التفسير مقالات كثيرة في النبات ، ولكنني أريد اليوم الوقوف على ملخص علم النبات بحيث يكون كأنه حاضر أمامي . فقلت : أيها الأخ الذكي : إن هذه الأرض والعوالم خوطا كثيرة كثرة لاضابطها إلا العلم ، ولا جرم أن النباتات على الأرض مبعثرة مشتتة ولن يضبطها إلا الوحدة ، فقال مامعنى الوحدة هنا ؟ فقلت : إن عقول الناس في هذه الأرض كلها مشغوفة بالوحدة لأن الوحدة هي التي تطمئن بها القلوب ، ألا ترى أنهم يجعلون لكل منزل رب أسرة ، ولكل بلدة رئيسا ، ولكل أمة ملكا ، أو أميرا ، أو رئيس جمهورية ، كل ذلك للوحدة ، ونظير هذا في العلوم فانهم

قسموها إلى مجموعات كل مجموعة سموها علما ، ثم قالوا : هذه العلوم كلها تسمى واحدا ، وهذا الواحد انقسم إلى علوم ، وكما يرجعون جميع الأعداد إلى الواحد ويرجعون العالم كله إلى الوحدة فيقولون : الله خلق العالم أي بعد البحث والتحريص ، فهناك تطمئن القلوب الحديمة التي درست هذا الوجود كله دراسة حقيقية ، أما إمامة وصغار المتعلمين فهم من واحد واحد يعيشون ويموتون وهم متحسرون على السعادة الحقيقية وهي الاطمئنان ووقوف النفس على الحقائق ، لاسعادة لأهل هذه الأرض إلا في هذه المسألة التي هي مسألة المسائل فهكذا فيما نحن فيه وهو علم النبات ، وما علم النبات إلا جميع هذه العوالم ، نراها مبعثرة مشتتة : نهر ، بحر أرض ، جبل ، جبل ، خيش ، أكواخ ، سحب ، كواكب ، هواء ، ذئب ، أسد ، جمل ، حمار ، غزال مسك وهكذا أمور لا يدري الإنسان أولها ولا آخرها ، فبالعلوم والحكمة تضبط هذه كلها ، كذلك علم النبات فانا نقول : أرز ، نخل ، حشائش ، عبل ، فج ، صنوبر ، قمح ، وهكذا الاضابط ولا قانون فلا علم ، وإنما هي أمور مبعثرات هنا وهناك ، فإذا رجعناها للوحدة سعدنا وأحسننا في أنفسنا بسعادة علمية جزئية ، ومتى درسنا مجملات العلوم كلها ورجعناها لوحدتها سعدنا السعادة التي لانهاية لها في نفس هذه الحياة سعادة مجملية محقة . فقال صاحبي : والله لقد شوقتني إلى هذه الوحدة في النبات التي بها تكون سعادتني . فقلت : إن جميع الكائنات الحية نباتية كانت أحيوانية مركبة من وحدة أو وحدات صغيرة تسمى كل منها خلية ، وهذه صورتها ( انظر شكل ٨ الآتي )

وأشرحها لك فأقول : « إذا تركب جسم النبات من خلية واحدة سمي « وحيد الخلية » أما إذا تركب من جلة خلايا فيقال له « عديد الخلايا » وتركب مادته من جدار خارجي مادته كبروتيدراتية صلبة مرنة شفافة تسمى « السليولوز » وفي داخل الجدار مادة لزجة تسمى « البروتوبلازم » وهو الجزء المهم في الخلية ، لأنه هو المادة الحية ، واسنا نعرف بالضبط كنه الحياة ، غير أن للمادة الحية المسماة « البروتوبلازم » صفات تميزها عن الأجسام الميتة منها :

- أولا : ان للبروتوبلازم القدرة على هضم وتمثيل الغذاء [ أي تحويله إلى مركبات بروتوبلازمية ] .
  - ثانيا : انه يؤكسد الغذاء ويخرج الفضلات .
  - ثالثا : ان له القدرة على النمو .
  - رابعا : ان له القدرة على الحركة .
  - خامسا : انه يتأثر بالضوء والحرارة والرطوبة .
  - سادسا : ان له القوة على التكاثر والتوالد .
- وبروتوبلازم الخلية يشمل جسما برقا أ أكثر كثافة منه يسمى « النواة » والمادة البروتوبلازمية التي حول النواة تسمى « السيتوبلازم » .

### النواة



( شكل ٨ )

تركب النواة من شبكة مكونة من قضبان صغيرة تسبح في سائل يعرف « بالسائل النووي » ويحيط بالنواة من الخارج غشاء رقيق هو « الغشاء النووي » ( انظر شكل ٨ ) وقد يوجد داخل النواة جسم كروي صغير يسمى « النوية » وقد تحتوي النواة على نوية واحدة أو أكثر .

والنواة أهم جزء في الخلية ، ويمكن الاستدلال على ذلك بقطع خلية إلى قسمين : يشمل الأول منهما نصف البروتوبلازم بما فيه النواة كلها ، ويكون الثاني خاليا من النواة ، أما القسم الأول فينمو ويستعيد ما نقص منه ، وأما الثاني فيموت بعد فترة من الزمن اه

فقال صاحبي : إذن هذه الخلية هي أصل كل حيوان وكل نبات ؟ نقلت نعم . فقال : يظهر لي أن هذه الخلية أشبه بمنزل فيه أسرة تسكنه لأنه محيطها والسليولوزي نظام في داخلها وهو الجزء المهم ، إذن هي كالجوزة ، أو كإنسان لها عظام في داخلها المخ ؟ قلت نعم نطقت بالصدق ، وأيضا في الحيوان قوة يحافظ بها على نفسه تسمى غضبية ، وقوة بها يعيش وهي الشهوية ، ولأولى كالمسكن ، والثانية كالسكان ، إذن القاعدة واحدة في هذا النظام العالمي ، وهذه الآراء هي مبدأ السعادة التي حدثت لك عنها ، فإذا أمكننا أرجاع كل نبات إلى تلك الوحدة وأخذنا نفرّع عنها فروعا تشمل كل نبات كان ذلك سعادة جزئية خاصة بالنبات . فقال : أريد التفصيل بعد هذا الاجال ؟ فقلت : إن النباتات على قسمين : دنيئة ومرتقية ، والدنيئة يكون انقسام الخلية فيها انقساما مباشرا ، والمرتقية يكون الانقسام فيها غير مباشر :

### ١ - الانقسام المباشر

تكون طريقة الانقسام في خلايا بعض النباتات الدنيئة في الغالب بسيطة ، فيحصل خرف في وسط النواة يمتد إلى باطنها شيئا فشيئا حتى تنقسم إلى قسمين : يتبع ذلك انقسام السيتوبلازم ، ويسمى هذا النوع بالانقسام المباشر .

### ٢ - الانقسام غير المباشر

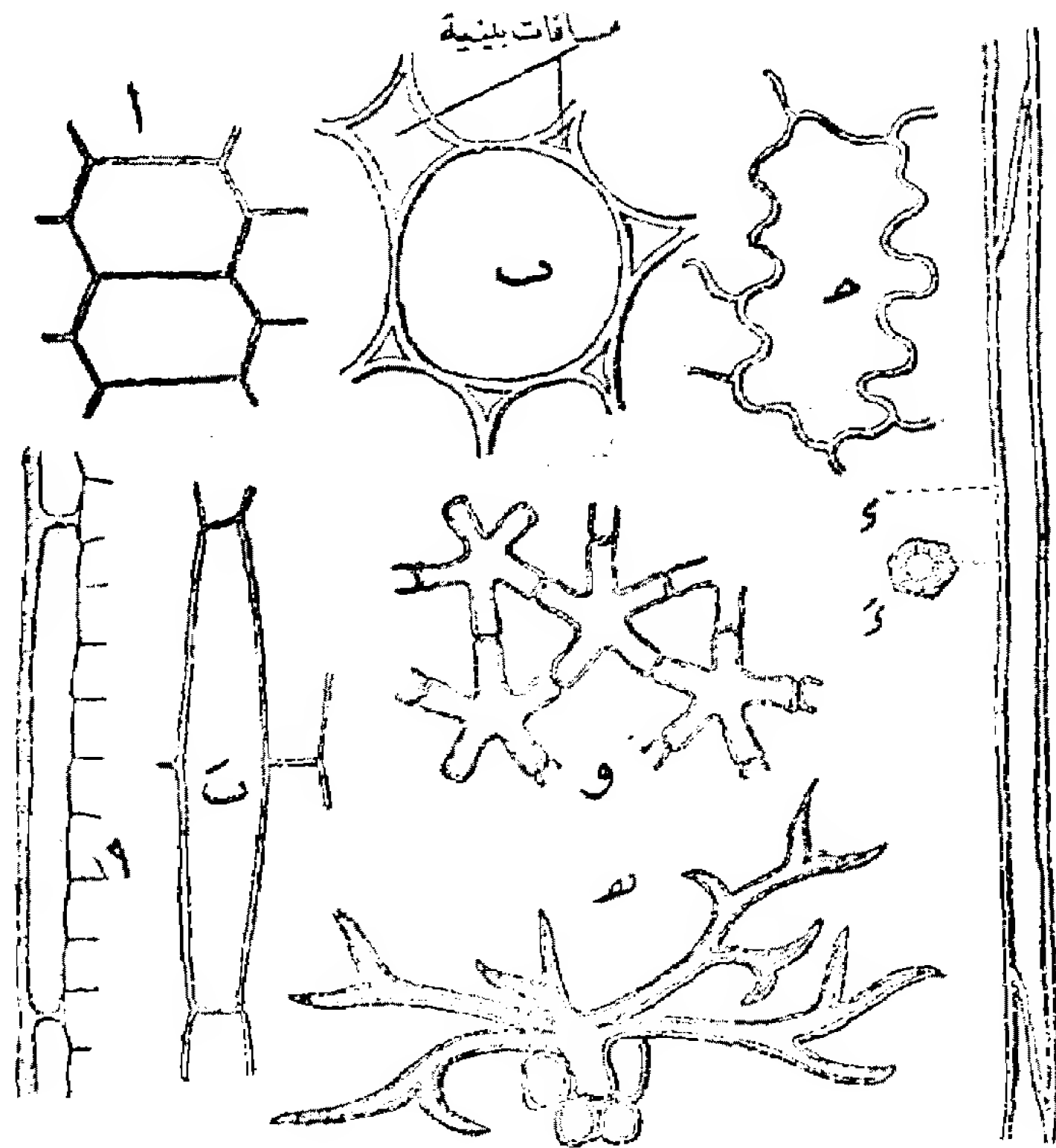
انقسام النواة في الخلايا العادية للنباتات الراقية يكون أكثر تعقيدا منه في الحالة السالفة ( شكل ٩ ) فعند ما تأخذ النواة في الانقسام تنفصل القضبان التي تتكون منها الشبكة النووية ، ثم ينشط كل منها طويلا



( شكل ٩ )

إلى شطرين متساويين ومتشابهين من كل الوجوه ، انقسام الخلية غير المباشر ١ - ٩ أدوار مختلفة في الانقسام وينجذب كل من الشطرين إلى قطب الخلية المقابل له ، فتجتمع أنصاف القضبان في قطب ، والأنصاف الأخرى في القطب الآخر ، ثم تتحد أفراد كل مجموعة مكونة بذلك شبكة نووية جديدة ، وينشأ بعد ذلك تكون غشاء في السيتوبلازم يفصل النواتين الجديدتين ، وتنقسم الخلية بهذه الطريقة إلى خليتين تكون نواتهما متشابهتين في صفاتهما وعدد قضبانهما ، وتسمى هذه الطريقة بالانقسام غير المباشر اه

ثم قلت : انظر أيها الصديق إلى الخلية الواحدة ، ألانراها كمنزل تسكنه أسرة ، ثم انظر كيف صار هذا المسكن مساكن بطريقة تخالف طرائقنا في بناء مدنا ، فنحن نبني بيتا بجانب آخر ، أما هذه الخلية فانها تكبر وتنقسم بطريقةين مختلفتين . فقال : حسن ولكن أريد أن أعرف هل هذه الخلايا شكلها كلها واحد أم هي أشكال مختلفة ؟ قلت : كما أن الناس اختلفت أشكالهم هكذا تختلف أشكال هذه الخلايا ، بل إن هنا أمرا عجبا ! ذلك أن هذه الخلايا تعمل عمل العقلاء من الناس ، فإن العقلاء يجعلون الهواء يتخلل بيوتهم هكذا هذه الخلايا فهي مختلفة في صورها كالناس محكمة نظام وضعها بحيث يتخللها الهواء ( انظر شكل ١٠ )



( شكل ١٠ - ( أ ) خلايا مرستيمية ( ب ب ) خلايا برنشيمية ( ج ج ) خلايا البشرة ويرى جدارها العلوي غليظا ( د د ) خلايا ليفية ( هـ هـ ) خلية شعرية وبرية متفرعة ، ( و و ) خلايا نجمية الشكل بينها مسافات بينية واسعة )

إن الخلايا البالغة متعددة الأنواع ، مختلفة التركيب ، فما كان منها متساوي الأقطار كرويا أو مستطيلا قليلا رقيق الجدران ، وبه فجوة وسطية سمي بالخلايا البرانشيمية ، وعندما تنمو الخلايا البالغة تتفكك أركانها ، ويتكون بينها وبين بعضها مسافات يتخللها الهواء تسمى بالمسافات البينية ( شكل ١٠ - ب ) وهي موزعة في النبات بحيث يتمكن الهواء من تخلل جميع أجزائه ، وقد تستعمل المسافات البينية لتخزين بعض منتجات الخلايا كما في نبات الصنوبر .

ثم قلت : انظر للصنوبر والبرتقال والليمون مثلا كيف فعلت ما نفعله نحن فأننا نضع أمتعتنا في الخلاء الذي في داخل مساكننا ، وإلى الغاب كيف تحلات منه خلايا لي يكون فيها هواء كما تفعل الحكومات إذ تهتم بأبنية لتجعل فيها الشوارع .

فقال صاحبي : أما الآن فإني قد فهمت وحدة النبات فهما حقيقيا ، فأريد الآن أن أعرف أدنى النباتات وأعلىها . فقلت : أما أدنى النباتات فهي النباتات الدنيئة التي تتركب أجسامها من خلية واحدة ، تقوم هذه الخلية بجميع الوظائف اللازمة كالامتصاص والتنفس والنمو والحركة والتناسل ، أما في النباتات الراقية فيتكون جسم النبات الواحد من عدد لا يحصى من الخلايا ، ولكي يقوم النبات بوظائفه خير قيام تخصص مجاميع من خلاياه بأعمال خاصة ، وتسمى كل مجموعة بالنسيج ، وعلى ذلك يكون النسيج عبارة عن مجموعة من الخلايا المتشابهة في الأصل ، وغالبا في الشكل تقوم بعمل متماثل ، وأنسجة النبات الحي تتعاون جميعا في تأدية وظائفه الحيوية ، ولا يمكن للنسيج الواحد منها أن يستقل بذاته ولو فصل عن باقي الأنسجة لما انت خلاياه تدريجا .

ثم قلت : انظر أليس تركيب النبات بقسميه كترتيب الجسم الانساني العام . فقال : وكيف ذلك ؟ فقلت :



أنت ترى أن النباتات الدنيئة التي هي من خلية واحدة وهي التي لانراها بأعيننا التي تشبه في صغرها أدنى وأصغر الحيوانات الذرية التي لانراها أيضا قد أشبهت رجال البادية ، فإن البدوي في خيمته هوكل شيء ، هو الذي له السلطنة على منزله ، وهو المدافع عنه ، وهو الحافظ له ، ويعيش مستقلا كأنه دولة واحدة ، أما النباتات الراقية فهي حتما أشبه بالأمة التي فيها جماعات كل جماعة لها عمل كرجال المالية والعسكرية والزراعة والتجارة والطب الخ ، وكما أن كل جماعة من هؤلاء في الجمعية الانسانية لاقيمة له مستقلا ، هكذا كل جماعة من جماعات الخلايا اذا استقلت فان خلاياه تموت .

وسترى في سورة الواقعة عند آية : « انهم كانوا قبل ذلك مترفين الخ » أن الأمم كلما كانت أقرب إلى خط الاستواء كانت أكثر تعرضا للأمراض ، وكلما بعدت عنه كانت أبعد عن تلك الأمراض ، وذلك أن الرطوبة والشمس بهما تنتشر الأمراض في الأول ، وعلى ذلك اذا لم تقم كل جماعة بما يخصها من حفظ البلاد كدرس حال الجو وحال الحشرات وأسبابها والوقاية منها فان الأمراض تكثر وتضعف الأمة كما يهلك النبات الراقى بدسل جماعات منه وضعفها .

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : أريد أن تشرح لي أولا النبات ذا الخلية الواحدة ، وبعد ذلك تشرح لي النبات المركب من خلايا كثيرة منه ؟ فقلت : أذكرك بما مر في سورة حم فصلت في المجلد التاسع عشر عند آية : « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة » فانك ترى هناك البكتريا وأنواعها مرسومة بمختلفة الأشكال وبها الحياة وبها الموت ، فلولاها لم يكن نبات مما نمتفع به لأنها هي التي تفتت المواد الغذائية لتكون صالحة لأن يتعضها النبات ، ومنها تكون الجراثيم القتالة المهلكة لنوع الانسان ، ولكن منافع هذه الأنواع أكثر من ضررها ، لذلك أبقاها الله في الأرض ، ومن النبات الدقيق الفطري الذي هو خلية واحدة الخيرة ونحوها ، هذا هو الذي تقدم .

فنحن إذن لانعيده هنا فانه موضع هناك أي إيضاح . فقال نعم . فقلت : إذن نرجع إلى ما نحن فيه ونشرح تركيب ساق الشجرة ، فاذا كان النبات المركب من خلية واحدة قد تقدم شرحه فلنتمم الآن النبات المركب من خلايا ، ونبدأ بشرح ساقه سواء أكان النبات من ذوات الفلقتين أم من ذوات الفلقة الواحدة ، فذوات الفلقتين مثل : السكرن ، والقنبيط ، والفجل ، واللفت ، والسليك ، والتفاح ، والكمثرى والشمش ، والخوخ ، والكريز ، والبرقوق ، والورد ، والبادنجان ، والطماطم ، والتبغ ، والبطاطس ، والفلفل ، والسنط ، والقثاء ، واللبخ ، والمستحبة ، والتمر هندي ، والخروب ، والسنامكي ، والفول البلدي ، والفول الرومي والفاصوليا ، والعدس ، والحبسة ، والحص ، والفول السوداني ، واللويبا ، والبسلة ، والبصلاب ، والترمس ، والبرسيم البلدي ، والبرسيم الحجازي ، والقطن ، والباية ، والحجازي ، والوف ، والحنظل . فهذه كلها من ذوات الفلقتين .

أما ذوات الفلقة الواحدة فذلك مثل : البصل ، والثوم ، والكراث البلدي ، والكراث أبوشوشه ، والهلين ، والصبار ، والنخل والدرم ، وجوز الهند ، والقمح ، والأرز ، والذرة الشامية ، والذرة العويجة الرفيعة ، والشوفان ، والشيلم ، والدخن ، والذنيبه ، وقصب السكر ، والغاب .

فقال : هذا حسن ، قد عرفت ذوات الفلقة الواحدة وذوات الفلقتين ، وكنت أود أن أعرف ذلك من قبل ولكن الحمد لله على نعمة العلم ، فأريد الآن أن تشرح في شرح ساق كل منهما لأنك شوقني إليه ، فاني أرى الفول والفاصوليا والعدس والحبسة والحص مثلا وآكلها ، ولكن لا أعرف كيف يكون تركيب ساقها ، ومن العار أن يكون الجمال حاضرا أمامنا ونحن عنه غافلون كالعميان أمام الغادات الحسان ! فقلت : إن النبات ذا الفلقتين تكون أول طبقة منه يراها الانسان :

(١) ما يسمى [كيتونين] وهي مادة شفافة مرنة ، تمنع نفاذ الماء والهواء ، وبذلك تبقى النبات تأثير الجفاف من زيادة بخار مائه الداخلي ، وقد يكون الكيتونين سميكاً في النباتات التي تعيش في المناطق الجافة ورقيقاً في النباتات التي تعيش في المناطق الرطبة ، هذه هي الطبقة الأولى . ثم قلت :

(٢) الطبقة الثانية : البشرة المركبة من طبقة سمكها خلية واحدة ، وهي خلايا متلاصقة حية ، وليست بينها مسافات .

(١) وهذه البشرة قد يمتد منها شعر رفيع ، وكل شعرة من خلية أرخايليا ، وقد يفقد الشعر ما في داخله فيمتلئ بالضوء فيظهر كأنه أبيض ، ونارة تكون فيه مادة لاذعة تحافظ على النبات مما يأكله ، فهي له وقاية حقيقية .

(ب) وفي هذه البشرة ثقب ، وتسمى ثغوراً ، وظيفتها أن يدخل منها الهواء ويخرج .

(٣) الطبقة الثالثة : القشرة وخلاياها رقيقة جداً ، بينها مسافات ، ونارة تكون خلاياها سداسية الشكل تقريبا .

(٤) الاسطوانة الوعائية ، ويلبها كتل مثلثة الشكل ، مرتبة على شكل دائرة ، وهي قطاعات عرضية للحزم الوعائية .

(٥) الحزمة الوعائية :

(١) وفي أعلاها حواجز تشبه الغربال تسمى الحواجز الغربالي ، وتسمى اللحاء .

(ب) وفي أسفلها من جهة مركز الساق قسم يعرف بالخشب أو الزيلم .

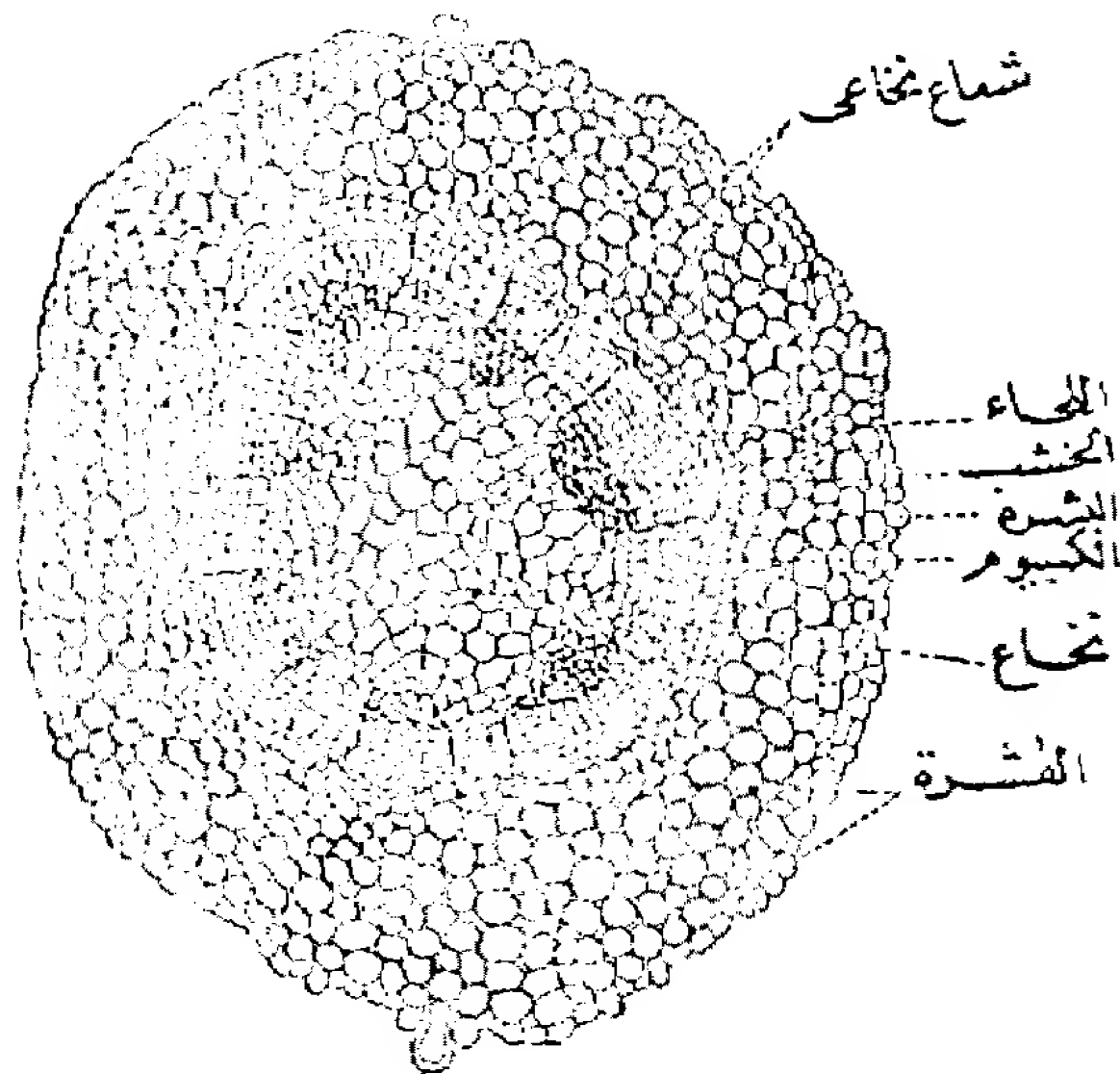
(ج) ويفصل اللحاء عن الخشب قسم يسمى [الكيمبيوم] .

(د) وخارج اللحاء قد تكون هناك ألياف ، وهذه قد تتكون منها اسطوانة كاملة حول الحزم الوعائية .

(٦) النخاع .

(٧) أشعة نخاعية وهي تصل القشرة بالنخاع بواسطة خلايا تمر بين الحزم الوعائية .

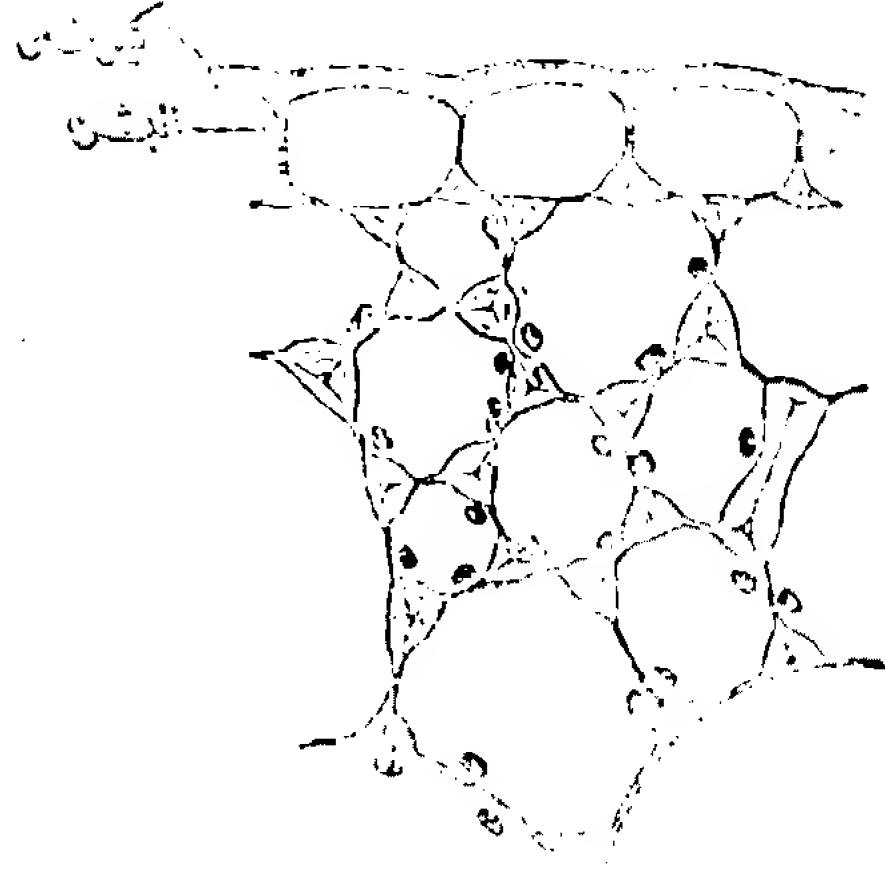
فقال صاحبي : هذا حسن ولكنني لم أفهم منه شيئاً ، لأنها أقوال وتعريفات صامتة ، وهذه سبعة أحوال وقد دخل أحوال أخرى تبلغ نحوها في العدد ، فأرجو إيضاح هذا بالأشكال . فقلت : (انظر شكل ١١)



( شكل ١١ - قطاع عرضي في ساق حديثة )

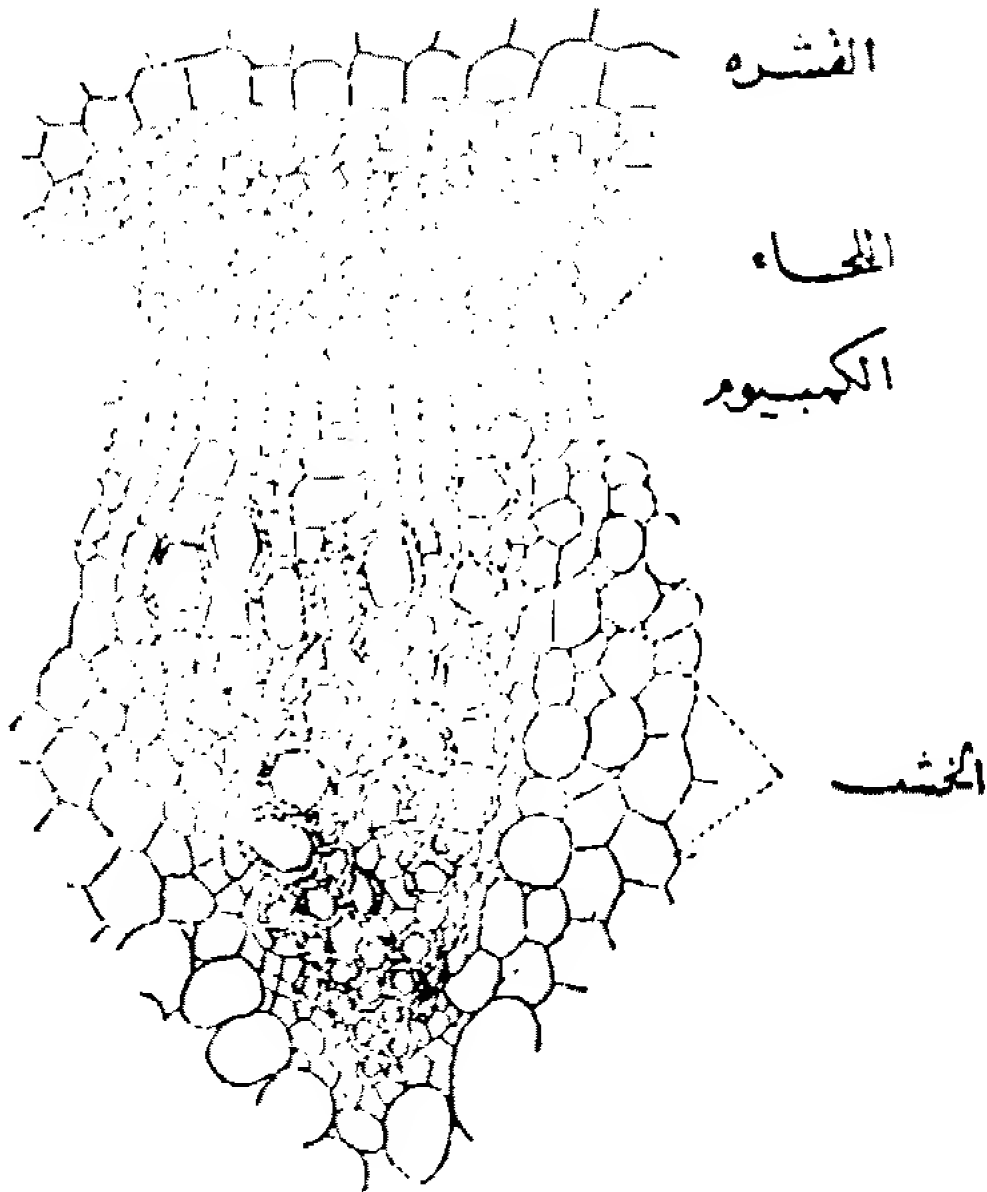
فهذه تظهر فيها : الشعاع النخاعي ، واللحاء ، والخشب ، والبشرة ، والكيمبيوم ، والنخاع ، والقشرة .

فقال : ولكن أين [الكيونين] ذلك الذي يحفظ للزرع مافيه من الماء إلى آخر ما تقدم . فقلت : انظر شكل ١٢ وهذه صورته



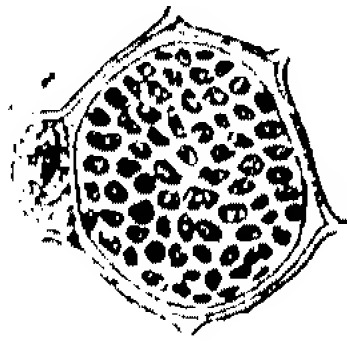
( شكل ١٢ )

فقال : أنا مارأيت الحزم الوعائية ؟ فقلت : هاهي ذه ( انظر شكل ١٣ ) :



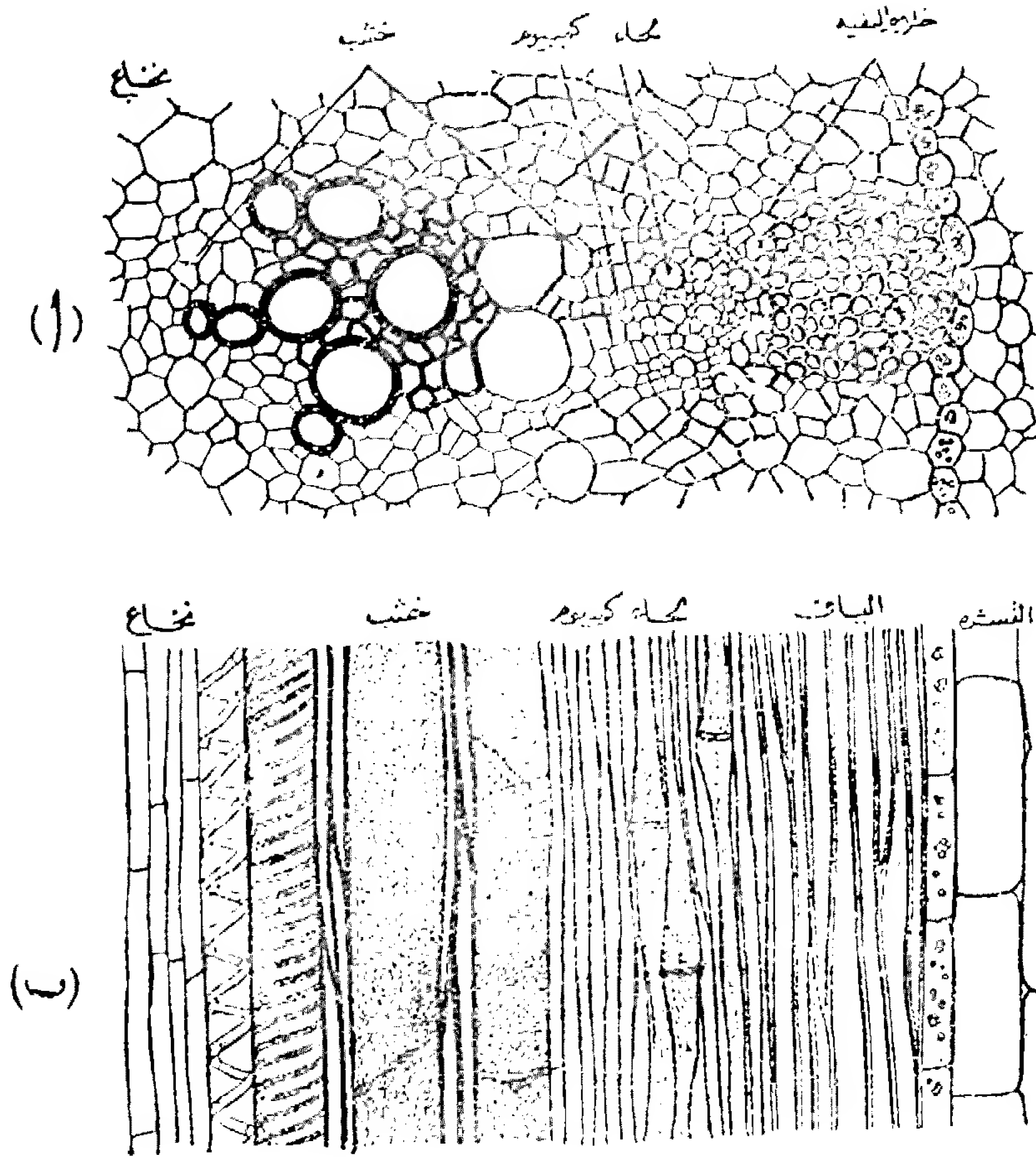
( شكل ١٣ - قطاع عرضي في حزمة وعائية صغيرة )

فقال : وأين الحاجز الغرابي ؟ فقلت هاهو ذا ( انظر شكل ١٤ )



( شكل ١٤ - حاجز غرابي )

فقال : ولكن أين الخلايا الليفيه ؟ فقلت ( انظر شكل ١٥ في الصفحة التالية )



( شكل ١٥ )

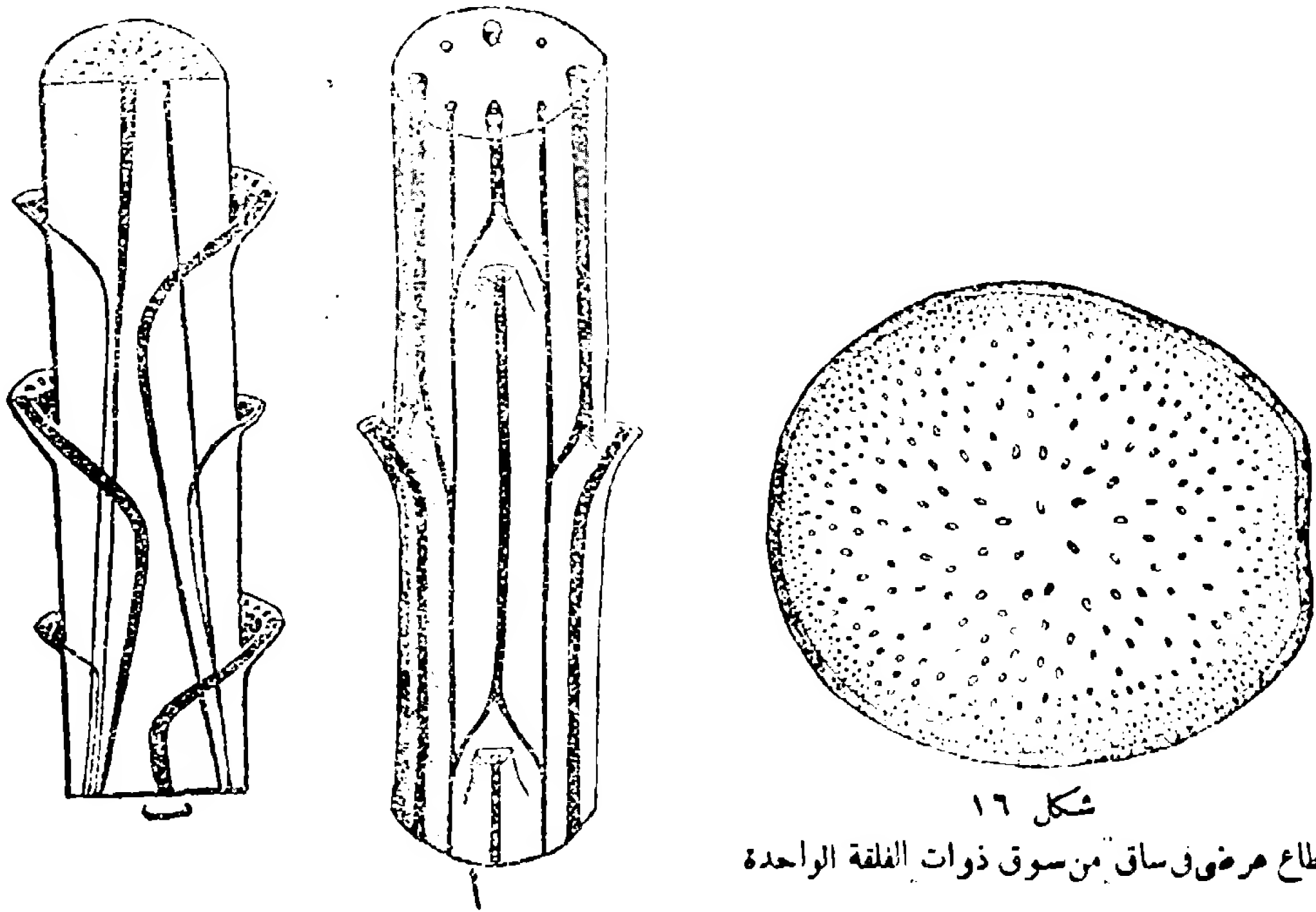
( أ ) قطاع عرضي في حزمة وعائية ، وترى الألياف بجوار الخشب

( ب ) قطاع طولي في نفس الحزمة .

فقال : قد فهمت سوق النباتات ذات الفلقتين ، ولكنني أريد أن أمتحنها بنفسى في الخارج . فقلت : من السهل الميسور مشاهدة الخيوط الليفية التي تمتد طولاً في ساق نبات رخو كالحلبة أو الملوخية بإزالة ما يحيط بها من الأنسجة الرخوة ، ويعرف مجموع تلك الألياف في الساق بالاسطوانة الوعائية ، والخيوط الواحد بالحزمة الوعائية ، وتقوم هذه الحزم الوعائية بتوزيع الأغذية المختلفة في النبات ، ومن السهل أيضاً مشاهدة الأنسجة الرخوة التي تحيط بالاسطوانة الوعائية من الداخل والخارج ، فالنسيج الذي في داخل الاسطوانة ويشغل الجزء المركزي من الساق يسمى [ النخاع ] والذي يحيط بالاسطوانة من الخارج يسمى [ القشرة ] وتغلف الساق من الخارج بنسيج شفاف رقيق مكون من طبقة واحدة من الخلايا يعرف بالبشرة كما في شكل ١١ المتقدم قريباً .

فقال : وكيف تكون هيئة النباتات ذى الفلقة الواحدة ؟ فقلت : الحزم الوعائية في سوق ذوات الفلقتين مرتبة على شكل دائرة منتظمة ، أما في سوق ذوات الفلقة الواحدة فانها كثيرة العدد مبعثرة بغير نظام واضح ( انظر شكل ١٦ و ١٧ في الصفحة التالية )

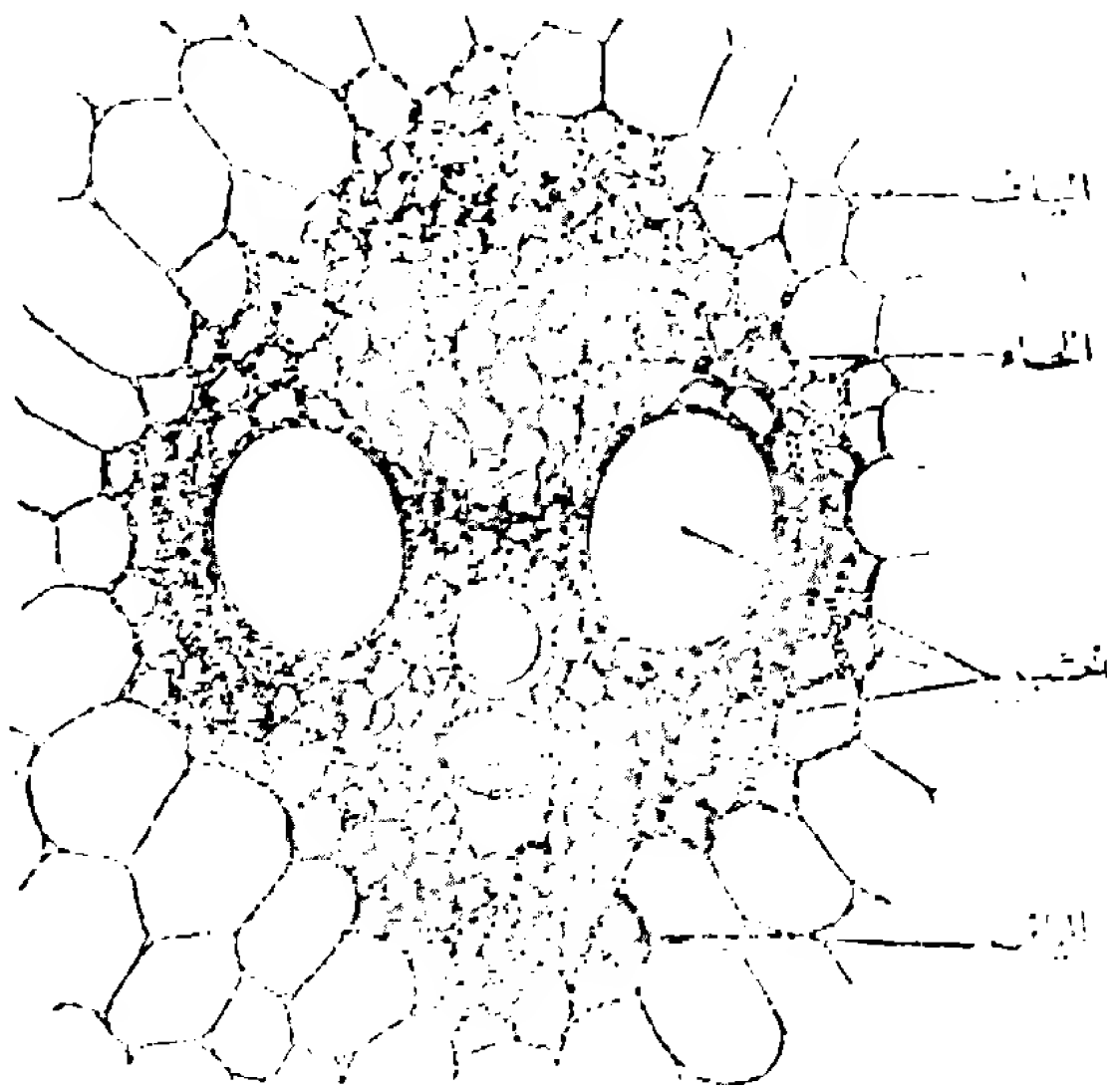
ولذلك لا يمكن تمييز مناطق القشرة والاسطوانة الوعائية والنخاع بوضوح فيها ، وزيادة على ذلك فان



( شكل ١٧ )

- ( أ ) بين سيرا الحزم الوعائية في ساق ذوات الفلقتين .
- ( ب ) بين سيرا الحزم الوعائية في ساق ذى الفلقة الواحدة .

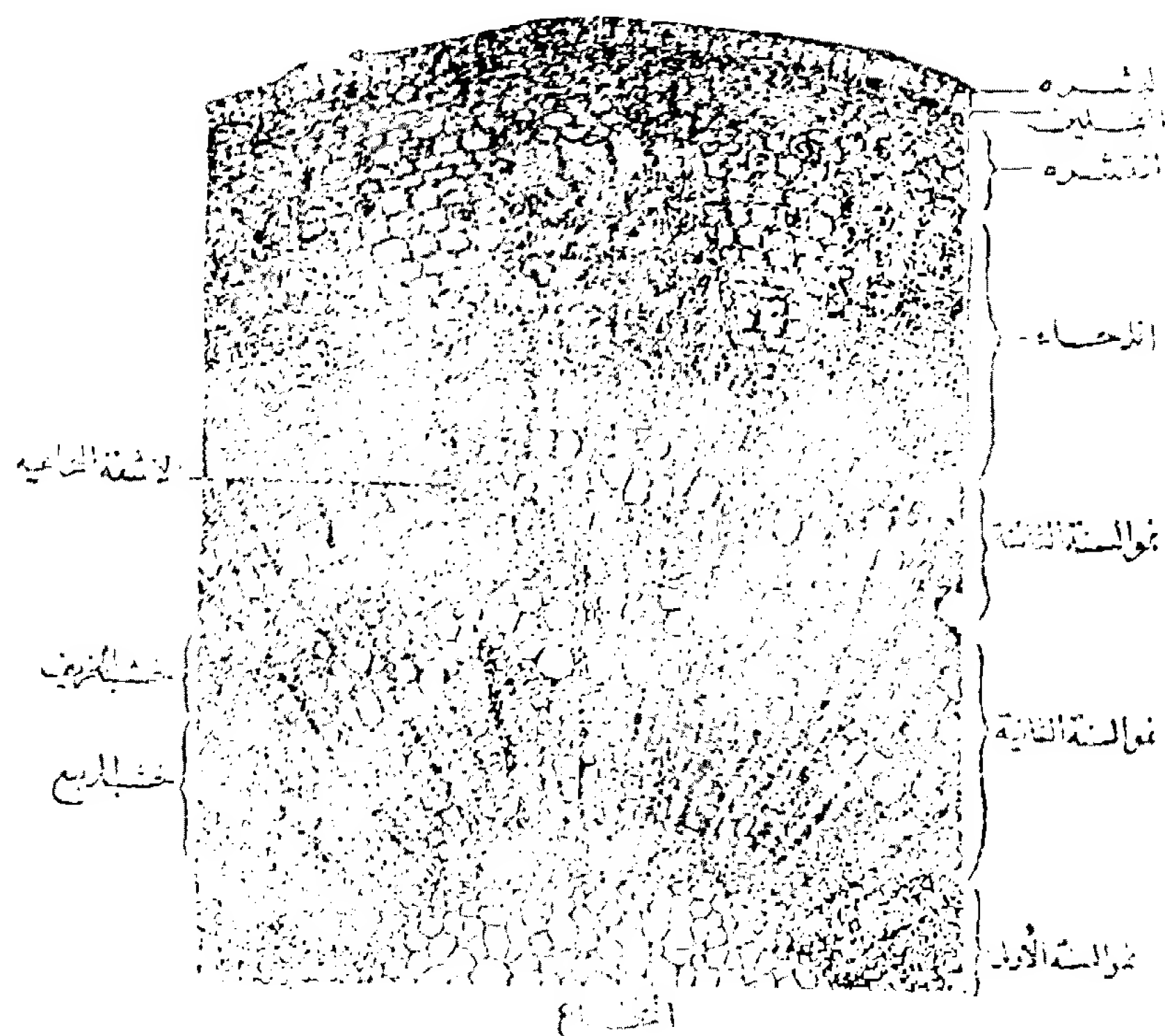
سزم سوق ذوات الفلقة الواحدة خالية من الكميوم ( انظر شكل ١٨ )



( شكل ١٨ - قطاع مرضى في حزمة وعائية من ذوات الفلقة الواحدة )

فقال صاحبي : أريد أن أعرف الفرق بين نمو ساق النبات ذى الفلقة الواحدة وساق النبات ذى الفلقتين فقلت : إن ساق النبات ذى الفلقتين يزداد في السمك عاما بعد عام إلا في بعض أحوال شاذة ( انظر شكل ١٩ ) مثلا في شجر الجيز ، أو اللبغ أو السنط ، وكلها من ذوات الفلقتين ، يلاحظ أن أطراف الأفرع ( أى أحدث أجزاء الساق سنا ) رفيعة ، وأنها تأخذ في الغلظ كلما اقتربت من أسفل الساق ( أى جزء الساق الأكبر سنا ) ، أما في النخل وهو من ذوات الفلقة الواحدة ، فيلاحظ أن غلظ الساق متساو تقريبا على طول النبات ، وذلك لعدم حصول زيادة في السمك .





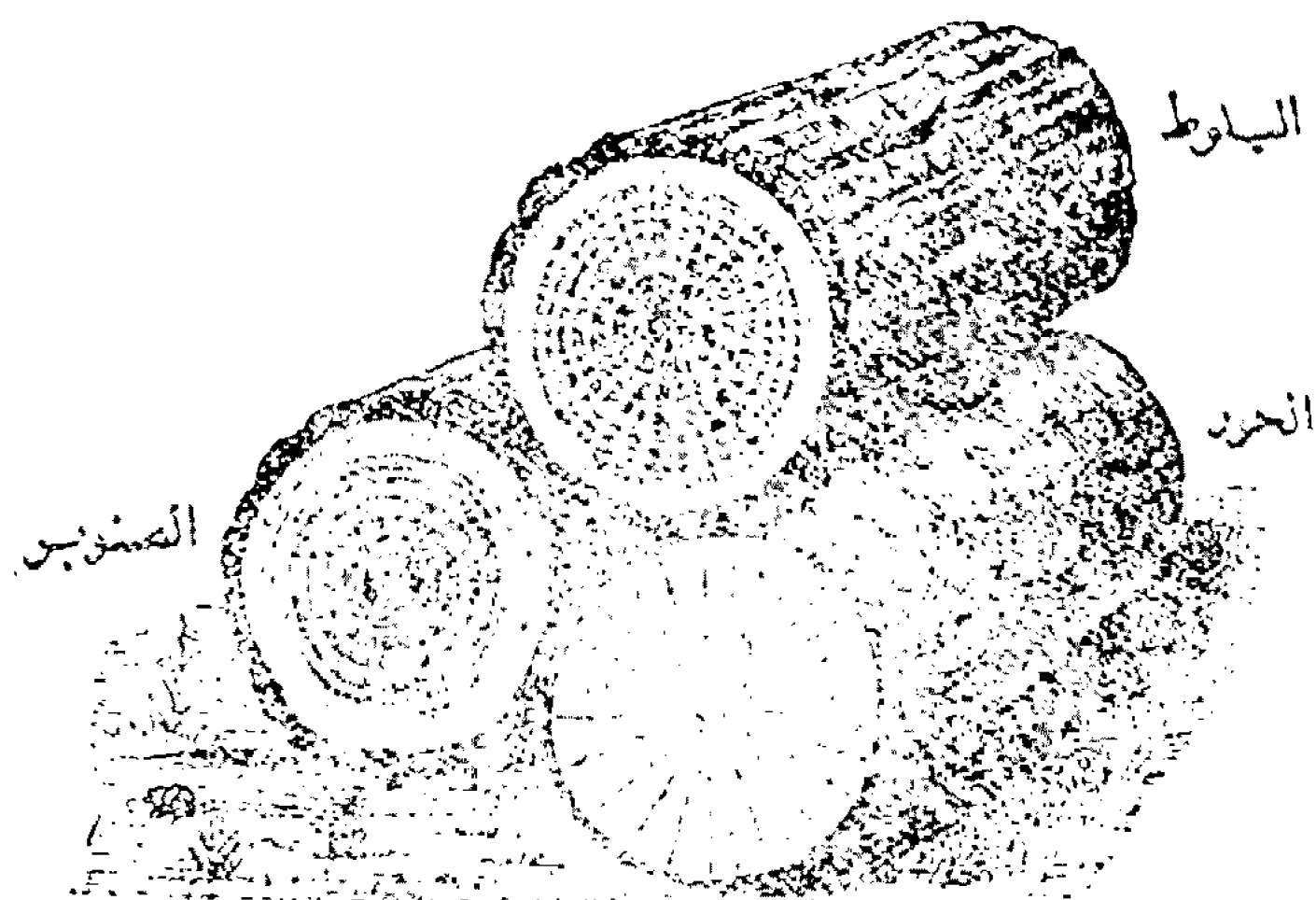
(شکل ۱۹ - قطام عرضی فی ساقی ہمرہا ثلاث صنوات)

والزيادة في السمك ترجع الى نشاط طبقة الكمييوم التي في حزم الساق بين الخشب واللحاء ، فتقسم خلايا الكمييوم مكونة خشبا في الداخل (أى في جهة النخاع) ولحاء من الخارج (أى في جهة القشرة) وفي نفس الوقت تتحول خلايا الأشعة النخاعية التي توصل بين كميومى حزمين متجاورين إلى خلايا مرسنيمة وتكون خشبا في الداخل ولحاء من الخارج ، وتصل بذلك حلقة الكمييوم .

## الحلقات السنوية شكل ١٩

الخلايا الخشبية التي تتكوّن في الربيع تكون كبيرة الحجم ، رقيقة الجدر ، وذلك لأن النبات يحتاج في فصل الربيع (أى في فصل النشاط الذى يلي فصل السكون إلى مقدار وافر من العصارة لنمو أوراقه وأزهاره الخ أما في فصل الخريف فتكون خلايا الخشب صغيرة الحجم ضيقة غليظة الجدر ، وذلك لعدم احتياج النبات إلى مقدار كبير من العصارة في ذلك الوقت بعد أن يكون قد أتمّ نموه السنوى وبدأ يستعدّ لطور السكون . وفي الربيع التالى تتكوّن الخلايا الخشبية الواسعة مرة أخرى ، ولذلك يلاحظ في القطاع العرضى للساق المسنة حلقات ناشئة من وجود خلايا خشبية صغيرة مجاورة لخلايا خشبية كبيرة ( شكل ١٩ ) وكل حلقة من هذه الحلقات تدل على مقدار نموّ سنة كاملة ، ولذلك تسمى بالحلقات السنوية ، ويمكن تقدير عمر الساق اذا عمل فيها قطاع عرضى وعدت حلقاته السنوية شكل ١٩ ثم ٢٠ في الصفحة التالية



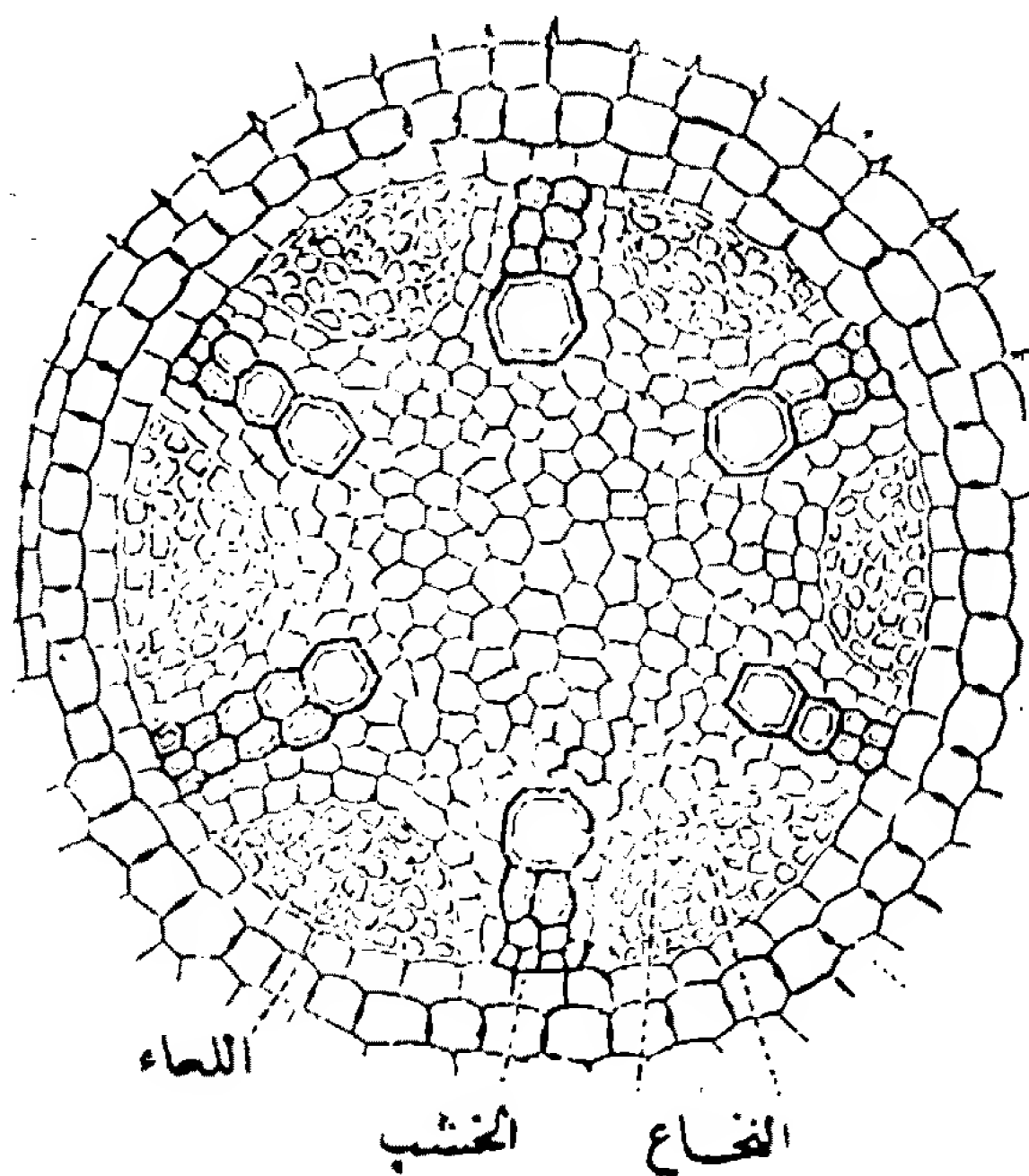


(شكل ٢٠)

شكل الخشب في أشجار مختلفة . لاحظ الحلقات السنوية والقلب

وتشاهد الحلقات السنوية في سوق النباتات التي تنساقط أوراقها في أواخر الخريف ، وخصوصا في البلاد التي فيها فارق عظيم بين درجتي حرارتها في الصيف وفي الشتاء ، أما في الأشجار المستديمة الاخضرار فن الصعب تمييز هذه الحلقات ، وذلك لأن النمو يستمر طول السنة تقريبا .

فقال صاحبي : كفى ما تقدم في ذوات الفلقة وذوات الفلقتين إجمالا ، ولكنني أريد أن أعرف شيئا قليلا عن تركيب الجذر ؟ فقلت : إن الجذور بطول الكلام عليها ، ولكن أذكر منه أمرا واحدا ، وهي المنطقة الدائمة فيه ( انظر شكل ٢١ )



( شكل ٢١ - قطاع مرضى في الإسطوانة الوعائية لجذر )

فقال : أنا الآن اكتب فيما تقدم في تشرح النبات ، فأرجو أن أعرف أقسام المملكة النباتية .  
فقلت : هي أربعة تعرف كل منها بالمجموعة النباتية وهي :

- (١) مجموعة النباتات الثالوسية .
- (٢) مجموعة النباتات الحزازية .
- (٣) مجموعة النباتات المرخسية .
- (٤) مجموعة النباتات البذرية .

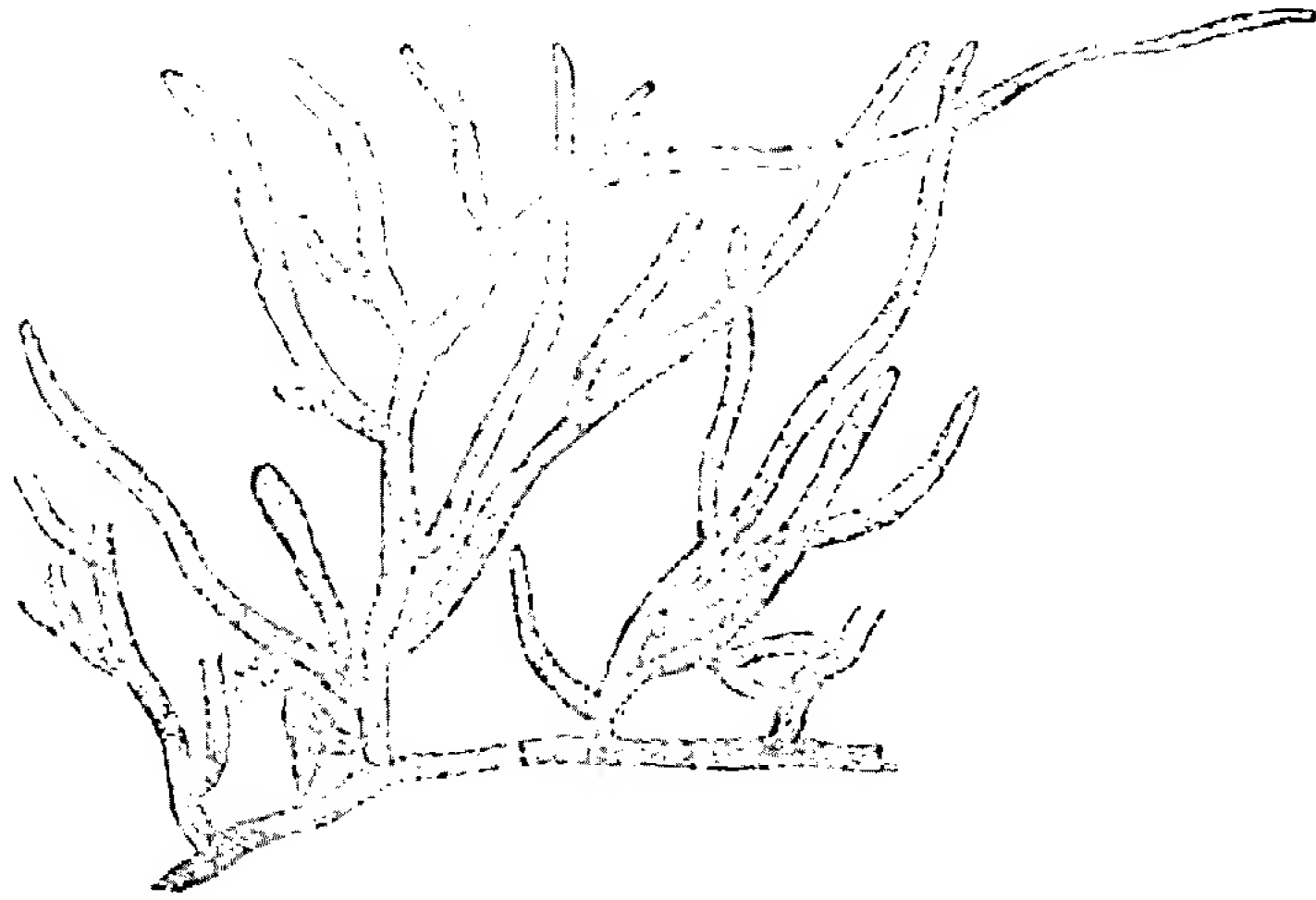
ثم قلت : أما النباتات الثالوسية فهي التي تقدمت في سورة فصلت ، وقد عرفت أننا ملخص ما هناك  
فإن فيها البكتريا والفطر [ بضم الفاء والطاء ] والطحالب ، وهذه كلها واضحات هناك فارجع إليها ،  
فإنك تعرف أكثر مما هو حاضر في ذلك ، وهناك صور جيلة توضح الموضوع . فقال : أريد معرفة النباتات  
الحزازية . فقلت ( انظر شكل ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ ) وهما صورها :



شكل ٢٣ نبات حزازي قائم



شكل ٢٢ نبات حزازي منبسط



( شكل ٢٤ - الخيط الأول وعليه برعم )

فقال : وما مثال النباتات المرخسية ؟ فقلت انظر شكل ٢٥ و ٢٦ في الصفحة التالية





( شكل ٢٥ - أحد النباتات المرخسية الشجرية )



فقال لم يبق إلا الكلام على النباتات البذرية . فقات : الكلام عليها يطول ولكن نختصره هنا فنقول : تعتبر النباتات البذرية أرقى المصنوعات النباتية ، وتمتاز نباتاتها بتكوين البذور من البويضات التي تكون في أعضاء خاصة تعرف بالأزهار ، وتنقسم النباتات البذرية إلى قسمين رئيسيين : —

(١) النباتات المعراة البذور : وهي التي تكون بويضاتها معرضة للخارج ، ولا تحاط بغلاف خاص (مبيض) كالصنوبر والسرو ، ونباتات هذا القسم في الغالب خشبية ، وكانت عظيمة الانتشار في العصور الجيولوجية الغابرة ، غير أنها أخذت في النقص والاضمحلال بعد نشوء النباتات المغطاة البذور .

(٢) النباتات المغطاة البذور : وهي التي تحاط بويضاتها بغلاف خاص مقفل كالصندوق يسمى المبيض . وهذا القسم من النباتات البذرية له أهمية اقتصادية كبيرة ، إذ أن معظم نباتات المحاصيل تابع له . وتنقسم النباتات المغطاة البذور إلى : —

(١) النباتات ذوات الفلقة الواحدة .

(٢) النباتات ذوات الفلقتين .

وتختلف نباتات هذين القسمين من عدة وجوه ، والجدول الآتي يبين أهم مواضع الاختلاف :

### موازنة بين النباتات ذوات الفلقة الواحدة وذوات الفلقتين

ذوات الفلقة الواحدة

ذوات الفلقتين

لأجنثها فلقة واحدة .

(١) لأجنثها فلقان .

الحزم الوعائية لا تحتوي على كميوم بين الخشب واللحاء ، وهي مبعدة بدون نظام خاص في الساق .

(٢) الحزم الوعائية تحتوي على كميوم بين الخشب واللحاء ، وهي مرتبة على شكل دائرة في الساق .

لا تزداد سوقها في السمك إلا في أحوال نادرة وبطريقة تختلف عما في ذوات الفلقتين .

(٣) تزداد سوقها في السمك عاما بعد عام .

العروق عادة متوازية ، وفي النادر شبكية .

(٤) عروق الأوراق متفرعة على شكل شبكة .

أجزاء الزهرة ثلاثية أو مكررات ثلاثة .

(٥) أجزاء الزهرة ثنائية أو رباعية أو خماسية .

والى هنا تم الكلام على المقالة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

### المقالة الثانية في قوله تعالى : تبصرة

اللهم إنا نحمدك على توفيقك ، وإلهامك ، وإسعادك ، وإمدادك ، هانحن أولاد ياربنا عرفنا إبداعك في نباتك : ( ١ ) فانك أبدعت في تركيبه بحيث جعلت في كل ساق مجموعات من النسيج الخلوي ، ولكل مجموعة منها عمل خاص ، فهي إذن أشبه بهيئة دولة لكل طائفة منها عمل ، وليس في عملك معطل : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين » .

( ٢ ) وزناك أبدعت البشرية ( انظر شكل ١١ ) بحيث جعلت خلاياها متلاصقة تمام التماس : وجعلت ما يلي الهواء أغلظ مما سواه لتقدر على تحمل ما يحيط بها .



- (٣) وجعلت السكبيوتين لمنع الماء من البخر .
- (٤) وجعلته سميكاً في البلاد الحارة رقيقاً في غيرها .
- (٥) وإذا كانت هذه البشرة قد أعادت لمنع دخول ما هو خارج عنها لحفظ النبات ، والنبات لا يصبر عن الهواء الخارجى ، فقد قضت الحكمة أن تكون فيها تقوُب ليدخل منها الهواء حياة النبات .
- (٦) ثم كيف كانت نفس هذه البشرة مزروعة بشعر يخرج منها فيحفظ بكثرتة ما في باطن النبات من الماء ، ويمنع تأثير الضوء الخارجى ، قال شعر إذن ذو منفعتين داخلية وخارجية .
- (٧) ولما كانت البشرة وشعرها لا تنكفي لمنع الحيوان قضت الحكمة أن يكون في الشعر مادة يكرهها الحيوان فيحفظ النبات .
- (٨) ياليت شعرى : ما هذه الكتلة المثلثة المرتبة على هيئة دائرة في الحزم الوعائية (شكل ١١) وما هذا التنظيم الجليل ؟
- (٩) ثم ما هذا الخشب (شكل ١٥) الذى ينقل العصارة من الجذور إلى الأوراق وغيرها ، إذن هو في النبات قائم . قام القطار في سكة الحديد ، أو المراكب الشراعية لنقل المير .
- (١٠) ثم ما هذه الغرايبيل (شكل ١٤) التى تنقل ما تمّ نضجها في الأوراق كالمادة السكرية ونحوها إلى أجزاء النباتات الأخرى ، فهذه الغرايبيل أشبه بالخدم يقدمون الطعام إلى ساداتهم .
- (١١) ثم ما هذه الألياف ؟ وما هذا المسمى [ السكبيوم ] الذى يتحوّل تارة إلى لحاء وتارة إلى خشب (شكل ١٥) فيزداد الساق غلظاً ، إذن هو أشبه بمقوم لما نرفع عليه بيوتنا ، فهو مقوٍ للساق ، والساق يرتفع عليه البنيان .
- (١٢) ثم ما هذه الحلقات السنوية (شكل ١٩) و (شكل ٢٠) .
- (١٣) ثم ما هذه الخلايا التى جعلت مخازن لنحو السكر والنشاء والزيت .
- (١٤) عناية جليلة وأمر بديع ، وهنا نسائل أنفسنا : ما هذه الأعمال كلها ، وما هذه البدائع ، أعراس والله وأفراح ، وزينة منصوبة ، فجّل الله الذى غشى على عقولنا فلم نعرف هذه الزينة البديعة ، شمس تضيء ونورها يمتدّ على الأرض ، وبه حياة النبات ، ولكن النبات إذا أحسّ بشدة ضوئها ظهر له شعر كشعر الانسان ، وذلك الشعر يحميه من شدة ضوئها كما يساعد البشرة في حفظ الماء في داخل النبات من البخر .
- هذه أعمال عجيبة وجيلة ، لم كانت هذه كلها ، إنما كانت لأجل حياتنا نحن في الأرض ، ربع مليون من أنواع النبات ، وكلها ذات أفراح وأعراس وجمال وبهجة ، وكلها لأجلنا نحن ، ثم اننا نرى في أنفسنا من العجائب والبدائع أضعاف ما رأينا في النبات ، والا فها هذه القرنية في العين [ انظر هذا المقام مفصلاً في سورة آل عمران وفيما تقدم في هذه السورة قريبا فهاهى أكثر تفصيلا : تلك القرنية الشفافة ، ومن تحتها العنكبوتية والفزحية ، وانسان العين في وسطها ، ثم ما هذه البلورية ، وهى المسماة أيضا عدسية وجليدية أيضا ، ثم ما هذه الرطوبة البيضية في أول العين ، والرطوبة الزجاجية التى بعد العدسية ، ثم ما هذه الشبكية والمشيحية والصلبة ، تلك الطبقات والرطوبات المنتظمة اللاتى أدهش العلماء بنظامهنّ الدقيق ، وإذا كنا نرى النبات قد حفظت الشعرات النابتات على البشرة ما فيه من ماء ، ومنعت عنه ما يزيد من الضوء ، وهكذا نرى في البشرة ثغورا مدخلات في النبات الهواء ، فهكذا رأينا أهداب العين حفظتها من دخول الغبار وان أباحت دخول الضوء ، وساعد على ذلك شعر الحواجب .
- سبحانك اللهم وبحمدك ، أنت القدوس ، تقدّست أن تفعل بلا حكمة ، صنعت هذه النباتات كلها ،

وجعلتها قوادم لنا ، وأودعت فينا حكما لا حد لها كلها للحفاظ على حياتنا ، إذن حياتنا أمر عظيم ، وكيف لا يكون عظيما ، وهذه العين كما سبق قد كتبت أوصاف وضعها ، وقد رأيت بالرسم أن الشبكية مع أنها لا يزيد ثخنها عن الورقة مقسمة عشر طبقات ، وفي آخره أسطوانات ومخروطات تعد بالملايين كلهم يعملون لأجل ابصارنا ، هذا كله لحياتنا نحن .

الله أكبر : حياتنا لقيمة لها والله إلا بأن نعلم هذه العجائب ، وهذه هي التبصرة المذكورة في الآية ، فبدراسة هذه العجائب تقوى عقولنا وتكون لنا بصائر ، وتتمرن على النظام والحكمة ، وتنفع قوانا وننفع أنفسنا ، هذه هي التبصرة ، ولهذا المعنى نجد هذه العلوم تدرس اليوم في أوروبا وأمريكا واليابان ، لماذا ؟ لتعطيهم التبصرة فلذلك ارتقوا في الحياة ، إن الانسان عند مشاهدة هذه الحكم يكون مطلعا على أعمال معلم البين والمدرسين في الأرض ، بل الانسان إذ ذاك يشهد الملكوت بنفسه .

رجال أوروبا وقواد شعوب أمريكا كلهم يدرسون أمثال هذا بهيئة أوسع ، وهذا عين قوله تعالى : « تبصرة » والانسان بدون تبصرة لقيمة حياته . ذلك أن هذه النباتات ونحوها الموزعات على الأرض لم تخلق لأجل الطعام واللباس والدواء خصب ، وإنما هذه المذكورات مغريات بالدراسة ، والدراسة توسع العقول وهو المقصود ، وهذا معنى التبصرة ، فعلى المسلمين أن يدرسوا هذه العلوم جميعها في المدارس الثانوية كما تدرس في جميع الأمم حولنا لنفهم قوله تعالى : « تبصرة » . فأف لمن مات وهو بهذه العجائب جهول ، وأف للأمم الاسلام بعدنا إذا هم أهملوا ما ذكرناه . وأقول وأنا واثق مما أقول : ان أمة الاسلام بعدنا خير أمة أخرجت للناس ، وسيكون رقي الإنسانية على أيديهم ، وهذا الكتاب من مقدمات نهضتهم ، والله هو الولي الجيد .

### المقالة الثالثة في قوله تعالى : وذكرى لكل عبد منيب

عرفنا اجمال علم النبات ، وعرفنا كيف كان تبصرة فلم يبق إلا أن نفهم معنى الذكرى ، درسنا النبات ، وعرفنا عجائبه ، وازدادت بصائرنا فصارت عقولنا راجحة لأنها صرنت على ما رأته من الحكمة ، فهي لا محالة تكون حكيمة في أقوالها وأفعالها ، ولكن نفوسنا الشريفة العالية بعد هذا كله تقول : لكل مخلوق نتيجة وما نتيجتي أنا ؟ ، والاجابة على ذلك أن نتائج أرواحنا أنها تتذكر : أي تتذكر عالمها الذي أخرجت منه ، إن المادة جميعها نقط ضوئية أصلها كهارب ، والكهارب نواتج من موجات في بحر الأثير ، وهذه الأضواء صارت مواد تراها مختلفة الأشكال وهي غليظة ، ولكن أرواحنا أرق منها ، فهي جاءت من عوالم أرق ، فهذه الدروس تذكرها بعالمها ، وهو عالم الجمال والحكمة .

### ايضاح هذا المقام

اللهم إنك أنت الملهم المعلم خلقتنا وخلقت فينا برحمتك آلاما تسوقنا إلى الغذاء والكساء والدواء ، ثم خنقت حولنا ٢٥٠ ألف نبات وأبدعتها ، وقلت لنا : « هاؤم اقرءوا كتابيه » فقرأناه فوجدنا عجبا ! وجدنا أننا نعمل لازالة هذه الآلام ، وفي أثناء ذلك نجد عندنا أمرا عجيبا ! وهي لذات نحس بها في نفوسنا من الدراسة ، وهذه اللذات نوع آخر شريف نحس به عقولنا كما نحس بالطعام معدتنا ، نرى الناس ما داموا أحياء لا يسعدون إلا بصورتهم فنفوسهم ففرحهم ، وهكذا جميع المدارس والديانات والعلوم الرياضية والطبيعية والروايات والشعر والثر ، ومحدثات الاخوان ، وقراءة الجرائد والأخبار ، ولن نرى أحدا في الأرض يشبع من دخول الصور عتله كل لحظة ، لأن التفكير لا يقف لحظة ، ولا معنى لفكر إلا بصور ذهنية ، وكما تنوع

النبات فكان منه ما يمتد على الأرض ، ومنه ما يوضع فوق عروش ، ومنه شجر ، ومنه نجم : أى لاساق له وهو أنواع شتى ، وكل منها له غرض فى حياتنا ، هكذا الصور الذهنية ، فالسمع أعدت لمدارس العالم كلها وللروايات والمخادئات ، والبصر أعدت لصور العوالم كلها ، وأمامه كل نبات ، وكل حيوان ، وبحر وبر ، فهذه كلها ترسل صورها والبصر يتقبلها ويرسلها للنفس فتغتنى بها ، النفس لا تقبل كل صورة أرضية وسماوية من منظار العين ، وكل صورة مصدرها منطلق اللسان وحركات الهواء والأمواج والموسيقى ، وتقبل الروائح من الأنف وأنواع اللذات من حاسة اللمس والذوق ، إذن هنا صور لا حد لها غذاء لأرواحنا ونحن لا نعلم أنها غذاء لنا ، أولا لأنها كثيرة جدا فغفلنا عنها كما غفلنا عن الهواء المحيط بنا ومنفعته ، وثانيا لأنها لا يصحب غيبتها آلام كالآلام الجوع والعطش بغيبة الطعام والشراب بل يكون الشوق بدل الألم ولا حياة للإنسان بدونها بل هى ملازمة له مادام حيا ، إذن الناس يظنون خطأ أن غذاءهم الوحيد إنما هو الطعام ، وفاتهم أن عقولهم تتوارد عليها الصور دائما ، فغذاؤها دائم لا مقطوع ولا ممنوع ماداموا فى الحياة وهو ألزم لهم من الطعام ، وهذه الحال أشبه بضرب مثل للذات الناس فى عالم الأرواح ، لأن الروح لا غذاء لها أفضل من العلم والحكمة إذا كانت من الأشراف العظماء ، غاية الأمر أن الصور هناك لا سخافة فيها كسخافة الصور العقلية لدوى النفوس الضعيفة فى الأرض فهم يشمتون بالأعداء فيظنون أنهم سعداء بهذه الشئمة وهم غافلون ، فهذا غذاؤهم كما تتغذى الفيران والحشرات بالقاذورات .

أما الأرواح الشريفة العالية بعد الموت فانها تتوارد عليها صور جيلة علمية ، وهذا الذى نراه فى عجائب العين نوع منها ، فهذه كما أنها غذاء لعقول شريفة هنا هكذا تكون تغذيتها أعظم للروح اذا خلصت من الجسم ويشير إليه ماورد فى الأخبار أنهم يلهمون التسبيح كما ناهم نحن النفس ، وما هو التسبيح ؟ هو التنزيه والله منزّه عن النقص فى أفعاله فتكون أفعاله كاملة ، وهذا هو الكمال والحكمة ، هذا الذى تقدم فى النبات ونحوه نموذج لحكمة الله تعالى ، وهذه الحكمة هى التى بها تنزه الله عن النقص فى فعله ، وهذه اللذة العلمية بحسبها الناس الآن فى الدنيا ، بل يرونها أعظم اللذات ، فهى هى حقائق التسبيح ، فالتسبيح اللفظى عنوان عليه والا فلامعنى حقيقة التسبيح إلا بأشكال ما ذكرناه والله يقول : « سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض » الخ ويقول : « سبح لله ما فى السموات والأرض » الخ .

### التسبيح والتحميد والتكبير

جاء فى الحديث : « ان الجنة طيبة التربة عذبة الماء وغراسها سبحان الله والحمد لله والله أكبر » وجاء فى القرآن : « وان من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » والمسلم يسبح فى كل ركوع وسجود ، ووراء الصلوات ، وقبل طلوع الشمس ، وقبل غروبها ، وقبل النوم يسبح ويحمد ويكبر ٣٣ مرة بعد الصلاة ، فهذا التسبيح والتحميد والتكبير غراس الجنة ، ونسمع علماءنا رحمهم الله يقولون : « إن كما يفعل تسبيح المخلوقات باللفظ ونحن لا نسمع » ويقول آخرون . كلا . بل هو تسبيح بلسان الحال .

واعلم أن الناس ماداموا على شاطئ بحر المعرفة فانهم يختلفون كما يختلف الصيادون وهم على شاطئ نهر أوبركة فى كثرة الأسماك وقتلتها بحسب استعداد كل منهم والعلامات التى يراها ، فالسمع الحقائق الواضحة ودع القشور ، هذا التفسير فيه من كل فاكهة ، من فواكه العلم وزوجان ، فاعجب لما ذكرتك به آنفا كيف نرى هدب العين وشعرات الورق تمنع شدة الضوء عن العين وعن النبات ، وكيف تكون مادة [ الكيوتين ] حافظة للماء فى داخل النبات كما يحفظ لون التزحية الصور الداخلة فى العين من التشويش كما رأيت مبرهنا

عليه في أول هذه السورة في تفسير البسملة مع آية « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بيناها وزيناها وما لها من فروج » .

وهنا حكمة ومعها آلاف الحكم مرتت وستمتر في هذا الكتاب ، ألفت أيها الذكي تحس في نفسك متى طاب الوقت ، وصفا الزمان ، وخلوت من المشاغل الشاغلة لك أنك أسعد من على الأرض لأنك كأنك في حضرة الجلال والحكمة ، ألفت ترى في نفسك بهجة لم يحلم بها إلا أمثالك في ذلك الجلال والحكمة ، وعلى ذلك تكون حياة الحكيم الممجب بهذا الجلال في الدنيا حياة فوق كل حياة ، والناس في الأرض جميعا تبع لهذه الطائفة الممتازة بصفاء البصيرة والحكمة ، إن العين وطبقاتها ، والنبات وعجائبه ، وكل نظام منظم ومسموع يحدثنا حديثا حقا ويقول : أنتم شهدتم الحكمة ، وشهدتم النظام ، وهذا الحديث الذي نشعر به هو سر التسبيح ، لأن العقل حالا يشهد شهادة عيان أن العالم في غاية النظام ، واذن منظمه حكيم ، وهذا النظام المحكم نتج عن نعم لاحد لها ، وهذا هو الحد بعينه ، فالتسبيح والتحميد متلازمان ، وهذا هو السر في قوله تعالى : « وسبح بحمد ربك » إذ لا معنى لتزيه عن النقص إلا بالكمال ، فآلة منزهة عن النقص في أفعاله ، وذلك بالحكمة في النظام ، والحكمة في النظام نجم عنها نعم كثيرة ، وهي التي تستوجب الحمد ، ومع هذا كله فهذه النعم وهذه الحكم كلها شيء يسير بالنسبة لصانع العالم ، فاذن يقال : الله أكبر : هذا هو السر في طلب التسبيح والتحميد والتكبير في كل آن في الدين الاسلامي ، إذن هذه بذور بذرت في بلاد الاسلام كما أن الله عز وجل أودع في نباتات البرية وغيرها بذورا ، وأمر الرياح أن تحركها فجرت هنا وهناك ، ونبتت في أماكن شتى لمنفعة كل حيوان ، ولكن رجال الطب الذين يعرفون قيمة هذه الحشائش أندرو من الكبريت الأجر ، ونظيرهم هنا في التسبيح والتحميد رجال الحكمة الدارسون العلوم الذين سيكترون بعد ظهور أمثال هذا التفسير ، ولكنهم قوام هذه الأمة ، وهم هم الذين عرفوا سر التسبيح والتحميد ، وهم الذين يفهمون سر الحديث الشريف : « وأن الجنة غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » ويقولون ان الجنة للجهلاء وصغار العلماء تكون قريبة من الجنات الحسية ، وهؤلاء يكتفون بظواهر التسبيح وهو العبادة بتكرار اللفظ في المناسبات المتقدمة ، والعامية لهم درجات عند ربهم ونعمة وهم بها فرحون . أما أكابر الأمة فهم هم الذين شهدوا هذا النظام ، وأصبحوا في نعمة لاحد لها ، مبدوها في الدنيا وبعد الموت مباشرة يحسون بما لا حد له من النعيم لأن أرواحهم تفرغت لما كانوا يعشقون في الدنيا ، إذن التسبيح اللفظي في الحقيقة أشبه بمقدمة للتسبيح الحقيقي الذي يفقهه الحكماء في الاسلام .

### اعتراض على المؤلف وجوابه

فلما اطلع على هذا صديق العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير . قال : ماذا تقول في الشيخ الدباغ ؟ فقلت : لقد نقلت عنه في التفسير كثيرا ، وهو رجل مفتوح عليه فقال انه يخالفك فانه يقول انه كان في بداية أن فتح عليه يستحم في ماء فسمع أصواتا لا حصر لها تسبح الله ، فخرج يجري من فوره ، وسمع أصوات الأشجار بلغات مختلفات ، وسمع حجرا منها له أصوات مختلفات في التسبيح ، ثم بحث عنه فعرف أنه مجنون من أحجار كثيرة .

فهذا دليل على أن تسبيح المخلوقات لفظي . فقلت : أولا نحن لا ندري هل هذا القول المنسوب له ورد عنه أم لا ؟ وان كان في نفس الكتاب . ثانيا أنه سمع ذلك وهو في أول أن فتح عليه ، وما هذه الأصوات المختلفة بالتسبيح إلا كتسبيحنا نحن ، وما تسبيحنا إلا ألفاظ تدل على معان ، وامتلاء عقولنا بالمعاني المفصلة

هو المطلوب كما أن تسبيح هذه العوالم يقصد منه ما وراءه، وهوائها تعرف هذه المعاني على التسليم بأنها تعقل، وما تسبيح هذه المخلوقات أمام المفتوح عليهم إلا خوارق للعادات، وخوارق العادات غير مقصودة لحكام الأمم الإسلامية وعقلائها، والقرآن صرح بأنه لا مدار عليها، فرجع الأمر إلى أن المسبحين بعد أن كانوا عددا معلوما وهم بنو آدم أصبحوا أعدادا لانهاية لها، وإذا كان تسبيح المسلمين العقلاء أنفسهم لقيمة له إلا بمدلوله ومدلوله هي هذه العلوم التي تدرس بعضها في هذا التفسير، فاذن التسبيح الحقيقي لكل عاقل من ملك وانس وجن إنما هو ما شرحنا بعضه في هذا الكتاب، إذن التسبيح اللفظي إنما هو نموذج والتسبيح الحقيقي هو المقصود، فإذا سمعنا الله يقول: «سبح لله ما في السموات وما في الأرض» وإذا سمعناه يقول: «يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم» عرفنا أن هذا هو معناه، فأما عقلاء بني آدم فإن تسبيحهم اللفظي مقدمة لهذا التسبيح؟ فليسبح المسلمون في جميع الأوقات، فهذا عبادة في حد ذاته، وأكابرهم يصلون للحقائق وينفعون بها اخوانهم في الدنيا والدين، كما أن نبات الأرض غذاء لكل حيوان، وبنو آدم له زارعون، وعلماء النبات في نوع الانسان كحكام الاسلام في أمة الاسلام.

فقال صاحبي: هذا حسن ولكن أليس الكلام على التسبيح والتحميد كان الأليق به آخر ﴿سورة الطور﴾ عند قوله تعالى: «وسبح بحمده ربك حين تقوم» الآية، أو أول ﴿سورة الحديد﴾: «سبح لله الخ» فقلت نعم إن هذه المعاني كلها خطرت لي وأنا أشاهد المزارع خارج القاهرة وكانت مقرونة بهاتين الآيتين اللتين ذكرتهما، ولكني بعد ذلك حين قُدمت هذه السورة للطبعة وجدت أن الآية في هذه السورة يعوزها الكلام على النبات، ووجدت المناسبة تامة فجعلتها في هذا المقام لهذه المناسبة. فقال: وهنا سؤال آخر، وهو: هل آية «وأنبثنا فيها من كل زوج بهيج» يعوزها هذا كله؟ قلت نعم وأكثر منه. فقال: ولكن المتقدمون لم يطيلوا في مثل هذا كما أطلت أنت. فقلت: قد أطالوا أكثر مما أطلت أنا. فقال: وكيف ذلك؟ فقلت: إن آباءنا كانوا يحكمون الأمم فاحتاجوا إلى العلوم التي بها يضبطون تلك الأمم فكان علم الفقه إذ نبغ أمثال امامنا الشافعي وأبي حنيفة ومالك وابن حنبل وزيد وأئمة الشيعة رضى الله عنهم أجمعين فعلوا ملوكهم، وأقاموا الدين بالقسط، ولم يدعوا العامة يتخبطون في ديجور الظلام، بل سهلوا لهم أحكام الأفراد من صلاة وصوم وغيرها، فهم رحيمهم الله أفادوا وأجادوا فيما يحفظ كيانه دولهم، ويحفظ العبادات، ونحن جئنا في زمان وجدنا الأمم الإسلامية كثيرة، والأحكام مدونة، والعلماء كثيرون والحمد لله، ووجدنا الأمم في الأرض قد ارتقت مداركها ودرست هذه العلوم، ووجدنا القرآن اهتم بها اهتماما عظيما، فرأيت بل أيقنت أنني يجب عليّ أن أولف لهذه الأمم الإسلامية أعظم علوم الاسلام لكي نترك لعظماء الاسلام بعدنا الطريق مهيأة، ليربوا هذا الشعب المسكين التريية التي لم تكن لتحدث في الزمان الماضي لأن الأمم لم تكن مستعدة لها، وانقرآن جاءنا بأمرين اثنين: أولهما نظام الأمم وحكمها وتهذيبها، وثانيهما تربية العقول تربية راقية علمية حكمية، ولما كانت الفرس والروم أيام النبوة قد اختلت دولهم، وورث المسلمون أرضهم وديارهم، ونساءهم وأموالهم ألهم علماءهم وأئمتهم أن يعينوا ملوكهم بتلك الأحكام، ويعينون المحكومين بما يجب عليهم في أحوالهم الخاصة فنفعوا عباد الله، ثم دالت دولهم، وأصبحنا اليوم نرى أمما وألما وعلما وعلما، فلنفع نحن في هذه العلوم لتربية الأفراد والأمم ما فعله آباؤنا في تلك الأحكام ﴿وبعبارة أصرح﴾ إذا رأينا آيات الطلاق المعدودات، وآيات الدين وغيرها تؤلف لها كتب تمتد بالآلاف عند الطوائف المختلفة، وذلك كان واجبا في ذلك الزمان، فهكذا نحن في زماننا نفعل ما فعله آباؤنا في زماننا بعد أن أتموا ما عليهم، وإذا سمعنا الشافعي رضى الله عنه يستخرج من آية: «فاعتبروا يا أولى الأبصار» محور بع الأحكام الشرعية وهو القياس،



ويقول انها توجب علينا القياس ، واذا رأينا آية الوضوء تستنفذ جهد العلماء في التأليف وتشغلهم شغلا عظيما فأولى ثم أولى ثم أولى منها آية « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » . إن الوضوء شرط للصلاة ، والصلاة للتسبيح والتحميد ، والتسبيح والتحميد نتيجتهم هذه المعارف ، والعلوم والمعارف هي المخبوءات في نحو هذه الآية ، وأما واثني جتد واثني ، بل كأتني أشاهد أُمامي أم الاسلام في أقرب زمن وفيما بعد إلى ماشاء الله ، وهم يدرسون كل علم ، ويرون أن مانكتبه الآن ان هو الامذكرات لما يدرسون ، ومقدمات لما يعلمون ، ونور لما هم به مستبصرون ، والله من ورائهم محيط . والله بكل شئ عليم ، وفوق كل ذى علم عليم ، والحمد لله رب العالمين . انتهى يوم الثلاثاء ٦ اكتوبر سنة ١٩٣١ م

### جمال العلم وبهجة الحكمة

ها نحن أولاء درسنا أعيننا وعجائبها ، والسما وسعتها وكواكبها ، فاذا كانت أعيننا لاحد لعجائبها ، وهي مركبة في أجسامنا المشتقة من أرضنا فكيف تكون عجائب أرضنا ؟ هي بالأولى لاحد لها ، ونذكر منها قلا من جلّ بعد ما كتبناه فيما سبق في هذا التفسير مثل ما جاء في تفسير قوله تعالى : « وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب » وغيرها ، فنشرح وادى الموت وغور الشيطان والجليد الخ :

(١) أما وادى الموت فهو في الجنوب الشرق من أمريكا ، ومادخله أحد إلامات لشدة حرارته ، فلا يعيش فيه نبات ولا حيوان ، ولكن فيه كنوز عجيبة ، وماهى هذه الكنوز ؟ هي [ البورق ] وقد كشفه رجل اسمه [ هارون ونترس ] كان يسكن بعيدا عن ذلك الوادى بمئات الأميال ، فذكر له رجل أنه اذا مزج البورق بمادة كيميائية معلومة اشتعل بلهب أزرق ، فتذكر راسبا أبيض في طرف ذلك الوادى ، فسار هو وزوجته ٢٠٠ ميل ، وابتاعا بعض ذلك من الأمريكيين الحر ، وامتنحن ذلك الراسب الأبيض ، فوجد لهبه أزرق ، فطار فرحا ، وباع هذا الكشف بخمسة آلاف جنيه ، ولقد وجدوا في ذلك الوادى مناجم كثيرة للبورق ، ولكن الصعوبة في نقله ، لأنه يمت من يدخله ، وقد مدوا لوادى الموت سكة حديدية ، وأنشئت قرية للعمال في نفس الوادى ، وفيها بناء طوله ٨١٦ قدما ولهم فيه ٢٠٠ غرفة للنوم ، فيه جميع ما يلزم للراحة ، وغرفة للمائدة تسع ٢٠٠ نفس ، والآجر الذى بنى به ذلك البناء قليل التوصيل للحرارة ، واذا كانت درجة الحرارة في الظل هناك تبلغ ١٢٠ درجة فهى في غرف النوم لم تزد عن ٨٩ درجة ، لأنهم يبردون هواء البناء بجعله يمر في رشاش الماء ، ويستخرجون من ذلك الوادى كل سنة ١٢٠ ألف طن من البورق ، وهى تساوى نصف مليون جنيه ، واذا بيعت في بلاد الانجليز فتنها تساوى ستة ملايين وستمئة ألف جنيه ، هذا ما جاء في كتاب العلم والعمران ، وهل لك أيها الأخ الذكى أن تتذكر ما تقدم في (سورة ابراهيم) إذ ذكرت لك هناك « البحر الميت » وأن ثروته أكبر من ثروة جميع المسلمين الآن في الأرض ، وقد جهلها المسلمون وعرفها الفرنجة وهم يستخرجونها ، وها هو وادى الموت الذى لا يصلح للحياة ظهر أنه كنز عظيم ، وهذا هو قوله تعالى : « والأرض فرشناها فنعم الماهدون » وقوله تعالى هنا « والأرض مددناها الخ » نعم الله ممدوح على تمهيد هذه الأرض ، فالمعادن الجيلة النافعة يجعل استخراجها صعبا ، والمزارع يجعلها في غاية السهولة ، وما أشبه إدراك الحقائق التى يجعلها أكثر الناس إلا بالبحر الميت في فلسطين وادى الموت في أمريكا ، كلاهما يعرفه الناس في حال جهالتهم ولكنهم ينظرون إليه بالسخرية والاستهزاء ، فاذا جاء أهل العلم استخراجوا ما يشاءون من الكنوز ،

هكذا أعيننا وأجسامنا والكواكب حولنا ، يراها العالم والجاهل على حد سواء ، فالجاهل يحقر البحث في هذه العجائب والعالم هو الذي يعرف قيمتها ويصرف نفيس عمره في المعرفة كما تجشمت انكائرا مشاق الحرب في الحرب العظمى ، وبلغت مآربها في البحراالميت ، وكما صرفت الشركة الأمريكية آلاف آلاف الجنيهات في استخراج كنوز وادي الموت وهو البورق الكثير هناك .  
أيها الذكي : اصرف عمرك كله في استخراج حقائق العوالم فأنت سعيد بذلك الاستخراج وقوم بعدك سيقلدونك في ذلك ، وآخرون يستخرجون منافع الأرض كالني في وادي الموت والتي في البحراالميت ، فهذه كنوز أقل من كنوز العلم ، ونفس مانكتبه الآن وأمثاله كما يبحث الناس على الأعلى يحثهم على الأدنى ، ولكل من الناس درجة في عمله والله هو الولي الخيد .

(٢) [ غورالشيطن ] : أما غورالشيطن فهو غور في أرض صخرية بولاية [ اريزونا ] من ولايات أمريكا حيث الارتفاع (٦٠٠٠) قدم عن سطح البحر وهو كبير مستدير ، قطره نحو ١٣٠٠ متر وعمقه ١٧٥ مترا ، وهذا الغور إنما حصل بسبب جرم سماوي مزق ما وقع عليه من الطبقات الصخرية وأحدث هذا العمق الواسع ، وكانت سرعته تزيد على سرعة رصاص البنادق ٥٠ ضعفا ، فكسر الصخور الصلبة وسحق الهشة ، فانتشرت الكسر والسحق حول الغور في أرض مساحتها ٧٥ ميلا مربعا ، ولقد زحزح طبقات الصخور المجاورة فارتفعت من جهة وانخفضت من جهة أخرى ، وحول هذا الغور حجارة نيزكية ومغناطيسية ، وكلها فيها الحديد والنيكل والبلاطين والاريديوم ونحوها من المعادن الثمينة ، ولقد تألفت شركة منذ عشرين سنة لحفر بئر يصل إلى الجسم النيزكي الذي أحدث هذا الغور ، وقد صرفت الشركة أكثر من مائة ألف جنيه ، وأوصلت البئر إلى ١٤٠٠ قدما ، وهناك أصابت جسما أشد صلابة من الفولاذ ، لا تفعل فيه القنابل وترتد عنه ارتداد الحصى عن الصخر ، وهذا الجسم العجيب النيزكي الذي ترى هذه الشركة أنه كنز عظيم ، يقدر قطره بنحو ٣٠٠ قدم ، ويقدر ثقله بمليون طن ، وبعضهم يجعل قطره أربعة أمثال ما ذكر ، ولما أصاب الأرض وغار فيها أخرج منها ما ثقله أكثر من ٣٠٠ مليون طن وبه ثمنا حوله (٣) الكلام على الجليد والفحم القطبي : إن العصر الجليدي الأخير الذي أصاب الجانب الشمالي الغربي من أوروبا : أعني ارلندا واسكتلندا وأسوج ونروج والبلطيك ، كان قبل التاريخ بين ٣٠ ألف سنة و ١٨ ألف سنة ، ودام إلى ٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، إن القطب الجنوبي قد كشفت فيه طبقات خفية سمكها كلها ١٥٠٠ قدم على الأقل ، ومن حيث العرض ٨٥ درجة على بعد ٥ درجات من القطب الجنوبي ، وبعض هذه الطبقات رقيق جدا ، ووجدت آثار الجذور في الطين الذي وجد مع الفحم الحجري ، وذلك دليل قاطع على أن تلك الأصقاع كانت حارة وكانت الأشجار تغطيها عسورا متطاولة ، وذلك على مقتضى انتقال القطبين ، انتهى الكلام على اللطيفة الثالثة في آية : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي » الخ والحمد لله رب العالمين .

### ههنا ثلاث جواهر

- الجوهرة الأولى في بهجة العلم في قوله تعالى : « وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » .
- الجوهرة الثانية في قوله تعالى : « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب »
- الجوهرة الثالثة في قوله تعالى : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد »

## الجوهرة الأولى

بهجة العلم في قوله تعالى : وأنبأنا فيها من كل زوج بهيج

سيأتي في ﴿سورة الذاريات﴾ الكلام على الذكور والإناث من النبات ، وأن علماء النبات حاروا في تقسيمه ، فإن قسموه بواسطة ما يرون من شجرات وشجيرات وأنجم ، وهي الزروع المعروفة التي لاساق لها فإن ذلك التقسيم لا يفيد وكيف يفيد إلا بتحديد الأقسام تحديدا تاما ، وإن قسموه بواسطة أنه نبات سنوي وغير سنوي كما سيأتي ، فهذا غير كاف ، لأن البرسيم مثلا وحده بعضه سنوي وبعضه غير سنوي ، فاذن قد انجأوا أخيرا إلى دراسة الزهرة والحب والفاكهة فانتظمت الأقسام حينئذ ، ورأوا أيضا أن من الأزهار ما يكون ذكرانها على شجرة وإناثها على شجرة أخرى كما سيأتي إيضاحه هناك ، وذلك كشجر النخل ، فإذا كان بين النخلة والأخرى مسافة بعيدة ، فإن الهواء يحمل الطلع من الذكر إلى الأنثى ، والإنسان لا علم له بهذا « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

### حكاية

جاء في كتاب [ الآيات البينات ، في علم النبات ] للاستاذ أحمد أفندي قدرى مانعه : « إن التلقيح في النباتات ذات المسكنين يمكن حصوله من بعد عظيم ، وهناك عدة أمثلة نافعة لبيان هذه الظاهرة فكان منذ زمن طويل استنبت شجرتان من الفستق الأنثى ، وكانت كل شجرة منهما تحمل كل سنة أزهارا ولا يتصل منها ثمار أصلا ، فتعجب المعلم [ جوسيو ] لما رأى أن هاتين الشجرتين قد انعقدت ثمارهما وانضجت على ما ينبغي في سنة من السنين ، ومن ذلك الوقت خطر بباله أنه لابد أن يكون بياريز أوفى أكتافها شجرة فستق ذكر حاملة لأزهار ، فشرع في البحث عن ذلك ، فعرف أن شجرة فستق ذكر أزهرت أول مرة في جنيحة تربية النباتات السكائنة بقرب [ لوكسامبور ] فأثني الطلع المحمول بالهواء من فوق أبنية جزء من باريز واقح نبات الإناث ، وهناك نبات يسمى [ السنيبريا سبرالس ] أي الحزوني الذي هونيات ذو مسكنين ( من الفصيلة البشنيفية ) ينبت بمقدار عظيم في الترع وفي القنوات ، ففي هذا النبات ظاهرة عجيبة جدا في زمن تلقيحه ، وهي أن يكون النبات موضوعا في قاع الماء أي قاطنا فيه تماما ، وذكره وأناثه تنبت مخملطا بعضها ببعض ، فالأزهار الإناث المحمولة على ذنبيات زهرية طويلة قمان أو ثلاثة تقريبا ، وملتهمة على هيئة حلزون تأتي على سطح الماء لكي تبتسم ، وأما الأزهار الذكور فكل حلة منها تكون موضوعة في لفافة غشائية وهي محمولة على ذنب زهري قصير جدا ، فإذا أتى زمن التلقيح تنفتح وتمزق اللفافة القرطاسية ، وتنفصل من حاملها الزهري العام ، وتأتي على سطح الماء فتبتسم وتلقيح الأزهار الإناث ، وبعد زمن يسير تنزل هذه الأزهار الإناث تحت الماء ، ثانيا باللفاف الذنبيات الزهرية الحزونية التي تحملها ، وفيه تصل ثمارها إلى نضجها التام » انتهى

أقول : وهذا من أعجب العجب ! إن هاتين العجبتين تفتح لما أبواب علوم كثيرة ، كيف لا وهذه شجرة الفستق كانت لا تثمر وهي أنثى ، ولكن لما ظهرت شجرة فستق ذكر جاء لها الطلع منها فأثمرت ، إن هذه الدنيا جيلة وبديعة ، أليس هذا من أعجب الأبداع ، يلقح النبات من نبات آخر وإنسان لا يعلمون ، وكيف يكون البشنيين نابتا في برك بلادنا ونحن ننظر إليه نظرة جاهلة لأنه ينبت في البرك والسكناء نراه يضحك وهيئة أزهاره جيلة ، وهل كان يدور بخلدنا ونحن نلهو ونلعب في حال طفوليتنا أن هذه الزهرة الضاحكة المستبشرة هي الأنثى ، وأن الذكران قد انتبدوا مكانا قصيا في قاع البركة ، وأنهم وقت الالتحاق هم بدورهم سيخرجون

من أجدانهم سراعا وهم فرحون مستبشرون ، فيجدون هؤلاء العالسات واقبات منتظرات قدومهم فيحصل  
الاقاح في أمن وأمان ، ولم يبق هؤلاء الذكران من فائدة ، أما الاناث فانهم ينزلون إلى قاع البركة ، وهناك يتم  
نمو الثمرات « فتبارك الله أحسن الخالقين » . « وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون » .  
« ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » فليتذكر في أمر السياسة ونقول :

إن الله الذي خلق الخلق النبات هو نفسه الذي خلق الأمم ، ولقد يخيل لي الآن أن في الشرق عقولا وتلك  
العقول كانت مغطاة في قاع بركة هذه الدنيا كما أن ذكران البشنيين كانت ملتفة بأغشية في قاع بركة الماء  
وهاهنا اليوم أقبل الزمان الذي فيه تظهر تلك العقول من أغشيتها وتاتي على العالم دروسا كما ظهرت ذكور  
البشنيين في وقت الاقاح وفعلت ما خلقت له وتم الاقاح .

إن للشرق لصولة فوق صولة الغرب ، ومن هذه العجائب نفهم قوله تعالى : « لكل أجل كتاب » ،  
وقوله : « إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير » . وقوله : « وكل شيء عنده بمقدار » .

وإذا كان اقاح البشنيين بمقدار فهكذا لقاح عقول الشرقيين له زمان لا بد منه ، وهل الاقاح غير التعليم ؟  
الله أكبر إن من أنواع الاقاح في الشرق الكتب والجرائد المنتشرة اليوم ومنها هذا التفسير ، إن لقاح  
العقول الشرقية اليوم حاصل ، والشرق يغلي كما تغلي القدور : « وربك يخاف ما يشاء ويختار وهو اللطيف  
الخبير » انتهى يوم الأربعاء أول يونيو سنة ١٩٣٢ م

## الجوهرة الثانية

### في قوله تعالى : تبصرة وذكرى لكل عبد منيب

رباه : جل فعلك ، وحسن قولك ، كم نتفياً ظلال الأشجار ، ونجلس في الحقول ، ونأكل من الفاكهة  
والحب مالد وطاب ، نعيش ونموت ونحن غافلون عن الجمال ، وعن الحكمة ، وعن عجائب الابداع ، كم من  
ورق تحيط به أوبار ونحن ننظرها ولا ندري ما حكمكمتها ، تشرق الشمس وتغرب ، ويطلع القمر ويأفل ،  
ونحن نشاهد تلك الأوراق الكاسيات بتلك الأوربار ، ولا ندري لماذا كانت هذه الأوربار والأشجار ، نظرت  
في كتاب [ جمال الطبيعة ] للورد أفبري صفحة ١٠٩ فألفيته شرح هذا الموضوع شرحا واضحا ، فاستبان  
به أن الورب أعدته العناية الإلهية ، إما ليقى النبات من شر هاجم من خارج النبات ، وإما ليكون حافظا  
لما في النبات من قوة حيوية بها بقاؤه ونظام حياته ، فأما أول الأمرين فذلك :

(١) أن من النبات ما تعترضه الحيوانات السائمة فتقطع عليه حياته فيكون ذلك الورب وقاية له .

(٢) ومنه ما تهاجمه الحشرات فيكون ذلك الورب حصنا حصينا .

(٣) ومنه ما تحيط به الرطوبة فتكاد تهلكه لولا ذلك الورب الكاسي للأوراق .

(٤) ومنه ما تلح عليه حرارة الشمس فيكون ظل تلك الأوربار حافظا النبات من البوار كما يحفظ جسم

الانسان من الحر بالملايس : « وجعل لكم سراويل تقيكم الحر وسراويل تقيكم بأسكم كذلك يتم

نعمته عليكم لعلكم تلهون »

ولوعلم المسلم أن نعمة الملايس ليست خاصة به ، بل هناك ملايس تحفظ النبات من الهلاك ليكون نعمة له

أيضا ومتاعا لحر صعبا ولدهش من تلك العناية التي تحير الألباب . هذا هو الأمر الأول .

أما الأمر الثاني فذلك أن من النبات ما ينبت في الصحراء فتلح عليه الشمس فيتطاير منه البخار ، فما

الذي يحفظ حياة النبات إذن إذا خرج بالبحر الشمس ببقية الرطوبة في ذلك النبات ؟ أعد الله تلك الأنابيب

الشعرية الوبرية ، فهي المانعات من ذلك البحر فيعيش ذلك النبات . هذه نبذة من معنى قوله تعالى هنا « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » .

أيها المسلمون : لاهية إلا حياة العلماء ، والجاهلون جميعاً موتى ، فليكن الإنسان عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً كما في الحديث ، وليحذر أن يكون كارهاً للعلم فذلك من الأخسرين ، والحمد لله رب العالمين . انتهى الكلام على الجوهرة الثانية .

### الجوهرة الثالثة

في قوله تعالى : ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد

لقد تقدم الكلام على هذه الآية في ﴿ سورة الحجرات ﴾ وقد ذكرنا هناك عشرًا من آفات اللسان من [ إحياء علوم الدين ] لأغزالي رحمه الله ، وكذلك بعض غوائل الأعمال القلبية من كتابنا [ جوهر التقوى ] وأرجأنا بقية ما في الإحياء وما في كتاب [ جوهر التقوى ] إلى هذا المقام هنا في سورة ق فلنبداً بالكلام على ما في الإحياء فنقول :

#### الآفة الحادية عشرة : السخرية والاستهزاء

وهذا محرّم مهما كان مؤذياً كما قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن » ومعنى السخرية الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والقائص على وجه يضحك منه ، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول ، وقد يكون بالإشارة والإيماء ، وإذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة ، وفيه معنى الغيبة ، قالت عائشة رضي الله عنها : (١) حاكيت إنساناً فقال لي النبي ﷺ والله ما أحب أني حاكيت إنساناً ولي كذا وكذا ، وقال ابن عباس في قوله تعالى : « يا ويلتنا ما هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » : إن الصغيرة التسم بالاستهزاء بالموثمين ، والكبيرة القهقهة بذلك ، وهذا إشارة إلى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب والكبائر ، وعن عبد الله بن زمعة (٢) أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو يخطب فوعظهم في ضحكهم من الضرطة فقال علام يضحك أحدكم مما يفعل ، وقال ﷺ (٣) « إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال لهم هلم فيجىء بكربه وغمه فإذا أغلق دونه ، ثم يفتح له باب آخر فيقال لهم هلم فيجىء بكربه وغمه فإذا أغلق دونه فما يزال كذلك حتى أن الرجل ليفتح له الباب فيقال له هلم هلم فلا يأتيه » . وقال معاذ بن جبل (٤) قال النبي ﷺ : « من غير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمل » وكل هذا

(١) حديث عائشة : حاكيت إنساناً فقال لي النبي ﷺ ما يسرني أني حاكيت إنساناً ولي كذا وكذا أبو داود والترمذي وصححه .

(٢) حديث عبد الله بن زمعة : وعظهم في الضحك من الضرطة وقال علام يضحك أحدكم مما يفعل متفق عليه .

(٣) حديث : إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال لهم هلم فيجىء بكربه وغمه فإذا جاء أغلق دونه . الحديث ابن أبي الدنيا في الصمت من حديث الحسن مرسل لاورويناه في ثمانيات النجيب من رواية أبي هذبة أحد أهل السكين عن أنس .

(٤) حديث معاذ بن جبل : من غير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمل ، الترمذي دون قوله قد



يرجع إلى استحقاق الغير والضحك عليه استهانة به واستصغاراً له ، وعليه نبه قوله تعالى : « عسى أن يكونوا خيراً منهم » أى لا تستحقه استصغاراً فلعلمه خبر منك ، وهذا إنما يحرم في حق من يتأذى به ، فأما من جعل نفسه مسخرة وربما فرح من أن يسخر به كانت السخرية في حقه من جلة المزاج ، وقد سبق ما يذم منه وما يمدح ، وإنما المحرم استصغار يتأذى به المستهزأ به لما فيه من التحقير والتهاون ، وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تخطط فيه ولم ينتظم ، أو على أفعاله إذا كانت مشوشة كالضحك على خطه وعلى صنعته أو على صورته وخلقته إذا كان قصيراً ، أو ناقصاً لعب من العيوب ، فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية المنهى عنها . انتهى الكلام على الآفة الحادية عشرة ، والحمد لله رب العالمين .

### الآفة الثانية عشرة : إفشاء السر

وهو منهى عنه لما فيه من الإيذاء والتهاون بحق المعارف والأصدقاء ، قال النبي ﷺ (١) إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت ففهي أمانة ، وقال (٢) مطلقاً (كذا) الحديث بينكم أمانة ، وقال الحسن : ان من الخيانة أن تحدث بسر أخيك ، ويروي أن معاوية رضى الله عنه أسر إلى الوليد بن عتبة حديثاً فقال لأبيه يا أبت ان أمير المؤمنين أسر إلى حديثاً وما أراه يطوى عنك ما بسطه إلى غيرك قال فلا تحدثني به فان من كنتم سره كان الخيار إليه ، ومن أفشاء كان الخيار عليه ، قال فقلت يا أبت وان هذا ليدخل بين الرجل وبين ابنه فقال لا والله يا بني ولكن أحب أن لا تدل أسانك بأحاديث السر ، قال فأبنت معاوية فأخبرته ، فقال يا وليد أعتقت أبوك من رق الخطأ فافشاء السر خيانة ، وهو حرام إذا كان فيه اضرار ولؤم إن لم يكن فيه اضرار وقد ذكرنا ما يتعلق بكتمان السر في كتاب آداب الصحبة فأغنى عن الاعداد . انتهى الكلام على الآفة الثانية عشرة ، والحمد لله رب العالمين .

### الآفة الثالثة عشرة : الوعد الكاذب

فان اللسان سباق الى الوعد ، ثم النفس ربما لا تسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفاً ، وذلك من أمارات النفاق قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » وقال ﷺ (٣) « العدة عطية » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « الوأى مثل الدين أو أفضل » والوأى الوعد ، وقد أثنى الله تعالى على نبيه اسماعيل عليه السلام في كتابه العزيز فقال : « انه كان صادق الوعد » قيل انه وعد انساناً في موضع فلم يرجع إليه ذلك الانسان بل نسي فبقى اسماعيل اثنين وعشرين يوماً في انتظاره ، ولما حضرت عبد الله بن عمر

تاب منه وقال حسن غريب وليس اسناده بمتصل قال الترمذي قال أحمد بن منيع قالوا من ذنب قد تاب منه .

(١) حديث : اذا حدث الرجل بحديث ثم التفت ففهي أمانة ، أبو داود والترمذي وحسنه من حديث جابر

(٢) حديث : الحديث بينكم أمانة ابن أبي الدنيا من حديث ابن شهاب مرسل .

(٣) حديث : العدة عطية الطبراني في الأوسط من حديث قباث بن أشيم بسند ضعيف وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن مسعود ، ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت والخرائط في مكارم الأخلاق من حديث الحسن مرسل .

(٤) حديث : الوأى مثل الدين أو أفضل ابن أبي الدنيا في الصمت من رواية أبي لهبة مرسل ، وقال :

الوأى يعنى الوعد ، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث علي بسند ضعيف .

الوفاة قال انه كان خطب الى ابنتي رجل من قر يش وقد كان نبي إليه شبه الوعد فوالله لا أتق الله شك النفاق أشهدكم أني زوجته ابنتي (١) . وعن عبد الله بن أبي الحنفية قال : بايعت النبي ﷺ قبل أن يبعث و بقيت له بقية فواعدته أن آتية بها في مكانه ذلك فنسيت يومى والغد ، فأتيته اليوم الثالث وهو في مكانه ، فقال يافتي لقد شققت عليّ أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك ، وقيل لابراهيم : الرجل يواعد الرجل الميعاد فلا يجي ؟ قال ينتظره إلى أن يدخل وقت الصلاة التي تجيء ، وكان رسول الله ﷺ (٢) إذا وعد وعدا قال عسى وكان ابن مسعود لا يعد وعدا إلا ويقول ان شاء الله وهو الأولى ، ثم اذا فهم مع ذلك الجزم في الوعد فلا بد من الوفاء إلا أن يتعذر فان كان عند الوعد عازما على أن لا يفي فهذا هو النفاق ، وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم (٣) « ثلاث من كن فيهن فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم : اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا ائتمن خان » . وقال عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) « أربع من كن فيهن كان منافقا ، ومن كانت فيه خلة منهن كان فيه خلة من النفاق حتى يدعها : اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا عاهد غدر ، واذا خاصم فجر » وهذا ينزل على من وعد وهو على عزم الخلف أو ترك الوفاء من غير عذر ، فأما من عزم على الوفاء فعن له عذر منعه من الوفاء لم يكن منافقا وإن جرى عليه ما هو صورة النفاق ، ولكن ينبغي أن يحترز من صورة النفاق أيضا كما يحترز من حقيقة ، ولا ينبغي أن يجعل نفسه معذورا من غير ضرورة حاضرة فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) كان وعد أبا الهيثم بن التيهان خادما فأتى بثلاثة من السبي فأعطى اثنين وبقى واحد فأنت فاطمة رضى الله عنها تطلب منه خادما وتقول ألا ترى أثر الرحي بيدي فذكر مواعده لأبي الهيثم فجعل يقول كيف بموعدي لأبي الهيثم ؟ فآثره به على فاطمة لما كان قد سبق بموعده له مع أنها كانت تدير الرحي بيدها الضعيفة (٦) ولقد كان صلى الله عليه وسلم جالسا يقسم غنائم هوازن بحنين فوقف عليه رجل من الناس ، فقال : ان لى عندك موعدا يا رسول الله قال صدقت فاحتكم ماشئت ، فقال أحتكم ثمانين ضائنة وراعيها قال هي لك وقال احتكمت يسيرا ولصاحبة موسى التي دلته على عظام يوسف كانت أخزم منك وأجزل حكما منك حين حكمها موسى عليه

(١) حديث عبد الله بن أبي الحنفية : بايعت النبي صلى الله عليه وسلم فوعدته أن آتية بها في مكانه ذلك فنسيت يومى والغد فأتيته اليوم الثالث وهو في مكانه ، فقال يابني قد شققت عليّ أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك ، رواه أبو داود ، واختلف في اسناده ، وقال ابن مهدي : ما ظن ابراهيم بن طهمان إلا أخطأ فيه .

(٢) حديث : كان اذا وعد وعدا قال عسى ، لم أجد له أصلا .

(٣) حديث أبي هريرة : ثلاث من كن فيه فهو منافق الحديث وفيه اذا وعد أخلف متفق عليه وقد تقدم .

(٤) حديث عبد الله بن عمرو : أربع من كن فيه كان منافقا الحديث متفق عليه

(٥) حديث : كان وعد أبا الهيثم بن التيهان خادما فأتى بثلاثة من السبي فأعطى اثنين وبقى واحد فجاءت فاطمة تطلب منه الحديث وفيه فجعل يقول كيف بموعدي لأبي الهيثم فآثره به على فاطمة تقدم ذكر قصة أبي الهيثم في آداب الأكل وهي عند الترمذي من حديث أبي هريرة وليس فيها ذكر لفاطمة .

(٦) حديث : انه كان جالسا يقسم غنائم هوازن بحنين فوقف عليه رجل فقال ان لى عندك موعدا قال صدقت فاحتكم ماشئت الحديث ، وفيه لصاحبة موسى التي دلته على عظام يوسف كانت أخزم منك الحديث ابن حبان والحاكم في المستدرک من حديث أبي موسى مع اختلاف ، قال الحاكم صحيح الاسناد وفيه نظر .

السلام فقالت حكمتي أن تردني شابة وأدخل معك الجنة ، قيل فكان الناس يضعفون ما احتكم به حتى جعل مثلاً فقبل أشجع من صاحب الثمانين والراعي ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « ليس الخلف أن يعد الرجل الرجل وفي نيته أن يفي » وفي لفظ آخر : « إذا وعد الرجل أخاه وفي نيته أن يفي فلم يجد فلا إثم عليه . انتهى الكلام على الآفة الثالثة عشرة ، والحمد لله رب العالمين .

### الآفة الرابعة عشرة : الكذب في القول واليمين

وهو من قبائح الذنوب ، وفواحش العيوب ، قال اسماعيل بن واسط : سمعت أبا بكر الصديق رضي الله عنه يخطب بعد وفاة رسول الله ﷺ فقال (٢) قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامى هذا عام أول ثم بكى وقال : إياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما في النار ، وقال أبو أمامة (٣) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الكذب باب من أبواب النفاق » . وقال الحسن : « كان يقال : إن من النفاق اختلاف السر والعلانية ، والقول والعمل ، والمدخل والمخرج ، وأن الأصل الذي بنى عليه النفاق الكذب » وقال ابن مسعود قال النبي صلى الله عليه وسلم (٤) « كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هولك به مصدق وأنت له به كاذب » ، وقال ابن مسعود قال رسول الله ﷺ برجلين يتبايعان شاة ويتحالفان يقول أحدهما والله لا أقصك من كذا وكذا ويقول الآخر : والله لا أزيدك على كذا وكذا فرب الشاة وقد اشتراها أحدهما فقال أوجب أحدهما بالاثم والكفارة ، وقال عليه الصلاة والسلام (٥) « الكذب ينقص الرزق » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث : ليس الخلف أن يعد الرجل الرجل ومن نيته أن يفي ، وفي لفظ آخر : إذا وعد الرجل أخاه وفي نيته أن يفي فلم يجد فلا إثم عليه ، أبو داود والترمذي وضعفه من حديث زيد بن أرقم باللفظ الثاني إلا أنهما قالاً فلم يف .

(٢) حديث أبي بكر الصديق : قام فينا رسول الله ﷺ مقامى هذا عام أول ثم بكى وقال إياكم والكذب الحديث ابن ماجه والنسائي في اليوم والليلة وجعله المصنف من رواية اسماعيل بن أوسط عن أبي بكر ، وإنما هو أوسط بن اسماعيل بن أوسط واسناده حسن .

(٣) حديث أبي أمامة : إن الكذب باب من أبواب النفاق ، ابن عدى في الكامل بسند ضعيف وفيه عمر بن موسى الوجهى ضعيف جداً ، ويغنى عنه قوله ﷺ : ثلاث من كن فيه فهو منافق وحديث أربع من كن فيه كان منافقاً قال في كل منهما وإذا حدث كذب وهما في الصحيحين وقد تقدما في الآفة التي قبلها

(٤) حديث : كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هولك به مصدق وأنت له كاذب ، البخارى في كتاب الأدب المفرد وأبو داود من حديث سفيان بن أسيد وضعفه ابن عدى ورواه أحمد والطبرانى من حديث النواس بن سمعان بإسناد جيد

(٥) حديث ابن مسعود : لا يزال العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذاباً ، متفق عليه

(٦) حديث : مرّ برجلين يتبايعان شاة ويتحالفان الحديث وفيه فقال أوجب أحدهما بالاثم والكفارة أبو الفتح الأزدى في كتاب الأسماء المفردة من حديث ناسخ الحضرمي ، وهكذا رويناه في أمالي ابن سمعون ، وناسخ ذكره البخارى هكذا في التاريخ ، وقال أبو حاتم هو عبد الله بن ناسخ .

(٧) حديث : الكذب ينقص الرزق ، أبو الشيخ في طبقات الأصهبانيين من حديث أبي هريرة ورويناه

(١) « إن التجار هم الفجار فليل يارسول الله أليس قد أحلّ الله البيع قال نعم ولكنهم يحلفون فيأثمون ، ويحدثون فيكذبون . وقال صلى الله عليه وسلم (٢) : « ثلاثة نفر لا يكاهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم : المنان بعطيته ، والمنفق سلعته بالخلف الفاجر والمسبل إزاره ، وقال ﷺ (٣) « ما حلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلا كانت نكته في قلبه إلى يوم القيامة » وقال أبو ذرّ الغفاري (٤) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاثة يحبهم الله : رجل كان في ثمة فنصب نحرة حتى يقتل أو يفتح الله عليه وعلى أصحابه ، ورجل كان له جارسوء يؤذيه فصبر على أذاه حتى يفرق بينهما موت أو ظعن ، ورجل كان معه قوم في سفر أو سرية فأطالوا السرى حتى أعجبهم أن يمسوا الأرض ففرلوا فتنحى يصلى حتى يوقظ أصحابه للرحيل ، وثلاثة يشنؤهم الله : التاجر ، أو البائع الخلف ، والفقر المختال ، والبخيل المنان . وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له » . وقال ﷺ (٦) رأيت كأن رجلا جاءني فقال لي قم فقممت معه فاذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس ، بيد القائم كlob من حديد يلقمه في شدة الجالس فيجذبه حتى يبلغ كاهله ثم يجذبه فيلقمه الجانب الآخر فيمده فاذا مده رجع الآخر كما كان فقلت للذي أقامني ماهذا ؟ فقال هذا رجل كذاب يعذب في قبره إلى يوم القيامة ، وعن عبد الله بن جراد قال (٧) سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله : هل يزني المؤمن ؟ قال قد يكون ذلك ، قلت يانبيّ الله هل يكذب المؤمن ؟ قال لا ، ثم أتبعها ﷺ بقول الله تعالى : إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ، وقال أبو سعيد الخدري سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (٨) يدعو فيقول في دعائه : اللهم طهر قلبي من النفاق ،

كذلك في مشيخة القاضي أبي بكر واسناده ضعيف .

(١) حديث : أن التجار هم الفجار الحديث ، وفيه ويحدثون فيكذبون أحد الحاكم وقال صحيح الاسناد والبيهقي من حديث عبد الرحمن بن شبل .

(٢) حديث : ثلاثة نفر لا يكاهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم : المنان بعطيته ، والمنفق سلعته بالخلف الكاذب ، والمسبل إزاره ، مسلم من حديث أبي ذرّ .

(٣) حديث : ما حلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلا كانت نكته في قلبه إلى يوم القيامة الترمذي والحاكم وصحح اسناده من حديث عبد الله بن أنيس .

(٤) حديث أبي ذرّ : ثلاثة يحبهم الله الحديث ، وفيه ثلاثة يشنؤهم الله : التاجر أو البائع الخلف أحد واللفظ له وفيه ابن الأجس ولا يعرف حاله ورواه هو والنسائي بلفظ آخر باسناد جيد ، والنسائي من حديث أبي هريرة أربعة يبغضهم الله : البائع الخلف الحديث واسناده جيد .

(٥) حديث : ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له ، أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي في الكبرى من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده .

(٦) حديث : رأيت كأن رجلا جاءني فقال لي قم فقممت معه فاذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس بيد القائم كlob من حديد يلقمه في شدة الجالس الحديث : البخاري من حديث سمرة بن جندب في حديث : طويل .

(٧) حديث عبد الله بن جراد أنه سأل النبي ﷺ هل يزني المؤمن ؟ قال قد يكون ذلك ، قال هل يكذب ؟ قال لا ، الحديث ابن عبد البر في التمهيد بسند ضعيف ، ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت مقتصر على الكذب ، وجعل السائل أبا الرداء .

(٨) حديث أبي سعيد : اللهم طهر قلبي من النفاق ، وفرجني من الزنا ، ولساني من الكذب ، هكذا وقع

وفرجى من الزنا ، ولسانى من الكذب . وقال صلى الله عليه وسلم (١) ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، ومالك كذاب ، وعائل مستكبر . وقال عبد الله بن عامر (٢) جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتنا وأنا صبي صغير ، فذهبت لألعب ، فقالت أمي : يا عبد الله تعال حتى أعطيك فقال صلى الله عليه وسلم وما أردت أن تعطيه ؟ قالت تمرا ، فقال : أما انك لو لم تفعل لكتبت عليك كذبة . وقال صلى الله عليه وسلم (٣) لو أفاء الله على نعماء عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لاتجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جبانا ، وقال صلى الله عليه وسلم وكان متكئا (٤) ألا أنبئكم بأكبر الكبائر : الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين ، ثم قعد وقال ألا وقول الزور . وقال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) : « إن العبد لا يكذب الكذبة فيتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نتن ماجاء به . وقال أنس (٦) قال النبي ﷺ « تقبلوا إلى بست أنقبل لكم بالجنة فقالوا وماهين ؟ قال اذا حدث أحدكم فلا يكذب ، واذا وعد فلا يخاف ، واذا ائتمن فلا يخن ، وغضوا أبصاركم ، واحفظوا فروجكم ، وكفوا أيديكم . وقال صلى الله عليه وسلم (٧) إن للشيطان كلالا ولعوقا ونشوقا : أما لعوقه فالكذب ، وأما نشوقه فالغضب ، وأما كلاله فالنوم . وخطب عمر رضي الله عنه يوما فقال (٨) : قام فينا رسول الله ﷺ كقياي هذا فيكم فقال : أحسنوا إلى أصحابي ثم الذين يلوهم ثم يفشوا الكذب حتى يحلف الرجل على اليمين ولم يستحلف ويشهد ولم يستشهد . وقال النبي صلى الله عليه وسلم (٩) « من حدث عني بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » . وقال صلى الله عليه وسلم

في نسخ الاحياء عن ابن سعيد ، وانما هو عن أم معبد ، كذا رواه الخطيب في التاريخ دون قوله وفرجى من الزنا ، وزاد : وعمل من الرياء ، وعين من الخيانة ، واسناده ضعيف .

- (١) حديث : ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم الحديث وفيه : والامام الكذاب ، مسلم من حديث أبي هريرة
- (٢) حديث عبد الله بن عامر جاء رسول الله ﷺ إلى بيتنا وأنا صبي صغير فذهبت لألعب فقالت أمي يا عبد الله تعال أعطيك ، فقال وما أردت أن تعطيه ؟ قالت تمرا ، فقال : ان لم تفعل لكتبت عليك كذبة ، رواه أبو داود ، وفيه من لم يسم ، وقال الحاكم : إن عبد الله بن عامر ولد في حياته صلى الله عليه وسلم ولم يسمع منه ، قلت : وله شاهد من حديث أبي هريرة وابن مسعود ورجالهما ثقات إلا أن الزهري لم يسمع من أبي هريرة .
- (٣) حديث : لو أفاء الله على نعماء عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لاتجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جبانا رواه مسلم وتقدم في أخلاق النبوة .
- (٤) حديث : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الحديث ، وفيه ألا وقول الزور متفق عليه من حديث أبي بكر
- (٥) حديث ابن عمر : ان العبد لا يكذب الكذبة فيتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نتن ماجاء به ، الترمذي وقال حسن غريب
- (٦) حديث أنس : تقبلوا إلى بست أنقبل لكم بالجنة اذا حدث أحدكم فلا يكذب ، الحديث الحاكم في المستدرك والخرائطي في مكارم الأخلاق وفيه سعد بن سنان ضعفه أحمد والنسائي ووثقه ابن معين ورواه الحاكم بنحوه من حديث عبادة بن الصامت وقال صحيح الاسناد
- (٧) حديث : ان للشيطان كلالا ولعوقا الحديث الطبراني وابونعيم من حديث أنس بسند ضعيف وقد تقدم
- (٨) حديث : خطب عمر بالجالية الحديث وفيه ثم يفشوا الكذب الترمذي وصححه والنسائي في الكبرى من رواية ابن عمر عن عمر
- (٩) حديث : من حدث بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين ، مسلم في مقدمة صحيحه من حديث سمرة بن جندب .



(١) « من حلف على يمين بأثم ليقتطع بها مال امرئ مسلم بغير حق لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان » .  
 وروى عن النبي ﷺ (٢) أنه ردّ شهادة رجل في كذبة كذبها وقال ﷺ (٣) « كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المسلم إلا الخيانة والكذب » . وقالت عائشة رضي الله عنها (٤) : ما كان من خلق أشدّ على أصحاب رسول الله ﷺ من الكذب ، ولقد كان رسول الله ﷺ يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما ينجلي من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث توبة لله عز وجل منها . وقال موسى عليه السلام : يارب أيّ عبادك خير لك عملاً ؟ قال من لا يكذب لسانه ، ولا يفجر قلبه ، ولا يزي في فرجه . وقال لقمان لابنه : يا بني إياك والكذب فانه شهى كلحم العصفور عما قليل يقلاه صاحبه . وقال عليه السلام في مدح الصدق (٥) : أربع إذا كنّ فيك فلا يضرّك ما فاتك من الدنيا : صدق الحديث ، وحفظ الأمانة ، وحسن الخلق ، وعفة طعمة . وقال أبو بكر رضي الله عنه (٦) في خطبة بعد وفاة رسول الله ﷺ قام فيها رسول الله ﷺ مثل مقامى هذا عام أول ثم بكى وقال عليكم بالصدق فانه مع البرّ وهما في الجنة . وقال معاذ قال لي ﷺ (٧) أوصيك بتقوى الله ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، والوفاء بالعهد ، وبذل السلام ، وخفض الجناح .

[ وأما الآثار ] فقد قال على رضي الله عنه : أعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب ، وشرّ الندامة ندامة يوم القيامة . وقال عمر بن عبد العزيز رجة الله عليه : ما كذبت كذبة منذ شددت على إزارى . وقال عمر رضي الله عنه : أحبكم إلينا ما لم نركم أحسنكم اسماً ، فاذا رأيناكم فأحبكم إلينا أحسنكم خلقاً ، فاذا اخترناكم فأحبكم إلينا أصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة . وعن ميمون بن أبي شيب قال : جلست أكتب كتاباً فأثيت على حرف أن أنا كتبت زينت الكتاب ، وكنت قد كذبت عزمت على تركه فعزمت من جانب البيت « ثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة » . وقال الشعبي : ما أدري أيهما أبعد

(١) حديث : من حلف على يمين بأثم ليقتطع بها مال امرئ مسلم ، الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود .

(٢) حديث : أنه ردّ شهادة رجل في كذبة كذبها ابن أبي الدنيا في الصمت من رواية موسى بن شعبة مرسل ، وموسى روى معمر عنه منا كبير قاله أحمد بن حنبل .

(٣) حديث : كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب ، ابن أبي شعبة في المصنف من حديث أبي أمامة ورواه ابن عدى في مقدمة الكامل من حديث سعد بن أبي وقاص وابن عمر أيضاً وأبي أمامة أيضاً ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت من حديث سعد مرزوقاً وموقوفاً والموقوف أشبه بالصواب ، قاله الدارقطني في العلل .

(٤) حديث : ما كان من خلق الله شيء أشدّ عند أصحاب رسول الله ﷺ من الكذب ، ولقد كان يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما ينجلي من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث لله منها توبة أحد من حديث عائشة ورجاله ثقات إلا أنه قال عن ابن أبي مليكة أو غيره ، وقد رواه أبو الشيخ في الطبقات فقال ابن أبي مليكة ولم يشك وهو صحيح .

(٥) حديث : أربع إذا كنّ فيك فلا يضرّك ما فاتك من الدنيا : صدق الحديث ، الحديث الحاکم والخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث عبد الله بن عمرو وفيه ابن طيبة .

(٦) حديث أبي بكر : عليكم بالصدق فانه مع البرّ وهما في الجنة ، ابن ماجه والنسائي في اليوم والليلة ، وقد تقدّم بعضه في أول هذا النوع .

(٧) حديث معاذ : أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث أبو نعيم في الحلية وقد تقدّم .

غورا في النار الكذاب أو البخيل ؟ وقال ابن السكيت : ما أراني أوجر على ترك الكذب لأنني أنما أدعه أنفة .  
وقيل لخالد بن صبيح : أسمى الرجل كاذبا بكذبة واحدة ؟ قال نعم . وقال مالك بن دينار : قرأت في بعض  
الكتب : ما من خطيب إلا وتعرض خطبته على عمله ، فإن كان صادقا صدق ، وإن كان كاذبا قرضت شفاه  
بمقاريض من نار كلما قرضتا نبتتا . وقال مالك بن دينار : الصدق والكذب يعتركان في القلب حتى يخرج  
أحدهما صاحبه . وكلم عمر بن عبد العزيز الوليد بن عبد الملك في شيء ، فقال له كذبت ، فقال عمر والله  
ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين صاحبه .

### بيان ما رخص فيه من الكذب

اعلم أن الكذب ليس حراما لعينه لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره فإن أقل درجاته أن يعتقد  
المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلا ، وقد يتعلق به ضرر غيره ، ورب جهل فيه منفعة ومصلحة  
فالكذب محصل لذلك الجهل فيكون مأذونا فيه ، وربما كان واجبا . قال ميمون بن مهران : الكذب في  
بعض المواطن خير من الصدق ، أرايت لو أن رجلا سعى خلف إنسان بالسيف ليقتله فدخل دارا فأنهى إليك  
فقال أرايت فلانا ؟ ما كنت قائلا ؟ ألسنت تقول لم أره وما تصدق به ، وهذا الكذب واجب .

فنقول : الكلام وسيلة إلى المقاصد ، فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعا ،  
فالكذب فيه حرام وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك  
القصود مباحا ، وواجب إن كان المقصود واجبا ، كما أن عصمة دم المسلم واجبة ، فهما كان في الصدق سفك  
دم امرئ مسلم قد اختلف من ظالم فالكذب فيه واجب ، ومهما كان لا يتم مقصود الحرب أو إصلاح ذات البين  
أو استمالة قلب المجنى عليه إلا بالكذب فالكذب مباح إلا أنه ينبغي أن يحترز منه ما أمكن ، لأنه إذا فتح باب  
الكذب على نفسه فيخشى أن يتداعى إلى ما يستغنى عنه وإلى ما لا يقتصر على حد الضرورة فيكون الكذب  
حراما في الأصل إلا لضرورة ، والذي يدل على الاستثناء ما روى عن أم كلثوم قالت (١) ما سمعت رسول الله  
صلى الله عليه وسلم يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث : الرجل يقول القول يريد به الإصلاح ، والرجل  
يقول القول في الحرب ، والرجل يحدث امرأته ، والمرأة تحدث زوجها . وقالت أيضا : قال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم (٢) : « ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو نفي خيرا » . وقالت أسماء بنت يزيد  
(٣) قال رسول الله ﷺ « كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب بين مسلمين ليصلح بينهما »  
وروى عن أبي كاهل (٤) قال : وقع بين اثنين من أصحاب النبي ﷺ كلام حتى تصارما فلقيت أحدهما  
فقلت : مالك ولفلان ؟ فقد سمعته يحسن عليك الثناء ، ثم لقيت الآخر فقلت له مثل ذلك حتى اصطلحا ،  
ثم قلت : أهلكت نفسي وأصلحت بين هذين ، فأخبرت النبي ﷺ فقال يا أبا كاهل أصلح بين الناس

- (١) حديث أم كلثوم : ما سمعته يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث ، مسلم وقد تقدم .
- (٢) حديث أم كلثوم أيضا : ليس بكذاب من أصلح بين الناس ، الحديث متفق عليه وقد تقدم والذي  
قبله عند مسلم بعض هذا .
- (٣) حديث أسماء بنت يزيد : كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب بين رجلين يصلح  
بينهما أحد بزيادة فيه ، وهو عند الترمذي مختصرا وحسنه .
- (٤) حديث أبي كاهل : وقع بين رجلين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلام الحديث وفيه : يا أبا كاهل  
أصلح بين الناس ، رواه الطبراني ولم يصح .

أى ولو بالكذب . وقال عطاء بن يسار (١) قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم : أ كذب على أهلى ؟ قال لاخير فى الكذب ، قال أعدها وأقول لها ؟ قال لا جناح عليك . وروى أن ابن أبى عذرة الدؤلى وكان فى خلافة عمر رضى الله عنه كان يخلع النساء اللاتى يتزوج بهن ، فطارت له فى الناس من ذلك أحدىة يكرهها فلما علم بذلك أخذ بيد عبد الله بن الأرقم حتى أتى به إلى منزله ، ثم قال لامرأته : أنشدك بالله هل تبغضينى ؟ قالت لا تنشدنى ، قال فأتى أنشدك الله ، قالت نعم ، فقال لابن الأرقم أنسمع ؟ ثم انطلقا حتى أتيا عمر رضى الله عنه ، فقال : إنكم لتحدثون أذى أظلم للنساء وأخلمهن فاسأل ابن الأرقم فسأله فأخبره فأرسل إلى امرأة ابن أبى عذرة فجاءت هى وعمتها ، فقال : أنت التى تحدثين لزوجك أنك تبغضينه ؟ فقالت : إنى أول من تاب وراجع أمر الله تعالى انه ناشدنى فتخرجت أن أ كذب أفأ كذب يا أمير المؤمنين ؟ قال نعم فأ كذبى ، فان كانت إحداكن لا تحب أحدا فلا تحبته بذلك ، فان أقل البيوت الذى يبنى على الحب ولكن الناس يتعاضرون بالاسلام والأحساب وعن النّوّاس (٢) بن سمعان الكلابى قال قال رسول الله ﷺ « ما لى أراكم تنهافتون فى الكذب تنهافت الفراش فى النار ، كل الكذب يكتب على ابن آدم لآحالة إلا أن يكذب الرجل فى الحرب فان الحرب خدعة ، أو يكون بين الرجلين شحنة فيصالح بينهما ، أو يحدث امرأته يرضيها » . وقال ثوبان « الكذب كله إثم إلا ما نفع به مسلما ، أو دفع عنه ضررا » ، وقال على رضى الله عنه : إذا حدثتكم عن النبي صلى الله عليه وسلم فلا تخر من السماء أحب إلى من أن أ كذب عليه ، وإذا حدثتكم فيما بينى وبينكم فالجرب خدعة » فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء ، وفى معناها ما عداها إذا ارتبط به مقصود صحيح له أو غيره . أما ماله فثل أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله فله أن ينكره ، أو يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة بينه وبين الله تعالى ارتكبها فله أن ينكر ذلك فيقول ما زيت وما سرت ، وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستر بستر الله » وذلك أن اظهار الفاحشة فاحشة أخرى ، فللرجل أن يحفظ دمه وماله الذى يؤخذ ظلما ، وعرضه بلسانه وان كان كاذبا . وأما عرض غيره فبأن يسأل عن سر أخيه فله أن ينكره ، وأن يصلح بين اثنين ، وأن يصلح بين الضرات من نسائه بأن يظهر لكل واحدة أنها أحب إليه ، وان كانت امرأته لا تطاوعه إلا بوعده لا يقدر عليه فيعدها فى الحال تطيبا لقلبها ، أو يعتذر الى انسان وكان لا يطيب قلبه إلا بانكار ذنب وزيادة تودد فلا بأس به ، ولكن الحد فيه أن الكذب محذور ، ولو صدق فى هذه المواضع تولد منه محذور فينبغى أن يقابل أحدهما بالآخر ويزن بالميزان القسط ، فاذا علم أن المحذور الذى يحصل بالصدق أشد وقعا فى الشرع من الكذب فله الكذب ، وان كان ذلك المقصود أهون من مقصود الصدق فيجب الصدق ، وقد يتقابل الأمران بحيث يتردد فيهما ، وعند ذلك

(١) حديث عطاء بن يسار قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم أ كذب على أهلى ؟ قال لاخير فى الكذب قال أعدها وأقول لها ؟ قال لا جناح عليك ، ابن عبد البر فى التمهيد من رواية صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار مرسل ، وهو فى الموطأ عن صفوان بن سليم ، معصلا من غير ذكر عطاء بن يسار .

(٢) حديث النّوّاس بن سمعان : ما لى أراكم تنهافتون فى الكذب تنهافت الفراش فى النار كل الكذب مكنوب ، الحديث أبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق بلفظ تنبايعون إلى قوله فى النار دون ما بعده فرواه الطبرانى وفيهما شهر بن حوشب .

(٣) حديث : من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستر بستر الله ، الحاكم من حديث ابن عمر بلفظ : اجتنبوا هذه القاذورات التى نهى الله عنها ، فن ألم بشيء منها فليستر بستر الله ، واسناده حسن .

الميل إلى الصدق أولى ، لأن الكذب يباح لضرورة أو حاجة مهمة ، فإن شك في كون الحاجة مهمة فالأصل التحريم فيرجع إليه ، ولأجل غموض إدراك مراتب المقاصد ينبغي أن يحترز الإنسان من الكذب ما أمكنه وكذلك مهما كانت الحاجة له ، فيستحب له أن يترك أغراضه ويهجر الكذب ، فأما إذا تعلق بغرض غيره فلا تجوز المسامحة لحق الغير والاضرار به ، وأكثر كذب الناس إنما هو لحظوظ أنفسهم ، ثم هو لزيادات المال والجاه ، ولأموال ليس فوائدها محذورا ، حتى ان المرأة لتحكى عن زوجها ما تنفخر به ، وتكذب لأجل مراغمة الضرات ، وذلك حرام ، وقالت أسماء (١) : سمعت امرأة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : إن لي ضرة ، وإنني أتكثر من زوجي بما لم يفعل أضرارها بذلك فهل علي شيء فيه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور ، وقال صلى الله عليه وسلم (٢) من تطعم بما لا يطعم ، أو قال لي وليس له أو أعطيت ولم يعط فهو كلابس ثوبي زور يوم القيامة . ويدخل في هذا فتوى العالم بما لا يتحققه وروايته الحديث الذي لا يثبت له إذ غرضه أن يظهر فضل نفسه ، فهو لذلك يستكف من أن يقول لأدري وهذا حرام . ومما يلتحق بالنساء الصبيان ، فإن الصبي إذا كان لا يرغب في المكتب إلا بوعده أو وعيده ، أو تخويف كاذب كان ذلك مباحا ، نعم رويناه في الأخبار أن ذلك يكتب كذبا ، ولكن الكذب المباح أيضا قد يكتب ويحاسب عليه ويطالب بتصحيح قصده فيه ، ثم يعني عنه ، لأنه إنما أبيض بقصد الإصلاح ، ويتطرق إليه غرور كبير فانه قد يكون الباعث له حظه وغرضه الذي هو مستغن عنه ، وإنما يتعال ظاهرا بالإصلاح ، فلهذا يكتب ، وكل من أتى بكذبة فقد وقع في خطر الاجتهاد ليعلم أن المقصود الذي كذب لأجله هل هو أهم في الشرع من الصدق أم لا ؟ وذلك غامض جدا ، والحزم تركه إلا أن يصير واجبا بحيث لا يجوز تركه كما لو أدى إلى سفك دم ، أو ارتكاب معصية كيف كان ، وقد ظن ظانون أنه يجوز وضع الأحاديث في فضائل الأعمال ، وفي التشديد في المعاصي ، وزعموا أن القصد منه صحيح ، وهو خطأ محض إذ قال صلى الله عليه وسلم (٣) : « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » وهذا لا يرتكب إلا لضرورة ولا ضرورة إذ في الصدق مندوحة عن الكذب ، ففيها ورد من الآيات والأخبار كفاية عن غيرها ، وقول القائل : إن ذلك قد تكررت على الأسماع ، وسقط وقعته ، وما هو جديد فوقه أعظم ، فهذا هوس ، إذ ليس هذا من الأغراض التي تقاوم محذور الكذب على رسول الله ﷺ وعلى الله تعالى ، ويؤدي فتح بابه إلى أمور تشوش الشريعة ، فلا يقاوم خير هذا شره أصلا ، والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر التي لا يقاومها شيء . نسأل الله العفو عنا وعن جميع المسلمين .

### بيان الحذر من الكذب بالمعارض

قد نقل عن السلف أن في المعارض مندوحة عن الكذب . قال عمر رضي الله عنه : أما في المعارض ما يكفي الرجل عن الكذب ، وروى ذلك عن ابن عباس وغيره ، وإنما أرادوا بذلك إذا اضطر الإنسان إلى الكذب ، فأما إذا لم تكن حاجة وضرورة فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعا ، ولكن التعريض أهون .

(١) حديث أسماء : قالت امرأة إن لي ضرة وإنني أتكثر من زوجي بما لم يفعل ، الحديث متفق عليه ، وهي أسماء بنت أبي بكر الصديق .

(٢) حديث : من تطعم بما لا يطعم ، وقال لي وليس له ، وأعطيت ولم يعط كان كلابس ثوبي زور يوم القيامة ، لم أجده بهذا اللفظ .

(٣) حديث : من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ، متفق عليه من طرق ، وقد تقدم في العلم .

ومثال التعريض ما روى أن مطرًا قد دخل على زياد فاستبطأه فتعلل بعرض ، وقال ما رفعت جنبي مذ فارقت الأمير إلا مارفعتني الله . وقال إبراهيم : إذا بلغ الرجل عنك شيء فكرهت أن تكذب : فقل ان الله تعالى لي علم ما قلت من ذلك من شيء : فيكون قوله ما حرف نفي عند المستمع وعند الله سبحانه ، وكان معاذ بن جبل عاملاً لعمر رضي الله عنه فلما رجع قالت له امرأته ما جئت به مما يأتي به العمال الى أهله ، وما كان قد أتانا بشيء : فقال كان عندي ضاغط . قالت كنت أمينا عند رسول الله ﷺ وعند أبي بكر رضي الله عنه فبعث عمر معك ضاغطا وقامت بذلك بين نساءها واشتكت عمر فلما بلغه ذلك دعا معاذًا ، وقال بعثت معك ضاغطا . قال لم أجد ما أعتذر به إليها إلا ذلك ، فضحك عمر رضي الله عنه وأعطاه شيئًا : فقال أرضها به . ومعنى قوله ضاغطا يعني رقيقا ، وأراد به الله تعالى ، وكان النخعي لا يقول لابنته أشتري لك سكرًا بل يقول أرايت لو اشتريت لك سكرًا فانه ربما لا يتفق له ذلك ، وكان إبراهيم إذا طلبه من يكره أن يخرج إليه وهو في الدار قال للجارية قولي له اطلبه في المسجد ولا تقولي ليس ههنا كيلا يكون كذبا ، وكان الشعبي إذا طلب في المنزل وهو يكرهه خط دائرة وقل للجارية ضي الأصبع فيها وقولي ليس ههنا ، وهذا كله في موضع الحاجة . فأما في غير موضع الحاجة فلا لأن هذا تفهيم للكذب ، وان لم يكن اللفظ كذبا فهو مكروه على الجملة كما روى عبد الله بن عتبة . قال دخلت مع أبي علي عمر بن عبد العزيز رجة الله عليه فخرجت وعلى ثوب فجعل الناس يقولون هذا كساكه أمير المؤمنين ، فكنت أقول جزى الله أمير المؤمنين خيرا . فقال لي أبي يابني اتق الكذب وما أشبهه ، فهناك عن ذلك لأن فيه تقريرا لهم على ظن كاذب لأجل غرض المفاخرة وهذا عرض باطل لافائدة فيه ، نعم المعارض تباح لغرض خفيف كتطبيب قلب الغير بالمزاح . كقوله ﷺ : « (١) لا يدخل الجنة عجوز » ، وقوله للأخرى : « الذي في عين زوجك بياض » ، وللأخرى : « نحمالك على ولد البعير » : وما أشبهه . وأما الكذب الصريح كما فعله نعيمان الأنصاري مع عثمان في قصة الضير . إذ قال له أنه نعيمان ، وكما يعتاده الناس من ملاعبة الحق بتغريرهم بأن امرأة قد رغبت في تزويجك فان كان فيه ضرر يؤدي الى إيذاء قلب فهو حرام ، وان لم يكن إلا لمطايئته فلا يوصف صاحبها بالفسق ، ولكن ينقص ذلك من درجة إيمانه . قال ﷺ : « (٢) لا يكمل للمرء الايمان حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وحتى يجتنب الكذب في مزاحه » ، وأما قوله عليه السلام « (٣) ان الرجل ليتكلم بالكلمة ليضحك بها الناس يهوى بها في النار أبعد من الثريا » أراد به ما فيه غيبة مسلم أو إيذاء قلب دون محض المزاح ، ومن الكذب الذي لا يوجب الفسق ما جرت به العادة في المبالغة ، كقوله طلبت كذا وكذا مرة : وقلت لك كذا مائة مرة فانه لا يريد به تفهيم المرات بعددها . بل تفهيم المبالغة فان لم يكن طلبه إلا

(١) حديث : لا يدخل الجنة عجوز ، وحديث : في عين زوجك بياض ، وحديث : نحمالك على ولد البعير تقدمت الثلاثة في الآفة العاشرة .

(٢) حديث : لا يكمل المؤمن ايمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وحتى يجتنب الكذب في مزاحه ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب من حديث أبي ميسكة الزماري وقال فيه نظر ، وللشيخين من حديث أنس : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وللدارقطني في المؤلفات والمختلف من حديث أبي هريرة : لا يؤمن عبد الايمان كله حتى يترك الكذب في مزاحه ، قال أحمد بن حنبل منكر .

(٣) حديث : ان الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها الناس يهوى بها أبعد من الثريا ، تقدم في الآفة الثالثة .



مرة واحدة كان كاذبا ، وان كان طلبة مرات لا يعتاد مثله في الكثرة لا يأتهم ، وان لم تبلغ مائة وبينهما درجات يتعزز من مطلق اللسان بالمبالغة فيها لخطر الكذب ، ومما يعتاد الكذب فيه ويتساهل به أن يقال : كل الطعام فيقول لا أشتهي ، وذلك منهى عنه وهو حرام ، وان لم يكن فيه غرض صحيح . قال مجاهد (١) قالت أسماء بنت عميس : « كنت صاحبة عائشة في الليلة التي هيأتها وأدخلتها على رسول الله ﷺ ، وهي نسوة . قالت فوالله ما وجدنا عنده قري إلا قد حام من لبن . فشرب ثم ناوله عائشة . قالت فاستحييت الجارية . فقلت لا تردى يد رسول الله ﷺ خذى منه . قالت فأخذت منه على حياء فشربت منه ثم قال ناولي صواحبك فقلن لا نشتهي . فقال لا تجمعن جوعا وكذبا . قالت فقلت يا رسول الله : ان قلت لإحدانا لشيء نشتهي لا أشتهي أيعذ ذلك كذبا ؟ قال إن الكذب ليكتب كذبا حتى تكتب الكذبة كذبية » ، وقد كان أهل الورع يحترزون عن التسامح بمثل هذا الكذب . قال الليث بن سعد كانت عينا سعيد بن المسيب ترمص حتى يبلغ الرمص خارج عيذه . فيقال له لو مسحت عيذك . فيقول وأين قول الطبيب : لا تمس عيذك . فأقول لا أفعل ، وهذه مراقبة أهل الورع ، ومن تركه انسل لسانه في الكذب عن حد اختياره فيكذب ولا يشعر . وعن خوات التيمي . قال جاءت أخت الربيع بن خثيم عائدة لابن له فانسكت عليه . فقالت كيف أنت يا بني ؟ فجلس الربيع . وقال أرضعتيه ؟ قالت لا . قال ما عليك لو قلت يا ابن أخي فصدقت ، ومن العادة أن يقول يعلم الله فيما لا يعلمه . قال عيسى عليه السلام : ان من أعظم الذنوب عند الله أن يقول العبد ان الله يعلم لما لا يعلم وربما يكذب في حكاية المنام ، والاثم فيه عظيم . إذ قال عليه السلام « (٢) ان من أعظم الفرية أن يدعى الرجل الى غير أبيه أو يرى عيذه في المنام ما لم ير أو يقول على ما لم أقل » ، وقال عليه السلام « (٣) من كذب في حلم كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين ، وليس يعاقد بينهما أبدا » .

### الآفة الخامسة عشرة ، الغيبة والنظر فيها طويل

فلنذكر أولا مذمة الغيبة وما ورد فيها من شواهد الشرع ، وقد نص الله سبحانه على ذمها في كتابه وشبه صاحبها بأكل لحم الميتة . فقال تعالى : - ولا يغتب بعضكم بعضا يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه - ، وقال عليه السلام « (٤) كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » ، والغيبة

(١) حديث : مجاهد عن أسماء بنت عميس كنت صاحبة عائشة التي هيأتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث : وفيه . قال لا تجمعن جوعا وكذبا ، ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني في الكبير ، وله ونحوه من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد ، وهو الصواب فان أسماء بنت عميس كانت إذ ذاك بالحبشة ، لكن في طبقات الاصبهانيين لأبي الشيخ من رواية عطاء بن أبي رباح عن أسماء بنت عميس زفنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعض نسائه الحديث ، فإذا كانت غير عائشة ممن تزوجها بعد خير فلا مانع من ذلك .

(٢) حديث : ان من أعظم الفرية أن يدعى الرجل إلى غير أبيه أو يرى عيذه في المنام ما لم تر يا أويقول على ما لم أقل ، البخاري : من حديث وائلة بن الأسقع وله من حديث ابن عمر من أفرى الفري أن يرى عيذه ما لم تر يا .

(٣) حديث : من كذب في حلمه كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين ، البخاري من حديث ابن عباس .

(٤) حديث : كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه ، مسلم من حديث أبي هريرة .

تناول العرض ، وقد جمع الله بينه وبين المال والدم . وقال أبو هريرة . قال عليه السلام « (١) لاتحاسدوا ولا تباغضوا ولا تناجشوا ولا تدابروا ولا يفتب بعضكم بعضا ، وكونوا عباد الله إخوانا » ، وعن جابر وأبي سعيد « (٢) قال رسول الله ﷺ إياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنا : فإن الرجل قد يزني ويتوب فيتوب الله سبحانه عليه ، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه » ، وقال أنس « (٣) قال رسول الله ﷺ « صررت ليلة أسرى بي على أقوام يخمشون وجوههم بأظفارهم . فقلت يا جبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الذين يفتابون الناس ويقعون في أعراضهم » ، وقال سليم بن جابر « (٤) أثبت النبي عليه الصلاة والسلام . فقلت علمني خيرا أنتفع به . فقال « لاتحقرن من المعروف شيئا ولو أن تصب من دلوك في إناء المستقي ، وأن تلقى أخاك يبشر حسن ، وإن أدبر فلا تغتابنه » ، وقال البراء « (٥) خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في بيوتهن . فقال « يامعشر من آمن بأسانته ولم يؤمن بقلبه : لاتغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم : فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته » ، وقيل أوحى الله الى موسى عليه السلام « من مات نائبا من الغيبة : فهو آخر من يدخل الجنة » ، ومن مات مصرا عليها فهو أول من يدخل النار » ، وقال أنس « (٦) أمر رسول الله ﷺ الناس بصوم يوم . فقال « لا يفطرن أحد حتى آذن له : فصام الناس حتى إذا أمسوا جعل الرجل يحس . فيقول يا رسول الله ظلت صاعا فآذن لي لأفطر : فيأذن له ، والرجل والرجل حتى جاء رجل . فقال يا رسول الله فأتان من أهالك ظلنا صائمتين ، وانهما يستحيان أن يأتياك فآذن لهما أن يفطرا ، فأعرض عنه ﷺ فأعرض عنه ثم عاوده . فقال إنهما لم يصوما ، وكيف يصوم من ظل نهاره يأكل لحم الناس اذهب فرهما إن كانتا صائمتين أن تستقيذا فرجع إليهما فأخبرهما فاستقامتا : فقامت كل واحدة منهما علقه من دم فرجع الى النبي ﷺ فأخبره . فقال ، والذي نفسي بيده لو بقيتا في بطونهما لأكلتهما النار » ، وفي رواية أنه لما أعرض عنه جاء بعد ذلك ، وقال يا رسول الله والله إنهما قد ماتتا أو كادتا أن تموتا . فقال ﷺ « (٧) انتوني بهما فجاءتا

(١) حديث : أبي هريرة لاتحاسدوا ولا تباغضوا ولا يفتب بعضكم بعضا وكونوا عباد الله إخوانا متفق عليه من حديث : أبي هريرة وأنس دون قوله ولا يفتب بعضكم بعضا ، وقد تقدم في آداب الصحبة .

(٢) حديث : جابر وأبي سعيد إياكم والغيبة . فإن الغيبة أشد من الزنا ، الحديث ابن أبي الدنيا في الصمت وابن حبان في الضعفاء وابن مردويه في التفسير

(٣) حديث : أنس صررت ليلة أسرى بي على قوم يخمشون وجوههم بأظفارهم الحديث أبو داود مسندا ومرسلا ، والمسند أصح

(٤) حديث : سليم بن جابر أثبت رسول الله ﷺ فقلت علمني خيرا أنتفعني الله به ، الحديث أحمد في المسند وابن أبي الدنيا في الصمت واللفظ له ولم يقل فيه أحد وإذا أدبر فلا يغتابه ، وفي اسنادها ضعف

(٥) حديث : البراء يامعشر من آمن بأسانته ولم يؤمن بقلبه لاتغتابوا المسلمين ، الحديث ابن أبي الدنيا هكذا ورواه أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد جيد

(٦) حديث أنس أمر رسول الله ﷺ الناس بصوم وقال لا يفطرن أحد حتى آذن له ، فصام الناس الحديث في ذكر المرأتين اللتين اغتابتا في صيامهما فقامت كل واحدة منهما علقه من دم : ابن أبي الدنيا في الصمت ، وابن مردويه في التفسير من رواية يزيد الرقاشي عنه ، ويزيد ضعيف .

(٧) حديث المرأتين المذكورتين ، وقال فيه ان هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح فقال لاحدهما قئى فقامت من قيع ودم وصديد حتى ملأت القدح ، وقال للأخرى قئى فتأمت كذلك . فقال ان هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما جلست احدهما الى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس ، وقال أنس (١) خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الربا وعظم شأنه . فقال : ان الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله في الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل ، وأربنى الربا عرض الرجل المسلم ، وقال جابر « (٢) كنا مع رسول الله ﷺ في مسير فأتى على قبرين يعذب صاحباهما . فقال إنهما يعذبان ، وما يعذبان في كبير : أما أحدهما فكان يفتاب الناس ، وأما الآخر فكان لا يستنزه من بوله ، فدعا بجريدة رطبة أوجريدتين فكسرها ، ثم أمر بكل كسرة فغرس على قبر . وقال أما أنه سيهون من عذابهما ما كانتا رطبتين أو ما لم يبسا ، ولما رجم رسول الله ﷺ ما عزا في الزنا . قال رجل لصاحبه هذا أقعص كما يقعص الكلب فرآه صلى الله عليه وسلم وهما معه بجيفة . فقال انهشأ منها . فقالا يا رسول الله نهش جيفة . فقال ما أصبتما من أخيكما أنتم من هذه ، وكان الصحابة رضى الله عنهم يتلاقون بالبشر ولا يغتابون عند الغيبة ويرون ذلك أفضل الأعمال ، ويرون خلافه عادة المنافقين . وقال أبو هريرة « (٤) من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب إليه لجه في الآخرة ، وقيل له كاه ميتا كما أكلته حيا فإيا كاه فينضج ويكاح » ، وروى مرفوعا كذلك وروى أن رجلين كانا قاعدتين عند باب من أبواب المسجد فمر بهما رجل كان مخشاً فترك ذلك فقالا لقد بقي فيه منه شيء وأقيمت الصلاة فدخلنا فصلبا مع الناس خاك في أنفسهما ما قالاً فأتيا عطاء فسألاه فأمرهما أن يعيدا الوضوء والصلاة ، وأمرهما أن يقضيا الصيام ان كانا صائمين ، وعن مجاهد أنه قال في - ويل لكل همزة لمزة - الهمزة الطعان في الناس ، واللزة الذي يأكل لحوم الناس ، وقال قتادة ذكر لنا أن عذاب القبر ثلاثة أثلاث : ثلث من الغيبة ، وثلث من النخيمة ، وثلث من البول . وقال الحسن : والله للغيبة أسرع في دين الرجل المؤمن من الأكلة في الجسد . وقال بعضهم : أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ، ولكن في الكف عن أعراض الناس ، وقال ابن عباس : اذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذا ذكر عيوبك . وقال أبو هريرة يبصر أحدكم القذى في عين أخيه ولا يبصر الجذع في عين نفسه ، وكان

الله عليهما الحديث أجد من حديث عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه رجل لم يسم ، ورواه أبو يعلى في مسنده فاسقط منه ذكر الرجل المهم

(١) حديث أنس خطبنا فذكر الربا وعظم شأنه الحديث ، وفيه وأربنى الربا عرض الرجل المسلم ، ابن أبي الدنيا بسند ضعيف

(٢) حديث : جابر كنا مع رسول الله ﷺ في مسير فأتى على قبرين يعذب صاحباهما فقال أما انهما ليعذبان وما يعذبان في كبير : أما أحدهما فكان يفتاب الناس ، الحديث ابن أبي الدنيا في الصمت وأبو العباس الدغولي في كتاب الأدب بأسناد جيد ، وهو في الصحيحين من حديث ابن عباس إلا أنه ذكر فيه النخيمة بدل الغيبة وللطياشي فيه أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس ولأجد والطبراني من حديث أبي بكره نحوه بأسناد جيد .

(٣) حديث قوله للرجل الذي ، قال لصاحبه في حق المرجوم هذا أقعص كما يقعص الكلب فرآه بجيفة فقال انهشأ منها ، الحديث أبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة نحوه بأسناد جيد .

(٤) حديث : أبي هريرة من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب إليه لجه في الآخرة فيقال له كاه ميتا كما أكلته حيا ، الحديث ابن مردويه في التفسير مرفوعا وموقوفا ، وفيه محمد بن اسحاق رواه بالنعنة .

الحسن يقول : « ابن آدم إنك لن تصيب حقيقة الايمان حتى لاتعيب الناس بعيب هوفيك ، وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصلحه من نفسك فاذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصة نفسك ، وأحب العباد الى الله من كان هكذا » ، وقال مالك بن دينار مرّ عيسى عليه السلام ومعه الخواريون بجيفة كلب . فقال الخواريون ما أنتن ربح هذا الكلب . فقال عليه الصلاة والسلام ما أشدّ بياض أسنانه كأنه ﷺ نهامهم عن غيبة الكلب ، ونههم على أنه لا يذكر من شيء من خلق الله الا أحسنه ، وسمع على بن الحسين رضى الله عنهما رجلا يغتاب آخر . فقال له إياك والغيبة فانها إدام كلاب الناس ، وقال عمر رضى الله عنه « عليكم بذكر الله تعالى فانه شفاء ، وإياكم وذكر الناس فانه داء » : نسأل الله حسن التوفيق لطاعته

### بيان معنى الغيبة وحدودها

اعلم أن حدّ الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه سواء ذكرته بنقص في بدنه أو نسبه أو في خلقه أو في فعله أو في قوله أو في دينه أو في دنياه حتى في ثوبه وداره ودابته ، أما البدن فكذلك كرك العيش والحول والقرع والقصر والطول والسواد والصفرة ، وجميع ما يتصور أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان . وأما النسب فبأن تقول أبوه قبطني أو هندی أو فاسقي أو خسيس أو سكاف أو زبال أو شيء مما يكرهه كيفما كان . وأما الخلق فبأن تقول هو سيء الخلق بخيل متكبر مرء شديد الغضب جبان عاجز ضعيف القلب متهور وما يجري مجراه . وأما في أفعاله المتعلقة بالدين فكقولك هو سارق أو كذاب أو شارب خمر أو خائن أو ظالم أو متهاون بالصلاة أو الزكاة أو لا يحسن الركوع أو السجود أو لا يجتريز من النجاسات أو ليس باراً بوالديه أو لا يضع الزكاة موضعها أو لا يحسن قسمتها أو لا يحرس صومه عن الرفث والغيبة والتعرض لأعراض الناس . وأما فعله المتعلق بالدنيا فكقولك انه قليل الأدب متهاون بالناس أو لا يرى لأحد على نفسه حقاً أو يروى لنفسه الحق على الناس أو انه كثير الكلام كثير الأكل ثوم ينام في غير وقت النوم ويجلس في غير موضعه . وأما في ثوبه فكقولك إنه واسع الكتم طويل الذيل وسخ الثياب ، وقال قوم لا غيبة في الدين لأنه ذم مآذيه الله تعالى فذكره بالمعاصي وذمه بها يجوز بدليل ما روى أن رسول الله ﷺ (١) ذكرت له امرأة وكثرة صلاحها وصومها ولسكنها تؤذى جيرانها بلسانها . فقال هي في النار (٢) وذكرت عنده امرأة أخرى بأنها بخيلة . فقال فما خيرها اذا فهذا فاسد لأنهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم الى تعرف الأحكام بالسؤال ولم يكن غرضهم التنقيص ولا يحتاج اليه في غير مجلس الرسول ﷺ والدليل عليه إجماع الأمة على أن من ذكر غيره بما يكرهه فهو مغتاب لأنه داخل فيما ذكره رسول الله ﷺ في حدّ الغيبة ، وكل هذا وإن كان صادقاً فيه فهو به مغتاب عاص لربه وآكل لحم أخيه بدليل ما روى أن النبي ﷺ (٣) قال هل تدرون ما الغيبة قالوا الله ورسوله أعلم . قال ذكرك أخاك بما يكرهه : قيل أرايت ان كان في أخي ما أقوله ؟ قال ان كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وان لم يكن فيه فقد بهته . وقال معاذ بن جبل (٤) ذكر رجل عند رسول الله ﷺ

(١) حديث : ذكرت له امرأة وكثرة صومها وصلاتها ، لكن تؤذى جيرانها . فقال هي في النار ابن

حبان والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة .

(٢) حديث : ذكرت امرأة أخرى بأنها بخيلة . قال فما خيرها اذا ، الخرائطي في مكارم الاخلاق من حديث

أبي جعفر محمد بن علي مرسل ورويناه في أمالي ابن شمعون هكذا .

(٣) حديث هل تدرون ما الغيبة ، قالوا الله ورسوله أعلم . قال ذكرك أخاك بما يكره الحديث ، مسلم من

حديث أبي هريرة .

(٤) حديث معاذ ذكر رجل عند رسول الله ﷺ فقالوا ما أعجزه ، الحديث الطبراني بسند ضعيف .

فقالوا ما أعجزه . فقال ﷺ اغتبتكم أخاكم قالوا يا رسول الله قلنا ما فيه . قال ان قائم ما ليس فيه فقد بهتموه ، وعن حذيفة عن عائشة رضي الله عنها (١) انها ذكرت عند رسول الله ﷺ امرأة . فقالت انها قصيرة . فقال ﷺ اغتبتها . وقال الحسن ذكر الغير ثلاثة : الغيبة ، والبهتان ، والافتك ، وكل في كتاب الله عز وجل : فالغيبة أن تقول ما فيه ، والبهتان أن تقول ما بلغك ، وذكر ابن سيرين رجلا . فقال ذلك الرجل الأسود : ثم قال أستغفر الله اني أراي قد اغتبتك ، وذكر ابن سيرين ابراهيم النخعي فوضع يده على عينه ولم يقل الا عور . وقالت عائشة (٢) لا يغتاب أحدكم أحدا فاني قلت لامرأة مرة وأنا عند النبي صلى الله عليه وسلم « ان هذه لطويلة الذيل . فقال لي : الفظي الفظي فلفظت مضغة لحم » .

### بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان

اعلم أن الذكر باللسان إنما حرم لأن فيه تفهيم الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه فالتعريض به كالتصريح وان فعل فيه كالقول والاشارة والايحاء والغمز والهمز والكتابة والحركة وكل ما يفهم المقصود فهو داخل في الغيبة وهو حرام : فمن ذلك قول عائشة رضي الله عنها (٣) دخلت علينا امرأة فلما ولت أرمأت يدي أنها قصيرة . فقال عليه السلام اغتبتها ، ومن ذلك المحاكاة كأن يمشي متعارجا أو كما يمشي فهو غيبة ، بل هو أشد من الغيبة لانه أعظم في التصوير ، ولما رأى رسول الله ﷺ عائشة حاكمت امرأة قال (٤) ما يسرنى اني حاكيت انسا مولى كذا وكذا ، وكذلك الغيبة بالكتابة فان القلم أحد اللسانين ، وذكر المصنف شخصا معيناً وتهجين كلامه في الكتاب غيبة إلا أن يقترب به شيء من الأعذار المحوجة الى ذكره كما سيأتي بيانه . وأما قوله قال قوم كذا فليس ذلك غيبة إنما الغيبة التعريض لشخص معين إما محي وإماميت ، ومن الغيبة أن تقول بعض من مرتبنا اليوم أو بعض من رأيناه اذا كان المخاطب يفهم منه شخصا معيناً لأن المحذور تفهيمه دون ما به التفهيم فأما اذا لم يفهم عينه جاز ، كان رسول الله ﷺ اذا كره من انسان شيئا قال ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا فكان لا يعين ، وقولك بعض من قدم من السفر أو بعض من يدعى العلم ان كان معه قرينة تفهم عين الشخص فهي غيبة وأخبت أنواع الغيبة غيبة القراء المرائين فانهم يفهمون المقصود على صيغة أهل الصلاح ليظهروا من أنفسهم التعفف عن الغيبة ويفهمون المقصود ولا يدرون بمجهلهم أنهم جمعوا بين فاحشتين الغيبة

(١) حديث : عائشة أنها ذكرت امرأة فقالت انها قصيرة فقال اغتبتها رواه أحمد وأصله عند أبي داود والترمذي وصححه بلفظ آخر ووقع عند المصنف عن حذيفة عن عائشة ، وكذا هو في الصمت لابن أبي الدنيا ، والصواب عن أبي حذيفة كما عند أحمد وأبي داود والترمذي ، واسم أبي حذيفة سلمة بن صهيب .

(٢) حديث عائشة قلت لامرأة ان هذه طويلة الذيل فقال صلى الله عليه وسلم الفظي فلفظت بضمة من لحم ، ابن أبي الدنيا وابن مردويه في التفسير وفي اسناده امرأة لا أعرفها .

(٣) حديث عائشة دخلت علينا امرأة فأومأت يدي أي قصيرة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم قد اغتبتها . ابن أبي الدنيا وابن مردويه من رواية حسان بن محارق عنها ، وحسان وثقه ابن حبان وباقيهم ثقات .

(٤) حديث : ما يسرنى اني حكيت ولي كذا وكذا تقدم في الآفة الحادية عشرة .

(٥) حديث : كان اذا كره من انسان شيئا قال ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا الحديث . أبو داود من حديث عائشة دون قوله ، وكان لا يعبره ، ورجاله رجال الصحيح .



والرياء وذلك مثل أن يذكر عنده انسان فيقول الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على السلطان والتبذل في طلب الحطام ، أو يقول : نعوذ بالله من قلة الحياء ، نسأل الله أن يعصمنا منها ، وإنما قصده أن يفهم عيب الغيرة فيذكره بصيغة الدعاء ، وكذلك قد يقدم مدح من يريد غيبته فيقول ما أحسن أحوال فلان ، ما كان يقصر في العبادات ولكن قد اعتراه فتور وابتلى بما يتلى به كلنا وهو قلة الصبر فيذكر نفسه ومقصوده أن يذم غيره في ضمن ذلك ويمدح نفسه بالتشبه بالصلحين بأن يذم نفسه فيكون مقتابا ومراثيا ومزكيا نفسه ، فيجمع بين ثلاث فواحش ، وهو يحمله يظن أنه من الصالحين المتعففين عن الغيبة ، ولذلك يلعب الشيطان بأهل الجهل اذا اشتغلوا بالعبادة من غير علم فانه يتبعهم ويحبط بكابده عملهم ، ويضحك عليهم ، ويسخر منهم ، ومن ذلك أن يذكر عيب انسان فلا ينتبه له بعض الحاضرين فيقول سبحان الله ما أعجب هذا حتى يصني إليه ويعلم ما يقول فيذكر الله تعالى ويستعمل اسمه آلة له في تحقيق خبثه وهو يمتن على الله عز وجل بذكره جهلا منه وغرورا وكذلك يقول : ساءنى ماجرى على صديقنا من الاستخفاف به ، نسأل الله أن يروح نفسه فيكون كاذبا في دعوى الاغتمام وفي اظهار الدعاء له ، بل لو قصد الدعاء لأخذه في خلوته عقيب صلاته ولو كان يغتم به لاغتم أيضا باظهار ما يكرهه ، وكذلك يقول ذلك المسكين قد بلى بأفة عظيمة تاب الله علينا وعليه ، فهو في كل ذلك يظهر الدعاء ، والله مطلع على خبث ضميره ، وخفي قصده ، وهو لجهل لا يدري انه قد تعرض لمقت أعظم مما تعرض له الجهال اذا جاهاوا ، ومن ذلك الاصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجب ، فانه انما يظهر التعجب ليزيد نشاط المغتاب في الغيبة فيندفع فيها ، وكأنه يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق فيقول عجب ما علمت أنه كذلك ما عرفته إلى الآن إلا بالخير ، وكنت أحسب فيه غير هذا عافانا الله من بلائه فان كل ذلك تصديق للمغتاب ، والتصديق بالغيبة غيبة ، بل الساكت شريك المغتاب . قال صلى الله عليه وسلم (١) : « المستمع أحد المغتابين » ، وقد روى عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما (٢) أن أحدهما قال لصاحبه ان فلانا لنؤم ثم انهما طلبا أدما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأكلاه الخبز فقال صلى الله عليه وسلم قد ائتمتما فقالا مانعنا ، قال بلى افكما أكلتما من لحم أخيكما فانظر كيف جمعهما ، وكان القائل أحدهما والآخر مستمعا . وقال للرجلين اللذين قال أحدهما أفقص الرجل كما يققص الكلب (٣) انهشأ من هذه الجيفة ، فجمع بينهما ، فالستمع لا يخرج من إثم الغيبة إلا أن ينكر بلسانه أو بقلبه ان خاف وان قدر على القيام ، أو قطع الكلام بكلام آخر فلم يفعل لزمه ، وان قال بلسانه اسكت وهو مشته لذلك بقلبه فذلك نفاق ولا يخرج من الإثم ما لم يكرهه بقلبه ، ولا يكفي في ذلك أن يشير باليد أى اسكت أو يشير بحاجبه وجبينه ، فان ذلك استحقاق للذكور ، بل ينبغي أن يعظم ذلك فيذب عنه صريحا . وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « من أذل عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على نصره أذله الله يوم القيامة على رءوس

(١) حديث : المستمع أحد المغتابين ، الطبراني من حديث ابن عمر : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة وعن الاستماع إلى الغيبة ، وهو ضعيف .

(٢) حديث : ان أبا بكر وعمر قال أحدهما لصاحبه : ان فلانا لنؤم ، ثم طلبا أدما من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قد ائتمتما ، فقالا مانعنا ، فقال بلى ما أكلتما من لحم صاحبكما ، أبو العباس الدغولي في الآداب من رواية عبد الرحمن بن أبي ليلى مرسل نحوه .

(٣) حديث : انهشأ من هذه الميتة ، قاله للرجلين اللذين قال أحدهما أفقص الرجل كما يققص الكلب ، تقدم قبل هذا بابي عشر حديثا

(٤) حديث : من أذل عنده مؤمن وهو قادر على أن ينصره فلم ينصره أذله الله يوم القيامة على رءوس الخلائق ، الطبراني من حديث سهل بن حنيف ، وفيه ابن هبة .

الخلافة . وقال أبو الدرداء (١) قال رسول الله ﷺ : « من ردّ عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يردّ عن عرضه يوم القيامة » ، وقال أيضا : (٢) « من ذبّ عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يعتقه من النار » ، وقد ورد في نصرة المسلم في الغيبة ، وفي فضل ذلك أخبار كثيرة أوردناها في كتاب آداب الصحبة وحقوق المسامحة فلا نطيل باعادتها .

### بيان الأسباب الباعثة على الغيبة

اعلم أن البواعث على الغيبة كثيرة ، ولكن يجمعها أحد عشر سببا ، ثمانية منها تطرد في حق العامة ، وثلاثة تختص بأهل الدين والخاصة : أما الثمانية [ ولأول ] أن يشفي الغيظ ، وذلك إذا جرى سبب غضب به عليه فانه إذا هاج غضبه يشتفي بذكر مساويه فيسبق اللسان إليه بالطبع ان لم يكن ثم دين وازع ، وقد يمتنع تشفي الغيظ عند الغضب فيحتقن الغضب في الباطن فيصير حقا ثابتا فيكون سببا دائما لذكر المساوي ، فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة [ الثاني ] موافقة الأقران ، ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام فانهم اذا كانوا ينفكهم بذكر الأعراض فيرى أنه لو أنكر عليهم ، أوقف المجلس استنقلوه ونفروا عنه فيساعدتهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة ، ويظن أنه مجاملة في الصحبة ، وقد يغضب رفقاؤه فيحتاج إلى أن يغضب لغضبهم اظهارا للمساهمة في السراء والضراء فيخوض معهم في ذكر العيوب والمساوي [ الثالث ] أن يستشعر من انسان أنه سيقصده ويطول لسانه عليه ، أو يقبح حاله عند محتشم ، أو يشهد عليه بشهادة فيبادره قبل أن يقبح هو حاله ويطعن فيه بسقط أثر شهادته ، أو يتدبّر بذكر ما فيه صادقا ليكذب عليه بعده فيروج كذبه بالصدق الأول ويستشهد ويقول : ما من عاذني الكذب فاني أخبرتكم بكذا وكذا من أحواله فكان كما قلت [ الرابع ] أن ينسب إلى شيء فيريد أن يتبرأ منه فيذكر الذي فعله وكان من حقه أن يبرئ نفسه ولا يذكر الذي فعل فلا ينسب غيره إليه أو يذكر غيره بانه كان مشارك له في الفعل ليمهد بذلك عذر نفسه في فعله [ الخامس ] ارادة التصنع والمباهاة وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره فيقول فلان جاهل وفهمه ركيك ، وكلامه ضعيف ، وغرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه ، ويريهم أنه أعلم منه ، أو يحذر أن يعظم مثل تعظيمه فيقدح فيه لذلك [ السادس ] الحسد وهو أنه ربما يحسد من يثنى الناس عليه ويحبونه ويكرمونه فيريد زوال تلك النعمة عنه فلا يجد سبيلا إليه إلا بالقدح فيه فيريد أن يسقط ماء وجهه عند الناس حتى يكفوا عن كرامته والثناء عليه لأنه يثقل عليه أن يسمع كلام الناس وثناهم عليه وإكرامهم له ، وهذا هو عين الحسد ، وهو غير الغضب والحقد ، فان ذلك يستدعي جنابة من المغضوب عليه ، والحسد قد يكون مع الصديق المحسن ، والرفيق الموافق [ السابع ] اللعب والهرل والمطايبة وتزجية الوقت بالضحك فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة ، ومنشؤه التكبر والحجب [ الثامن ] السخرية والاستهزاء استحقار له فان ذلك قد يجري في الحضور ويجري أيضا في الغيبة ومنشؤه التكبر واستصغار المستهزاء به . وأما الأسباب الثلاثة التي هي في الخاصة فهي أغمضها وأدقها ، لأنها شرور خبأها الشيطان في معرض

(١) حديث أبي الدرداء : من ردّ عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يردّ عن عرضه يوم القيامة ، ابن أبي الدنيا في الصمت ، وفيه شهر بن حوشب ، وهو عند الطبراني من وجه آخر بلفظ : ردّ الله عن وجهه النار يوم القيامة ، وفي رواية له : كان له حجابا من النار ، وكلاهما ضعيف .

(٢) حديث : من ذبّ عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يعتقه من النار ، أحمد والطبراني من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد .

الخيرات وفيها خير ولكن شاب الشيطان بها الشر [ الأول ] أن تنبث من الدين داعية التعجب في المنكر المنكر والخطأ في الدين فيقول ما أعجب ما رأيت من فلان فإنه قد يكون به صادقا ويكون تعجبه من المنكر ولكن كان حقه أن يتعجب ولا يذكر اسمه فيسهل الشيطان عليه ذكر اسمه في اظهار تعجبه فصار به مغتابا وإنما من حيث لا يدري . ومن ذلك قول الرجل : تعجبت من فلان كيف يحب جاريتته وهي قبيحة ! وكيف يجلس بين يدي فلان وهو جاهل [ الثاني ] الرحمة وهو أن يغم بسبب ما يتلى به فيقول مسكين فلان قد غمني أمره وما ابتلى به فيكون صادقا في دعوى الاغتمام ، ويلهيه النعم عن الخذر من ذكر اسمه فيذكره فيصير به مغتابا فيكون غمه ورحمته خيرا ، وكذلك تعجبه ، ولكن ساقه الشيطان إلى شر من حيث لا يدري ، والترحم والاغتمام يمكن دون ذكر اسمه فيهيجه الشيطان على ذكر اسمه ليبتل به ثواب اغتمامه وترحمه [ الثالث ] الغضب لله تعالى فإنه قد يغضب على منكر قارفه انسان اذا رآه أو سمعه فيظهر غضبه ويذكر اسمه وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا يظهره على غيره ، أو يستر اسمه ولا يذكره بالسوء ، فهذه الثلاثة مما يغمض دركها على العلماء فضلا عن العوام ، فاهم يظنون أن التعجب والرحمة والغضب اذا كان لله تعالى كان عذرا في ذكر الاسم وهو خطأ ، بل المرخص في الغيبة حاجات مخصوصة لا مندوحة فيها عن ذكر الاسم كما سيأتي ذكره . روى عن عامر بن وائلة (١) أن رجلا مر على قوم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلم عليهم ، فردوا عليه السلام ، فلما جازهم قال رجل منهم : إني لأبغض هذا في الله تعالى ، فقال أهل المجلس : لبئس ما قلت والله انبئته ، ثم قالوا يا فلان لرجل منهم قم فأدركه وأخبره بما قال ، فأدركه رسوهم ، فأخبره ، فأتى الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكى له ما قال ، وسأله أن يدعوه له . فدعاه وسأله ، فقال قد قلت ذلك ، فقال ﷺ لم تبغضه ؟ فقال أنا جاره وأنا به خابر والله ما رأيته يصلي صلاة قط إلا هذه المكتوبة ، قال فاسأله يا رسول الله هل رأي أخرتها عن وقتها ، أو أسأت الوضوء لها ، أو الركوع أو السجود فيها ؟ فسأله فقال لا ، فقال والله ما رأيته يصوم شهرا قط إلا هذا الشهر الذي يصومه البر والفاجر ، قال فاسأله يا رسول الله هل رأي قط أفطرت فيه ، أو نقصت من حقه شيئا ؟ فسأله عنه فقال لا ، فقال : والله ما رأيته يعطى سائلا ولا مسكينا قط ولا رأيته ينفق شيئا من ماله في سبيل الله إلا هذه الزكاة التي يؤتيها البر والفاجر ، قال فاسأله هل رأي نقصت منها ، أو ما كنت فيها طالبا الذي يسألها ؟ فسأله فقال لا ، فقال صلى الله عليه وسلم للرجل قم فلعله خير منك .

### بيان العلاج الذي به يمنع اللسان عن الغيبة

اعلم أن مساوي الأخلاق كلها إنما تعالج بمحجور العلم والعمل ، وإنما علاج كل علة بمضادة سببها ، فلنفحص عن سببها ، وعلاج كفة اللسان عن الغيبة على وجهين : أحدهما على الجملة ، والآخر على التفصيل ، أما على الجملة فهو أن يعلم تعرضه لسخط الله تعالى بغيبته بهذه الأخبار التي روينها ، وأن يعلم أنها محبطة لحسناته يوم القيامة فإنها تنقل حسناته يوم القيامة إلى من اغتابه بدلا عما استباحه من عرضه فإن لم تكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه وهو مع ذلك متعرض لمقت الله عز وجل ، ومشبه عنده بأكل الميتة ، بل العبد يدخل النار بأن ترجع كفة سيئاته على كفة حسناته ، وربما تنقل إليه سيئة واحدة من اغتابه فيحصل بها

(١) حديث عامر بن وائلة : أن رجلا مر على قوم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلم عليهم فردوا عليه السلام ، فلما جازهم قال رجل منهم : إني لأبغض هذا في الله ، الحديث بطوله ، وفيه : فقال قم فلعله خير منك ، رواه أحمد بإسناد صحيح .

الرجحان ويدخل بها النار، وإنما أقلّ الدرجات أن تنقص من ثواب أعماله، وذلك بعد الخاصة والمطالبة والسؤال والجواب والحساب. قل صلى الله عليه وسلم (١) « ما النار في اليبس بأسرع من الغيبة في حسنات العبد ». وروى أن رجلا قال للحسن : بلغني أنك تغتابني ؟ فقال ما بلغ من قدرك عندي أني أحكمك في حسناتي ، فهما آمن العبد بما ورد من الأخبار في الغيبة لم يطلق لسانه بها خوفا من ذلك ، وينفعه أيضا أن يتدبر في نفسه فإن وجد فيها عيبا اشتغل بعيب نفسه ، وذكر قوله صلى الله عليه وسلم (٢) : « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » ، ومهما وجد عيبا فليزني أن يستحي من أن يترك ذم نفسه ويذم غيره ، بل ينبغي أن يتحقق أن عجز غيره عن نفسه في التنزه عن ذلك العيب كعجزه ، وهذا إن كان ذلك عيبا يتعلق بفعله واختياره ، وإن كان أصرا خلقيا فالذم له ذم للخالق ، فإن من ذم صنعة فقد ذم صانعها . قال رجل لحكيم : يا قبيح لوجه ، قال ما كان خلق وجهي إلى فأحسنه . وإذا لم يجد العبد عيبا في نفسه فليشكر الله تعالى ولا يلوثن نفسه بأعظم العيوب فإن ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب ، بل لو أنصف لعلم أن ظنه بنفسه أنه برىء من كل عيب جهل بنفسه ، وهو من أعظم العيوب ، وينفعه أن يعلم أن تألم غيره بغيته كتأله بغيته غيره له ، فإذا كان لا يرضى لنفسه أن يغتاب فيذني أن لا يرضى لغيره ما لا يرضاه لنفسه ، فهذه معالجات جليلة ، أما التفصيل فهو أن ينظر في السبب الباعث له على الغيبة ، فإن علاج العلة يقطع سببها ، وقد قدمنا الأسباب . أما الغضب فيعالجه بما سيأتي في كتاب [ آفات الغضب ] وهو أن يقول : اني اذا أمضيت غضبي عليه فلعن الله تعالى يمضي غضبه على سبب الغيبة إذ نهاني عنها فاجترأت على نهيه ، واستخففت برجوة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم (٣) « إن جهنم بابا لا يدخل منه إلا من شق غيظه بمعصية الله تعالى » . وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « من اتقى ربه كل لسانه ولم يشف غيظه » . وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « من كظم غيظا وهو يقدر على أن يمضيه دعاه الله تعالى يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره في أي الحور شاء » . وفي بعض الكتب المنزلة على بعض النبيين : « يا ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا تحقك فيمن أحق » . وأما الموافقة فبأن تعلم أن الله تعالى يغضب عليك إذا طلبت سخطه في رضا المخلوقين فكيف ترضى لنفسك أن توقر غيرك وتحقر مولاك فتترك رضاه لرضاهم إلا أن يكون غضبك لله تعالى وذلك لا يوجب أن تذكر المغضوب عليه بسوء ، بل ينبغي أن تغضب لله أيضا على رفقاك إذا ذكره بالسوء فانهم عصوا ربك بأفحش الذنوب وهي الغيبة . وأما تنزيه النفس بنسبة الغير إلى الخيانة حيث يستغنى عن ذكر الغير فتعالجه بأن تعرف أن التعرض لمقت الخالق أشد من التعرض لمقت المخلوقين ، وأنت بالغيبة متعرض لسخط الله يقينا ولا تدري أنك تتخلص من سخط الناس أم لا فتخلص نفسك في الدنيا بالتوهم وتملك في الآخرة وتخسر حسناتك بالحقيقة ويحصل لك ذم الله تعالى نقدا وتنتظر دفع ذم الخالق نسيئة وهذا غاية الجهل والخذلان ، وأما عذر كقولك ان أكلت الحرام ففلان يأكله ، وإن قبلت مال السلطان ففلان يقبله ، فهذا جهل لأنك تعتذر بالاقتداء بمن لا يجوز

(١) حديث : ما النار في اليبس بأسرع من الغيبة في حسنات العبد ، لم أجده أصلا .

(٢) حديث : طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، البرار من حديث أنس بسند ضعيف .

(٣) حديث : إن جهنم بابا لا يدخل منه إلا من شق غيظه بمعصية الله ، البرار وابن أبي الدنيا وابن عدي والبيهقي والنسائي من حديث ابن عباس بسند ضعيف .

(٤) حديث : من اتقى ربه كل لسانه ولم يشف غيظه ، أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف ، ورويناه في الأربعين البلدانية للساقى .

(٥) حديث : من كظم غيظه وهو قادر على أن ينفذه ، الحديث أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث معاذ بن أنس .

الاقْدَاءُ بِهِ فَإِنْ مَنْ خَالَفَ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَقْتَدِي بِهِ كَأَنَّمَا مَنْ كَانَ وَلَوْ دَخَلَ غَيْرُكَ النَّارَ وَأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَدْخُلَهَا لَمْ تَوَافِقْهُ وَلَوْ وَافَقْتَهُ لَسَفَهُ عَقْلُكَ ، فَقَدْ ذَكَرْتَهُ غِيْبَةً وَزِيَادَةَ مَعْصِيَةِ أَضْفَعْنَهَا إِلَى مَا عَظُمَتْ عَنْهُ وَسَجَلَتْ مَعَ الْجَمْعِ بَيْنَ الْمَعْصِيَتَيْنِ عَلَى جَهْلِكَ وَغِيَاوَتِكَ ، وَكَانَتْ كَأَشَاةٍ تَنْظُرُ إِلَى الْمَعْرَى تَرْدِي نَفْسَهَا مِنْ قَهْرِ الْجَلِّ فَهِيَ أَيْضًا تَرْدِي نَفْسَهَا ، وَلَوْ كَانَ لَهَا لِسَانٌ نَاطِقٌ بِالْعَذْرِ وَصَرَحَتْ بِالْعَذْرِ . وَقَالَتْ الْعِزُّ أَيْ كَيْسَ مِنِّي وَقَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَهَا ، فَكَذَلِكَ أَنَا أَفْعَلُ لَكُنْتُ تَضْحِكُ مِنْ جَهْلِيهَا ، وَحَالِكُ مِثْلُ حَالِهَا ، ثُمَّ لَا تَعْجَبُ وَلَا تَضْحَكُ مِنْ نَفْسِكَ وَأَمَّا قَصْدُكَ الْمُبَاهَاةَ وَتَرْكِيَةَ النَّفْسِ بِزِيَادَةِ الْفَضْلِ بِأَنْ تَقْدَحَ فِي غَيْرِكَ . فَيُذِنُنِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّكَ بِمَا ذَكَرْتَهُ بِهِ أَبْطَلْتَ فَضْلَكَ عِنْدَ اللَّهِ ، وَأَنْتَ مِنْ أَعْتِقَادِ النَّاسِ فَضْلَكَ عَلَى خَطَرٍ ، وَرَبَّمَا نَقَصَ أَعْتِقَادُهُمْ فِيكَ إِذَا عَرَفُوكَ بِثَلْبِ النَّاسِ فَتَكُونُ قَدْ بَعْتَ مَا عِنْدَ الْخَاقِ يَقِينًا بِمَا عِنْدَ الْمَخْلُوقِينَ وَهَمَّا وَلَوْ حَصَلَ لَكَ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ أَعْتِقَادُ الْفَضْلِ لَكَانُوا لَا يَفْنُونَ عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا . وَأَمَّا الْغِيْبَةُ لِأَجْلِ الْحَسَدِ فَهُوَ جَمْعٌ بَيْنَ عِذَايْنِ لِأَنَّكَ حَسَدْتَهُ عَلَى نِعْمَةِ الدُّنْيَا ، وَكَانَتْ فِي الدُّنْيَا مَعَذِبًا بِالْحَسَدِ فَمَا قَنَعَتْ بِذَلِكَ حَتَّى أَضَفْتَ إِلَيْهِ عَذَابَ الْآخِرَةِ فَكَانَتْ خَاسِرًا نَفْسِكَ فِي الدُّنْيَا فَصُرَتْ أَيْضًا خَاسِرًا فِي الْآخِرَةِ لِتَجَمُّعِ بَيْنِ النَّسَاكِينِ ، فَقَدْ قَصَدْتَ مَحْسُودَكَ فَأَصَبْتَ نَفْسَكَ وَأَهْدَيْتَ إِلَيْهِ حَسَنَاتِكَ فَإِذَا أَنْتَ صَدِيقُهُ وَعَدُوُّ نَفْسِكَ إِذْ لَا تَضُرُّهُ غِيْبَتُكَ وَتَضُرُّكَ وَتَنْفَعُهُ إِذْ تَنْقُلُ إِلَيْهِ حَسَنَاتِكَ أَوْ تَنْقُلُ إِلَيْكَ سَيِّئَاتِهِ وَلَا تَنْفَعُكَ ، وَقَدْ جَعَلْتَ إِلَى خَبْثِ الْحَسَدِ جَهْلَ الْحَاقَّةِ ، وَرَبَّمَا يَكُونُ حَسَدُكَ وَقَدْ حَكَّ سَبَبَ انْتِشَارِ فَضْلِ مَحْسُودِكَ كَمَا قِيلَ

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ \* طَوَيْتَ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودٍ

وَأَمَّا الاسْتِهْزَاءُ فَفَقُصُودُكَ مِنْهُ إِخْرَاءُ غَيْرِكَ عِنْدَ النَّاسِ بِإِخْرَاءِ نَفْسِكَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَعِنْدَ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَلَوْ تَفَكَّرْتَ فِي حَسْرَتِكَ وَجَنَابَتِكَ وَخَجَلَتِكَ وَخُزْيِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمَ تَحْمِلُ سَيِّئَاتِكَ مِنْ اسْتِهْزَآتِكَ بِهِ وَتَسَاقَى إِلَى النَّارِ لِأَدْهَشِكَ ذَلِكَ عَنْ إِخْرَاءِ صَاحِبِكَ ، وَلَوْ عَرَفْتَ حَالَكَ لَكُنْتَ أَوْلَى أَنْ تَضْحَكَ مِنْكَ ، فَإِنَّكَ سَخِرْتَ بِهِ عِنْدَ نَفَرٍ قَلِيلٍ ، وَعَرَضْتَ نَفْسَكَ لِأَنْ يَأْخُذَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِيدِكَ عَلَى مَلَأَمِنِ النَّاسِ ، وَيَسُوقَكَ تَحْتَ سَيِّئَاتِهِ كَمَا يَسَاقُ الْحَجَارُ إِلَى النَّارِ مُسْتَهْزِئًا بِكَ وَفَرَحًا بِخُزْيِكَ وَمُسْرُورًا بِنَصْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاهُ عَلَيْكَ وَتَسْلُطُهُ عَلَى الْإِنْتِقَامِ مِنْكَ ، وَأَمَّا الرَّجْعَةُ لَهُ عَلَى إِيْمَانِهِ فَهُوَ حَسَنٌ ، وَلَكِنْ حَسَدُكَ أَبْلِسَ فَأَضْلَكَ وَاسْتَنْطَقَكَ بِمَا يَنْقُلُ مِنْ حَسَنَاتِكَ إِلَيْهِ مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ رَحْمَتِكَ فَيَكُونُ جَبْرًا لِأَمْرِ الْمَرْحُومِ فَيُخْرِجُ عَنْ كَوْنِهِ مَرْحُومًا وَتَنْقَلِبُ أَنْتَ مُسْتَحَقًّا لِأَنْ تَكُونَ مَرْحُومًا إِذْ حَبِطَ أَجْرُكَ ، وَنَقَصَتْ مِنْ حَسَنَاتِكَ ، وَكَذَلِكَ الْغَضَبُ لِلَّهِ تَعَالَى لَا يُوجِبُ الْغِيْبَةَ ، وَإِنَّمَا الشَّيْطَانُ حَبِطَ إِلَيْكَ الْغِيْبَةَ لِيَحْبِطَ أَجْرُ غَضَبِكَ ، وَتَمِيرُ مَعْرُضًا لَمَقَتْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْغِيْبَةِ ، وَأَمَّا التَّعَجُّبُ إِذَا أَخْرَجَكَ إِلَى الْغِيْبَةِ فَتَعْجَبُ مِنْ نَفْسِكَ أَنْتَ كَيْفَ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ وَدِينَكَ بِدِينِ غَيْرِكَ أَوْ بِدُنْيَاكَ وَأَنْتَ مَعَ ذَلِكَ لَا تَأْمَنُ عِقُوبَةَ الدُّنْيَا ، وَهُوَ أَنْ يَهْتِكَ اللَّهُ سِتْرَكَ كَمَا هَتَكَتَ بِالتَّعَجُّبِ سِتْرَ أَخِيكَ . فَإِذَا عِلَاجُ جَمِيعِ ذَلِكَ الْمَعْرِفَةُ فَقَطْ ، وَالتَّحَقُّقُ بِهَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي هِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْإِيمَانِ فَمَنْ قَوَّى إِيْمَانَهُ بِجَمِيعِ ذَلِكَ انْكَفَتْ لِسَانُهُ عَنِ الْغِيْبَةِ لِأَعْمَالِهِ .

### بَيَانُ تَحْرِيمِ الْغِيْبَةِ بِالْقَلْبِ

اعْلَمْ أَنَّ سُوءَ الظَّنِّ حَرَامٌ مِثْلُ سُوءِ الْقَوْلِ فَكَمَا يَحْرُمُ عَلَيْكَ أَنْ تَحْدِثَ غَيْرَكَ بِلِسَانِكَ بِمِثَالِ الْغَيْرِ فَلَيْسَ لَكَ أَنْ تَحْدِثَ نَفْسَكَ وَتَسِيءَ الظَّنَّ بِأَخِيكَ ، وَلَسْتَ أَعْنَى بِهِ الْإِعْقَادَ الْقَلْبَ وَحَاكَمَهُ عَلَى غَيْرِهِ بِالسُّوءِ ، فَأَمَّا الْخَوَاطِرُ وَحَدِيثُ النَّفْسِ فَهُوَ مَعْفُوعٌ عَنْهُ بِلِ الشُّكِّ أَيْضًا مَعْفُوعٌ عَنْهُ ، وَلَكِنْ الْمَنْهَى عَنْهُ أَنْ يَظُنَّ ، وَالظَّنُّ عِبَارَةٌ عَمَّا تَرْكُنُ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَيَمِيلُ إِلَيْهِ الْقَلْبُ . فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنْ



الظن إن بعض الظن إثم» وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا الله تعالى فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءا إلا إذا انكشف لك ببيان لا يقبل التأويل فعند ذلك لا يمكنك إلا أن تعتقد ما علمته وشاهدته وما لم تشاهده بعينك ولم تسمعه بأذنك ثم رقع في قلبك فانما الشيطان يلقي عليك ، فينبغي أن تكذبه فانه أفسق الفاسق ، وقد قال الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة » فلا يجوز تصديق إبليس ، وإن كان ثم محيلة تدل على فساد واحتمل خلافه لم يجوز أن تصدق به لأن الفاسق يتصور أن يصدق في خبره ، ولكن لا يجوز لك أن تصدق به حتى إن من أسفنته فوجد منه رائحة الخمر لا يجوز أن يحقد ، إذ يقال يمكن أن يكون قد تمضمض بالخمر ومجها ، وما شربها أدرجل عليه قهرا فكل ذلك لا محالة دلالة محتملة فلا يجوز تصديقها بالقلب وإساءة الظن بالمسلم بها ، وقد قال ﷺ « (١) إن الله حرم من المسلم دمه وماله ، وإن يظن به ظن السوء » فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح بالمثل ، وهو نفس مشاهدته أو بيئته عادلة ، فإذا لم يكن كذلك وخطر لك وسواس سوء الظن فينبغي أن تدفعه عن نفسك ، وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان ، وأن مآلته منه يحتمل الخير والشر ، فان قلت فيماذا يعرف عقد الظن والشكوك تختلج والنفوس تحدث فتقول : أمانة عقد سوء الظن أن يتغير القلب معه عما كان فينفر عنه نفورا تاما ، ويستثله ويفترعن مراعاته وتفقدته وإكراهه والإغتمام بسببه فهذه أمارات عقد الظن وتحقيقه ، وقد قال ﷺ « (٢) ثلاث في المؤمن ، وله منهن مخرج » فخرجه من سوء الظن أن لا يحققه أى لا يحققه في نفسه بعقد ولا فعل لافي القلب ولا في الجوارح . أما في القلب فبتغيره الى النفرة والكراهة ، وأما في الجوارح فبالعمل بموجبه ، والشيطان قد يقرر على القلب بأدنى محيلة مساة الناس ، وبقى اليه أن هذا من غفلتك وسرعة فهمك وذكائك ، وأن المؤمن ينظر بنور الله تعالى وهو على التحقيق ناظر بغرور الشيطان وظلمته ، وأما إذا أخبرك به عدل فالظنك الى تصديقه كنت معذورا لانك لو كذبتك لكنت جانيا على هذا العدل إذ ظننت به الكذب ، وذلك أيضا من سوء الظن . فلا ينبغي أن تحسن الظن بواحد ، وتسيء بالآخر ، نعم ينبغي أن تبحث هل بينهما عداوة ومحاسدة وتعت فتتطرق التهمة بسببه فقد ردت الشرع (٣) شهادة الأب العدل للولد للتهمة ، وردت شهادة العدو فلك عند ذلك أن تتوقف ، وإن كان عدلا فلا تصدقه ولا تكذبه ، ولكن تقول في نفسك المذكور حاله كان عندي في ستر الله تعالى وكان أمره محجوبا عني ، وقد بقي كما كان لم ينكشف لي شيء من أمره ، وقد يكون الرجل ظاهره العدالة ولا محاسدة بينه وبين المذكور ، ولكن قد يكون من عادته التعرض للناس وذكر مساوئهم فهذا قد يظن أنه عدل وليس بعدل . فان المغتاب فاسق ، وإن كان ذلك من عادته ردت شهادته إلا أن الناس لكثرة الاعتياد تساهلوا في أمر الغيبة ولم يكثرثوا بقناول أعراض الخلق ، ومهما خطر لك خاطر بسوء على مسلم فينبغي أن تزيد في مراعاته وتدعوه بالخير فان ذلك يفيظ الشيطان ويدفعه عنك فلا ياتي اليك الخاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء

- (١) حديث : ان الله حرم من المسلم دمه وماله ، وأن يظن به ظن السوء : البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بسند ضعيف ولا بن ماجه نحوه من حديث ابن عمر .
- (٢) حديث : ثلاث في المؤمن وله منهن مخرج : الطبراني من حديث حارثة بن النعمان بسند ضعيف
- (٣) حديث : رد الشرع شهادة الوائد العدل وشهادة العدو : الترمذي من حديث عائشة ، وضعفه لانجوز شهادة خائن ولا خائنة ولا مجلود حدا ولا ذى غم لأخيه ، وفيه ولا ظنين في ولاء ولا قرابة ، ولا ثي داود وابن ماجه باسناد جيد من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رد شهادة الخائن والخائنة وذى الغم على أخيه

والمراعاة ، ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة فانصحه في السر ولا ينجدهمك الشيطان فيدعوك الى اغتيابه ، وإذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على نقصه ليظهر اليك بعين التعظيم ، وتنظر اليه بعين الاستحقاق ، وترفع عليه بإبداء الوعظ ، وليكن قصده تخليصه من الأثم وأنت خزين كما تحزن على نفسك إذا دخل عليك نقصان في دينك ، وينبغي أن يكون تركه لذلك من غير نصحك أحب إليك من تركه بالنصيحة فإذا أنت فعلت ذلك كنت قد جمعت بين أجر الوعظ وأجر النعم بمصيبتك ، وأجر الاعانة له على دينه . ومن ثمرات سوء الظن التجسس ، فإن القلب لا يقنع بالظن ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس ، وهو أيضاً منهي عنه . قال الله تعالى : « ولا تجسسوا » فالغيبية وسوء الظن والتجسس منهي عنه في آية واحدة ، ومعنى التجسس أن لا يترك عباد الله تحت ستر الله فيتوصل الى الاطلاع وهناك الستر حتى ينكشف له ما لو كان مستورا عنه كان أسلم لقلبه ودينه ، وقد ذكرنا في كتاب الأمر بالمعروف حكم التجسس وحقيقته .

### بيان الأعذار المرخصة في الغيبة

اعلم أن المرخص في ذكر مساوي الغير هو غرض صحيح في الشرع لا يمكن التوصل اليه إلا به فيدفع ذلك لإثم الغيبة ، وهي ستة أمور [ الأول ] الظلم فإن من ذكر قاضيا بالظلم والحياة وأخذ الرشوة كان مفتايا عاصيا ان لم يكن مظلوما ، أما المظلوم من جهة القاضي فله أن يتظلم الى السلطان وينسبه الى الظلم إذ لا يمكنه استيفاء حقه إلا به . قال صلى الله عليه وسلم : « (١) إن لصاحب الحق مقالا » ، وقال عليه الصلاة والسلام « (٢) مطل الغني ظلم » ، وقال عليه الصلاة والسلام « (٣) لى الواجد يحلّ عقوبته وعرضه » [ الثاني ] الاستعانة على تغيير المنكر وردّ العاصي الى منهج الصلاح كما روى أن عمر رضى الله عنه مرّ على عثمان وقيل على طلحة رضى الله عنه فسلم عليه فلم يردّ السلام فذهب الى أبي بكر رضى الله عنه فذكر له ذلك فجاء أبو بكر اليه ليصلح ذلك ولم يكن ذلك غيبة عندهم ، وكذلك لما بلغ عمر رضى الله عنه أن أبا جندل قد عاقر الخمر بالشام كتب اليه « بسم الله الرحمن الرحيم : حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب » الآية ، فتأب ولم ير ذلك عمر من أبلغه غيبة إذ كان قصده أن ينكر عليه ذلك فينفعه نصحه مالا ينفعه نصح غيره ، وإنما اباحة هذا بالقصد الصحيح فإن لم يكن ذلك هو المقصود كان حراما [ الثالث ] الاستفتاء : كما يقول للمفتي ظماني أنى أو زوجتي أو أخى فكيف طريقي في الخلاص ، والأسلم التعريض بأن يقول ما قولك في رجل ظلمه أبوه أو أخوه أو زوجته ، واسكن النعمين مباح بهذا القدر لما روى عن هند بنت عتبة أنها قالت (٤) للنبي صلى الله عليه وسلم : « إن أباسفیان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفني أنا وولدي أفاخذ من غير علمه ؟ فقال خذ ما يكفيك وولدك بالمعروف » فذكرت الشح والظلم لها ولولدها ولم يزجرها صلى الله عليه وسلم إذ كان قصدها الاستفتاء [ الرابع ] تحذير المسلم من الشر ، فإذا رأيت فقيها يتردد الى مبتدع أو فاسق وخفت أن تتعدى اليه بدعته وفسقه فلك أن تنكشف له بدعته وفسقه مهما كان الباعث لك الخوف عليه من سرابة البدعة والفسق لا غيره ، وذلك موضع الغرور إذ قد يكون الحسد هو الباعث ،

(١) حديث : لصاحب الحق مقال : متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٢) حديث : مطل الغني ظلم : متفق عليه من حديثه

(٣) حديث : لى الواجد يحلّ عرضه وعقوبته ، أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث الشريد

باسناد صحيح

(٤) حديث : ان هنداً قالت ان أباسفیان رجل شحيح : متفق عليه من حديث عائشة

ويابس الشيطان ذلك باظهار الشفقة على الخلق ، وكذلك من اشترى مملوكا رقد عرفت المملوك بالسرقة أو بالفسق أو بعيب آخر فلك أن تذكر ذلك فإن في سكوتك ضرر المشتري ، وفي ذكرك ضرر العبد ، والمشتري أولى بمراعاة جانبه ، وكذلك المزكي إذا سئل عن الشاهد فله الطعن فيه ان علم مطعنا ، وكذلك المستشار في التزوج وإيداع الامانة له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصيح للمستشير لا على قصد الوقعة . فإن علم أنه يترك التزوج بمجرد قوله : لا تصلح لك فهو الواجب وفيه الكفاية ، وان علم أنه لا يزوج الا بالتصريح بعيبه فله أن يصرح به إذ قال رسول الله ﷺ « (١) أترعون عن ذكر الفاجر اهتكوه متى يعرفه الناس ، اذكروه بما فيه حتى يحذره الناس » وكانوا يقولون ثلاثة لا غيبة لهم : الامام الجائر ، والمبتدع ، والمجاهر بفسقه . [ الخامس ] أن يكون الانسان معروفا بقلب يعرف عن عيبه كالأعرج والأعمش فلا إثم على من يقول : روى أبو الزناد عن الأعرج وسلمان عن الأعمش وما يجري مجراه ، فقد فعل العلماء ذلك لضرورة التعريف ، ولأن ذلك قد صار بحيث لا يكرهه صاحبه لو علمه بعد أن قد صار مشهورا به ، نعم ان وجد عنه معدلا وأمكنه التعريف بعبارة أخرى فهو أولى ، ولذلك يقال للأعمى البصير عدولا عن اسم النقص [ السادس ] أن يكون مجاهرا بالفسق كالخنث وصاحب الماخور والمجاهر بشرب الخمر ومصادرة الناس ، وكان ممن يتظاهر به بحيث لا يستدرك من أن يذكر له ولا يكرهه أن يذكر به فإذا ذكرت فيه ما يتظاهر به فلا إثم عليك قال رسول الله ﷺ « (٢) من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة له » ، وقال عمر رضي الله عنه « ليس لفاجر حرمه » وأراد به المجاهر بفسقه دون المستتر إذ المستتر لابد من مراعاة حرمة ، وقال الصلت بن طريف . قلت للحسن : الرجل الفاسق المعلن بفجوره ذكرى له بما فيه غيبة له ؟ قل لا ولا كرامة ، وقال الحسن : ثلاثة لا غيبة لهم : صاحب الهوى ، والفاسق المعلن بفسقه ، والامام الجائر . فهؤلاء الثلاثة يجمعهم أنهم يتظاهرون به ، وربما يتفخرون به فكيف يكرهون ذلك وهم يقصدون إظهاره ، نعم لو ذكره بغير ما يتظاهر به أثم . وقال عوف : دخلت على ابن سيرين فتناوت عنده الحجاج . فقال إن الله حكم عدل ينتقم للحجاج ممن اغتابه كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه ، وانك اذا لقيت الله تعالى غدا كان أصغر ذنب أصبته أشد عليك من أعظم ذنب أصابه الحجاج .

### بيان كفارة الغيبة

اعلم أن الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويتأسف على ما فعله ليخرج به من حق الله سبحانه ، ثم يستحل المغتاب ليحله فيخرج من مظلمته ، وينبغي أن يستحله وهو خزين متأسف نادم على فعله إذ المرائي قد يستحل ليظهر من نفسه الورع ، وفي الباطن لا يكون نادما فيكون قد قارف معصية أخرى . وقال الحسن يكفي الاستغفار دون الاستحلال ، وربما استدل في ذلك بما روى أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « (٣) كفارة من اغتابه أن تستغفر له » ، وقال مجاهد « كفارة أكلك لحم أخيك

(١) حديث : أترعون عن ذكر الفاجر اهتكوه متى يعرفه الناس اذكروه بما فيه يحذره الناس ، الطبراني وابن حبان في الضعفاء وابن عدي من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده دون قوله حتى يعرفه الناس ، ورواه بهذه الزيادة ابن أبي الدنيا في الصمت

(٢) حديث : من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له ، ابن عدي وأبو الشيخ في كتاب ثواب الأعمال من حديث أنس بسند ضعيف وقد تقدم

(٣) حديث كفارة من اغتابه أن تستغفر له ، ابن أبي الدنيا في الصمت والحاثر بن أبي أسامة في مسنده من

أن تثنى عليه وتدعوله بخير» ، وسئل عطاء بن أبي رباح عن التوبة من الغيبة . قال أن تمشى إلى صاحبك فتقول له كذبت فيما قلت وظلمتك وأسأت . فإن شئت أخذت بحقك ، وإن شئت عفوت ، وهذا هو الأصح وقول القائل العرض لا عوض له ، فلا يجب الاستحلال منه بخلاف المال كلام ضعيف إذ قد وجب في العرض حد القذف وثبت المطالبة به بل في الحديث الصحيح ما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال « (١) من كانت لأخيه عنده مظالمه في عرض أو مال فليستحلها منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم إنما يؤخذ من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزبدت على سيئاته » وقالت عائشة رضي الله عنها لامرأة قالت لأخري أنها طويلة الذيل قد اغتبتها فاستحلها ، فإذا لا بد من الاستحلال إن قدر عليه فإن كان غائباً أو ميتاً فينبغي أن يكثر له الاستغفار والدعاء ويكثر من الحسنات . فإن قلت فالتحليل هل يجب ؟ فأقول : لا لأنه تبرع والتبرع فضل ، وليس بواجب ولكنه مستحسن وسبيل المعتذر أن يبالغ في الثناء عليه والنودد إليه ويلزم ذلك حتى يطيب قلبه فإن لم يطب قلبه كان اعتذاره وتودده حسنة محسوبة له يقابل بها سيئة الغيبة في القيامة ، وكان بعض السلف لا يحلل . قال سعيد بن المسيب لا أحلل من ظمني ، وقال ابن سيرين إنني لم أحرمها عليه فأحلاله إن الله حرم الغيبة عليه ، وما كنت لأحل ما حرم الله أبداً . فإن قلت فإمضى قول النبي صلى الله عليه وسلم يذنب أن يستحلها وتحليل ما حرمه الله تعالى غير ممكن . فنقول المراد به العفو عن المظالمه لأن ينقلب الحرام حلالاً ، وما قاله ابن سيرين حسن في التحليل قبل الغيبة فإنه لا يجوز له أن يحلل لغيره الغيبة . فإن قلت فإمضى قول النبي صلى الله عليه وسلم « (٢) أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم ، كان إذا خرج من بيته . قال : اللهم إني قد تصدقت بعرضي على الناس » فكيف يتصدق بالعرض ، ومن تصدق به فهل يباح تناوله فإن كان لا تنفذ صدقته فإمضى الحث عليه . فنقول معناه أني لا أطلب مظالمه في القيامة منه ولا أخاصمه ولا أفلا تصير الغيبة حلالاً به ولا تسقط المظالمه عنه لأنه عفو قبل الوجوب إلا أنه وعدوله العزم على الوفاء بأن لا يخاصم . فإن رجع وخاصم كان القياس كسائر الحقوق أن له ذلك بل صرح الفقهاء أن من أباح القذف لم يسقط حقه من حد القاذف ومظالمه الآخرة مثل مظالمه الدنيا ، وعلى الجملة فالعفو أفضل . قال الحسن « إذا جئت الأمم بين يدي الله عز وجل يوم القيامة نودوا ليقيم من كان له أجر على الله فلا يقوم إلا العافون عن الناس في الدنيا » ، وقد قال الله تعالى « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » فقال النبي صلى الله عليه وسلم « (٣) يا جبريل ما هذا العفو ، فقال « إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من أظلمك وتعطي من حرمك » وروى عن الحسن أن رجلاً قال له إن فلاناً قد اغتابك فبعث إليه رطباً على طبق ، وقال قد بلغني أنك أهيت إلى من حسناتك فأردت أن أكافئك عليها فاعذرنى فإني لا أفدر أن أكافئك على التمام .

حديث أنس بسند ضعيف

(١) حديث من كانت له عند أخيه مظالمه من عرض أو مال فليستحلها ، الحديث متفق عليه من

حديث أبي هريرة

(٢) حديث أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم كان إذا خرج من بيته قال اللهم إني تصدقت بعرضي

على الناس ، البرار وابن السني في اليوم والليلة والعقيلي في الغفاء من حديث أنس بسند ضعيف وذكره ابن عبيد البر من حديث ثابت مرسل عند ذكر أبي ضمضم في الصحابة . قلت وإنما هو رجل ممن كان قبلنا كما عند البرار والعقيلي .

(٣) حديث نزول خذ العفو الآية فقل يا جبريل ما هذا فقال إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل

من قد ظلمك وتعطي من حرمك ، تقدم في رياضة النفس .

## الآفة السادسة عشرة : النخبة

قال الله تعالى : « همارمشاء بنمى » ثم قال « عتل بعد ذلك زنى » . قال عبد الله بن المبارك : الزنى ولد الزنا الذى لا يكتم الحديث ، وأشار به الى أن كل من لم يكتم الحديث ومشى بالنخبة دل على أنه ولد زنا استنباطا من قوله عز وجل : « عتل بعد ذلك زنى » والزنى هو الدعوى ، وقال تعالى : « ويل لكل همزة لمزة » قيل الهمزة النمام ، وقال تعالى : « حمالة الحطب » قيل انها كانت نمامة حمالة للحديث ، وقال تعالى « فإنتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا » قيل كانت امرأة لوط تخبر بالضيقات ، وامرأة نوح تخبر أنه مجنون وقد قال ﷺ « (١) لا يدخل الجنة نمام » ، وفي حديث آخر « لا يدخل الجنة قتات » ، والقتات هو النمام . وقال أبو هريرة . قال رسول الله ﷺ « (٢) أحبكم الى الله أحسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون ، وإن أبغضكم الى الله المشاءون بالنخبة . المفرقون بين الإخوان . الملتصقون للبراءة العثرات » ، وقال ﷺ « (٣) ألا أخبركم بشراركم . قلوا بلى قال المشاءون بالنخبة . المفسدون بين الأحبة الباغون للبراءة العيب » . وقال أبو ذر « (٤) قال رسول الله ﷺ « من أشاع على مسلم كلمة يشينه بها غير حق شانه الله بها فى النار يوم القيامة . وقال أبو الدرداء « (٥) قال رسول الله ﷺ « أيما رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها برى يشينه بها فى الدنيا : كان حقا على الله أن يذبه بها يوم القيامة فى النار » . وقال أبو هريرة « (٦) قال رسول الله ﷺ « من شهد على مسلم شهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار » ويقال ان ثلث عذاب القبر من النخبة ، وعن ابن عمر عن النبي ﷺ « (٧) ان الله لما خلق الجنة قال

- (١) حديث : لا يدخل الجنة نمام ، وفي حديث آخر قتات متفق عليه من حديث حذيفة ، وقد تقدم .
- (٢) حديث أبي هريرة وأحبكم الى الله أحسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا ، الطبراني فى الأوسط والصغير ، وتقدم فى آداب الصحبة .
- (٣) حديث : ألا أخبركم بشراركم قلوا بلى قال المشاءون بالنخبة : الحديث ، أحمد من حديث أبي مالك الأشعرى وقد تقدم .
- (٤) حديث أبي ذر من أشاع على مسلم كلمة يشينه بها غير حق شانه الله بها فى النار يوم القيامة ، ابن أبي الدنيا فى الصمت والطبراني فى كرام الأخلاق ، وفيه عبد الله بن ميمون فان يكن القداح فهو متروك الحديث .
- (٥) حديث أبي الدرداء أيما رجل أشاع على رجل كلمة هو منها برى يشينه بها فى الدنيا كان حقا على الله أن يذبه بها يوم القيامة فى النار ، ابن أبي الدنيا موقوفا على أبي الدرداء ورواه الطبراني بلفظ آخر صرفوعا من حديثه وقد تقدم .
- (٦) حديث أبي هريرة من شهد على مسلم شهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار ، أحمد وابن أبي الدنيا ، وفي رواية أحمد رجل لم يسم أسقطه ابن أبي الدنيا من الاسناد .
- (٧) حديث ابن عمر ان الله لما خلق الجنة قال لها تكلمى قالت سعد من دخانى . قال الجبار وعزى وجلالى لا يسكن فىك ثمانية . فذكر منها ولاقتات ، وهو النمام لم أجده هكذا بتمامه . ولأحمد لا يدخل الجنة عاق لوالديه ولاديوث ، وللنسائي من حديث عبد الله بن عمر ولا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن خمر ، وللشيباني من حديث حذيفة لا يدخل الجنة قتات ، ولهما من حديث جبير بن مطعم : لا يدخل الجنة قاطع ، وذكر صاحب الفردوس من حديث ابن عباس لما خلق الله



لها تكامى . ففقات سعد من دخلنى . فقال الجبار جل جلاله ، وعزتى وجلالى لا يسكن فيك ثمانية نفر من الناس : لا يسكنك مدمن خمر ، ولا مصرّ على الزنا ، ولا قنات . وهو النمام ، ولا ديوث ، ولا شرطى ، ولا مخنث ولا قاطع رحم ، ولا الذى يقول على عهد الله ان لم أفعل كذا وكذا ثم لم يف به . وروى كعب الأجبارة بنى اسرائيل أصابهم قحط فاستسقى موسى عليه السلام مرات فاستقوا فأوحى الله تعالى اليه انى لأستجيب لك ولئن معك وفيكم نمام قد أصرت على النغمة . فقال موسى يارب من هو دلى عليه حتى أخرجه من بيننا قال يا موسى انها كم عن النغمة وأكون نماما فتأبوا جميعا فسقرا ، ويقال اتبع رجل حكيم سبعة مائة فرسخ في سبع كلمات فلما قدم عليه . قال انى جئت لك الذى آتاك الله تعالى من العلم أخبرنى عن السماء وما أثقل منها ، وعن الأرض وما أوسع منها ، وعن الصخر وما أقسى منه ، وعن النار وما أحرّ منها ، وعن الزمهرير وما أبرد منه وعن البحر وما أغنى منه ، وعن اليتيم وما أذل منه ؟ فقال له الحكيم : البهتان على البرىء أثقل من السموات والحق أوسع من الأرض ، والقلب القانع أغنى من البحر ، والحرص والحسد أحرّ من النار ، والحاجة الى القريب اذا لم تنجح أبرد من الزمهرير ، وقلب الكافر أقسى من الحجر ، والنمام اذبان أمسه أذل من اليتيم

### بيان حد النغمة وما يجب في ردها

اعلم أن اسم النغمة إنما يطلق في الاكثر على من ينمّ قول الغير الى المقول فيه كما تقول فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا ، وليست النغمة مختصة به بل حدها كشف ما يكره كشفه سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول اليه أو كرهه ثالث ، وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيماء وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال ، وسواء كان ذلك عيبا ونقصا في المنقول عنه أو لم يكن بل حقيقة النغمة إفشاء السر وهتك السر عما يكره كشفه . بل كل مارآه الانسان من أحوال الناس مما يكره فيذنبى أن يسكت عنه الامانى حكايته فائدة لمسلم أو دفع لعصية كما إذا رأى من يتناول مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود له ، فأما اذا رآه يخفى مالا لنفسه فذكره فهو نغمة وإفشاء للسر . فان كان ما ينمّ به نقصا وعيبا في المحكى عنه كان قد جمع بين الغيبة والنغمة . فالباعث على النغمة إما إرادة السوء للمحكى عنه أو إظهار الحب للمحكى له أو التفرج بالحديث ، والخوض في الفضول والباطل ، وكل من حلت اليه النغمة وقيل له ان فلانا قال فيك كذا أو فعل في حقك كذا . أو هو يدبر في إفساد أمرك أو في ممالأة عدوك أو تقييح حالك أو ما يجرى مجراه فعليه ستة أمور [ الأول ] أن لا يصدقه لأن النمام فاسق وهو مردود الشهادة قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة » [ الثانى ] أن ينهأ عن ذلك وينصح له ويقبح عليه فعله . قال الله تعالى : « وأمر بالمعروف وانه عن المنكر » [ الثالث ] أن يبغضه في الله تعالى فانه يبغض عند الله تعالى ، ويجب بغض من يبغضه الله تعالى [ الرابع ] أن لا تظن بأخيك الغائب السوء لقول الله تعالى : « اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم » [ الخامس ] أن لا يحملك ما حكى لك على التجسس والبحث لتتحقق انباء لقوله تعالى : « ولا تجسسوا » [ السادس ] أن لا ترضى لنفسك ما نهيت النمام عنه ، ولا تحكى نغمته . فتقول فلان قد حكى لي كذا وكذا فتسكون به نماما وفتأبوا وتكون قد أتيت ما عنه نهيت ، وقد روى عن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أنه دخل عليه رجل فذكر له عن رجل شيئا فقال له عمر ان شئت نظرنا في أمرك فان كنت كاذبا فأنت من أهل هذه الآية « ان جاءكم فاسق بنبأ

الجنة قال لها تكامى تزينى فتزينت . فقالت طوبى لمن دخلنى ورضى عنه إلهى . فقال الله عز

وجل : لا تسكن مخنث ولا نائحة

فتبينوا» وان كنت صادقاً فأنت من أهل هذه الآية «هماز مشاء بنميم» وإن شئت عفونا عنك . فقال العفو يا أمير المؤمنين لأعرد إليه أبداً ، وذكر أن حكماً من الحكماء زاره بعض أخوانه فأخبره بنجر عن بعض أصدقائه . فقال له الحكيم : قد أبطأت في الزيارة وأتيت بثلاث جنائيات : بغضت أخى إلى ، وشغلت قلبى الفارغ ، واتهمت نفسك الأمانة ، وروى أن سليمان بن عبد الملك كان جالسا وعنده الزهرى فجاءه رجل فقال له سليمان : بلغنى أنك وقعت فى - وقلت كذا وكذا . فقال الرجل ما فعلت ولا قلت . فقال سليمان ان الذى أخبرنى صادق . فقال له الزهرى لا يكون النمام صادقا . فقال سليمان صدقت : ثم قال للرجل اذهب بسلام . وقال الحسن . «من نِمَّ إليك نِمَّ عليك» ، وهذا إشارة الى أن النمام يذنب أن يبغض ولا يوثق بقوله ولا بصداقته ، وكيف لا يبغض وهو لا ينفك عن الكذب ، والغيبة ، والغدر ، والحياة ، والغفل ، والحسد ، والنفاق ، والافساد بين الناس ، والخديعة ، وهو ممن يسعى فى قطع مأمور الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض . وقال تعالى : «إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق» ، والنمام منهم . وقال صلى الله عليه وسلم «<sup>(١)</sup> ان من شرار الناس ، من اتقاء الناس لشره» ، والنمام منهم ، وقال «<sup>(٢)</sup> لا يدخل الجنة قاطع : قيل وما القاطع ؟ قال . قاطع بين الناس ، وهو النمام . وقيل : قاطع الرحم» ، وروى عن على رضي الله عنه أن رجلا سعى إليه برجل . فقال له يا هذا نحن نسأل عما قلت . فان كنت صادقاً مقتناك ، وان كنت كاذبا عاقبتناك ، وان شئت أن نقيلاك أفلا ناك . فقال أفلى يا أمير المؤمنين ، وقيل لمحمد بن كعب القرظي : أى خصال المؤمن أوضع له ؟ فقال كثرة الكلام ، وافشاء السر ، وقبول قول كل أحد . وقال رجل لعبد الله بن عامر وكان أميرا : بلغنى أن فلانا أعلم الأمير أنى ذكرته بسوء . قل قد كان ذلك . قل فأخبرنى بما قال لك حتى أظهر كذبه عندك . قال ما أحب أن أشتم نفسى بلسانى ، وحسبى أنى لم أصدقته فيما قال ، ولا أقطع عنك الوصال ، وذكرت السعاية عند بعض الصالحين ، فقال ما ظنكم بقوم يحمد الصدق من كل طائفة من الناس الا منهم ، وقال مصعب بن الزبير . نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية لأن السعاية دلالة ، والقبول اجازة ، وليس من دل على شيء فأخبر به كمن قبله وأجازه فانقوا الساعى فلو كان صادقا فى قوله لكان لثما فى صدقه حيث لم يحفظ الحرمة ، ولم يستر العورة ، والسعاية هى الخيعة إلا أنها إذا كانت الى من يخاف جانبه سميت سعاية ، وقد قال صلى الله عليه وسلم «<sup>(٣)</sup> الساعى بالناس الى الناس لغير رشدة» . يعنى ليس بولد حلال ، ودخل رجل على سليمان بن عبد الملك فاستأذنه فى الكلام . وقال انى مكلمك يا أمير المؤمنين بكلام فاحتمله ، وان كرهته فان وراءه ما تحب ان قبلته . فقال قل : فقال يا أمير المؤمنين انه قد اكتنفك رجال ابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم : خافوك فى الله ، ولم يخافوا الله فيك ، فلا تأمنهم على ما أئتمت الله عليه ، ولا تصخ بهم فيما استحفظك الله إياهم : فانهم لن يألوا فى الأمة خسفا ، وفى الأمانة تضيقا ، والاعراض قطعاً وانها كما أعلى قربهم البغى والخيعة ، وأجل وسائلهم الغيبة

(١) حديث : ان من شر الناس من اتقاء الناس لشره ، متفق عليه من حديث عائشة نحوه

(٢) حديث : لا يدخل الجنة قاطع ، متفق عليه من حديث جبير بن مطعم

(٣) حديث : الساعى بالناس الى الناس لغير رشدة ، الحاكم من حديث أبى موسى من سعى بالناس فهو لغير رشدة أوفيه شيء منها ، وقال له أسانيد هذا أمثلاها ، قلت فيه سهل بن عطية قال فيه ابن طاهر فى التذكرة منكر الرواية قال ، والحديث لأصل له ، وقد ذكر ابن حبان فى الثقات سهل بن عطية ورواه الطبرانى بلفظ لا يسعى على الناس الا ولد بنى والامن فيه عرق منه ، وزاد بين سهل وبين بلال بن أبى بردة أبا الوليد القرشى

والواقعة ، وأنت مسئول عما أجمعوا ، وإيسوا المسؤولين عما أجمعت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فإن أعظم الناس غيبنا من باع آخرته بدنيا غيره ، وسعى رجل بزيادة الأنجم الى سليمان بن عبد الملك فجمع بينهما للموافقة فأقبل زياد على الرجل . وقال :

فأنت امرؤ ما ائتمتلك خاليا \* نخت وأما قلت قولاً بلا علم  
فأنت من الأمر الذي كان بيننا \* بمنزلة بين الخيانة والاثم

وقال رجل لعمر بن عبيد أن الأسواري ما زال يذكرك في قصصه بشر . فقال له عمرو يا هذا مارعيت حق محالسة الرجل حيث نقلت إلينا حديثه ولأدبت حق حين أعلمتني عن أخى ما أكره ، ولكن أعلمه أن الموت يعمنا والقبر يضمنا والقيامة تجمعنا والله تعالى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين ، ورفع بعض السعاة الى صاحب بن عباد رقعة نهب فيها على مال يتيم يحمله على أخذه لكثرة وقوعه على ظهرها : السعاة قبيحة وإن كانت صحيحة ، فإن كنت أجريتها بحري النصح ففسدك فيها أفضل من الربح ، ومعاذ الله أن نقبل مهتوكا في مستور ، ولولا أنك في خفارة شيبتك لقال لك بما يقتضيه فعلك في مثلك . فتوق ياملعون العيب فإن الله أعلم بالغيب ، الميت رحمه الله ، واليتيم جبره الله ، والمسال ثمره الله ، والساعي لعنه الله . وقال لقمان لابنه يا بني أوصيك بخلال أن تمسكت بهن لم تزل سيدا ، لبسط خلقك للقريب والبعيد ، وأمسك جهلك عن الكريم واليتيم ، واحفظ إخوانك ، وصل أقاربك ، وآمنهم من قبول قول ساع أو سماع باع يريد فسادك ويروم خداعك ، وليكن اخوانك من إذا فارقهم وفارقوك لم تعبه ولم يعيوك ، وقال بعضهم : النعمة مبنية على الكذب ، والحسد ، والنفاق ، وهي أثافي الذل ، وقال بعضهم لوصح مانقله الغمام اليك لكان هو المجترى بالثتم عليك ، والمنقول عنه أولى بحملك لأنه لم يقابلك بشتمك . وعلى الجملة فشر الغمام عظيم ينبغي أن يتوق . قال حماد بن سلمة باع رجل عبدا ، وقال للمشتري ما فيه عيب إلا النعمة . قال قدرضيت فاشترته فكث الغلام أياما ثم قال لزوجة مولاه : إن سيدي لا يحبك ، وهو يريد أن ينسري عليك فخذى موسى واحاقى من شعر قفاه عند نومه شعرات حتى أسجره عليها فيحبك : ثم قال للزوج ان امرأتك اتخذت خليلا وتريد أن تقتلك فتناوم لها حتى تعرف ذلك ، فتناوم لها . فجاءت المرأة بالموسى فظن أنها تريد قتله . فقام إليها فقتلها فجاء أهل المرأة فقتلوا الزوج ، ووقع القتال بين القبيلتين فنسأل الله حسن التوفيق .

### الآفة السابعة عشرة كلام ذي اللسانين

الذي يتردد بين المتعادين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه ، وقاما يخلو عنه من يشاهد متعادين وذلك عين النفاق . قال عمار بن ياسر (١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان له وجهان في الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة » ، وقال أبو هريرة (٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث » ، وفي لفظ آخر : « الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » . وقال أبو هريرة لا ينبغي لذي الوجهين أن يكون أمينا عند الله ، وقال مالك بن دينار قرأت في التوراة بطلت الأمانة والرجل مع صاحبه بشفتين مختلفتين يهلك الله تعالى

(١) حديث عمار بن ياسر من كان له وجهان في الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة ، البخارى

في كتاب الأدب المفرد وأبوداود بسند حسن

(٢) حديث أبي هريرة تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين ، الحديث متفق عليه بلفظ

تجد من شر الناس لفظ البخارى ، وهو عند ابن أبي الدنيا بلفظ المصنف

يوم القيامة كل شفتين مختلفتين ، وقال ﷺ « (١) أبغض خليفة الله الى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون ، ولذين يكثرون البغضاء لآخوانهم في صدورهم فإذا تقوهم تملقوا لهم والذين إذا دعوا الى الله ورسوله كانوا بطاء ، وإذا دعوا الى الشيطان وأمره كانوا سراعا » . وقال ابن مسعود لا يكونن أحدكم إمعة قالوا وما الإمعة ؟ قال الذي يجري مع كل ريح ، وانفقوا على أن ملاقة الاثنيين بوجهين نفاق وللنفاق علامات كثيرة وهذه من جاتها ، وقد روى أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مات فلم يصل عليه حذيفة فقال له عمر يموت رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ولم تصل عليه . فقال يا أمير المؤمنين انه منهم . فقال نشدتك الله أنا منهم أم لا . قال اللهم لا ولا أؤمن منها أحدا بعدك . فان قلت بماذا يصير الرجل ذا لسانين وما حد ذلك ؟ فأقول اذا دخل على متعاديين وجامل كل واحد منهما وكان صادقا فيه لم يكن منافقا ولا ذا لسانين فان الواحد قد يصادق متعاديين ولكن صداقة ضعيفة لا تنهى الى حد الأخوة ادلوا بتحقت الصداقة لاقتضت معاداة الأعداء كذا ذكرنا في كتاب آداب الصلحة والأخوة ، نعم لو نقل كلام كل واحد منهما الى الآخر فهو ذو لسانين وهو شر من النيمة إذ يصير نماما بأن ينقل من أحد الجانبين فقط . فاذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام وان لم ينقل كلاما ، ولكن حسن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعادة مع صاحبه فهذا ذو لسانين ، وكذلك اذا وعد كل واحد منهما بان ينصره ، وكذلك اذا أنى على كل واحد منهما في معاداته ، وكذلك اذا أنى على أحدهما وكان اذا خرج من عنده يذمه فهو ذو لسانين بل ينبغي أن يسكت أو ينفي على المحق من المتعاديين وينفي عليه في غيبته وفي حضوره وبين يدي عدوه . قيل لابن عمر رضى الله عنهما (٢) إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول فاذا خرجنا قلنا غيره ، فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله ﷺ وهذا نفاق مهما كان مستغنيا عن الدخول على الأمير وعن الشاء عليه فلاستغنى عن الدخول ، ولكن اذا دخل يخاف ان لم يثن فهو نفاق لأنه الذي أحوج نفسه الى ذلك ، فان كان مستغنيا عن الدخول لوقع بالقليل وترك المال والجاء فدخل لضرورة الجاه والغنى وأثنى فهو منافق ، وهذا معنى قوله ﷺ « (٣) حب المال والجاه يفتنان النفاق في القلب كما يذبت الماء البقل » لأنه يحوج إلى الأمر والى مراعاتهم ومرا آتهم . فاما اذا ابتلى به لضرورة وخاف ان لم يثن فهو معذور . فان اتقاء الشر جائز . قال أبو الدرداء رضى الله عنه « إنا لنكشر في وجوه أقوام ، وان قلوبنا لتلعنهم » . وقالت عائشة رضى الله عنها « (٤) استأذن رجل على رسول الله ﷺ . فقال ائذنوا له فبئس رجل العشيرة هو ، ثم لما دخل ألان له القول . فلما خرج قلت يا رسول الله قلت فيه ما قلت ثم ألت له القول ، فقال يا عائشة ان شر الناس الذي يكرم اتقاء شره » ، ولكن هذا ورد في الاقبال وفي الكشر والتبسم . فاما الشاء فهو كذب صراح ، ولا يجوز إلا لضرورة أو اكراه يباح الكذب بشله كما ذكرناه في آفة الكذب بل لا يجوز

(١) حديث أبغض خليفة الله الى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون والذين يكثرون البغضاء لآخوانهم في صدورهم فاذا تقوهم تملقوا لهم ، الحديث لم أقف له على أصل

(٢) حديث : قيل لابن عمر إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول فاذا خرجنا قلنا غيره . قال كنا نعد ذلك نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الطبراني من طرق

(٣) حديث : حب الجاه والمال يفتنان النفاق في القلب كما يذبت الماء البقل ، أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف إلا أنه قال حب الغناء . وقال العشب مكان البقل

(٤) حديث عائشة استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ائذنوا له فبئس رجل العشيرة الحديث ، وفيه إن شر الناس الذي يكرم اتقاء شره ، متفق عليه ، وقد تقدم في الآفة التي قبلها

الشأن ولا التصديق ولا تحريك الرأس في معرض التقرير على كل كلام باطل فإن فعل ذلك فهو منافق بل ينبغي أن يذكر فإن لم يقدر فيسكت بلسانه ويذكر بقلبه .

### الآفة الثامنة عشرة المدح

وهو منهى عنه في بعض المواضع ، أما الذم فهو الغيبة والوقيعة وقد ذكرنا حكمها ، والمدح يدخله ست آفات : أربع في المادح ، واثنان في الممدوح [ فأمّا المادح : فالأولى ] أنه قد يفرط فينتهى به إلى الكذب . قال خالد بن معدان من مدح أمما أو أحدا بما ليس فيه على رؤوس الأشهاد بمثله الله يوم القيامة يثبته بلسانه [ الثانية ] أنه قد يدخله الرياء فانه بالمدح مظهر للحب ، وقد لا يكون مضمرا له ولا معتقدا لجميع ما يقوله فيصير به مرأيا منافقا [ الثالثة ] أنه قد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه ، روى (١) أن رجلا مدح رجلا عند النبي ﷺ . فقال له عليه السلام « ويحك قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح » ثم قال ان كان أحدكم لأبد مادحا أخاه فليقل أحسب فلانا ولا أركى على الله أحدا حسيبه الله ان كان يرى أنه كذلك ، وهذه الآفة تنطرق إلى المدح بالأوصاف المطلقة التي تعرف بالأدلة : كقوله انه متق وورع وزاهد وخبر وما يجري مجراه ، فأما اذا قال رأيت يصلى بالليل ويتصدق ويحج فهذه أمور مستيقنة ، ومن ذلك قوله انه عدل رضا فان ذلك خفي ، فلا ينبغي أن يحزم القول فيه الا بعد خبرة باطنه . سمع عمر رضي الله عنه رجلا يثنى على رجل . فقال أسأفرت معه . قال لا . قال أخاطبته في المباينة والمعاملة ؟ قال لا . قال فأنت جاره صباحه ومساءه ؟ قال لا . فقال والله الذي لا إله إلا هو لا أراك تعرفه [ الرابعة ] أنه قد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز قال رسول الله ﷺ « (٢) ان الله تعالى يغضب إذا مدح الفاسق » . وقال الحسن : من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصى الله تعالى في أرضه ، والظالم الفاسق ينبغي أن يذم ليغتم ولا يمدح ليفرح [ وأما الممدوح : فيضربه من وجهين ] أحدهما أنه يحدث فيه كبرا وإعجابا ، وهما مهلكان . قال الحسن رضي الله عنه كان عمر رضي الله عنه جالسا معه الدرة والناس حوله إذا قبل الجارود بن المنذر . فقال رجل هذا سيد ربعة فسمعها عمر ومن حوله وسمعها الجارود فلما دانمته خفقه بالدرة ، فقال مالي ولك يا أمير المؤمنين قال مالي ولك أما لقد سمعتها . قال سمعتها من فقه . قال خشيت أن يخاطب قلبك منها شيء فأحييت أن أطأ طبع منك [ الثاني ] هو أنه إذا أثني عليه بالخير ففرح به وفتر ورضى عن نفسه ، ومن أعجب بنفسه قل تشمره ، وإنما يتشمر للعمل من يرى نفسه مقصرا ، فأما اذا انطلقت الأسن بالشأن عليه ظن أنه قد أدرك ، ولهذا قال عليه السلام : قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح ، وقال ﷺ (٣) : « اذا مدحت أخاك في وجهه فكأنما أمررت على حلقة موسى وميضا » وقال أيضا لمن مدح رجلا (٤) « عقرت الرجل عقرك الله » . وقال مطارف

(١) حديث : ان رجلا مدح رجلا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ويحك قطعت عنق صاحبك

متفق عليه من حديث أبي بكر بنحوه ، وهو في الصمت لابن أبي الدنيا بلفظ المصنف

(٢) حديث : ان الله يغضب إذا مدح الفاسق ابن أبي الدنيا في الصمت واليهيقي في الشعب من حديث

أنس ، وفيه أبو خاف خادم أنس ضعيف ، ورواه أبو يعلى الموصلي وابن عسدي : بلفظ إذا مدح

الفاسق غضب الرب واهتز العرش . قال الذهبي في الميزان منهكر وقد تقدم في آداب الكسب

(٣) حديث : اذا مدحت أخاك في وجهه فكأنما أمررت على حلقة موسى وميضا ، ابن المبارك في الزهد

والرقائق من رواية يحيى بن جابر مرسل .

(٤) حديث : عقرت الرجل عقرك الله ، قاله لمن مدح رجلا ، لم أجده أصلا .



« ما سمعت قط ثناء ولا مدحة إلا تصاغرت إلى نفسي » . وقال زياد بن أبي مسلم : « ليس أحد يسمع ثناء عليه أو مدحة إلا تراءى له الشيطان ، ولكن المؤمن يراجع ، فقال ابن المبارك : لقد صدق كلاهما ، أما ما ذكره زياد فذلك قلب العوام ، وأما ما ذكره مطرف فذلك قلب الخواص » وقال صلى الله عليه وسلم (١) « لومشى رجل إلى رجل بسكين مرهف كان خيرا له من أن يثنى عليه في وجهه » . وقال عمر رضي الله عنه : المدح هو الذبح ، وذلك لأن المذبوح هو الذي يفتر عن العمل ، والمدح يوجب الفتور ، ولأن المدح يورث العجب والكبر وهما مهلكان كالمدح فلذلك شبهه به ، فإن سلم المدح من هذه الآفات في حق المادح والمدوح لم يكن به بأس ، بل ربما كان مندوبا إليه ، ولذلك أنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصحابة فقال (٢) : « لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالم لرجح » . وقال في عمر (٣) « لولم أبعث لبعثت يا عمر » ، وأى ثناء يزيد على هذا ! ولكنه صلى الله عليه وسلم قال عن صدق وبصيرة ، وكانوا رضي الله عنهم أجل رتبة من أن يورثهم ذلك كبرا وعجبا وفتورا ، بل مدح الرجل نفسه قبيح لما فيه من الكبر والنفاخر إذ قال صلى الله عليه وسلم (٤) « أنا سيد ولد آدم ولا خفر » أى لست أقول هذا تفاخرا كما يقصده الناس بالثناء على أنفسهم ، وذلك لأن افتخاره صلى الله عليه وسلم كان بالله وبالقرب من الله لا بولد آدم وتقدمه عليهم كما أن المقبول عند الملك قبولاً عظيماً إنما يفتخر بقبوله إياه وبه يفرح لا بتقدمه على بعض رعاياه ، وبتفصيل هذه الآفات تقدر على الجمع بين ذم المدح وبين الخث عليه . قال صلى الله عليه وسلم (٥) وجبت لما أثنوا على بعض الموتى . وقال مجاهد : إن لبني آدم جلساء من الملائكة ، فإذا ذكر الرجل المسلم أخاه المسلم بخير قالت الملائكة ولك بمثل ، وإذا ذكره بسوء قالت الملائكة يا ابن آدم المستور عورتك أربع على نفسك واحد الله الذي ستر عورتك ، فهذه آفات المدح .

### بيان ما على المدوح

اعلم أن على المدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب وآفة الفتور ، ولا ينجونه إلا بأن يعرف نفسه ، ويتأمل ما في خطر الخاتمة ، ودقائق الرياء ، وآفات الأعمال ، فانه يعرف من نفسه ما لا يعرفه المادح ولو انكشف له جميع أسرارها وما يجري على خواطره لكف المادح عن مدحه ، وعليه أن يظهر كراهة المدح باذلال المادح . قال صلى الله عليه وسلم (٦) : « احثوا التراب في وجوه المادحين » . وقال سفيان بن عيينة :

(١) حديث : لومشى رجل إلى رجل بسكين مرهف كان خيرا له من أن يثنى عليه في وجهه ، لم أجده أيضا .

(٢) حديث : لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالمين لرجح ، تقدم في العلم .

(٣) حديث : لولم أبعث لبعثت يا عمر ، أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة ، وهو منكر ، والمعروف حديث عقبة بن عامر : « لو كان بعدى نبي لكان عمر بن الخطاب » . رواه الترمذي وحسنه .

(٤) حديث : أنا سيد ولد آدم ولا خفر ، الترمذي وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري والحاكم من حديث جابر وقال صحيح الاسناد ، وله من حديث عبادة بن الصامت : « أنا سيد الناس يوم القيامة ولا خفر » ولمسلم من حديث أبي هريرة : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة » .

(٥) حديث : وجبت ، قاله لما أثنوا على بعض الموتى ، متفق عليه من حديث أنس .

(٦) حديث : احثوا في وجوه المادحين التراب ، مسلم من حديث المقداد .

« لا يفر من المدح من عرف نفسه » ، وأثنى على رجل من الصالحين فقال : اللهم ان هؤلاء لا يعرفوني وأنت تعرفني . وقال آخر لما أثنى عليه : اللهم ان عبدك هذا تقرب إلى بمتك ، وأنا أشهدك على مقتته . وقال علي رضي الله عنه لما أثنى عليه : « اللهم اغفر لي ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذني بما يقولون ، واجعلني خيرا مما يظنون » . وأثنى رجل على عمر رضي الله عنه فقال « أتهلكني ونهلك نفسك » . وأثنى رجل على علي كرم الله وجهه في وجهه ، وكان قد بلغه أنه يقع فيه ، فقال : أنا دون ماقات ، وفوق ما في نفسك .

### الآفة التاسعة عشرة

الغفلة عن دقائق الخطأ في خوى الكلام لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته ويرتبط بأمور الدين فلا يقدر على تقويم اللفظ في أمور الدين إلا العلماء الفصحاء ، فمن قصر في علم أوفصاحة لم يخل كلامه عن الزلل ، لكن الله تعالى يعفو عنه لجهله ، مثاله ما قال حذيفة : قال النبي ﷺ (١) : « لا يقل أحدكم ماشاء الله وشئت ولكن ليقل ماشاء الله ثم شئت » وذلك لأن في العطف المطلق تشريكا وتسوية ، وهو على خلاف الاحترام . وقال ابن عباس رضي الله عنهما (٢) : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يكلمه في بعض الأمر فقال ماشاء الله وشئت فقال صلى الله عليه وسلم : أجعلني لله عديلا ؟ بل ماشاء الله وحده . وخطب رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (٣) : « من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى » فقال : قل ومن يعص الله ورسوله فقد غوى » فذكره رسول الله ﷺ قوله ومن يعصهما لأنه تسوية وجمع . وكان إبراهيم يكره أن يقول الرجل : أعوذ بالله وبك ، ويجوز أن يقول : أعوذ بالله ثم بك ، وأن يقول لولا الله ثم فلان ولا يقول لولا الله وفلان . وكره بعضهم أن يقال : اللهم اعتقنا من النار ، وكان يقول : العتق يكون بعد الورد ، وكانوا يستجرون من النار ويتعوذون من النار . وقال رجل : اللهم اجعلني ممن تصيبه شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال حذيفة : إن الله يغني المؤمنين عن شفاعة محمد وتكون شفاعته للمؤمنين من المسلمين . وقال إبراهيم إذا قال الرجل للرجل يا جار يا خنزير قيل له يوم القيامة حمار رأيتني خلقتك خنزيرا رأيتني خلقتك . وعن ابن عباس رضي الله عنهما ان أحدكم يشرك حتى يشرك بكابه فيقول لولاه اسرقا الليلة ، وقال عمر رضي الله عنه (٤) قال رسول الله ﷺ ان الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم من كان حالفا فليحلف بالله أوبصحت ، قال عمر رضي الله عنه فوالله ما حلفت بها منذ سمعتها . وقال ﷺ (٥) « لا تسموا العنب كرما إنما الكرم الرجل المسلم » . وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ : لا يقول أحدكم عبيدي ولا أمتي كما كان عبيد الله وكل فئاسكم إمام الله ، وليقل غلامي وجاري ، وفتاى وفتاى ، ولا يقول المملوك ربى ولا ربتي ، وليقل سيدي وسيدتي ، فسلككم عبيد الله ، والرب الله سبحانه وتعالى . وقال ﷺ (٦) : « لا تقولوا للفاسق سيدنا

(١) حديث حذيفة : لا يقل أحدكم ماشاء الله وشئت الحديث ، أبوداود والنسائي في الكبرى بسند صحيح

(٢) حديث ابن عباس : جاء رجل إلى النبي ﷺ فكلمه في بعض الأمر فقال ماشاء الله وشئت فقال : أجعلني لله عديلا ؟ قل ماشاء الله وحده ، النسائي في الكبرى بإسناد حسن ، وابن ماجه .

(٣) حديث : خطب رجل عند النبي ﷺ فقال : من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى ، الحديث مسلم من حديث عدي بن حاتم .

(٤) حديث عمر : ان الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، متفق عليه .

(٥) حديث : لا تسموا العنب كرما إنما الكرم الرجل المسلم ، متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٦) حديث : لا تقولوا للفاسق سيدنا ، الحديث أبوداود من حديث بريدة بسند صحيح .

فانه ان يكن سيدكم فقد أسخضتكم ربكم . وقال ﷺ (١) : « من قال أنا برىء من الاسلام فان كان صادقا فهو كما قال ، وان كان كاذبا فلن يرجع الى الاسلام سالما » فهذا وأمثاله مما يدخل في الكلام ولا يمكن حصره . ومن تأمل جميع ما أوردناه من آفات اللسان علم أنه اذا أطلق لسانه لم يسلم ، وعند ذلك يعرف سر قوله صلى الله عليه وسلم (٢) : « من صمت نجا » لأن هذه الآفات كلها مهالك ومعاطب وهي على طريق المتكلم فان سكت سلم من الكل وان نطق وتكلم خاطر بنفسه إلا أن يوافقه لسان فصيح وعلم غزير وورع حافظ ، ومراقبة لازمة ، ويقلل من الكلام ، ففساه يسلم عند ذلك ، وهو مع جميع ذلك لا ينفك عن الخطر ، فان كنت لاتقدر على أن تكون ممن تكلم فغتم ، فكن ممن سكت فسلم ، فالسلامة إحدى الغنيمتين .

### الآفة العشرون

سؤال العوام عن صفات الله تعالى ، وعن كلامه ، وعن الحروف ، وانها قديمة أو محدثة ، ومن حقهم الاشتغال بالعمل بما في القرآن إلا أن ذلك ثقیل على النفوس ، والفضول خفيف على القلب ، والعامي يفرح بالخوض في العلم إذ الشيطان يخيل إليه انك من العلماء وأهل الفضل ، ولا يزال يحجب إليه ذلك حتى يتكلم في العلم بما هو كافر وهو لا يدري ، وكل كبيرة يرتكبها العامي فهي أسلم له من أن يتكلم في العلم لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته ، وانما شأن العوام الاشتغال بالعبادات ، والایمان بما ورد به القرآن ، والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث ، وسؤالهم عن غير ما يتعلق بالعبادات سوء أدب منهم يستحقون به العقوبة من الله عز وجل ويتعرضون لخطر الكفر وهو كسؤال ساسة الدواب عن أسرار الملوك وهو موجب للعقوبة ، وكل من سأل عن علم غامض ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو مذموم فانه بالإضافة إليه عامي ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (٣) « ذروني ما تركتكم فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم » . وقال أنس (٤) : سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فأكثروا عليه وأغضبوه ، فصعد المنبر وقال سلوني ولا تسألوني عن شيء إلا أنبأتكم به ، فقام إليه رجل فقال يا رسول الله من أبي ؟ فقال أبوك حذافة ، فقام إليه شابان أخوان فقالا يا رسول الله من أبونا ؟ فقال أبوكما الذي ندعيان إليه ، ثم قام إليه رجل آخر فقال يا رسول الله أفي الجنة أنا أم في النار ؟ فقال لا بل في النار ، فلما رأى الناس غضب رسول الله ﷺ أمسكوا ، فقام إليه عمر رضي الله عنه فقال : رضينا بالله ربا وبالإسلام ديننا وبمحمد ﷺ نبيا ، فقال : اجلس يا عمر رجك الله ، انك معاملة لموفق ، وفي الحديث (٥) « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل والقال ، واضاعة المال ، وكثرة السؤال » . وقال صلى

(١) حديث : من قال أنا برىء من الاسلام ، فان كان صادقا فهو كما قال ، الحديث الفسائي وابن ماجه من حديث بريدة باسناد صحيح .

(٢) حديث : من صمت نجا . الترمذي وقد تقدم في أول آفات اللسان .

(٣) حديث : ذروني ما تركتكم فانما هلك من كان قبلكم بسؤالهم ، الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٤) حديث : سأل الناس رسول الله ﷺ يوما حتى أكثروا عليه وأغضبوه فصعد المنبر فقال سلوني فلا تسألوني عن شيء إلا أنبأتكم به ، الحديث متفق عليه مقتصر على سؤال عبد الله بن حذافة وقول عمر ، ولمسلم من حديث أبي موسى : فقام آخر فقال من أبي ؟ فقال أبوك سالم مولى شيبه .

(٥) حديث : النهي عن قيل وقال ، واضاعة المال ، وكثرة السؤال ، متفق عليه من حديث المغيرة ابن شعبه .

الله عليه وسلم (١) « يوشك الناس يتساءلون حتى يقولوا قد خلق الله الخلق من خلق الله ؟ فإذا قالوا ذلك فقولوا « قل هو الله أحد ، الله الصمد » حتى تختتموا السورة ، ثم ليتفل أحدكم عن يساره ثلاثا ، وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم . وقال جابر (٢) : « ما نزلت آية المتلاعنين إلا لكثرة السؤال » ، وفي قصة موسى والخضر عليهما السلام تنبيه على المنع من السؤال قبل أوان استحقاقه إذ قال : « فإن اتبعني فلانسانأني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا » فلما سأل عن السفينة أنكر عليه حتى اعتذر وقال : « لاتؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا » فلما لم يصبر حتى سأل ثلاثا « قال هذا فراق بيني وبينك » وفارقه . فسؤال العوام عن غوامض الدين من أعظم الآفات ، وهو من المثيرات للفتن ، فيجب دفعهم ومنعهم من ذلك وخوضهم في حروف القرآن يضاهي حال من كتب الملك إليه كتابا ، ورسم له فيه أمورا فلم يشتغل بشيء منها ، وضع زمانه في أن قرطاس الكتاب عتيق أم حديث فاستحق بذلك العقوبة لا محالة ، فكذلك تضييع العامى حدود القرآن واشتغاله بحروفه أهى قديمة أم حديثة ؟ وكذلك سائر صفات الله سبحانه وتعالى ، والله تعالى أعلم . انتهى ما أردته من كتاب [ إحياء علوم الدين ] للإمام الغزالي ، والحمد لله رب العالمين .

\*\*\*

ولفشرع الآن في ذكر ما جاء في كتابي [ جوهر التقوى ] فقد جاء فيه في صفحة ١٢٩ وما بعدها تحت العنوان الآتي مانصه :

### الحسد

الحسد هو كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه ، ومن تمنى مثل نعمة غيره فهو العايب والمنافس ، وهو ليس بحاسد :

### أسبابه

(١) العداوة (٢) التعزز (٣) الكبر (٤) العجب (٥) الخوف من فوت المقاصد المحبوبة (٦) حب الرئاسة (٧) حب النفس وبخلها ، فيثور الحسد في النفس على مقتضى الأسباب .  
فنكره امرأ أنقلت عليه نعمته ، وسرته بليته ، واستعذب شقاءه ، وصرت عليه حلاوته ، ومن لم تان شرته دامت حسرته ، وكم من امرئ كانت نعمته الموهوبة وسعادته المستحدثة وسيلة للاستعلاء فيثور الحسد في قلب قرينه ، ويأبى إلا التعزز عليه فلا يخضع لاستطالته ، ولا يصغر لعظمته ، ومن كانت الكبرياء صفة نفسه لم يستطع أن يرى المتكبر عليهم يساوونه ، ولم يطق صبرا على نعمة لهم حدثت وسعادة أقبلت ، ليبقى عليهم ظاهرا ، وفوقهم قاهرا ، ذلك بسبب الكبر الذي في نفسه وان لم يتعاضموا عليه . وكم من فتى أثار الحسد في قلبه ، واشتعل نيرانه ، وأهلب سعيه ، تعجبه من ترادف النعم على من يخالفونه ، واستغرابه من تتابع المواهب ، وتواصل المنح ، وتوارد اللطائف ، وقد يشفق من زوال محبوب يتغيبه ، أو فوات مطلوب يرتجيه ، إذا ذاق معارفه نعمة من بعد ضراء مستهم ، فينافسونه على مطالبه ، ويزاحونه في سلوك سبيله ، كأرض يملكها أو عرس يبنى بها ، أو درجة يرقاها ، أو نعمة يلقاها . ومن الناس من يحسد حبا للرياسة ، وما يخشاه من وهن سلطانه ، وانقضاء بنيانه ، وتفويت عزه واستقلاله ، وآخرون خبث نفوسهم ، وضل سعيهم ، إذ يحسدون

(١) حديث : يوشك الناس يتساءلون بينهم حتى يقولوا قد خلق الله الخلق ، الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

(٢) حديث جابر : ما نزلت آية التلاعن إلا لكثرة السؤال ، رواه البزار بإسناد جيد .

الناس على ما آتاهم الله من فضله بلاسبب إلا مرضى نفوسهم وشحها ، وسوء طويتهم ، يودون أن لو منع الله الرجعة عن العباد لا يطلبون الانفراد بها ، ولا السيادة على غيرهم ، ولكن أنفسهم ضيقة العطن ، عديّة الفطن ، قليلة الخير ، ميتة الأفضة ، أو تلك هم الحاسدون الضالون .

وكما تضافرت الأسباب بالاجتماع في المجالس ، والتجاور في المنازل . والاشتراك في الحرمة ، والاقتراب بالنسب أو المصاهرة كان اضطرام نار الحسد أشد ، وامتداد لهيبها أسرع ، وازداد سعيها ، وطمع شررها ، وغلت مراجلها ، فزاد احراقها لمواد المحبات ، وإبادتها للمذات المودات ، وكانت الحياة حياة الأشرار إذ ذك شرا وبلا ، وعذابا ألما . قال ﷺ : « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » . وقال عليه السلام : « لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا » . وقال أنس : « كنا جالوسا عند رسول الله ﷺ فقال : يطاع عليكم من هذا الفج رجل من أهل الجنة ، فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه ، قد علق نعليه في يده الشمال فلم فلما كان الغد قال النبي ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل وقاله في اليوم الثالث ، فطلع ذلك الرجل ، فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص وزنه ثلاثة أيام في بيته فلم يجد يصلي بالليل ، فاحتقر عمل الرجل ، فسأله ما الذي بلغ بك ؟ فقال هو ما رأيت ، غير أني لأجد على أحد من المسلمين في نفسي غشا ولا حسدا على خير أعطاه الله إياه ، قال عبد الله : فقلت هي التي بلغت بك وهي التي لا نطق . وقال ﷺ : « ثلاثة لا ينجون منهن أحد : الظن ، والطيرة ، والحسد ، وسأحدثكم بالمرح من ذلك : إذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت فامض ، وإذا حسدت فلا تبغ » . وقال الشاعر :

يا أحمـد اقنع بالذي أوتيتـه \* ان كنت لاترضى لنفسك ذلها  
واعلم بأن الله جلّ جلاله \* لم يخلق الدنيا لأجلك كلها

لاتسلط على قلبك نيران الحسد التي يثيرها أسبابها ، وتفكر في مصائبه وردائله ، وما ينجم عنه من العذاب الأليم في الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

ومن ابتلى بالحسد والعياذ بالله كيفما كانت أسبابه تقطعت به الأسباب وأزرى به الكمد ، وتنفص عيشه ألا ترى أن نعم الله مترادفة لا ينقطع مددها ، ولا ينقد خيرها ، ومن ذا أشقى ممن عدّ نعم الله شقاء عليه وجنته نار عذابه ، ودار شقائه ، فهل يمسك الله المطر خشية عليه ، أو يمسك الكواكب لئلا ينقطع فؤاده . فالشمس والقمر والنجوم والجبال والأرض والأنهار مسخرات للعباد وهنائهم وراحاتهم وسعادتهم ، فسبحانك اللهم أشقيت قلوبا بالرحمت ، إذ نسوا أنفسهم فتاهوا في أودية الضلالات ، فعذروا نعم الله على الناس نقما ، وحسبوها لهم شقاء دائما ، فما أكثر نعم الله ، وما أدوم شقاءهم ، وقلت :

وفي القلب نيران وفي القلب جنة \* وما أكثر الآلام إلا من الفكر

وكفى الحاسد عذابا أنه معذب بنعيم غيره ، معاقب على الحسد بنفس الحسد ، فلذلك كان طول الحياة له شقاء وموته راحة له ، فكما يتمنى الحاسد زوال نعمة المحسودين يشقى غليل صدور محسوديه أن تطول حياته فيطول عذابه كما قيل :

لامات أعدائك بل خلدوا \* حتى يروا فيك الذي يكمد  
لازلت محسودا على نعمة \* فانما الكامل من يحسد





## الثبات والعزيمة

الثبات المداومة على العمل ، والعزيمة من أحوال الارادة ، والثبات حال داعية لادامة العمل إلى النهاية .  
كم في الناس من عامل ، وقل أولو العزم ، ولم ينل الرغائب ، ويحفظ بالمطالب ، إلا من صحح العزم ، وشمر عن  
ساعد الجذ ، وامتنطى العمل .

دراك المعالي في اقتحام المخاوف ✕ ونيل الأمان في ارتقاء التناث  
وما نال مجدا من أدار عروسه ✕ وباتت تعاطيه سلاف المرافف  
وقد قلت

إلى ذروة العلياء يأساق الحرف ✕ فاني شممت اليوم منها شذا العرف  
وما جمع امرؤ أمره ، وجد في طاب ما يروم ، إلا خضعت له الآمال ، ودانت له المعالي ، وفاز بالسعادة  
والكمال ، وتأمل كيف مدح الله أولى العزم فقال : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » وقص عليه  
أنباءهم ، وكان قصارى أمرهم أنهم فازوا بالسعادة هم والتابعون ، وخسر أولئك الجاهلون .

## الصبر

الصبر ثبات الباعث للخير والفضيلة في مقابلة الباعث للشر والذيلة ، وذلك أن الانسان يشارك الدواب  
في الشهوة والغضب ، وليس للصبر ولا للمجنون ولا للبهائم من داع يدعو لقمع الشهوات ، ولا من رادع يردع  
عن اللذات ، إلا إنما يظهر جهادهما ، وبين التفاضل بينهما ، والتخلي من غائلتهما ، لمن عقل واستبصر  
وآد كر وتفكر ، ورأى سبيل الرشد فاتخذ سبيلا ، وسبيل النقي فلم يتخذ سبيلا .

وبذلك يمتاز العاقل من الانسان عن المجنون والصبي والحيوان ، فالحيوان أسير شهواته ، والعاقل من  
الانسان عليم بما يعقب الأسر من الاذلال ، وما يجتر من الوبال ، وهناك تبتدى داعية المجاهدة ، وتولد في  
النفس حال تدعو للمقاومة والمناضلة ، فهذه الحال هي السمة بالصبر الناجمة من العلم والهداية الداعية لترك  
الضلال والغواية ، ألا وان العلم بمغبة الشهوات وغائلة اللذات باعث لقيام حال النيات بالأنفس ، وتلك الحال  
ثمر الأعمال ، فالعلم شجرة ، والأحوال أغصانها ، والأعمال أثمارها .

## أسماء الصبر

الصبر في الأخلاق كالحديد في الصناعات والملح في الطعام ، فلا ترى طاعة ، ولا خلقا حسنا إلا والصبر  
مفتاحه وعماده وقوامه ، ألا ترى كيف شمل الأعمال البدنية ، والأحوال النفسية ، فن احتمل المرض والألم  
والجراح المصممة ، وقام بالأعمال الشريفة في عبادة يقيمها ، أو زراعة يتقنها ، أو صناعة يحسنها ، أو تجارة  
يديرها ، أو إدارة ينظمها ، فهو من الصابرين في النوعين : الاحتمال والأعمال .

## العفة

ومن زكى نفسه بالتباعد عن مقتضى شهوتي البطن والفرج فهو العفيف حتى لا يطيع داعي اللهو والزينة ،  
ولا يتداني من المحرمات ، ومن تعالت نفسه عن الخضوع لنائبات الدهر سمى صابرا ، والافهو الجازع والخلوع ،  
برفع الصوت ، وضرب الخد ، وشق الجيب .

### ضبط النفس والبطر والمرح

وإذا لم تستفزه داعيات الغنى ، فهو الضابط لنفسه ، والافهو البطر المرح .

### الشجاع والجبان

وان قادم الأقران فى ساحة الحرب والميدان ، فهو الشجاع والافهو الجبان ، وان كظم غيظه ، ولزم السكينة عند احتياج الغضب ، فهو الحليم والافهو الأحنى السفيه .

### كتم السرّ وافشاؤه

وإذا أخفى الكلام لاقتضاء المقام فهو السكتوم للسرّ ، والافهو المفضى للأسرار ، فان اطمأنت نفسه فلم تجزع على فضول العيش فهو الراضى ، والافهو الحريص .

### القناعة والشره

ومن اكتفى بالقليل فهو القنوع ، وضده الشره ، فأنت من هذا ترى أن الصبر مترك باباً من الأخلاق إلا وجهه ، ولا خصلة إلا قرعها ، فهو جدير بقوله صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن الإيمان [ هو الصبر ] . ولما كانت أحوال الانسان لا تخلو من مكروه يحتمله ، أو محبوب يشكر عليه ، روى ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال « الإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر » ولما كان المصبور عليه إما شهوة وإما غضبا ، كان الصوم صبرا عن شهوتى البطن والفرج ، لا الغضب ، ولذا ظهر سرّ قوله صلى الله عليه وسلم « الصوم نصف الصبر » فيكون الصوم ربع الإيمان ، وقد يراد بالإيمان ما يشمل العلم والعمل ، ولا عمل إلا مع الصبر تركاً أو فعلاً ، فيكون الإيمان راجعاً ليقين وعمل على مقتضاه ، فذلك قال صلى الله عليه وسلم : « من أقلّ ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ، ومن أعطى حظه منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار ، ولأنّ تصبروا على ما أتم عليه أحبّ إلىّ من أن يأتينى كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم ، ولكنى أخاف عليكم أن تفتح الدنيا عليكم بعدى فينكر بعضكم بعضاً ، وينكركم أهل السماء عند ذلك ، فمن صبر واحتسب ظفر بثوابه ، ثم قرأ قوله تعالى : [ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ] » .

وروى جابر أنه سئل صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال : الصبر والسماحة . وقال صلى الله عليه وسلم : الصبر كبر من كنوز الجنة . وعن عطاء عن ابن عباس قال : لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أمؤمنون أتم ؟ فذكرنا فقال عمر نعم يا رسول الله ، قال : وما علامة إيمانكم ؟ قالوا : نشكر على الرخاء ، ونصبر على البلاء ، ونرضى بالقضاء ، فقال صلى الله عليه وسلم مؤمنون ورب الكعبة . وقال تعالى : « والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس » أى المصيبة والفقر والحرب .

الصبر واحد ، وإنما اختلفت الأسماء لاختلاف المواطن كضوء الشمس يسطع على الأشجار والأزهار والثمار فاختلفت الألوان لتعدد الأشكال ، واحذر أن تفضل فى الألفاظ ، وارع المعانى ، واحذر شبهات الاصطلاحات الواردة .

### الشجاعة

الشجاعة هى الاقدام على الأهوال مع الروية والتدبير ، ومن أقدم بلاروية أو أحجم وقد فاجأه العدو فليس بشجاع ، وإنما هو فى الأولى منهوّر ، وفى الثانية جبان ضعيف . الشجاعة أحد الأركان الأربعة ومنزلتها منها منزلة

منزلة الجنود من الممالك ، والحصون من الأمصار ، ولكم تمدح شعراء الشرق والغرب بالشجاعة ، وحضوا عليها أمهم ، فالعظيم من لبس تاجها ، والوضيع من حرم فضيلتها ، وحيل يده وبينها ، الرجل الضعيف القلب الجبان مهضوم الحق مقصوص الجناح ، لا يقضون له حاجة ، ولا يسمعون له قولاً ، الجبان أشبه شيء بالدجاجة يؤكل لحمه وهو مهين ، والشجاع كالأسد ، يحترم ويحرم أكاه ، وهو مصون ، ومامن أمة فقدت شجاعته ، واستسلمت ، ونامت على فراش الراحة الوثير إلا ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم قوم مستضعفون ، ألم تر إلى عمرو بن كلثوم ، حين قالت هند أم عمرو ملك العرب ليليل بنت المهلهل ابن ربيعة أخي كليب وائل أم عمرو بن كلثوم ياليل ناوليني الطبق كيف تحمس ابن كلثوم وقتله وقال في معاقته :

أبا هند فلاتجمل علينا \* وانظرنا نخبرك اليقينا  
بأننا نورد الرايات بيضا \* ونصدرهن حرا قد رويننا  
بأي مشيئة عمرو بن هند \* نكون لقبلكم فيها قطينا

ومنها

لنا الدنيا ومن أمسى عليها \* ونبطش حين نبطش قادرينا  
بغاة ظالمين وما ظلمنا \* ولكننا سنبداً ظالمينا

افرط وغلاها في القوة الغضبية ، وتجاوز الحد كزهر وعنبرة فيما سيأتي وهذا مذموم كالجبن . الجبن مذموم ، والتهور مذموم ، والشجاعة الوسط . وقال زهير :

ومن لا يزد عن حوضه بسلاحه \* يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

ثم انظر كيف قتل جساس البكري كليباً التغلبي بناقعة سعد جارهم ، وكيف طلب التغلبيون من البكرين قتل جساس قاتل سيدهم ، فأخذت مرة أبا جساس العزة بالاثم وأبى تسليم القاتل فكانت الحروب الشعواء والداهية الدهماء ، وتفانى الحيان بكر وتغلب .

هذه صفة شجاعة العرب الجاهلية الأولى إذ كانوا يحمون الذمار ، ويدفعون العار ، ويوقدون النار ، ويحفظون الجار ، تلك فضيلة وأي فضيلة ، ذلك شرف وأي شرف ، نخر وأي نخر ، ولكنه مصحوب بالجهل تابع لنزعات الشيطان ، ناصر للزور والبهتان ، فكانت الحاجة داعية إلى ما يقوم معوجها ، ويصلح فاسدها ، ولوتبصرت أحوال بلادنا اليوم لرأيت الحية فيها جاهلية ، والنصر تابعاً للعصبية ، لا للعدل في القضية ، فترى الناس سكارى في تشاجرهم وماهم بسكارى ولكن الجهل عظيم .

فنحن أحوج إلى عقل يقوّمنا ، ونمسك بالدين يرجعنا إلى الحق والصواب ، ألا تنجب كيف جاء القرآن فوجه شجاعة العرب إلى الوجهة العامة والفضيلة الشريفة ، فقال تعالى : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » . وقال : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم » ولقد مدح الاعتدال في القوة إذ قال : « أشداء على الكفار رحاء بينهم » ونفر من الظلم فقال : « فلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » .

بذلك ذهبت تلك الحية ، حية الجاهلية الأولى ، الحية المكانية الوقتية ، واستبدلت بأحسن منها وهي الشجاعة التي بها دوخوا العمورة شرقاً وغرباً . وقد ذم الله رذيلة الجبن فقال : « وقالوا لا تنفروا في الحر » قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً . ما أشأم أيام الأمة الخائرة العزيزة الضعيفة القوى ، الميتة الصبر تضاحكها الأيام قليلاً ، وهم على أرائك الراحة متكئون ، وتبسم لها تنور الزهر على أشجار الخنظل في ساحة العيش الهني ، حتى إذا وقعت الواقعة ، وقرعت القارعة ، وحكمت القنا

والقضب في أعناق الرجال ، عبت الأيام بعد ابتسامها ، وذاقوا مرّ الخنظل فقطع أمعاءهم بعد أن راقهم منظره الزاهر ، وأظلم ورقه الناضر ، فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون ، فقطع دابرا قوم الذين رضوا بالظلم واستنابوا للخسف فأصبحوا في ديارهم صاغرين .

ليست الشجاعة قاصرة على القتال والذب عن البلاد بالحرب . كلا . فليس يتم للناس عمل إلا بقوة القلب وتحمل المكروه في قول الحق ، ومامن عالم إلا ابتلى بمن يشنؤه .

لن ينقض ببيان البدعة فتقام على أنقاضه قصور السنة إلا بقول الحق ولو كره الحاسدون ، ولن تموت الرذيلة ، وتحيا الفضيلة ، إلا إذا قام المصلحون تلك العقول الجامدة ، وهزموا صفوف تلك النفوس الخاملة . ولعمرك إن الشجاعة في مقال الحق لأعلى منارا ، وأرفع شأنا ، وأشرف منالا من اقتحام الهيجاء ، والحرب قائمة ، والرماح مشرعة ، والسيوف مصلته ، ألا إن العالم يتوله يصالح الألوف والألوف ، ولذلك كان الصديقون أعلى من الشهداء مقاما ، وأقرب إلى الأنبياء مجلسا .

ألا أحدثكم أيها الأذكياء بحديث السلف الصالح رضى الله عنهم ورضوا عنه ، إذ كانوا يصدعون بالحق وبه يعدلون كآبي بكر الصديق وطاوس اليماني وسفيان الثوري وعطاء بن أبي رباح وأبي حازم وعمر بن عبد العزيز وغيرهم ، أولئك الذين هدى الله فقاوالا الحق وصدقوا في المقال ولم يخافوا لومة لائم ولم يخشوا إلا الله .

[ روى ] عن ضبة بن محسن العنزي قال : كان علينا أبو موسى الأشعري أميراً بالبصرة ، فكان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنشأ يدعو لعمر رضى الله عنه ، قال فعاظني ذلك منه ، فقلت إليه فقلت له : أين أنت من صاحبه تفضله عليه فصنع ذلك جمعا ، ثم كتب إلى عمر يشكوني يقول : إن ضبة بن محسن العنزي يتعرض لي في خطبتي ، فكتب إليه عمر أن أشخصه إليّ قال فأشخصني إليه ، فقدمت إليه ، فضربت عليه الباب ، فخرج إليّ فقال من أنت ؟ فقلت أنا ضبة ، فقال لي : لا مرحبا ولا أهلا ، قلت : أما المرحب فمن الله ، وأما الأهل فلا أهل لي ولا مال ، فبماذا استحللت يا عمر اشخاصي من من مصرى بلا ذنب أذنته ، ولا شيء أتيت به ، فقال ما الذي شجر بينك وبين عاملي ، قال قلت الآن أخبرك به : أنه كان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ثم أنشأ يدعو لك ، فعاظني ذلك منه ، فقلت إليه وقلت له : أين أنت من صاحبه تفضله عليه فصنع ذلك جمعا ، ثم كتب إليك يشكوني ، قال : فاندفع عمر رضى الله عنه با كيا وهو يقول : أنت والله أوفى منه وأرشد ، فهل أنت غافر لي ذنبي يغفر الله لك قال : قلت غفر الله لك يا أمير المؤمنين ، قال : ثم اندفع با كيا وهو يقول : والله لليلة من أبي بكر ويوم خير من عمر وآل عمر ، فهل لك أن أحدثك بليته ويومه ؟ قلت نعم . قال : أما الليلة فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد الخروج من مكة هاربا من المشركين خرج ليلا فتبعه أبو بكر وجعل يمشي مرة أمامه ومرة خلفه ، ومرة عن يمينه ، ومرة عن يساره ، فقال رسول الله ﷺ ما هذا يا أبا بكر ما أعرف هذا من أفعالك ! فقال يا رسول الله أذكر الرصد فأكون أمامك ، وأذكر الطلب فأكون خلفك ، ومرة عن يمينك ومرة عن يسارك ، لا آمن عليك ، قال فمشى رسول الله ﷺ ليلة على أطراف أصابعه حتى حفيت ، فلما رأى أبو بكر أنها قد حفيت حمله على عاتقه ، وجعل يشنقه به حتى أتى فم الغار فأنزله ثم قال : والذي بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخله فإن كان فيه شيء نزل بي قبلك قال فدخله فلم ير فيه شيئا فحمله وأدخله ، وكان في الغار خرق فيه حبات وأفاع ، فألقمه أبو بكر قدمه مخافة أن يخرج منه شيء . إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيؤذيه ، وجعلن يضربن أبا بكر في قدمه ، وجعلت دموعه تنحدر على خديه من ألم ما يجد ورسول الله

صلى الله عليه وسلم يقول له : يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله السكينة عليه والطمأنينة لأبي بكر ، فهذه ليلته .

وأما يومه فلما توفى رسول الله ﷺ ارتدت العرب ، فقال بعضهم : نصلى ولا نركى فأنيته لا آلو نصحا فقلت يا خليفة رسول الله ﷺ تألف الناس وارفق بهم ، فقال لى : أجبار فى الجاهلية خوار فى الاسلام ؟ فهاذا أتألفهم ، قبض رسول الله ﷺ فارتفع الوحي ، فواثقه لومنعونى عقلا كانوا يعطونه رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه ، قال فقالنا عليه فكان والله رشيد الأمر ، فهذا يومه .

ثم كتب إلى أبى موسى يلوهم . أما طاووس اليماني فانه كان من التابعين ، وكان من حديثه مع هشام ابن عبد الملك ، إذ أتى المدينة أن قال له هشام عظمى ، فقال : سمعت من أمير المؤمنين على رضي الله عنه يقول : إن فى جهنم حيات كالقلال ، وعقارب كالبعال ، تلدغ كل أمير لا يعدل فى رعيته .

وأما سفيان الثوري فقد كان من حديثه أنه لما دخل على أبى جعفر المنصور ، قال له أبو جعفر : ارفع إلينا حاجتك ، فقال : انما زلت هذه المنزلة بسيوف المهاجرين والأنصار وأبناءؤهم يموتون جوعا فاتق الله وأوصل إليهم حقوقهم ، فطأطأ المنصور رأسه .

وأما عطاء بن أبى رباح فانه لما دخل على عبد الملك بن مروان وهو جالس على سريريه وأجلسه معه عليه ، قال ما حاجتك ؟ فقال يا أمير المؤمنين اتق الله فى حرم الله وحرم رسوله فتمهده بالعمارة ، واتق الله فى أولاد المهاجرين والأنصار ، فانك بهم جلست هذا المجلس ، واتق الله فى أهل الثغور فانهم حصن المسلمين وتفقد أمور المسلمين فانك وحدك المسئول عنهم .

وأما أبو حازم فانه لما سأله سليمان بن عبد الملك بقوله : أى الكلام أسمع ؟ أجابه : قول الحق عند من تخاف وترجو ، قال فأبى المؤمنين أخسر ، قال : رجل خطا فى هوى أخيه وهو ظالم فباع آخرته بديناره .

وأما عمر بن عبد العزيز فانه كان يوما مع سليمان بن عبد الملك فسمع سليمان صوت الرعد فجزع ووضع صدره فى مقدمة الرجل ، قال عمر : هذا صوت رحمة فكيف اذا سمعت صوت عذابه ؟ قيل ان عبد الملك ابن مروان خطب يوما بالكوفة فقام إليه رجل من آل سمعان فقال مهلا يا أمير المؤمنين اقض لصاحبى هذا بحقه ثم اخطب ، فقال وما ذاك ؟ فقال ان الناس قالوا له ما يخلص ظلامتك من عبد الملك إلا فلان فجئت به إليك لأنظر عدلك الذى كنت تعدنا به قبل أن تتولى هذه المظالم ، فطال بينه وبينه الكلام ، فقال له الرجل يا أمير المؤمنين : انكم تأمرون ولا تأتمرون ، وتنهون ولا تنتهون ، وتعظون ولا تتعظون ، أفنقتدى بسيرتكم فى أنفسكم أم نطيع أمركم بالسفركم ؟ فان قاتم أطيعوا أمرنا واقبلوا نصحنا فكيف ينصح غيره من غش نفسه ؟ وان قاتم خذوا الحكمة حيث وجدتموها ، واقبلوا العظة ممن سمعتموها ، فعلام قلدناكم أزمة أمورنا وحكمناكم فى دماننا وأموالنا ، أو ماتعلمون أن منا من هو أعرف منكم بصنوف اللغات ، وأبلغ فى العظاات ، فان كانت الأمانة قد عجزت عن اقامة العدل فيها خفلوا سبيلها وأطلقوا عقالها يبتدرها أهلها الذين قاتلتهمهم فى البلاد وشتتت شملهم بكل واد . أما والله أن بقيت فى يديكم إلى بلوغ الغاية واستيفاء المدة لتضمنوا حقوق الله وحقوق العباد ، فقال له : كيف ذلك ؟ فقال لأن من كلمكم فى حقه زجر ، ومن سكت عن حقه قهر ، فلاقوله مسموع ، ولا ظلمه مرفوع ، ولا من جار عليه مردوع ، وبينك وبين رعيته مقام تذب فيه الجبال حيث ملكك هناك خامل ، وعزك زائل ، وناصرك خاذل ، والحاكم عليك عادل ، فأكب عبد الملك على وجهه يبكي ، ثم قال له فما حاجتك ؟ فقال عاملك بالسجارة ظلمنى ، وليله طو ، ونهاره لغو ، ونظره زهو ، فكتب إليه باعطائه ظلامته ثم عزله .



قال الجاحظ في كتاب [ البيان والتبيين ] حدثنا يزيد بن هارون قال أخبرنا هشام بن حسان عن الحسن أن زيادا بعث الحكم بن عمرو على خراسان فأصاب مغنا ، فكتب إليه زياد : « ان أمير المؤمنين معاوية كتب إلى يأمري أن أصطفى له كل صفراء وبيضاء ، فاذا أتاك كتابي هذا فانظر ما كان من ذهب وفضة فلا تقسمه واقسم ماسوى ذلك » .

فكتب إليه الحكم : « إني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين ، والله لو أن السموات والأرض كانتا رتقا على عبد فأتى الله فجعل الله له منهما مخرجا والسلام » ثم أمر المنادي فنادى في الناس أن اغدوا على غنائمكم فقسّمها بينهم .

وانا نحمد من ضبة ومن بعده صدقهم واسكن لانشاد الناس مشادتهم ، قل الحق وتأنف ، لا تكن فظا فل كل مقام مقال ، والى كلام مواطن . ولقد جرب الناس قديما القول فرأوا أنجبه في العقول الطفه ، وأنفعه في النفوس أجله . قال تعالى لموسى وهرون عليهما السلام : « فقولوا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » . وقال تعالى على لسان نبيه عليه السلام : « وإنا أوياكم لعلى هدى أوفى ضلال مبين » .

فياك أن تقلد كل ماتسمع ، بل اعرض كل شىء على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وتذكر قول الله تعالى : « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر » . وإذا قرأت في تاريخ اليونان أن سولون الحكيم قابل اكرسيوس في مملكة ليديا وهو في أبته وسلطانه وعظمته متجملا بأنظر الثياب ، متحليا هو وأعوانه وأرباب دولته بأنواع الخلى الملكية ، والجواهر الغالية الثمينة ، فقال اكرسيوس لسولون : هل رأيت أحدا يلبس ملابسى ؟ فقال نعم الديوك الأهلية والبرية والطاوس ، فغضب ثم قال : هل رأيت أحدا أسعد منى ؟ فقال الملك طيلوس من أهل مدينة أنينا مات سعيدا قريبا العين بنصرة وطنه ، ولقد حزن عليه سائر البلاد ، فهذا أسعد منك ، ولبه أخوان اسم أحدهما [ كليوبيس ] واسم الآخر [ بيطون ] ، كانا فاضلين صالحين ، أكرما أهمما الصالحة ، حتى انهما جريا عريتهما إلى المعبد ، فدعت لهما ، وأثنى الناس عليهما فماتا صالحين ، مرضيا عليهما من الله والناس ، وعند ذلك غضب اكرسيوس وظن أن سولون مجنون ، ثم عرف له فضله بعد حين إذ وضع على النار ليعرق فصرخ بقوله [ سولون ] فزحزح عن النار ، وسأله الملك عدوه فأخبره بما جرى له مع سولون فاتخلع قلبه وأطلقه .

وإذا سمعت عن ذلك الحكيم الهندى [ بيدبا ] مؤلف كتاب [ كليله ودمنه ] وقد دخل على ملك الهند وأغاظه في القول ، وقال : لقد ظلمت الرعية ، وأضعت ملك آبائك ، وخربت البلاد ، وأضعت العباد ، فحبسه ثم أطلقه ، وولاه الملك بعد حين ، فاعلم أن هؤلاء قالوا الحق ، ووطنوا أنفسهم على المكاره ، فخذ من الناس ضروها ، واعتدل في قولك ، وتابعهم في قول الحق ، واصلاح شأن الأمة ، واعتدل عن الشتم ، فذلك خير وأحسن تأويلا ، وقرأ قوله تعالى : « وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا » ، وقوله : « وقلوا للناس حسنا » وقوله : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » وقوله تعالى : « وليتلف » .

واعلم أن الأطباء انما يضعون الدواء المر في غلاف لسهل تعاطيه ، فليكن أطباء صالحين . وإذا رأيت نفسك خائرة القوة ، هيابة ، تفر من الظلام ، وتفر من الأحلام ، فسلط على الجبن ضده ، وأيقظ النفس من خولها وخودها ، وحركها إلى الأنفة والشتم والاباء ، وعدم تحمل الضيم ، وافعل ما حكاه ابن مسكويه عن بعض المتفلسفين انه كان يعتمد مواطن الخوف فيقف فيها ويحمل نفسه على المخاطر العظيمة بالتعرض لها ،

ويركب البحر عند اضطرابه وهياجه ليعود نفسه اثبات في المخاريف ويهيج منها القوة التي تسكن عند الحاجة الى حركتها ، ويخرجها عن رذيلة الكسل ولواحقه .

ولقد كنت وأنا بالجامع الأزهر الشريف أقرأ هذا الكتاب ، فأخذت أعلم نفسي علم الشجاعة كما في ابن مسكويه ، وما أحسن مدارس التعاليم ، فليكن لفضيلة الشجاعة التعليم العسكري ، وبعض الأمم المتحضرة تعلم أبناءها عموما النظام العسكري كما في سويسرا ، ألا فلنفعل مصر ذلك كما أوضحنا في كتابنا [ نهضة الأمة وحياتها ] الذي قصدت به نظام الأمة علما وسياسة وعملا .

فلعمرك إن الجبن سجن المترفين ، قيدهم بأغلال وصفدهم في الأداهم ، وأعلمكم قرأتم كتاب [ السبق والرمي ] في علم الفقه والناس غافلون لا يعلمون لم وضع هذا الباب ، وما أغفل المسلمين اليوم عن هذه الفضيلة ، فإذا لم توقظ الحكومات الناس فليقم الأفراد بتربية أبنائهم ليدلوهم على فطرتهم الانسانية ، فذلك أبقى للأمم وأحسن وأشجع للأفراد ، فإذا ماتت الشجاعة حل محالها الجبن ، واستولى الترف ، وحق بالناس الهلاك : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

### أسئلة

- ( ١ ) اذكر شجاعة العرب الجاهلية .
- ( ٢ ) قارن ما بين حال المصريين اليوم وحال العرب الجاهلية في الشجاعة .
- ( ٣ ) ماذا ترى في الشجاعة الوقتية المكانية أهى نافعة للأمم ؟
- ( ٤ ) وماذا يجب على مربى الأمة المصرية في شجاعتهم ؟
- ( ٥ ) قارن حال انتقال الأمة العربية من حية الجاهلية بحال تربيتنا المصرية الآن .
- ( ٦ ) مناقصة ضبة مع عمر بن الخطاب ، وما ترى في شجاعته الأدبية ؟
- ( ٧ ) أعط فكرة عامة على الشجاعة الأدبية في صدر الاسلام .
- ( ٨ ) قارن ذلك بحالنا اليوم .
- ( ٩ ) مادواء الجبن ؟
- ( ١٠ ) هل تستنتج من الأبواب السابقة في الكتاب أسباب الشجاعة وعلاجا آخر للجبن .
- ( ١١ ) اذا قسا العلم على التلاميذ فإذا تكون شجاعتهم ؟
- ( ١٢ ) اذا قهرت الحكومة الأمة وقست عليها فإذا تكون حال الأمة ؟
- ( ١٣ ) ماذا يجب على المعلمين وعلى الحكام حتى لا يميؤوا الشجاعة ؟

### الكرم والبخل

من أذى من ماله واجب الشرع ، وواجب المروءة اللائقة به فهو الكريم ، ومن قصر فيما وجب عليه منهما فهو البخيل ، فمن شاح في المحقرات وضائق في الصغائر والهنات مع الخدم ، أو أطال في مشاحنة عياله وأهله أو قريبه على نفقة وسم بالبخل ، ولا قيد يحصر أقسام البخل وأوصاف البخل إلا العادة والعرف ، فلقد ينفق الرجل كثيرا ويشح بالقليل فيحسب بخيلا فانه قصر حيث ينبغي الايفاء ، ومنع حيث يجدر الاعطاء ، لا كرم إلا حيث يكون البذل محبوبا ، والعطاء مرغوبا ، والافتكركم وتكلف ، سبب البخل غلبة الشهوات وطول الأمل ، ورجة الولد ، وخوف الفقر ، وقلة الثقة بمجىء الرزق ، وعشق المال لذاته .

من غلبت عليه شهواته فليعلم أنها نار تلتظي مهما أمدتها بالوقود احتدم وطبها ، وغلت مراجها ، وارتفع لها ، وقالت هل من مزيد ، ومن طال أمله فليتذكر الإخوان والأقران الذين طمعوا كما طمع ، وجعوا كما جمع ، ثم اختطفهم المنون ، وهم عن التذكرة معرضون ، ومن جمع المال للولد فليعلم أنه إن يكن من المؤدبين المتعالمين فقد عاش كما يحيا المجتهدون ، والله في خلقه شؤون ، وإن كان ممن ارتطموا في أوحال الشهوات ، وباعوا أنفسهم للورقات ، وعكفوا على اللذات ، فالل طامة كبرى ، وآفة عظيمة ، ومجلبة لشقائه ، وزيادة في بلائه .

ومن خاف الفقر وقلت ثقته بالله عز وجل فليكشف العطاء عن عينه ، وليتفكر في الحشرات والطيور والبهائم « وكأين من دابة لاتحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم » . ومن أصبح عاشقا للمال مغرما بجمعه كان كالشيخ الهرم الذي جمع مالا وعدده ، يحسب أن ماله أخذه ، تحت أطباق الثرى حتى لا يرى فلقد علم أنه لا ينفعه في حياته ، ولا ينفع به بعد مماته ، ومن ابتلى بهذا الداء فقلما يرجى علاجه . وقرئت :

وما هذه الدنيا سوى البرق لامعا \* فهذا به يلهو وذا رائد القطر

وما هذه الدنيا سوى الروض يانعا \* وأثمارها حسن الأحاديث والذكر

فمن كرمت نفسه ، وأنفق ماله ، انطلقت الألسنة بمدحه ، وتناقلت الركبان ثناءه ، وجنى ثمرات عمله ، كرتين في الدنيا والآخرة كمثل جنة بريرة أصابها وابل فانت أكلاها ضعفين ، فمن أنفق فلنفسه يرجع الثناء ، وله يكون الهناء ، ومن قتر فهو المحروم ، المبعد عن الله والناس . ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فأنكم من يبخل ومن يبخل قائما يبخل عن نفسه . وتذكر ما خاطب به حاتم ماوية بنت عفر :  
أماوى ان المال غاد ورائح \* ويبقى من المال الأحاديث والذكر  
أماوى انى لا أقول اسائل \* إذا جاء يوما حل في مالى النكر  
أماوى إما مانع فبين \* وأما عطاء لا ينهيه الزجر  
أماوى ما يغنى الثراء عن الفنى \* إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر  
أماوى ان يصبح صدائ بقفرة \* من الأرض لا ماء لدى ولاخر  
ترى أن ما أنفقت لم يك ضررتنى \* وأن يدى مما بخلت به صفر  
لقد علم الأفوام لو أن حاتما \* أراد ثراء المال كان له وفر

النفوس الكريمة تريد أن تكون شموسا مشرقة وآنية فياضة ، فيجودون بالموجود من صدقة ، ويألمون لذة ذات اليد حرصا على الكرم . قال الامام الشافعى :  
يا لهف قلبى على مال أفرقه \* على المقلين من أهل المروءات  
إن اعتذارى إلى من جاء يسألنى \* ما ليس عندى لمن إحدى المصيبات  
ومما يسر عند السمر ، ويحلو في البدو والحضر ، ما يروى أن أبا تمام دخل على ابراهيم بن شكة وامتدحه بأبيات وكان عتيلا فتقبلها وأمر حاجبه أن يبوأ صدق ، ويعتله نزلا ومرحبا سهلا حتى يبل من مرضه ، فأوحشه طول المقام ، فكتب إليه يقول :

ان حراما قبول مدحتنا \* وترك ما يرتجى من الصفا (١)

كما الدنانير والدرهم فى الـ \* بيع حرام إلا يدا بيد

فلما وصل البيتان إلى ابراهيم قال لحاجبه : كم أقام بالباب ؟ قال شهرين ، قال أعطه ثلاثين ألفا وجثنى

بدواء ، فكتب إليه يقول :

أعجلتنا فأنك عاجل برّنا به قسلا ولو أمهلتنا لم تقل

نخذ القليل وكن كأنك لم تقل \* ونكون نحن كأننا لم نفعل

أذلك خير أم صار مثلاً في الآخرين ، ونكالا في الغابرين ، كمثلاً أعرابى أقبل يطلب رجلاً وبين يديه نين فغطى التين بكسائه ، جلس الأعرابى ، فقال له الرجل : هل تحسن شيئاً من القرآن ؟ قال نعم ، فقرأ « والزيتون وطور سينين » . فقال : وأين التين ؟ قال هو تحت كسائك . انتهى ما أردته من كتابى « جوهر القوى » وبهذا تم الكلام على اللطيفة الرابعة فى قوله تعالى : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » والحمد لله رب العالمين .

### اللطيفة الخامسة

فى قوله تعالى : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد »

اللهم إنى أجدك على نعمة العلم التى لانهمة تفضلها ، وأشكرك على جزيل مواهبك ، وجيل آلانك ، فلقد فتحت باب العلم فتحاً مبيناً ، وشرحت صدرى لهذا التفسير ، وأصبح ما فى كتابك من المعانى الغائبة عن الناس أشبه بالمعسوس باليد ، المنظور بالعين ، المسموع بالأذن ، فأنت يارب العلم والمهم ، وأنت رب العالمين . من ذا الذى كان يحتاج فى صدره أن معانى هذه الآية التى ذكرت فى أحوال الآخرة أصبحت كالشاهد المحسوس الذى تدل أوائله المشاهدة على أواخره الغائبة ، إن هذه الآية قد ضمت فى خواها جميع ما ينتاب الناس فى الحياة الدنيا من الازلال والآلام وهم لا يشعرون :

(١) إن أول ما أيقظنى لمناها ما اتفق لى وأنا شاب ، وقد جلست مع الفلاحين فى قريننا ، وسمعتهم يذكرون رجلاً انتابه مرض خاص لا تذكره ، وكما وضعوا البطح فى فيه فأكله اعترته حال شديدة فعطش فأعطوه غيره ، فخطرت لى هذه الآية حالا ، وقلت فى نفسى : هذه جهنم قد ظهرت فى معدات الانسان ، وفى حرصه وطمعه ، وجميع أحواله ، وهذا الذى سمعته الليلة ما هو إلا اعلام من الله لى بتفسير هذه الآية ، إن إلحاح الشهوات والعطش المستمر على هذا المريض هو عينه ما يحس به الفقراء والأغنياء والعلماء والجهلاء والملوك والسوقة من الرغبات التى لاحد لها فى جميع أطوار الحياة ، إذن هذه الدنيا مبادئ جهنمية غاية الأمر أنها خفية لم يتفطن لها الناس .

(٢) ولما دخلت مدرسة [دارالعلوم] وكنت مرة فى زمن العطلة الصيفية ، وقد توجهت إلى القاهرة فزرت حديقة الحيوانات بالجيزة يوماً ثم رجعت قابلى وأنا راجع عند الكوبرى رجل جعثنى واياه المصادفات فى المدة التى فتح فيها الكوبرى لمرور المراكب فقصّ على قصصاً ، قال : أنا كنت متعلماً فى مدرسة الألسن التى أنشأها المرحوم محمد على باشا . ثم صرت موظفاً ، وهناك أحوال خاصة ألزمتنى المنزل فأصبحت لأعمل لى فلزمت بنت الحان ، وصرت مدمناً ، ولى أصدقاء مدمنون مثلى ، ولكنى وقتاً فوقاً أتذكر ما كنت أسمه من الأساتذة : « إن شاربى الخمر يسابون بأمراض تفك بهم » وههنا تقوم حرب شعواء بين هذه الشهوة التى ملكت قيادى وبين العلم الذى لا أشك فى صدقه القاطع بضرر الخمر ، وههنا العذاب الواصب الذى ماله من دافع ، فأنا دائماً بين نارين : نار الخوف الدائم من حلول الأوصاب والأمراض ، ونار الشهوة المحرقة المطلعة على فؤادى ، وطالما ذهبت إلى سيدنا الحسين ، وصليت فى مسجده ، وطلبت من الله أن يريحنى من هذا المصاب ، فأتوب يومين ، فيرجع لى إخوان السوء ، فيلحون على ، فأرجع كرة أخرى ، ولكن هذه

المرّة قد تركت تعاطي الخمر (١٤) يوما ، فأنا فرح بهذه النعمة ، وعسى الله أن يتوب عليّ إنه هو التواب الرحيم ، وهناك أقفل السكويرى فررنا عليه وسلم عليّ وانصرف اهـ

ولا جرم أن هذه حال هذا الانسان كله فيما يحيط به ، غاية الأمر أن السكارى هم أوضح مثال لما علق بالناس من العادات ، وأحوالهم صورة ظاهرة وأخوة لآيات كثيرة في وهن أهل جهنم كقوله تعالى : « يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم » وقوله : « ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت » الآية ، وقوله : « كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق » . وقوله : « فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى » ، وقوله : « وقالوا يا ليتنا نردّ ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدأ لهم ما كانوا يخفون من قبل ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم الكاذبون » وقوله : « كلما نصجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » .

ومن أعجب العجب أن يذكر في الاهرام حديث يشبه الحديث المتقدم يوم السبت ٩ أغسطس سنة ١٩٣٠ وبين هذا الحديث والحديث الذي سقته لك الآن . ٤ سنة ، والحديثان متشابهان غاية الأمر أن الحديث في هذه السنة ( ١٣٥٠ هجرية ) وهى سنة طبع هذه الأجزاء يدل دلالة واضحة على تقدم الفحشاء والمنكر في بلادنا المصرية تقدما محسوسا ، فإن الفتى الذى قابلنى عند السكويرى كان يبكى ويحزن لأجل الادماء على شرب الخمر ، وأقوى عامل أورت شيوع الخمر في بلادنا اضلال الاستعمار بين من أهل أوروبا لشباننا ، وبهم استأصل داء الجهالة والغواية ، والفقر والدين واستحكم وأفسد الطباع ، ونجح الأوروبيون نجاحا عظيما في إفساد أبنائنا بسبب الامتيازات الأجنبية ، وأهل الرأى في البلاد عاجزون عن تربية هذا الشعب ، وأكثر العقول منصرفة عن حقائق العلوم ، عاكفة على ظواهرها وعلى حفظ اللغات ، وذلك كله بفتنة الاستعمار التى لم تجد لها مريعا خصبيا إلا في بلادنا : و « لله الأمر من قبل ومن بعد » .

واعلم أن هذا الشاب الذى قابلنى عند السكويرى هو وأمثاله مثل ساقه الله لتفسير هذه الآية ، وهذا المثل ليس خاصا بهذا الفتى ، بل الناس كلهم تحكمهم عادات وأخلاق لا يجدون عنها محيصا كما قدمت ذلك من قبل فهنحن أولاء نشاهد أنفسنا قد اعتدنا على ملابس وما كل ومشارب وأحوالا اجتماعية لا نجد منها مخرجا ونقول نفس مايقوله هذا الفتى سواء بسواء ، نحن نأكل الأطعمة الضارة بالصحة ثم نذم هذه العادة التى ملكتنا ، وهانحن أولاء نسمع بحديث الفيتامين المتقدم المذكور في [ سورة ص ] عند قوله تعالى : « فبعزتك لأغوينهم أجمعين » فنريد أن نحافظ على صحة أجسامنا ، وجمال عقولنا ، فنأكل الفواكه والخضر والحبوب ونحو ذلك فنجد العادات التى ورثناها بالرصاد ، ونسمع علماء الطب يقولون لنا : « إن مقابلة الأجسام للشمس والهواء أو أكثرها تورث صحة وعافية ، وأن كثرة الملابس تحجب الأجسام عن الشمس والهواء وهما النعمة العظمى للصحة » فنجد العادات تقول لنا : لتبعوا محجوبين عن الشمس ، وتكونوا ضعافا خوفاً من الفضيحة والعار ، ونرى المحرم بالحج قد لبس الملابس الخفيفة تعبدًا ، فنقول : هذا ديننا قد فتح لنا باب الصحة ، فقالنا لا نلبس كما يلبس العرب في البادية والمحرم بالحج ، فتتف عاداتنا سدا حصينا بيننا وبين الصحة والعافية ، ونرى الأمم الأوروبية قد أخذت علوم آبائنا وانتفعت بها والقرآن يحض عليها ، والطيارات أحاطت بنا من كل جانب ونحن أبناء العرب ، مزقون متفترقون ، فالمصريون أمة ، وأهل تونس أمة ، وأهل الجزائر أمة ، وأهل مراکش أمة ، وفى سورية أمة بفعل أهل أوروبا تفريقا لنا ، وفى العراق أمة ، وفى نجد ، وفى الحجاز أمة ، وفى اليمن أمة ، وكل هؤلاء متباعدون متفترقون ، ومتى أراد عقلاؤهم الخروج من هذا التفرق قابلتهم عاداتهم وأهواؤهم ، وما ورثوه من آباءهم فى القرون المتأخرة ، فاستمر التفرق ودخول الدخلاء بينهم



مما لم تتصف به أمة غيرهم في زماننا من الفرس والألمان والإنجليز والأسبان وغيرهم ، ولكن هذا التفسير وأمثاله سيكون من أسباب التغلب على العادات الموروثة إن شاء الله تعالى ، وستزول الآلام الشخصية والاجتماعية « فائدة خير حافظا وهو أرحم الراحمين » والحمد لله رب العالمين .

## جوهرة في اعجاز القرآن من حيث بلاغته

حديث عجيب في بلاغة آية : يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد

في يوم ١٣ يونيو سنة ١٩٣٢ قباني الأديب المصري الاستاذ كامل كيلاني خدني حديثا عجيبا كان أشار إليه قبيل ذلك بمدة قبيل تقديم هذه السورة إلى الطبع ، وهذا الحديث راجع إلى البلاغة التي ظهرت في آية : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » فهناك حديثه :

قال : كنت مع الاستاذ [ فنيكل ] وهو من أفاضل المستشرقين الأمريكيين ، وكانت بيني وبينه صلات أدبية وثيقة : وكان يأخذ برأى في ذكر المشاكل التي تقابلها في الأدب لما يعتقده في من الصراحة ، ففي ذات يوم همس في أذني متهيبا ، فقال : خبرني عن رأيك بصراحتك المعروفة ؟ أمن يعتقدون اعجاز القرآن أنت ، أم لعلك تجارى جمهور المسلمين الذين يتلقنون ذلك كبرا عن كبر ، وابتسم ابتسامة كل معانيها لاتخفى على أحد وهو يحسب أنه قد ألقى سهما لاسبيل إلى دفعه ، فابتسمت له كما ابتسم لي وقلت : لكي نحكم على بلاغة أسلوب بعينه يجب أن نحاول أن نكتب مثله أو نقله فلندحاول ايضاه لنا نحن قادرين أم عاجزون عن محاكاته وتقليده ، فلنجرب ان نعبّر عن سعة جهنم فماذا نحن فاعلون ؟ فأمسك بالقلم وأمسكت به ، فكتبنا نحو عشرين جملة منخيرة الأسلوب نعبّر بها عن هذا المعنى أدكر منها :

- (١) إن جهنم واسعة جدا .
- (٢) إن جهنم لأوسع مما تظنون .
- (٣) إن سعة جهنم لا يتصورها عقل انسان .
- (٤) إن جهنم اتسع الدنيا كلها .
- (٥) إن الجن والانس اذا دخلوا جهنم اتسعت لهم ولا تضيق بهم .
- (٦) كل وصف في سعة جهنم لا يصل إلى تقريب شيء من حقيقتها .
- (٧) إن سعة جهنم لتصرف أماءها سعة السموات والأرض .
- (٨) كل ما خطر ببالك في سعة جهنم فانها لأرحب منه وأوسع .
- (٩) سترون من سعة جهنم ما لم تكونوا لتجسموا به أو تتصوروه .
- (١٠) مهما حاولت أن تتخيل سعة جهنم فأنت مقصر ولن تصل إلى شيء من حقيقتها .
- (١١) إن البلاغة المعجزة لتقصّر وتجزأ أشد الجزع عن وصف سعة جهنم .
- (١٢) إن سعة جهنم قد تخطت أحلام الخالمين وتصور المتصورين .
- (١٣) متى أمسكت بالقلم وتصدت لوصف سعة جهنم أحسست بقصورك وعجزك .
- (١٤) إن سعة جهنم لا يصفها وصف ، ولا يتخيلها وهم ، ولا تدور بحسبان .
- (١٥) كل وصف لسعة جهنم إنما هو فضول وهذيان .

إلى آخر هذه الجمل التي لا أدكر إلا ما ذكرت لتقدم العهد وطول الزمان ، فقلت له مبتسما ابتسامة الظافر

الواني : الآن تنجلي لك بلاغة القرآن وعجازه بعد أن حاولنا جهدنا أن نحكيه في هذا المعنى ، فقال : هل أدى القرآن هذا المعنى بأبلغ مما أدّيناه ؟ فقلت لقد كنا أطفالا في تأديته ، فقال مدهوشا : وماذا قل ؟ قلت له : قال « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » ، فصفق أوكاد ، وفتح فاه كالأبله أمام هذه البلاغة المعجزة ، وقال لي : صدقت نعم صدقت ، وأنا أقرّ ترك ذلك مغتبطا من كل قاي ( هذا لفظه ) فقلت له : ليس عجيبا أن تدعن للحق وأنت أديب خير بقيمة الأساليب ، وهذا المستشرق يجيد الانجليزية ، لأنها لغة بلاد في أمريكا ، والألمانية لأنها اللغة التي درس بها الأدب ، والعبرية لأنها لغة الامومة ، والعربية لأنها اللغة التي وقف حياته على درس أدبها ، فهو رجل متخصص للأدب ، وقد جعل حياته وقفا عليه . انتهى الحديث .

هذا حديث الاستاذ [ كامل كيلاني ] ذلك الشاب الذي ظهر ببلادنا المصرية في هذه السنين ، وله كتب منشورة نهج فيها منهجا حديثا .

## موازنة بين الأدب في هذا العصر أي سنة ١٩٣٢

وفي المدة الأولى أيام شباني في نحو سنة ١٨٨٧ م

ذلك أن مصر في ذلك العهد كان فيها بعض الأدباء والشعراء ، وأنا كنت أتعلم إذ ذاك في الجامع الأزهر ، ومن العجب أن السؤال الذي وجه إلى هذا الشاب الأديب وجهته إلى أستاذي العلامة الشيخ محمد النجدي ، وقد كنت أتلقى عليه الأدب بالطريقة القديمة إذ كنا نقرأ كتاب السعد للفتازاني في الأدب ، وكذلك الأشموني في النحو والصرف ، ونصرف زمن الشباب في ذلك الأدب ، ونحن لاندوق منه شيئا ، ذلك أني سألته خارج الدرس قائلا : يا سيدي أنت أعلم العلماء فيما أعلم بفن الأدب ، وأنا أعلم أنك مؤمن بأن القرآن حق وبأنه معجز في فن البلاغة ، ولكن هل ذقت أنت نفس هذه البلاغة ، وأحسست من غير أن تتأثر بما تلقيت عن الأشياخ ؟ فأجابني قائلا . كلا . يا شيخ طنطاوي : ألا ترى أننا نضيع حصّة كاملة في إعراب بيت في كتاب الأشموني أو إجراء استعارة تصريحية أو مكنية أو نحو ذلك ، وهل خرجنا من هذا السجن إلى جو البلاغة المضى البهيج البديع ؟ . انتهى

عجبا يارباه : أم الاسلام التي خلقت فيها هاهي ذه لما كنت أدرس الأدب وأنا شاب لم يكن ذلك الأدب إلا آثارا ، أم تذهب وأم تحب والأدب يقرأ والغاية منه مجهولة والطريق وعرة .

اللهم لك الحمد والمنة ، ها أنا ذا الآن أرى الأحوال قد تغيرت ، والوجهة انتظمت ، والعقول استنارت ، هاهو ذا الأديب المصري مع الأديب الأمريكي يرجعان بالأدب إلى حقيقته وبوازن بين القرآن وكلام الناس ، وكانت النتيجة أن القرآن يبلغ .

أبها المسلمون : قد استبان من هذا الحديث أن التعاليم القديمة في الأدب أخذت تتمحى ، وهاهي ذه الأجيال القادمة يفاهم لي كما قلت مرارا في هذا التفسير مقبلون على أيام علم وحكمة وأدب وسعادة وارتقاء . أوليس من العجب أن يكون سؤالى لأستاذي رحمه الله تعالى في شباني معادا عينه في مشيبي ، ثم تكون الآخرة خيرا من الأولى ، أوليس من المدهش هذا الانقلاب السريع في أمة الاسلام ، إذن ما كنت أتوقعه لأمة الاسلام وذكرته كثيرا في هذا التفسير آت لا ريب فيه والحمد لله رب العالمين .

[ تذكرة ] في سورة الفاتحة موازنة بين بلاغة سورة الفاتحة وفواتح السور وبين بلاغة فواتح المعلقات فارجم إليها إن شئت . وإلى هنا تم الكلام على سورة ق والحمد لله رب العالمين .

# تفسير سورة الذاريات

هي مكة

آياتها ٦٠ — نزلت بعد الأحقاف

( بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ )

وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا \* فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا \* فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا \* فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا \* إِنَّمَا  
تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ \* وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ \* وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ \* إِنْكُمْ لَنِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ \*  
يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ \* قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ \* الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ \* يَسْتَلُونَ أَيَّانَ  
يَوْمِ الدِّينِ \* يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ \* ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ \*  
إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ \* ءَاخِذِينَ مَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ \*  
كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ \* وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ \* وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ  
لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ \* وَفِي الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ \* وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ \*  
وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ \* فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ  
تَنْطِقُونَ \* هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ \* إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا  
قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ \* فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ \* فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا  
تَأْكُلُونَ \* فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ وَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ \* فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ  
فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ \* قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ  
الْعَلِيمُ \* قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ \* قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ \*  
لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّنْ طِينٍ \* مَسْوَمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ \* فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ  
فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ \* فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ \* وَتَرَكْنَا فِيهَا ءَايَةً لِّلَّذِينَ  
يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ \* وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ \* فَتَوَلَّى

بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ \* فَأَخَذْنَا نَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ \* وَفِي  
عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ \* مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ \*  
وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ \* فَهَمَزُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ  
يَنْظُرُونَ \* فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُتَّصِرِينَ \* وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا  
قَوْمًا فَاسِقِينَ \* وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ \* وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ  
الْمَاهِدُونَ \* وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ \* فَقَرَأْوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي  
لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ \* وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ \*  
كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ \* أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ  
هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ \* فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ \* وَذَكَرْ فَإِنَّ اللَّهَ كَرِيءٌ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ \*  
وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ \* مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ \*  
إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ \* فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا  
يَسْتَعْجِلُونَ \* فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ \*

### هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأول في تفسير البسملة .

القسم الثاني في دلائل البعث من العلوم الطبيعية ، والعجائب النفسية ، وفي ذكر جزاء المتقين ، وأخبار  
الأم المروية من أول السورة إلى « لعلمكم تذكرون »

القسم الثالث في تسلية النبي ﷺ ، وفي الفرار إلى الله من هذه الدنيا المزدوجة المقاصد ، المحفوفة  
بالمخاطر ، من قوله تعالى : « ففرّوا إلى الله » إلى آخر السورة .

### القسم الأول في تفسير البسملة

بسم الله الرحمن الرحيم

رباه لك الحمد على نعمة العلم وبهجة الحكمة وسعادة الكشف والايضاح ، رحمتك طلسم الوجود ونفاز  
الحياة ، وأحجية الدنيا والدين ، حرنا ياربنا في رحمتك ، رأيناها حاصلة بالضدين : الخير والشر ، والضر والنفع  
أوليس من العجب أن نرى الجهال من نوع الانسان وأكثرهم جاهلون ، والدواب جميعا تسوقهم للعمل  
الشهوات وماهى الشهوات ؟ إن هى إلا مهابز وسياط ونيران تطفى فى هذه الحياة تسوق الناس إلى أعمالهم ،

ينشط العامل لعمله ، والتاجر لتجارته ، والسياسي لنظام دولته ، بم نشط هؤلاء ؟ لم يكن ذلك إلا لما يحسون في أنفسهم من ألم الجوع وبوار التجارة وضياع المجد والحزى والعار أمام الأعداء والأهل والأصحاب .

سبحانك اللهم وبحمدك ، سبحانك ربنا ، إذن حسراتنا وأحزاننا وآمالنا ومسرّاتنا الوقتية وعداواتنا إن هي إلا محركات لهممنا ، سائقات لعزائمتنا ، جعلتها يارب أسواطاً بها تسوقنا كما نسوق نحن بهائمنا وأنعامنا بما لدينا من سياط وعصى وأدوات .

يركب أحدنا الحصان والجار والفيل والجل ، ويسوقه بما معه من السياط ، وإنما نفعل ذلك لما نعلمه من أن هذه الدواب لا تسير سيرا على مقتضى رغائبنا غالباً إلا إذا نظمنا سيرها بإيقاظها بضرب السياط وأعمال المهاميز ، نفعل ذلك ونحن نجهل أنك أنت تفعل معنا ما نفعله نحن مع دوابنا ، الله أكبر : نحن في عالم المادة والمادة هذا شأنها ، علنا مادي ، فالمادة كلها آلائه ، لذلك قضيت علينا وحكمت حكماً عادلاً أن يكون جوع وشبع ، وخير وشر ، وضرب ونفع ، وحبيب وعدو . فإن كان خير فرح الحبيب فأفرحنا ، وإن كان شر شمت العدو فحزننا للعمل كما نسرّ بتعاطي الطعام ، وبمسرات اجتماع الزوجين الذكر والأنثى ، والصحة والجمال ، ونحزن للفقر والمرض والذل والخضوع للأعداء ، فنجدد للعمل حتى نسترد ما كنا به في بهجة وجور ، هما ضدان اتخذتهما برجتك سوطين يسوقاننا لأعمال الحياة ، أفليس من عجب أن تكون شمانة الأعداء أكبر مقوم لنا ومرق في الحياة من رضا الحبيب وغفلته أو تغافله عن عيوبنا ، إذن الضدان لابد منهما لرحمتنا حتى نحيا سعداء سعادة مآ . يشير لذلك قوله تعالى في هذه السورة : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ، ففرّوا إلى الله » .

الاهم إن أكثر نوع الانسان مسوقون بهذين السائقين وهم في رحمتك بهما ، وهذا قوله في سورة أخرى « قتل الانسان ما أكفره » وقوله : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . وهناك صنف من الناس ارتقى عن هذه الطوائف فكان عمله للخير المحض والسعادة المطلقة ، وهذه هي النفوس العالية التي تشرق على هذا النوع الانساني آناً فآناً .

الله أكبر : هو الرحمن الرحيم ، الله أكبر : هو الذي خلق الشمس والقمر والنجوم ، والجبال والشجر والدواب خلقها برجته هو ابداعاً ، وصقل الدنيا كلها بصقال الجمال ، وجعل في العقول الانسانية من يكونون في الأرض أشبه بتلك النجوم والشموس والأقمار ، يضيئون على الناس كما تضيء الكواكب والشمس والقمر على الأرض .

الله أكبر : ما أكثر غفلة نوع الانسان ، هذه الطائفة هم الذين قال الله فيهم : « وقليل من عبادى الشكور » ، ألا ترى أن شكر النعمة أن يوجه الانسان جميع مواهبه إلى وجهتها ( وبعبارة أخرى ) يكون مع الناس ومع ربه أشبه بالشمس والكواكب في عموم النفع بلا طلب مكافأة ولا مجازاة ، وكما أن الشمس منقادة تسير على النظام المجيد الذي رسمه لها المبدع ، وتطيعه طاعة أشبه بطاعة المحب لمحبه طلباً لرضاه ، وسعيلاً لامتثال أوامره ، هكذا هذه الطائفة في هذا النوع الانساني نزّلوا إلى الأرض لهذه الفضيلة ، شأنهم مع الناس شأن الأمهات مع أولادها ، وشأن الاستاذ الصادق مع تلاميذه النجباء والبلداء ، وشأن الشمس مع الأرض الطيبة والفقراء ، وهؤلاء الشاكرون من نوع الانسان هم الأنبياء والحكماء الذين يخلقون في الأمم جيلاً جليلاً ، هم في الأرض مع الله أشبه بالكواكب في إطاعة النظام ( وبعبارة أخرى ) هم يرقون الأمم بما يحسون في نفوسهم من حب لها ، وغرام بريقها واسعادها ، لا يرقبون جزاء ولا شكورا ، ولن يتم لهم ذلك إلا بحب وهيام وغرام بمبدع الشمس والأقمار ، فهم عن الله يأخذون ، ولعباده يعطون ، والله يلهم النفوس



العالية وهم الملائكة أن تمدهم من الأنوار التي استمدتها منه تعالى ، فهو أولاء العلماء في الأرض والنفوس الشريفة في العالم الأعلى هم الذين يشهدون نظام السموات والأرض المذكور في نظرات الخليل عليه السلام وأذن يشهدون الحكمة والجمال والبهجة في العوالم ، هم المعطوفون على الملائكة في آية : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم » .

وستكثر هذه الطائفة في ديار الإسلام بعد نشر هذا التفسير في زماننا . وفي الملائكة المذكورين يقول الله في هذه السورة : « فآلقسمات أمرا » ، وفي تربية الناس ليستخرج منهم من هو مستعد للتلقى عن تلك النفوس العالية وإن كانوا قليلا يقول فيها أيضا : « كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأصباح هم يستغفرون وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » . هذه أوصاف العابدين ، ومن هؤلاء العابدين من تسمو نفوسهم إلى هذه الطائفة بماركب فيهم من الاستعداد والقوى النفسية وهم المفكرون فأسمعههم ما بعد ذلك فقال : « وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون ، وفي السماء رزقكم وما توعدون ، ف ورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » .

فلتنظر أيها الذكي في نفسك فإن كان عملها للناس لغرض المكاسب كما هو دأب أكثر هذا النوع الانساني أول الشهوة ، أو اللذة ، أو العلو على الناس ، فأنت لاتزال في الدرجات الدنيا من العبادة ، وإن كان عملها بسائق الحب كما تفعل الأم بولدها فأنت في الذروة العليا ، ثم انظر في آخر هذه السورة : « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » فإن كانت هذه العبادة لأجل الجنة وما فيها فهي المرتبة الدنيا ، وإن كانت الأعمال والعبادات صادرة بحب خالص فإن السعادة والبهجة تجعل لصاحب هذا العمل في نفس الحياة الدنيا ، وهذه الطائفة من الآن سعداء ، دنياهم كآخرتهم ، يعبدون الله كأنهم يرونه ، ومن عبد الله كأنه يراه فهذا لا ينتظر جزاء بعد ذلك فقد نال مقصوده ، فكن أيها الحبيب ذلك العبد إن شاء الله .

هذا ما فتح الله به صباح يوم الثلاثاء ٢٩ شوال سنة ١٣٥٠ هجرية الموافق ٨ مارس سنة ١٩٣٢ م وكتبته وقت الضحى . وبهذا تم الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة ، والحمد لله رب العالمين .

## القسم الثاني من السورة

في دلائل البعث من العلوم الطبيعية ، والمجائب النفسية ، وفي ذكر جزاء المتقين ، وأخبار الأمم المروية من أول السورة إلى قوله تعالى : « لعلمكم تذكرون »

### التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

( والذاريات ذروا ) الرياح تذر التراب وغيره ( فالحاملات وقرا ) أي الرياح الحاملات للسحاب ( فالجاريات يسرا ) أي الرياح الجارية في مهامها بسهولة ( فآلقسمات أمرا ) هي الرياح التي تقسم الأمطار بتصرف السحاب ، فالقاء هنا لترتيب الأفعال ، والذات واحدة وهي الرياح ، وجواب القسم قوله ( انما توعدون لصادق ) فإن هبوب الرياح وذرورها التراب ، وحملها السحاب ، وجريها في الهواء بسهولة ، وتقسيمها للأمطار كل ذلك مخالف لناموس الجاذبية ، إن كل ما على الأرض من جذب لها واقع عليها ، ولكن هنا تصرفت الرياح تصرفا عجيبا ، وهذا التصرف تابع لسير الكواكب ، لأنها بجريها وبجري الشمس تؤثر جميعها في أرضنا وفي هوائها فبتم ما ذكر ، وهذه الكواكب والشمس تجري بنظام مقدر محكم يدل على تدبير عظيم

ونظام حكمي ، فاذن يكون ذرو التراب ، وحل السحاب ، وجريه وتفريقه تابع لنظام سير الكواكب التابع لتدبير النفوس والعقول العالية ، وهم الملائكة المدبرون للعالم الأرضي ، فما ذرت الرياح التراب ، ولا حلت السحاب ، ولا قسمت المطر على البقاع إلا بالحركات الفلكية المنظمة بالعقول الملكية ، وهذا يجمع لك كلام المفسرين ورحمهم الله ، فاذا سمعت بعضهم يقول : الذرات الكواكب ، وبعضهم يقول الملائكة فاعلم أنهم جميعا لا خلاف بينهم لأن الأسباب والمسببات مرتببات محكمات ، أعلاها سبب في أدناها ، وليس من الحكمة أن يكون هذا النظام محكما من الأعلى الى الأسفل كما قال تعالى : « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض » ثم تكون نتيجة ذلك القضاء المطلق الذي يدل على أن للاحكمة في خلق هذا الانسان ، لذلك جعل الله تلك المذكورات مقسما بها ( وبعبارة أخرى ) براهين على البعث إذ لولا البعث لكان هذا كله عبثا ، فالدبرات لهذه العوالم لم تدبره ليفنى ، لذلك قال ( إنما توعدون لصادق ، وإن الدين لواقع ) أى وإن الجزاء لحاصل نفيا لفعل العبث من هذه النظم المحكمة ( والسماء ذات الحجب ) ذات الطرائق جمع حبيكة كطريقة ، وطرائق السماء قسمان : محسوسة وهى سير الكواكب ، ومعقولة وهى سير العقول فى التفكير فيها للتوصل إلى العلوم والمعارف ، وأوقات النجوم ، والنجوم تزين السماء كما تزين طرائق الوشى الثوب ، وتحسن شكله ومنظره ، يقال فى هذا أيضا حبيكة وحبك وحباك وحبك ككتاب وكتب ، يقسم الله بالسماء [ ذات طرائق النجوم وطرائق العقول بالتفكير ، وطرائق الوشى والزينة بنفس النجوم ، ومعلوم أن طرق النجوم ونفس النجوم كلها مرتببات متعاضدات متحدات المقاصد والأغراض ] ( إنكم لفي قول مختلف ) فى الرسول وفى القرآن ، وفى القيامة ، وفى أمر الدين كأن يقولوا : إن الرسول شاعر ، أو ساحر ، أو مجنون الخ واقعد كانوا يتلقون الرجل فيقولون له : إياك وأن تسمع محمدا انه ساحر أو كاهن الخ فيصرفونه أى عن الايمان به ، ولذلك قال تعالى ( يؤفك عنه من أفك ) أى يصرف عن القول المختلف أى بسببه من صرف عن الايمان وهذه الجملة صفة بعد صفة للقول ( قتل الخراصون ) الكذابون من أصحاب القول المختلف ، وهذا دعاء بالقتل ولكنه جرى مجرى اللعن ( الذين هم فى غمرة ) فى جهل يغمرهم ( ساهون ) غافلون عما أمروا به ( يسألون أيان يوم الدين ) أى فيقولون متى يوم الجزاء : أى وقوعه ، وجواب هذا السؤال أنه يقع ذلك ( يوم هم على النار يفتنون ) أى يحرقون حال كونهم مقولا لهم تبكيئا ( ذوقوا فتنتكم ) أى تقول لهم خزنة النار : ذوقوا عذابكم واحرقكم فى النار ( هذا الذى كنتم به تستعجلون ) أى هذا العذاب هو الذى كنتم به تستعجلون ( إن المتقين فى جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم ) قائلين لكل ما أعطاهم من الثواب راضين به وآخذين ( إنهم كانوا قبل ذلك ) قبل دخول الجنة فى الدنيا ( محسنين ) قد أحسنوا أعمالهم ، وذكر منها هنا ما يأتى : ( كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ) ينامون ومازائدة : أى كانوا يهجعون فى طائفة قليلة من الليل ، أو هجوعا قليلا ( وبالأصهار هم يستغفرون ) فهؤلاء يحيون الليل متعجدين ، فاذا أسجروا أخذوا فى الاستغفار كأنهم أسلفوا فى ليالهم الجرائم ، والسحر السدس الأخير من الليل . ويقال انهم مع قلة هجوعهم وكثرة تهجدهم اذا أسجروا أخذوا فى الاستغفار . وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : « كانوا قليلا من الليل ما يهجعون » كانوا قلة ليلة تمر بهم إلا صلوا فيها شيئا إماما من أولها أو من وسطها . وقال أنس بن مالك : « كانوا يصلون بين المغرب والعشاء » أخرجه أبو داود ( وفى أموالهم حق ) نصيب يستوجبونه على أنفسهم تقربا إلى الله واشفاقا على الناس ( للسائل والمحروم ) المستجدى والمتعفف الذى يظن غنيا فيحرم الصدقة ( وفى الأرض آيات للموقنين ) أى فيها دلائل من أنواع المعادن والحيوان والنبات والمجانب ( وفى أنفسكم ) آيات ( أفلا تبصرون ) تنظرون نظر من يعتبر . وصف الله المحسنين بأنهم محذون فى العبادة

البدنية ، واخراج المال لمستحقه ، وفيهما إشارة الى الزكاة والصيام والحج ، لأن الأول معلوم من الآية والثاني من نوع العبادة البدنية ، والثالث مركب من المال والبدن ولم يبق إلا الإيمان والعلم فإذلك أتى بهذه الجمل وهي النظر في الآفاق وفي الأنفس بأسلوب آخر كأنه كلام مستقل مع أن هذا من قبيل العلم والأول من قبيل العمل ، وكل متمم للآخر ، وإنما فصل هذا لأنه مختص بطائفة راقية العقل تنبع فيه ، فالأولون صالحون ، والآخرون هم الصديقون قال تعالى تيمنا لمسائل العلم (وفي السماء رزقكم) أي أسباب رزقكم أو تقديره (وما توعدون) من الثواب ، ذلك لأن الجنة فوق العوالم السماوية ، أو يقال : إن الأعمال وثواب الأعمال مقدرات في العالم الأعلى (فورب السماء والأرض إنه) أي ما توعدون (الحق) حقا (مثل ما أنكم تنطقون) أي مثل نطقكم ، فكما أنه لا شك لكم في أنكم تنطقون ينبغي أن لا تشكوا في تحقق ذلك . ويمكن أن يقال أنه أي الرزق ، وعليه ما يأتي :

[ حكي الأصمعي ] . قال : أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي على قعود ، فقال من الرجل ؟ فقلت : من بني أصم . قال : من أين أقبلت ؟ قلت من موضع يتلى فيه كلام الله تعالى . قال اتل علي ، فتلوت : « والذاريات ذروا » فلما بلغت : « وفي السماء رزقكم وما توعدون » ، قال حسبك ، فقام إلى ناقته فنحراها ووزعها على من أقبل وأدير ، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرها وولى . فلما حججت مع الرشيد ، وطفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت رقيق ، فالتفت فإذا بالأعرابي قد نحل واصفر فسلم علي واستقرأ السورة فلما بلغت الآية صاح . وقال : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا . قال : وهل غير هذا ؟ فقرأت : فورب السماء والأرض إنه الحق ، فصاح وقال : ياسبحان الله ، من ذا الذي أغضب الجليل حتى حاف : لم يصدقوه بقوله حتى حلف قائلها ثلاثا ، وخرجت معها نفسه .

واعلم أن مثل هذه الحكاية لا تؤخذ بظاهرها ، وكما للأصمعي من حكايات من عنده . واعلم أن الله عز وجل هو الذي تكفل بالرزق وحده ، فأما زرع الأرض مثلا فليس إلا عملا قليلا جدا ، فها هو إلا وضع حب وانزال ماء وخدمة ، والمكن النمو والخلق وجميع الرزق حاصل بأسباب سماوية من حرارة تارة وبرودة أخرى وعمل عظيم في الخلق والتصوير والتقدير والعجب العجيب ، فأى دخل للناس في هذا ؟ هذا معناه إذا أرجع الضمير للرزق فافهم .

ولما فرغ من الدلائل العقلية ، والعبادات البدنية ، وما تقدمها شرع يقص القصص وابتدأ بقصة ضيف إبراهيم التي جاء في آخرها : « وتركنا فيها آية » للنسبة بينها وبين : « وفي الأرض آيات للموقنين » قال تعالى (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم) في هذه الجملة تفخيم للحديث ، والضيف في الأصل مصدر يطلق على الواحد والمتعدد ، وقوله (المكرمين) أي المكرمين عند الله تعالى وعند إبراهيم إذ خدمهم بنفسه وزوجته وكاتوا اثني عشر ملكا في صورة الضيف حين أضافهم إبراهيم (إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما) أي نسلم عليك سلاما (قال سلام) أي عليكم سلام ، والابتداء جملة فعلية ، والرّد جملة اسمية تفيد الثبات والأولى للحدث ، فالرّد أوكد ، فهذه تحية أحسن من الابتداء . ثم قال أنتم (قوم منسكرون) فعرفوني من أنتم (فراغ إلى أهله) فذهب إليهم في خفية من ضيفانه ، وذلك لأن من أدب الضيافة أن يبادر ربّ الدار بالقرى خيفة أن يمنعه الضيف أو يطول انتظاره (جاء بهجل سمين) لأنه كان عامة ماله البقر (فقربه إليهم) بأن وضعه بين أيديهم (قل ألا تأكلون) منه ، وذلك حثّ منه لهم على الأكل من الهجل المشوى لأنه لا يؤكل منه إلا بعد ذلك فلم يأكلوا من الطعام (فأوجس) فأضمر (منهم خيفة) خوفاً من أن لم يأكل طعامك لا يحفظ ذمامك ، وكان في زمانه إذا أكل الرجل من طعام صاحبه أمنه كما هو حاصل اليوم عند طوائف من العرب ، فلما علموا خوف إبراهيم

(قالوا لا تخف) منا يا ابراهيم انارسل ربك (و بشره) من الله (بغلام) بولد (عليه) يبلغ ويعلم أنبيء وهو اسحق (فأقبلت امرأته) سارة (في صرة) أى حال كونها فى صيحة وهى من الصرير (فصكت وجهها) فطمعت بأطراف الأصابع جبهتها كما يفعل المتعجب (وقالت) أنا (عجوز عقيم) فكيف ألد (قالوا كذلك) مثل ذلك الذى قلنا وأخبرنا به (قال ربك) فنحن نخبرك عن الله والله قادر على ما تستعبدينه (إنه هو الحكيم) فى فعله (العليم) فلا يخفى عليه شيء . فلما علم أنهم ملائكة (قال فما خطبكم) أى فما شأنكم ، وما طلبتكم ، وفيهم أرسلتم ؟ (أيها المرسلون) أى إلى البشارة وحدها أرسلتم أم هناك أمر آخر ؟ (قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) أى قوم لوط (لنرسل عليهم حجارة من طين) أى طين مطبوخ كما يطبخ الآجر حتى يصير فى الصلابة كاللحجارة (مسومة) معامة من السوم وهو العلامة ، وعلامتها تدل على أنها ليست من أحجار الدنيا (عند ربك للمسرفين) أى المجاوزين الحد فى الفجور (فأخرجنا من كان فيها) فى قرى قوم لوط (من المؤمنين) ممن آمن بلوط (فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) أى غير أهل بيت من المسلمين وهم لوط وابنتاه ، وهم موصوفون بالاسلام والايمان (وتركنا فيها آية) علامة (للذين يخافون العذاب الأليم) فانهم المعتبرون بها وهى تلك الأحجار . ثم قال تعالى : (وفى موسى) وهو معطوف على : « وفى الأرض » (إذ أرسلناه إلى فرعون بسultan مبین) هى معجزاته كاليد والعصا (فتولى بركته) أى فتولى بما كان يتقوى به من جنوده ، والركن اسم لما يركن إليه الشيء ويتقوى به (وقال ساحر) أى هو ساحر (أومجنون) فكان مظهر من الخوارق على يديه منسوب إلى الجن (فأخذناه و جنوده فنبذناهم فى اليم) فأغرقناهم فى البحر (وهو مايم) آت بما يلام عليه (وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) وانما كانت عقبا لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم (ماتذر من شيء أتت عليه) صرّت عليه (الإجعلته كالريم) كالرماد ، من الرم وهو البلى والتفتت (وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين) وفى آية أخرى : « تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام » فهذا هو الحين هنا (فعتوا عن أمر ربهم) فاستكبروا عن امتثاله (فأخذتهم الصاعقة) أى العذاب بعد الثلاث (وهم ينظرون) إليها فانها جاءتهم معانية بالنهار (فما استطاعوا من قيام) وهو قوله فى آية أخرى : « فأصبحوا فى دارهم جاثمين » (وما كانوا منتصرين) ممتنعين منه (وقوم نوح) أى وأهلكنا قوم نوح (من قبل من قبل هؤلاء المذكورين) (إنهم كانوا قوما فاسقين) خارجين عن الاستقامة بالكفر والعصيان . ثم رجع إلى ذكر آيات الآفاق المذكورة من الأرض والسماء سابقا فقال (والسماء بنيناها بأيد) بقوة ، والأيد القوة (وانا لموسعون) أى لموسعون ما بين السماء والأرض ، أو انا لقادرون ، من الوسع وهو الطاقة ، والموسع القوى على الاتفاق (والأرض فرشناها) بسطناها ومهدناها (فتم الماهدون) نحن (ومن كل شيء) من الحيوان والنبات (خلقنا زوجين) ذكر وأنثى (لعلكم تذكرون) فعلنا ذلك كله من بناء السماء وفرش الأرض وخلق الأزواج لتذكروا فتعرفوا الخالق وتعبدوه . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثانى من السورة .

### القسم الثالث من السورة

فى تسلية النبي صلى الله عليه وسلم ، وفى الفرار إلى الله من هذه الدنيا المزدوجة المقاصد ، المحفوفة بالمخاطر قال تعالى (ففرّوا إلى الله) من الشرك ، ومن طاعة الشيطان ، ومن كل ماسواه (إنى لكم منه نذير مبين ، ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إنى لكم منه نذير مبين) مبين ما يجب أن يحذر منه (كذلك) أى كما كذبتك قومك وقالوا ساحر أومجنون كذلك (ما أتى الذين من قباهم) أى من قبل كفار مكة فى الأمم الخالية (من رسول) يدعوهم إلى الايمان والطاعة (إلا قالوا ساحر أومجنون) قال الله تعالى (أتواصوا به) أى كأن الأولين

والآخرين منهم أوصى بعضهم بهذا القول حتى قالوه جميعا ( بل هم قوم طاغون ) جمعهم على هذا القول طغيانهم ( فتول عنهم ) أي أعرض عنهم ( فما أنت بالوم ) أي لا لوم عليك فقد أدت الرسالة وما قصرت ، فلما نزلت هذه الآية حزن النبي ﷺ وظن أن الوحي انقطع وأن العذاب نازل فنزل ( وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ) فلما نزلت هذه الآية طابت نفوسهم ، والمعنى عظم القرآن فإن الذكرى تنفع من علم الله من استعداده أنه يؤمن منهم ( وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ) إلا أن أمرهم وأكفهم : أي ما خلقت الجن والانس إلا أمرتهم أن يوحدوني ويعبدوني ، وهذا تفسير سيدنا علي كرم الله وجهه ، وقراءة ابن عباس : [ وما خلقت الجن والانس من المؤمنين إلا ليعبدون ] . ويصح أن يراد الجميع من حيث انهم مستعدون بفطرتهم للتوحيد ، وإنما منعهم عن ذلك الاستعداد ما حصل من الأبوين فانهم يهودان المولود وينصرانه ويمجسانه ، فالقصد على هذا الرأي أنهم خلقوا على الفطرة فلا ينافي أن العوارض أزعجتهم عن فطرتهم : أي إلا ليكونوا مستعدين بفطرتهم ، وجعل ذلك غاية للمبالغة في ذلك ( ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ) ما أريد أن أصرفكم في تحصيل رزقي ، فاشتغلوا فيما أنتم كالمخلوقين له والمأمورين به ، فاستمعكم كالسيد مع عبيده من الآدميين يعملون ليطعمون ، إن الأمر هنا بالعكس فإني أنا أرزقكم ( إن الله هو الرزاق ) الذي يرزق عباده لا أنهم هم يسعون لرزقه ( ذوالقوة المتين ) شديد القوة ، وإذا كان شديد القوة فإنه قادر أن يعذب الذين ظلموا ( فإن للذين ظلموا ذنوبا ) أي فإن للذين ظلموك من أهل مكة نصيبا من العذاب ( مثل ذنوب أصحابهم ) مثل نصيب نظائرهم من الأمم السالفة ، وقد كانت السقاة يقتصمون الماء بالدلاء ، والذنوب هو الدلو على شرط الامتلاء بالماء . وقال الزجاج : الذنوب في اللغة النصيب ( فلا يستعجلون ) بقولهم : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » ( فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون ) من يوم القيامة ، أو يوم بدر وأمثاله في الدنيا . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

### لطائف هذه السورة

- (١) في قوله تعالى : « والذاريات ذروا ، فالحاملات رقا ، فالجاريات يسرا ، فالقلمات أمرا ، إن ماتوعدون لصادق ، وإن الدين لواقع . والسماء ذات الحبك » .
- (٢) وفي قوله تعالى : « وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون ، وفي السماء رزقكم وما توعدون ، فو رب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » .
- (٣) وفي قوله تعالى : « ففرّوا إلى الله » .
- (٤) وفي قوله تعالى : « فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون » .

### اللطيفة الأولى والثانية

في هاتين اللطيفتين مبحثان

المبحث الأول علمي ، والمبحث الثاني أدبي .

#### المبحث العلمي

لقد سبق لك في [ سورة ق ] والحجرات أنهما قد جمعتا بين الأخلاق النفسية في الحجرات ، والعلوم الطبيعية والفلسفية في [ سورة ق ] وأن لفظ ق قد جرى به في وسط العلمين كالتذكيرة لهما ، وقد بينا أن الأمم الإسلامية اليوم أحوج ما يكون إلى علوم الأنفس والآفاق ، وأن مافي السورتين المذكورتين نموذج لهما



وأن رقيهم لا يكون إلا بها ، وأن أوروبا المحيطة بنا من كل جانب نبغت فيهما ، وأن الله لم يذر وسيلة من وسائل الارشاد لفتنا إلى ذلك إلا جعلها في هذا القرآن ، لعلنا بعد القرون الطويلة سننام على علم الفقه ونظن أنه كاف في اسعادنا في الدنيا والآخرة . كل هذا قد تقدم في السورتين .

أفلاتنظروا الآن كيف جعل هذه السورة كاللؤلؤ كدة لما تقدم فانه ابتدأها بذكر الرياح التي تذر والتراب وغيره ، وتحمل السحاب ، وتجري بسهولة ، وتفرق المطر على الأقطار ، وبأن السماء ذات الحباثك ، وأنواع الوشى والزينة من كل نجم مشرق اللون ، باهر الجلال ، يزيناها السماء بزينة باهرة (وقرىء كالبرق والنعم والجبل والسلك والابل والقفل) كل هذا بنحو ذلك المعنى ، كأنه عز وجل يقول : هاأنذا يا عبادي قد أمرتكم أن تنظروا السماء ، وتعتبروا بالأرض في [ سورة ق ] فإذا بعدتو يبخكم على التقاعد عن النظر وحشكم بقولى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » فإذا بعد ذلك إلا أن أجعل العجائب الأرضية ، والطرق السماوية ، وأنواع الزينة الكوكبية قسما أقسم به ، وهل بعد أعظام هذه العجائب مقال لقائل ؟ وهل بعد أن يحلف بها خالقكم من محيص عن النظر فيها والتفكر ؟

أقول : يا عجباً لأمة الاسلام ، يظنون أن ما يخاطب به الكافر قد نجوا منه ، يظنون أن الايمان الموروث عن الآباء كاف ، وأن توبيخ الكافرين على التقصير في العلم لا يوجب توبيخ المسلمين فيه ، وكأن المسلم يفهم أن الجهل مغفر منه متى نطق بالشهادتين ، فقد قال الله تعالى في حق الكافرين : « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » ولقد تقدم في حديث عبد الله بن زياد مع عمر أنه رضى الله عنه خاف من هذه الآية ، وقال : لو شئت لم لأت هذه الرحاب سبائك ورقاقا وصنابا ، ولكنى رأيت الله نبي على قوم فقال : « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا » فها هو ذا عمر خاف من هذه الآية مع أنها عملية وقد قيلت في حق الكفار فما بالك بهذه الآيات التي في هذه السورة المؤكدة لما قبلها ، قد ذكر الله العجائب الأرضية والعجائب السماوية على طريق القسم وأعاد ذكرهما فقال : « وفي الأرض آيات للموقنين » الى آخر السورة ، ثم نلت ذكرهما فقال : « والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون » الخ .

ها هو ذا الله يذكر السموات والأرض ثلاث مرات متفرقات في هذه السورة عناية بنا ولقد نظر ، وذكر النفس كما ذكر أخلاقها وتطهيرها في (سورة الحجرات) من أدناس الغيبة والسخرية وما أشبه ذلك وفي النفس آيات ثلاث أصليات لها فروع كشيرات ، إن النفس تعقل والغضب وتشتهى ، فالشهوة بها حياة الأجسام ، والغضب به حفظ النظام ، وبالعقل التدبير والعلم والاحكام ، وكأنما النفس نهله ثلاثة جداول ، أوقيلة لها ثلاث بطون ، أو شجرة لها ثلاثة فروع ، أو رجل فهو من جهة حداد ، ومن جهة نجار ، ومن جهة كاتب فله أسماء باعتبار صفاته كما نرى التفاحة حمراء ذات رائحة طيبة حلوة ، فهذه ثلاث صفات لشيء واحد ، فالنفس واحدة ولها الخواص الخمس تجلب لها أنواع الألوان والأشكال وأمثالها بالعين ، وأنواع الأصوات بالأذن ، وأنواع المشمومات بالأنف ، وأنواع الطعوم من حلو وحامض ، ومر ومن ، وحار وملح وما أشبه ذلك بالذوق ، وأنواع الملموسات من ثقل وخفة وحرارة وبرودة ورطوبة وببوسة وما أشبه ذلك بحاسة اللمس ، فهذه المعلومات التي عدها علماء المقولات ستا وثلاثين نوعا تستخرج من المحسوسات وتجتمع عند الحس المشترك ، وهناك تحفظ في القوة الخيالة كما يحفف الناس الطين بالحرارة فتقلب اللبن وتجعله آجرا ، فكما أن الناس يوقدون على اللبن فيصير آجرا هكذا في نفوسنا قوة تحفظ صور المحسوسات وتخزنها فيها يقال لها الخيالة ، فالحس المشترك يأخذ الصور من الخواص ويسلمها لذلك القوة فتتصرف فيها في اليقظة وفي المنام وفي حال السكر والجنون ، فتفعل أفعالا غريبة في الصور ونبرزها بأحوال مختلفات وتراكيب عجيبة يعرفها جميع الناس في أنفسهم وعلماء

البلاغة والشعراء ومؤلفو الروايات ، ثم ان الناس كما يتخذون الآجر في البناء هكذا النفس لها قوة تقوم مقام البناء تسمى المفكرة وهي تتصرف في المعاني المأخوذة من الصور تصرف البناء بالاجادة وبضدها ، ثم ان هناك قوة تدرك المعاني الجزئية تسمى الواهمة ، وهناك قوة أخرى تحفظ تلك المعاني تسمى الحافظة فعندنا صورتها بها الحواس والحس المشترك قبلها والخيلة خزنتها وتصرفت فيها والمفكرة استخلصت المعاني وخزنتها في العوالم العلوية الروحية ، والمعاني الجزئية تدركها الواهمة كعداوة الذئب للشاة ، وخزانتها تسمى الحافظة . هذه هي القوى التي في نفوسنا ، وقد أبدع علماء العصر الحاضر في أمر النفس وجعلوا أن الدماغ مقسم أقساما كل قسم له جزء مخصوص من العلوم بحيث يكون الدماغ أشبه بمناطق الأرض لكل منطقة مزارع خاصة بها ، فكما لا ينبت النخل في البلاد الباردة ، ولا البندق في البلاد الحارة ، هكذا لا تكون العلوم الرياضية في مواضع العلوم الطبيعية في الدماغ ، ولا تكون مخازن العلوم في الدماغ مستعدة لقبول علوم اللغات . هذا جزء يسير من عجائب النفس التي ذكرها الله إذ قال : « وفي الأرض آيات للوقنين ، وفي أنفسكم أي آيات ، فهذه بعض آيات الأنفس .

والماتمل لهذه الآيات يجد فيها عجبا عجبا يقول الله : « والسماوات ذات الحجب إنكم اني قول مختلف يؤفك عنه من أفك » كأنه يقول : أي عبادي : ها أنا ذا زينت السماء بالنجوم وطرقتها ، وجعلتها حباتك ترونها مزينة لها وأتم ترون زينتها وحجبها ، وكلما كانت الزينة أكثر عددا وأبدع نظاما كان السرور بها أكثر ، وكانت الحكمة فيها أعظم ، وقد قلت لكم : إن في هذه السماء ذات الزينة رزقكم وماتوعدون ، فلم لا توجهون نظركم إليها ؟ ولا تقولون في بحسبكم عليها وعلى الأرض وآفاقها ، وكيف تكون أنواع الزينة والأنوار في السماء التي هي قبلة الأنظار ، وأنتم تستمدون منها جميع ما تعيشون به ، ثم تكون سبركم مخالفة لنظامها ، فان طرقكم ظلمانية ، وأعمالكم شيطانية ، أفلا تنظرون السماء مشرقة وأنتم مظلمون ، طرقها هداية وطرقكم ذات ضلال ، أحاطت بكم السماء المزينة المرصعة التي فيها رزقكم وفيها الجنة ، فوعزتي وجلالي لا تسكنون هناك إلا اذا كانت أعمالكم مشاكلة لزينة السماء فكيف تكون السماء ذات حجب وأعمالكم ذات ظلمات ، فهل يستوى الأعمى والبصير ، ألم أقل في القرآن : « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة » فأبواب السماء والجنة محال مشرقة بهجة لا يدخلها إلا من تربوا تربية تناسب ذلك الجمال ، فكيف تكون السماء ذات حجب وزينة وجمال ونظام ، وأعمالكم ذات ظلمات واختلاف واختلال ، وعزتي وجلالي لأحرمن من السماء والجنة على كل من لا يكونون على نسق ذلك الجمال . وقد تقدم في ﴿ سورة آل عمران ﴾ إيضاح الكلام في أن الجنة في السماء المناسب لقوله تعالى هنا « وفي السماء رزقكم وماتوعدون » .

يا عجباً كيف أصبح المسلمون أبعد الناس عن عالم الجمال ، وقد تولوا عن النظر في السموات والأرض ، اللهم اني أشهدك وأشهد العالم الاسلامي أن أحوال المسلمين اليوم ذات نقص محزنة ، وكيف لا تكون نقصا ونحن الآن نجعل كل همتنا نقل أقوال الأئمة رضوان الله عليهم ، ونكثر نقل الخلاف في علم واحد وأصوله وهو الفقه ، وقد أعرضنا عن الذاريات ذروا الخ وعن السماء ذات الحجب ، وشغلنا أنفسنا بطرق وعلوم تغشى على عقولنا ، فلا ننظر الطرق السماوية ، والعلوم الحكمية ، والبهجة الربانية ، إن للأساذين طرفا من هذه الآية ، ان بعضهم عن السماء محجوبون ، محجوبون بالتقاليد وبدراسة علم الفقه ، ويقول الشيوخ بأنها تكفي للارتقاء يوم القيامة كأنهم ماقروا « والذاريات ذروا » ولا قروا « والسماء ذات الحجب » ولا قروا « والسماء بنيناها بأيدي » .

فليُنظر المسلمون في العلوم ، وليعلموا أن أوان ما أقوله قد أقبل ، وتدهور الاسلام قد أدبر ، وسيظهر في الاسلام جيل يكون نبراس الأمم في العلم والحكمة ، والله هو الولي الحميد . انتهى المبحث العلمي في هاتين اللطيفتين . وإن أردت سرّ قوله تعالى : « ومن كل شيء خلقنا زوجين » فانظره في أوائل [ سورة الأنعام والشعراء ] وهكذا تنظر عجائب النبات في سور كثيرة أقربها [ سورة ق ] .

### المبحث الأدبي

ههنا أخذ الله يقسم بعجائب المخلوقات ، وسيقول : [ والطور وكتاب مسطور ] الخ والنجم وقوله : « فلا أقسم بمواقع النجوم » في [ سورة الواقعة ] وهكذا ، كل هذه ذكرها الله تعالى إعظاماً لأمره النفس والآفاق ، وتذكيراً للمسلمين أن يتعلموها ، ثم إن العرب لم تكن تعرف القسم بهذا الأسلوب ، وسنوازن في هذا المقال بين أسلوب العرب وأسلوب القرآن نقلاً من كتابي [ مذكرات آداب اللغة العربية ] الذي ألفته لتلاميذ المدرسة الحديوية ، فهناك ما جاء فيه تحت العنوان الآتي : وهذا نصه .

### أقسام العرب وأقسام القرآن

جرت عادة العرب أن يقسموا بلفظ أقسم كقوله :

فأقسم أن لو التقينا وأنتم \* لكان لكم يوم من الشرّ مظلم

وبلفظ يمين كقوله :

فقلت يمين الله أبرح قاعدا \* ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

وبلفظ العمر كقوله :

لعمرك ما أدري واني لأوجل \* على أينما تعدو المية أول

وبلفظ يمينا قال زهير :

يمينا لنعم السيدان وجدتما \* على كل حال من سجيل ومبرم

ومن عجب ما نرى من أقسام القرآن فتراه يقسم بما لم يقله عربي قط . قال : أقسم بالشفق ، والليل وما سقى ، والقمر إذا انسق اتركن طبقاً عن طبق . يقول أحلف بما ترون من ذلك النور المتوسط فلا هو غاية في الاضاءة ، ولا هو حالك الظلام أرسلته الشمس بعد مغيبها ، وعكسته على السحب العا كفة في جهات المغارب المسماة بالشفق ، وبالليل وما جمع من كل مخلوق نائم ومتحرك وساكن ، وبالقمر اذا تم ضوءه وتكامل نوره ، وبالجملة . يقول أقسم بأحوال الليل من أنواع الأنوار المختلفة ، وما أجن الليل من مخلوق في الأرض . إنكم معاشر الانس ستنتقلون من حال الى حال من هذه الحياة بالرقى في المدينة ، أو أن تخلف دولة دولة ، وبالانتقال من الحياة إلى البرزخ ، إلى جنة أو إلى نار كما يكون الليل بألوانه الثلاثة على الأجسام وكأن القسم جاء تمهيداً للقضية المقسم بها وتشبيهاً لها وتنظيراً أو كشبه العلة لشبه المعلول فحركات الأفلاك تحدث الأنوار والظلمات وتحيط بالمخلوقات ، ومنها الانسان الذي قضى عليه بالتنقل في الدنيا من حال الى حال تبعاً لحركات الاجرام السماوية بتقدير العزيز العليم الذي دبر الخريف ، والربيع ، والشتاء ، والصيف والدهور والعصور ، فاختلقت الدول والممالك باختلاف الأحوال العلوية ، والحركات الفلكية : ثم يأتي بعد ذلك يوم الدين ، وحشر العالمين : فاما في جنة وإما في جحيم .

وقال : أقسم بالليل إذ يغطي كل شيء ، وبالنهار اذا ظهر ، وبخلق الله الذكر والأنثى من انسان وحيوان

ونبات بالتزاج والالاقاح . ان أعمالكم مختلفات فأما من جاد بالمال واتقى عذاب ربه وصدق بالحسنى فله اليسر يوم القيامة ، وأما من بخل بالمال وأعرض عن الله وكذب بالدين فسيكون في عسر .

أقسم باختلاف الليل والنهار والذكور والأنثى وجعله كالدلّيل على اختلاف مساعينا في حياتنا ووفراتها بعد موتنا قال : « والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلّى وما خلق الذكر والأنثى إلا سعيكم لشيئ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسر وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » وقال : « أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون . إنه لقول رسول كريم ذي قوّة عند العرش مكين » في هذا اقسام بكل ما ذرأ الله مما يحس بالحواس من الجواهر والعناصر والمعادن والنبات والحيوان والأفلاك والأنوار وكل ما لا يبصر من القوى والعقول والنفوس والأرواح وما فوق ذلك من ملائكته ، والمقسم به أن القرآن كلام نزل به رسول كريم على قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، والرسول هو جبريل عليه السلام يقول في القسم : ان المخلوقات قسمان : محسوسات ، ومعقولات ، وجبريل من آخر القسمين أفلا تؤمنون ، وليس من قول شاعر ولا كاهن مما ترون « وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيل من رب العالمين » . وقال : « والفجر وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر ، هل في ذلك قسم لذي حجر » أقسم بالفجر ، وبالليالي العشر ، الأولى من الشهور العربية لازدواج ظلامها بضياؤها كما أن الفجر نوره مزدوج بظلامه ، وأقسم بالأعداد كلها أزواجها وأفرادها ، وما حوت من أسرار الارتماطيقى ، والخواص المدهشة العجيبة ، وبالليل إذا يسر مقبلا ومدبرا ، ان هذا القسم عجيب لم يسمعه العرب . ثم قال : « هل في ذلك قسم لذي حجر » ثم أتبعه بقوله : « ألم تركب فعل ربك بعاد إرم ذات العماد » ألم تركب المقسم به محذوف تقديره . ان الكافرين لا محالة هالكون : لأننا أبنا لهم بحر الحكمة ، ومبادئ العلم كأنها أوائل الشهر ، فان هلال الحكمة يبتدىء ضئيلا ، ثم ينقى ويمتلئ ، وحسبنا أعمالهم شفعا ووترا ، ولم يؤمنوا ، فسعذبهم مرتين : في الدنيا بالغزى ، وفي الآخرة بالنار كما فعلنا بعاد ونمود وفرعون : « ألم تركب فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التي لم يخلق مثالا في البلاد ، ونمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذي الأوتاد ، الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب ، ان ربك لبالمرصاد » .

إنذار من الله للأمم التي أضاء لها نور العلم فأشرقت على وجوههم الحكمة ان هم لم يقتبسوها ، ولم يفتنعوا بها أهلكتهم كما أهلكت الأمم البائدة كما حصل لأهل أمريكا الجر الأصليين ، وكما فعل بمسلمي الأندلس إذ أراهم اتحاد الاسبان ، والاتحاد نور من الله فلم يتحدوا « فصب عليهم ربك سوط عذاب » وهكذا كل أمة ودولة أنذرنا علمائها ، وعلمها حكماؤها ، فتجاهلت الانذار ، وتغاضت عن الحكمة . ساء مصيرها ، وقطع دابرهم كدولة الرومان إذ عصوا حكماءهم في أواخر عهدهم ، وإدبار سعدهم فأخذتهم صاعقة العذاب الهون ، وتكأ كأت عليهم الأمم المتوحشة . فورثوا أرضهم ، وديارهم ، وأموالهم ، وعلومهم وقوانينهم . ان في الفجر وليالي الشهر الأولى أضواء ضئيلة ستؤول للكمال بأشراق الشمس وبتمام البدر فن عطل اتمام نور فجر الحرية ، والحكمة ، وهلال العلم ، والمعرفة بآء بظلام حالك ، وأضحى من المالكين وهذا بطريق الإشارة والمفهوم بشارة الى الأمم التي ظهرت فيها مبادئ الحكمة وأوائل الحرية انها ستنال قسطها من الحكمة ، وحظها من الحرية . إذا هي سعت لائتمام الأنوار ، ولم تقف في سبيل العلم كما يصير الفجر نهارا ، واللال بدرا كاملا . انتهى ما أردته من كتابي مذكرات أداب اللغة العربية .

### اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون

آخر هذه السورة مناسب لأولها ، وأولها مناسب لآخر السورة قبائها ، وآخر هذه السورة يناسب أول سورة الطور والآية بعد هذه ، لأنه أقسم أن عذاب ربك واقع وهو مذكور هنا في قوله : « وان للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون » . اهـ

### اللطائف العامة في هذه السورة (١)

- (١) اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « وفي الأرض آيات للموقنين » .
- (٢) اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « وفي أنفسكم أفلاتنبصرون » وما بعدها من الآيات ، وهاتان اللطيفتان في الآيات التي أولها « إن المتقين في جنات وعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ، كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون ، وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ، وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلاتنبصرون ، وفي السماء رزقكم وما توعدون ، فرب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » .
- (٣) اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » ،

### اللطيفة الأولى

في قوله تعالى : « وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلاتنبصرون ، وفي السماء رزقكم وما توعدون »

هذه آيات ثلاث متلاصقات ، متتابعات ، متصلات ، معطوفات ، وآخرها ذكر فيها الرزق ، وهنا علاقة بين عجائب الأرض وطبائع نفوسنا ورزقنا الذي مصدره السماء في هذه الدنيا والجنة التي وعدنا بها وهي في السماء أيضا . نبات الأرض وحيوانها وجمادها ونفوسنا وأضواء الكواكب والشمس وأرزاقنا ، ثم الجنة التي وعدنا بها ، كل هذه بينها اتصال .

### محاورات بيني وبين صديقي العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير

اطلع على ما كتبتَه الآن وهو هذا العنوان ، فقال : هذا عنوان ضخيم ، وماذا أنت قائل الآن ؟ نعم العلاقة بين هذه العوالم معقولة ، ولكن ما الرزقنا وما الجنة ؟ فقلت : سأوضح هذا المقام هنا حق الإيضاح بعد ما أوضحته في مواضع كثيرة بطرق مختلفة ، إن للأغذية المستخرجة من الأرض تأثيرا على نفوسنا في أخلاقنا وعاداتنا وأحوالنا وصحتنا ومرضا ، ثم إن أحوال نفوسنا وأخلاقها يتبعها نتائجها وهوارتقاء النفوس وصفائها فتكون الجنة في الآخرة ، أو انخفاضها وانحطاطها وسوء فعلها فتكون جهنم ، فإن زعم الناس أن علم الأخلاق يكفي وحده لتهديب النفوس ، أو العلوم الدينية ، فقد جهلوا جهلا بيذا ، فالصحة من أهم عوامل السعادة في الدنيا والآخرة ، وهناك هناك يمكن التحلي بكمال الأخلاق بواسطة الدين ، أو بواسطة التهذيب والتربية والنصائح الدينية ونحو ذلك ، وأيضاً المعارف والعلوم التي تورث اليقين المذكور في هذه الآية إن تكون

(١) هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ، ولم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السورة للطبع

المؤلف



التوازن ، لأن ذلك كله يرفع درجة حرارته درجة من الدرجات المثوبة ، أو أكثر من درجته فيحترق الدم ، وهذا الاحتراق يوجب ذلك الاتزان ، فإذا قصر الانسان في ذلك أوجله فلم يصنعه فان الحى هي التى تفعل ذلك فان ارتفاع الحرارة بها يوجب احتراق الدم الذى يكون به ذلك الاتزان ، فاحتراق الدم فى الحى وغيرها يكون بذلك المواد المخزونة فى الجسم والأخلاط المتراكمة ، إن الاستحمام بالشمس ومباشرتها للجسم يفعل ذلك فيجب المبادرة إلى ذلك والاكثر منه ، ومثل ذلك كثرة التمرينات العضلية ، أو المشى ، أو كلاهما .

فقال صاحبي : عجب والله ! إذن الحى والسمائل والأورام والقروح ليست أمراضا ؟ قلت : كلا . فقال : ههنا ظهر الحق ، انا أريد أن أقول لك الحق ، أنا كنت فيما مضى أسمعك تقول : ان المصائب ان هى إلا نعم واقرا كثيرا مما تقدم ، ومع ذلك كنت غير موقن بها ، نعم عندي تصديق ولكن البراهين فى هذا المقال واضحة ، إن العلم اليوم واضح وظهر ، انه اليوم يقين .

يقول الله : « إنا كل شىء خلقناه بقدر » . ويقول المسلم فى صيغة اسلامه مانعه أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعاهده على الاسلام وأن تؤمن بالقدر خيره وشره من الله .

هذه الجملة يقولها المسلمون كلهم وهى فى القرآن ، يقول الله : « قل كل من عند الله » وإذا كان الأمر كذلك فالله من عنده الخير والشر ، واللغة العربية لا تقول ان الحمد يكون على الشر ، بل يقولون ان الحمد هو الوصف بالجميل على الجليل الاختيارى على جهة التعظيم ، إذن الشرور لاحد عليها لأنها ليست جيلا بل هى قبيحة ، والنبوة تحثنا على الحمد على الخير والشر والله يقول : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » . ويقول المسلم فى صلاته : « فلك الحمد على ما قضيت » والقضاء جاء بالشر وبالخير ، فأحد شقى القضاء لا يحمد عليه ، وهذه عقدة العقد وانز الوجود ، فههنا أخذت هذه العقدة تنحل ، وألفينا الدم والخراج والأورام والحى كلها منقذات لأمهلسكات ، وإذا كانت هذه من نوع الشرور فيما يظهر لنا وقد ظهر أنها خيرات فالحمد عليها حتم ، إذن صدق الله وصدق رسوله فلك الحمد على ما قضيت ، لأنك اذا قضيت بما يؤلنا فقد جعلته مسرتنا وسعادتنا ، فهكذا موتنا وويلاتنا فى الحياة الدنيا كلها نعم لانقم ، هنالك قلت . له : الحمد لله الذى ألهمنا الحكمة وعلمنا الصواب وبهذا انتهى الفصل الأول فى تلخيص ما تقدم فى ( سورة الفتح ) مع زيادة عليه من نفس الكتاب السنوى الثانى للمجمع المصرى للثقافة العلمية .

## الفصل الثانى فى علاقة أجسامنا بعوالم السموات والأرض

وما يتبع ذلك من طول العمر وقصره ، والصحة والمرض الخ

ولأذكر لك ما يخصنا مما ألقاه مواطننا الدكتور [ محمد شاهين باشا ] وكيل الداخلية للشؤون الصحية عند طبع هذا الكتاب فى سنة ١٩٣١ فى المجمع المصرى للثقافة العلمية فى سنته الثانية ، وهذه من نعم الله عز وجل علينا فى هذا الزمان الذى ظهرت فيه بعض الحقائق ، وظهر لنا أن هذه النفوس الانسانية قد ظلمها الناس فذات بسبب الجهل بمقدار ما تناولوه من أرزاق السموات والأرض التى أنعم الله علينا بها ، إن محاضراته ألقاها فى ثمانية فصول :

- (١) فى التعبير وأسبابه .
- (٢) وفى هضبة الحياة والعوامل التى تعمل فيها ، والمراد بهضبة الحياة زمن الشباب وبعض ما بعده .
- (٣) وفى منحدر الحياة : أى فى آخر السكوهولة وزمن الشيخوخة .
- (٤) وفى أسباب الشيخوخة والموت .

(٥) ومنذرات الشيخوخة .

(٦) ثم الغدد التناسلية .

(٧) وتجديد الشباب .

(٨) ووسائل التجديد وإطالة العمر الخ .

وهذه الفصول الثمانية ليست تهمنا كلها لأننا في تفسير هذه الآيات ، فليكن كلامنا حول محورها ، لأن الفصول الأولى فيها مباحث خاصة في أمر الغذاء والشمس ، وهذه هي آيات السموات والأرض المحيطة بالجسم فستفيد [ فائدتين : الأولى ] التفكير في هذه العجائب النافعة لأجسامنا [ الثانية ] نفس الانتفاع بها في حياتنا الدنيا ، فيكون قوله تعالى : « أفلا تبصرون » راجع للعلم والعمل معا ، لأننا إذا أبصرنا آيات الله بمقولاتنا فذلك لا يتم إلا إذا كانت أجسامنا سليمة معافاة ، وهذان الأمران في هذا المقام :

(١) أولا : قد جاء في هذه الخطبة أن الأطباء في العالم الانساني شرحوا جثث الشيوخ الذين ماتوا فأتضح لهم أن النادر منهم مات بسبب الشيخوخة ، وجهورهم هم الذين ماتوا بأمراض كانت هي السبب المباشر لموتهم ، فعرفوا من ذلك أن هذا النوع الانساني جاهل بالغذاء جد جاهل ، والحيوان أقرب منه إلى حفظ صحته بتعاطي ما يضره وترك ما يضره .

(٢) ثانيا : ان الجسم البشري يتم نموه في سن (١٨) والسبب في ذلك أن الجهاز العصبي معقد كل التعقيد فيطول زمان نموه فيعوق الجسم حتى يبلغ ١٨ وهناك يتم النمو ، هذا قوله [ وقد تقدم أن نمو الانسان لا يتم إلا في (٢٥) سنة ، فهذان رأيان ، وإنما نقلت لك الرأي الثاني لأنه تقدم في هذا التفسير ، فربما تظن أن هذا خطأ في النقل ولكن لا خطأ هما رأيان والرأي الذي يقول انه (١٨) سنة لم أعرفه إلا في هذا المقام ، يقول : ولولا تعقد الجهاز العصبي لكان الانسان يتم نموه في ٤ سنين ، ثم يموت في سن (٢٠) . هذا قوله ، وأقول : وقد قرأنا في الجرائد قريبا أن صبيا بلغ (٤) سنين في تركيا فطلب أن يتزوج ، فهذا هو الذي عاش بجهاز عصبي أشبه بجهاز البهايم فتم نموه في ٤ سنين . ثم قال : إن الانسان يجب أن يكون سن الكهولة له من (٧٠) إلى (٨٠) سنة وهناك تبتدى الشيخوخة وتنتهي في سن (١٢٠) . يقول : وهذه السن أي سن (١٢٠) لا يصل لها من الناس في زماننا إلا القليل ، وأبان أن الناس في زماننا تبتدى أجسامهم في الضعف من سن (٥٠) وأخذ يذكر السبب في ذلك فقال في صفحة ٥٠ وما بعدها من كتاب [ المجمع المصري ] ثقافة العلمية مانصه :

« يتنازع الانسان في سياحته الأرضية قوتان : القوة الحيوانية ، والقوة انسانية ، والقوة الأولى أكبر غلبة عليه في الشطر الأول من عمره ، وهو شطر الفتوة والشباب وبدء دور الكهولة ، ثم يأخذ في التغلب عليها تدريجيا كلما تقدم في السن حتى يفوز عليها عند بلوغه الستين من عمره ، فإذا ما وصل الانسان إلى هذا الدور ، دور الرزانة والأتزان ، وتغلب بما كسبه من صروف الدهر وتجاربه على ما كان يتنازعه من متزاحم الأماني والأحلام فنضج عقله وأخذ يتفرغ إلى الاشتغال بالأعمال المجدية بحسب ما وهب من ملكة واستعداد ولكن المشاهد أن الانسان عند ما يبلغ الستين تفترهته ، وتحمم جذوة نشاطه ، مع ان هذه السن هي سن النضج والانتاج العقلي ، وسبب ذلك الإفراط في مختلف الشهوات في الأدوار الأولى من الحياة ، والاهمال في اتباع شتى القواعد الصحية ، ولذلك قل من يحتفظ بشيء من قوة جسمه في سن الستين ، والغالبية العظمى تعمل على هدم بنيانها ، وتدفع بنفسها إلى الشيخوخة العاجلة ، وتسمى إلى تقصير الأجل ، وتترى يوم

الرجيل من هذه الدنيا التي يرى الانسان على الدوام جد حريص على إطالة بقائه فيها بكل الوسائل الممكنة فيتحلف عن هذا التفريط الكثير من الأمراض التي يقع فريستها ، ويمتنع عليه الشفاء منها ، مع أنه بمجهود قليل يبذل الانسان في سبيل العناية بصحته والاحتفاظ بجسمه يحيا معافى سليما ، وهذا المجهود ليس شيئا منكورا في جانب الجهود الكبيرة التي يضطر لبذلها في التماس الشفاء من هذه الأمراض ، وهذه قد يشفى بعضها وقد يستعصى البعض الآخر على العلاج مع أن النجاة من هذه الأمراض لا يكلفه سوى العناية باتباع أوليات علم الصحة في معيشته . ولقد كان الانسان منذ القدم شديد الحرص على الاستدفاء والاكتنان ، واجتناب البرد والهواء ، وفي سبيل حصوله على أوفر قسط من الدفء ، كان يغلق منافذ مسكنه ، ويكثر من التدثر والغطاء هر بما رسخ في اعتقاده من مضار الهواء ، وقد درج على ذلك أجيالا عديدة ، ولم يتمكن علماء الصحة من زخرفته عن هذا الظن الخاطئ إلا من عهد قريب ، إذ نجحوا في إقناعه بمضار الاكتنان في المساكن المغلقة وبفوائد المعيشة في الهواء الطلق الخالص من الفساد والأدران كما يعيش الحيوان الذي أهمته غريزته بأن الهواء من ضروريات الحياة . ويشغل علماء الصحة الآن بمحاربة عادة ذميمة أخرى في الانسان هي أشد ضررا بصحته من الانحباس في المساكن المغلقة وهي عادة الافراط في الغذاء ، لأن الانسان قد تعود (بحكم تغلب الحيوانية عليه) أن يرخي لنفسه العنان في التلذذ بما تصل إليه يده من شهى الأطعمة والمأكولات فيتناول منها دائما أكثر من القدر الذي يستطيع جهاز الهضم أن يمثله ويستخلصه منها لتجديد قوى جسمه ، ومما يؤسف له أن جهل الانسان بأصول التغذية الصحيحة فاش بين جميع الناس على اختلاف طبقاتهم والافراط في الغذاء هو منشأ كثير من أمراض الجهاز الهضمي التي تكون غالبا مستعصية الشفاء وتودي بحياة الانسان قبل الأوان ، وقد جاء في الأحاديث الشريفة : « المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الداء » .

ويبدأ في عصرنا هذا أن يدبّ الوهن إلى جسم الانسان بعد بلوغه سن الثلاثين ، ومتى وصل إلى سن الخمسين تبدأ حالة جسمه في التردد بين القوة والضعف ، ويمكن الاستدلال بكل سهولة على شذوذ حالته بما يشاهد من ضخامة بطنه ، وقد اعتاد الناس أن ينظروا إلى السمن بعد سن الأربعين كأنه أمر طبيعي ، ولا يهتم الواحد منهم بأن يزيد وزن جسمه في هذه السن خمسة كيلوجرامات أو سبعة وهو لا يعلم أن زيادة وزن الجسم في هذه السن هي من الامور الضارة به ، وأن حصول الجسم على هذه الزيادة إنما هو دلائل على أن أجهزته قد كافت ما هو فوق طاقتها وخصوصا الجهاز الهضمي ، ولذلك فلا يستغرب إذا ضعفت هذه الأجهزة قبل الأوان ، ومع أن المادة الشحمية التي يزدرد بها الجسم فوق حاجته تختزن في الأنسجة التي تحت الجلد إلا أن الثابت أن بعضها يتسرب إلى بعض الأعضاء الرئيسية والأعضاء الرئيسية والأعضاء المجاورة لها فيزداد وزنها ، وبعد ذلك تقل صلاحيتها لتأدية وظائفها ، ويمكن أن نقرب للأذهان إدراك مقدار ما يحدثه السمن من الضرر للجسم بذكر ما ينشأ من ضرر لأحد خيول السباق اذا زيد ثقل رطلين مثلا فإذا عسى أن يكون تأثير زيادة سبعة كيلوجرامات في أنسجة جسم انسان في سن الخمسين ، فإن هذه الزيادة قد تحول دون وصول هذا الانسان إلى ما بعد السبعين ، وليس من شك في أنه من أخص الأسباب التي تعجل وفاة الانسان هي إخطاء التغذية الشائعة بين الناس لاعتقادهم بأن الاكثار من الغذاء ينمي الجسم ويقويه ، والنتيجة المحتمة للافراط في الغذاء هي انهالك قوى الجسم واضعافه والتعجيل بوفاة الانسان قبل الأوان .

ولا يفوتنا أن نذكر أن الذين لا تبرز بطونهم بسبب الافراط في الغذاء ، وتنشحم أحشاؤهم وأغذاؤهم يصابون بداء الملوك ، أو بارتفاع الضغط الدموي ، أو بالبول السكري .

وبالاختصار فإن المفرطين في الأكل يحملون أجسامهم أعباء ثقيلة ويسوقونها نحو التلف والدمار ، ويتبين من ذلك بأجلى وضوح أن الاعتدال في الغذاء هو الطريق الأكيد المؤدى إلى التعمير الطويل ، وقد يتساءل البعض عن مدى هذا الاعتدال والجواب عن ذلك هو أنه يجب على الإنسان أن يوازن بين مقدار ما يكسبه جسمه بواسطة الغذاء ، ومقدار ما يفقده بالحركة والعمل ، ويشمل هذا الواجب عناية الإنسان بنوع ما يتناوله من الغذاء ومقداره ، ولو أننا وازنا بين تغذى الإنسان وتغذى الحيوان لانتضح لنا أن الطريقة التي يسير عليها الإنسان في غذائه انما هي طريقة خاطئة ، وبما أن الإنسان لا يختلف تركيب جسمه في شيء عن الحيوان والحيوان لا يتغذى إلا بالمواد الطازجة فكذلك الإنسان في حاجة قصوى إلى هذا النوع من الغذاء .

انظر إلى اللحم ، فمع أنه أهمّ غذاء يحصل منه الإنسان على المواد البروتينية وعلى الفيتامين لدرجة ما إلا أنه يفقد مابه من الفيتامين بالطبخ ، وكذلك الخضر ، ونذكر بهذه المناسبة ذلك الخطأ الشائع بين معظم الناس : وهوانهم يخصصون الحيوان بقصد أن يزيدوا من مقدار لحمه وشحمه ، وهذا خطأ فاحش لأن هذا الحيوان وإن ازداد سمته بالخصى فإن اللحم تقلّ قيمته الغذائية ، ويصير أقلّ تغذية من لحوم الأسماك والطيور . والسكر هو من الأغذية التي تؤذى الإنسان إذا أفرط فيها لأن الخلل الذي تؤثر في السكر وتمثله في الجسم محدودة المقدار ، فإذا تناول مقداراً من السكر أكثر من مقدار الخلل الذي تؤثر في تمثيله كانت نتيجة هذا الاكثار أن يصاب الإنسان بعسر الهضم ، وإذا أخذ في قوام سوائل مركزة فانه يسبب تهيجاً في المعدة ويجعلها تكثر من افراز المواد المخاطية ، وقد ينشأ عنه نوع من البول السكري الذي ربما انقلب إلى بول سكري مستديم وهذا من أسباب قصر العمر بلانزاع ، فمن ذلك يرى أنه يجب على الإنسان أن يعود إلى الغذاء الطبيعي وهو المركب من المواد غير المطبوخة .

ولابد لنا هنا من التذكير عن الأملاح التي هي من مقومات الجسم ، وإذا كان دم الإنسان لا يختلف في تركيبه عن تركيب ماء البحر ، ويشتمل على السكريات والمواد العضوية السابحة فيه ، فمن المحتم تجديد أملاح الجسم من وقت لآخر ، لأن سائلها يغمر جميع الأنسجة ، فألاح الجير واليود والمغنسيوم والصوديوم والبوتاسيوم والحديد ليست ضرورية فقط لحفظ الصحة بل هي ضرورية أيضاً لحفظ الحياة وهي لا توجد بمقدار واف في غذائنا المطبوخ ، واليود مثلاً نحصل عليه من المحيطات بما نأكله من أسماكها ونحصل عليه في ملح الطعام ، ولكن مما يدعو إلى الأسف أن الإنسان بجعله ينزع اليود من ملح الطعام بتكريره وتقديمه للطعام باسم ملح المائدة ، ونحصل على الكالسيوم من اللبن والخضر وبعض الفواكه ، وعلى الفوسفور من اللبن والبيض وبعض الحبوب كما نحصل على اليود أيضاً من الخضر وزيت كبد الحوت ، ونحصل على القلويات من الخضر والفواكه ، وكل خضر تكثر فيها الأملاح يكون الفيتامين موجوداً فيها بكمية وافرة ، ويمكننا نعتبر أن المواد الغذائية المستوفية للطبخ هي نوع من أنواع السموم ، وما دام الإنسان مستمراً على التغذى بها فلاشك أنه سيبقى فريسة هذه السموم التي تهدم كيانه وتحول بينه وبين البقاء في هذه الحياة المدة التي كان من حقه أن يقضيها فيها .

ووجوب تخلص الجسم من فضلات الغذاء لا يقل أهمية عن اختيار أحسن أنواع الأغذية وأنسب مقادير منها والخطر الناشئ عن كسل الأمعاء في طرد فضلات الطعام لا يقل عن الخطر الناجم عن التغير الذي يطرأ على الدم ، لأن هذا التغير غالباً ما يكون سبب مرض الشرايين ، فتصلبها مثلاً ينشأ عن التهيج المزمن الذي يحصل بادي ، ذي بدء في النسيج المبطن لها ، وذلك نتيجة احتكاكها بالدم غير النقي في أثناء مروره فيها ،

ويمكننا أن نجزم أيضا بأن الكسل الذي يصيب الامعاء ينجم غالبا عن السموم التي تحملها المواد التي توجد في هذه القناة إذ معلوم أنه توجد بعض مواد هيجية للقناة المعوية كما توجد بعض مواد أخرى مسكة لها وكذلك توجد بعض الأغذية أو فضلاتها أحد للفهلين ، وإذا كان الغذاء الذي نتناوله غير صالح ومنزوعا منه المواد الضرورية للجسم فيحق لنا القول بأن غذاء كهذا لا يمكن أن ينه عضلات الامعاء ، بل ربما كانت موادّه معطالة لها ، أو مسببة لشلل في حركتها ، ومن هذا نرى أن الأطعمة الخالية من الفيتامين ، أو المركزة التي اعتاد الإنسان أن يتناولها لا شك أن لها دخلا كبيرا فيما تصاب الامعاء به من كسل ، وكلنا نعلم أن الأطعمة التي لا نترك فضلات كافية يتولد عنها إمساك ، وغنى عن الذكر أن الأغذية المظية أو المركزة الشائعة الاستعمال الآن تنقصها هذه المواد الضرورية وهي الفضلات ، وهذه الأطعمة المطبوخة تكون خالية أيضا من مواد ضرورتها للإنسان كضرورة الفيتامين ، وهذه المواد لا توجد إلا في الأطعمة التي بحالتها الطبيعية ، وهذه المواد وإن كانت تصعب الآن معرفتها إلا أن فعالها قد أصبح معروفا وهي مواد مجرد وجودها يوقف النشاط في بعض التفاعلات الكيميائية التي تحصل في الجسم ، ولولا وجودها لما نشطت تلك التفاعلات . خذ مثلاً ثاني أكسيد الهيدروجين فإنه ينحل مع وجود مادة غير قابلة للذوبان كفلز الفضة بينما الفضة لا يحصل بها أى تغير ، وكذلك خضائر الامعاء تنشط في عملية تحليل الغذاء مع وجود مواد كهذه في الأطعمة بحالتها الطبيعية ، وقد نكون هي أهم عامل في عملية الهضم ، ويستخلص من ذلك أن الإنسان مع كونه أرق مخلوق هو الحيوان الوحيد الذي لا يعرف كيف يلتقي غذاءه ، وكأنه قد فقد من هذه الناحية غريزة البقاء على النوع ، وأكبر شاهد على ذلك استسلامه للسم المزمن الذي يصيبه من التغذية الخاطئة وهو قانع راض عن ذلك ، بينما هو في الواقع يعرض جسمه وعقله للتلف والهلاك بسبب شرهه وجهله وتكون النتيجة التي لا بد منها أنه لا يعيش بأى حال من الأحوال في هذه الدنيا المدة التي هي حق من حقوقه كما عاش آباؤه الأولون .

ومما يجب التلف للصحة ما يتناوله الإنسان من سموم مختلفة كادمان شرب الكحول وغيره من السموم مع أنه لو توفر على العناية بنفسه وهو أكمل مثال لأقصى ما وصل إليه الارتقاء في أنواع الحياة لعاش متمتعاً بالصحة الجيدة إلى أقصى مدة ممكنة ، ولاستقبل الموت بعدها ضاحكاً مستبشراً ، لأن هذه سنة الله في خلقه وإن تجد لسنة الله تبديلاً ، بل هذه هي النتيجة الفسيولوجية للحياة بحسب ما وصلت إليه معلوماتنا وإن كان البعث قد تمكنوا من استنبات الخلايا على مختلف أنواعها ولكنها الخلايا السليمة من العطب ، وكل هذا يزيد مذهبنا إليه من أن الاستهانة بآلة الجسم المحكمة الصنع التي هيئت للقيام بكل عمل من عظام الأعمال يؤدي بها إلى الدمار ، والعناية بها تمكن كل إنسان من حياة طويلة مقرونة بالعافية والرفاهية مع التفوق فيما يباشره الإنسان من الأعمال .

هذا ما أردت نقله من كلامه بنصه ، وأزيد عليه ملخص ما ذكره بعد ذلك ، فهو يقول في صفحة ٦٥ من الكتاب المذكور ما نصه :

(١) « إن [ ميتشكوف ] يقول : إن التعيير يمكن بتدابير تتخذ لتطهير الامعاء . وقال : إن هذه النظرية لا تزال بعيدة لم يعترف بها العلماء . وقال : يجب اجتناب جميع الأطعمة الدسمة من كل نوع ، وخصوصاً اللحم ، وعدم تناول الخمر . ثم قال : ويقول [ ميتشكوف ] أيضاً بأنه إذا وصل الإنسان صحياً إلى متوسط طول العمر الطبيعي ولم يصبه الانحلال الشيخوخي فإنه يكتسب غريزة جديدة وهي غريزة الاستخفاف بالموت ، فيصبح الموت والحياة عنده سيات ، ويستقبل الموت كما يستقبل النوم العادي ، وقد اتفق الكثيرون من البعث على أن لكل نوع من الكائنات طولاً طبيعياً



للعمر ، لأن العمليات الفسيولوجية التي تجري في أجسامها تعين عدد السنوات التي يصل إليها كل نوع من أنواع الكائنات .

(٢) ثم أخذ يشرح في صفحة ٦٩ وما بعدها هذا المقام فقال : « أولاً إن الناس لا يكادون يبلغون سن الخمسين حتى ينحدروا إلى الضعف قلوباً ، ذلك لأنهم لا يملكون زمام أنفسهم ، بل يتركونها فريسة للشهوات ، فلذات الشباب مقرّبات للشيب والهلاك والردى والموت ، فالإنسان يصل إلى قمة الحياة في سن الثلاثين ، ثم بعد ١٥ سنة أو نحوها ينحدر إلى أدنى ثانياً بخطئه وجهله ، وإذا وصل إلى ما بين ٥٠ و ٦٠ سنة تظهر على أسارير وجهه علامات الضعف وانهاك القوى من فعله هو وجهله ولذاته ، وكثرة أغذيته الخاطئة ، ويضعف سمعه وشمه ، وتنبس مفاصله ، ويزداد وزنه من خمس كيلوجرامات إلى ١٠ ويشكو الامساك ، ويشكو تمدد الأوردة في ساقه فيضعف » .

(٣) ثم أخذ في صفحة (٧٠) يذكر ما يجب أن يكون عليه الغذاء . قال مانصه بالحرف في الكتاب الثاني للمجمع المصري للثقافة العامة : « لا أحاول هنا أن أشرح وسائل التغذية في كل أدوار الحياة وإنما أمرت عليها لما ، لأنه ليس من شك في أن لها دخلاً كبيراً في حفظ الصحة ، وبالتالي في التعمير ، وأعيد هنا أنه يجب على الإنسان أن يتناول مواد الأطعمة بحالتها الطبيعية ، لأن الإنسان في مبدأ خلقه لم يجد لحفظ حياته إلا الجذور والفواكه والأعشاب ومنتجات اللبن ، وإذا أراد لما كان يجده في الجراد ، ومن الراجح أنه كان يأكله نيئاً ، فلنكي تتجنب أذى السموم التي تؤذي الأمعاء الغلاظ ، وبالتالي تسمم الغدد الصماء يجب أن تتعلم هذا الدرس البسيط من الإنسان الأول ألا وهو وجوب استعمال المواد الطبيعية غير المطبوخة في غذائنا وهي الخضراوات والفواكه ومنتجات اللبن ، وليس معنى الاقتصار في الغذاء على ما ذكر بل نقصد بهذا أن يشمل غذاؤنا كمية وافرة من هذه المواد مع غيرها ، ولا شك أن الطعام المتوافرة فيه هذه المواد الطازجة يؤدي إلى عدم تعرض الشيوخ إلى أمراض عديدة كالتهاب المفاصل وعسر الهضم وارتفاع ضغط الدم والاكزيما . ولا يخلو من الفائدة أن أذكر هنا بعض ملاحظات عملياً يجب تناوله من الأطعمة في الأوقات المختلفة من اليوم ، فطعام الإفطار يجب أن لا يكون مثقلاً بالأطعمة المتنوعة ، إذ من الواجب على الشخص أن يبدأ نهاره بغذاء خفيف ، لأن الصباح هو وقت اخراج مفرزات الجسم ، فلنأرهم قنأ أعضاء الهضم بالعمل في ذلك الوقت فإن جزءاً عظيماً من نشاط الأعضاء (طاقاتها) يقل ، وفي هذا ضرر بلا شك لأن الأنسجة تغمر بالسائل اللافاوي أثناء النوم في العمل وتلقى إليه بفضلاتها ، وهذه الفضلات يتخلص منها في الساعات الأولى التي تعقب النوم ، ولذلك فإن قاعدة تناول وجبة طعام خفيفة في الصباح تركز على أساس فسيولوجي ، ولهذا السبب كان الأرق مجالاً للنحافة ، وحبذا لو كان طعام إفطارنا مماثلاً لما كان يتناوله آباؤنا الأولون ، وهو لم يكن إلا فاكهة طازجة أو خضرا . وأما الوجبة الثانية فيلاحظ فيها أن تكون خفيفة أيضاً ، لأنه ليس من الحكمة في شيء أن تثقل أعضاء الهضم بالعمل بعد فترة راحة فضلا عن أنه يعقب أكلة نصف النهار عادة بعض العمل سواء كان عقلياً أو جسمانياً ، وذلك عند معظم الناس ، والا اضطر الإنسان إذا أكل أكلة ثقيلة إلى غفوة بعدها وحبذا لو انتفع الناس بأكل الخضراوات باعتبارها من السلطة بدل طهيها ، وبذلك لا تفقد معظم مزاياها ومن المستحسن جداً أن يستعاض بالفاكهة الطازجة عن الخاوي المطبوخة بتاتا ، ولوانبع المبدأ الذي أشرت إليه في وجبة الظهر لا يمكن كل إنسان أن يقوم بعمله بعد هذه الأكلة بغير ملل أو فتور

أشعور بنقل في الدماغ ، أوميل للنوم ، وقبل أن أنسكلم عن طعام العشاء أشير إلى عادة استحدثت في بلادنا وهي عادة تناول أكلة خفيفة وقت العصر ، وهي المعروفة بأكلة الشاي ، وهذه الأكلة ضارة من الوجهة الفسيولوجية ، ولأحاجة لها ألبتة ، لأن المعدة تحتاج إلى أربع أو خمس ساعات لهضم أكلة الظهر ، فإذا فرضنا أن أكلة الظهر تنهى عند غير الموظفين حوالى الساعة الثانية ، وعند الموظفين حوالى الساعة الثالثة فلاشك أن الجهاز الهضمي يكون مشغولا في الهضم حتى الساعة السابعة أو الثامنة ، فكيف يكون حال هذا الجهاز عندما يتناول أكلة أخرى حوالى الساعة الخامسة أو السادسة لاشك أنه يصبح في حال سيئة ، ولا يمكن أن يسمح بهذه الأكلة مهما قيل عن الشاي أو القهوة من أنهما منبهان لذذا الطعم . ولا يغيب عن البال ما يؤخذ معهما من كحك وزبد وغيرهما وأما أكلة العشاء فلا بأس من احتوائها على نوع من اللحوم مع تناول مقدار قليل منه وعلى شيء من الخضار المطهى ، ويجب أن تحتوى كذلك على جانب من الفاكهة ، ويلاحظ أنه أحيانا ما ينشأ عسر الهضم أو الأرق عن تناول فنجان القهوة الذي يؤخذ عادة بعد العشاء ، ولأنه هنا إلى أن الأرق الذي يكون منشؤه مرضا معروفا أو مشاغل ذهنية لاشك في أن سببه عسر الهضم ، وعلاجه لا يكون بتعاطي المنومات ، أو المخدرات ، بل بفحص حالة الجهاز الهضمي وتنظيمها مع تناول دواء بسيط للمعدة . ويلاحظ أنى لم أذكر شيئا عن أنواع الفيتامين وفوائدها ، وقد تعمدت ذلك لأنى وجدت أن لاضرورة لذكر شيء عنها مادمت أحضرت على تناول المواد الغذائية بحالتها الطبيعية ، وهي المصدر الوحيد للفيتامين . ومن الأضرار البليغة التى تنجم عند متوسطى العمر ، أو الشيوخ من الإفراط في التغذية عجز الكبد عن القيام بتنقية الدم الذى يمر فيها فينشأ عن ذلك التسمم العام الذى تشاهد أعراضه عند المصابين بعسر الهضم بسبب الإفراط في التغذية فضلا عن التأثير السيئ الذى يحدث للكبد وللجسم عموما من تعفن وتخمر الغذاء الزائد عن الحاجة في الجهاز الهضمي ، هذا علاوة على الاضطراب الذى يحدث في الغدد الصماء ، ويظهر أثر ذلك جليا ، وخصوصا عند المرأة ، ولا سيما في سن اليأس لأنها تكون قد فقدت الإفراز الداخلى للمبيضين ، والمسألة لا تتعلق بما تطيقه المعدة وما تقدر عليه من العمل ، بل انها أيضا مسألة ما تيسر للأجهزة المخرجة قذفه من الجسم ، فلو فقد الجسم التوازن في إجراء كل هذه العمليات لما أمكنه أن يقضى مدة طويلة في الحياة وهو سليم ، ولتأثرت جميع الأجهزة الهامة كالدورة الدموية والجهاز البولي ، ولا ينجواى جهاز آخر حتى الجلد نفسه من الاختلال ، وقد عرف العلم حديثا بعض الخصائص الطبيعية المهمة بعد أن درست بعناية ، ومنها تأثير الجلد بضوء الشمس ، وقد أصبح فنا خاصا يعرف بالمعالجة بالشمس وصار المعتقد الآن أن لضوء الشمس علاوة على وظيفة تنقية سوائل الجسم من المواد السامة خاصية تنبيه عملية الاستحالة الغذائية ، أو الميتابولزم بدرجة أنه يعيد نشاط الأنسجة المريضة إلى العمل الصحيح . وغنى عن البيان أن ضوء الشمس هو المطهر الطبيعى الذى يقتل الميكروبات بغير شك وهذه الخاصية تمتاز بها الأشعة التى فوق البنفسجية المنبعثة من طيف ضوء الشمس ، وهذه الأشعة من زايا أخرى ، منها أنها تعين على تمثيل المواد الجبرية بمقادير وافرة في الجسم كما أنه يستعاض بها عن عدم اتزان الغذاء نتيجة نقص الفيتامين فيه ، فيتضج من ذلك أن فعل هذه الأشعة متساو مع إفرازات الغدد الصماء ومع الفيتامين ، هذا ولاشك في أن ما تحدثه من صبغ الجلد إنما هو ذو علاقة أكيدة بالغدد الصماء ، وخصوصا الغدد التى فوق الكلى والغدد النخامية . وقبل أن

ننتقل من موضوع الغذاء أجدني في غير حاجة إلى أن أتكلم عن الخرج وعن أثرها في منع التعبير لأن هذه الأضرار أشهر من أن تذكر ، وجدير بي أن أشير بكلمة عجي إلى باقي أجهزة الجسم ، وخير الطرق للمحافظة على سلامتها إذ لا يحتمل المقام الاطالة ، فأبدأ بالرئتين ولانزاع في أن خير ما يجدد قوتها هو الهواء النقي ، وهو لها بمثابة الحمام للإنسان ، لأنه بالاجدال العامل الأقوى في تجديد شباب كل عضو من أعضاء الجسم من المخ حتى الجلد . ومما يؤسف له أن كثيرا من مواطنينا الأعزاء لا يقدرون هذه الأداة الفعالة حق قدرها ويهملون الانتفاع بها مع أنها في متناول الجميع هبة من الله تعالى بلا عوض . وأما الجهاز العصبي وجوهره المخ ، فهو للإنسان بمثابة الطبقة الحاكمة من الشعب تدبر أموره ، فتدبر عليه المنافع ، وتدبر عنه العوائل ، وأكبر أعداء هذا الجهاز اثنان وهما القلق والمشغل الفكرية اذا تمكنتا منه كانت نتيجة ذلك الحتمية قصر العمر . أما الترياق الفسيولوجي لهذه الحالة فهو اجراء التمارين العضلية الشديدة لتجديد نشاط الأعصاب ومنع طاقها من فقدان دون الاستعاضة عما يفقد منها بقدر جديد من الطاقة ، ومادام جهازنا العصبي سليما نستطيع أن نتغلب على جميع الأمراض الجسمية والنفسية بقوة الإرادة » اهـ

(٤) ثم أخذ يشرح في صفحة ٨٠ وما بعدها [ منحدر الحياة ] فقال : « مهما عني الانسان بصحته ومهما كان قويا متين البنية فلا شك انه يأتي عليه يوم يشعر فيه بأنه يهوى في منحدر الحياة جثمانيا لأنه ليس من الضروري أن تتناقص القوى العقلية كلما تقدم الانسان في السن ، ويمكن تعليل بقاء القوى العقلية سليمة حتى سن متقدمة أوحى نهاية الشيخوخة بأن المخ يستمر نشطا على حساب العضلات والمفاصل وباقي الأنسجة التي كلما تقدمت السن قل عملها وما يبقى من نشاط في جهاز الدورة الدموية تنصرف طاقته إلى العضو الأكثر احتياجا إليه ، وهو العضو الذي يستمر نشطا حتى آخر الحياة ألا وهو المخ ، وهناك تعليل آخر وهو انه بما أن المخ آخر ما يتم نموه في الجسم فطبعيا يكون آخر ما يتأثر بالشيخوخة ، ولذلك نجد أن الأوعية الدموية التي تكون تامة النمو عند الولادة هي ضمن أجزاء الجسم التي تبدأ في التأثر بالشيخوخة ، ولكن مع ذلك فالمخ يصله نصيبه من الدم كاملا بينما يكون قد قل نصيب أجزاء أخرى من الجسم ، وكلما استبقى مجرى الدم في حالة معقولة من المقاومة كلما كانت قوى المخ لا تتأثر ، وعندئذ يأتي دور استحالة الأوعية الخفية عادة متأخرا ، وهذه الاستحالة تنشأ عن تأثير السموم إما على جدران الأوعية أو على الدم كما سبقت الإشارة إلى ذلك . وليس معنى ذلك أن النشاط المخي لا يتأثر بدور الهبوط الجثماني بل بالعكس ، فإن هذا النشاط تتغير طبيعته ، ولو أن هذا التغير يتناول نوعه أكثر من مقداره (طاقته) فالإنسان بمجرد ما يجد نفسه في المنحدر ياتي الخيالات ظاهريا ، ولو أنه يستبقى ما اعتبره المثل الأعلى من أفكاره وتفقد الشهوات والعواطف حدثها حتى ان يهرج مظاهرها كالغزل وروايات الحب لا توقظ شعوره كثيرا ، وكذلك لا تستهويه تلك الجاذبية العجيبة التي انفرد بها الجنس اللطيف ، ورغم ذلك يستبقى نشاطه الذهني ، فأمام هذه الاعتبارات ، ونلقاه هذه الميزة التي اختص بها المخ من احتكار جزء من الدم له في مؤخر الحياة أصبح على الانسان لزما أن يستفيد من هذه الميزة فلا يترك قواه العقلية يعلوها الصدا ، وعليه أن يستمر عاملا في هذه الحياة لأن التجارب أثبتت أن الرجل الذي ينسحب من ميدان العمل مبكرا يموت مبكرا ، وهذا بعكس النظرية التي كانت سائدة بأن الاستعمال التام لأي عضو ينهكه ، ويسبب الاسراع في استحالته ، ولكن قد لوحظ أن أغلبية سعاة البريد

يندر أن تصيبهم أمراض في أطرافهم السفلى كما يندر أن يصاب الذين يشتغلون أشغالا عقلية بالتهاب سحائي ، ولكن هذا لا يمنع من أن الذين أسرفوا في استعمال بعض أعضائهم يكونون عرضة لأن يجنوا عواقب سيئة نتيجة إسرافهم ، أما المخ فغالبا أنه لا يمكن أن يحول به الاجتهاد لدرجة تسبب انحطاطه قبل الأوان ، وهذا بطبيعة الحال لا يصدق على العواطف ولكن يقصد به النشاط العادي ، لأن الانسان قد يدفع نفسه إلى التفكير لمدة طويلة ولكن يأتي وقت لا يتيسر له فيه أن يستمر في التفكير ، فحينما يستمر المخ في حاجته إلى نصيبه كاملا من الدم تكون حاجة معظم باقي أعضاء الجسم للدم قد قات وهذا واضح فيما يتعلق بالعضلات والعظام والمفاصل ولكنه يحتاج إلى شيء من الايضاح فيما يتعلق بأعضاء الهضم ، وتعليله هو أنه بضمور العضلات تقل كفايتها للتصرف في منتجات الهضم ، ولذلك وجب أن تخفض كمية المواد الغذائية التي تدخل الجهاز الهضمي ، وهذا يقرب معتقد أسلافنا رأسا على عقب من جهة تغذية الشيوخ لأنهم كانوا يعتقدون وجوب تغذية الشيوخ بسخاء ، وكانوا يظنون أن مثل ذلك كمثل الدعائم التي تقام لتوطيد الجسم الشائع الهش الهيكل ، ولا شك أن هذا المبدأ كان أضرا ما يكون بالشيوخ ، لأن الاعتدال في الغذاء ليس لازما للشيوخ حسب ، بل للناس في كل الأعمار . ومما يشاهد أثناء الهبوط في منحدر الحياة تساقط الأسنان ، وهذا أمر غير طبيعي ، وحدث ذلك نتيجة لازمة للإفراط في أكل اللحوم والمواد السكرية وعدم العناية بالأسنان بعد هذا الإفراط ، وهاهو السير اسحق نبوت لم يفقد إلا سنا واحدة في سن الخامسة والثمانين ، وكذلك ضعف الابصار ، وهو معظم الأحيان ينشأ عن تدهور العدسة ، ويبدأ ما بين سن ٤٥ و ٥٠ سنة ، وضعف العضلة الهدبية ، وقد يصحب تأثر جهاز الابصار في هذه الفترة من الحياة ظاهرة فقد حدة السمع ، حتى انه يندر وجود شخص يتمتع ببصر وسمع سليمين بعد سن الستين . وضعف السمع ينشأ عادة بسبب ضمور العصب السمعي وان كان تحصل أحيانا بأسباب أخرى كتثبيت عظم الركاب أو إصابة صماخ الأذن الظاهرة بالاكرز بما القرسية ، أو تجمع الصملاخ به كما قد يصابون بطنين الأذن أو بسماع أصوات داخلية متعددة وهذا يسبب لهم مضايقة كبيرة ، وكذلك قد يشعرون في هذا الدور بدوخة قد تكون بسبب مرض في الأذن ، أو ورم في المخيخ ، أو غير ذلك من الأمراض المخية ، أو أمراض العيون ، وقد أشرنا إلى الدوخة الوقنية التي يصاب بها الشيخ عند قيامه من الفراش ، وقلنا ان سببها ناشيء عن ضغط الدم الذي قد يرتفع بسبب انقباض الأوعية الدموية من تصلب الشرايين ، وكما انحدر الانسان نحو نهاية العمر كما ظهرت علامات ذلك على الجلد وملحقاته حيث يجف الجلد ويرق ويصير أمارس وتظهر فيه تجعدات ، فيتقضم الوجه بسبب اختفاء النسيج المرن والنسيج العضلي ، وهذا يدل أيضا على أن الأوعية الشعرية تقل في الحجم والعدد حيث تضرر بسبب عدم الاستعمال ، فتتأثر تغذية الجلد ، ويعقب ذلك اصفرار أو شحوب اللون ، وان كان يشاهد عند بعض الشيوخ نوع من التلون في جلودهم ، ويظن البعض أن هذا انذار بمرض خبيث ، كما ان هذا التلون ربما يكون وسيلة للوقاية من بعض الأشعة التي في طيف الشمس حتى انه اذا ظهر هذا التلون يكون ذلك دليلا على نقص فسيولوجي في الانسان ، وهذا النقص خطري في بلاد المنطقة الحارة ، وقد يفسر هذا النقص بعدم كفاية الغدد التي فوق الكلى ، أو الغدد النخامية ، وقد يكون الخش محاولة مبكرة لدفع الجلد فيحل محل التلون ، ويسبب هذا التلون أيضا التعرض للشمس ، وقد

يستعاض عن عدم التلوين بنمو الشعر غير الطبيعي ، لأن اللون في جلد الانسان يقوم مقام الشعر في القردة من حيث الوقاية ، ولذلك يتأثر الجلد كثيرا خصوصا في زمن الشيخوخة في الذين ليس عندهم استعداد لحدوث التلون في جلودهم ، أولمؤ الشعر فيها بغزارة غير طبيعية .

(٥) ثم أخذ في صفحة ١٢٢ وما بعدها يشرح وسائل تجديد الشباب وإطالة العمر ، فعول كثيرا على نظام الغذاء ، وقال : « قد ألمعنا في كلماتنا السابقة إلى وسائل تجديد الشباب وإطالة العمر ، وأتينا على بعضها ، وتحقيقا للغرض الذي حدا بنا للعناية بهذا الموضوع أفرد هذا الفصل لجمع شتات هذه الوسائل . تنقسم الوسائل التي نحن بصدددها إلى ثلاثة أقسام ، والقسم الأول يتعلق بالمحافظة على الصحة الشخصية منذ يوم أن يتنسم الانسان أول نسمة في الحياة حتى سن الكهولة ، والقسم الثاني موضوعه طرق العناية بالكهولة في أطوارها المتأخرة وبالشيخوخة ومنذراتها ، ويبحث القسم الثالث في وسائل مداركة مضاعفات الشيخوخة ، وسنتوج هذه المواضيع ببسط أثر المحافظة على الصحة العامة في تجديد الشباب والتعمير — :

(١) فأما وسائل المحافظة على الصحة الشخصية حتى سن الكهولة فهي عديدة ، وقد قنات بحثا ووضع فيها المختصر والمطول من المؤلفات ، ورجح صوت رجال الصحة والاجتماع في تلقين مبادئها للناس كافة في قطرنا المحبوب أوفى غيره من الأقطار ، وقد أخذ الكثيرون من أفراد المجتمع في اقتطاف ثمار هذا المجهود العظيم حتى أصبح كل بيت لا يخلو من مبشر للصحة . ومما أذكره بالاعجاب أنه يغلب في بلادنا أن يكون هذا المبشر من أبنائنا الشباب فتيانا وفتيات ، ولذلك سأذكر بعض المخالقات البارزة لسن الطبيعة ، وألحقها بطرائق معالجتها فأقول : —

(١) يشمل هذا النوع من الوسائل ، وهو الذي له الفضل الأكبر في إطالة العمر العناية بالصحة الشخصية من كل ناحية من نواحيها كالانتفاع بالهواء النقي ، وقضاء معظم الوقت في الهواء الطلق والعناية بالثياب من حيث تناسبها مع الفصول ، والاهتمام بأمر الطعام والتغذية من حيث النوع والكمية ، والامتناع عن اعطاء الفرصة لأي سم كان من التسرب إلى الجسم سواء كان من الداخل أو الخارج ، ومعنى ذلك العناية التامة بالنظافة الشخصية ، فما أحكم الحديث الشريف القائل « النظافة من الإيمان » لأنه جمع فأوعى ، ومن الوسائل الهامة والموصلة إلى إطالة العمر بلا نزاع الوقاية من الأمراض السرّية ، وكذلك العناية بالأسنان واللثة التي تسرب عن طريقها سموم جمة بسبب العفونة التي تنشأ عن فضلات الطعام الراسبة عليها ، أولمتخللة لها ، ولا يفوتنا أن ننبه إلى فائدة الحركة سواء بالاستعانة بأي نوع من أنواع التمرينات الرياضية ، أو الصلاة ، أو الألعاب ، وكذلك نوجه الأنظار إلى مزية الرياضة العقلية أمان القراءة الصحية ، وهذه تتنافى كلية مع القصص المحشوة بسافل المعنى وبذى العبارة ، أو بوسائل أخرى ، إذ من الرياضة العقلية أيضا بعض الألعاب التي تحتاج لفكر أو روية ، وهذا بطبيعة الحال بغير إفراط أو إجهاد . ومن الأمور البدئية حاجة الجسم والعقل إلى الراحة ، وأهم وسيلة لذلك هي النوم الهادئ ، والأهم من ذلك كله أن يكون للانسان عمل يقوم به يعود نفعه عليه وعلى بني جنسه ، لأن البطالة من موارد التهلكة للجسم والعقل .

(٢) ومما يساعد كل المساعدة على إطالة العمر الاقلال من تناول الأطعمة المركزة أو المطهية التي تعمل على هدم كيان الجسم ، وأن يعود الانسان إلى الأغذية الطبيعية التي هي أنسب الأغذية له



ولذلك أرى أنه جدير بي أن أذكر ( بعد أن أوجلت فيما سبق لى قوله ) موضوع العناية بالغذاء والتغذية بشيء من التفصيل الذى يسعه المقام ، لأن إهمال هذا الأمر الحيوى عام بين كل الطبقات وعند جميع الأمم . إن فائدة مواد الغذاء التى تؤكل بحالتها الطبيعية تظهر بجلال فى تأثير باشيلس القولون العادى عليها ، لأن فعل هذا الباشيلس يتوقف على طبيعة المزرعة التى يتناول غذاءه منها فإذا زرع على بروتين حيوانى كما يحصل فى حالة أمعاء الإنسان فإنه يحدث تعفنا ويصبح من ألد خصوم الإنسان ، ولا يقتصر تأثيره على الأمعاء الغلاظ وحدها ، بل يؤثر أيضا تأثيرا شديدا فى الأحشاء المجاورة ، ويسبب لها أمراضا عدة مع أنه إذا زرع هذا الباشيلس القولونى العادى فى مزرعة تحتوى على مواد نشوية أو خضرية فإنه لا يحدث تعفنا ويتحول إلى جرثومة تخمرية : أى ينقلب من خصم لدود إلى صديق نافع ، فتى عرفنا هذا أمكننا أن نحمل عضلة كيفية توصيل المواد النشوية والخضرية من الفم حتى الأمعاء الغلاظ بدون أن تتأثر أقل تأثيرا بالعصارات المختلفة التى فى القناة الهضمية ، وأظن أن الجواب على ذلك قد أصبح جليا ، وهو أن تؤكل هذه المواد الغذائية بحالتها الطبيعية مغلفة بغلافها السيلولوزى الذى لا تنفذه عصارات الهضم ، والذى يمكن هذه المواد من الوصول إلى مقر باشيلس القولون العادى ، ومعنى هذا أن الذين يعيشون على الأغذية الطبيعية لا يشكون ألبتة من كسل الأمعاء ، وكما أدركنا حكمة ذلك فى الحيوان يجب أن ندرك حكمة الصرم الذى تصومه الحيوانات الدنيا ، فهو يحفظ التوازن بين دخول الجسم وخرجه ، وعندما يصاب الإنسان بالبول السكرى يكون دخل جسمه أكثر من خرجه ، والصوم يعادل بين ذلك ، ولكن هناك أصرا مهما يجب الالتفات إليه عند ممارسة الصوم وهو التأكد قبل ذلك من عدم وجود فضلات فى الجزء الأسفل من الأمعاء الغلاظ حتى لا تمتص الأمعاء المذكورة هذه المواد أثناء الصوم ، ولذلك يجب أن يسبق الصرم بمسهل ، وهناك أمر آخر لا يقل أهمية عن الأول وهو أن يكون الصوم صوما مطلقا بحيث لا يتعدى الشفتين إلا الماء ، لأن الإنسان إذا تناول شيئا من الطعام كان ذلك محترضا له على طلب المزيد ، أما إذا اقتصر على الماء دون غيره ، فإن شهوة الأكل تنعدم عنده ، ولا سيما إذا كان الصائم دائم الاشتغال أثناء الصوم عقلا وجسما ، لأن شهوة الطعام تقل بسرعة فى اليوم الثانى ، وفى اليوم الثالث تنعدم بتاتا . وقد قيل : أنه يحسن بالصائم أن يلازم فراشه أثناء الصوم ، ولكن إذا كانت صحته جيدة فالأنسب أن يمارس عملا أثناء أولى من ملازمة الفراش كالرضى والضعاف العاجزين ، والأمم الثالث الواجب على الصائم الالتفات إليه هو أن يكتفى عند الإفطار بوجبة صغيرة فى اليوم الثالث ، وبوجبتين أقل من هذه فى اليوم الرابع . والمتفق عليه أن صوم ثلاثة أيام كاف لإعادة التوازن . هذا والصوم يمارسه الحيوان غريزيا عند مرضه . وقد عاينا قبل : « جوعوا تصحوا » . ومن ذلك يمكننا أن ندرك أهمية الصوم فى تصحيح الأبدان ، لأن غريزة كهذه ما كانت لتوجد فى الحيوان إلا ولها أساس فسيولوجى متين ، ونحن أولى بالانتفاع بها ، وقد دلت التجارب على أن فوائد الصوم لا تقتصر على تخليص الجسم من بعض أنواع التسمم المهددة لحيات الإنسان بل هى توظف فيه روح الهمة والنشاط ، ربما أن الصوم قد يحدث أحيانا نوعا من التسمم الحصى ، فينصح عادة للصائمين بتناول كمية وافرة من سائل قلوى أثناء الصوم كماء فبشى .

(٣) وتوجد وسيلة أخرى لحفظ التوازن بين دخول الجسم وخرجه ، وهى الاستحمام بالماء الدافئ

ويكون مصحوباً بالتدليك ، أو بالمعالجة بالكهرباء ، لأن هذا الاستحمام سواء كان بالماء الساخن أو بالهواء الساخن ، أو بالبخار الساخن ، أو بالحرارة المشعة ، يكون من نتيجته رفع حرارة الجسم نحو درجة مثوية أو أكثر ، فينشأ عنها احتراق في الدم كان لا يمكن الحصول عليه إلا بإصابة جية أو برياضة عضلية ، ولذلك كثيراً ما يقال ، وأعله قول حق : إن الإنسان تتحسن صحته من إصابته بحمى عما كانت عليه قبلاً ، ولا شك أن سبب ذلك هو الاحتراق الذي أحدثته الحمى في المواد التي كانت مخترنة وغير محترقة في الجسم ، ولذلك يجب الحث على الاستحمام بالشمس الذي يباشر الآن كثيراً ، وأظن أنه لم يحسن الوقت بعد للحكم على قيمة الاستحمام بالأشعة فوق البنفسجية ولكن مما لا شك فيه أن الفوائد التي تجني من التعرض لهذه الأشعة تنشأ عن ازدياد الاحتراق وتنبه الاستحالة الغذائية (ميتابولزم) .

(٤) ولكن الوسيلة التي تفضل كل هذه الوسائل الصناعية هي الوسيلة الطبيعية وهي تنبيه الاستحالة الغذائية ، وحبذا لو أمكن الحصول على هذه الاستحالة بمقادير كافية بواسطة الرياضة العضلية التي لا تفضلها أية واسطة أخرى ، لأن فائدة هذه الرياضة بما تحدثه من التأثير الحسن على الجهازين العصبي والهضمي لا تعادلها فائدة أخرى من حفظ الصحة ، إذ ليس من شك في أن الإفراط في الغذاء الغير صالح ، وعدم قيام الأشخاص الذين تضطرتهم أعمالهم للجلوس بالقسط الكافي من الرياضة البدنية هما من أخص العوامل التي تجلب الأمراض المزمنة لهؤلاء الأشخاص ، وهي الأمراض التي تهدد حياتهم بالخطر . ويمكن لسكان المدن أن يمارسوا الرياضة البدنية في منازلهم باستعمال الآلات الخاصة بها ، غير أن ممارسة هذه الرياضة في الهواء الطلق أفضل بكثير ، وأحسن أنواع هذه الرياضة هي المشي ، ويمكن لكل إنسان أن يمشى يومياً من أربعة إلى خمسة كيلومترات وأخص من يجب عليهم مباشرة هذه الرياضة هم الأشخاص الذين لا تتاح لهم الفرصة لعمل تمرينات رياضية منتظمة ، والعائق الوحيد الذي يمنع بعض الناس من ممارسة هذا التمرين الطبيعي هو أنهم لا يعرفون كيف يمارسونه فالمشي الصحيح ليس الغرض منه مجرد جر الأرجل بل الغرض منه أن يمشى الإنسان وقوامه منتصب وصدره مرفوع إلى الأمام كما يفعل الجندي في مشيه حتى تنقبض عضلات جذر بطنه والاضاعت الفائدة المرجوة من المشي ، ويجب دائماً على الإنسان أن يمارس بعض التمارين التي تقوى عضلات البطن ، لأنها إذا استرخت نشأ عنها هبوط الأحشاء ، وهو من الأسباب الرئيسية لكسل الأمعاء وأمراض أخرى ، وهذه التمارين يجب أن تمارس بانتظام كل صباح ، ومثلها في ذلك مثل حمام الصباح وتسويك الأسنان .

(٥) ويحسن بنا أن نشير أيضاً إلى المشروبات الروحية التي لا تروى أى ضرورة لتعاطيها حتى ولو كان ذلك لا يقاظ شهوة الطعام ، لأن تأثيرها في هذه الحالة هو أحداث تهيج في المعدة ينشأ عنه ميل كاذب لتناول الطعام ، وهذا يؤدي إلى عسر الهضم وأمراض أخرى .

(ب) — وأما وسائل العناية بالكهولة في أطوارها المتأخرة ، وبالشيوخوخة ومنذراتها ، فقد أشرنا أيضاً إلى الكثير منها فيما تقدم . انتهى ما أردنا ذكره من كلامه .

وهنا أخذ يذكر الأمساك وقصور السكلي عن القيام بوظيفتها ، وأخذ يذكر الجلد ووظيفته إلى أن قال : « وقد أشرنا في فصل سابق إلى المعالجة بأشعة الشمس الطبيعية ، وأشعتها الصناعية ، وأكثني بأن أذكر هنا بعض أخطار المعالجة بالشمس والطرق للوقاية منها ، وهذه الأخطار هي

ضربة الشمس (الرعن) والصهر والحرق ، ويحدث الأول بسبب الرفع الموضعي لدرجة حرارة المخ والجسم جميعه بينما ضربة الحرارة تحدث بسبب رفع حرارة الجسم فقط ، وإذا ارتفعت حرارة المخ لدرجة عالية نشأت عن ذلك الوفاة ، ولهذا السبب وجب وقاية الرأس والعمود الفقري من حرارة الشمس ، ويسبق ضربة الحرارة عادة خال في عملية إفراز العرق التي يتوقف عليها تنظيم حرارة الجسم ، ولا سيما في البلاد الحارة ، ويساعد على حدوث الرعن الإصابة بمرض آخر ، وتعالج هذه الحالة بالتعريق الصناعي ، وتحصل ضربة الحرارة في الجو الجاف الذي لا ريع فيه ، وكذلك في الأماكن المرتفعة الحرارة ، وقد يتولد عن الإصابة بالحرق استعداد للحالتين السابقتين بما يحدث عند الانسان من ضعف المقاومة بسبب امتصاص متخلفات الأنسجة المحروقة ، أما معالجة الحروق الناشئة عن حرارة الشمس فلا تختلف عن الحروق الناشئة عن أسباب أخرى ، وبعض الأشخاص لا يطبقون المعالجة بالشمس كالصغار والمسنين والمصابين بأمراض عضوية مزمنة ، وأولئك الذين يطبقون المعالجة الشمسية يتمتعون بمناعة ممتازة من البرد والتهابات الجهاز التنفسي ، ولهذا السبب حبذا لو انتفع كل مواطنينا بالشمس الجيلة التي أنعم الله بها على بلادنا ، والتي لا يوجد شك في أنها لو استعملت بحذق لكانت من الأسباب العظيمة لتقوية بناء الجسم وإطالة العمر . أما أهمية ضوء الشمس فهي في حيازته لخاصية قتل الجراثيم ، وهو ما تقوم به الأشعة التي فوق البنفسجية الموجودة في الطيف الشمسي ، هذا عدا عن فعالها في تنشيط ميتابولزم الكالسيوم ، وهذه الأشعة علاقة متينة بالفيتامين ومفرازات الغدد الصماء كما تكسب الدم خاصية إهلاك الجراثيم كما كشف عن ذلك الاستاذ [ ليونارد هل ] .

(٦) ثم أخذ يشرح جام الرئة فقال في صفحة ١٣٣ ما يأتي : « إن الرئة لا تقوم بوظيفة اخراج الحوض الكربونيك خصب بل هي عند الضرورة تخرج سواه ، ولذلك تشم رائحة الكحول في زفير المخمور ، والطريقة الوحيدة لتطهير الرئة هي التنفس العميق ، أو التنفس أثناء المارئة البدنية في الهواء الطلق ، وبهذه الطريقة يجدد شباب كل عضو من الأعضاء من المخ حتى الجلد » .

(٧) وهنا شرح أمراضا كثيرة لا داعي لذكرها ، ولتقتصر على ما يفيدنا . قال في صفحة ١٥٣ وما بعدها ما يأتي : « فالمحور الذي تدور حوله كل جهود رجال الصحة هو سعادة الانسان ، أو بالتالي إطالة عمره في صحة وعافية لأنها والسعادة توهمان ، وبديهي أن السعادة ليست في وفرة المال خصب ، بل هي السلام وهدوء البال ، وأهم أركانها التمتع بالصحة ، ونعمة الصحة تدعم حياة الانسان اذا توافر له الغذاء الجيد النوع الكافي المقدار ، وما يقيه من الملابس والمسكن ونحو ذلك ومتى رزق النسل الصحيح البنية ، وهذه هي المسائل الأربع الهامة التي تبذل المصالح الصحية المختلفة في أنحاء العالم كل جهودها لتوفيرها لبني الانسان ، ولذلك كان من رأي أن العناية بالصحة العامة هي الوسيلة الأولى لإطالة العمر ، لأنه لا توجد عقبة في سبيل طول حياة الانسان اذا توفرت لديه كل هذه الوسائل . وكل من يعيش الناس سعداء آمنين مطمئنين لو أنصح لكل منهم أن يحصل على نصيبه من الوسائل الآتية الذكر ، وكيف كانت تكون حال الدنيا من الهناء اذا طالت أعمار بنينا إلى الحد الأقصى في صحة ورخاء ، لاشك انهم كانوا يستهينون بالموت ، بل وينظرونه كحادث طبيعي لا بد من حلوله في أوانه ، وحقا اننا اذا أدركنا هذه الغاية بلغنا منتهى ما يمتنى الانسان في الحياة ، ولا يخفى أن طول الحياة في هذه الحالة سيكون خيرا وسطة لتقدم الانسان ، وذلك لا يمكن

زيادة الانتاج العلمى والأدبى والمادى ، ولا سيما فى سنّ النعقل والزمان ، والله المستعان على ما فيه خير الأمة والانسانية جمعا .

« أصبح التعمير أو اطالة العمر من الامور العلمية بعد أن كان من الأمنى والأحلام التى لا يربحى أن تحقّقها الأيام ، وقد وضعت له أسس وقواعد أملاها العلم وأيدها الاختبار ، وخصوصا علم الصحة العامة الذى تقدّم تقدّما كبيرا فى السنين الأخيرة ، لأنّ التعمير من أهمّ ما يعنى به رجال الصحة فى كافة البلاد ، حتى انه بفضل جهودهم أصبح متوسط عمر الانسان فى العصر الحديث أطول منه فى العصور الغابرة فلقد زاد متوسط ما يعيشه الانسان فى الخمسين سنة الأخيرة نحو اثنتى عشرة سنة » انتهى ما أردنه شرحا وتلخيصا ونقلّا من كلام طبيبنا مواطننا [ شاهين باشا ] ولقد أجاد وأفاد ، وبأن أن كلامه كله يرجع أهمه إلى الأغذية والأهوية والمشى والتربينات العضلية .

ولا جرم أن الأغذية هى ما حولنا من المخلوقات ، وقد قال : « إن الشمس نافعة للصحة » فباجتماع التمرين العضلى مع ضوء الشمس على الجسم مع الأغذية الطازجة التى لا افراط فيها يعيش الانسان عيشا هنا وهو سعيد فى نفس هذه الحياة .

واعلم أن الاستحمام بالشمس تقدم فى ( سورة يونس ) عند آية : « هو الذى جعل الشمس ضياء » الخ وقد تقدّم الكلام على الأغذية ونحوها فى سور كثيرة ، فى سورة البقرة عند آية : « أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير » وفى سورة الأعراف عند آية : « وكلاوا واشربوا ولا تسرفوا » وفى أول الحجر عند الإشارة إلى آدم ، وفى سورة [ طه ] عند ذكر آدم أيضا ، وفى سورة الشعراء عند آية : « وإذا مرضت فهو يشفين » وفى سورة [ ص ] عند آية آدم فى آخرها وعند ما قبلها فى قصة داود وفى سور أخرى . اللهم إني أحمدك جدا كثيرا ، لأنك علمتنا ما لم نكن نعلم ، وهديتنا الصراط المستقيم ، وأزلت عنا الحجب المانع من سعادتنا وهنائنا فى نفس هذه الحياة الدنيا ، وأريتنا تفسير قولك فى كتابك العزيز : « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ، وفى السماء رزقكم وما توعدون » فوجدنا هناك تألّفا واتحادا بين الخضر والفاكهة مما فى الأرض مع ضوء الشمس على صحة أجسامنا . والى هنا تمّ الكلام على اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « وفى الأرض آيات للموقنين » وما بعدها . والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الخميس ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٣١ .

### اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » وما بعدها

كتب قبيل الفجر ليلة السبت ١١ ابريل سنة ١٩٣٢ م

تفسير : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » الداخلة فى قوله تعالى : « إن المتقين فى جنات وعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ، كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، وبالأسجار هم يستغفرون ، وفى أموالهم حقّ للسائل والمحروم ، وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ، وفى السماء رزقكم وما توعدون ، فو ربّ السماء والأرض انه لحقّ مثل ما أنكم تنطقون »

كتبت هذا العنوان بحضور صديقى العالم الذى اعتاد أن يناقشنى فى هذا التفسير ، فقال : ماذا تريد من أمر النفس اليوم والتفسير مشحون بعجائبها ؟ فقلت : إن العجائب التى سأذكرها هنا لم يسبق لها نظير .

فقال : وكيف ذلك ؟ فقلت : إن في النفس لدقائق وبساتين ، وجنات وعيونا ، وبهجة غزل عنها الناس . فقال : الناس أجمعون ؟ فقلت نعم أجمعون . فقال : إني أخاف من إطلاق هذا القول ، إن علم النفس اليوم ارتقى ارتقاء مدهشنا ودخل في تربية المدارس في هذا القرن بهيئة عجيبة . فقلت : أما سأبرهن لك في هذا المقام على ما أقول وسأريك أولا حقائق النفس وبساتينها وأشجارها وهيئة تسر الناظرين ، ثم أقفي ببيان أن هذه الحقائق انتفع الناس بظلمها الظليل ، فتفوقوا ظلالها ، وعاشوا في مناكبها ، وذلك في علوم الفلك والطبيعة والنبات والحيوان والمعادن وجميع الصناعات ، وأبين ذلك بالأشياء الواضحة ، ثم أثبت بأن الأمم كلها وإن استظلت بظل تلك البساتين في العلوم والصناعات لم تجن الثمرات ولم تتناول القطوف الدانية من الغصون الوارفة في تلك الأشجار الباسقة ، بل هم لا يزالون مفتونين بالظواهر ، مشغولين عن نفوسهم ودراساتها ، ولو أنهم كما درسوا نظام هذه الدنيا درسوا نفوسهم أيضا من حيث نظامهم لبنوا سياستهم في الحياة الدنيا على نظام أقل ما فيه أنه يشبه نظام النحل أو النمل أو الأرضة ، ولكنهم إلى الآن جهال مبعدون عن هذه السعادة في أرضنا هذه وهم غافلون . فقال : والله إن هذا الكلام عليه مسحة الحق ، لقد شاقني هذا البيان أن أسمع منك فقلت إنها فصول ثلاثة الفصل الأول منها في الجذر والتربيع والمتوالية العددية والهندسية والكسر الدائر ونحوها . ثم قلت : انظر هذه الحقيقة :

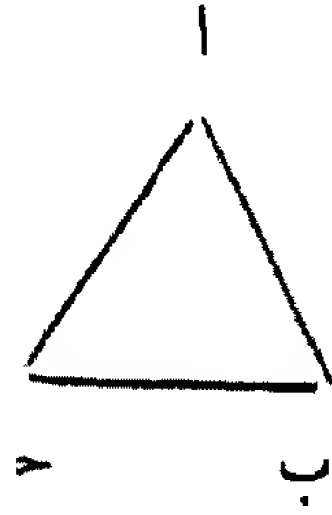
### الجذر والتربيع

قواعد . ارتفاعات . أوتار . أعداد . رواسم	٤ من ١٢	١٢ من ٢٤	٢٤ من ٤٠	٤٠ من ٦٠	٦٠ من ٨٤
٨	١٢	١٦	٢٠	٢٤	٢٤
٤	٤	٤	٤	٤	٤
٣ و ٢	٥ و ١	٤ و ٣	٤ و ٢	٤ و ١	٤ و ١
٥ و ١٢	١٣ و ٢	١٦ و ٤	٢٠ و ٤	٢٤ و ٤	٢٤ و ٤
٧ و ٢٤	٢٥ و ٣	٢٥ و ٤	٢٥ و ٤	٢٥ و ٤	٢٥ و ٤
٩ و ٤٠	٤١ و ٤	٤١ و ٤	٤١ و ٤	٤١ و ٤	٤١ و ٤
١١ و ٦٠	٦١ و ٥	٦١ و ٥	٦١ و ٥	٦١ و ٥	٦١ و ٥
١٣ و ٨٤	٨٥ و ٦	٨٥ و ٦	٨٥ و ٦	٨٥ و ٦	٨٥ و ٦
هذه فروق متساوية في الارتفاعات	هذه فروق متساوية في الأوتار				

هذه هي الحقيقة الغناء . فقال : اللهم إني أنهم في رقعة الشطرنج وأنواع الألعاب ولا أفهم في هذه الحقيقة شيئا . فقلت : أيها الصديق : إن هذا الجدول كله يرجع لأمر يعرفه العالم والجاهل وهو ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ الخ ولكن المعرفة السطحية جاهلة ، فانظر في الجدول المرسوم تحت عنوان أعداد رواسم أليس هذا الجدول عبارة عن نفس هذه الأعداد ؟ قال نعم . فقلت : أتدرى ماذا حصل فيها ؟ قال لا . قلت ربعوا ١ و ٢ ثم طرحوا مربع الأول من مربع الثاني فكان باقي الطرح ٣ ثم جمعوهما فكان المجموع ٥ وضربوا ١ في ٢ ثم ضربوا الحاصل في ٢ فصار ٤ فالعمل إذن يرجع إلى التربيع وطرحه وجهه ، وإلى ضرب نفس الجذرين في بعضهما ثم تضعيفهما . فقال : ما معنى جذر ؟ فقلت ٢ جذر ٤ تربيع له ٣ جذر ٩ و تربيع له وهكذا . فقال فهمت . فقلت : إذن عندنا ٣ و ٤ و ٥ قال نعم . قلت : وهذه ناتجة من عددي ١ و ٢ قال حقا بسبب التربيع طرحا وجما ، والجذر ضربا وتضعيفا . قلت : الحمد لله قد فهمتني .



ثم قلت : هذا هو المثلث القائم الزاوية [ ا ب ج ] :



نخط ( ا ح ) ارتفاع ، وخط ( ب ح ) قاعدة ، وخط ( ا ب ) وتر ، فإذا كان خط ( ب ح ) ( ٣ ) في المثلث القائم الزاوية ( ح ) فإن ( ا ب ) فيها يكون ٥ و ( ا ح ) يكون ٤ فانظر إليها الذكي - أليست ترى أن مربع ٥ وهو ٢٥ يساوي مجموع المربعين وهما ١٦ و ٩ - قال حقاً والله . قلت : أليست هذه هي النظرية المشهورة في الهندسة وهي مربع وتر المثلث القائم الزاوية يساوي مجموع مربعي الضلعين الآخرين . فقال : أهي هذه ؟ قلت نعم هي التي كشفها [ فيثاغورس ] . فقال عجب ! أهذه البدائع كلها ترجع إلى ١ و ٢ فقط . فقلت نعم وغاية الأمر جعلناهما جذراً وربعناهما نارة وضربناهما أخرى واستعملنا الطرح والجمع والضرب فخرج هذا كله . فقال هذا حسن ، وحسن جداً ، وإذا دمت في الأفهام على هذا المنوال حتى استوفيت المسائل إلى أن تصل علم السياسة فإن عقلاء الأمم يفهمونها وتحدث أثراً على مقدار طاقة نوع الإنسان في هذه الأرض . فقلت : ثم انظر إلى عددي ٢ و ٣ في نفس هذا الصف وهو صف أعداد رواسم فلنجعلهما جذراً والمربعان ٤ و ٩ إذا جمعناهما كان المجموع ١٣ وبالطرح يكون الباقي ٥ وبضرب ٢ في ٣ وتضعيف الحاصل وهو ٦ يكون عندنا ١٢ فهذه هي أضلاع المثلث السابق مكبراً ، فإن ١٣ وتر و ١٢ ارتفاع و ٥ قاعدة ، ولا جرم أن مربع ١٣ وهو ١٦٩ يساوي مجموع مربعي ١٢ و ٥ وهما ١٤٤ و ٢٥ . فقال بالله ما أبهج العلم وألذ الحكمة وأبدعها إذن بقية الأعداد هكذا : أي ٣ و ٤ ثم ٤ و ٥ ثم ٥ و ٦ . قلت نعم كلها على هذا النمط قواعد وارتفاعات وأوتار بحيث يستمر الحساب إلى ما لا نهاية له من غير حصر .

### ملاحظات

بالنظر في هذه الجداول نجد أن ترتيب المثلثات المذكورة على الأعداد البسيطة أنتج أولاً أن الفرق بين القواعد عدد ٢ لأنها ٣ ٥ ٧ ٩ الخ - ثانياً : أن بين كل ارتفاع وما يليه نسبة وباقي طرح أحدهما من الآخر إذا قبلناه بباقي طرح ما يليهما كان الفرق بين باقي الطرح ٤ مثلاً ارتفاع ٤ بطرحه من ارتفاع ١٢ والباقي ٨ وارتفاع ١٢ بطرحه من ارتفاع ٢٤ فالباقي ١٢ وهكذا فالتناجد الفرق بين كل باق وما يليه ٤ ، ومثل ما فعلنا في الارتفاعات نفعل في الأوتار سواء بسواء ، فنفعل في ٥ و ١٣ و ٢٥ الخ مثل هذا فيكون الفرق أيضاً ٤ وهذا هو العجب ، إذ نرى الأعداد البسيطة على ترتيبها تظهر منها هذه الأعاجيب ، نظام مقدس في القواعد لأن الفرق ٢ ونظام مدهش في الارتفاعات والأوتار ، لأننا نجد الفرق بينهم ١ وهذا أمر عجيب جداً ونظام غريب في بواقي طرح الارتفاعات والأوتار وهو ٤

### مساواة مربع الوتر لمربعي الضلعين الآخرين

وذلك كله بدخول الجمع والطرح والضرب على مقتضى الأحوال . أليست أيها الصديق هذه هي الحقيقة الغناء من ١ و ٢ و ٣ وهكذا ، فهذه الأعداد البسيطة عند الجاهل لا قيمة لها ، فكما أنه لا يعقل نفسه لا يعقل

جمال هذه الأعداد ، بل هذه الأعداد جزء من النفس ، فالنفس الانسانية في أول أمرها مهمة غير مفصلة ، ولكن كشف هذه الحقائق لها يجمعها مفصلة واضحة لأن إحساسها بعد ان كان امرا مجملا أخذ الحساب يفصله ، وأخذ يطالع في نفسه هذه العجائب الناجمة من الأعداد البسيطة السهلة ، إن أمر الحساب العجيب ١ أمر الحساب عظيم ، انظر كيف يقول الله : « والفجر وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل اذا يسر » ثم يقول : « هل في ذلك قسم لذي حجر » ثم ذكر أمر الدول وخزاياها ، ويقول في آخر السورة : « يأتينا النفس المطمئنة ارجى إلى ربك راضية مرضية فادخلى في عبادى وادخلى جنتى » فأى مناسبة للشفع والوتر مع الفجر والليالى ؟ ثم ما مناسبة هذه كلها للنفس ورضاها ودخولها الجنة .

هذه إشارات بعيدة الغور ستعرفها الانسانية في المستقبل ، فان الحساب ونظامه لبنات جيلة بنى بها هيكل النفس في أول أمرها أشبه بخلية الجسم في أول أمره ، خلية الجسم واحدة تنقسم إلى ٢ وهذه تكون ٤ و ٨ و ١٦ و ٣٢ وهكذا ، فهذه متوالية هندسية كل الأجسام فيها سواء ، وعمدة حياة هذه العوالم كلها الحساب ، فالحساب الذى هو جزء مهم من نفوسنا هو الذى بنى عليه نظام أجسامنا وأجسام العالم كله ، فكما أن خلية الجسم الأولى صارت آلافا وآلاف من الخلايا ، وكل خلية حياة خاصة ترجع إلى الجسم العام هكذا النفس الواحدة المشبهة الخلية تنسج بكل محسوس ومعقول ، فهذه المعلومات تزيدها اتساعا كما يزيد الجسم حجما بالأغذية ، والفرق بينهما أن الجسم يتجزأ والنفس لا تتجزأ ، فهى تعظم بهذه الصور الروحية وتزداد عظما روحيا لأجسميا ، ولو أن الأعداد وماماثلها من جميع العلوم ذهبت من النفس لأصبحت أشبه بالدودة الضعيفة اذا تقرر هذا نقول : إن الجداول المتقدمة المنتظمة أمر ثابت في نفسه مجرد عن المادة ، ولما كانت النفوس أقرب إليه دخل في أمرجتها وصار جزءا منها لا يتجزأ ، فجميع هذه الجداول وبدائع الحساب ثابتات كلها في نفوسنا ، وهذه النفوس تكشف هذه الخبايا فيها بالدراسة فتزداد سعادة .

مثلا : في هذا اليوم ١١ ابريل سنة ١٩٣١ م زار بلادنا المصرية [ جراف زبلن ] وهذا المنطاد مرّ فوق القاهرة ، ورأيت أنه أمس آخر النهار يطوف بالعباسية ، وهو أشبه بالحوث في البحر ، له لون فضي جيل ورأيت أنه صباح اليوم قبيل كتابة هذا المقال ، وقف حول الحى الذى أنا فيه الآن (شارع زين العابدين) وكنت أمس واليوم أجد جميع سكان القاهرة رجالا ونساء وصبيانا وشيوخا يقفون فوق السطوح فرحا بهذا الأمر العظيم المدهش ، لأنه أمر عجب لم يروا مثله ، وأعوزه جهاد عظيم وعلم غزير حتى برز للوجود . إن هذا سرور للنفس ، ولا جرم أن خبايا النفس اذا ظهرت لكشفها تكون أكبر سعادة لها .

إن في الأعداد المستقرّة في النفس الشفع والوتر المذكورين في الآية ، أما الوتر فقد ظهرت أمثاله في قواعد الجداول المتقدمة ، وهنا يدعش الفيلسوف من قاعدة واحدة تسكفل آلافا مؤلفة من المثالثات القائمة الزاوية المختلفات اختلافات تاما بحيث ان ما قلناه في المثالث الأول ينطبق على كل مثالث بعده . ولنا أن نجعل الارتفاعات والأوتار السابقة في الجدول المتقدم رواسب هنا ، فكما اننا جعلنا ١ و ٢ و ٣ الخ رواسب لتلك الجداول نجعل ما ترنّب على تلك الرواسب من الارتفاعات والأوتار قواعد فماذا يكون إذن ؟ يكون هذا الجدول فتكون القواعد كلها مربعات للقواعد المتقدمة في الجداول السابقة :

قواعد ارتفاعات أوتار أعداد رواسب	قواعد ارتفاعات أوتار أعداد رواسب
٩ ٤٠ ٤١ ٤ ٥٠	٨١ ٣٣٨٠ ٣٢٢٨١ ٤٠ ٤١
٢٥ ٣١٢ ٣١٣ ١٢ ١٣	١٢١ ٧٣٢٠ ٧٣٢١ ٦٠ ٦١
٤٩ ١٢٠٠ ١٢٠١ ٢٤ ٢٥	١٦٩ ١٤٣٨٠ ١٤٢٨١ ٨٤ ٨٥

فهمنا أصبحت القواعد أعدادا مربعات ، ولهم طرق أخرى يجعلون فيها القواعد كلها زوجية مثل هذه :

قاعدة ارتفاع وتر عدد راسم

٦ ٨ ١٠ ١ ٣

وهو يجرى على القاعدة عينها ، فلذلك ينف هذا في هذا المقام . انتهى الكلام على الجذر والتريع من الفصل الأول والحمد لله رب العالمين .

### الكلام على المتوالية العددية والهندسية

المتوالية العددية مثل ١ و ٣ و ٥ و ٧ و ٩ و ١١ الخ ، وهذه متوالية عددية تصاعدية ، أو نقول هكذا ١ ٣ ٥ ٧ ٩ ١١ فهذه متوالية عددية تنازلية ، والفرق بين كل عددين متوالين يسمونه أساسا للمتوالية وهو في هذه ٢ ويكون ٤ في الآتية ٢٦ ٢٢ ١٨ ١٤ ١٠ ٦ ٢ ولأخذ ثلاثة أعداد ( حدود ) كان مجموع الطرفين ضعف الوسط كحدود ١٤ و ١٠ و ٦ من التنازلية فإن ضعف ١٠ وهو الوسط ٢٠ ومجموع الطرفين ١٤ و ٦ يساوي ٢٠ وفي التصاعدية كذلك مثل ١٤ و ١٨ و ٢٢ فإن ١٤ في ٢٢ يساوي ١٨ في ٢ فإذا أخذنا ٤ حدود كان مجموع الطرفين يساوي مجموع الوسطين وهو ظاهر .

### الكلام على المتوالية الهندسية

هي مثل ٣ و ٦ و ١٢ و ٢٤ و ٤٨ و ٩٦ وهذه تصاعدية ، ويقال فيها نسبة ٣ الى ٦ كنسبة ٦ الى ١٢ كنسبة ١٢ الى ٢٤ وكل حتى يساوي الحد الذي قبله مضروبا في الأساس مثل ٦ يساوي ٣ مضروبا في ٢ أى يساوي الحد الذي قبله مضروبا في الأساس ٢ هنا هو الأساس ، وهو الخارج من قسمة كل حد على الحد الذي قبله وهو لا يتغير ، وهذه المتوالية تكون تنازلية كما تكون تصاعدية ، وما قيل في الوسطين والطرفين هناك يقال هنا ولكن بطريق الضرب فنقول هنا حاصل ضرب الطرفين يساوي حاصل ضرب الوسطين ، أو حاصل ضرب الطرفين يساوي حاصل ضرب الوسط في نفسه ( مربع الوسط ) مثلا ٣ و ٦ و ١٢ مربع الوسط فيها وهو ٣٦ يساوي حاصل ضرب ٣ في ١٢ وهذا واضح .

إنما ذكرت ذلك هنا ليكون ذلك تذكيرا لمن لم يعرف علم الحساب ، وأريد هنا أن آتى ببعض المقصود فأقول : إن للمتوالية العددية والمتوالية الهندسية فوائد في علم الأوفاق ، وقد تقدم في هذا التفسير شذرات منه ، ولكني أريد هنا أن أذكر منه عجبا :

### جدول وفق فردي

١١	٢٤	٧	٢٠	٣
٤	١٢	٢٥	٨	١٦
١٧	٥	١٣	٢١	٩
١٠	١٨	١	١٤	٢٢
٢٣	٦	١٩	٢	١٥

كل قطر أوصف أفقي أوراسي هنا اذا جمع يساوي ٦٥ أى يساوي حاصل ضرب جذر عدد الخانات ، وهو ٢٥ في عدد ١٣ الذى هو وسط المتوالية الذى هو (فى مربع تقاطع قطري هذا الجدول) فالجذر ٥ فى ١٣ يساوي ٦٥ وكيفية تعبير هذا الجدول تراها فى كتاب أستاذنا المرحوم على مبارك باشا فى كتابه [ خواص الأعداد ] وفى كتابى [ بهجة العلوم ] فى الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم الحديثة .

### جدول وفق زوجي

١	١٥	١٤	٤	٣٤
١٢	٦	٧	٩	
٨	١٠	١١	٥	
١٣	٣	٢	١٦	٣٤

هذان الوفتان المنتظمان العجيبان فهما متوالية عددية أولها ١ وآخرها ٢٥ فى الأول و ١٦ فى الثانى ، وفيهما بدائع وعجائب ، فالخط الأفقي والرأسي والقطر كلها متساوية ، وجذر العدد الفردى وهو ٢٥ بضربه فى وسط المتوالية الموضوع فى الوسط يكون هو نفسه ذلك المجموع ، ولأكتف بما ذكرته الآن فى أوافق المتوالية العددية .

### أوافق المتوالية الهندسية

إن كل ما قبل فى أوافق المتوالية العددية يقال نظيره فى أوافق المتوالية الهندسية ، ولكن الأمر هنا يكون بالضرب وهناك بالجمع ، فتجد فى الوفق المثلث الآتى أننا عمرناه بهذه المتوالية : —  
١ ٢ ٤ ٨ ١٦ ٣٢ ٦٤ ١٢٨ ٢٥٦ فهنا ترتيب كترتيب الوفق العددى لكل قطر وكل صف أفقى أوراسي حاصل ضرب أعداد يساوي ٤٠٩٦ وهو مكعب ١٦ الذى فى الخانة الوسطى ، وطريقة التعبير هنا كالطريقة هناك :

٨	٢٥٦	٢
٤	١٦	٦٤
١٢	١	٣٢

وفق مثلث للمتوالية الهندسية .

٤	٩	٢
٣	٥	٧
٨	١	٦

وفق مثلث للمتوالية العددية .

فوازن بينهما أيها الذكى فانك تجد عدد كل صف وكل قطر فى الفردية ١٥ وهو من ضرب ٥ الذى هو فى الخانة الوسطى وهو وسط المتوالية أيضا فى ٣ الذى هو جذر عدد الخانات وهو هنا ٩ أما فى وفق المتوالية الهندسية فانك تجد حاصل ضرب أعداد كل صف أفقى أو قطري أوراسي مساويا لمكعب تلك الخانة التى فى الوسط وهى هنا ١٦ فى الفردية ٥ مضروبة فى جذر عدد الخانات ، وهنا مكعب تلك الخانة التى هى فى الخالين يمر بها القطران معا وتكون وسط الوفق بالضبط ، فهى فى الوفق كقلب الانسان أو الحيوان .

عند ذلك قال صاحبي : لقد فهمت المتواليات بقسميها ، وفهمت أوفاق العددية بقسميها ، ولكن لم أطلع على وفق للمتواليات الهندسية يكون زوجيا ، فقلت : إن الأمر يطول ، وأنا لم أذكر شيئا من ذلك هنا إلا مقدمة لمأسأذكركه في الفصل الثاني ، والثاني مقدمة للثالث أعني أني كما قلت لك سابقا أريد بهذه المقدمة أن أبين عجائب الأعداد في نفوسنا ، ولكنني لا أطيل أكثر من اللازم ، وأقفي بأن أمثال هذه القوانين التي في نفوسنا وجدت في نفس الطبيعة ، ثم أقفي بأن أقول : من العار على هذا الانسان (الذي وجد في نفسه تلك القوانين ، ثم عرفها في الطبيعة ، ثم استعملها في الصناعات التي يعيش بها) أن يكون غافلا أشد الغفلة ، جاهلا أخفى الجهل ، إذ لم يطبقها على نفس الانسان ، فالذي أريده من ذلك كله أن أبين أن للانسان في نفسه بصيرة ولكنها محجوبة عنه ، ومادامت محجوبة فانه يكون معذبا في حياته الدنيا والآخرة ، وهذا أصبحت به موقنا ، فعلى إذن أن أبينه لنوع الانسان . قل : إذن فلنكتف في هذا الفصل بما ذكر ونبتدىء في الفصل الثاني . فقلت : نعم ولكن بقي أن آتي باللمعة يسيرة لأتم هذا المقال ، وذلك بذكر الأعداد المتحابة وذكر الأعداد الكاملة لتدهش أيها الذكي من عجائب نفوسنا البديعة . فقال : أرجو أن توضحه هنا ايضا حالما . فقلت : انه سيأتي في ﴿ سورة الرحمن ﴾ عند قوله تعالى : « الشمس والقمر بحسبان » فإني سأبين هناك أن العوالم كلها مبنية على الحساب كنص الآية ، ولكنني أشير إليه هنا إشارة بسيطة لاستيفاء المقام : اعلم أن العدد الكامل هو الذي يساوي مجموع مضاربيه ، أما الناقص والزائد فهما على خلافه فعدد ٦ من ضرب ٢ في ٣ ومن ضرب نفس العدد في ١ وبجمع ٢ و ٣ و ١ يكون المجموع ٦ وهذا العدد نادر جدا ، وعدد ٢٨ ناتج من ضرب ٢ في ١٤ ومن ضرب ٤ في ٧ ومن ضرب ٢٨ في ١ وبجمع ٢ و ١ و ٢٨ و ١ و ٧ و ١٤ يكون المجموع ٢٨ وليس في الأعداد من ١ الى ١٠٠ سوى هذين العددين ، وله جدول تجده في هذا التفسير عند ذكر خلق السموات والأرض في ستة أيام ، وهنا أذكر قاعدة استخراج الأعداد الكوامل المناسبة للمتواليات الهندسية المذكورة التي رأينا فيها عجائب الأوفاق العددية السابقة ، فانظر ما يأتي :

٥١٢	٢٥٦	١٢٨	٦٤	٣٢	١٦	٨	٤	٢
١٣٠٨١٦		٨١٢٨		٤٩٦		٢٨		٦
٢٥٦ في ٥١١		٦٤ في ١٢٧		١٦ في ٣١		٤ في ٧		٢ في ٣

فلما نظره قال : لم أفهم شيئا ؟ فقلت : إن هذه هي المتواليات الهندسية ، فانك في الصف الأفقي الأعلى تجد ٢ و ٤ و ٨ و ١٦ وهكذا ، ففي الصف الذي تحته تجد الأعداد الكوامل وهي ٦ و ٢٨ ، وهكذا ، أما في الصف الأسفل فانك تجد أن ٢ التي في أول الفاصل الأول من أعلى قد نقلت تحت ٤ في نفس الفاصل وتجد عدد ٣ في نفس الفاصل قد وضعت في محاذة ٢ وعدد ٣ هذا هو عدد ٤ في الفاصل الأول المذكور نقصنا منه واحدا ، وبضرب ٣ في ٢ يكون الحاصل ٦ وهذا هو المطلوب ، وهكذا نفعل في الفاصل الثاني فان عدد ٤ الذي في أعلاه قد وضعناه في أسفل الصف الذي في أعلاه ثمانية و ٧ التي هي في محاذة ٤ هي عين ٨ التي عند الفاصل الثاني وقد نقصت واحدا ، وبضرب ٧ في ٤ يكون عندنا ٢٨ وهو العدد الكامل ، ونفعل مثل هذا على التوالي في كل المتواليات الهندسية بلا حصر ، ويمكننا أن نضع جدولا بأعداد كوامل من غير نصب يبلغ آلاف وآلاف ، وقد ذكرت هذا الجدول المذكور فيما تقدم من هذا التفسير ، ولكن لم أذكر هذه القاعدة هناك ، والقاعدة هنا خير مما هناك .



فقال : إن هذا عجب عجاب ! كيف تكون المتواليه الهندسية ذات خواص على هذا المنوال ، فانها ذات أوافق عددية وزوجية عجيبه ، وبها أمكننا استخراج الأعداد الكوامل ، ولكن لم أعرف الأعداد المتحابة فقلت : انها واضحة هي وطريقة استخراجها في ﴿سورة الرحمن﴾ فيما يأتي . فقال : ولكني أرجو أن أعرف طرفا منها هنا لأتصور أمرها ؟ فقلت : هي من أسرار عدد ٢ كالتى قبلها ، فانك تجد عددي ٢٢٠ و ٢٨٤ متحابين ، لأن مضارب ٢٢٠ يساوى مضارب ٢٨٤ والعكس ، لأن ٢٢٠ يساوى ٢٠١ و ٢٨٤ و ١٤٢ و ٧١ و ٤ و ١١ و ٢٠ و ٢٢ و ٤٤ و ٥٥ و ١١٠ واستخراج هذا كله بسبب عدد ٢ لأنه اذا ضرب في ٣ ثم في ٦ ثم ضرب مربعه وهو ٤ في ١٨ حصل عندما ٦ و ١٢ و ٧٢ فاذا نقصنا من هذه الثلاثة واحدا واحدا كان هكذا ٥ ١١ ٧١ واذا ضربنا ٥ في ١١ وضربنا الناتج وهو ٥٥ في ٤ كان الناتج ٢٢٠ وهو أحد العددين السابقين ، ويمكن إيجاد العدد الآخر بضرب ٧١ في مربع ٢ المذكور ، وهو ٤ فيكون الناتج ٢٨٤ وهو العدد الثانى وهو المطلوب ، وهكذا يمكن استعمال أى قوة من قوى عدد (٢) على هذا النمط لاستخراج الأعداد المتحابة ، وهذا سيتضح اتصاحا تاما في ﴿سورة الرحمن﴾ فانتظره . فقال : حقا قد استوفينا هذا المقام بقدر الامكان . فقلت : ببقى الكلام على الكسر الدائر البسيط والمركب ، فانظر في فهو اذا جعل كسرا اعشاريا يكون هكذا ٣٣٣٣. وهكذا إلى ما لانهاية له فهذا كسر دائر بسيط ، وانظر الكسر الدائر المركب فهو هكذا  $\frac{1}{2}$  وهكذا إلى ما لانهاية ١٤٢٩٥٧١٤٢٩٥٧. و ترى كسر  $\frac{1}{2}$  إلى ما لانهاية له . واعلم أن الأعداد البسيطة على ثلاثة أقسام : زوجية وكلها كسورها منتهية وهي  $\frac{1}{2}$  و  $\frac{1}{4}$  و  $\frac{1}{8}$  فهي تساوى ٥. و ٢٥. و ١٢٥. وفردية وهي كلها غير منتهية ، وقد تقدمت هنا ، وأعداد أولية مثل  $\frac{1}{3}$  و  $\frac{1}{5}$  والأول ٢. فهو منته كالأعداد الزوجية ، والثانى غير منته كالأعداد الفردية .

اللهم إنا نحمدك ونشكرك ، أنت الجليل ، أنت الحكيم ، أنت البديع ، أبدعت نفوسنا وملأناها بالجمال أنت العليم تعلم كل شيء ، ولما أبدعت أرواحنا أشرق عليها نورك فأصبحت الأعداد من كيانها ومزاجها وحقيقتها ، وهذه الأعداد لها نظام جليل ، فاذا كانت الكسور المتقدمة قد اختلفت (فنها ماله نهاية ، ومنها ما لانهاية له ، وما لانهاية له إما كسر دائر بسيط ، وإما كسر دائر مركب ، ولكل من هذه الأقسام التى امتزجت بنفوسنا نتائج ظاهرات فى العوالم حولنا) فان أمر نفوسنا إذن عجيب ، إذ كيف نرى ما حسبناه فى الأعداد الممتزجة بنفوسنا تصير مظاهره فى العوالم حولنا كما سيأتى فى الفصل الذى يلى هذا وما بعده مثل :

(١) إن سائر الكواكب لم يخرج عن الكسر الدائر المركب ، وذلك بسبب تكرار الأدوار فى القرون والدهور .

(٢) ومثل ان هذا النوع الانسانى لا يعلم لأجزاء المادة نهاية عند تحليلها الكيمائى كما لا علم له بنهاية الكسر الدائر .

(٣) ومثل عدم علمه بنهاية العالم من حيث المكان من جهاته الست .

(٤) وكذلك هو لا يعلم متى ابتدأ ولا متى ينتهى ، إن هذا كله قد أوضحه الكسر الدائر الذى وعته نفوسنا إذن نفوسنا كنتم فيها العوالم أوتماذجها .

(٥) ومن هذه أيضا ندرك أن الله لانهاية لعلمه ، واذا كان الكسر الدائر لانهاية له وقد انطوت عليه نفوسنا وصار فيها مجالا . وعلمونا بالنسبة لعلم الله أقل آلاف مرات من نسبة أجسامنا إلى العوالم كلها ، فهو إذن فى علم الله مع عدم نهايته مفعلا ، واذا نحن عرفنا الكسوف والخسوف بعد آلاف

آلاف السنين معرفة مجملة فأنه يعلم ذلك مفصلاً ، ويعلم كل الحوادث الصغيرة والكبيرة التي لانهاية لها مفصلة وذلك التفصيل ضرب له المثل بما سيأتى :

(٦) ألم تالمثنين اللذين رسمناهما آنفا وفيهما المتواليات العددية والهندسية ، أفلاتعجب معي أيها الأخ الديكى ، أفلاتدهش أن نرى عدد ٥ فى المتوالية العددية وعدد ١٦ فى المتوالية الهندسية قد جاء وضعهما فى المربع الذى هو فى وسط المثلثين ، فكما كان عدد ٥ هو وسط ٩ هكذا عدد ١٦ وسطها ثم ان ضرب ٥ فى جذر ٩ هو عين مجموع الصفوف الأفقية والرأسية والقطرية ، هكذا تكعيب ١٦ هو حاصل ضرب كل صف وكل قطر ، وهذا النظام الذى تقدم فيهما يدلنا على أن نظام العالم على هذا النمط كما نرى نظيره فى ترتيب العناصر الذى تقدم ذكره فى سورة العنكبوت ، فان صانع العالم رحنا يعلم الحساب وبهذه الجوانب فيه اتى أرتنا مفصلات الجداول منظمة مرتبة لاخلل فيها ولاخطأ ، ولو اخلت منها واحد لاخلت الجميع ، وهذا هو الذى نفهم به على سبيل اليقين والمشاهدة ولو بطريق التنظير قوله تعالى : « وكل شىء فصلناه تفصيلاً » وقوله « إنا كل شىء خلقناه بقدر » وقوله : « انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض » وقوله : « وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » وذلك لأن الحساب لايفير ، ولو غير الحساب لاخلت نظام المجموع ، فكل امرئ فى الأرض أشبه بعدد فى مربع من تلك الأعداد ، وكل أمة أشبه بجدول أفقى أو رأسى وبين الأفراد علاقات لاخلل فيها ، وكل فرد وكل أمة تختلف عن الأخرى ، وهكذا خلق كل حيوان وكل انسان وكل معدن الخ .

(٧ و ٨) نظام الأمم ، وتشرح الأجسام : وكما أن علم الله مبنى على نظام واحد وهو حساب محكم ظهر لنا نموذج الذى تقبله عقولنا الضعيفة هكذا يجب أن يكون نظام أمم الأرض جميعاً ، لأن اختلاط الأمم الآن دلنا أنهم متعاونات مرتبطات ارتباط هذه الأعداد ببعضها ارتباطاً لا انفصام له ولا انقطاع ، وأى فرق بين ارتباط الأمم وتعاونها وارتباط أعداد هذه الأوفى وتناسب أعضاء الجسم الواحد ؟ فالرجل لو نطقت لقالت أنا أحب العين وكلاهما يحب الكبد والكلى والعظم وما أشبههن .

الله أكبر جل الله : ظهر الحق واستبان السبيل . فقال صديقى : وأى حق غير ما تقدم ؟ فقلت : هو سر الأسرار وعلم الأبرار . فقال : وما هو يرحك الله ؟ فقلت : أى صديقى : اذا كانت هذه حال الأعضاء من الصداقة والمودة بحيث يرى كل عضو لو كان يهتل أنه يحب بقية الأعضاء ولا يحسد واحداً منها ، لأن الجميع ينفع بعضهم بعضاً ، غاية الأمر أن الأعمال اختلفت كما أن عدد ١ و ٢ و ٣ الخ فى الوفى المتقدم كل واحد منها فى مرتبه وهو مرتبط بجدوله وبالجدول الأخرى و بينهما مناسبات عجيبة ، بل لو نطقن لقال كل واحد انى أحب باقى الأعداد لأن الوفى كانه لا يتم اذا نقص واحد منها أو زاد أو انتقل من محله كما ينقص الجسم بنقص عضو واحد وتآلم أفتد ببقية الأعضاء ، والذى يخطرلى كثيراً أن هذه العقول الانسانية فى الأرض سائرة إلى هذه الحال يوماً ما ، وهى قبل أن تصل إلى هذه الحال لاتزال فى ذل وعذاب مهين كأهل أرضنا اليوم ، فان كل أمة من شدة الجهالة الفاشية فى نوع الانسان تريد أن تستقل بالحياة ، وهى فى ذلك أشبه بعضو فى الجسم ، أو مربع فى الوفى يريد الاستقلال بالحياة وحده ويذهب الباقي من الحياة ، وهذا هو السبب فى أن الحقد والحسد وبغض الناس من الكبار ، لأن ذلك حجاب حجب هذه النفوس عن الاتحاد الذى يجعل كل نفس تفرح بالبقية ، وهذا إلى الآن لم يكن له أثر فى أرضنا إلا قليلاً ، وقد نجد رجال الحكومات يتعاونون ورجال الصناعات وغيرهم ، ولكنه تعاون ظاهرى ، وكل يقصد نفسه ، وخير لكل امرئ فى الأرض أن يقصد المجموع الانسانى كما

قدّمناه في ﴿سورة الزمر﴾ منقولا عن الاستاذ [ كانت ] الألماني في رسالته عن التعاليم ، فإنه حض جميع أفراد الأمم على أن يكون المقصد الأسمى سعادة المجموع . هذا هو الحق الصراح ، فليجد المسلمون من الآن في إسعاد جميع النوع الانساني ، وهذا هو سبيل الله والجهاد فيه موصل للقاء الله عز وجل ، وكيف يلاقى الناس ربهم وهذه حال قلوبهم المملوءة جهالة بهذا الوجود وبهذه النفوس . وبهذا انتهى الكلام على الفصل الأول في حدائق النفس وبساتينها .

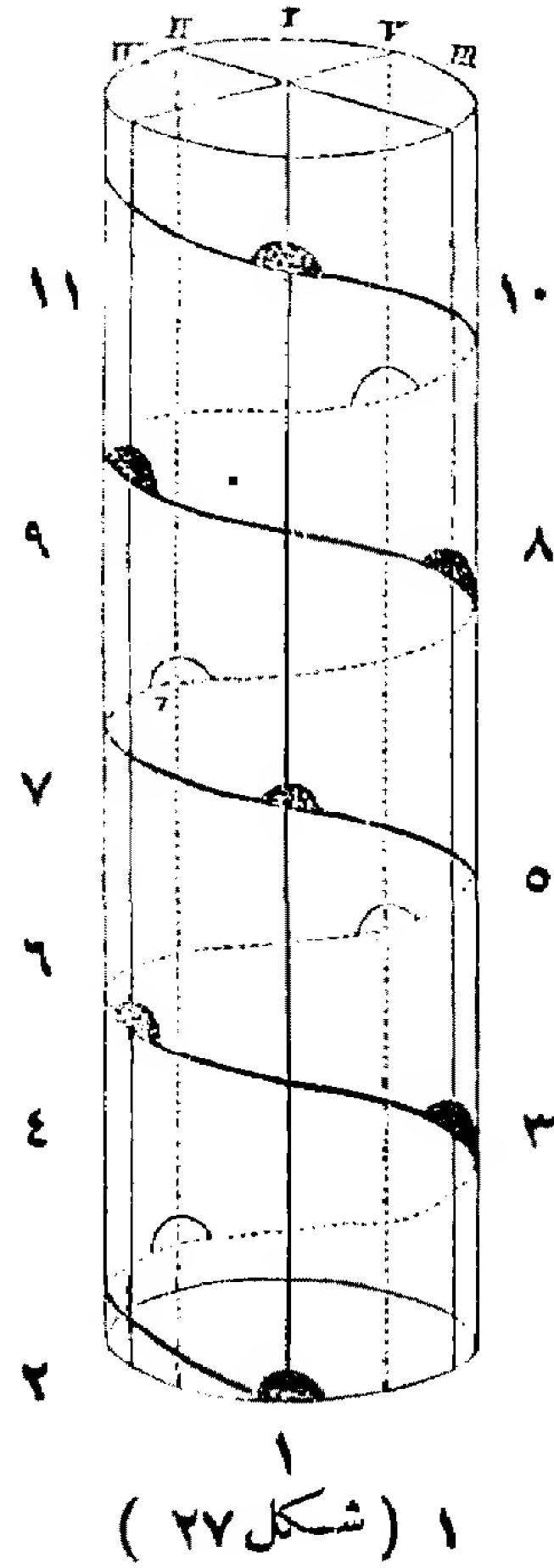
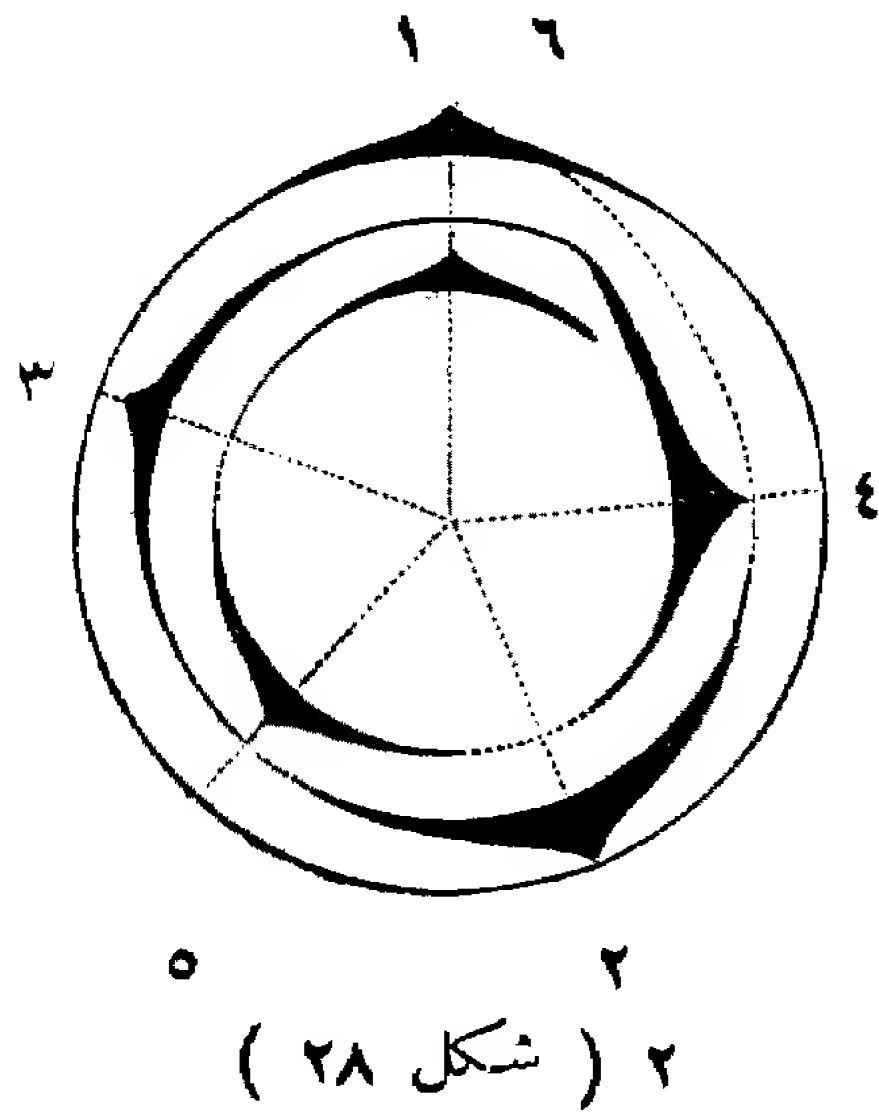
### الفصل الثاني في حدائق العلوم التي تفيها الناس ظلالها

وعاشوا في أكنافها من علم الفلك والطبيعة والنبات والحيوان والمعادن وجميع الصناعات لقد ذكرنا في الفصل السابق الجذر والتربيع ، وأبنا أسراراً بديعة جيلة . وحكما بالغة ، وذلك في المثلثات القائمة الزوايا ، وكيف كان عدد ١ و ٢ و ٣ الخ بواسطة الجذر والتربيع أمكن استخراج آلاف آلاف المثلثات القائمة الزوايا ذات الأوتار والقواعد والارتفاعات اللاتي هن من المناسبات والاتفاقات والعجائب ملاحظه . هذا هو الذي رأيناه في خفايا نفوسنا ( كما قال تعالى : وفي أنفسكم أفلا تبصرون ) فهذه هي التي فهمته نفوسنا واشتملت عليه سواء أكانت جاهلة به أم علمته ظهر في نفس الطبيعة ، ألا تذكر بعض ما تقدم من الجذر والتربيع في هذا التفسير ؟ فقال نعم قد تقدم في مواضع كثيرة مثل ما جاء في أول [ آل عمران ] ، ذلك ان سرعة الأجسام الساقطة الى بئر مثلا من فوق جبل ، أو ارتفاع ماء ، أو من فوق الأرض نفسها تكون بحساب ١٦ قدما مضروبة في ١ في الثانية الأولى ، وفي ٣ للثانية الثانية ، وفي ٥ للثانية الثالثة ، وفي ٧ للثانية الرابعة ( وبعبارة أخرى ) ١٦ في الأعداد الوترية ١ ٣ ٥ ٧ ٩ ١١ ١٣ ١٥ وهكذا لكل ثانية على التوالي ، وإذا ضربنا عدد الثواني مربعا في ١٦ قدما كان ذلك هو البعد الذي سقطه الجسم ، فالثانيتان يكون البعد فيهما ٤ في ١٦ والثلاثة ٩ في ١٦ والأربعة ١٦ في ١٦ ( وبعبارة أخرى ) ١ ٣ ٥ ٧ ٩ ١١ ١٣ ١٥ إذا ضرب كل منها في ١٦ كان الحاصل هو الذي سقطه الجرف في تلك الثانية فقلت : أحسنت أيها الأخ متذكر تمام التذكّر وهناك زيادة لبضح ، ولكن الذي ذكرته أيها الأخ كاف فيما نحن بصدد ، ذلك أننا نريد في هذا الفصل أن نبين أن المربعات ( التي تقدمت في الفصل السابق وجذورها وهي في نفوسنا ماهي إلا أعداد مجردة لها نظام عجيب من تربيع وجذر ولهما نتائج في حساب المثلثات العقلية المنظمة العجيبة ) قد ظهرت آثارها في الطبيعة حولنا مما يدل على أن نفوسنا بينها وبين العالم حولنا مناسبة وكما زدنا دراسة زدنا علما بنفوسنا ، وكنا أقرب إلى ربنا ، وهل يكون قرب الإلّام ؟ وهل العبادة إلا فتح باب للعلم ، وهل الصيام والحج والزكاة إلا مساعدات على خلوص النفس من أحوال هذه الدنيا فتلحق بالعالم المجرد عن هذه المادة فتقرب من ربها ، وهل ترى أعجب من أن التربيع والجذر الكامنين في نفوسنا قد ظهرا في الطبيعة التي صنعها الله عز وجل بيده بحسابه المشاكل لما في نفوسنا « والله المثل الأعلى » الذي بدرسه نريد حبا له وعشقا وغراما

ثم قلت له : هذا هو الجذر والتربيع في حركات الأحجار الساقطات ، فهل تذكر جذرا وتربيعا في غير ذلك ؟ فقال نعم قد تقدم في ﴿سورة الرعد﴾ عند قوله تعالى : « وكل شيء عنده بمقدار » فهناك الجذر والتربيع في سرعة النور والصوت والحرارة والجاذبية ، ذلك أن شدة الصوت تقل بمقدار ما يزيد مربع البعد عن الجسم الصائت كما إذا أتينا بأربعة أجراس بحجم واحد ووضعناها على بعد ٤ ذراعا ووضعنا جرسا آخر بحجمها أيضا على بعد ٢٠ ذراعا ، فإنا نجد صوت الأربعة كصوت الواحد ، لأن بعدها كبعدة مرتين و ٢ في ٢ تساوي ٤ فإذن يكون كل واحد من الأربعة صوته كربع صوت الجرس القريب . ونقول مثل ذلك

في الحرارة ، وفي النور ، وفي الجاذبية فهنّ سواء ، والتمثيل والايضاح تقدما هناك ، فهل أعيدته ؟ فقلت . كلا .  
لأننا هنا نريد التذكير بما مضى ومن أراد فليراجع ما تقدم . ثم قلت : هل تذكر فيما مضى عجائب المتوالية  
العديدية والهندسية المتقدمة في الفصل السابق حتى يكون التطبيق عليها مما سبق في هذا التفسير ؟ فقال نعم  
أتذكر مامرّة في [ سورة العنكبوت ] عند آية : « قل سيرا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » فان  
هناك جدول العناصر البسيطة التي كشفها العلماء ، وقد وضعت منظمة بحيث رأينا أن الايدروجين هو الوحدة  
التي يقاس عليها ، وأن الهليوم زاد عليه اثنين تقريبا ، وهكذا عناصر أخرى عدّها مع ضم الايدروجين  
إليها ٨ وثانها الاكسوجين وهو له عدد ١٦ فكان لكل واحد اثنان في الجملة وان اختلف بعض أفرادها  
وتجد أن ذرّة الكبريت ٣٢ وكسروهي تمام الثمانية الثانية ، وعلى كل فالنسبة بين كل عنصرين اثنان  
ولكن هذا أمر تقريبي قد يختلف ، ثم لننظر إلى الصفوف الرأسية التي يسمونها الطوائف فنجد أن  
الليثيوم في الصف الرأسي ٦٩٤ والصوديوم تحته ٢٣ والفرق بينهما ١٦ ثم ان البوتاسيوم تحته ٣٩ والفرق  
بينهما ١٦ فهناك ثبت أن ترتيب زيادة العناصر ٢-٢-٢ عند وزنها بمعنى أن الايدروجين وهو أخفها جعل  
وحدة يقاس بها كما يقاس الناس بالذراع ، وهذه العناصر كلها أثقل منه بعدد ٢-٢-٢ إلى آخرها ثم وجد  
تناسب بينها في الخطوط الرأسية ، إذن هي تفاوتت ٢-٢-٢ أفقيا وتفاوتت رأسيا بمضاعف ٢ وهو ١٦  
وهو العدد المسمى بزواج الزوج الذي هو عدد الشطرنج المعروف ، فلما أجاب بذلك قلت له : لقد كنت قوى  
الذاكرة ، فلنكتف بهذا حتى اذا أراد أحد الأذكاء توسعا في ذلك ورجع إلى نفس الجدول هناك رأى  
تفصيله . ثم قلت : وهل تذكر أثرا لأمثال هذا النظام في علم النبات ؟ فقال نعم قد تقدم في [ سورة البقرة ]  
عند آية الطير و ابراهيم أن العناصر تدخل في نظام النبات بحساب ، فإذا شئت بسطت القول فيه فهو هناك  
مفصل . فقلت . كلا . فمن أراد فليراجعه هناك وفي أية سورة أخرى غير البقرة . قال في سورة البقرة ومنها  
سورة الحجر ، فان هناك بين الأوراق مناسبة عجيبة جدًا لأننا نجد شجرة التفاح المرسومة هناك أوراقها ذات  
دوائر منظمة تامة النظام ، وكل دائرة تحوي دائرتين صغيرتين ، وتشتمل على خمس ورقات فتكون هكذا ٢  
فالرقم الأعلى يشعشع بالشكاين الحلزونية ، والرقم الأسفل يشعشع بعدد الأوراق ، وهناك نباتات أخرى فيها نسبة  
بين أوراقها وأشكالها الحلزونية ، وهناك نظمت هذه النسب وجعلت بهيئة جميلة ، ولما نظر فيها العلماء  
وجدوا بين هذه النسب بدائع حسابية جميلة ، فكما كانت العناصر بينها نسب هندسية وحسابية ، هكذا جميع  
أوراق الشجر في مشارق الأرض ومغاربها بين بسط كل منها مع مقامه مناسبات لبسط باقي النبات ومقامه .  
فقلت : وهذا عجب نخجل هذا الانسان الجهول الذي لم يدرس نفسه حتى يعلم أن بين أفرادها في جميع أحوالهم  
نسبا حسابية ، وهذه النسب جعلت للارتفاع بالمازيا الانسانية المختلفة لا القضاء عليها ولا محاربتها ( انظر شكل  
٢٧ و ٢٨ ) الآتين في الصفحة التالية .





قد جاء في المجلد الثامن من هذا التفسير مانعه : « هاتان الصورتان المرسومتان أولاها صورة الغصن التفاح أو البلوط وقد دارت الأوراق عليه مبتدئة من الأسفل دائرة حول الغصن ، فالورقة الأولى المعنون عنها بعدد واحد تتلوها خمس قد صنعت دورتين حلزونيتين كما قدمنا ، والخامسة منها التي هي السادسة في العدد تراها أمامك في الرسم فوق الأولى على خط مستقيم وهي تمام الدائرة الأولى وتليها الدائرة الثانية ، ونهايتها ومبدأ الدائرة الثالثة عدد ١١ وهكذا ، وهذا واضح في الشكل الأول ، ولكن لما كان هذا لا يظهر منه أن كل خمس ورقات دائرة تامة وجب رسم الشكل الثاني الذي يمثل الدائرة التامة من هذه الدوائر بورقاتها الخمس بوضعها الأفقي لتظهر للناس فيعلمون أن هذه الأوراق الموضوعة وضعا رأسيا هي دائرة تامة منظمة مقسمة خمسة أقسام بخمس ورقات كل قسم منها ٧٢ درجة تقريبا عادلا . »

فانظر في الشكل الثاني (شكل ٢٨) فانك تجد الورقات الخمس التي صنعت دورتين حلزونيتين قد ظهرت واضحة جلية ، فالورقة الأولى عدد ١ والثانية عدد ٢ والثالثة عدد ٣ وهكذا إلى السادسة التي جاءت في مقابلة الأولى على خط مستقيم ، ومن أراد الزيادة فليقرأ هذا الموضوع هناك اهـ

### موازنة حساب الأجرام السماوية بالكسر الدائر

مم قلت : فهل تذكر مما تقدم في هذا التفسير نظير الكسر الدائر ؟ فقال نعم تقدم في بعض السور كثير منه ولكن لا أتذكره . فقلت اننا كما نقول ان الكسر الاعتيادي  $\frac{1}{2}$  اذا حولناه إلى كسر اعشاري يصير مركبا من ستة أعداد تتكرر بلانهاية هكذا نقول في حساب الكواكب بعد أن تعرف عدد أيام السيارات بهذا الجدول :



عدد الأيام	عدد الأيام
عطارد ٨٨	المشتري ٤٣٣٣
الزهرا ٢٢٥	زحل ١٠٧٥٩
الأرض ٣٦٥	أورانوس ٣٠٦٨٧
المريخ ٦٨٧	نبتون ٦٠١٢٧

### تذكرة

أعداد أيام السيارت التي حصل فيها جبر للكسر

لتسهيل الموازنة بين الكسر الاعشارى السابق وبين حساب الكواكب ، فإذا قلنا ان الكسر  $\frac{1}{7}$  يساوى ١٤٢٩٥٧ ١٤٢٩٥٧ ١٤٢٩٥٧ ر. وهكذا تكرر هذه الأرقام الستة بالنهاية وهى ١-٤-٢-٩-٥-٧ هكذا نقول عطارد يدور إلى الأبد على مقتضى هذه الأعداد ٨٨ ٨٨ ٨٨ وهكذا إلى ما لا نهاية له ، ونقول : الأرض تسير على هذا النمط ٣٦٥ ٣٦٥ ٣٦٥ ٣٦٥ ٣٦٥ إلى ما لا نهاية له ، وأورانوس يدور على هذا الحساب وهو ٣٠٦٨٧ - ٣٠٦٨٧ - ٣٠٦٨٧ - ٣٠٦٨٧ :

اللهم انك أنت الحكيم الجليل العليم ، أنت أبدعت الجمال والحكمة ، وأرىتنا الكسر الدائر ظاهرا نظيره في سير الكواكب ، وفي تركيب كل مركب ، فهو في الحركات وفي نظام العناصر ، فيا ليت شعري هل كانت هذه الدورات الفلكية نتيجة تقسيم الواحد الصحيح إلى أجزائه ، أم ماذا كان ؟ وكيف كان الكسر  $\frac{1}{7}$  تكرر فيه ٦ أرقام من الأعداد البسيطة ، وأورانوس تكرر فيه ٤ منها ، ونبتون كذلك ، وهكذا المشتري وزحل وفي عطارد ٢ وفي الزهرة والمريخ والأرض ٣ ، فيظهر لي أن العوالم أجمعها كأنها وحدة ، وهذه الوحدة تتجزأ ، دائما وتنبع طريقا مرسوما لا تتحول عنه كما لم يتحول الكسر الدائر عن منهجه ، وإذا كان الكسر المذكور لا ينتهى أدواره ، هكذا هذه الدراري لا تنتهى أدوارها انتهاء معلوما لنا بل علم الانتهاء عند خالقها ومديرها ، وبهذا تم الكلام على الفصل الثانى ، وهو تطبيق مظهر في العوالم من الحساب الموافق لما في نفوسنا جذرا وتربعا وكسرا دائرا ومتواليات هندسية وحسابية وغيرها .

### الفصل الثالث

في أن الأمم وإن استظلت بظلال تلك العلوم في حياتها لم تجن ثمراتها في سياساتها ، ولم تتناول القطوف الدانية ، من الغصون الوارفة ، في تلك الأشجار الباسقة ، بل هم لا يزالون بنظام أنفسهم فوق الأرض جاهلين

ألم تر أيها الصديق أن هذا الانسان رأى الثعلب يصيد فقلده ، وللعنكبوت شبكة للصيد فقلده ، ولبعض السمك منشارا وبلطة فقلده ، وللسرطان درعا فقلده ، وأخذ أحقاق الفشوق عن [ أم الخلول ] ، وحث الأرض عن الخنزير ، والتباعد عن الروائح الكريهة من الهرّة ، وتعاطى المسهلات عن الكلب ، وتجنيد الجنود عن النمل ، والمشاورة عن اللقلق ، والحذر عن الغراب : واتخاذ الجلساء عن الفسّاس ، والخيلاء عن النمر ، والهندسة عن النحل ، وعلم الطقس عن الخلد [ بفتح الخاء واللام ] ، وأخذ الكهرباء عن السمك الرعاد ، والغناء عن الطيور ، وبناء الأقبية عن بعض النيران ، والمهارة في البناية والتجارة عن كلب الماء ، وصناعة الورق عن الزباير ، والغزل عن دود القز ، والنسج عن دود الربيع ، والحياكة البديعة لدقيقة عن بعض الطيور ، وهكذا الحياطة والكدح ايلانهارا عن النمل .

كل ذلك وأكثر منه تقدم في [ سورة طه ] فكل ما يصنعه الانسان اليوم لرفق حياته تعلمه من الحيوان ونعم ما فعل ، ولكنه لا يزال في سياسته طفلا غرأ جاهلا أبلا ، ذلك أنه استعمل عقله في درس هذا الوجود ، وابتدأ معارفه بالعلوم الرياضية ، والعلوم الرياضية هدته إلى استعمال العوالم التي حوله ، فها هو ذا الانسان شرقيه وغريبه أدرك الجذر والتربيع المشروح آنفا ورأتهما ظاهرين واضحين في الطبيعة كما تقدم في بعض الفصول السابقة ، وأن الضوء والجاذبية والكهرباء والصوت كلها انتشرت حولها بمقتضى هذين القانونين ، وهكذا رأى هذا الانسان أن ١ ٢ ٣ الخ بجذورها وتربيعها وأعمال حسابية أخرى نتجت منها مشاث لأعداد لها ، منظمة الحساب ، قائمة الزوايا كما تقدم ، فاستعمل ذلك كله ، ورأى الكسر الدائر المشروح فيما تقدم فوجد له نظيرا في المادة وهو أولا أنها لم تعرف لها نهاية في جميع أقطارها علوا وسفلا ويمينا وشمالا ، ولا في زمانها أزلا وأبدا ، ولا في عظامها وبعدها المكاني ، ولا في أجزائها عند تحليلها ، فكل هذه لم يعرف لها الانسان نهاية كما لم يكن للكسر الدائر نهاية ، وقد تقدم هذا كله ، وأعدناه هنا لترتب عليه ما يأتي ، وهو المقصود من هذه المقالات كلها .

### الانسان لم يدرس حقائق السياسة كما درس أحوال الحياة

هذا الانسان درس ذلك كله مدفوعا بعامل الحاجة المتقوية لهيكله ، الحافظة لحياته ، ولكنه إلى الآن لم يتفرغ لدراسة نظمه السياسي ، ذلك لأن النظام السياسي كمال ونظام الحياة مقدمة له ، وانقدمات عادة تصنع قبل النتائج .

إذا كان الانسان قد رعى على استكمال نظام حياته واستعان عليها بالرياضيات التي تفلحت في صميم العوالم المحيطة به من كل جانب فأحربه الآن أن يستكمل السياسة بالعلوم الرياضية أيضا ، مثلا الجداول المتقدمة المسماة بالأوراق فانظر فيها أليس المربع الذي فيه عدد ١ والذي فيه عدد ٢ وهكذا إلى نهاية الجدول كل منها في مرتبة لا يسد بها غيره ، وله صلة بجميع الأعداد ، وفي الوسط هناك عدد هو أكبرها ، فتأمل هناك تجد نظاما حسابيا بديعا أشبه شيء بنظام الجسم الانساني والحيواني ، فكما أن كل عدد في الوفق لا يغني عنه سواء ويتوقف عليه جميع ما سواه : هكذا كل عضو في الجسم لا يغني عنه سواء ويتوقف عليه ما سواه ، ولونظمت تلك الأعضاء أو تلك الأعداد لقالت إن المحبة بيننا نامة لشدة حاجة بعضنا إلى بعض ، وإذا كانت العناصر المذكورة في [ سورة العنكبوت ] المشار إليها آنفا بينها نسب هندسية وحسابية ، وهكذا أوراق النبات المرسومة المحسوبة في [ سورة الحجر ] .

أقول : إذا كانت هذه كلها بينها نسب فليس من المعقول أن تكون عقول النوع الانساني وحدها هي المجردة من الحساب والنظام فثبت ثبوتا لا شك فيه أن بني آدم يجهلون أنفسهم وحقائقها ولا بد من دراستها حتى يعرفوا استعداد كل أمة وكل قبيل وكل طائفة ، وتوضع كل أمة وكل فرد في مرتبته التي فطر عليها ، وهذا آت لا شك فيه ، والسبيل لذلك قد شرحت في كتابي [ أين الانسان ] وهذا يتضمن معنى الآيات التي نحن بصدد الكلام عليها وهي : « وفي الأرض آيات للموقنين » والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الثلاثاء ١٢ مايو سنة ١٩٣٢ م

### اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون »

اعلم أيها الذكي أن هذه الآية أشبه باليسملة فإن الرحمة في اليسملة تستدعي ذكر كل ما شملته الرحمة ، وذلك لا يسعه زمان ولا مكان ، هكذا أمرنا لظرفي النفس فإنه لا حد لها ، ولقد تقدم في هذا التفصيل ما فيه جمال

وهيجة لأذكاء المسلمين ، ولكن لابد من أن نذكر هنا [ ثلاث شذرات جليات ] تبصرة وذكري ورجة  
لأن كرين ، وذلك الشذرات لا تختص بعلم تشريح البدن الذي هو المهد لعلم النفس ، ولا بعلم الطب الذي  
به اصلاح البدن ، ولا بعلم النفس الذي هو المقصود بالذات ، بل يعم هذه الثلاثة .

### الشذرة الأولى في كريات الدم الحمراء

جاء في جريدة الاهرام أول يناير سنة ١٩٣٢ م تحت هذا العنوان مانصه : « نشرت صحيفة ألمانية  
خلاصة إحصاء وضعه الاستاذ [ كيزرلغ ] عن عدد الكريات الحمراء في دم الانسان ، ففي الأنتاركتية  
(وهي مقدار ما في جسم الانسان العادي من الدم) من الدم ٢٥ تريليون كرية حمراء ، وإذا وضعت تلك  
الكريات الواحدة إلى جنب الأخرى ألفت خطا طوله ١٨٧٠٠٠ كيلومتر ، ويقتضى عدّها ثمانين ألف  
سنة بلا انقطاع اذا عدّت عشر كريات في الثانية ، وإذا (١) وضعت الكرية الواحدة فوق الأخرى بلغ ارتفاعها  
٦٢ ألف متر : أي ما يبلغ مرّة ونصف من محيط الأرض ، وذلك يساوي مسافة يقطعها قطار اكسبريس  
في مائة يوم اذا كان يقطع سبعين كيلومترا في الساعة ، وإذا وضعت الكريات الحمراء بعضها إلى جنب بعض  
غطت سطحا تبلغ مساحته ١٤٠٠ متر مربع » انتهت الشذرة الأولى .

### الشذرة الثانية

في بعض المنافع الطبية التي تقدّم في هذا الكتاب كثير منها أغنى أولى الألباب عن الطبيب غالبا كما جرّبته  
ولكن الذي ذكرته في طب الأسنان كان يعوزه ما هو أكمل فيه لأنه تقدّم في هذا التفسير أن الأسنان عليها  
مدار أكثر الصحة في الحياة ، وقنا هناك ان الأمة الألمانية وغيرها لاتدع مريضا إلا كتبت قبل الشروع في  
مداوئه عن صحة الأسنان ، فتي داوتها كان ذلك خطوة في صحة المريض ، فهناك ماقاله الدكتور محمد علي عثمان  
طبيب الأسنان المعروف بالقاهرة خريج كلية الطب الملكية المصرية ، وهذا نصه : -

### وجوب المحافظة على الأسنان

الأسنان هي أجسام صلبة تشبه العظام ، موضوعة في مدخل القناة الهضمية ، ومثبتة في قطعتين من  
العظام يقال لهما الفكّان ، وظيفتها قضم ومضغ الطعام ونهيئته حتى يسهل على المعدة هضمه ، فطبيعي أن نظافة  
الطعام المعدة للهضم ، وخلوّه من الميكروبات تتوقف على نظافة الأسنان وخلوّها من المواد المتعفنة ، فإذا  
كانت الأسنان غير نظيفة فعند المضغ يختلط الطعام بما عليها من الأوساخ والمواد العفنة ، ويدخل المعدة  
فيسبب أمراض الأمعاء وعسر الهضم ، وما إليها من أمراض القناة الهضمية ، وجائز بل ومحتم أن يمتص الدم  
جزءا من هذه المواد العفنة فيسبب كثيرا من الأمراض منها بل وأظهرها أمراض المفاصل وأمراض العين  
وغيرها ، فمن ذلك نرى أن العناية بنظافة الأسنان هي أساس الصحة .

### تنظيف الأسنان

سواء أ كانت بالسواك أو الفرجون [ الفرشة ] ، فكلاهما تؤدّي الغرض اذا استعملت بالطريقة الصحيحة .  
الطريقة الشائعة في استعمال السواك أو الفرجون هي تدليك الأسنان بالاداة المستعملة ، وجعل اتجاه تحريك  
الاداة في اتجاه مضاد للاتجاه الطولي للأسنان ، هذه الطريقة خطأ ، فبينما استعمال هذه الطريقة ينظف  
ما ظهر من الأسنان ، فهي في الوقت نفسه تدفع فضلات الطعام بين الأسنان فتتخمر وتكون نواة يتجمع

(١) في هذا خطأ وسواب ولكن نقلناه بالحرف اه

حولها الأوساخ فتتكوّن المواد الجيرية على الأسنان وتظهر كأنها طبقة منها ، وهذه الطبقة الجيرية هي الأساس الأكبر في كل أمراض اللثة وتسويس الأسنان ، واستعمال هذه الطريقة يسبب نأكل اللثة شيئاً فشيئاً حتى تتعرّى الأسنان وتبتدى تتخلخل .

### الطريقة الصحيحة

هي بتحريك الأداة في اتجاه واحد مواز للاتجاه الطولى للأسنان بمعنى أنه عند تنظيف أسنان الفك الأسفل توضع الأداة عند ابتداء اللثة وتحرك الأداة إلى أعلى ، ويكون التحريك دائماً من أسفل إلى أعلى ، فبذلك تخرج كل الفضلات التي بين الأسنان ، أما في أسنان الفك الأعلى فيكون التحريك من أعلى إلى أسفل ، ويجب عمل هذه العملية على كل الأسنان ( انظر شكل ٢٩ )



( شكل ٢٩ - صورة تبين طريقة تنظيف الأسنان السفلى . اتجاه الفرجون من أسفل إلى أعلى )

بعد الانتهاء من تنظيف الأسنان يجب تدليك اللثة بالأصبع حتى تصبح اللثة ذات ملمس ناعم غير لزج فهذا التدليك يفيد :

أولاً : في أنه يزيل الطبقة الرفيعة من الطعام التي قد تكون على اللثة .

ثانياً : تجذب جزءاً كبيراً من الدم النقي إلى هذه الجهة فتقويها .

[ ملاحظة ] يجب تدليك اللثة بعد كل أكل ، بل وكلما أمكن الإنسان في أى لحظة وقت غسيل الفم . أما عملية تنظيف الأسنان فيجب أن تكرر مرتين في اليوم على الأقل [ الأولى ] قبل النوم مباشرة ، لأن الإنسان عندما ينام يكون فيه دائماً مقفلاً فلا يمر فيه إلا الهواء الزفير المملوء بثاني أكسيد الكربون الذي يساعد على سرعة عملية التخمر مع بقايا الطعام ان كانت موجودة في الفم [ والثانية ] عند القيام من النوم ، وذلك أن الإنسان في مدة النوم التي تتراوح بين ٦ — ٨ ساعات فيها لا يتجدد لعابه فيكون غير مستعد لأن يؤدي وظيفته على الوجه الأكمل كما ان طعم الفم عند الصباح لا يكون مقبولا .

عدد الأسنان عند الرجل والمرأة ٣٢ سناً ، منها ثمانية قواطع ، وأربعة أنياب ، وثمانية أضراس صغيرة ، واثناعشرة طواحن . وتركيب السن من تاج وهو الجزء الظاهر في الفم ، وجذر وهو الجزء المثبت في

الفك ومغطى باللثة ، وبين الناج والجذر طبقة يقال لها [ عنق السن ] ، وهي تكون الحد الفاصل بين الجذر والناج ، وفي الحالة الطبيعية تكون [ عنق السن ] مغطاة باللثة . وتتكون الأسنان من : -  
 [ ميناء ] : وهي مادة صلبة جدا ، بل أصلب مادة في جسم الانسان ، وهي تغطي الناج فقط .  
 [ سيمنت ] : وهي طبقة تشابه العظم العلوي من جسم الأسنان في التركيب وتغطي الجذر .  
 [ العظم ] : وهي طبقة سميكه يتكون منها معظم جسم السن ، وتكون مغطاة بالميناء والسيمنت ، وتمتد من الداخل إلى اللب .

[ اللب ] وهو مركز الحياة في السن ، وهو عبارة عن مجموعة شرايين وأوردة وعروق ، ومكانها في تجويف داخل عظم السن ، ومحتويات اللب تتصل بالدائرة الدموية العامة في جسم الانسان ، ومن هذه المحتويات أيضا تتفرع فروع دقيقة جدا تتخلل عظم السن والسيمنت ، وقد تمتد إلى جزء في الميناء . ويتصل السن بعظم الفك بطبقة ليفية رفيعة تحيط جذور الأسنان ، ويمر في هذه الطبقة بعض الشرايين والأوردة والعروق التي توصل الفروع المتفرعة من اللب إلى الفروع الموجودة في عظم الفك .  
 من ذلك ترى أن الأسنان عبارة عن أجسام حية ، لا كما يظن البعض أنها أجسام ميتة لا حياة فيها .

### جذور الأسنان

كل القواطع والأنياب العليا والسفلى لها جذر واحد .  
 الأضراس الصغيرة كلها أيضا لها جذر واحد ماعدا الضرسين الصغيرين الأولين في الفك الأعلى ، فقد يكون لهما جذران .  
 الأضراس العليا كلها لها ثلاثة جذور .  
 الأضراس السفلى كلها لها جذران فقط .  
 هذا التقسيم هو الشائع ، ولكن قد تشذ بعض الأسنان فتخالف المألوف .

### تسويس الأسنان

يتكون تسويس الأسنان من : أن الانسان يترك بعض فضلات الطعام في الفم فتتخمر وتفرز أحياء تؤثر على مادة الأسنان فتذيبها ، وبذلك تتكون فتحة في الأسنان قابلة لأن تمتلئ ببقايا الطعام عند ما يكون التسويس واصلا للعظم فقط قد يشعر الانسان بالآلام عند شرب الماء البارد ، أو الساخن ، أو مع استعمال كثير من التوابل ، أو عند الأكل ، وقد لا يشعر الانسان بالآلام قط ، وإذا ترك هذا التسويس بدون علاج يمتد إلى اللب فيسبب آلاما شديدة متقطعة غير محتملة ، وتزيد الآلام عند ما ينام الانسان أفقيا وتكون حادة جدا عند الأكل أو الشرب .

عند ما يكون التسويس في الأسطح الجانبية للأسنان وهي الأسطح التي لبس عليها ضغط قد لا يشعر الانسان بأي آلام ، وقد يصل التسويس إلى اللب بدون أن يدرك المريض ، ففي هذه الحالة قد يموت اللب ويبقى متعفنا يسبب خراجا .

### أمراض الطبقة الليفية

قد تكون أمراضا حادة ، وفي هذه الحالة يكون الألم مستمرا دقاقا ، وتكون اللثة حول الأسنان حمراء ومتورمة ، وتتألم لأي ضغط ، والأسنان أيضا تتألم عند الأكل ، أو مجرد الضغط ، وتكون في الغالب مخلخلة



وفي هذه الحالة يتكوّن في الغالب خراجا حول السن المريض ، والأمراض المزمنة لهذه الطبقة تكون بتآكل اللثة مع هذه الطبقة ، وسببها يكون من ضغط المادة الجيرية التي تتكوّن على الأسنان ، وقد تكون من أسباب أخرى كثيرة لا يتسع المقام لذكرها .

### أمراض اللثة

[ التهاب في اللثة ] : وفي هذه الحالة تدمى اللثة من أقل لمس ، وسببها الأوساخ والمواد الجيرية التي تتكوّن على الأسنان وعلاجها يكون بإزالة هذه المواد .

[ تضخم اللثة ] : قد تظهر اللثة متورّمة ، وتدمى لأقل لمس ، وسببها كالمرض السابق وغيرها من أمراض أخرى ، وأغلب أمراض اللثة تتقدم بدون أن يعيرها الانسان أدنى التفات فتسبب امتصاص العظم الذي حول الأسنان فتكوّن بذلك بين الأسنان وبين اللثة مسافة قابلة لتخزين فضلات الطعام فتتخمر في هذه الجيوب ، فتجعل الفم ذاراً رائحة كريهة ، وعند ضغط اللثة تفرز صديداً ، وبعض من هذا الصديد يمتص في الدم فيولد أمراضاً كثيرة غير الأمراض التي تتولد من امتصاص هذا الصديد مع الطعام إلى المعدة والأمعاء .

من كل ما سبق نجد أن جميع الأمراض التي تتكوّن في الفم نتيجتها وساخة الأسنان .

[ ملاحظة ] - إذا تكوّنت المواد الجيرية على الأسنان قد تترك سطحاً خشناً ، فمن كثرة احتكاك اللسان بهذا السطح يتكوّن فيه قروح فتسبب سرطاناً . عند ما يتقدم امتصاص العظم الذي حول الأسنان تجد الأسنان تتخاضل وتقع من زوال ماير بطها بالفك . لا يصح أن يعتبر كل تآكل في العظم الذي حول الأسنان مرضاً ، فإن تقدم السن يكون مصحوباً دائماً بتآكل هذا العظم ، ففي حالة كبر السن لا يصح أن يعتبر تعرية الأسنان مرضاً إلا إذا كانت مصحوبة بعوارض أخرى .

### تركيب الأسنان الصناعية

قد نسمع رأى معظم الناس بأن العلاج الوحيد للأسنان من أى مرض كان هو تغطيتها بغطاءات ذهبية .

#### ماعمل هذه الغطاءات الذهبية ؟

أولاً : أنها تعزل السن المريض عن العوامل الخارجية فلا يتأثر بالحرارة والبرودة وغيرها .  
ثانياً : في الوقت نفسه يبقى المرض داخل الضرس فينخر فيه ، فبعد تركيب الغطاء الذهبي عمدة رجيّة يمتدى الضرر في تسبب متاعب كثيرة ، وقد يكون علاجها شاقاً جداً على المريض والطبيب .  
ثالثاً : إن هذه الأغشية تثبت على الضرس بطبقة من الأسمنت ، وأن هذه الطبقة قابلة للذوبان في اللعاب فتترك بذلك مسافة بين الضرس والغطاء يصعب تنظيفها فتتخمر فيها بقايا الطعام وتسبب بذلك أمراض اللثة وما ينتج عنها من الأمراض الويلية .

رابعاً : قد يضغط الذهب على اللثة فيسبب للانسان اختلالاً في الأعصاب لا يعرف لها سبباً .  
خامساً : إن صعوبة تنظيف الفضلات التي بين الذهب والسن تجعل رائحة الفم دائماً كريهة .  
فن هذا ترى أضرار الغطاءات الذهبية المنتشرة في كل أنحاء المعمورة ، والتي يجب أن نمتنع عنها بكل ما أوتينا من قوة ، ولعلاج الأسنان يجب أن نبحث عن سبب المرض فنزيله ، فإن كان الضرر به تسويس يجب أن نظف الضرس جيداً بإزالة الأجزاء المريضة ، وبعد ذلك نضع في الضرس حشواً ليحل محل ما أزيل

من الضرس ، وبذلك نتفادى عن عمل الأغشية الذهبية . وإن كان لا يمكن إزالة المرض يجب خلع الضرس إصالة حتى لا يسبب للإنسان متاعب لاداعي لها .

كثير من الناس عند ما يخضع له ضرس لا يفكر مطلقاً إلا في تركيب بدله شيئاً ثابتاً ، أو بمعنى آخر بتركيب [ كبرى ذهبي ] والكبرى هو عبارة عن غطاءين ذهبيين . مثبتين على الضرسين اللذين حول الضرس المخلوع وبين هذين الغطاءين يوجد ضرس ذهبي ملحوم بهما ، وأظننا بحثنا سابقاً أضرار الأغشية الذهبية ولاداعي لذكرها الآن ، إنما أحسن طريقة لوضع بدل الأضراس المخلوعة هو طريقة الأجهزة المتحركة التي يمكن إخراجها وتنظيفها كلما دعت الحاجة فبذلك يبقى الفم دائماً حافظاً لرواقته .

### الأسنان اللبنية للأطفال

تبدأ أسنان الأطفال في الظهور من سن ٦ أشهر تقريباً . وتكمل في سن ٣٠ شهراً وعددها ٢٠ وتقسيمها :

أربعة أسنان أمامية عليا ، ومثلها سفلى .

نابيين أعلى ، ومثلها اسفل .

أربعة أضراس عليا ومثلها سفلى .

أسنان الأطفال عرضة للأمراض بسرعة ، فتركيبها من مادة ليست من الصلابة الكافية بحيث تقوم ما هي معرضة له من تخمر فضلات الطعام ، ومن الحلوى المغرمة بها الأطفال ، فعند ما يشكو الطفل من أضراره يجب عرضه على الطبيب مباشرة حتى يزول سبب الألم ، وبعض الأضراس عند ما يهمل علاجها تبقى في ذلك مدة زيادة عن المقررة لها ، فتسبب بذلك انعوجاج الأسنان الأخرى الثابتة التي ستحل محلها ، فيظهر لنا الشخص في بعض الأحيان ذا بروز في أسنانه الأمامية ، أو خال في ترتيب أضراره . ويكون نتيجة ذلك سرعة تسرب مرض الأسنان .

### واجب الأم نحو طفلها

يجب على الأم أن تسمح أسنان طفلها يومياً بقطعة مغموسة في [ السبرتوالأبيض النقي ] حتى تبقى أسنانه دائماً نظيفة .

### الاضطرابات التي تحدث للطفل في وقت التسنين

عند التسنين تحدث جلة اضطرابات عند الطفل من الضغط الذي يحدث من السن على اللثة التي فوق منها :

(١) فقدان الشهوة عند الطفل فيرفض كل طعام يقدم له ، ولا يقبل أن يرضع من ثدي أمه .

(٢) يحدث عند الطفل تشنجات وحركات عصبية .

(٣) ترتفع درجة حرارته وقد تصل إلى ٤٠° فيشك أن عنده حمى .

(٤) لأرق المستمر .

(٥) يتقيأ كثيراً ، ويطرد اللبن الذي يعطى له .

(٦) يحصل عنده إسهال شديد .

(٧) بعض الأحيان لا يستطيع الطفل أن يرى النور .

(٨) بعض الأحيان يحصل تصلب في عضلات الرقبة وتراجع الرأس إلى الخلف ، فيشك في الالتهاب

السحائي [ الحى الشوكية ] . في الوقت نفسه يحدث التهاب عام في فم الطفل ، وفي بعض الأحيان

تحصل قروح صديدية في فمه .

ففي هذه الحالات يجب عرضه على الطبيب لعلاج مرض الطفل العام ، وفي الوقت نفسه يعرض أيضا على طبيب الأسنان لعلاج الالتهابات ، أو يفتح الفم ، حتى يخفف الاضطرابات عن الطفل .  
هذا موضوع مقتضب عن حالة الأسنان وأمراضها يمكن به الانسان أن يعرف حالة أسنانه مؤقتا حتى يستشير أصحاب الرأي في ذلك ، ومسبق لا يجب أن يتخذ الانسان قاعدة عامة تسن على كل حالة ، بل لكل حالة علاجها الخاص ، ولكن ممسبق يمكنه أن يكون رأيا مبدئيا عن أى حالة كانت ، وبذلك يستعد لأن يفهم مايقوله له الطبيب عند ما يعرض عليه الحالة . والذي دعاني إلى كتابة تلك الكلمة الموجزة عن الاسنان وأمراضها أستاذنا الكبير فضيلة [ الشيخ طنطاوى جوهرى ] مؤلف هذا التفسير .

دكتور محمد على عثمانه  
جراح وحكيم أسنان  
خرج كلية الطب الملكية المصرية

### الشذرة الثالثة

مسامرة بينى وبين صديقى العالم الذى اعتاد أن يحادثنى فى هذا التفسير

فى قوله تعالى : « وفى أنفسكم أفلاتنبصرون »

وذلك فى يوم الجمعة ١٩ صفر سنة ١٣٥١ هجرية الموافق ٢٤ يونيو سنة ١٩٣٢ م بعد العصر

فى أمر النفس وعجائبها ، ومدار الحديث على ما يأتى :

- (١) الحقول هى السكينة الأولى لعلم النفس وما حوله من العلوم .
- (٢) الأزهر .
- (٣) المدارس النظامية .
- (٤) فلاسفة القدماء .
- (٥) الفلاسفة المحرثون ونظام علم النفس عندهم مع العلوم الأخرى .
- (٦) علم النفس فى اخوان الصفاء .
- (٧) فى جمهورية أفلاطون من حيث قياس نظام النفس الواحدة على نظام الأمة .
- (٨) فى علم التربية الحديث ، وأن علم النفس فيه أوسع نظاما بحيث يرجع إلى مبدأ الخليقة متبعا لسلسلة الرقى الحيوانى والانسانى ، فكأن كل فرد فى حياته سلسلة منتظمة من العوالم كلها ، وهذا آخر ماوصل إليه العلم الآن ، وهذا بعض سرّ : وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلاتنبصرون قال محدثى : إني اليوم أريد أن أحدثك فى هذه الآيات : « انهم كانوا قبل ذلك محسنين ، كانوا قليلا من الليل ما يهجمون ، وبأسحارهم يستغفرون ، وفى أموالهم حقّ للسائل والمحروم ، وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلاتنبصرون ، وفى السماء رزقكم وما توعدون ، فو ربّ السماء والأرض انه لحقّ مثل ما أنكم تنطقون » .

فهاهى ذه آيات انتظمت فيها أولا جواهر العبادات من صلاة واستغفار ، ثم تبعها العطف على الناس بالاحسان ، ثم الكلام على الآيات فى الأرض ، ثم النفس الانسانية ، ثم السماء ، ثم ختم هذا المبحث بهذا القسم ، وبماذا أقسم ؟ أقسم بنفس السموات والأرض اللاتى أحاطت بالنفس من كل جانب ، فقلت :

أيها الأخ الذكي : إن هذا النظام معلوم مما قررته في مواضع كثيرة من هذا التفسير . فقال : ولكنني أريد قولاً أوسع ، ودرسا أتم ، وإيضاحاً أوفى ، بحيث تسكن إليه نفس الحليم ، ويطمئن إليه قلب الحكيم . فقلت : أيها الأخ أحدثك عما زاولته في ذلك مدة حياتي في هذه الدنيا ، وذلك في ثمانية فصول :

### الفصل الأول علم النفس في الحقل

رباه : أنت قد أشرق نورك ، وتجلي جلالك في البر والبحر ، والعامر والقفر ، والجبل والسهل ، والنهر والحقل . ذلك أتي أيام الصبا وزمن الخيرة المطلقة لم يكن لي مدرسة إلا في حقلنا الذي كنا نزاول الزراعة فيه ( في أرض الثمانية ) بكفر عوض الله حجازي ، فسبحانك اللهم وسعدانك ، ماذا كانت دراستي ؟ دراستي فيها كانت راجعة إلى مافي الحقل من ذرة وقح وقلبان وبرسيم ، وماحوله من ماء جار وطرق يطرقها المارون ثم مافوق الحقل من الهواء والسحاب والمطر ، والأضواء والنجوم ، والشمس والقمر ، والحر والبرد . هذا هو الذي كنت أدرسه ، ولكنني كنت جاهلاً جت جاهل ، أدرس ولا أدري ماذا أدرس ، أنظر بعين حائرة ، وقلب خافق مضطرب ، ونفس وثابة إلى العلا ، فالنفس وامقة ، والشقة طويلة ، فأين المفر ؟ . هنالك حرت في هذا الوجود الذي يرجع لثلاثة أمور : نفسى المضطربة ومافوقها وما تحتها ، فالوجود كله ثلاثة في حقلنا .

هذه أيام حيرتي ، ولكنني كنت أستعين بالصبر والصلاة ، أصلي ليلاً وأصوم نهاراً ، وأضرع إلى صانع نفسي وأخاطبه وأنا أنظر إلى النجوم ليلاً قائلاً : يا الله : قد ظهر لي أنك برّ رحيم بهذه الطيور ، قد علمتها ووهبتها كل ماتحتاج إليه ، وأنا أريد المعرفة ولست أدري من يعلمني ، أفلا ترى أيها الأخ أن ما اتفق لي في ذلك يوافق أول هذه الآيات من حيث الأكباب على العبادة والاتجاء لصانع العالم ، وهذه مجرد مصادفة لأنني ما كنت أدري من هذا شيئاً . لأنني كنت أحفظ القرآن بلا علم ولا عقل ولا هدى ولا كتاب منير .

واسم كنت أسامر النجوم ليلاً ، وأنفقد الشجر والزهر ، والثمر والحب ، وكل حشرة ودابة الخ فهذه كلها كنت أدرسها درساً غامضاً ، أتلّس الحقيقة بين هذه المخلوقات . انتهى الفصل الأول .

فقال : قبل أن ننتقل للفصل الثاني أرجو أن تذكر لي قبل المباحث الأخرى لماذا ذكرت النفس بعد العبادات وبعد آيات الأرض ؟ فقلت : هذا الترتيب يظهر لك في الفصول الآتية ، لأنك ستري أن الأم قبلنا لم تجد لها مناصاً من دراسة العوالم التي حولنا قبل دراسة أنفسنا ، لأن هذه العوالم مقدمات لخلق نفوسنا ، فدراستها يجب أن تكون مقدمة على دراسة النفس ، فهاهوذا أفلاطون في الجمهورية يجعل النفس مقيسة على نظام الأمة ، وهام أولاء الفلاسفة المتقدمون وهومنهم يقولون : إن لها قوى ثلاثة سيأتي إيضاحها ، وهذه القوى نظامها كنظام النبات والحيوان وهي الشهوية والغضبية والعاقلة . فقال : قد اكتفيت بهذا الآن . فقلت :

### الفصل الثاني : دراستي في الجامع الأزهر

كنت أدرس فيه علوم اللسان من النحو والصرف وعلوم الأحكام الفقهية ، وبعض المنطق والتوحيد ، وهو الذي حرّك وجداني للبحث ، لأن نظامه إذ ذاك لم يكن مثل نظامه اليوم ، فهو اليوم أرق مما كان عليه إذ ذاك ، وسيزداد إن شاء الله تعالى .

ولطالما كنت وأنا أحفظ في [ متن المنهج ] وهو آخر كتاب لدراسة الفقه أنظر إلى السماء وأقول : يا الله أنا أريد الحقائق ، وقد طلبت منك ما فوق هذا ، واقفد أوضحت هذا المقام في ثانياً هذا التفسير في كتابي

[ التاج المرصع ] الذي ترجم إلى القازانية ببلاد روسيا ، وإلى الاوردية ببلاد الهند ، ونشر في جميع بلاد الاسلام ، فليراجعه من أراد . انتهى الفصل الثاني .

### الفصل الثالث في مدرسة دارالعلوم

لما دخلت هذه المدرسة اعتراني الدهش مما رأيته فان العلوم الطبيعية من الضوء والحرارة والصوت ونحوها هي التي كنت أفكر فيها في حقلنا وهكذا الحيوان والنبات ، ثم علم الفلك ، فكنت في المدرسة مثلي في الحقل أقرأ بشوق وتوق لتشبع النفس مما كانت تتوق إليه ، إذن الحقل كان لي مشوقاً ، أفلا ترى أيها الأخ الذكي أني على حق اذا قلت : إن أمم الاسلام يجب عليها أن لاتهمل أبناءها كما أهملت أنا في الصغر وضاع زمان المراهقة في حفظ القرآن بلا عقل ، وأن تبادر بتعليم الأطفال ما كنت أتعلمه وأنا فتى ، فليروهم جلال الأشجار والأزهار والأنهار والنجوم ، وليحبوهم في ذلك ، فاذا انتظموا في سلك الدراسة قالوا هذا الذي كنا ندرسه من قبل ، وهذه الطريقة هي المتبعة في جميع بلاد الله شرقاً وغرباً الآن ، ولكن العلوم في تلك المدرسة علوم جزئية فلا بد من البحث في :

### الفصل الرابع في الكلام على الفلاسفة القدماء

هنالك اشرأبت نفسي إلى أن أقف على آراء النوع الانساني في علم النفس وسوابقه ولواحقه بهيئة نظامية فان الحقل لاعلم فيه إلا المشوقات ودراسة الدين بالطريقة القديمة دراسة جزئية ، وبعض الكتب والعلوم تريك النفوس ، ودراسة المدارس إيضاح لما أشكل على في الحقل ولاكني أريد أن أنظر النظام العام وآراء الأمم جميعاً فيه حتى تطمئن نفسي وأقول اني لم أهملها في التعاليم فاذا وجدت ؟ وجدت أن محصل علوم الأمم القديمة فيما كنت أدرسه في الحقل هكذا . نظروا في مقادير المادّة من العدد والمقياس والحركات ، ومعنى هذا أنهم قبل أن يدرسوا نفوسهم اضطروا أن يدرسوا المادّة التي تتركب منها أجسامهم التي تسكنها نفوسهم ، ذلك لأن أجسامنا مركبات مما حولها فدراسة ما حول الأجسام الانسانية مقدّمة لدراستها ، ودراسة تلك الأجسام مقدّمت لدراسة النفوس ، ومتى درسنا نفوسنا انتقلنا إلى ما ينتج عنها من الاجتماع المدني والمنزلي والتهذيب الخلقى ، فعندنا مادّة حولنا وأجسام لنا ونفوسنا ، وتنتج نفوسنا ، وقوّة قاهرة فوق الجميع ، ولكن هذه المادّة لاتصح دراستها إلا بمقدّمات وهي الأعراض القائّمت بها ، وذلك مثل العدد والمقدار والحركات وهكذا فاذن ابتدءوا بعلم الرياضيات ثم الطبيعيات المختومة بعلم النفس ثم الالهيات ، وأخروا العلوم السياسية الثلاثة وهي : تهذيب النفس وتدريب المنزل وتدريب المدينة ، فأول العلوم عندهم علم الدولة [ الارتماطيقى ] تسعة أقسام مشروحة في كتابنا [ بهجة العلوم ] في الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم العصرية [ تحت الطبع ] . وثانيها الهندسة [ الجومطريا ] الذي يبحث عن النقطة والخط والسطح وهكذا ولها علوم تفرّع عليها وصناعات تتبعها ، ولاجزم أني في الحقل كنت أفكر في أعداد هذه الأشياء ، وفي الامتداد والطول والعرض وأشكال المخلوقات البديعة وبدائعها ، إذن هذان العلمان مبدؤهما كان في الحقل من عدّ وامتداد . وثالثها علم الفلك [ الاسطرونوميا ] وفيه صفة البروج والمنازل وحساب الشمس والقمر وهكذا ، ولاجزم أن هذا العلم هو الذي كنت أفكر فيه ليلاً وأنا أنظر النجوم بلا علم ولاهدى ، ويلحق بعلم الفلك عند القدماء علم الجغرافيا ، ورابع العلوم علم الموسيقى ، وعلم الموسيقى ليس شيئاً سوى مقياس حركات الأصوات كما أن الزمان مقياس حركات الأفلاك ، قاسوا حركات الكواكب فقالوا علم الفلك ، وقاسوا حركات الأصوات فقالوا علم الموسيقى ، وهذا العالم كله موسيقى ، وقد جعل الله لنا



دليلا على ذلك غناء الأطيوار على الأشجار ، وحفيف الأوراق ، ونعمات الأشجار اذا هبت الأرواح وفات الأفياء . هذه هي الموسيقى التي وضعها الله وأنعم بها على العالمين ولكن أكثر الناس لجهاهم بها لا يظربون ، ويظنون أن الطبيعة لا تطرب فيها لأنهم غافلون .

هذه هي العلوم الرياضية عند القدماء وهي ترجع إلى الأعداد والحركات والمقادير ( وبعبارة أخرى ) إن هذه لابد منها قبل دراسة المادة المقدمة على الجسم المقدم على النفس المقصودة بالذات .  
خامس العلوم علم المنطق الذي به ينظم الفكر كما انتظم النطق بالنحو ، وبهذا انتهت العلوم الرياضية وما يقرب منها وهو المنطق .

سادس العلوم إلى ثالث عشرها هي العلوم الطبيعية ، وما هي العلوم الطبيعية ؟ هي التي كنت أجاهد وأنا في الحقل لأعرف حقائق المادة التي أزاول العمل فيها ، مثلا علم [ سماع الكيان ] وما هو سماع الكيان ؟ عبارة عن دراسة الهيولى والصورة والحركة والزمان والمكان وما يخص الجسم من الأعراض الزائلة واللازمة ، وهو العلم السادس .

سابع العلوم « السماء والعالم » وهو عبارة عن شكل العالم العام ونظامه في أفلاكه وكواكبه وطبقاته ولكن تكون الدراسة إجمالية . ولا جرم أني في الحقل كنت أبحث عن ذلك وهذه العوالم تحيط بي .  
ثامن العلوم : يبحث فيه عن تكون المعدن والنبات والحيوان وما أشبه ذلك ، وهذه كلها كانت محل نظري في الحقل وفي دار العلوم ، وهذا يسمى [ علم الكون والفساد ] .

تاسع العلوم : هو الذي يبحث فيه عن حوادث الحر والبرد والسحاب والمطر والتلج والرعد والبرق وقوس قزح والهالات ، ومنشأ السحب من البخار ، وغير ذلك من الدور والظلمة ، وتصاريح الرياح ، والأنهار والبحار ، وما يكون من الغيوم والضباب ، والطل والندي ، والشهب وذوات الأذنان ، وما شا كل ذلك ، وهذا العلم يسمى [ الآثار العلوية ] وهي التي كنت ألاحظها في الحقل ولا أفهمها .

عاشر العلوم : وهو الذي يبحث فيه عما في التراب والطين والأرض السبخة كالكباريت والأملاح والشبوب والزاجات ، أوفى قاع البحار كالدر والمرجان ، أوفى كهوف الجبال ، وجوف الأحجار ، وهو [ علم تكوين المعادن ] .

حادي عشرها : [ علم النبات ] والبحث عن أجناسه وأنواعه وخواصه ومنافعه ومضاره ، وما ينبت منه على رؤوس الجبال ، وعلى شواطئ الأنهار ، وفي الآجام ، وما يغرس في القرى والبساتين ، وما يكون منه تحت الماء ، وما ينبت منه على وجه الماء ، وما ينسج على الشجر ، وعلى وجه الصخور وهكذا .

ثاني عشرها : علم الحيوان وعجائبه وطبائمه ، وأنه متصل بالنبات من أدناه ، مرتبط بالإنسان من أعلاه .  
ثالث عشرها : [ علم الإنسان ] وفي هذا العلم يبحث عن أصرين : تركيب جسده وهو علم التشريح ، ومعرفة نفسه وما يلزمها وهي الحواس الخمس وما فيها من الحس المشترك ، والقوة الخيالة والمفكرة والذاكرة وهكذا .

فترى من هذا أن علوم المادة وأحوالها قد قدمت على علم جسم الإنسان ، لأنه لا يفهم إلا بعد فهمها ، وهذا هو السبب في قوله تعالى : « وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون » فالقرآن قدم الأرض ومباحثها وهي العلوم المتقدمة وهي اثنا عشر علما على علم النفس ، وهكذا الفلاسفة ، إذن القرآن أشار بقوله : « وفي الأرض آيات للموقنين » إلى هذه العلوم الاثني عشر ، وأتى بعدها بعلم النفس .

نرجع إذن إلى أقوال الفلاسفة القدماء ، فنقول : قد اطلعنا في كلام أمثال ابن سينا والفارابي وابن رشد على علم النفس فوجدنا أنهم يقولون بناء على ما وصل لهم من علم اليونان أن في الرأس مواضع منها ماهو للفكر

في وسطها ، ومنها ماهو للخيال في مقدّمها ، ومنها ماهو للتدكر في مؤخرها ، وكانوا يقولون : انهم عرفوا ذلك بواسطة علماء الطب ، لأنهم لما رأوا أن مرضا يحلّ بجهة من هذه الجهات يخلّ ماهو منوط بذلك الجزء من الادراك كالتيخل والتفكر والتذكر .

قرأنا ذلك إجمالا غامضا وانتهى ذلك الدور ، ثم وجدناهم أيضا يقولون : إن للنفس قوّة شهوية وهي للنبات أقرب ، وقوّة غضبية وهي بالآساد والغمور من الحيوان أليق ، وقوّة عاقلة وهي إلى الملائكة أقرب ، فعليه نرى أن ماسند كره في علم التربية حديثا من جعلهم أن الطفل يمرّ على الأدوار السابقة للانسانية من مبدئها إلى آخرها سيأتى إن هو إلا أشبه بتفصيل لما أجله القدماء .

ثم إن القدماء يأتون بعد هذه العلوم بأبحاث عاقمة ، وهذه الأبحاث العاقمة يسمونها [ العلم الإلهي ] أو [ الكلّي ] أو [ العلم الأعلى ] وذلك العلم الإلهي أو الأعلى جعلوه أقساما :

(١) فمنها قسم سموه [ الامور العاقمة ] مثل : ماهو الوجود والماهية والوحدة والكثرة والوجوب والامكان والامتناع ونسب ماينها وماينخصها من حيث هي موجودات [ مثال ذلك ] أن يقولوا : إن الوحدة في جسم الانسان ظاهرة ، فهو واحد من جهة لكنه كثير من جهات أخرى ، فله أعضاء وحواس وأجزاء لايعرف عددها ، وجواهر فردة الخ فهنا وحدة وهنا كثرة ، والعدد الذي لانهاية له واحد من جهة أنه عدد وكثير من جهة أفراده ، والعالم كله واحد كثير من جهات ، وهكذا من تلك المباحث .

(٢) ومنها قسم في النظر في مبادئ العلوم كلها وتبيين مقدّماتها ، وهكذا المقولات العشرة المذكورة في ثنايا هذا التفسير مشروحة كالكم والكيف الخ .

(٣) ومنها قسم للنظر في إثبات الإله الحق والدلالة على وحدته وتفرّده بالربوبية وإثبات صفاته ، وبيان أنها لا توجب كثرة في ذاته .

(٤) ومنها قسم للنظر في إثبات الجواهر المجردة وهو العقول والنفوس والملائكة .

(٥) ومنها قسم للنظر في أحوال النفس البشرية بعد الموت .

فهذه خمس علوم سموها [ علم ما وراء الطبيعة ] وخصها ابن سينا في كتاب الشفاء والاشارات ، فهذه بضمها إلى ما قبلها تبلغ العلوم ١٧ علما ١٣ في الرياضيات والطبيعات وخمسة في الالهيات ، وهذه يسمونها العلوم العلمية ، وهي رياضية وطبيعية وعلوم كلية لا تختص بقسم من القسمين الأولين ، وهذه هي العلوم العلمية ويتبعها نتائجها ، وهي العلوم العملية ، وهي الخاصة بعمل الانسان وما قبلها كلها راجعة لعمل الله تعالى وهذه العلوم ثلاثة : علم الأخلاق الباحث عن القوى الثلاث المتقدمة الشهوية والغضبية والعاقلة ، وعلم تدبير المنزل في معرفة معايشة الأهل والخدم الخ وسياسة المدينة ، وهو علم السياسة المعروف ، وفي هذا العلم إجمال عام لسياسات الأمم .

فهذه عشرون علما ١٧ علمية وثلاثة عملية ، وهذه العلوم لها فروع كثيرة [ مثال ذلك ] علم الهندسة له فروع مثل علم المناظر ، وعلم المرايا المحرقة ، وعلم مرا كز الأثقال ، وعلم المساحة ، وعلم انباط المياه ، وذلك لاجياء الأرضين ، وعلم جرّ الأثقال ، وعلم البنكومات ، وهو علم به يعرف إيجاد الآلات المقدّرة للزمن مثل هذه الساعات التي يحملها الناس اليوم ، ومثل الآلات الحربية .

فهذه فروع الهندسة ، وهذه أصبحت صناعات تدرس في مدارس خاصة ، وترى أن علمي النبات والحيوان يتفرّع عليهما فروع كثيرة فإن صناعتي النجارين والجزارين ترجعان إلى النبات والحيوان ، وعلى هذا فقس

فالعلوم المذكورة وفروعها عند القدماء بلغت نحو ٦٠ ولهذا الستين فروع بلغت مئات سجلتها قدمائنا في كتبهم هذا ماوصل إليه علم القدماء ، ولكن نفسى التي تعلمت مبادئ هذه العلوم في الحقل وخرجت منه في شوق إلى العلم لا تنقف عند كلام القدماء ، هنالك نظرت في كلام المتأخرين فإذا رأيت ؟ رأيت مايتأتى :

### الفصل الخامس في ذكر ما رآه الأستاذ بيبكون الانجليزى

انه قسم العلوم المذكورة إلى ثلاثة أقسام : [أولاً] نظر إلى العلوم الاثني عشر الأولى ومعها علم التشريح فقال هذه لا أسميها فلسفة ، وقال : كل علم منها له تاريخ فلنقسمها هكذا : التاريخ الرياضى ، التاريخ الطبيعى كالحيوان والنبات الخ . ثم قال : فأما علم النفس ومعرفة نظام الطبيعة ومعرفة الله فهى التى أسميها فلسفة ، إذن الفلسفة الحديثة هكذا : تواريخ العلوم المتقدمة على علم النفس ، ثم نظام الطبيعة ، ثم علم النفس . إذن [ بيبكون الانجليزى ] بهذا التقسيم الذى عليه مدار الدراسة فى كرتنا الأرضية الآن تقرربا هكذا العلوم التى كانت تسمى رياضيه وطبيعيه جعل مقدمات للفلسفة ، وسميت بتواريخ لهذه العلوم وعليه الدراسة فى المدارس العامة الآن ، والامور العامة وهى العلوم الخمسة جعلها قسمين : قسم منها وهو الخاص بنظام الطبيعة سماه نظام الطبيعة ، والقسم المختص بالله فصله وحده وأخذ علم النفس أيضا فقال هكذا : [ الله ، نظام الطبيعة ونفسى ] وانما ذكر نظام الطبيعة لأن جزئياتها مشروحة قبل هذا العلم فى الذى سماه تواريخ العلوم . فأما العلوم العملية الثلاثة فانه ضم إليها علم المنطق ، وقال : هكذا النفس تعقل المنطق ، إذن هذا العلم يتبع نفسى ، ثم إن نفسى تعرف الجمال ويعوزها التهذيب ونظام الأسرة ونظام المدينة فيقول : إن نفسى يتفرع عليها علم الجمال بعد المنطق ، وعلم الأخلاق ، وعلم تدبير المنزل ، وعلم سياسة الأمة .

### مبدأ التقسيم عند القدماء وعند المحدثين

نظر [ بيبكون ] إلى تقسيم المتقدمين فرأى أنهم يقولون هكذا : العلم الطبيعى يحتاج إلى المادّة فى ذهننا وفى الخارج ، والعلم الرياضى يحتاج إلى المادّة فى الخارج لافى أذهاننا لأننا نتصور العدد بدون التقيد بمادّة خاصة ، والعلم الالهى لايعوزه مادّة فى أذهاننا ولا فى الخارج .

أقول : لما نظر هذا التقسيم . قال : ومالنا وللمادّة فانرجع التقسيم إلى نفوسنا ، إن نفوسنا فيها قوّة الخيال ، وقوّة الفكر ، وقوّة التذكر ، فهذه إليها ترجع جميع العلوم .

فأما القوّة الخيالة فإليها يرجع كل ما كان من قبيل الشعر والنقش والتصوير والموسيقى ، فهذه العلوم التى ترجع إلى التصوير والتخيل فانها ترجع إلى تلك القوّة .

وأما قوّة الذّاكرة فلها جميع العلوم الرياضيه والطبيعيه ، وهى الثلاث عشرة المتقدمة . وعلم التاريخ الأثرى والبشرى ، فهذه كلها تواريخ حفظت فى ذاكرة الانسان وعليه العمل اليوم كما تقدم ، فالتاريخ البشرى منه عام وخاص ، والتاريخ الأثرى هو ما جاء فى الكتب السماويه ، وهكذا التاريخ الطبيعى والرياضى الخ .

أما القوّة العاقله فعلموها هى المختصة بالفلسفة : [ الله ، ونظام الطبيعة ، ونفسى ] ومن النفس تفرّع المنطق والجمال وما والاها كما شرحناه .

تبين من هذا أن النوع الانسانى اليوم رجع العلوم إلى النفس فن العلوم سوابق وهى ١٣ علما ، ومنها معرفة الله ونظام الطبيعة ، ومنها الواحق وهى علوم نظام الأمم (وبعبارة أخرى) ان نظام العوالم ودراسه مقدم على علم النفس ، ونظام الانسان مؤخر عن دراستها ، إذن دراسة مدارس الأمم الآن تجرى على نظام هذه الآيات ، فقله : « وفى الأرض آيات للموقنين » يدخل فيها علوم نظام الطبيعة وما قبله ومعرفة الله ،

وقوله : « وفي أنفسكم » الخ إليه يرجع علم النفس ، تلك النفس التي جعلت مبدأ لتقسيم تلك العلوم سوابقها ولواحقها ، إذن آيتنا التي نحن بصدد دهرها الآن يجب على المسلمين أن يفكروا فيها ، إذن نحن نستحق أن نعنف على جهلنا فيقول الله لنا : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » وهذا التعنيف يخجل نفوس الأذكياء منا معاشر المسلمين فلندرس .

فقال صاحب العالم : إن هذا البيان لجبل جد جليل ، ولكنني أريد أن أسألك سؤالاً يحول في خواطر أكثر الناس : هل هذه الآية يترتب عليها هذا كله ؟ أي أنك تقرأ علوم الأمم كلها عليها ، وهل أذكىاء المسلمين مكفون بذلك ؟ فقلت : لم لا وما المانع ؟ أأنت أنا شهيداً على الناس ؟ فقال أنت أنت . فقلت : وأنت أيضاً ، ألم تسمع الله يقول : « لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » فكيف نشهد على الناس ونحن لا نعقل علومهم ؟ فليقم الخواص بدراسة علوم الأمم ، وأهمها علم نفوسنا . فقل : إن علماء الإسلام لم يقولوا ما نقوله أنت في هذا المقام . فقلت : ولكن القرآن يقول . فقال القرآن ؟ فقلت نعم . فقال : ماذا يقول في هذا ؟ قلت : انه لم يقتصر على قوله : « لتكونوا شهداء على الناس » بل أوضحها في آية أخرى وهي : « وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين » فهل نشهد على الأمم إلا بعد العلم بما نشهد به . فقال حسن جداً ، فأرجو إيضاح علم النفس الآن . فقلت : ذلك في :

### الفصل السادس

فيما قاله [ اخوان الصفاء ]

إن كتاب [ اخوان الصفاء ] جاءت فيه العلوم موجزة ولكنها أوضح مما في الكتب التي قبلها ، وقد جعل أكثر العلوم المذكورة في حسين رسالة ، وأكثرها ثمين وأقلها غث ، وفيها آراء يجب تعديلها أو محوها فلندكر ما فيها من حيث علم النفس ، وهذا الموجز سأنقله بنصه وفصه من نفس الكتاب ، ومؤلفه هو الذي لخصه في أوله ، وهالك نصه :

### الرسالة العاشرة في الحواس والمحسوس

والغرض منها هو البيان عن كيفية ادراك الحواس محسوساتها واتصالها بواسطة القوة الحاسة واتصالها إلى الحاسة المشتركة الروحانية الواصلة التي منها انبعثت قوى الحواس الظاهرة وأنها ترد كالخطوط الخارجة من المركز إلى المحيط بنقط كثيرة الراجعة إليه بنقطة واحدة وهو أول منازل الروحانية ، إذ القوة الحاسة المؤدية إليه جسماني بوجه وروحاني بوجه ، والحاسة المشتركة أعني الداخلة روحانية محضة لأن حكم الجزء منها حكم الجميع وإن كانت التجزئة لا تقع عليه بالحقيقة ، لأن تصوورها الشيء بادراكها واتصالها إلى القوة المتخيلة التي مجراها مقدم الدماغ لتوصلها إلى القوة المفكرة التي مجراها وسط الدماغ لتمييزها وتخلصها بحولانها فيها وتعرف حقائقها ثم توصلها إلى القوة الحافظة الذاكرة التي مجراها مؤخر الدماغ لتمسكها وتحفظها معتقدة أو غير معتقدة إلى وقت التذكر ، ثم تؤديها إلى القوة الناطقة العاقلة التي هي ذات الإنسان المدبرة لكل الباقية بالذات تنزع جميع المعاني والصور ، ثم تصوّر تلك المعاني والصور المتزعة من مصوراتها المترسمة فيها ، وهي القوة الناطقة أيضاً بواسطة الأولى ، فتلك الصورة هي لها كالموضوع وكالهيولى ، والقوة المعبرة أيضاً للنطق الخارج هي القوة الناطقة أيضاً على وجه ثان بواسطة الألسن ، فإذا همت الأولى بإظهار شيء إلى خارج وهو النطق الإلهي على الحقيقة من صورة النفس تصوّرت النفس الثانية إذ هما جوهر واحد لتجودهما عن المواد وتعرفيهما عن الهيولى أعني الجسمانية فتأدّت إلى القوة الناطقة التي مجراها على اللسان لتعبر عنها بالألفاظ الدالة للمخاطبين على

المعاني التي تخرج من النفس إلى القوة الصانعة التي مجراها اليدان لتخط بالأقلام على أوجه الألواح وصفحات الدفاتر وبتون الطوامير تلك الألفاظ وهي النطق الخارج والكلام الظاهر لتبقى العلوم بصورها الذاتية أعني معانيها محفوظة من الأولين إلى الآخرين ، وخطابا من الحاضرين للغائبين ، إلى يوم يبعثون . انتهى ما أردته من كتاب « اخوان الصفاء » وبهذا تم الكلام على الفصل السادس والحمد لله رب العالمين .

## الفصل السابع

فيما جاء في جمهورية أفلاطون

نظر أفلاطون في علم نظام الأمم فقال : « لاسبيل إلى نظام الدولة إلا بأن يكون فيها فلاحون وعمال وصناع وتجار الحن وهؤلاء أشبه بالقوة الشهوية في الانسان ، وبأن يكون فيها جند مدرّبون بالكرام والسلاح ، وهذه هي القوة الغضبية لحفظ الدولة في الداخل والخارج ، وناظرها في الانسان قوة غضبية بها يحافظ على شرفه وأدبه ، وبأن يكون فيها رجال عرفوا باسموا النظر والعقل الراجح ، وهم رجال السياسة الذين يأمرّون الجند ، وهؤلاء الساسة وجندهم لهم السلطان والاشراف على الزراع والصناع والتجار ، وهذه الطوائف الثلاث لا بد من نظام واعتدال فيها وهذا هو العدل » .

ولقد شرحت هذا النظام في مواضع كثيرة من هذا التفسير كالذي في [ سورة النحل ] عند آية : « إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » فهكذا قوى الانسان الثلاثة اذا قويت القوة العاقلة حكمت على الغضبية وهي تشرف على القوة الشهوية وتم النظام بين الثلاثة كان العدل ، فهذه أربعة أصول في مقابلة الأربعة الأولى .

فلما سمع ذلك صاحبي قال حسن والله ، لقد اطلعنا على هيئة العلوم في العالم ، ولكن لم تذكر لنا علماء الصين ، هل كان علمهم على هذا النمط ؟ فقلت : لقد تقدّم في [ سورة الحجرات ] ما يفيد أن أمم الصين قبل التاريخ كانت معارفها على هذا النمط ( وبعبارة أخرى ) ان القرآن في أكثر سورته يمثل لنا عقول الأمم وعلمها . فقال : هذان أمران فأرجو ايضاحهما . فقلت نعم : أما الأمر الأول فهو قول [ كونفشيوس ] فيلسوف الصين قبل الميلاد المذكور في [ سورة الحجرات ] فان أقواله هناك هكذا :

- (١) إن قدماءهم نظموا الممالك .
- (٢) بعد أن نظموا أسرهم .
- (٣) وهذا بعد تهذيب أخلاقهم .
- (٤) وهذا بعد تنقية نفوسهم .
- (٥) وهذا بعد كونهم مخلصين صادقين في تفكيرهم ، منزهين في أغراضهم .
- (٦) وهذا بعد توسيع معارفهم .
- (٧) وتوسيع معارفهم كان عن طريق البحث والمشاهدة . انتهى — ( وبعبارة أخرى ) هكذا :
- (١ و ٢) توسيع المعارف بالمشاهدة : أي مشاهدة الأشياء والأفعال .
- (٣) ثم كمال المعارف .
- (٤) ثم خلوص أفكارهم ونزاهة أغراضهم .
- (٥) ثم تهذيب أخلاقهم ونقاوة نفوسهم .
- (٦) ثم انتظام أسرهم .



(٧) ثم انتظام دولهم . هذا هو الأمر الأول .

أما الأمر الثاني فهو هذه الآية : « وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون » . فقال : ولكن الآية قدمت الأرض على السماء ، فلم يكن ترتيب العلوم الذي شرحناه مطابقا لها . فقلت : هو مطابق كل المطابقة ، انه قدم الأرض وبعدها النفس ، ثم ذكر السماء والأرض معا مقدما السماء ، وذلك معناه تقديم العلوم الرياضية ، لأن علم الفلك من نتائجها . فقال حسن ولكني أريد أصرح من ذلك في القرآن بحيث ينطبق على نظام علوم الأمم كلها المذكور هنا . فقلت : هناك سورة تفيد ذلك وهي : « والشمس وضحاها ، والقمر اذا تلاها ، والنهار اذا جلاها ، والليل اذا يغشاها ، والسماء وما بناها » . فهذه الخمس ترجع لعلم الفلك وهو من العلوم الرياضية ، بل هو أجل ثمراتها ، ثم هو من جهة أخرى علوم مشاهدة أشار لها [ كونهشيوس ] وقوله : « والأرض وما طحاها ، ونفس وما سواها » موافق لآيتنا هنا : « وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون » . ومعنى هذا أن العلوم الطبيعية المشروحة قريبا تكون قبل علم النفس في نظام المدارس وفي القرآن ، والعجب العجيب من القرآن انه قدم الأرض على النفس في هذين الموضعين وفي غيرها وألم الأمم جميعها أن تفعل ذلك وقال [ لبيكون ] : يايكون اجعل نظام الطبيعة قبل علم النفس كما قال لكونهشيوس بالصين ولاخوان الصفاء وللأمم كلها ، إن هذا القرآن مدهش ، إذن عندنا مزرعتان : مزرعة هي أرضنا ، ومزرعة هي نفوسنا ، ومزرعة نفوسنا هي المذكورة في سورة الشمس إذ يقول الله بعد ذلك « فألهما فجورها و تقواها ، قد أفلح من زكاهما ، وقد خاب من دساها » .

جلّ الله : أليس هذا بعينه هو الأخلاق والسياسة ونظام الدولة ، أليس الفجور والتقوى واضحين في الأخلاق والأسرات والممالك ، أليس هذا بعينه هي السياسة العملية المتقدمة عند فلاسفة اليونان والعرب وأوروبا والصين ، فها هو ذا يكون يقول : نظام الطبيعة ثم النفس ثم الأخلاق وسياسة الناس ، وها هم أولاء فلاسفة القرون الأولى يؤخرون الأخلاق وما عطف عليها عن العلوم ، وها هو ذا كونهشيوس يفعل ذلك ناقلا عن آبائه المتوغلين في القدم ، وهم لا يعرفون علوم اليونان ولاغيرهم .

أيها المسلمون : لا عطر بعد عروس ، ولا مخبأ بعد بوس ، حمّ الأمر وأزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة ، لتقرءوا مزارع الله في الآفاق ومزارعه في النفوس ، إن القرآن لوح رسمت فيه صور علوم الأمم تذكرة لكم فهل أنتم متذكرون ؟

تباركت يا الله : أرينا علوم الأمم السابقة كلها فرأينا مدارها على علم نفوسنا ، فنفسنا هي المصدر الأصلي ، فقد جعلوا علوم الرياضيات والطبيعات مقدمات لمعرفة النفس وعلوم السياسات والأخلاق والجمال نتائجها ، ومنهم من غير بعض النظام ، وذلك تبع اختلاف الأنظار وتباين الآراء ، والنتيجة من هذا كله فهم قولك في قرآننا الكريم : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » .

هأنحن أولاء نظرنا في أنفسنا نظرا مستمدا من آراء الأمم كلها لنشهد على علم ، ولكن لانتم شهادتنا في ذلك إلا بدراسة علم النفس والتربية الحديثة ، لأن العلوم المذكورة نقلها تلاميذ ابن رشد من يهود ومسلمين إلى أوروبا منذ نحو ٧ قرون فارتقت تلك العلوم ، وإذا بقينا على ما قرأناه من كلام قدمائنا أصبحنا كأننا نعيش في القرن الثالث عشر الميلادي ، ولكن نحن في القرن العشرين ، إذن فلنذكر :

### الفصل الثامن فيما جاء في علم النفس الحديث

أماي الآن كتاب [ أصول النفس وأثره في التربية والتعليم ] تأليف الأستاذ [ أمين مرسى قنديل ] أستاذ علوم النفس والتربية بمدرسة المعلمين العليا ، ألفه بعد أن أخذ شهادات عالية في هذا العلم من جامعات

أوروبا ، فهو كتاب موثوق به يدرس بمصر الآن ، وهو علم لم يدرس من قبل في بلادنا ، وموضوعات الكتاب هكذا مثلا : معنى العلم وأغراضه ، حقيقة علم النفس ، طرق البحث في علم النفس ، فروع علم النفس ، التربية وعلم النفس ، العقل ، الشعور ، اللا شعور ، الاستهواء ، الجهاز العصبي ، رد الفعل ، الأفعال المنعكسة ، تربية الجهاز العصبي ، الغرائز والميول ، دراسة طائفة من الغرائز والميول الفطرية ، العادات ، التعلم ، التمرن ، الشوق ، التشويق ، الشوق والتربية ، الانتباه ، عوائق الانتباه كالتعب ، الأعمال المدرسية ، وهكذا .

### نظرة عامة في علوم النفس عند القدماء والمحدثين

أيها الأخ الذكيّ هذه صفحة عامة من صفائح نفوسنا المشرقات ، تلك النفوس التي هي مزارع الله عز وجل في أجسامنا ، وحقوقه التي تولى هو غرسها بيديه وقال لنا : « وفي أنفسكم أفلاتنبصرون » بعد أن أرشدنا إلى أن ننظر دراسة مزارع أرضنا .

ها هو ذا الآن أمامي كتاب [ سلوك المالك ، في تدبير الممالك ] الذي ألفه شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي الربيع ، ألفه للخليفة المعتصم بالله العباسي ، إن المؤلف في هذا الكتاب قسم الفضائل والذائل تقسيما عجيبا جدا ، وأوضح ذلك أيما إيضاح ، وعلم الملوك والسوقة والفضلاء وغير الفضلاء ، ولم يترك بابا إلا ولجه ، ولا فضيلة إلا فصلها ، ولا رذيلة إلا أوضحها ، بمجداول جميلة وعبارات طريفة وبهجة وجمال ، ولا تقتصر على ما جاء فيه من جداول الأخلاق الناقصة ، ثم أتبعه بما جاء في علم التربية الحديث المذكور ، أريد بذلك أن يرى المسلمون وأنت أيها الذكيّ أولهم آراء الأولين والآخرين في أحوال نفوسنا ، وأنهم جميعا يسعون لغرض واحد متجهين لنتيجة واحدة ، ذلك أنهم جميعا يعاملون النفوس في محو رذائلها معاملة الأجسام في شفاء أمراضها بحيث أصبح تهذيب النفس مطابقة لشفاء الجسم من حيث سير العلاج الجسمي والروحي معا سيرا منظما ، فانظر كيف يقول صاحب كتاب [ سلوك المالك ، في تدبير الممالك ] في صفحة ٣٨ مانصه :

إن من شرّ رذائل القوة الغضبية الغضب ، وهو أكبر الرذائل ، وله مواد وأسباب :

الذيلة	مداواتها
الزهو	باستعمال التواضع
الحجب	بمعرفة عيوب النفس
الفخر	بالتيقن أنه من جنس عبده
المرح	بالتشاغل بما يجب من الحقائق
الهزل	بالجهد في طلب الفضائل
الهزؤ	بالسكر من أذى الناس
التعير	بالقدرة على ترك الأقاويل القبيحة
الملاحاة	بصيانة النفس عن مرّة الجواب
المصاداة	بترك العناد
القدر	باستعمال الوفاء

ثم أبان أن هذه كلها سببها الخوف : أي أنه يزهل لأنه يريد العلو ويخاف من عدم هذه الصفة وهكذا البواقي ، فإذا استهزأ بغيره فعناه أنه أعلى منه وهكذا . ثم أخذ يذم أمثال الكسل الذي هو جزع من أن يفعل فعلا ما كسل عنه ففيه معنى الخوف أيضا لأنه يخاف أن يعمل ، ثم الخجل والحياء ، فالأول جزع من

أن يعرف بشيء قبيح لم يفعله ، والثاني جزع من أن يعرف بشيء قبيح فعله ، وذكر (الفرق) بفتح الراء من فعل شيء عظيم يضعف عن احتماله (والحذر) وهو الجزع من شعور أمر متروك واشتباؤه ، ثم الذعر وهو الجزع من صورة ليست مألوفا الخ .

هذه صفحة من علم الأخلاق في كلام قدمائنا في العصور الأولى ، وعلم الأخلاق ريب علم النفس ، فهم أولاء جعلوا لكل منقصة دواء ، وما هو هذا الدواء ؟ هو أن يجعلوا الضد مزيلا لصدده كما يفعل الأطباء بحيث يداون الحار بتعاطي البارد والعكس بالعكس ، فلننظر إذن في كلام علماء التربية في عصرنا ، فهذا كتاب « أصول التربية » فقد جاء فيه في صفحة ١٥٣ تحت عنوان « استعمال غريزة ضد أخرى » ماملخصه : —

إن المربي يستعمل غريزة ضد أخرى ليخفف من شرها ، فغريزة الخضوع تخفف شر غريزة السيطرة والظهور ، والخوف يردع به الطفل عن كثير من الشرور ، وهؤلاء يقولون : « إن الغرائز لا تجوز إزالتها بل يجب تهذيبها وتوجيهها إلى المثل الأعلى لا قتلها فان قتلها جناية » — [مثال ذلك] غريزة المقاتلة والافتناء يجب أن توجه إلى مغالبة الآلام والتغلب على العقبات التي تعترض المرء في طريقه ، وإلى المنافسة في عمل الخير ، وإلى الدفاع عن مبدأ نبيل ، وضربوا لذلك مثلا بأن الحكومات تتخذ اللصوص القدامى وسائل لمساعدة رجال الشرطة في ضبط السارقين والقاتلين ، فهذا معناه أن المربي ينقل الغريزة من حال ضارة إلى حال نافعة ، فالغضب والمقاتلة عند المذهب يكونان معينين على كل فعل نبيل كالدفاع عن كل ضعيف . هذه هي الصورة الواضحة في التربية الحديثة ، وهي على منوال التربية القديمة ، فالعلم هو عينه غاية الأمر أن الحديث قد أوضح إيضاحا أكمل ، وأبان وجوه الإصلاح أيما إبانة .

وإذا فرغت من إيضاح الصور التهذيبية عند القدماء والمحدثين فلا تشرع في شرح المزارع التي تزرع فيها تلك التعاليم والحدائق الغناء الالهية التي تنبت فيها تلك الأزهار والرياحين .

### تبصرة وتذكرة لآياتنا التي نحن بصدد الكلام عليها

« وفي الأرض آيات للوقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون »

فقال صاحبي : إن المسافة طويلة ، والشقة بعيدة بين مزارع الأرض ومزارع الدماغ ونبات الأخلاق فيه ، إن مزارع الحقول مشاهدة ، وهل شوهدت مزارع الغرائز في حقل الدماغ ، غاية الأمر أنها عرفت بطريق الاستنتاج . فقلت : أعلم أيها الأخ الذكي أني كما كنت في الحقل أيام الفتوة أرى المزارع وهي كانت درسي نهارا ، والنجوم وهي كانت درسي ليلا ، هكذا اليوم أشهد فيما ستراه في الدماغ مزارع الغرائز متجلية واضحة تزهرفيها الغرائز والأميال ، فكما كانت النجوم والحقول وما بينهما من نفوس الناس هي التي منها استمدت جميع العلوم التي شرحناها هنا في الأمم كلها ، هكذا هذه الججمة الصغيرة التي سترها الآن أصبحت مزرعة فيها جميع المزارع التي كنت أشاهدها ، والنجوم التي كنت ألاحظها ، والعلوم التي درستها ، والسياسات التي عرفتها .

تباركت يا الله : جعلت الأرض مكان الانبات ، وجعلت أدمغتنا حدائق ، كل حديقة منها مختصرة من هذا العالم العظيم وعلوه المصلا . جلّ الله ، جلّ الله . ومما أدهشني فيما ستره أيها الأخ النبيل أن ما كنت أقرؤه في الكتب القديمة من أن الخيلة في مقدم الدماغ ، والمفكرة في وسطه ، والقوة الذكورية في مؤخره كما ذكرته سابقا ، وأن ذلك استنتجه الفلاسفة من تجارب الأطباء في مرضاهم أصبح اليوم مشروحا على هذا

الخط بعينه ، فسترى أن هناك مناطق ثلاثة : أمامية ووسطى وخلفية ، جعلت للتفكير والتصور ، وباضطرابها لا يكون الإنسان عاقلاً ولكن علماء العصر الحاضر برعوا براعة أوسع من السابقين :

(١) أرونا أن في المخ تلافيف وشقوقاً تتضح في العقول الكبيرة ، وتصغر ولا تتضح في العقول الصغيرة وفي الحيوان .

(٢) أرونا أن للمخ نصفين كل نصف يقسم أربعة أقسام ، فهذه ثمانية أقسام ، وكل قسم يسمى باسم عظم القحف الذي يقرب منه ، وكل واحد من هذه الثمانية ينقسم إلى أقسام على حسب التلافيف التي فيه الخ (٣) إن المخ محيط بجميع المواصلات في الجسم .

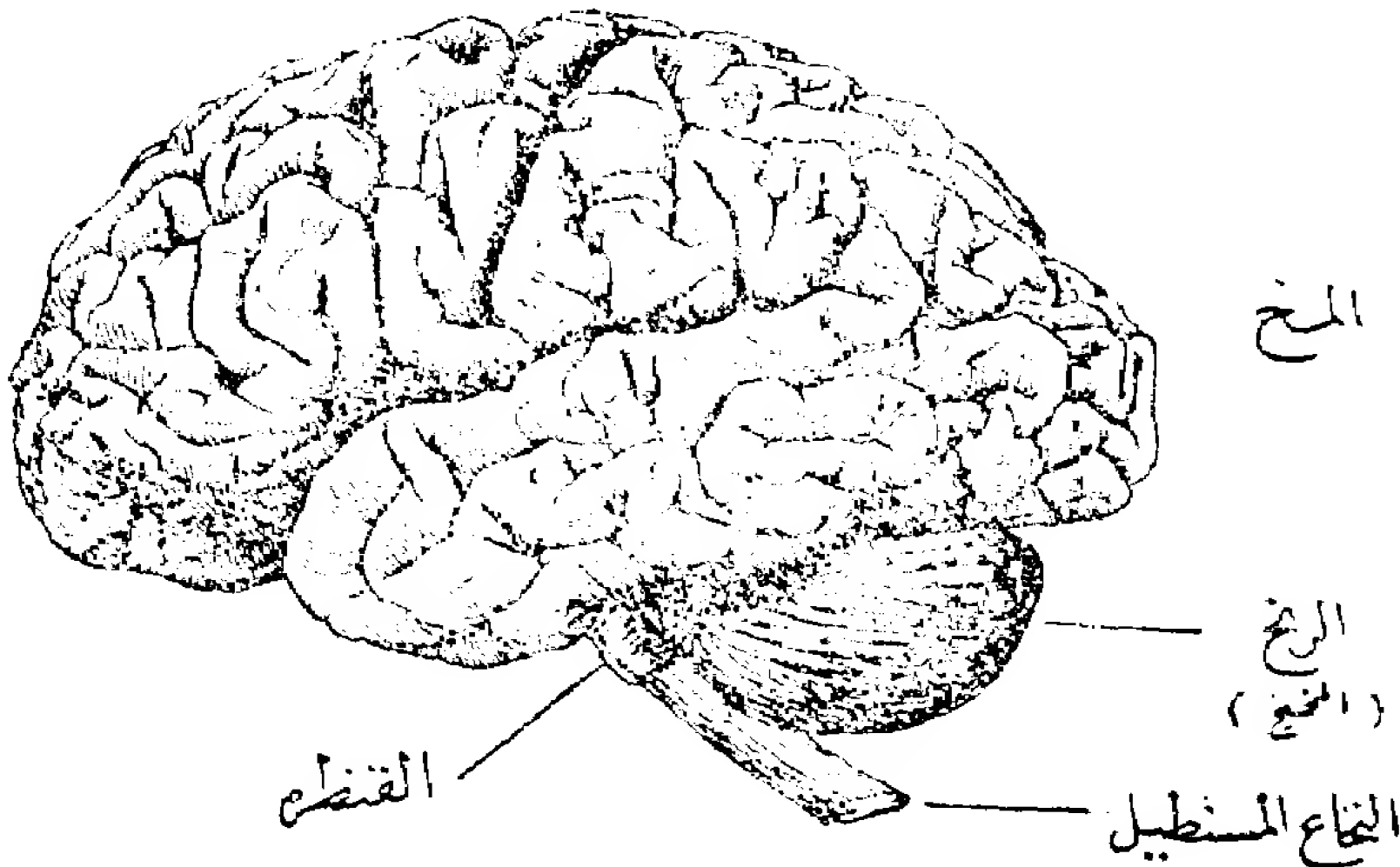
وستشاهد أن في هذا المخ مناطق معينة للحس وأخرى للحركة وأخرى لربط المعلومات ، فترى منطقة البصر عند الفص المؤخرى من الرأس ، وهناك منطقة إدراك المراتب والقراءة ، وبلى تلك المنطقة من الداخل منطقة السمع ثم الذوق والشم ، وهاتان بالقرب من الفص الصدغي . وترى في المنطقة الخلفية التي تقرب من الفص الجداري مرا كز ربط تلك المعلومات وترتيبها وتنظيمها ، وترى أيضاً منطقة ربط أخرى أمامية . أيها الأخ الذكي : اننى الآن في دراسة مخ الإنسان لم أعد ما كنت أدرسه في الحقول أيام الشباب ، كيف لا ، أليست هذه المزارع التي في أدمغة الإنسان بعد أن يدرسها المدرسون ويعرفوها ، يحتملون في تهذيبها وتوجيهها ، وفي انتزاع واهلاك ماضٍ منها ، ويوجهون الغرائز من الضار إلى النافع .

فيا ليت شعري أى فرق بين تقطيع الحشائش في الحقول وبين إزالة الكذب من أفواه الأطفال ، ثم أى فرق بين تهذيب القوة الغضبية في الطفل بأن نوجهها إلى اقتناء الفضائل ، وإلى الحاسة في حياية الضعيف وبين تقليمنا الأشجار وتشذيبنا الأغصان لتعدل الأشجار عن إضاعة قواها فيما لا يفيد ، ولنتجه إما إلى ازدياد الخشب في نحو الصنوبر ، وإما إلى ازدياد الثمار في الأشجار المثمرة ، إذن نظام العالم واحد « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » وحتلنا كما كان مضرب مثل لعلوم الأمم هكذا هو مضرب مثل لعلوم النفس وتهذيب الأخلاق ونظام مناطق مخ الإنسان .

فقال صديقي : الله أكبر ، الله أكبر ، حسن حسن ، يظهر لي أنك ذكرت هذه المقدمة لتكون نورا بأنفس به من يطلع على هذه المعاني فيما تريد أن تلقيه ، لأن هذا العلم صعب المنال ، بل إذا لم يفهم القارئ إلا ما ذكرته خسبه ، والعقول الكبيرة ستفهم نفس الموضوع بتفاصيله وصوره الشمسية . فقلت : نطقت بالصدق ، فهناك الموضوع الذي اخترته من ذلك الكتاب بتمامه ، فقد جاء فيه في صفحة ١٠٩ وما بعدها ما يأتي بالحرف الواحد :

## المخ

« يملأ الجزء العلوى من القحف ممتداً من الأمام إلى الخلف ، وحدته الأسفل من الأمام مستوى الحاجبين ، ومن الجانبين حذاء الأذنين (انظر شكل ٣٠)



(شكل ٣٠)

ويبلغ متوسط وزنه ١٤٠٠ جرام (١) إذ هو يختلف عادة بين ١٣٠٠ و ١٨٠٠ جرام ، ويشبه في الشكل قلب الجوزة ، فهو منقسم بشق مستطيل إلى نصفين متماثلين : النصف الأيمن ، والنصف الأيسر ، ويعرف كل منهما بنصف كرة ، والنصفان ليسا منفصلين بعضهما عن بعض تمام الانفصال بل متصلان من الأسفل بحزمة من الألياف العصبية تعرف بالجسم الصلب ، وبكل نصف منهما ثنايا كثيرة تعرف بالتلافيف بينها منخفضات ظاهرة تسمى شقوقا ، وهذه الثنايا تجعل سطح المخ في مجموعه كبيرا جدا ، وبذلك تكون المادّة السمراء أو اللحاء كبيرة أيضا ، لأنها تدخل في الشقوق وتغطي التلافيف كلها ، وهذه التلافيف قليلة ليست ظاهرة في الحيوانات ، ولكن كلما ارتقى الحيوان بدت الشقوق والتلافيف عميقة جليلة حتى انها لتكون واضحة كل الوضوح في الانسان فكأن نموها وعددها يسيران يدا بيد مع نشوء الحيوان وترقيه في سلم النشوء والتطور . تتميز التلافيف بعضها عن بعض بالشقوق التي بينها ، وأهم هذه الشقوق اثنان : شق رولندو ، أو الشق الأوسط ، وشق سلفيوس ، أو الشق الجانبي ، والتلافيف تختلف اختلافا قليلا باختلاف الأفراد ، ولكنها في جلتها ثابتة ، ولذلك وضع لكل منها اسم خاص كما وضع لكل شق اسم خاص به أيضا و تراها واضحة في ( شكل ٣٠ ) الذي تقدم قريبا .

ينقسم كل نصف من نصفى المخ إلى أربعة فصوص يسمى كل منها باسم عظم القحف القريب منه ، وهذه الفصوص هي : (١) الفص الجبهى (٢) والفص الجدارى (٣) والفص الصدغى (٤) والفص المؤخرى وكل فص من هذه الأربعة ينقسم إلى أقسام أخرى حسب ما فيه من التلافيف ، فالفص الأمامى مثلا ينقسم إلى أربعة تلافيف التلافيف : الأوسط الأمامى (الصاعد الأمامى) والتلافيف الأعلى ، ثم الأوسط ، والأدنى .

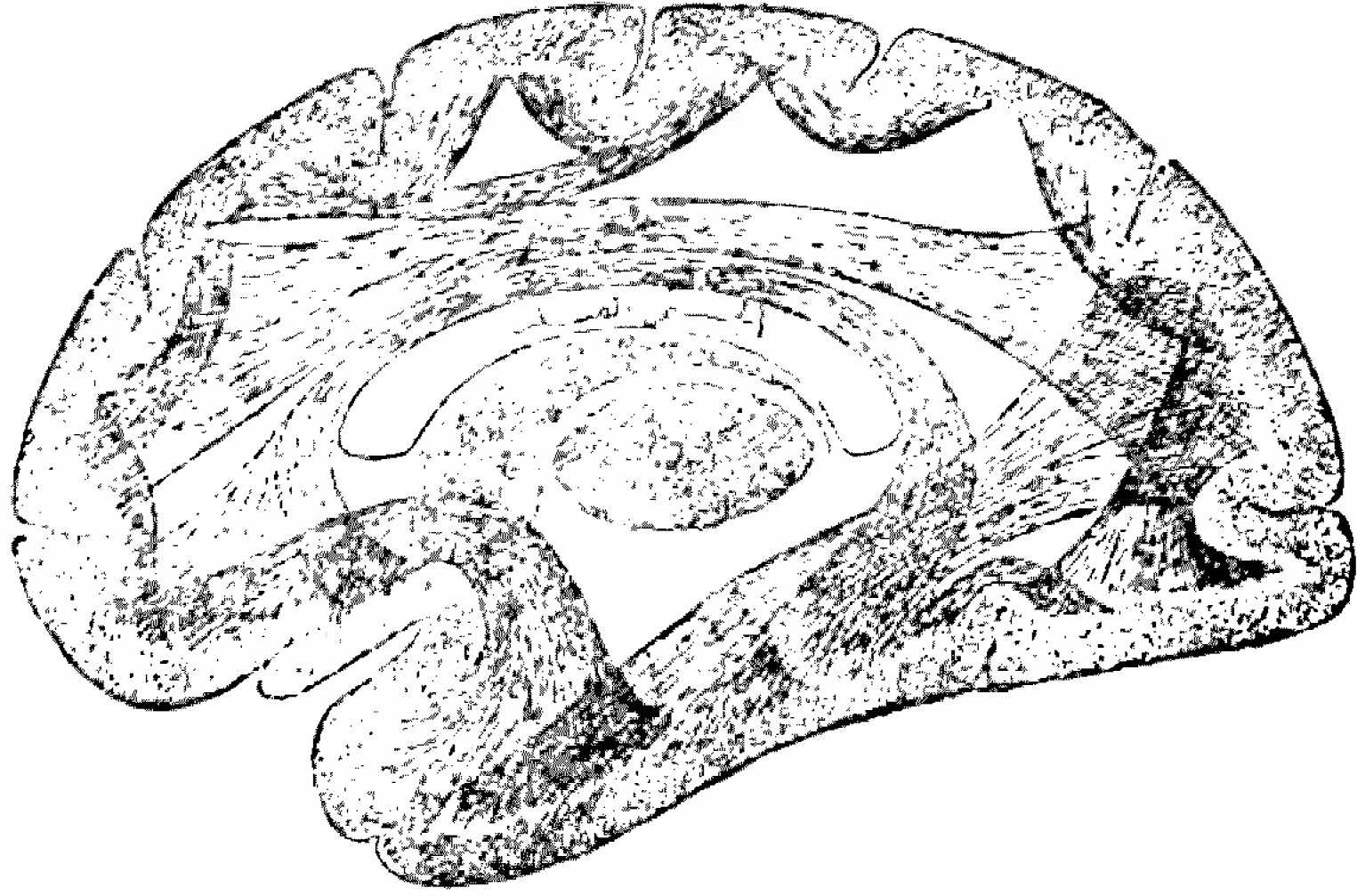
### مادة المخ البيضاء

تتكون هذه المادّة البيضاء من الألياف العصبية المغلفة بذلك الغلاف الأبيض العازل الذي يجعلها بيضاء اللون ، وأغلبها خارج من الخلايا المحركة التي في المخ ، والبعض الآخر وارد إليه من الخلايا الحساسة التي في المحيط ، فالألياف الصادرة تخرج من أجسام الخلايا المتعددة في اللحاء ، ثم تجتمع هذه الألياف بعضها مع بعض وتكون حزمين كبيرتين من المادّة البيضاء متصلان بالقنطرة وبالنخاع المستطيل (انظر شكل ٣١) في الصفحة التالية .

(١) لقد حاول كثيرون أن يجعلوا زيادة وزن المخ على هذا المتوسط دليلا على الذكاء ، فخ الأبله والغبي يكون عادة أقل من المتوسط بكثير ، في حين أن مخ العالم الطبيعى [كوفيه] كان يزن ١٨٦٠ جراما ، ومخ [اللورد بايرن] الشاعر الانجليزى ١٨٠٠ جرام ، ومخ [كرومول] ٢٢٠٠ جرام ، ومع ذلك فإن هذه لاتتخذ قاعدة ثابتة ، فخ [لحمبتا] الخطيب الفرنسى يزن أقل من المتوسط ، ولكن يقال ان تلافيفه كانت أعمق من المعتاد ، والحقيقة أنه لابد من أن نحسب لنوع المخ حسابا ، وأن لا يقتصر على الثقل وحده .

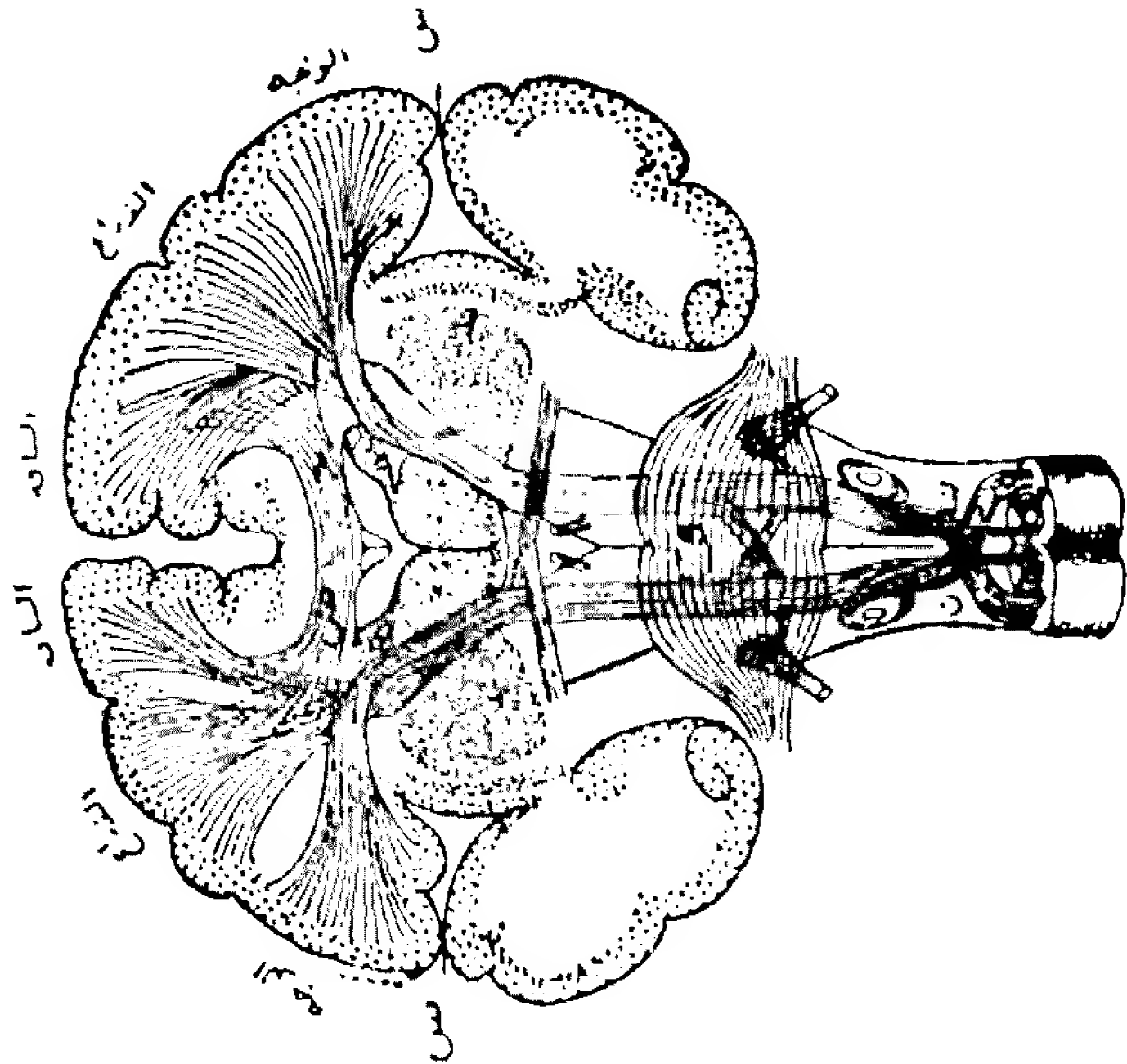
على أنه قد حاول كذلك كثير من العلماء إيجاد نسبة بين ثقل المخ والجسم ، لينبئوا من وراء ذلك مقدار الذكاء ، وغاية ما يستطيع الجزم به هو أنه كلما كانت النسبة كبيرة كان الحيوان أذكى من غيره ، ومع ذلك فهذه الحقيقة ليست مطلقة ، فبعض الطيور كالعقق نسبة ثقل مخها إلى جسمها الصغير أكبر من نسبة ثقل مخ الانسان إلى جسمه اه





( شكل ٣١ - مقطع جانبي للمخ بين الألياف الرابطة متجهة بين كل تلافيف وآخر وبين الفصوص المختلفة وترى الجسم الصلب في الوسط )

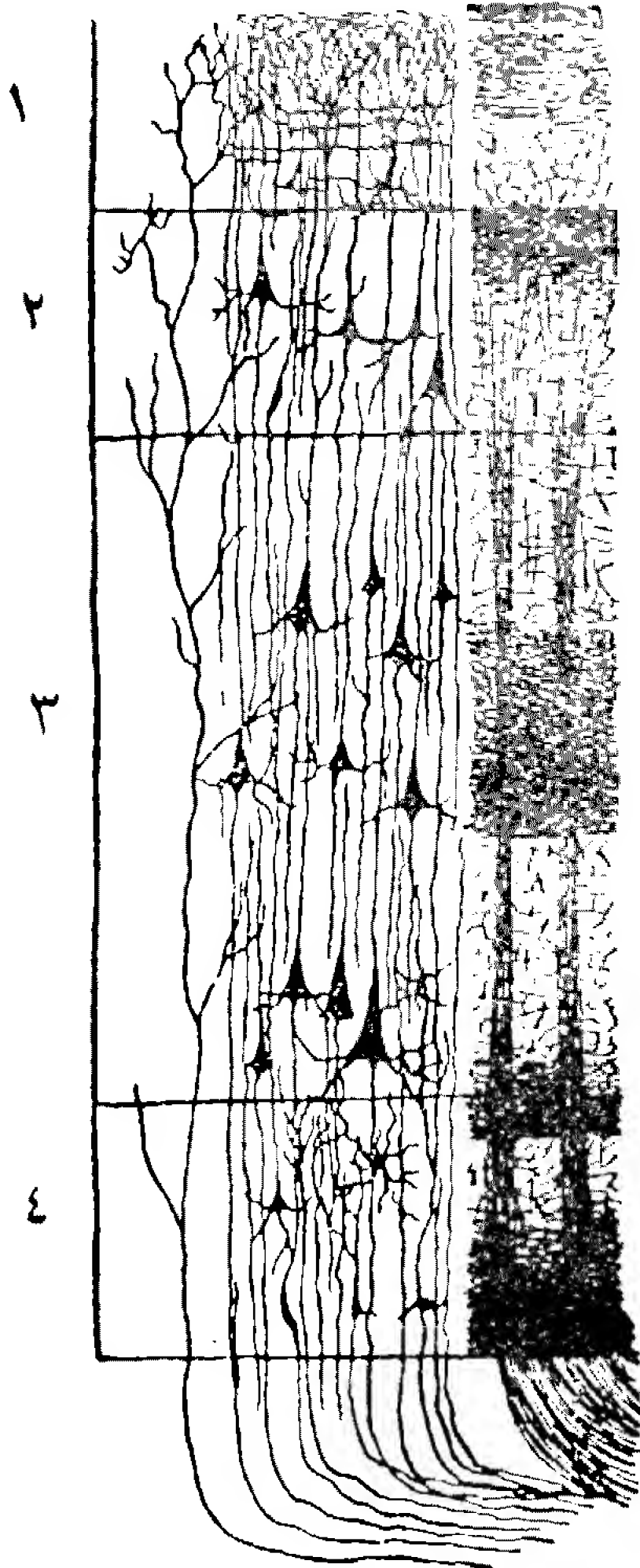
- والألياف البيضاء التي تتكون منها مادة المخ البيضاء أربعة أنواع :
- (١) ألياف رابطة وترى متجهة بين التلافيف تربط خلاياها كل نصف كرة بعضها ببعض كما ترى في شكل ٣١ وبذلك تنصل مرا كز اللحاء كلها بعضها ببعض .
- (٢) الألياف الضامة : وهذه أيضا رابطة ، ولكنها تربط نصفي الكرة بعضها ببعض بواسطة الجسم الصلب وغيره ، بذلك تكون التلافيف التي في كل نصف كرة مرتبطة بالتلافيف التي في النصف الآخر .
- (٣) الألياف المصدرة وهي محركة ، وقد تسمى الألياف النازلة .
- (٤) الألياف الموردة وهي حساسة ، وقد تسمى بالألياف الصاعدة .
- وكلا الألياف المصدرة والموردة هذه تربط اللحاء بالأجزاء السفلى من المخ وبالحبل الشوكي ، ويتصل بالدماع مباشرة اثنا عشر عصباً تذهب إلى الرأس كلها تقريبا وتفرّع في أعضاء الحواس المختلفة (شكل ٣٢)



( شكل ٣٢ )

مقطع مستعرض للدماغ يوضح الألياف المصدرة وتقاطعها عند النخاع المستطيل (ق) قنطرة (د) (س) الجسم الصلب (س) شق سلفيوس

## اللحاء



( شكل ٣٣ )

• قطع في اللحاء بين طبقاته وأشكال خلاياه المختلفة . الجزء الأيمن من الشكل يوضح الألياف العصبية . والأيسر يوضح الخلايا . وهذان الشكلان يجب أن يتصورا معا بعضهما فوق بعض . وبذلك يتضح التعقيد الكبير في تركيب اللحاء .

تغطي الدماغ كله طبقة رقيقة من المادة السمراء وهذه تتكون كما تقدم من أجسام الخلايا العصبية وأوائل فروعها ، ويختلف سمكها القليل الذي لا يزيد على ثلاثة مليمترات باختلاف أجزاء المخ ، واللحاء على رفته يتكون من خمس طبقات من الخلايا بينها طبقات أخرى من الألياف العصبية ، وخلايا الطبقات تختلف شكلاً ووظيفة .

(١) فالطبقة العليا ، أو السطحية تتكون من خلايا قليلة العدد تمتد فروعها امتداداً أفقياً وأكثرها يتكون من فروع خلايا الطبقات التي تحنها ، ومن نهايات الأعصاب الموردة ، وهي كلها لا تزيد على مليمتر ولا شك في أن وظيفتها ربط الخلايا الحساسة (الموردة) بالخلايا المحركة (المصدرة) .

(٢) تلي هذه الطبقة طبقة أخرى بها خلايا كثيرة العدد ، مختلفة الحجم ، هرمية الشكل ، وظيفتها الربط أيضاً ، وسمك هذه الطبقة يزداد بمرق الحيوان في مرتبة النشوء ، ثم طبقة :

(٣) ذات خلايا صغيرة نجمية الشكل محاورها قصيرة كثيرة التفرع .

(٤) ويلي هذه طبقة رابعة فيها خلايا هرمية كبيرة الحجم طويلة المحاور : وأغلبها في منطقة الحركة في المخ .

(٥) وأخيراً توجد طبقة خامسة خلاياها متعددة الشكول ، مختلفة الحجم .

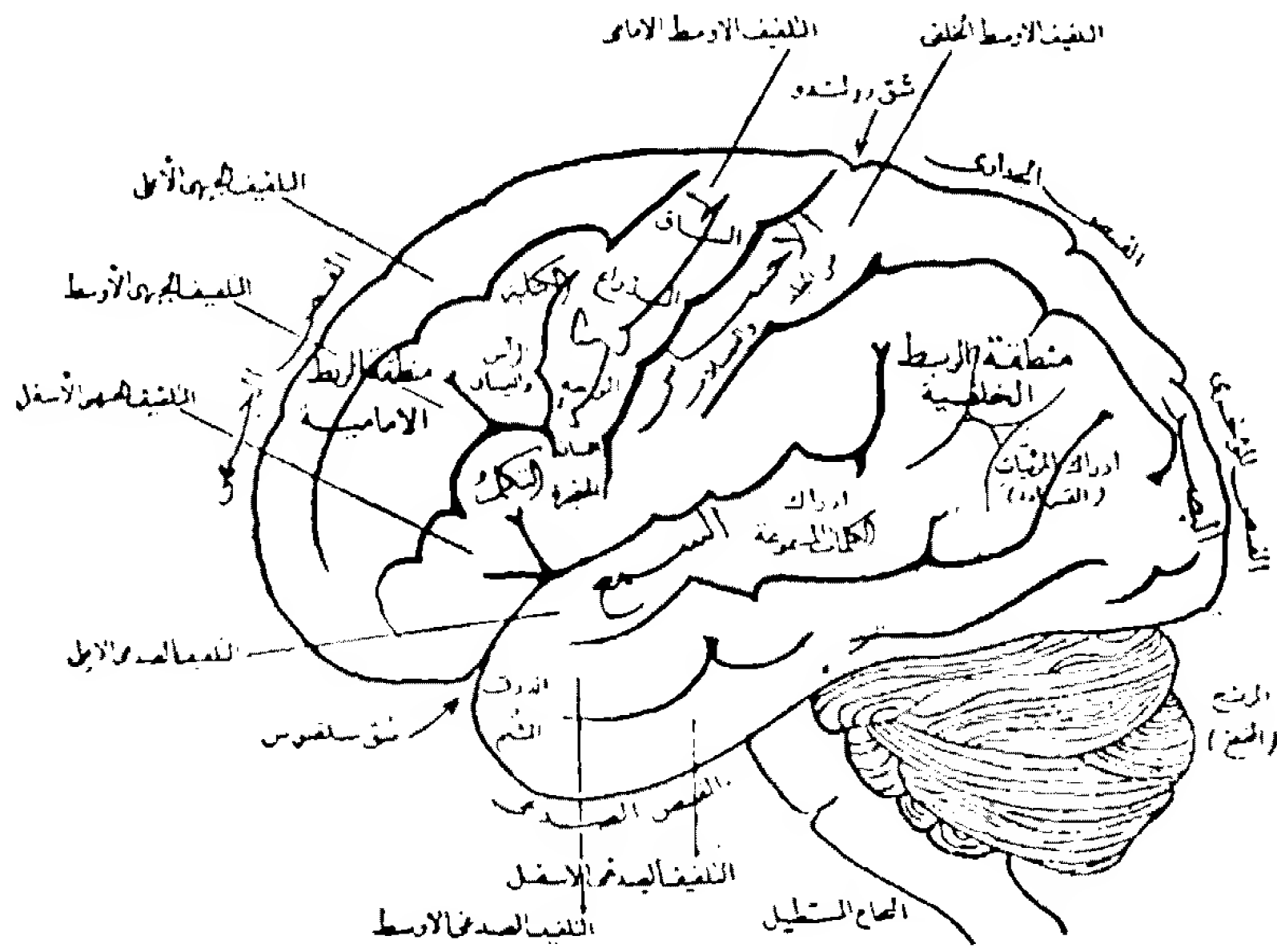
خلايا اللحاء المخي كثيرة جداً معقدة التركيب ومختلفة الشكل ، كل خلية ترسل فروعاً كثيرة متشابكة تشابكاً كبيراً بعضها مع بعض ومع غيرها من فروع الخلايا الأخرى ، وهذا التشابك الكثير مما يميز الإنسان الراقى عن غيره من الحيوان ، وفي الوقت نفسه إلى اللحاء نهايات محاور كثيرة أيضاً من أجزاء شتى تشابك أطرافها مع فروع الخلايا الأخرى ، وإذا تذكرنا أن بالمخ مراکز تمثل جميع أعمال الجسم الكثيرة ووظائف أعضائه المختلفة اتضح لنا مقدار التعقيد الكبير في تركيب المخ ، ولا سيما في طبقاته الرقيقة الخطيرة الشأن المعروفة باللحاء .

## وظائف المخ

المخ أهم أجزاء الجهاز العصبي ، فهو الذي يشرف على سلوك الانسان ويدبره ويراقب كل حركة ارادية أو غير ارادية من السلوك ، ويوفق بين أعمال الأعضاء المختلفة ويربطها ببعضها ببعض ، وهو موطن العمليات العقلية السامية ، ففيه مراکز الاحساس والادراك الحسي والذكر والتفكير وربط العمليات العقلية ببعضها ببعض ، وهو موطن الشعور ، فكل تأثير يقع على أى جزء من أجزاء الجسم ، ولم يصل أثره إلى المخ فإن المرء لا يتفطن إليه ولا يشعر به ، ولذلك فإنه اذا نزع مخ حيوان كالضفدعة أو الحمامة مثلاً فإنها تفقد كل حركاتها الارادية ، وتصبح كأنها آلة من الآلات لا تتحرك بإرادتها وباختيارها ولا تحس بما يسلط عليها من المؤثرات فالمخ هو محط جميع خطوط المواصلات في الجسم ، وهو مستوى جميع المراكز العليا .

## مناطق اللحاء

لكل جزء من أجزاء اللحاء المختلفة علاقة بأجزاء معينة في الجسم يشرف عليها ويدبرها ، فالنصف الأيمن من المخ يسيطر على الجزء الأيسر من الجسم وبالعكس ( انظر شكل ٣٤ ) .



( شكل ٣٤ )

ولقد تمكن الباحثون من علماء وظائف الأعضاء والتشريح من تعيين مواضع كثير من المراكز المختلفة في اللحاء التي تقوم بوظائف خاصة ، وكثير من هذه المراكز ينحصر في ثلاث مناطق : مناطق الحس ، ومناطق الحركة ، ومناطق الربط . فالاحس مراکز : للبصر ، والسمع ، والشم ، والذوق ، واللمس ، وتحريك العضلات ، وللحركة مراکز كثيرة أيضا تمثل عمل الأعضاء المختلفة ، فهناك مراکز لتحريك الرجل واللسان واليد وغيرها كما ستري ، وهذه المناطق توجد في كل من نصفي المخ إلا أنه لاتصلب المحاور قرب النخاع المستطيل صارت مراکز النصف الأيمن تشرف على النصف الأيسر من الجسم ، ومراکز النصف الأيسر من المخ تشرف على الجزء الأيمن من الجسم :

[ منطقة الحركة ] : توجد في الفص الجبهي في تلافيفه الأوسط الأمامي ممتدة أمام شق [ رولندو ] وبها

مراكز تحريك أعضاء الجسم المختلفة ، ففي الجزء الأعلى من هذه المنطقة مركز تحريك أصابع القدم تليه مراكز تحريك الركبة فالحرقة فالأطراف العليا فالوجه وهكذا بترتيب تنازلى ، فكل حركة ارادية تنشأ من عمل مركز خاص فى هذه المنطقة ، إذا أصيب مركز منها بضرر أو مرض أعقبه شلل العضو المتعلق به فلا يمكن تحريكه بالارادة .

[ منطقة الحس ] : توجد موازية لمنطقة الحركة على الجانب المقابل لها من شق [ رولندو ] فى الفص الجدارى ، وفيها مراكز الاحساس الآتية من الجلد وحركة الأعضاء المختلفة ، وترتيب مراكز الاحساس فى هذه المنطقة عين ترتيبها فى منطقة الحركة ، فمراكز الاحساس الآتية من الساق مثلا توجد حذاء مراكز تحريكه وهكذا .

[ منطقة البصر ] : مراكز البصر توجد فى الفص المؤخرى من المخ ، فأى إصابة لها تحدث العمى مع أن العين نفسها قد تكون سليمة من كل شائبة ، وفى الفص المؤخرى هذا مراكز أخرى لادراك المرئيات ، فمنها ما يتعلق بادراك الكتابة ، ومنها ما يتعلق بادراك الألوان أو الأشياء وهكذا .

[ منطقة السمع ] : تقع فى الجزء الخلقى من التلفيف الصدغى الأعلى ، وهو تلفيف يقع أسفل شق سلفيوس ، وهى متصلة مباشرة بالأذنين ، فأى أثر يلحق بمراكز الاحساس السمعى فيها يحدث الصمم ، وقرب هذه المنطقة كما فى منطقة البصر مراكز مختلفة لادراك الكلمات المسموعة ، أولئىز الأنغام المختلفة وهكذا .

### مناطق الربط والاتصال

يختلف مخ الانسان عن مخ القردة العالية وغيرها من الحيوانات الأخرى بأن به مناطق (صامتة) أوسع رقعة مما لديها ، وليست هذه المناطق وظيفة الحس أو الحركة وإنما ربط مراكز الحس بعضها ببعض ومراكز الحركة كذلك والتوفيق بين أعمالها الكثيرة المعقدة ، فإذا أصيبت هذه المراكز لا يحدث للمرء ضرر مادى فى جسمه مثل شلل أو فقدان الحس ، وإنما يفقد قدرته على التفكير أو المهارة المكسوبة فيختلط عقله ويلتاث أو يضطرب اضطرابا واضحا فى كل عمل من الأعمال التى كان يؤدبها قبلا بمهارة وحق ، وتوجد هذه المناطق فى ثلاثة مواضع :

(١) المنطقة الأمامية ، وتقع فى الفص الجبهى أمام شق [ رولندو ] وأمام منطقة الحركة .

(٢) المنطقة الخلفية ، وتقع فى الفص الجدارى بين منطقتى الاحساس والبصر .

(٣) المنطقة الوسطى ، وتقع فيما يعرف بجزيرة [ رايل ] .

فهذه المناطق الثلاث ملققة بالاحساسات المختلفة الآتية من الحواس ، وفيها تربط بعضها ببعض وتحبك بواسطة الألياف الرابطة ، فيحدث الادراك الحسى والتدكر والترابط وسائر العمليات العقلية السامية من التفكير والحكم والاستدلال ، فهى مناطق التفكير بمعناه المعروف ، أو ان شئت فقل هى أعضاء التفكير ، ولقد دلّ التشريح وعلم الأمراض أن لحاء البله وضعاف العقول يكون أرق من المعتاد فى هذه المناطق فى حين أنه يكون سميكاً نوعاً ما ، وتكون التلافيف عميقة ومعقدة عند النابغين والمفكرين ذوى العقول الكبيرة ، ومن هذا يستنتج أن مقدرة الانسان العقلية تتوقف على عاملين :

(١) على التربية والتدريب .

(٢) وعلى صفات المخ الخلقية التى فطر عليها .

أو بعبارة أخرى على البيئة ، وعلى الوراثة ، فمن الناس من يولد ذا استعداد طبيعى للموسيقى مثلاً ،

فهذا معناه أنه ولد وبعض أجزاء من مناطق الربط في مخه منظمة تنظيماً خاصاً مخالفاً لغيره يجعلها مهيئة لقبول مهارة خاصة والنبوغ فيها إذا وجدت الأحوال معينة لها ، كأن يوجد الشخص المحدود هذا في بيئة موسيقية ، أو يجد من مدرسته تشجيعاً وحثاً على العناية بتغذية موهبته هذه ، فالموهب السامية العاملة ليست ثمرة التدريب وحده ، بل ثمرة تدريب استعداد فطري وتربيته ، والواقع أن التربية لا تستطيع أن تبني إلا على أساس الفطر والغرائز والاستعدادات ، فهي لا تخلق ما ليس موجوداً ، ولكن تذكى الموجود منها وتنظمه وتوجهه إلى العمل في اتجاهات خاصة بما تغذيه به من الخبرات ، وبما تدرّبه عليه من الأعمال وتوجده فيه من ميول .

### مراكز اللغة في اللحاء

في لحاء المخ أربعة مراكز ذات شأن كبير في التربية المدرسية لاتصالها باللغة ، وهذه هي مراكز [ الكلام ] و [ الكتابة ] و [ ادراك الألفاظ المسموعة ] و [ الألفاظ المكتوبة ] ، وكل مركز منها يقع قرب المركز العام المتعلق به ، فمركز الكلام يقع في النصف الأيسر من المخ في التلفيف الأدنى من الفص الأمامي أمام مركز تحريك اللسان ، وذلك عند من يكتب بيده اليمنى ، فالطفل يتعلم التعبير عن خواطره بألفاظ وعبارات خاصة يكتسبها بالمحاكاة والمراعاة ، فتذكر التعبير بهذه الأصوات يتركز في هذا المركز ، ومنه ينتقل الأثر إلى المنطقة المحركة المجاورة له فيتحرك اللسان وينطق بالألفاظ ، فإذا أصيب مركز الكلام هذا بضرر ما فقد الإنسان القدرة على التعبير بالألفاظ ، أو كان تعبيره على الأقل مضطرباً لانتالف فيه ولذا لا يفهم مع أن لسانه يكون صحيحاً غير مصاب بأي شلل ما ، فهو ليس بأبكم ولكنه مع ذلك يحجز عن التعبير عما في نفسه بعبارات يدرك السامع مدلولها ومعناها ، ويقع [ مركز الكتابة ] فوق مركز الكلام أمام مركز حركة اليد وهو مرتبط بها كل الارتباط ومتوقف عليها ، وإذا أصيب بضرر فقد انمر القدرة على الكتابة وما يمثّلها من الأعمال التي تستلزم مهارة وتدريباً مكتسباً بطول الخبرة والمراعاة . ويقع مركز [ ادراك الألفاظ المسموعة ] قرب منطقة السمع ، ويعرف بمركز قرنك ، وأصابته تحدث ما يعرف بالصمم اللفظي ، فالصاب يسمع الألفاظ ولكن لا يفهم معناها ، ويقع مركز [ ادراك الكلمات المرئية ] أو [ مركز القراءة ] في الفص المؤخر قرب مركز البصر ، ومرضه أو أصابته تحدث العمى اللفظي ، فلا يستطيع المصاب أن يدرك لما يرى من الكلمات المكتوبة معنى ما ، مع أن نظره قد يكون سليماً من كل شائبة مرض ، فوقفه يكون أشبه بمن يرى لغة غريبة عنه لم يتعلمها قط ، ولربما كان عجز بعض الأطفال عن التقدم في القراءة راجعاً إلى ضعف في هذا المركز . وهذه المراكز فضلاً عن كونها مراكز ارتباط في نفسها متصلة بعضها ببعض ، ولا سيما مركز إدراك الألفاظ المسموعة والكلام ، والأول منهما يسبق الثاني في تربيته ، فالطفل يفهم كثيراً من الألفاظ والعبارات التي يسمعها من أهله ويدرك معناها قبل أن يستطيع التلفظ بها على الوجه الصحيح ، ولربما تظل هذه الحال كذلك في الإنسان طول حياته ، فتكون قدرته على الفهم أكبر من قدرته على التعبير عما يحول بنفسه ، ولهذا فإن هذا المركز أهم المراكز الأولية كلها ، فعند القراءة الجهرية تتأثر العين بما ترى من الكلمات ، ويسير أثر الانفعال إلى مركز القراءة ثم يتجه إلى مركز إدراك الكلمات المسموعة بواسطة ألياف رابطة فيستثير ذكرى أصواتها ، ثم تتصل هذه بالألياف رابطة أخرى إلى مركز بروكا أو مركز الكلام ، فيلفظ المرء الأصوات التي ترمز إليها الكلمات التي يقرأها ، وكذلك الحال عندما يكتب الإنسان ما يملئ عليه ، فإن الألفاظ المسموعة تتجه من الأذن إلى مركز إدراكها ، ثم تتصل بمركز الكلمات المرئية فتستثير ذكرى أشكال الحروف التي ترمز إليها ، ثم تتصل بمركز الكتابة ، وهذا كما علمت متصل كل الاتصال باليد ، فتتحرك هذه عندئذ وتكتب الألفاظ التي تدل على



أما من هذه الأمة التي قال الله في نبيها صلى الله عليه وسلم : « وأما لك على خلق عظيم » . وقال أيضا : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، وأعمّ الرجات انتظام الأمم كلها كأمة واحدة كملكة النحل والنمل يقتسمون الاعمال ويوزعونها ، ويترك لكل امرئ حريته في دينه ، وأمرها هو الذي يقوم به الجماعات إن القرآن قد أصبحت العلوم اليوم والعلوم المستقبلية سرّه وحقيقته ، وأمة هذا شأنها تعلم الأمم كلها ، فكل دين غير الاسلام لا يهتم إلا بانتظام الجماعات الانسانية ، فاما خلق العوالم ونظام الطبيعة ونحوها فهو غالبا بضرب الأمثال والحكايات المصطنعة ، الاسلام أخذ أعلى دور أيام العصور الأولى فنفع الانسانية ، ثم انحط أهل الخطاطا لظير له ، وهام أولاء الآن يريدون أن يكونوا بين الأمم في عصرنا في أمر السلام العام كما كان شأنهم أيام عصر الصحابة والتابعين هم الذين يدعون إلى سلام الأمم انتهجا بمنهج الآية : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ونحن أتباعه فعلينا أن نقوم بما أنزل الله من صفات الكمال .

أما الأمر الثاني فهو أن هذه الدنيا وما حوت إنما هي كلمات الله .

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : كون الدنيا كلمات الله هذا أمر مجازي لا كتبه الألسن كثيرا فهو أشبه بالأمر بالمعروف ، وجاء على لسان الصوفية الذين يقولون : « إن خطاب الله يسمعه الانسان بجميع جسمه لا بحاسة سمعه فقط » وهذه أمور لا قبل لنا بفهمها ، فإذا قلت لنا ان هذه الأجسام وهذه العوالم كلمات الله فلماذا لم نسمع - ان صحّ كلام الصوفية - إلا بآذاننا . ولماذا لم نسمع أبصارنا ولا جلودنا أو لحومنا وهكذا ، فانا أرى أن هذا المقام يصح اغفاله رفقا بالقارئ .

فقلت يا صاح حياك الله وبياك : أنا أكتب هذا اليوم الأحد ٢٢ صفر سنة ١٣٥١ هجرية الموافق ٢٦ يونيو سنة ١٩٣٢ م وأنت معي ولكن خطرت لي خاطر قليل صلاة الجمعة الماضية وأنا متأهب لصلاتها بمسجد الحبيبي في شارع السيدة زينب ، وهذا الخاطر عجيب ! فبعد أن صليت لم أرجع إلى المنزل بل جلست وحدي في الخلاء لأفهم ما ورد إلى خاطري من الآراء ، وذلك الخاطر ملخصه :

إن عوالم المادة ترجع كلها ( كما تقدم في سورة النور عند آية : الله نور السموات والأرض ) إلى نقط كهربائية يدور سالبها حول موجبها نحو ستة آلاف مليون مليون مرة في الثانية الواحدة ، وباختلاف عددها كثرة وقلة وتباينها أشكالها تظهر لعيوننا جبلا وجلا وشجرا وحجرا الخ فهناك خطر لي أنه من المسلم به الآن عند الأمم شرقا وغربا أن المادة ماهي إلا حركات ، وهذه الحركات في الأثير ، والمحرك لها هو الله عز وجل .

حدثني أيها الذكيّ رعاك الله ما الصوت ؟ قال : هو حركات تنتقل في الهواء وفي الأثير من فم القائل إلى أذن السامع . فقلت له : وهذه الحركات ان كانت أقل من ٣٢ في الثانية الواحدة لم تسمعها الآذان ، وان كانت فوق ذلك سمعت ، وتزداد شدة كلما ازدادت عددا حتى تصل إلى نحو ٣٢ ألفا في الثانية الواحدة ، فإذا زادت عن ٣٢ ألفا لا يسمعها الناس . قال نعم هكذا تقم في هذا التفسير . فقلت له : ماهي المادة ؟ فقال : هي حركات في الأثير . فقلت : إذن الكلام حركات في الأثير ، والمادة حركات في الأثير ، وقصارى الأمر وجاداه أن الحركات التي يحدثها الانسان في الأثير بأعضاءه المتصلات أضعف أثرا وأقل عددا من حركات الأثير التي صنعها الله لاجداث الأجسام والأضواء وجيع العالمين . فقال هذا حق لأن الضوء لا يصل لأبصارنا إلا اذا كانت حركته قد وصلت إلى ٤٠٠ مليون مليون حركة في الثانية فيحس بلون الحرة ، ولا يزال يزداد فتكون هناك ألوان أخرى حتى تصل عدد الحركات إلى ٧٠٠ مليون مليون حركة في الثانية فيكون اللون البنفسجي وما وراء ذلك غير معلوم .

فقلت له : إذن أيها الأخ جميع الحركات من ٣٣ ألفا إلى ٤٠٠ مليون مليون لم تعط لها حاسة حتى نعرفها ، وما فوق ٧٠٠ مليون مليون لانعرفه حتى نصل إلى نحو ستة آلاف مليون مليون فهذا لانعرفه ، وتتجلى لنا تلك الحركات بصفة مذوقات ومشمومات ولمحوسات ناعمة وخشنة وهكذا ، فهنا أمران : حركات لانعلمها ، وحركات وصل لنا علمها ، والحركات التي وصل لنا علمها منها ماهو من فعلنا ، ومنها ماهو من فعل خالقنا ، فما كان من فعلنا فهو ضعيف كحركات تسمى أصوات كالكلام وكالفناء ، وما كان من فعل خالقنا فهو قوى جدا ظهر بهيئة ضوء تارة ، وتارة بهيئة حديد ونحاس وأرض وسماء وهكذا ، ونسبة كلامنا إلى قوة كلام الله وهى هذه العوالم نسبة ضئيلة جدا ، ذلك أن ٣٣ ألفا بالنسبة إلى مليون واحد إنما هى نحو جزء من ٣٠ جزءا ، فكيف بها إذا نسبت إلى ألف مليون ، ثم إلى مليون مليون ، ثم إلى ستة آلاف مليون مليون ، إنها إذن تصبح كالعدم ، فهى كنسبة الانسان الضعيف الذى يشبه المعدوم إلى خالقه القادر العظيم ، أليس هذا معناه أن العوالم كامات الله فعلا ، لأنها حركات كحركات كلامنا بحسب ما كشفه العلماء فى عصرنا وهو يقرأ فى مدارس الشرق والغرب . قال بلى . قلت : أفليست كامات الله إذن هى هى أنفسها هذه المخلوقات وهو هو المتكلم بها ، ثم كلماته ان كانت أصواتا سمعتها آذاننا كأصوات الرياح ، أو كانت مذوقات أو مشمومات أو مبصرات أو حارة أو باردة أو بيضاء أو حمراء مثلا أدركتها حواسنا ، إذن الكشف الحديث أبان لنا معنى قوله تعالى : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » الآية « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي » ، « وكلمته ألقاها إلى مرسم » وليس معنى هذا أن ذلك كلام الله القديم . كلا . وإنما هو كضرب مثله ، إن من هذا النوع الانساني من صفت أرواحهم فيرون أن هذا العالم خطاب من الله لهم وكأنهم فى حضرة الآن ، هكذا نخطرلى أن فى الأرض أماسا على هذا المنوال .

أقول : إن آية : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » وإن كان يراد بها ضرب المثل فإن العلم أرانا أن المثل له قريب المنال ، فهو وإن لم يسم فى العرف كلاما ولكنه يشبه الكلام لأنه حركات فى الأثير ، وهذه الحركات قوية متينة وآثارها مدهشة بحيث تشعر بها جميع حواسنا على اختلاف طبقاتها وتعطينا جميع اللذات المحسوسات والمعقولات الآن فى الدنيا ، فإذا متنا وانكشف الغطاء لنا ، وتجردت أرواحنا ذاقنا من اللذات أضعاف أضعاف ما تذوق هنا وهى محجوبة فى هذه الحياة ، إذن خطاب الله يصدر عنه المتكلم به ويظهر فى الخارج عند النطق به (وهذا ليس هو الكلام القديم بل ضرب مثل له) ويبقى آمادا وتحس به جميع الحواس ، وكلام المخلوق لاقدرة له إلا على الوصول إلى الأسماع لحسب ، ولا نتيجة له إلا ما يفعله السامعون .

ولما عرفت ذلك وكنت إذ ذاك خارج القاهرة تبين لى أن هذه الأشجار والأحجار والأنهار والأزهار والماء والسماء كلها كلمات ، وهذه الكلمات مفرقات على حواس الانسان والله نفسه كأنه بها يخاطبنا ، فالعلوم المشروحة فى هذا المقام جميعها شرح لبعض تلك الكلمات التى نعيش فيها ، إذن العالم كله كلمات فعلا ، والكلمات مقروءات لأولى الألباب .

هذا ما خطر لى يوم الجمعة السابقة فى التاريخ المذكور والحمد لله رب العالمين . فرغت من هذه المقالة صباح يوم الاثنين ٢٣ صفر سنة ١٣٥١ هجرية - ٢٧ يونيو سنة ١٩٣٢ م بحى السيدة زينب بشارع زين العابدين .

## حديث طريف

حضر صاحبى العالم بعد ذلك فى نفس اليوم وقال لى : لقد نسيت أن تذكر شيئاً أشرت إليه فى علم التربية ألم تقل فيما تقدم أن الانسان فى أدوار حياته يضارع أطوار الخليقة ، ووعدت أن تشرح ذلك . فقلت حقاً : « إن الله لا يخلف الميعاد » إن العلماء فى عصرنا نظروا فى لعب الأطفال فأروها أمراً عجيباً مدهشاً ، وهذا الأمر المدهش معناه قول الله تعالى : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا لعبين » ونحن نسمى لعب الأطفال لعباً ولـكن للأطفال غريزة ومزعة والله هو الزارع ، فهل يخلق الله اللعب ؟ هذا لعب عندنا ، وجد عند الله والحكماء ، إن الحكيم ينظر إلى لعب الأطفال والصغار ويحدق بنظره إلى أسلاف الطفل وأسلاف الحيوان فيجد ذلك اللعب ماهو إلا ما فطر عليه أجداده فى كرتهم وفرتهم ، وصيدهم وقنصهم ، سواء أكان انساناً أو حيواناً ، وهذا اللعب من جهة أخرى يدل على مستقبل الطفل ، فهو وارث لأعمال الآباء ، يحددها من جهة وهو من جهة أخرى يستعد لحياة جديدة يترن عليها ، إذن اللعب أعطى صورتين : صورة للماضى ، وصورة للمستقبل كلاهما فى آن واحد ، فالفتاة تلعب بالعروس وتغنى لها ، والفتى يتقلد السيف والرمح ويركب العود كأنه فرس ، وهما يحكيان أفعال الآباء والأجداد ، ومن جهة أخرى هما يتأهبان للمستقبل القريب ، بل الأمر أعظم من ذلك .

إن الانسان يلخص فى الرحم جميع الأدوار التى مرت فيها الخليقة كلها من خلية واحدة إلى الانسان ثم هو يلخص فى أدوار ترقيته من وقت ميلاده إلى نضوجه جميع الأدوار التى مرت بها الجنس البشرى فى تقدمه من الوحشية إلى الحضارة . إن كل لعب من ألعاب الأطفال يدل على دور من أدوار الآباء فى أعمالهم العادية تقبله الطفل هنا بهيئة لعب ، ثم إن لكل امرئ مواهب خاصة تظهر ما استعد له ، فإذا راقبنا ذلك ووضعنا كل امرئ فيما خلق له فذلك هو اليوم الذى يسعد فيه الانسان ، وهذا القول ملخص آراء الاستاذ [ ستانلى هول ] والاستاذ [ كارل جروس ] أحد أساتذة [ جامعة بال ] فى سنة ١٨٩٦ م انتهى الحديث فى نفس التاريخ ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

## تذكرة

سنذكر ان شاء الله تعالى فى سورة « والشمس وضحاها » فصولاً من علم التربية جيلة نافعة اهـ

جوهرة فى قوله تعالى : ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون

ففرّوا إلى الله إلى لعلكم منه تذكرون

خلقت الاله من كل شئ زوجين ، ودعوتنا للتذكر ، وأمرتنا بالفرار إليك ، ونحن لا نتذكر إلا بالعلم لاسيما علم الحيوان الذى ظهر فيه الزوجان ظهوراً تاماً ، وسمعناك تقول فى ﴿ سورة الجاثية ﴾ : « وفى خلقكم ومايت من دابة » الخ وفى ﴿ سورة الزخرف ﴾ : « والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتسودوا إلى وما كناله مقرنين » وفى ﴿ سورة الغاشية ﴾ : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت » ثم تقول : « فذكر إنما أنت مذكر » نحن الآن تذكرنا ونظرننا فوجدنا أن ذكر الإبل فى الآية لم يقصد به إلا ضرب مثل ، لأن الإبل مراكب الصحراء والعرب عليها يركبون ، وهى تحمل أثقالهم ، فذكر ما يناسب عملهم ، ولو أن القرآن نزل على رجل هندي لفيل أفلا ينظرون إلى الفيل كيف خلق ، أو على الذين يعظمون الحيات فى أواسط افريقيا لذكر الحيات ،

أول الذين يجلون القُرود في الهند أيضا لذكر القُرود ، إذن الله بهذه الآية وأمثاها فتح لنا باب التذكُّر والعلم فلنبحث إذن في كل حيوان ، ولنقدم مقدمة فنقول :

إن الله عز وجل أكثر في القرآن من ذكر العقل فيقول : « إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » ومن ذكر التدبر والتذكر ، وعول جد التعويل على العقول ، فلننظر بعقولنا في هذه الفطرة الانسانية العامة ، انما لما خلقنا في هذه الأرض وجدنا لنا شهوة لطلب الغذاء ، ولطلب التناسل ، وغضبا لمدافعة الأعداء ، وقوة أعلى منهما لمعرفة الحقائق كلها كالذي نحن فيه ، ووجدنا الديانات تطلب منا الاعتدال في القوتين الأوليين ، فنسمع الله يقول : « وكلاوا واشربوا ولا تسرفوا » ويقول : « ولا تقربوا الزنا » ويقول : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » إذن الديانات والوعظ والقضاء إنما جاءت لتلطيف هذه القوى فينا لاخير ، إن شهوة الغذاء ، وشهوة التناسل ، والقوة الغضبية فينا كلها قوى شريفة رفيعة المنزلة أنزلها الله لحياتنا ، وانما المذموم الخروج بها عن مقاصدها ، والافئحن بغيرها لاحياة لنا ، فكل قانون ، وكل وعظ ديني أودنيوي وظيفتها أن تجعل هذه القوى معتدلة لاغير ، ولكن القوة العليا وهي الفكرية المسيطرة على القوتين السابقتين لها مطالب أيضا ومطالبها هو العلم وغذاؤها صور المعلومات ، فكما كان شهوة الغذاء أنواع الطعام ، ولشهوة الوقاع أنواع الفسء ، وللقوة الغضبية أنواع القتال ، هكذا للقوة العاقلة أنواع الصور العلمية المكتسبة من المواد المحيطة بنا ، وهذه وظيفة تامة قائمة بنفسها لا أنها مهذبة لحسب ، بل هي شهوة مقدسة وهي الخاصة بالانسان ، فاذا غداها صار انسانا تاما ، واذا تركها بقي حيوانا لأنه لم يرق عن الحيوان فهو مثله في الشهوتين السابقتين ، نعم اذا كان قد هذب الشهوتين السابقتين فقد تسكمل في العمل ، ولكن العلم هو الخاصية الانسانية ، الحيوان ليس في حاجة إلى التهذيب أما الانسان فهو في حاجة إليه ، وأذكر منظرا شاهدته قبل كتابة هذه الأسطر بساعات لأنى الساعة أكتب هذا قريبا من منتصف ليلة الجمعة ١٧ يناير سنة ١٩٣٠ م وفي عصر الخيس كنت أرتاض ماشيا عند مصر القديمة مارا على [ كوبرى الملك المصالح ] فرأيت راعيا يسوق عزرات ذوات ضروع مملوءة لبنا ومعهن تيسهن فتأملت ذيوطن اذا هي مرفوعة دائما ، وقد عرى السبيلان عما يغطيها فترى الذيل كأنه قوس رجع إلى الخلف فقات في نفسى : يقول الله تعالى : « يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم ولباس التقوى ذلك خير » فنحن أمرنا وامتن الله علينا باللباس الذى يواري سوآتنا ، أما هذه الحيوانات فقد كشف سوآتها وعاشت بهذا والله لا يخلق إلا الكمال ففكرت فيما علق بالنفس من أمر هذه الحيوانات ، وأن ذكورها لا تقرب انماها إلاوهى غير حامله ، ومتى حملت لا تقربها ، وهذا عجيب ! إذن كشف العورة لا يضرتها هي ، لأن هناك قانونا مسنوننا ، وهو أن التيس لا يقرب العنز إلا ورحمها خال من الجنين ، فسألت الراعى فقال نعم انها متى حملت لا يقربها التيس ولو فى اليوم الثانى ، فأما الانسان فانه أعطيت له الحرية فى كل شىء ، فشهوة الغذاء لا حدها وهكذا شهوة الوقاع ، فهذه الحرية وجب أن تقيد بالقيود الشرعية والعقلية لنحفظ حياته وكما له ، وهذه الحرية شرف له لأنه طلب منه الجهاد بنفسه ، فهو ملزم بالمحافظة على قوامه ، فاذا قدر على أنواع الطعام وفنن ألوانه ولم يجد مانعا يمنعه من تناول أنواع الشهوات فى الوقاع ، فهو المكلف بأن يمنع نفسه بنفسه كما منعت ذكور تلك الحيوانات بغير أنزها فى بعض الأحوال ، وهكذا نرى الحيوانات لا تشرب إلا اذا عطشت بخلاف الانسان فانه يشرب الحلوى متلذذا بغير عتاش ، فهذه حرية أعطيت له وقد كاف أنه هو الذى يقيد هذه الحرية ، أما الحيوانات التى فى البرية فالغريزة والسليقة أغنتها عن الشرائع وتكليف الانسان بمقاومة شهواته اعظام له فكأنه قيل له : أنت حر فدير نفسك بنفسك ، لأننا نريد أن تكون ملكا على عواطفك

لا أنك مقيد بقيود طبيعية تحجزك ، بل قيودك تكون من تلقاء نفسك ، وهذا شرف لك ، وخذلان لك ان قصرت ، والمقصود من هذا الجهاد أن تعتاد نفسك المران على العمل ، وترتقي إلى ما هو أعلى منه وهو تغذية القوة العقلية بالصور الحكيمة ، ولن تستقيم أيها الانسان حالك إلا بجهدك واجتهادك .

إن هذه العنزات التي رأيتموها اليوم قرأت فيها درسين : الدرس المتقدم وهو درس الشهوات وحفظها بالغريزة في الحيوان ، واحتياج الانسان في حفظها إلى العلم والدين ، ودرس الألوان ، فإن العنزات رأيت منهمق البيضاء والسوداء والحمراء والصفراء والداكنة اللون ، ومنهمق من كان جسمها مختلط البياض بالسواد ، أو بالحرة ، أو بالصفرة ، أو بالجميع ، أو ببعض ، وهن متصاحبات متحابات ، فقلت في نفسي هذا معنى قوله تعالى : « قتل الانسان ما أكفره » لأن الناس كما احتاجوا في طعامهم وشرابهم ودفاعهم إلى وازع ليحفظوا قواهم هكذا في السياسة العامة يحتاجون إلى وازع يرفع من شأنهم ، فهاهم أولاء أهل أمريكا يعادى البيض منهم السود لمجرد اللون ، وهكذا في بلاد الانجليز في هذه السنة لم يقبل أصحاب المطاعم والمجتمعات العامة رجلا أسود أمريكيا مع أنه مثر عظيم ، ذلك كله لمجرد اللون ، فهؤلاء لم يجدوا ما يهذب هذه النفوس المحبوسة في أمور نافهة كالألوان ، ولكن هذه العنزات متحابة معا وهن مختلفات الألوان لأنهن يرين أن النظر لهذه الفوارق اللونية أمر تافه ونظرة حقا وقلة عقل وقصر في العلم ، ولكن ليس هذا عندهن علما وإنما هو غريزة كغريزة امتناع الوقوع أثناء جل الأنثى ، فهنا درسان درستهما اليوم على هذه العنزات درس أخلاق ودرس سياسة ، ولهذا قال الله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وورد في الحديث : « لافضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » وقال صلى الله عليه وسلم : « اسمعوا وأطيعوا وإن ولي عليكم عبد حبشي » وأمر بلالا أن يؤذن في السكبة يوم فتح مكة بمحضر من قريش ، كل ذلك تهذيب لهذه النفوس الانسانية في الامور السياسية العامة ، والحيوان لم يحتاج إلى هذا لأن غريزته تكفيه ، الحيوان ليس مستعدا لحوز العلوم والمعارف ولذلك لم يكف بالجهاد لحفظ شهواته ، بل كفته الغريزة كما قدمنا ، أما الانسان فجهاده في مدافعة شهواته يكون مقدمة لجهاده في اكمل نفسه بالعلم وادراك الحقائق التي لم يخلق إلا لادراكها ، إذن هذه الشهوات واطلاق الحرية للانسان فيها جعلت أشبه بامتحان له فإن جد في المحافظة على قواه الشهوية كان ذلك دليلا على أنه سينال العلوم العقلية ويكون رجلا كاملا ، وإن بقي في نغمرات شهواته دل ذلك على أنه ليس أهلا لأن يستكمل نفسه بالعلم .

هذا ما أردت جعله مقدمة لماسأ كتبه في هذه الآية : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » وما مائلها من قوله تعالى : « والذي خلق الأزواج كلها الخ » فلا شرع إذن في دراسة هذه الأزواج الحيوانية وأقول :

لقد تقدم الكلام عليها مفرقة في هذا التفسير ، فتراها في سورة فاطر ، وفي سورة النحل ، وفي سورة الحج عند آية : « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له » وهكذا في سور كثيرة ، ولكني أريد هنا أن أذكر حادثة عجيبة : ذلك أني قدمت في سورة يونس أني أرسلت خطابا إلى الحكومة المصرية ، وإلى رجال البرلمان أبين لهم فيه أن تعليم الشبان في المدارس الثانوية ناقص إذ لا نبات ولا حيوان ولا تشریح ، ولا علم طبقات الأرض ، ولا علم الفلك تدرس فيها ، فالتلميذ يخرج وهو جاهل ماحوله ، فيجب أن تدرس هذه العلوم ، وأن يجعل التعليم الثانوي خمس سنين ، لأن هذه المواد قد حذفت من المدارس لما دخل الانجليز البلاد فوجب رجوعها وأتم الآن عندكم استقلال ، وبقي الخطاب تجده هناك مسطورا .

أفلا تعجب . هي أن هذا القول قد عمل بأكثره الآن ! أفلا تعجب أن ما كنت أقوله كثيرا في هذا التفسير



أن بلاد الاسلام سترتقى قريبا قد أخذ يتحقق بعضه ، وهذه بلادى لما كتبت ذلك الخطاب منذ بضع سنين لم تكن هذه العلوم فيها ، فهأنا ذا الآن أرى أمانى علم الحيوان وعلم النبات مشروحين فى كتبهم شرحا وافيا عجيبا ، وأنا لأزال أزال طبع التفسير ، أفليس هذا معناه أن ماشرت به المسلمين من أنهم سيرتقون سريعا قد ابتدأ تحقيقه وهذا من البشائر ، وهاهوذا أمانى كتاب فى علم الحيوان تأليف ثلاثة من علماء هذا الفن المصريين ، فلا بين طرفا من ذلك الكتاب هنا بحيث يكون مفيدا فوائدا أحسن مما سبق فى هذا الكتاب ، وأريد بذلك أن أبين لك طريقة دراسة هذا الفن فى بلادنا اليوم بعد أن حرمت تلك العلوم فى أيام الاحتلال ، فقد جاء فى الكتاب المذكور تحت العنوان التالى مانصه :

### اقسام المملكة الحيوانية

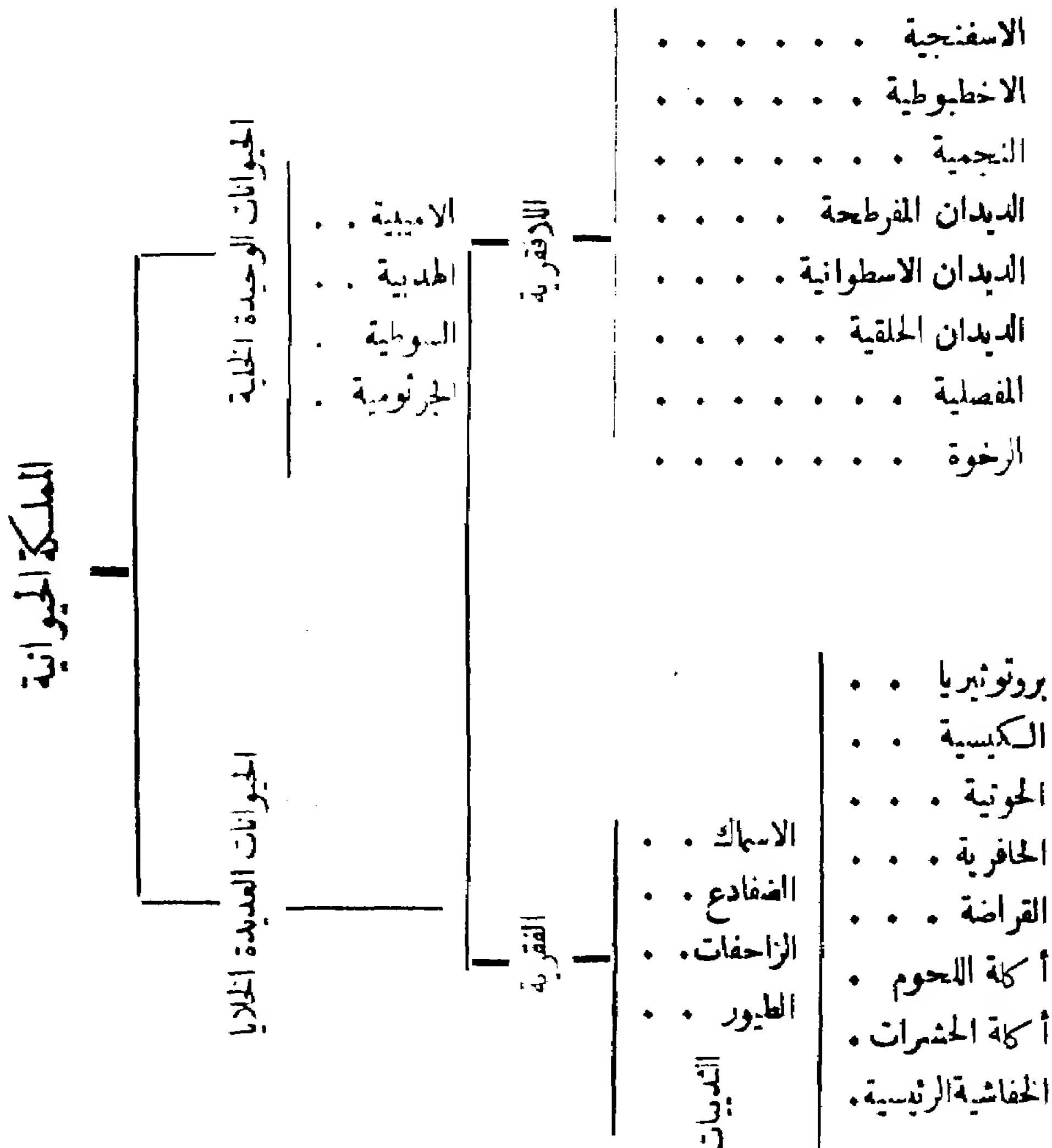
تنقسم الحيوانات تبعا لتركيبها الخلوى إلى مملكتين وهما : -

(١) الحيوانات الوحيدة الخلية أو البروتوزوه ، وتسمى كذلك بالحيوانات الأولية ، وهى ما يتركب جسمها من خلية واحدة .

(٢) الحيوانات العديدة الخلايا أو الميتازوه ، وهى ما يتركب جسمها من خلايا عديدة تتكوّن عنها أنسجة مختلفة تقوم بالوظائف الحيوية للجسم . وتنقسم الحيوانات العديدة الخلايا الى قسمين كبيرين وهما :

[ أ ] الحيوانات اللافقرية هى ما ليس لها سلسلة فقرية ، وتنقسم الى ثمان رتب كما هو مبين بالجدول الآتى

[ ب ] الحيوانات الفقرية هى ما لها سلسلة فقرية ، وتنقسم الى خمس رتب كما هو مبين بالجدول كذلك



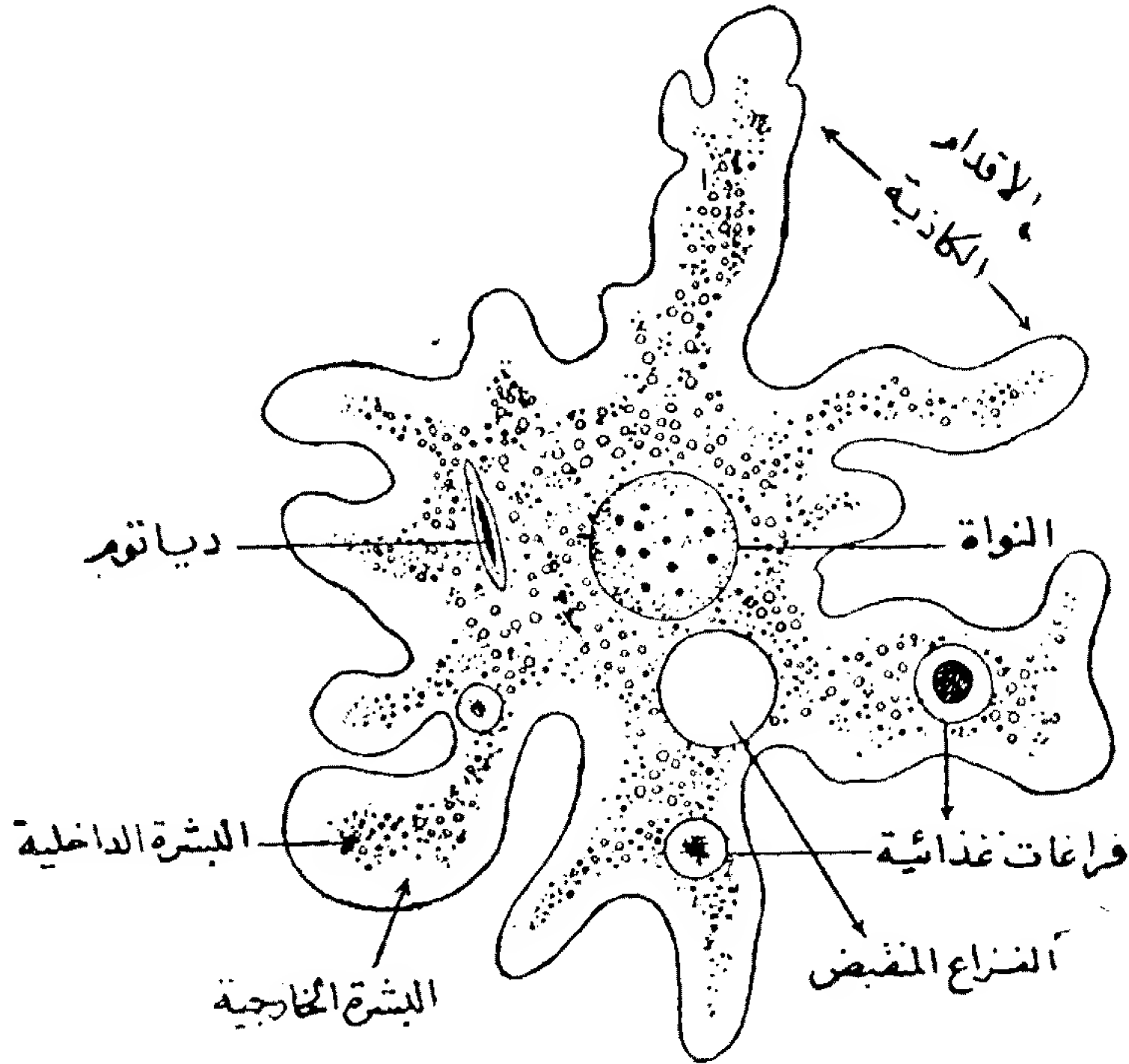
فالحوانات الوحيدة الخلية هذه جعلت أربعة أقسام تراها فيما تقدم هنا ، ومن هذه الأربعة [ الأميبا ]  
( انظر شكل ٣٥ ) .

## الأميبا

الأميبا كأن حتى دقيق الحجم يعيش في البرك والمستنقعات ، أو على سيقان النباتات المائية ، أو على  
الأحجار الراسية في القاع ، ويرى أكبرها بصعوبة بالعين المجردة .

## شكلها

عند ملاحظتها [ الأميبا ] بالكركسكوب تكون عبارة عن كتلة بروتوبلازمية شفافة هلامية عارية أي  
لا جدار لها ، وليس لها شكل معين حيث تتشكل بأشكال مختلفة في وقت قصير تبعاً لبروز أجزاء بروتوبلازمية  
من جسمها ، ، ويلاحظ كذلك أن البروتوبلازمية في حركة مستمرة . ( انظر شكل ٣٥ )



( شكل ٣٥ - الأميبا )

## القسم الثاني من وحيد الخلية : الحيوانات الهدبية

والذي يهمنا منها أن نعرف أن الحيوانات الطفيلية التي تعيش في الغشاء المخاطي للأعضاء الغليظة فتسبب  
الاسهال المخاطي الدموي المسمى [ الدسنتاريا ] إنها من هذه الحيوانات الهدبية ، وهي من الوحيدة الخلية .  
انتهى الكلام على القسم الثاني .

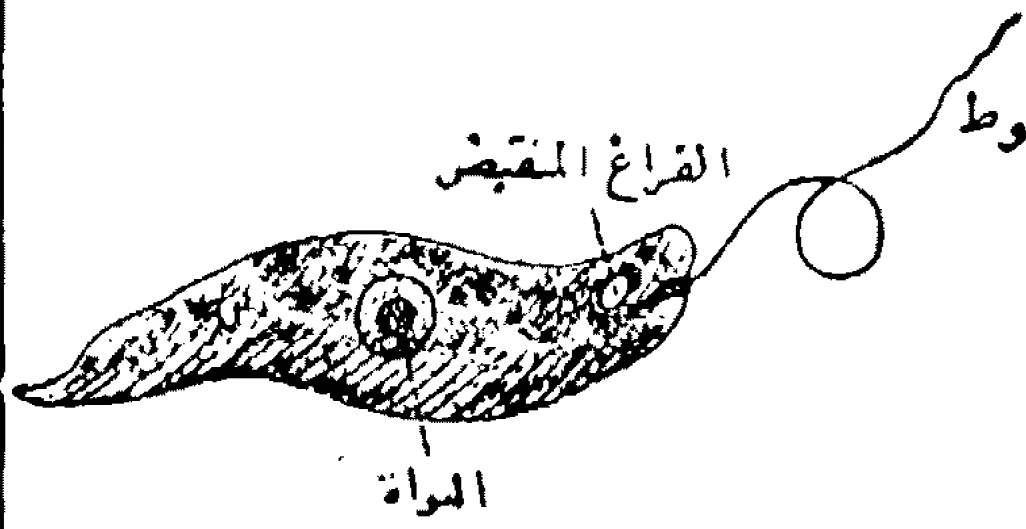


## القسم الثالث من وحيد الخلية

### الحيوانات السوطية

والحيوانات السوطية هي حيوانات أولية ، يكون في أحد طرفيها زائدة سوطية تشبه الذنب ، تساعد على الحركة ، وقد يكون ببعض أنواعها سوطان ، والبعض الآخر لاسوط له ، تعيش هذه الحيوانات في وسط سائل ، وتتحرك فيه بواسطة حركة سوطها الكراباجية .

والذي يهمنا من هذا النوع [ البوجلينا ] وهي حيوانات ميكروسكوبية تعيش على سطح المياه العذبة الرائدة في البرك والمستنقعات ، وشكلها مغزلي ، وبأحد طرفي جسمها سوط طويل بجانبه فتحة الفم . وتتغذى بالكائنات الدقيقة ، وبقايا المواد العضوية التي تجدها في الماء ، وتتغذى [ البوجلينا ] بطريقة نباتية ، وهي أنها تستخلص الكربون من غاز ثاني أكسيد الكربون الذائب في الماء وتمثله في جسمها ، ثم تمتص الآزوت وغيره من العناصر بشكل أملاح ذائبة في الماء .



( شكل ٣٦ - البوجلينا )

وتتغذى كذلك بطريقة حيوانية ، وهي إدخال قطع المواد العضوية السائلة الذر من فتحة فيها ( انظر شكل ٣٦ ) وهو حيوان سوطي صغير يعيش معيشة طفيلية في دم الانسان ، ويسبب له مرض النوم وهو مرض منتشر في أواسط أفريقيا ، وتنقله إلى الانسان ذبابة خاصة تسمى [ جلوسينا ] ، يمضي في

جسمها حيوان مرض النوم جزءا من حياته ، وعند ما تمتص الذبابة الملوثة دم الانسان تمر هذه الحيوانات في لعابها إلى الجرح الذي تمتص منه ثم تدور مع الدم وتتكاثر فيه وتسبب الأعراض المرضية للصاب .

## القسم الرابع من الحيوانات الوحيدة الخلية

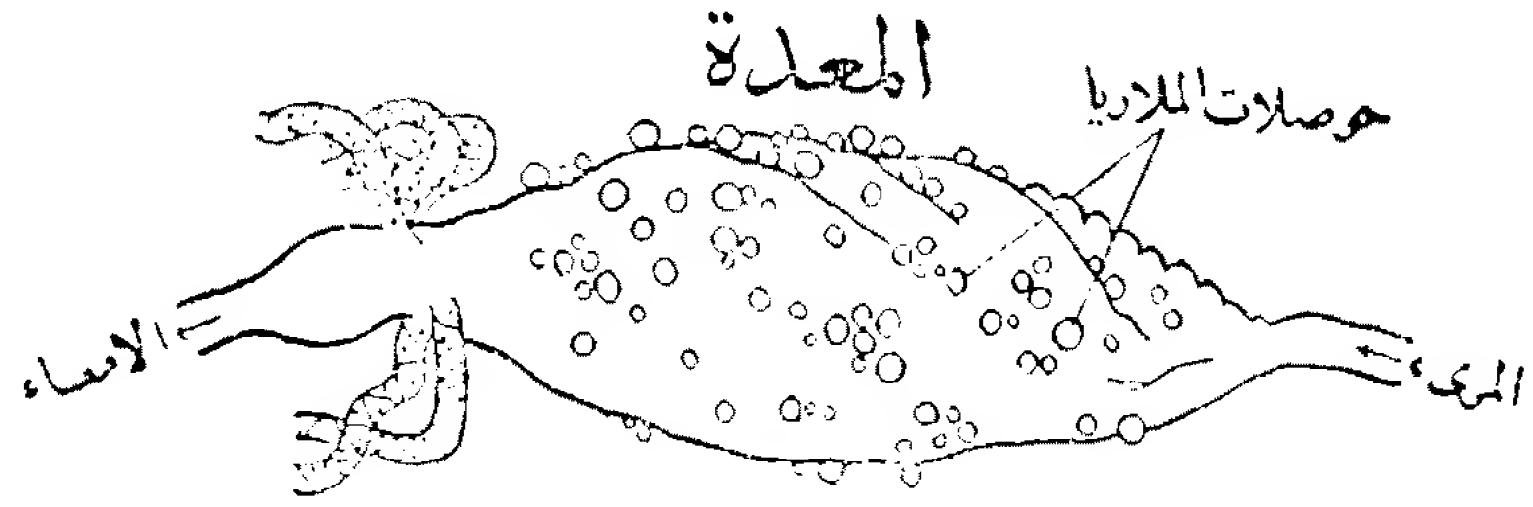
### الحيوانات الجرثومية

الحيوانات الجرثومية هي حيوانات أولية ليس لها أعضاء خاصة للحركة ، وتعيش معيشة طفيلية في الأنسجة المختلفة لأجسام الحيوانات التي تصيبها وتسبب لها أمراضا قاتلة ، منها :

(١) [ الككسيديا ] : وهو حيوان دئى يصيب حيوانات مختلفة ، ففي الأرانب يعيش في أنسجة كبدها ويسبب لها مرض تعفن الكبد ، وفي الأغنام يعيش في الغشاء المخاطي لأمعائها ، وينتشر بينها بسرعة ويعرف بوباء الككسيديا .

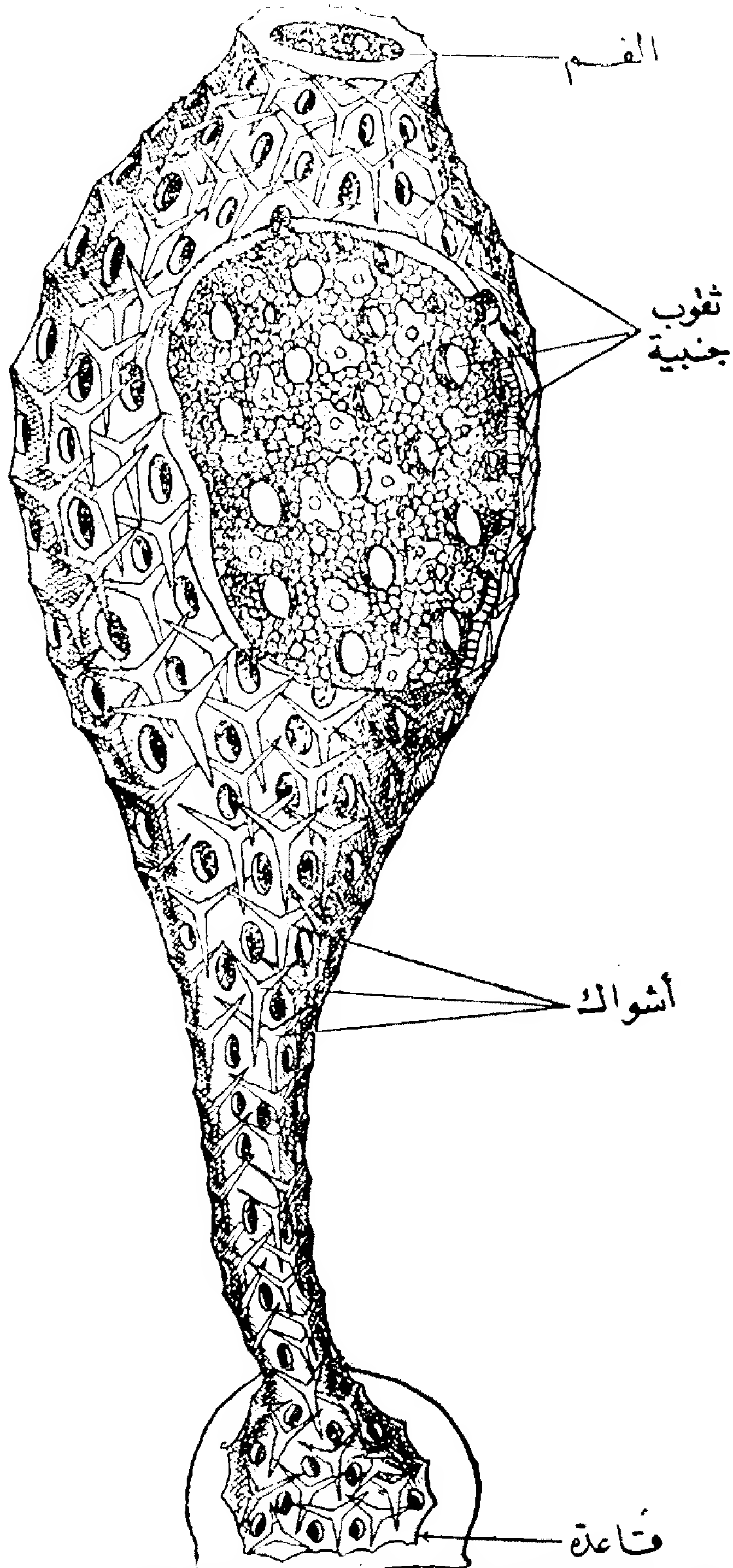
(٢) [ حيوان الملاريا ] : وهو يعيش في دم الانسان ، ويسبب له حى الملاريا .

ثم إن الناموس على قسمين : قسم ينقل هذه الملاريا ، وقسم لا ينقلها ، والقسم الذى ينقلها حينما يتغذى بدم الانسان المصاب بالملاريا تنقل تلك الحيوانات في جوف الناموسة ، وهناك تكون معدية فتنتقل ذلك النسل إلى جسم إنسان آخر فتحصل العدوى ، وهذه صورة معدة الناموسة المذكورة ( انظر شكل ٣٧ في الصفحة التالية ) .



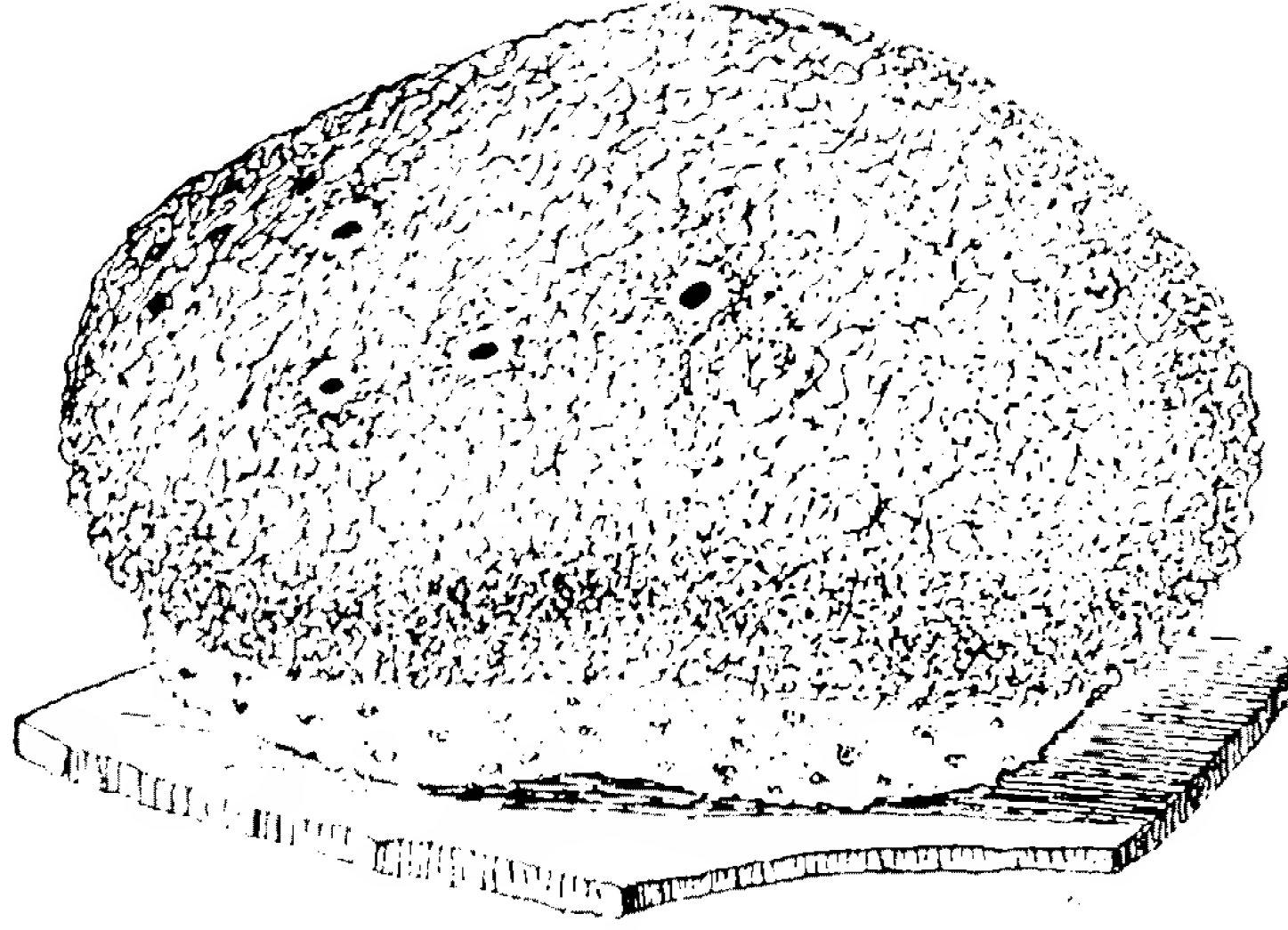
( شكل ٣٧ - معدة الناموس وعليها حوصلات الملايا )

الكلام على الحيوانات العديدة الخلايا  
فمنها الاسفنجية كما تقدم وهذه صورتها ( انظر شكل ٣٨ ) وهاهوذا :



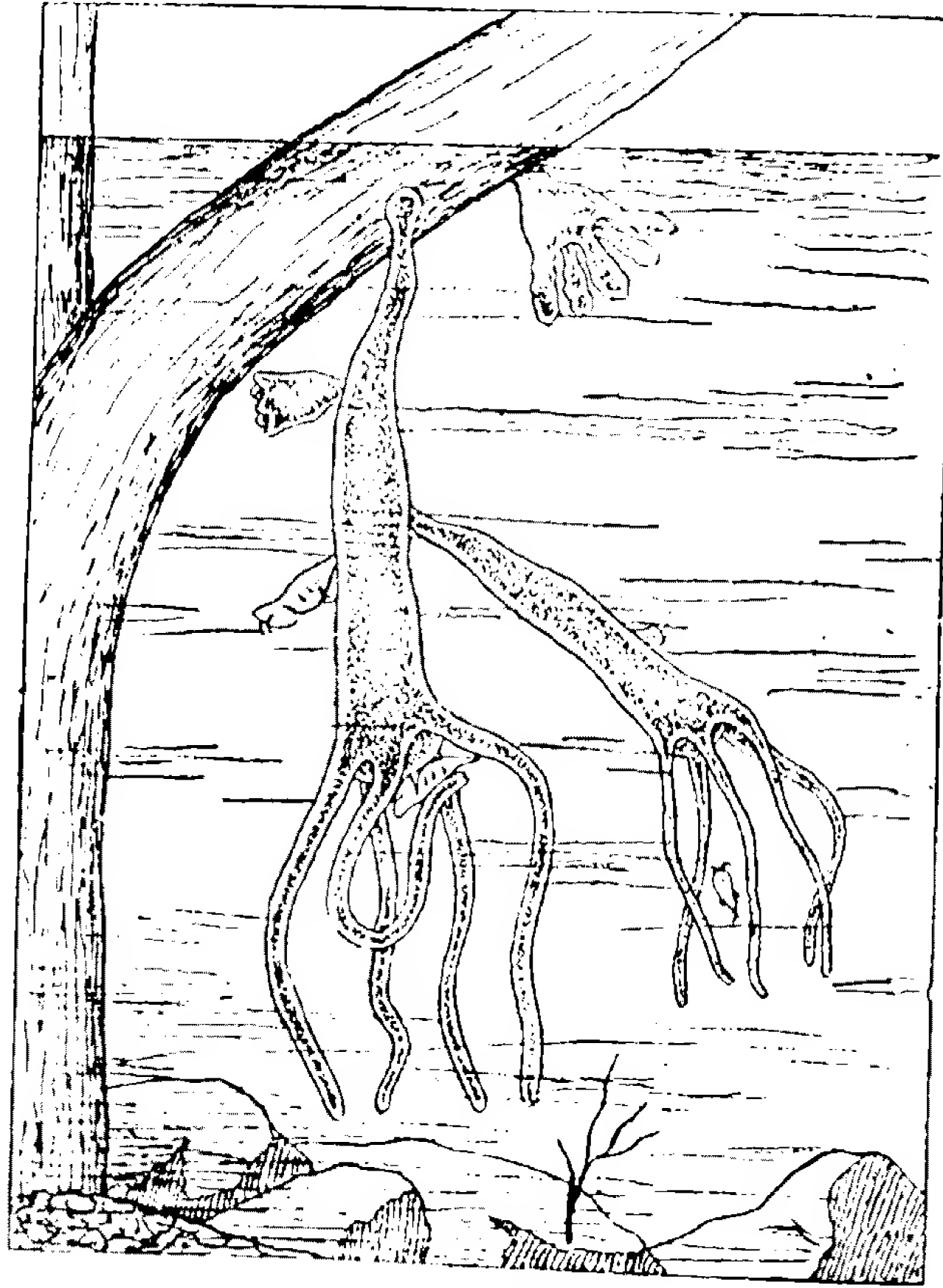
( شكل ٣٨ - نوع من الاسفنج الجوى البسيط )

ومنها اسفنج الحمام ، وهذه صورته ( انظر شكل ٣٩ ) :



( شكل ٣٩ - اسفنج الحمام )

القسم الثاني من الحيوانات كثيرة الخلية  
الحيوانات الاخطبوطية  
( انظر شكل ٤٠ )

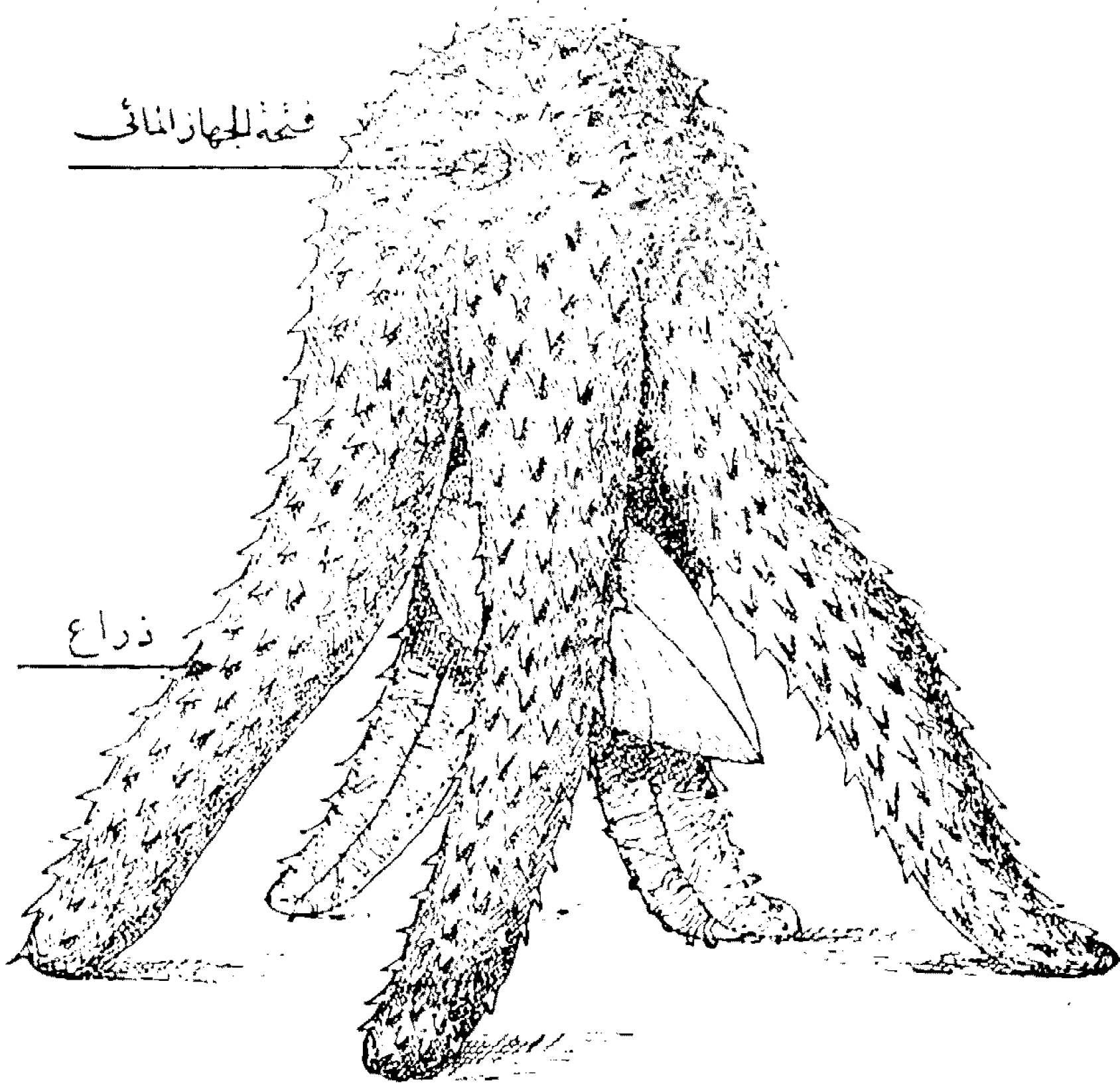


شكل ٤٠ - أخطبوط في حالته الطبيعية ( ٧ X )

ومن الحيوانات الاخطبوطية حيوان المرجان ، وقد تقدم في سورة الجاثية ، وفي سورة النحل .



القسم الثالث من الحيوانات العديدة الخلايا  
الحيوانات النجمية ، وهي ذوات الجلد الشوكي  
( انظر شكل ٤١ )



نجم يفترس محاراً  
( شكل ٤١ )

حيوانات هذه لرتبة كلها بحرية ، يعيش بعضها على سواحل البحار كنجم البحر ، والبعض بالقرب من الشواطئ كقنفذ البحر ، والبعض الآخر في وسط البحار كخيار البحر .  
وكل هذه الحيوانات ذات شكل منتظم أعضاؤها متشعبة كأنصاف أقطار الدائرة حول مركزها ، وأجسامها في الغالب مغطاة بأشواك قد تكون طويلة كما في قنفذ البحر ، أو قصيرة كما في نجم البحر ، وقد لا تظهر أصلاً وتعوض بصفائح حجرية صغيرة موضوعة تحت الجلد كما في خيار البحر ، وقد تكون هذه الصفائح كثيرة وتتصل بعضها ببعض فتكون شبه صندوق كما في قنفذ البحر ، وقد توجد الصفائح والأشواك معاً في الحيوان الواحد . وتشاهد على أجسام هذه الحيوانات زوائد بيضاء اللون . متحركة تمتد وتنكمش عند الإرادة ، وتنتهي كل واحدة منها بقرص صغير مقعر قليلاً ، وهذه الزوائد هي أعضاء الحركة والاتصاق ، والحركة في هذه الحيوانات بطيئة جداً .  
الذكور في هذه الحيوانات منفصلة عن الإناث ، ومن الصعب جداً التفرقة بينهما من غير الاستعانة بالشرح .

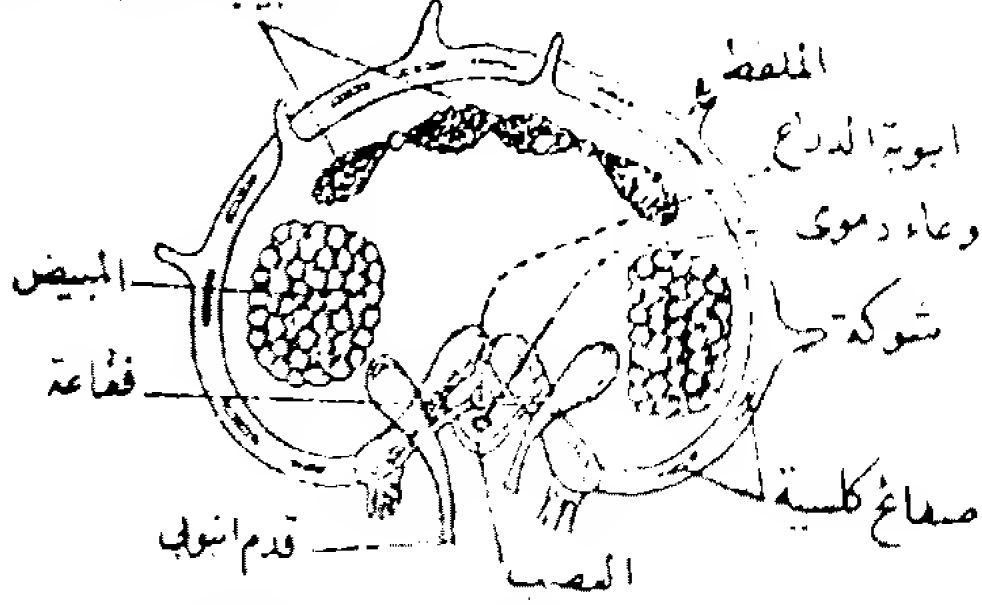
[ نجم البحر ] يشبه هذا الحيوان النجمة في شكلها لهذا سمي نجم البحر ، ويتركب جسمه من قرص وسطي يتفرع منه عدد من الأعضاء ( خمسة في الغالب ) وكلها متشابهة شكلاً وفي الغالب متساوية حجماً ،

وتعرف هذه الأعضاء بالأذرع ، وللحيوان سطحتان : أحدهما علوى والآخر سفلى ، والسطح العلوى أقوم لونا من السفلى ، وبوسطه فتحة صغيرة جدا لا ترى بسهولة تعرف بالأست .

ويوجد على حافة القرص من أعلى أيضا وبجوار نقطة اتصال ذراعين من أذرع الحيوان جزء قشرى مستدير به عدة ثقب صغيرة يعرف بفتحة الجهاز المائى .

ويوجد عدد كبير من صفائح كاسية منتشرة تحت جلد الحيوان تبرز منها أشواك كثيرة تظهر فوق سطح الجسم كما أنه تبرز من بعض هذه الصفائح أعضاء صغيرة كالأشواك شبيهة بالملقط ، وظيفتها التقاط الأشياء الصغيرة كالحشائش المائية ، وكذلك تنظيف جسم الحيوان مما قد يلتصق به من أوساخ ( انظر شكل ٤٢ )

الانابيب الاعوربة المعدية



( شكل ٤٢ - قطاع عرضى فى الذراع )

وتظهر على جسم الحيوان فى المواضع الخالية من الصفائح الكاسية زوائد صغيرة شبيهة بالأصابع ذات جذر جلدية رقيقة للغاية لحصل الحيوان بواسطتها على ما يحتاج إليه من الأكسوجين الذائب فى الماء المحيط به ، فهى إذن أعضاء للتنفس .

وتوجد فى وسط القرص من أسفل فتحة تعرف بالفم محوطة بأشواك كلسية .

## القسم الرابع من الحيوانات العديدة الخلايا التى لا فقرات لها كالتى قبلها

الديدان المفرطة ومنها الدودة الكبدية



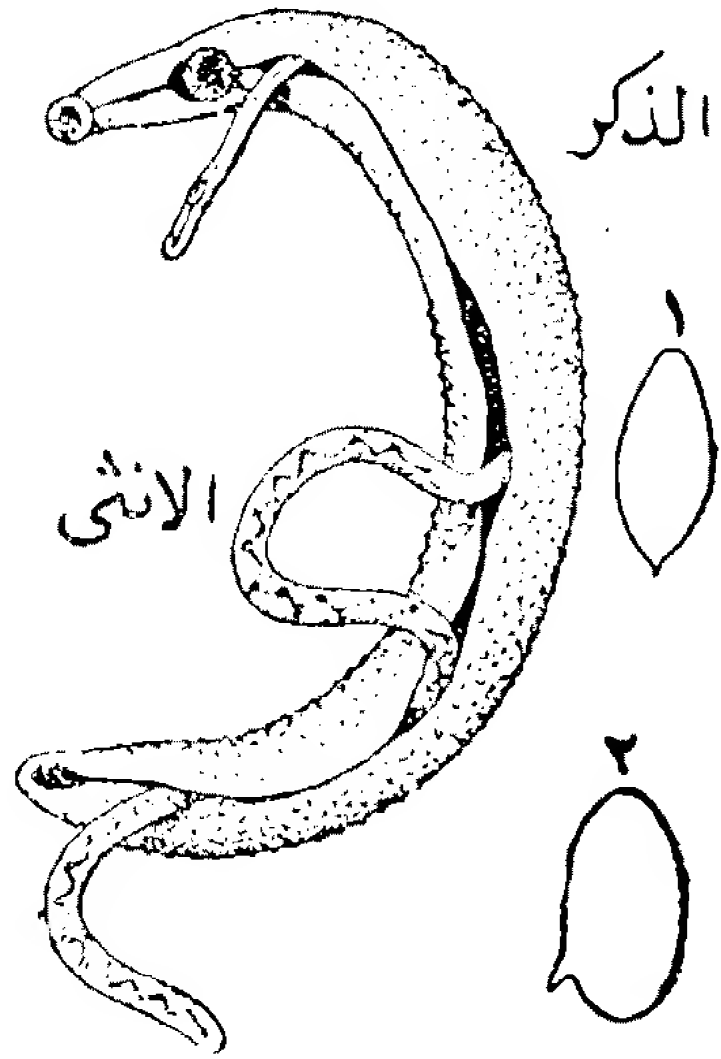
( شكل ٤٣ )

الدودة الكبدية الكاملة

تعيش الدودة الكبدية وهى فى طورها الكامل فى القنوات المرارية الكبيرة فى كبد الأغنام والمواشى والجمال ، وأحيانا الانسان ، ويبلغ طولها سنتيمتران أو أكثر ، وتسبب لهذه الحيوانات مرض تعفن الكبد أى تفتت الكبد ، لأن الكبد المصاب يصير خشن الملمس غير مرن ، وسهل التفتت . ( انظر شكل ٤٣ )

ومنها دودة البلهارسيا ( انظر شكل ٤٤ فى الصفحة التالية )



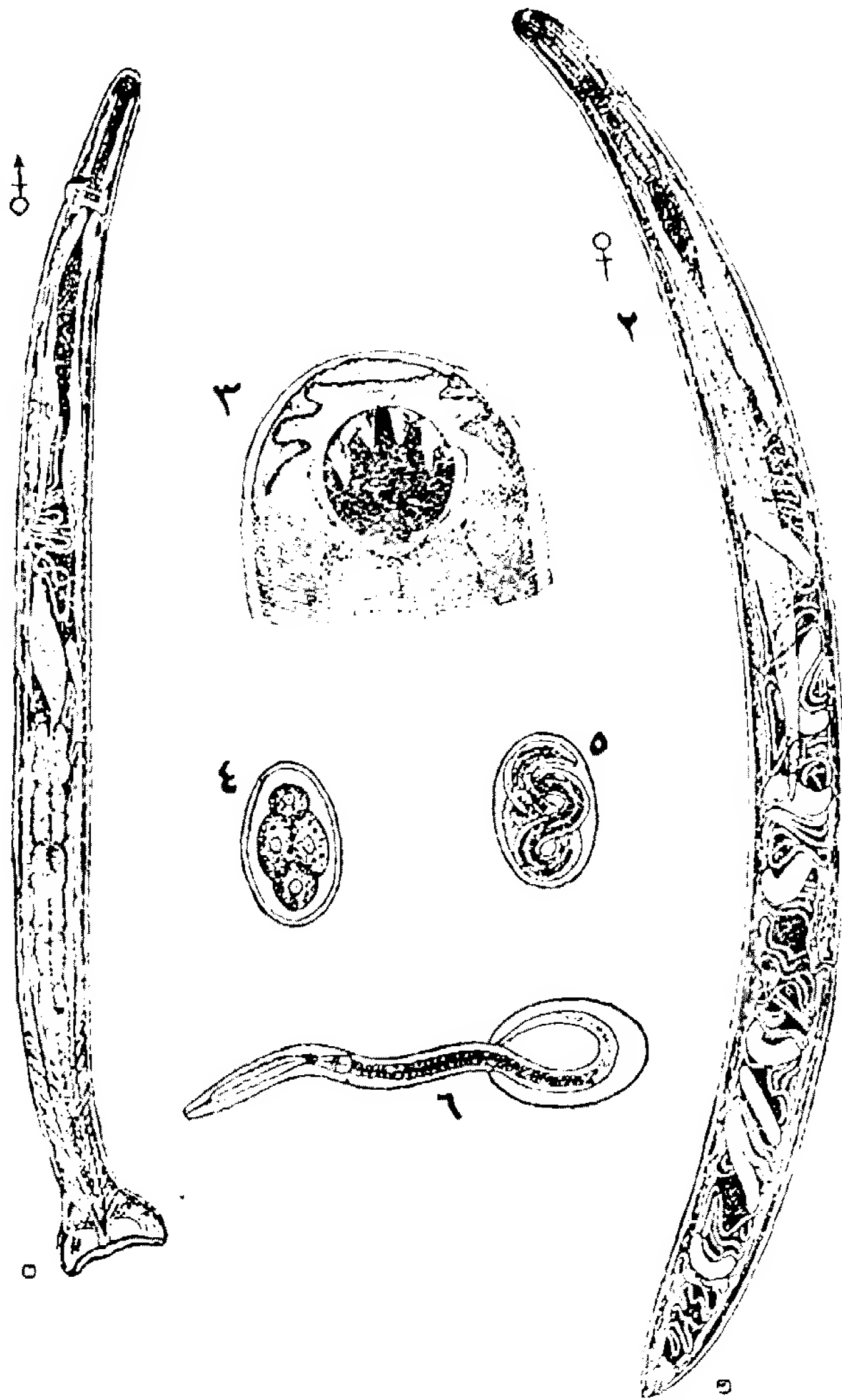


( شكل ٤٤ - دودة البهارسيا )  
(١) بيضة بهارسيا المجارى البولية . (٢) بيضة بهارسيا المستقيم .

### القسم الخامس من الحيوانات عديدة الخلية الديدان الاسطوانية

ديدان [ الانكاستوما ] هي ديدان رفيعة بيضاء ، يبلغ طولها سنتيمترا تقريبا وتعيش في الأمعاء الدقيقة ملتصقة بجدرانها وتمتص الدم منها ، وتحدث للصاب بها ضعفا وانحطاطا مستمرا في قواه ناشئا من فقر الدم ينتهي بالموت ، ويسمى فقر الدم الناشئ من الانكاستوما عند الفلاحين ( بالرهقان ) أى سرعة دقات القلب عند القيام بأى مجهود جسماني .

وأناث الانكاستوما أكبر بقليل من ذكورها ، وتعيش الاناث منفصلة عن الذكور بخلاف البهارسيا ، ولاتتصل بها إلا عند التزاوج ( انظر شكل ٤٥ ) .



( شكل ٤٥ - دودة الانكاستوما )  
(١) الذكر (٢) الأنثى (٣) دم الدودة مفتوحا (٤) البيضة عند وضعها (٥) البيضة عند نضج الجنين فيها (٦) اليرقة

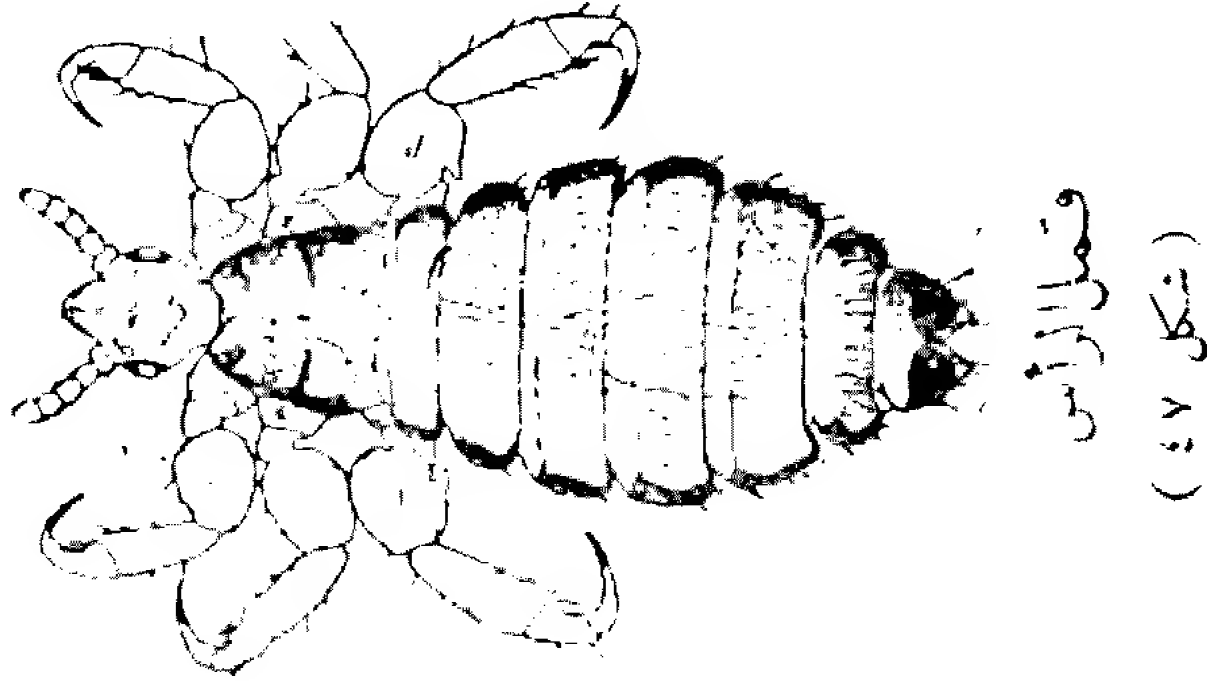
القسم السادس من الحيوانات عديدة الخلية  
الديدان الحلقية ، وهي من الحيوانات التي لافقرات لها  
ومنها دودة الأرض ، وقد تقدم الكلام عليها في [ سورة فصلت ] فراجعها هناك إن شئت .

### القسم السابع من الحيوانات عديدة الخلية التي لافقرات لها الحيوانات المفصليّة

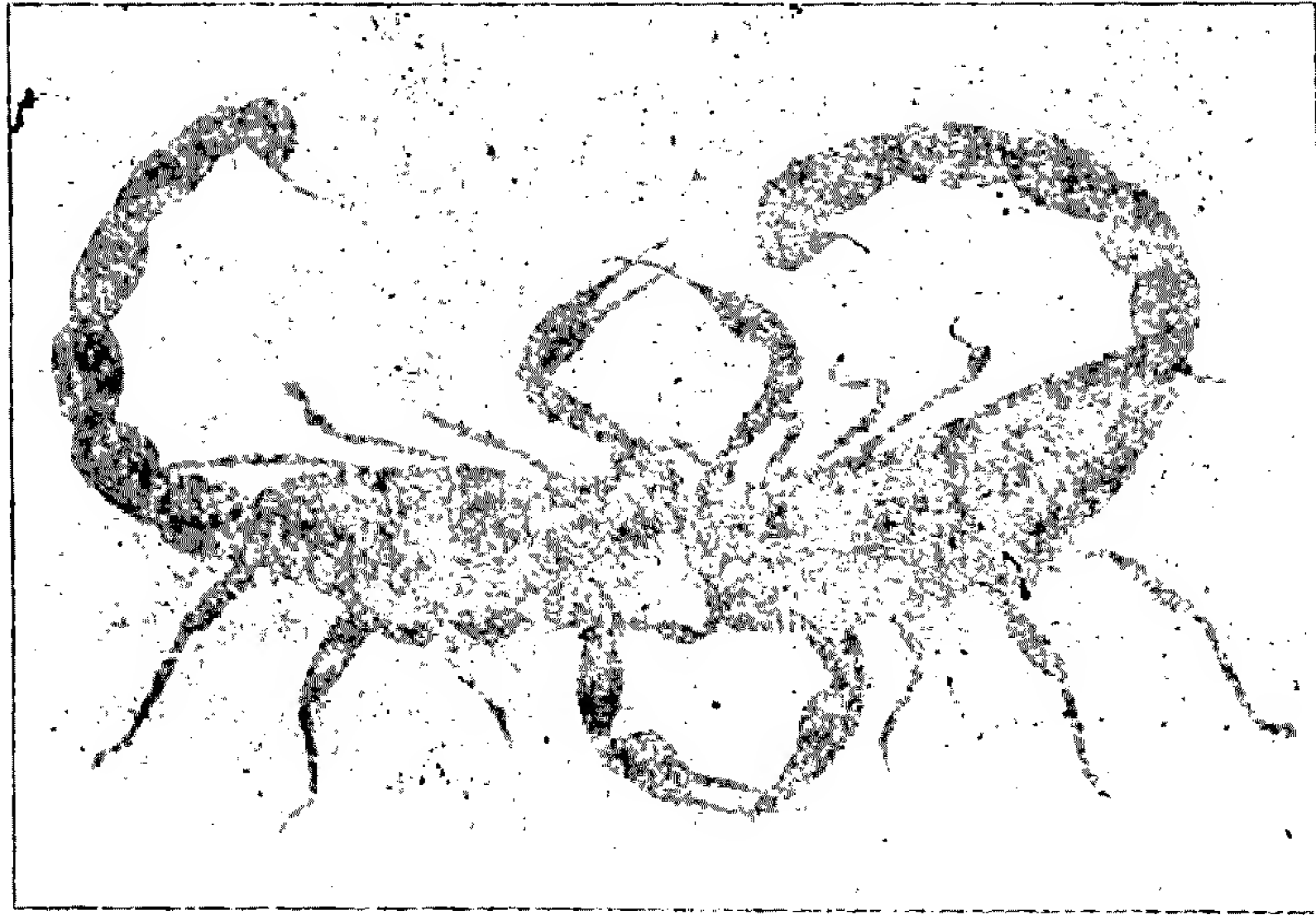
و يدخل في هذا القسم الحيوانات القشرية كالجبري ، أو الكثرة الأرجل كأم أربعة وأربعين ( انظر شكل ٤٦ ) والعنكبوت ونحوه ، والحشرات : كالجراد ، وفرس النّبي ، والصرصار ، ودودة القطن ، والذباب والناموس ، والبق ، والبرغوث ، والقمل ( انظر شكل ٤٧ ) ودود القز ، والنحل ، والعقارب ( انظر شكل ٤٨ ) .  
( شكل ٤٩ تراه في الصفحة التالية ) ثم الجبري ( شكل ٥٠ تراه في الصفحة التالية أيضا )



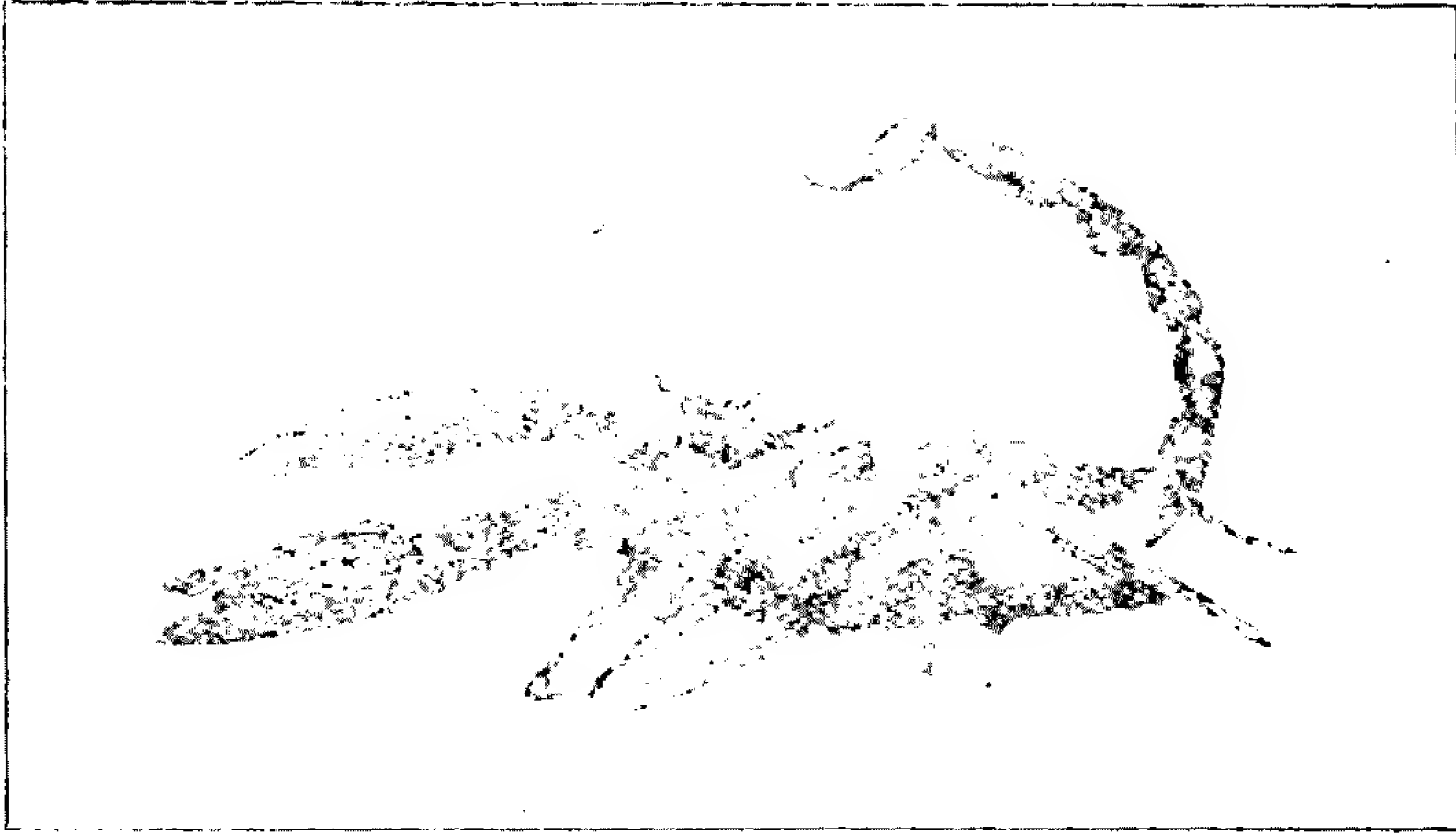
أم أربعة وأربعين  
( شكل ٤٦ )



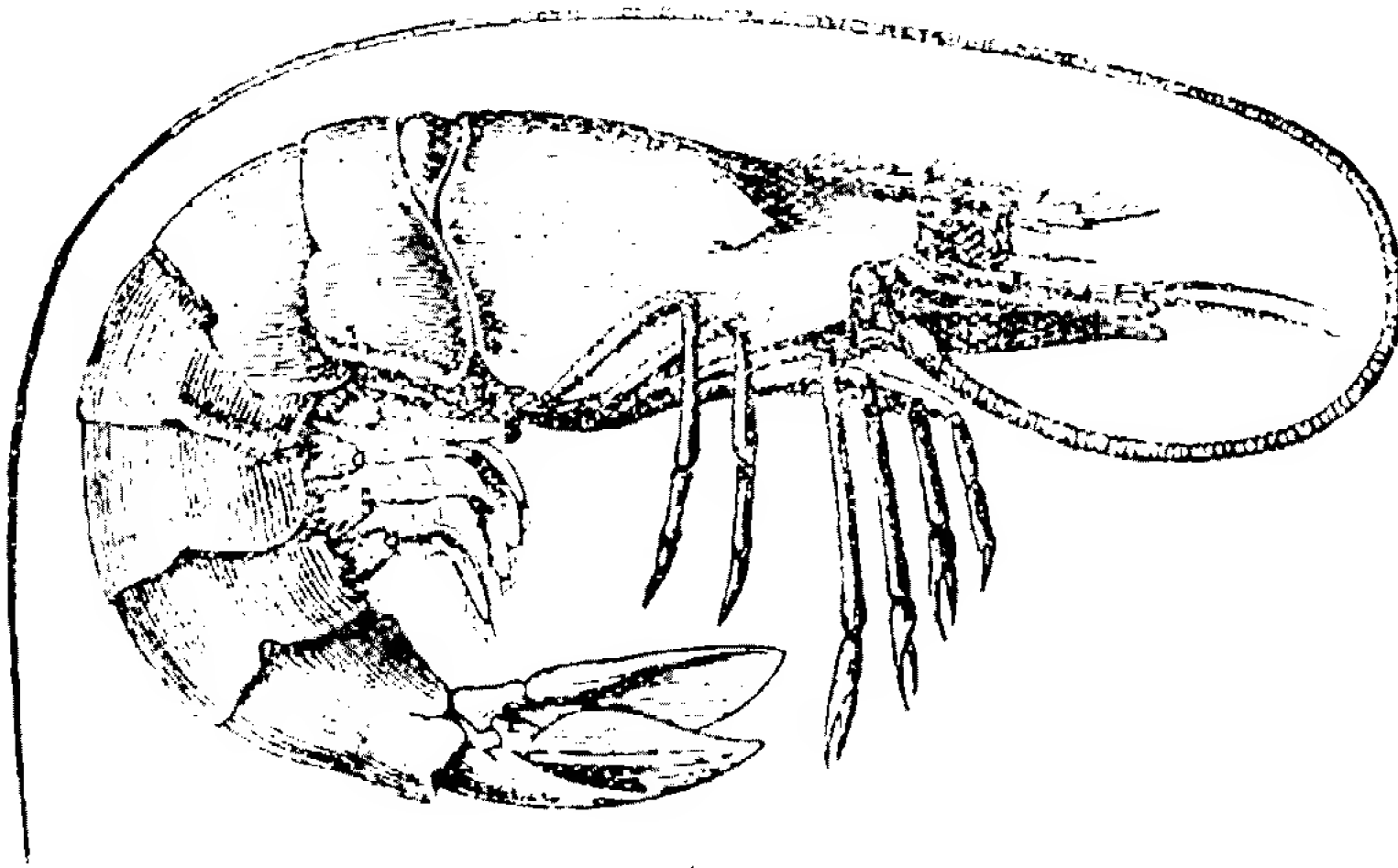
فارس النبي  
( شكل ٤٧ )



( شكل ٤٨ - تقربان يتصالحان عند مقابلتهما )



( شكل ٤٩ - عقربة تحمل صغارها على ظهرها )

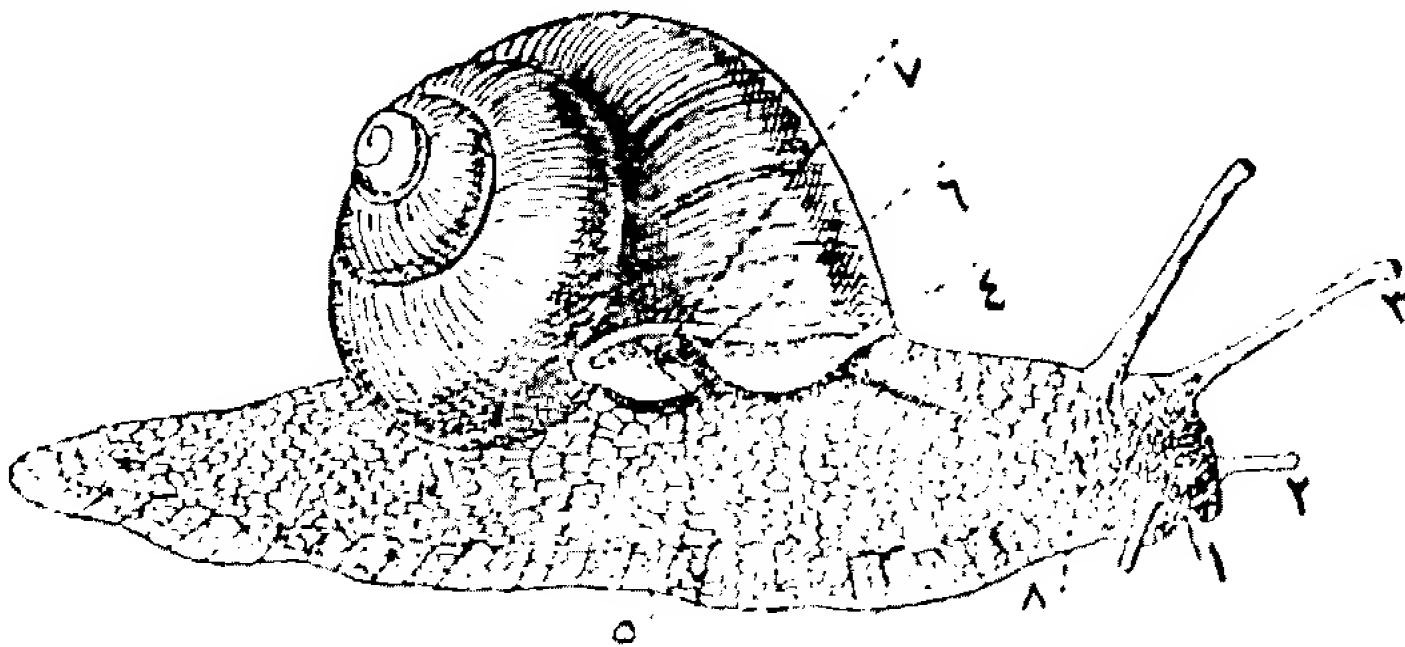


( شكل ٥٠ - الجبى بالجم الحقيقى )

القسم الثامن من الحيوانات عديدة الخلايا وهى ليست ذات فقرات

الحيوانات الرخوة ، ومنها القواقع ، و بلح البحر

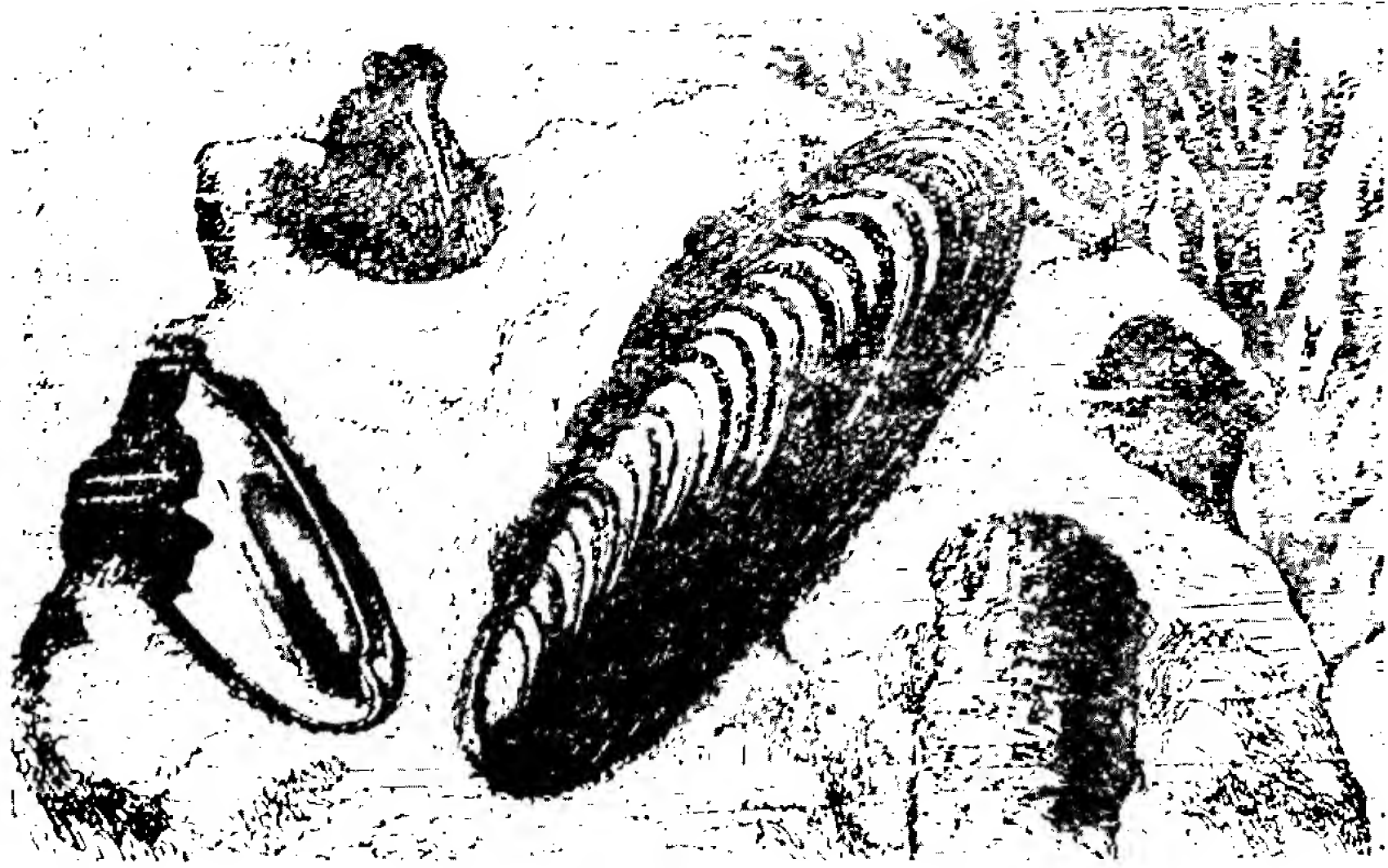
( انظر شكل ٥١ )



( شكل ٥١ - الوقع الرومانى )

(١) الفم (٢) الزوائد الأمامية (٣) الزوائد الخلفية الحاملة للعين (٤) حادة البرنس (٥) القدم (٦) الفتحة التنفسية (٧) الفتحة الشرجية (٨) الفتحة التناسلية





( شكل ٥٢ - بلع البحر ، مدفونا في الصخر بحالته الطبيعية )

هذا ما أردته من كتاب « علم الحيوان » في هذا المقام ، وبهذا تم الكلام على أقسام الحيوانات الثمانية الوحيدة الخلية والعديدة الخلية ، والحمد لله رب العالمين .

### بهجة الحكمة في هذه المناظر الحيوانية وعجائبها وبدائعها

أنا يا الله جميع المغرمين بعجائبك وقرءاء هذا التفسير المطلقين على أكثره من أهل الفطنة موقنون بإبقائنا مبنيين على المباحث العقلية ، والمشاهدات الحسية ، والنظريات الحكمية ، انك رحيم رحمة لا حد لها ، بحيث أصبحت رحمة الأمهات والآباء بالنسبة لها قليلة الجدوى ، وبهذا فهمنا قولك : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم » فأنت عززت حكمت وأحكمت التدبير وأولو العلم هم الذين يشهدون بالحق ، والجهال مؤمنون لا غير ، وفهمنا أيضا معنى قولك في القرآن : « وهو أرحم الراحمين » فكل منا عنده رحمة ولكنها رحمة جزئية ، فأما رحمتك التي شهدناها فانها لا حد لها ، ومن آيات ذلك إحكامك الصنع في أجسامنا ، ودقة صنع أعيننا ، وتلك الطبقات العجيبة المنظمة ، وكيف وضعت بهيئة بها تقبل ضوء الشمس ، وهذا الضوء يوصل الصور المرئية ، وهذه الصور تدخل في تلك الطبقات وتخترق العدسة وتمر في الشبكية ورامها ، ثم تصل إلى أعصاب الاحساس البصري وتتجه إلى القوة الباصرة في الدماغ وهناك يكون الاحساس ، وما هذه إلا وسائط ، وقد فعلت أمثال ذلك في إحساسنا بالأصوات وفهم الكلمات والجل ، وأبدعت وصورت وأحكمت ، وأودعت في آذاننا قطعات تتلوها قطع تتحرك حركات تنتقل من واحدة إلى الأخرى ، وهكذا من العجائب التي لو كانت ممثلة لنا دائما لاستغرقت قوانا وعقولنا الأوقات في الإعجاب ثم الحب والهيام والغرام بصانعتها الحكيم .

ومن أنعم النظر في عجائب الأشجار والأزهار والأوراق والجذور وبدائع الحيوان يدهش من تلك الثروة الحكمية ، وأن نظرة واحدة لورقة واحدة ( كما تقدم في سورة يس عند آية : سبحان الذي خلق الأزواج كلها إلخ ) بل لخلية واحدة من خلايا الورقة المرسومة هناك يدهش كل الدهش ويعجب كيف خلقت الشمس وبيننا وبينها نحو ٣٥٠ سنة بسير القطار و ١٢ سنة بجري قلة المدفع و ٨ دقائق و ١٨ ثانية بسير النور ، خلقت هذه الشمس في ذلك البعد العظيم عنا ، ولو أنها قربت منا لأحرقتنا فلم نعش ، فهذه الشمس ترسل

نورا لأعيننا به نرى الطرق ونقرأ الكتب ، وهذا النور نفسه يدخل في الخلية من الورقة المحتوية على آلاف من الخلايا بل عشرات آلاف الآلاف في بعض الورق ، وهذه الخلية ذات حيطان شفافة مسقوفة بسقف من مواد شفافة موضوعة وضع اللبنة بجانب أخرى ، فهي إذن مقفلة ، وهذا الاقفل لا يمنع دخول نور الشمس ، فإذا فعل ذلك النور ، ياترى يقابل السائل الذي في وسط تلك الحجرة ، فيجد فيه مادة خضراء وهو [ كلوروفل ] فباجتماع هذا الضوء المسافر من أقطار شاسعة مع هذه المادة الخضراء تجذب الورقة [ المادة الكربونية ] من الهواء .

الله أكبر : إذن هذه الخلية أشبه بالرئة للحيوان والكربون أشبه بالأكسوجين للحيوان والأكسوجين الذي يخرج من الورقة قائم مقام المادة الكربونية التي يخرجها الإنسان والحيوان .

ههنا ههنا وصلنا إلى المقصود وهو أن خلية واحدة من خلايا الورقة اتحدت مع الشمس المرسله ضوءها لحياة الشجرة ، ولاريب أن هذه الرئة واحدة من آلاف آلاف آلاف آلاف الخلايا في الشجرة ، والشجرة واحدة من آلاف آلاف النباتات والشجر في الأرض ، وكل هذه صنعت لأجل حياتنا نحن ، فههنا رجة لاحد لها وحكمة واتقان لانهاية لهما ، والرحيم الحكيم محبوب على مقدار رحته وحكمته ، ولعمري ليس يحب الله أحد من الناس حبا حقيقيا إلا من درسوا أمثال ما كتبه الآن ، فالرئة والحكمة لاحد لهما ، وإذا نظرنا نظرا أرقى وقلنا إن نفس هذه المادة وأوراقها وأشجارها وحيوانها كلها ليست موجودة بالفعل وماهى هذه الاحركات انقلبت ضوءا ، وهذا الضوء كهر بائى متحرك سالبه حول موجبه آلاف آلاف في الثانية الواحدة : وباختلاف الحركات والأحوال اختلفت المظاهر كما هو رأى علماء عصرنا الحاضر .

أقول : اذا نظرنا هذه النظرة أدركنا معنى : « الله نور السموات والأرض » وأدركنا « والله خلقكم وما تعملون » وأنه هو المتجلى في كل عمل دق أو جل « ولا تعملون من عمل إلا كننا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين » .

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : هذا المقال جيل ، ولكنه ليس أمرا جديدا في هذا التفسير ، فهو كله على هذا النمط ، ولكن هذا الاسلوب شيق يهيج القلوب ويحركها إلى المعالى ، وعندى سؤال : وهو أنك في هذا المقال أبنت الرئة العامة ، وحل هذا الموضوع يناسب ذكر الصور المتقدمة ، أنت ابتدأت الكلام بذكر ما شاهدته من الرجل الذي يرعى العنز ، وأنت استنتجت من منظر العنز وألوانها أمرين : الأمر الأول علم الأخلاق ، الأمر الثانى علم السياسة ، وأن انكشاف عضو التناسل فى أنثى المعز جاء لحكمة ، وهى أن الحيوان عنده غريزة تحفظه من التماذى فى شهوة الوقاع ، وأن الانسان حر يتصرف كما يشاء ، فهو أبدا يعوزه المذكرات العقلية والدينية ومعجزات الأيام والليالى حتى يرجع من تلقاء نفسه بتلك المذكرات فيعرج بهذه القوة التى اكتسبها من المران على حفظ شهوته إلى الحكمة والعلم اللذين خلق فى الأرض لهما ، ويظهر من كلامك أن أهل الأرض جميعا لافائدة تامة لهم إلا لطائفة خاصة وهم الحكماء ، وبقية الناس همج الهمج فان هؤلاء الذين ظنوا الشهوات من المطعم والمشرب ، أو غلبة الأعداء هى المقصودة من الحياة — جاهلون أغبياء إلا من تاب وعرف وقرأ الحكمة .

فهذا هو الذى ذكرته أنت فى مقدمة هذا المقال ، ورسمت بعده صور الحيوانات ، وأبنت الحيوانات ذوات الخلية الواحدة الأربعة وهى : [ الاميبية ] و [ هديه ] و [ سوطيه ] و [ جرثوميه ] ثم الحيوانات ذوات الخلايا التى لا فقرات لها مثل : [ الاسفنجية ] و [ الاخطبوطية ] و [ النجمية ] إلى آخر الأقسام الثمانية المتقدمة

فهذا هو الذي ذكرته أولاً ، فهل الكلام على رجة الله بعدها مناسب لها كل المناسبة ؟ هذا ما أريد سؤالك عنه ؟ فقلت حيالك الله : إن الرجة التي ذكرتها بعد انتهاء هذه الصور الحيوانية إنما نقاتها على سبيل التمثيل للرجة بمثال سهل مقبول ، ورجة الله تعالى لنا بذلك الحيوانات رجة شريفة عالية ، إن الرجة على قسمين : رجة الأم ، ورجة الأب ، أما رجة الأم فإنها يقل فيها التفطن والتفكير والتأديب ، أما رجة الأب فهي الكمال ، لأن الأب واسع النظر حكيم يريد للولد مستقبله ، أما الأم فهي تريد الأحوال الجزئية والمنافع السطحية . فهذا المثل الذي ضربته هنا بخلية الورقة جاء في الرجة المشبهة رجة الأم ، فأما هذه الحيوانات وما فيها من الأعضاء والمنافع فإنها كرجة الأب التي تشتمل على التأديب والزجر كما تشتمل على تغذية البدن بأنواع الغذاء . قال : فبين لي هذا المقام على شريطة أن تكون الأمثلة من نفس تلك الحيوانات المصورة فيما تقدم . فقلت : اللهم اتنا خلقنا في هذه الأرض فرأينا أسلوباً واحداً متبعاً في حياتنا ، فكما أن الشهوات للغذاء وللمتاعيل حفظتها بالغرائز في الحيوان وهذبنا في الإنسان ( الذي أعطى الحرية في التصرف ) بالمنذرات والعبر والعلوم والمعارف ، وجعلت عقولنا هي المسيطرات على قواها الخلوقة فيها . وغرائز الحيوان لا حاجة معها إلى عقل كبير ، ثم اتنا نظرنا حولنا ياربنا فرأينا أغذية نتعاطاها وفيها الضرر والنافع ، فقامت عقولنا بما تعرفه من التجارب والعلم ، فاخترت منها ما ينفعنا ونبت ما يضرنا ، وهكذا رأينا ماء ينزل من السماء ويسبح على الأرض ، فأهملت عقولنا أن تحفر له الأنهار وتقيم له السدود لنحفظه فيسقى زرعنا كما أقامت هذه العقول موانع وحواجز حجرت شهواتنا عن التوغل والاسراف لحفظ حياتنا .

ثم إن هذه العقول أنفسها بها نظمنا دولنا ، فنحن في هذا كاه أرقى من الحيوان ، لأن الحيوان نظم دوله بغرائزه ، أما نحن فقد أحكمنا عقولنا فتصرفت في شهواتنا بخلاف التيس مع الغرائز في المشاهدة التي ذكرتها سابقاً ، فلما نفع له غريزته ، وتصرفت أيضاً في نظام طعامنا وشرابنا ، وسقى زرعنا ، واقامة دولنا ، والغريزة عندنا لا حكم لها هنا وإنما الحكم لعقولنا ، وبهذه العقول قويت ارادتنا ، وعملنا باختيارنا لا بغرائزنا . أما الحيوان فهو مسوق لاسائق ، ومقود لاقائد ، فإذا رأينا حيوان الملاريا يدخل الكرات الدموية الجراء ويهلك ما فيها ويميتها ، وبهذا العمل ترتفع درجة الحرارة في فترات منتظمة كل يومين أو ثلاثة على حسب نوع الملاريا ، ثم تستمر هذه النوبات بضع أسابيع حتى يضعف المصاب بها ( وهذا الحيوان دقيق الجسم جداً من الحيوانات الجرثومية ذوات الخلية الواحدة وهو يتكاثر ، ثم يساعده في الانتقال إلى جسم انسان آخر ليجعل له مستعمرة هناك حشرة الناموس المعروفة لمتنصه الاناث منها وتذهب به إلى انسان آخر فتمتص دمه وتبقى بجسمه ذلك الحيوان الفتاك فيتكاثر فيه ) .

أقول : اذا رأينا حيوان الملاريا هكذا فلم يخرج ذلك عن إعطائنا الحرية والعلم وعن أنه مهمار يسوقنا إلى العمل ، ولولا ذلك لكان الكسل ولكان الموت .

الله أكبر : أى فارقة بين شهواتنا التي أطلقت لنا الحرية فيها ( بخلاف الحيوان ذى الغريزة ) وبين خلق هذه الحيوانات لنا ، الحيوانات هي المساعدات لنا ، كما أن الشهوات لولاها لم نعش ، فالخلوقات الخارجية مساعدات لنا ، والقوى الباطنية فينا كشهوة الغذاء والوقاع لاجياة لنا بدونها ولا بقاء ، وقد أطلقت لنا الحرية في شهواتنا وبالمحافظة عليها يتم لنا نظام الحياة ، وبعدم المحافظة عليها والاسراف يكون شقاء الحياة فالنتيجة من ذلك تدرينا على حكم أنفسنا وأن نتولى نحن بأنفسنا العمل لها بخلاف الحيوان ، فهل نحن اذا رأينا [ جى الملاريا ] تقتل آلافنا ( كما أن حشرة النمل ودودة الحرير وأنواع الجاموس والبقر والحيل جالبات الخير والسعادة لنا ) قد خرجنا عن المثال السابق . كلا . فلواتنا أعطينا العسل والحرير والصوف واللحم

واللبن من الحيوان ، ثم لم يصاحب هذه النعم ضدها لكما أغيباء كسالى ، بل كتنا حيوانات أقل من الانسان لأننا قلنا فى مثال العنزات ان الفارق بيننا وبين الحيوان المحافظة بأنفسنا على قرانا وعلى نعمنا حتى نستأهل للارتقاء إلى عالم فوق هذا ، إذن الله عز وجل يكلمنا دائما ليلا ونهارا بكلام بلا حرف ولا صوت ، يقول : يا عبادى اعقلوا عني هذه قواكم فيها الخير وفيها الشر فاحترسوا ، وهذا الماء وهذا الهواء وهذا الحيوان فيها كلها الخير والشر فاحترسوا ، وعملى هذا بعلم أشبه لكم بعمل الأب لابنه منكم « والله المثل الأعلى » فهو يأخذه فى دكانه ، أوفى حقله ، أوفى محل تجارته ، ويترك له الحرية حتى يخطئ ويصالح خطأه بعقله وبنفسه ، ولكنه عادة فى بعض بلاد الشرق لا يعلم ابنته هذا التعليم ، لأنها فى نظره غير أهل لتلك النعمة ، نعمة الرجال الذين يفكرون بأنفسهم لأنهم خلقوا للاستقلال ، ولو أنى لم أخلق من الحيوان إلا ما نفعكم ، ولم أخلق لكم أنواع الملائكة التى تترى فى دمائكم ، ويحملها الناموس من واحد إلى آخر منكم لكتنم فى مرتبة صغيرة حيوانية جاهلة . بهذا تفهمون أيها الناس قولى : « فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمنى ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهاننى ، كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين » . أيها الناس : إن المدار على عملكم أتم لاعلى العطايا والمواهب وحدها ، وأعظم عطائى ونعمى علمكم وعملكم ، لهذا خلقتكم فى الدنيا ، وعلمكم وعملكم لا يمتان إلا بالمتضادين ، ولذلك قلت : « ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ، ففرّوا إلى الله » فها أنا ذا هنا خلقت لكم الضر والنافع فى قواكم الشهوية والغضبية ، فالاعتدال نافع ، والاسراف ضار ، وخلقت الضر والنافع فى الهواء وفى الماء وفى الحيوان ، وتركتم لكم الحرية فلتختاروا ما تشاءون لأنكم إلى راجعون ، وهل يرجع إلى ويكون عندى فى مقعد صدق وأما الملك المقتدر أحد إلا إذا تخلق بالصفات الشريفة من العلم والعمل ، وكل من ازداد علما وأحسن عملا فى صناعة أو أى عمل كان قريبا منى بقدر منفعة للناس واتقانه لصناعته .

يا عبادى : ها هوذا عملى معكم ، خلقت فيكم حيوان الملائكة ، وما هو إلا كلمات يعقلها الموفقون ، وهذا القول مجسم بخلاف أقوالكم فهى أصوات والأصوات يفهمها العلماء والجهلاء ، والكلام المجسم لا يعقله إلا الحكماء ، فهؤلاء هم الذين أفهمهم أنا كلماتى المجسمة فيفهمونها ويعلمونها للناس فى مشارق الأرض ومغاربها ، وهؤلاء الحكماء هم الذين يقولون لكم عني ويبلغونكم أننى أنزلت هذه الحيوانات الخلوية الدقيقة ، وخلقت دودة [البهارسيا] وقلت لها : أيتها الدودة عيشى فى أكباد بنى آدم ، وكلى واشربى من دماهم ، واحدى ضعفا فيهم ، ثم انزلى فى المجارى البولية فيكون النزيف الدموى ، أو انزلى فى المستقيم ، واحدى نزيفا دمويا فى البراز ، فيكون هناك صعوبة وآلام فى أثناء قضاء الحاجة ، فإذا نزل بيضك بهذه الصفة ووقع فى نهر فأنى أجعله يفسد هناك وتخرج الذرية على مثالك فألهما أن تعتمد إلى القواقع التى خلقتها هناك فتدخل فيها بعد أن تثقبها وتعيش فيها ، ثم تخرج الذرية فتعوم فى الماء ٤٨ ساعة ، فإن لم تجد انسانا تعيش فى جسمه ماتت ، فإن رآته فهناك تكون سعادة ذريتك فتثقب جلده وتثقبه إلى كبده كما اتجهت إلى كبده القوقعة أولا ، ودخولها جسم الانسان إما بالاستحمام أو الشرب أو الاغتسال بالماء الملوث بها ، ذلك هو عمل دودة البهارسيا ، ومثلها الدودة الشريطية التى تعيش فى بعض الحيوان ، وتصيب من لم يطبخه طبخا جيدا إن لم يكشف عليه كشفا صحيا الطيب العام فى البلاد ، وهكذا دودة الانكاستوما وبقية الحشرات السابقات كالقمل والعقارب وما أشبهها ، فكل هذه أيها الناس كلماتى المجسمة أنزلتها عليكم وقلت لها : لا تتدخلى وسعا فى الحاق الأذى والمكره بالأثم فى الأرض وبالأفراد ، فإن أجعوا أمرهم بينهم على قتالكن وإزالكن من الأرض ، وانتهوا بأنهم صاروا متضامين جميعا فى الشرق والغرب فذلك هو الذى أريد سوقهم

إليه بهذه الرزايا والنوائب بحيث تنتقل العدوى من بلد إلى بلد ، ولا فرق بين البلدان في هذه الرزايا .  
فيا أيها المخلوقات المؤذية لبني آدم استمرى في عمالك ولا تفرق بين أهل الديانات والممالك ، وافتكى بهم فتكا  
ذريعا حتى يعلموا أنهم خلقوا أمة واحدة تتعاون ، وهناك تكونين قد أدت مهمتك الشريفة في هذه  
الأرض .

هذا ما يقوله الحكماء ، لأهل لأرض في هذا الزمان ليدلوهم على المحبة والمودة ، وتعميم السلام العام ،  
والحمد لله رب العالمين . كتب ليلة السبت ١٨ يناير سنة ١٩٣٠ م قبيل الفجر .

### زيادة إيضاح قوله تعالى : ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون

كتب ليلة الثلاثاء قبيل الفجر يوم ٢١ يناير سنة ١٩٣٠ م

بعد أن كتبت ما تقدم ملخصا من ذلك الكتاب أخذت أطالع ماجاء في أحوال الديدان الحلقية التي  
منها دودة الأرض التي تقدم رسمها ووصفها في [ سورة فصلت ] وأنها تسكون سببا في خصب الأرض الخ  
ومنها العلق الطبي ، فإذا رأيت ؟ رأيت أن الأمم المستعمرة إذا منعت الناس عن العلم والحكمة ودراسة  
أمثال هذه العجائب فإنها بهذا تفوز وتملك البلاد ، ولماذا تملكها ؟ تملكها لأن الناس بلا علم بأمثال هذه  
العجائب يكونون أشبه بالبهائم فيسهل التسلط عليهم وإذلالهم وتسخيرهم كما تسخر الدواب .

ولما وصلت إلى هذا المقام . قال صاحبي بعد ماقرأ هذا : ها أنت ذا رجعت إلى الذم والتقريع فعلاّم هذا  
اللوم ؟ أعلى دودة في الأرض منبوذة لاعلاقة لها بالدنيا ولا بالدين ، فهل يكون المسلمون وقد جهلوا هذا  
الدود قد استعدوا لاذلال الأمم لهم ، إن هذا منك مباغلة ، ثم لماذا أعدت القول في هذه الدودة وحدها ،  
وهل الجهل بها وبأمثالها هو الذي مكن الانجليز من بلادكم فيما مضى ؟ فقلت : اعلم يا صاح : إن الجاهل  
أعمى ، والأعمى يستحق قائدا يقوده ، لقد كنت في حقل وأمامي ساقية قد دار فيها ثور ، وكان على عينه  
غطاء فانكشف الغطاء فوقف الثور ، فلما أن أعيد إليه الغطاء جرى كما كان ودارت الساقية ، وما أشبه  
الأمم الاسلامية وقد غطيت بصرها عن نظر العجائب الكونية إلا بهذا الثور الذي كان أمامي لما غطيت  
عيناه ، وأنا لا أشبهها وقد أزيل هذا الغطاء عن بصرها بالفهم والعلم إلا بنفس هذا الثور اذ أزيل عن  
عينه الغطاء فوقف عن السير .

فقال صاحبي : هذا لم يزد عن أنه من ضرب الأمثال . فقلت : يا صاح إن للقول بقية ، لقد أدهشني  
وصف دودة الأرض المتقدمة في [ سورة فصلت ] بل أذهل عقلي أيّ اذهال من فرط التعجب وزاد يقيني بأن  
هذه الدنيا جنة خلقنا فيها وحجبنا عن بساطتها وحدائقها وأزهارها وأثمارها ، نحن معذبون في الدنيا المشدة  
جهالتنا فاذا علمنا فنحن من المقر بين ، دود منبوذ في الأرض يكون سببا لاسعادنا وامدادنا بالخبز والفاكهة  
والتين والرمان والحب والعصف والريحان ، دود منبوذ يكون سببا لتغذية العلماء والحكماء والأنبياء ، دود  
منبوذ يقوم بحرث الأرض وتسميدها والناس لا يعلمون ، دود منبوذ يفتت القطع الأرضية فيدخل الهواء فيها  
فيحسن الزرع فتكون سعادة الحياة ، ينجبني والله أن نعيش في الأرض ونحن غافلون .

أما أنا فاني أحمدك يارب على نعمة العلم ، وأنا أعلم أن من الناس من يقرءون ما ذكرته فيها ولا يحبون  
وأكثر علماء النبات والحيوان يعرفون أضعاف ما في هذا الكتاب وهم غافلون ، فهم يرون الجمال وكأنه  
لا جمال ، ويرون الحسن والاحسان وكأنه لا حسن ولا احسان ، أكثرهم عمى وقد رأوا العادات الحسان ،  
صم وقد سمعوا أجمل النغمات ، وليس هذا عجيبا فقد نرى الحسان ونسمع أبهى النغمات . وقد اعترانا في



النفوس موانع وهموم ، فلانهتز طربا ولا نهتاج شوقا وغراما ، هكذا أغلب نوع هذا الانسان ، اننى لما قرأت ما سئسمعه تذكرت أن هذه العوالم التى نعيش فيها إنما هى شמוש فى مجرات والمجرات كثيرات ، ووراءها السدم ، ووراء السدم سدم وهكذا إلى ما لا نهاية له كما هو مقرر فى علوم الفلك اليوم ، وهذا هو الذى يغذى نفوسنا ، إن نفوسنا تود أن تزيد علما ، ولو كان للعلم نهاية لكان ذلك عذابا لنفوسنا إذن العلم غذاؤها فان انتهى العلم فقد الغذاء .

قد كنا أيام الصبا وزمن المراهقة نحمل الشص [الصناره] لنصطاد السمك ، ونبحث فى الطين لنستخرج دود الأرض (قد تقدم رسمه والكلام عليه فى سورة فصلت فراجعه هناك إن شئت) لنضعه فيها فىأكله السمك فيعلق بالشص فنصطاده فنأكله ، فهذه علومنا ونحن صغار بالنسبة لهذه الدودة ، والفلاحون وجميع المسلمين غالبا لا يزيدون علما بهذا عن الأطفال .

أقول : فهل كان يدور بخلدى وأنا صراهى ، أويصور بخلد أكثر عاتمة المسلمين وعلماهم أن الفدان الواحد فيه ٣٥ ألف دودة ، وكل هؤلاء إنما هم حراثون يحراثون الأرض ويقدمون لها سمادا يغطى نصف سقيمت من سطح الأرض .

والحق أقول : إن الله لما خلق لنا الحيات والعقارب ، وأمثال هذا الدود جعلها فى المحسوسات أشبه بالحكايات الخيالية فى المسموعات ، نسمع حكايات [كليله ودمنه] وما شاكلها من حكايات [ألف ليله وليله] فنظن أننا بها عالمون ، ومتى عقلنا وعلما أدركنا أنها أعظم قدرا مما كنا نظن ، الجهال والأطفال يسمعون حكاية الحمامة المطوقة ، وقد اجتمعت مع صواحبها فى ذلك الكتاب ، وقد أجمعن أمرهن وتخلصن من الشبكة بمساعدة حيوانات أخرى ، فيظنون أن هذه حقائق وأنهم بها عالمون ، ويقصونها على غيرهم وهم لا يعقلون ولكن الحكماء والعلماء يستنتجون منها النتائج وهم يفسكرون ، هكذا العقارب لا يعرف منها الناس إلا أنها مؤذية ، وقد علمت فيما تقدم فى غير هذا المكان أنها آكلات لحشرات ضاررات بأمتعتنا ، وهكذا الحيات لا يعرف الناس إلا أنها سامات ، واسكنهم فى الوقت نفسه برون رجلا وهو المشعوذ الذى يسمونه [الخاوى] تأبط منها كثيرا فلا تلدغه ، وهو قد حمل معه الحيات التى لاسم لها وهى تملأ الخافقين والناس لا يعلمون ، وهكذا دودة الأرض التى كلامنا فيها يراها الناس مزدراة محقورة إذا هى عونهم وغوثهم وحارثهم ومسمد أرضهم .

يا سبحان الله ويا سعادته ، يقول الله : « وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهار معاشا ، وبنينا فوقكم سبعة شدادا ، وجعلنا سراجا وهاجا » ، فهذا السراج الوهاج اذا أظهره لنا كان المعاش ، واذا غيبه عنا كان اللباس ، ولكن هذه الدودة التى نحن بصدددها ، ومثلها النور والاسود والفهود وجميع السباع كالذئب قد عكس الأمر عليها ، فالليل معاشها والنهار لباسها فالسبع الشداد ياربنا جعلت فيها سراجك الوهاج فأقت به طاقة وأمنت أخرى اذا أضاء واذا أظلم ، فاذا أضاء أمرت أنواع العصافير مثل أبى ذيل أبيض وأبى ذيل أحر وأبى رقة بيضاء ، ومثل المغنى فى الصفصاف ، ومثل المغنى الأصفر والمغنى الأحمر وأبى ذيل طويل وأبى قصاده وأبى زور أحر وآكل الذباب والقنبرة الافرنجية والوروار بأنواعه والهدد والعنز وأبى قردان والكروان والزقزاق المطوق ، والزقزاق الشامى ، والزقزاق البلدى مما شرحت هناك فى أول سورة يوسف ، فهؤلاء أنت يا الله تأمرهم اذا أطلعت شمسك أن يأكلن الحشرات الآكلات لزرعنا ، ويحفظن بلادنا ، ويكون عونا على حياتنا وحيواننا كما أن الليل اذا جن تبعث دود الأرض فيطوف حقولنا ويلتقط الورق منها ويعيش فى هناك وسعادة ، ويغيب فى جوفها اذا طلع النهار ، فالليل والنهار آيتان مدهشتان فلاندرى أيهما نفضل وقد عرفنا

بهذا العلم أن المانوية كاذبون إذ يقولون باهين : إله الخير ، وإله الشر ، وأن إله الشر هو الذي خلق الليل  
فهاهوذا الليل فيه يتمتع الدود النافع لمزارعنا المسمى لحاصلاتنا .

تباركت يا الله وتعاليت ، وأريتنا رحمتك الواسعة ، وعرفتنا أننا غافلون جاهلون ، ندرس القليل ، ونجهل  
الكثير ، وأصبحت اليوم أقول : لو أنني درست بعد موتى جميع المجرات وجميع السدم التي كشفت حديثاً ،  
واطلعت على جميع سكانها ، وخبرت بواطن أحوالهم ، وأسرار حياتهم لقلت اني لا أزال كما أنا الآن أيضاً  
أجهل الكثير كما جهل اليوم عموم المسلمين إلا النادر منهم عجائب دودة الأرض التي ذكرناها ، ومنافع الطيور  
التي بيناها ، واحساسنا بالجهل يحثنا على العلم ، والعلم غذاء أرواحنا ، فلنكن باحثين في الدنيا لترقى الأمم ،  
وذلك يجعلنا من المجدين في العلم بعد الموت لتغذى به أرواحنا ، وكأما ازدادنا علماً قربنا من ربنا ، وربنا  
هو الجليل الحكيم الذي منه ينزل كل جمال وكل حكمة .

ألا تسمع المسلمون أي أكتب هذا وأنا أحسن بسعادة تفوق كل سعادة أرضية ، واقد جربت كما جربت  
جميع الحيوانات والناس أنواع السعادات واللذات فوجدت اللذة العلمية طورا لاصلة بينه وبين تلك الأطوار ،  
إن ارتباط الشمس وضوئها ، ودود الأرض وحشراتنا ، ومزارعها وطيورها ، وآكلها ومأكولها أشبه  
برواية تفوق كل الروايات ، إن الناس في أحوالهم العادية يذهبون إلى محال الصور المتحركة ودور التمثيل التي  
تمثل فيها الروايات الغرامية ويفرحون بذلك العلم ويقرءون الروايات في [ ألف ليلة وليلة ] وهم فرحون بتلك  
الصور الخيالية ، إن سعادة الناس بالعلم تابعة لمقداره ، فهي في الخيالات خيالية ، وفي الحقائق حقيقية ، وهل  
يستوى الرجلان : رجل عرف هذه الحقائق فرأى تمثيلاً حقيقياً ، وامتزجت في نفسه مشرقات الكواكب ،  
ومنيرات الشمس مع الطيور والعلق والدود ، وانكشف لنفسه بدائع المناظر العجيبة ، يرى ستارا ينزل فيكون  
الظلام ، فهناك تمثل الروايات الليلية التي أسلفناها ، فإذا أشرقت الغزاة أسدلت الستار على مناظر الليل فغابت  
تلك المناظر السكوكية في دياجى الظلمات ، وهجعت الطيور الليلية والبوم في أعشاشها ، والاسود في آجامها ، ودود  
الأرض في باطنها ، وأخذت الشمس تظهر الألوان ، والبحار والأشجار ، والمسالك والممالك .

وسيكون من قراء هذا التفسير من تسكون الأرض لهم جنات ونعيم وإن شاركوا الناس في أتراحهم  
وأفراحهم ، ولكنهم يرون في نفوسهم مالا يراه الآخرون ، وهؤلاء إذا أخذوا يصلون وهم مسلمون على  
أنفسهم في التشهد ، وعلى عباد الله الصالحين وعلى الأنبياء والمرسلين ، إذ يقولون : السلام عليك أيها النبي الخ  
يفهمون معاني تشبه ما ذكرناه الآن ، إذ هم بعد أن درسوا الوجود على هذه الشريطة وأدركوا أنه عالم  
جميل وبديع ومتسق ، وبين أعلاه وأدناه نسب بدیعة بحيث يرون الرباط محكما بين دودة الأرض وعلقها ،  
وبين الطيور والنبات والانسان والشمس ، هكذا هنا يرون المناسبة والرباط بين المصلی وبين عباد الله الصالحين  
والأنبياء والمرسلين . وأن هذا الوجود مبني على هذا ، فالصلاة نوع من العلم والتذكرة ، فالمسلم يذكر نبيه صلى  
الله عليه وسلم وجميع الصالحين من الأمم القديمة والحديثة والآتية بعدنا ليعلم من الآن أن ربنا سيجمع جميع  
الصالحين على مقتضى درجاتهم بعد مفارقة الأجسام أولا وبعد الحشر ، فهو من الآن يتعرف بهم ، ومنهم  
الملائكة الذين يذكرون في جميع الديانات ، فالصلاة تذكرة حتى إذا فارقنا أجسامنا وقابلنا الأرواح من جميع  
الأمم ومن الملائكة لم تكن في حال شديدة الغرابة علينا ، والعلم الآن يساعدنا على الرقي هناك ، لأن عالمنا  
الحسي قد ضرب مثلا للعالم الروحي ، فهنا رباط وثيق عجيب بين أخس الأشياء وأرفعها ، وهناك نفس هذا  
الرباط بين الأخس والأرفع ، وترى أضعف المؤمنين يقول : « السلام عليك أيها النبي » كما ترى دود الأرض  
بين ظهرنا إذا علاقة بالشمس إذ يطلع ليلا فيأكل كل الورق ، والورق مانعا لإسبب ضوء الشمس الذي أشرق

عليه فامتص الكربون من الهواء ، ولولا ذلك الضوء مع [ الكلوروفيل ] ملون الورق لم يكن ذلك الامتصاص فلم يكن نبات ، ولم تكن دودة تمثل في دياجي الظلمات في مسرح الوجود هذه الفصول التي شرحناها . فاعلى الأرواح له صلات بأدناها كما أن للشمس صلة بأدنى الحيوان وهو دود الأرض ، وهذا كله ظاهر في الشهد في صلاتنا الاسلامية .

ولا جرم أن هذه المعارف التي شرحت في هذا المقام تجعل نفوسنا مشوقة إلى إسعاد جميع الناس ، لأننا اذا عرفنا أن للشمس صلة بالدودة أفلا يكون لنا صلة بنوع الانسان ، فياحسرة على الأمم الاسلامية الحالية ، اللهم انك أنت تعلم أن الجهل فرقةهم ، والبدع طمست على بصائر الكثيرين منهم ، ولكن أن أوان ارتقاؤهم واسعاد أمهم ، والله هو الولي الحيد ، والحمد لله رب العالمين . كتب في ضحى يوم الثلاثاء ٢١ يناير سنة ١٩٣٠

### مسامرة بينى وبين أحد العلماء الفضلاء

في آيات : « وفي السماء رزقكم وما توعدون ، فرب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » مع آية : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ، ففرتوا إلى الله إني لكم منه نذير مبين »

حضر صاحبى العالم الذى اعتاد الحديث معى في هذا التفسير يوم الاثنين صباحا ١٤ من شهر المحرم الحرام سنة ١٣٥١ هـ — ٣٠ مايو سنة ١٩٣٢ م فأخذ يجاذبنى أطراف الحديث في هذه الآيات ، ومما قاله لى :

لقد رأيتك في آيات القرآن المتشابهة المعانى بحسب ظواهرها تذكر في كل منها من المعانى ما ليس في غيرها فيكون ذلك مسرّة وتذكرة للناس ، وعبرة للعتبرين ، ونشاطا للقارئين ، فإذا تقول في قوله تعالى هنا : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » وما هذا القرار الى الله الذى ذكر عقبها ، وما هذا الانذار ؟ فقلت : لقد تقدم الكلام على الذكور والاناث من أنواع النبات في سورة الأنعام ، وفي سورة طه ، وفي سورة [ الشعراء ] وغيرها . فقال : ولكنى في سؤالى لك قد صرحت بأنك دائما تنوع الكلام في الآيات المتشابهات ، نعم قد تقدم في [ سورة الأنعام ] أن علماء النبات لم يجدوا طريقا لتقسيمه إلا بتسريح الزهر ، وتبيان ذكرانه من اناته ، ولكن المقام يعوزه إيضاح أتم . فقلت : لقد اطلعت على ما ذكره [ بول بيرت ] العالم الطبيعى الفرنسى ، وهو أستاذ فى [ السربون ] ووزير المعارف العمومية فى مكتبته المترجم إلى اللغة الانجليزية . قال فى صفحة ٩٨ مترجمته :

« سأشرع فى الكلام الآن على تقسيم النبات إلى فصائله ، ولكن هذا ربما كان أشد تعقيدا وأكثر صعوبة من تقسيم الحيوان ، ألا ترى رعاك الله أن فصائل الحيوان وأنواعه يمتاز بعضها عن بعض بسهولة ، ولا كذلك النبات ، فإن أنواعه وفصائله متشابهة ، إن الناس يعرفون بكل سهولة الفرق بين الحشرات والطيور ، بل يعرفون أيضا الفرق بين الذباب وحشرة أبو دقيق اللذين هما من نوع الحشرات ، ولكنهم لا ينسنى لهم بسهولة أن يرسموا خطوطا فاصلة ما بين فصائل المملكة النباتية وأنواعها ، إن ذلك على الناس عسير » .

ثم نادى أحد التلاميذ قائلا : [ يابول ] لو أننى كلفتك بأن تقسم النبات إلى فصائل فإذا أنت صانع ؟ (ج) كيف يصعب ياسيدى هذا ؟ انه لأمر سهل ، أنا أقسمه إلى ثلاثة أنواع : شجرات ، وشجيرات وأنجم : أى وهو مالا ساق له : كالقمح ، والذرة ، والشعير .

(س) حسن ، إن هذا الرأى يغلب على كثير من المفكرين ، ولكن انظر : هل تعرف كم من العقبات

في طريق تقسيمك هذا ، وكم من التشابهات فيه التي تورث العقول حيرة وارتباكاً ، وتضيع الزمن على المفكرين ، فأرجو أن تبين لي الحدود والفصلة بين هذه الأنواع الثلاثة ، فخيرني إلى أي مدى تنتهي أصناف الشجيرات ؟ ومن أين تبتدى الأشجار ؟ ومتى نطلق على النبات أنه شجيرة بدل أن نطلق عليه أنه نجم ، خيرني يا بني : أنبات البندق من الشجيرات أم من الشجيرات ؟ وهل ما يقال له (دفرز) باللغة الانجليزية (وهو نبات شوكة دائماً أخضر وله زهر أصفر) أمن الشجيرات هو أم من الأنجم ؟ اللهم ان الفاصل بين هذه الأنواع والفصائل عسير غير يسير . ثم أشار إلى تلميذ آخر فقال :

(س) ما الذي تقوله يا جورج ؟

(ج) ياسيدي أنا أقسم النبات إلى نبات سنوي ، وإلى نبات ذي سنتين ، وإلى نبات ذي سنين كثيرة بسبب جذوره فقط ، وإلى نبات ذي سنين كثيرة حقيقية .

(س) هذه فكرة أجل وأتم ، ولكن يرد عليها اعتراض ، فانظروا : أليست مظاهر المراعى تشابه مظاهر مزارع الحبوب ، ولكن الحب سنوي أما الحشائش فانها تعيش سنين في الأرض ، إن الحشائش والحب إذن يدخلان تحت نوعين مختلفين من أنواع النبات ، فهما من جهة ذوات حب ، ومن جهة أخرى هذا سنوي وهذا ذو سنين كثيرة ، بل هناك ما هو فوق ذلك ، فهذا نبات [الشوفان] وقد تقدم الكلام عليه في هذا التفسير ، فهذا إذا زرعه صار سنوياً ، ولكنه إذا نبت بنفسه بدون زرع كالذي ينبت في جوانب الطرق فانه يعيش سنين كثيرة . وأيضاً ههنا نوعان من نبات ترجمته بالانجليزية [كأس الزبدة] .

هأنذا وضعت ما اختلف منه بعضه بجانب بعض ، فهذه هوذا بعضه سنوي والآخرون ذو سنين كثيرة ويعسر إزالته من الأرض واهلاكه ، إذن هذا غير موفى التقسيم حقه ، ولا قائم بما توخينا .

### أهمية الزهر في تحقيق تقسيم النبات

ههنا أخذ المؤلف يشرح هذا التقسيم النباتي بواسطة درس الزهرة النباتية . جلّ الله . جلّ الله . يا عجباً يا ربنا ! يعيش الناس في الدنيا ويموتون وينظرون ياربنا جمال زهرك ، ويشمون روائحهم ، ويتهادونهم ويفرحون ويمرحون ، وهم ساهون لاهون .

يا سبحان الله : في الأرض أزهار ، وفي السماء شمس وأقمار ونجوم وسدم ومجرات ، هناك المجموعة الشمسية ، فالشمس تحيط بها السيارات ، ولها أبعاد خاصة لولاها لاختل النظام وتقدم موضحاً في هذا التفسير الله أكبر : منه الجمال وهو مفيضه على الأرض وعلى الناس ، العوالم التي نعيش فيها كتاب مفتوح لا يقفل ، صفحة منه تظهر لنا نهاراً ، وأخرى تظهر ليلاً ، فصفحة النهار تظهر بواسطة ضوء الشمس ، وصفحة الليل تظهر بواسطة النجوم ، فهذه النجوم بينها وبين زهر النبات مناسبة ، وأي مناسبة هذه ؟ انها لمشابهة قوينة ، ألم تر أن الزهرة الواحدة فيها أوراق خضراء يسمونها الكاس ، وفي داخلها أوراق ملونة يسمونها [تويج] وفي داخل هذه أعضاء الذكور التي فيها اللقح ، ووراء هذه أعضاء الاناث التي تتلقى هذا الطلع ، وينزل فيها إلى محل النمو ما يشبه الجنين في الحيوان فيكون الحب أو الثمر ، وفي داخل الثمر يكون النوى ، فههنا ملكة ، ولكن الاحكام والابداع فيها يدعش العقول العظيمة كما يدهشها نظام المجرات ونظام المجموعة الشمسية ، إذ يرى الانسان السيارات جاريات بنظام حول الشمس ، وهن يرسلن الأشعة لمنفعة أهل الأرض هكذا هذه الزهرة الصغيرة منظمة محكمة مبدعة ، وهذا الابداع كله لأجل حصول الثمرات النافعات للانسان والحيوان ، وأعظم مساعد على تغذية النبات ضوء الشمس الآتي إلينا من بعد شاسع جداً يبلغ بسير قلة المدفع

١٢ سنة ، وبسير النقطار السريع نحو ٣٥٠ سنة ، فضوء الشمس يهجم على الورقات من منافذها فيساعد على التغذية فيكون النمو فالثمرات والحبوب ، ويفتج من الزهرات وثمراتها منافع تناسبها كما ينتج من الشمس والكواكب منافع تناسبها ، وهناك ضوء وجمال ، وهنا بهجة وجمال ، فصحيفة الليل بهجة جيلة ، وصحيفة النهار بدعة بهية .

رباه : هذا كتابك الذي صنعته أنت ، وأريته لنا ، وقلت انظروا فنظرنا فأدهشنا صنعك . تقول لنا : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » تذكرنا فوجدنا أن علماء النبات حاروا في تقسيم النبات أيقسم بأنه شجر وشجيرات وأنجم . وسترى صور هذه الزهرات الثلاث في سورة النبأ إن شاء الله . ولكن هذا التقسيم غير مجد ولا نافع ولا محدد ، أم يقسمونه باعتبار أنه سنوي ، أو ذو سنتين ، أو ذو سنين كثيرة ، ولكن هذا التقسيم أيضا غير مجد ، لأننا نرى البرسيم في بلادنا المصرية منه ماهو سنوي وهو البرسيم المعتاد ، ومنه ما يبقى سنين كثيرة وهو البرسيم الحجازي ، وهو الآن مزروع في حقولنا جهة [ المرج ] فهذا أمثل به ليتضح لأهل الشرق الأدنى فوق أمثلة المؤلف ، فإذا يصنعون إذن ؟ رجعوا إلى الزهرة والثمرة والحببة ، فدراسة هذه هي التي بها قسم النبات إلى فصائل بحيث تجتمع كل طائفة منه تحت شكل من أشكال الزهرة ، ولا تختلف فيه إلا قليلا ، وبهذا انحلت الاشكال عند أهل الأرض ، انحلت الاشكال بفعل الله عز وجل في نظام الزهرة وهو نظام ثابت جيل .

ثبت نظام الكواكب والمجموعة الشمسية ونباتها انحلت أشكال ما على الأرض من سير السفن في البحار ، لأنها لا تعتمد إلا على النجوم الثوابت والسيارات ، فثباتها في السماء وحسن نظامها ، واتساقها في مسيرها هو الذي على مقتضاه سارت السفن ، السفن في بحر الظلمات ، وفي بحر الهند وجميع الاوقيانوسات ان لم تهدها النجوم ويلاحظها الربان ضلت سواء السبيل وهلكت ، لولا ثبات النجوم في السماء لضاعت معالم فن المساحة في الأرض ، فمساحة الأرض الواسعة ووضع حدودها يقتضى ملاحظة الكواكب ، وهذا لا يعرفه إلا أكابر علماء المساحة .

لولا ثبات النظام السماوي ونجومه لم يثبت المكيال المصري مثلا ولا الميزان ولا المقياس ، ألم تر إلى ما تقدم في سورة يونس وأن العلم أثبت أن هناك ارتباطا بين مساحات الهرم بالجيزة وبين بعد الشمس ومدار سيرها وأن أبعاد الهرم أساس للأردب والكيلا الخ وللفدان والقيراط الخ وللذراع المعماري والبلدي الخ وللنقطار والرطل والأوقية الخ . كل هذا موضح في [ سورة يونس ] فارجع إليه أيها الذكي إن شئت . هذا فعل الله عز وجل بالكواكب في أرضنا « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

### الزهرات تنوب عن النجوم في بعض آثارها

انظر إلى الزهرات في النباتات ، إن كل زهرة أشبه بمجموعة شمسية ، لأن نظامها مترن كما تقدم قريبا . الله أكبر : كأس وتويج وأعضاء ذكور وأعضاء اناث وروائح ومادة عسلية ونحلات وحشرات أخرى تغدو وتروح وهناك يكون الثمر وهناك تكون الحياة ، فالزهرات في نظامها الدقيق البديع قائمات مقام المجموعات الشمسية بهجة سارة للناظرين . وبهذا الثبات وهذا النظام قسم النبات إلى أنواع وفصائل فالتقسيم هنا تابع لثبات نظام الزهرات كما كانت المكيال والموازين والمساحات وسير السفن في البحر تابعات لثبات الكواكب ، وكما كانت الساعات والدقائق ، وحساب الناس في المعاملات تابعات لسير الشمس المصادق المتقن ، فعلى الاتقان وحسن النظام يكون ثبات الأعمال ، فهنا في الزهرة ثبت نظام تقسيم النبات لحسن اتقانها بخلاف ظواهر النبات من حيث انه شجرات أو شجيرات ، ومن حيث انه سنوي أو غيره .



جالت النجوم ، وجلت الزهرات ، والجمال أس السعادات ، فلترجع إلى مادراء النجوم ليلا ، وإلى ماوراء الزهرات نهارا ، ولننظر بعقولنا فنرى تلك العقول تلمح وراء هذا الجمال من هو أجل وهو الحكيم وهو البديع وهناك تظلمن وتحس بالسعادة في الحياة ، ثم ترجع ثانيا هذه النفوس فتدرس أقسام هذه الزهرات فإذا ترى ؟ ترى أن من الزهر ما يكون الذكر والأنثى في زهرة واحدة كزهرة القطن ، ومنه ما يكون أحدهما في زهرة والآخر في زهرة أخرى في نبات واحد كما يرى في الذرة ، فالذكر أعلى ، والأنثى في وسط العود ، ومن الزهرات ما يكون زهرة الذكر في نبات وزهرة الأنثى في نبات آخر كالنخل ، وهذا القسم ان تباعدت الديار بحيث صارت الذكور في اقليم والاناث في اقليم آخر فلا تمر هؤلاء ولا هؤلاء ، وذلك كشجر الصفصاف فان الصفصاف الذي في بلاد آسيا كله ذكور ، والصفصاف الذي في أوروبا كله اناث ، فلا تمر لهذا ولا لذلك ، فلو اقترب هؤلاء من هؤلاء لكان للصفصاف ثمرات .

ومما يدهشنا أن نرى ذكور الصفصاف في الشرق دلالة على أن الشرق هو الذي يجب أن يلقح الغرب لأن الغرب يأخذ بالظواهر ، والشرق يبحث عن البواطن ، ولذلك كانت الديانات من الشرق فاستعمرت الغرب ، إذن الشرق لابد منه لاصلاح عقول الغرب ، وهذه الانسانية لن تستقيم مالم يظهر في الشرق نابغون يصلحون الأمم ، ذلك مأخوذ من الاشارة التي فهمناها من نظام شجر الصفصاف ، فهو في الشرق ذكر وفي الغرب أنثى ، وهما الآن عقبان . الله أكبر : ان نظام الزهر كما قدمنا به كان تقسيم النبات :

### الفصيلة الأولى من فصائل النبات

ومن أهم أقسام النبات الفصيلة الخضرية ، سميت بذلك لأن كثيرا من هذه الفصيلة يطبخ لأكله ، ومن هذه الفصيلة : الفول ، واللوبيا ، والبسلة [ الجلبان <sup>(١)</sup> ] شجيرة شوكية ذات ورق دائم الخضرة وزهر أصفر ، والعدس ، وشجر السنط ، وشجرة تسمى المكينة والبرسيم وغيرها ، فهذه النباتات كلها كأسها مكون من خمسة أوراق ، والتوزيع كذلك ، وفي داخلها عشرة ذكور : واحد مرتفع إلى أعلى ، وتسعة متحدة عند القاعدة تكون أنبوبة واحدة ، ثم يفتح اللقاح في آخر الأمر قرونا ، وهذه القرون في داخلها حب ، وكل حبة فلقتان :

### كل نبات إما يخرج ذا فلقة واحدة وإما يخرج ذا فلقتين

الله أكبر : إن جميع النبات ان يخرج عن إحدى حالتين . إما أن ينتج ماهودو فلقتين ، وإما أن ينتج ماهو ذو فلقة واحدة ، فما كان مخرجا ذا فلقتين فان ساقه تكون مخروطية ، وما كان مخرجا ذا فلقة واحدة فان ساقه تكون اسطوانية ، أليس هذا من العجب ! أليس من العجب أن نرى النخل اسطوانى الشكل بخلاف العدس والفول واللوبيا وكل ما كان ثمره ذا فلقتين ، فليس أعلى عود العدس واللوبيا كأسفله ، وهكذا الشوك والسنط والبرسيم ، فهذه كلها نرى أعلاها أدق من أسفلها ، أما النخل مثلا فأعلاه كأسفله ، لماذا ذلك ؟ لأن النواة في القمرة غير منقسمة قسمين كما انقسمت حبة الفول وحبة اللوبيا وقرظ السنط .

أليس هذا أيها الذكي هو السر الذي قدمته من أن جمال الزهر والحب والنوى والفاكهة يشبه الثبات والجمال في المجموعات الشمسية ، وأن الثبات في العالم العلوى ظهر أثره في قطراتنا وساعاتنا المنظمت وسفنا كما ظهر أثر نبات الحب والفاكهة والزهرات الجيلات في تنظيم فصائل النبات ، ومن أروعها وأبدعها نظام كل

(١) بضم الجيم وتشديد اللام وفتح الباء .

ساق لكل نبات لأن ذلك النظام يتبع الحبة ، فان كانت ذات فلقتين كان نظام ذلك الساق مخروطيا ، وان كانت ذات فلقة كان نظام ذلك الساق اسطوانيا ، نظام في السماء أنتج نباتا في الأرض ، ونظام في الأزهار وما والاها أثبت نظاما في تركيب النبات .

### تذكرة

إن ذكر الفلقة والفلقين جاء هنا تبعا للكلام على الفصيلة الأولى الخضرية التي يطبخ بعض أفرادها ، فلنرجع الآن إلى فصائل النبات ولنذكر الفصيلة الثانية وهي الفصيلة الوردية ، ويدخل فيها الورد والكمثرى واللوز والسكريز والعليق (والفريس) الذي يشبه ثمرة ثمر التوت والتفاح والبرقوق وهكذا ، فهذه كلها متشابهات من حيث نظام زهرها ، فالسكاس في الورد البري خمس والتويج خمس ، فأما أعضاء الذكور فهي كثيرة جدا ، وبقية المذكورات معه ونحوها مثله تماما ، فسميت كلها باسم الفصيلة الوردية ، وهناك فصائل أخرى كالفصيلة الزنبقية الخ .

فهذه الفصائل إنما رتب ونظمت على مقتضى الأزهار والثمار والحبوب ، وكيف كان الزهر منظم السكاس والتويج وأعضاء التناسل ، وهذا النظام يكون متحدا في كل فصيلة من فصائل النبات .

الله أكبر : ههنا ههنا ظهر سرّ قوله تعالى : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » . الله أكبر . الله أكبر بنظام الذكور والاناث في الأزهار عرف الناس فصائل النبات ، وبنظام الذكور والاناث في نوع الانسان ألفت أنا « طنطاوى جوهرى كتاب » [ أين الانسان ] لنظام هذه الأمم الأرضية على مقتضى نظام الله في وضعه عواطف أصناف الناس واستعدادهم كما أنه وضع بنفسه نظام الذكور والاناث .

الله أكبر : إذن آية : « ومن كل شيء خلقنا زوجين » فيها ثبات نظام النبات ، وثبات نظام الانسان في السياسة . أما النبات فقد انتظم وعرف ، وأما نظام الجمعية الانسانية ، فانه لا يزال في اختباط واختلاط حتى يظهر في بلاد الشرق رجال يعلمون أوروبا المتخبطة الجشعة التي يعوزها عقول من الشرق تدبر أمرها في السياسة كما دبرت أمر الدين ، والله هو الولي الجيد .

فلما سمع ذلك صاحبي قال : حيا الله العلم ، وحيا الله الحكمة ، إن هذا لعجب ! وحكمة ونظام ، كيف تكون آية : « ومن كل شيء خلقنا زوجين » يعوزها نظام الأزهار ، وتقسيم فصائل النبات حتى تفهم ، ويعوزها نظام الأمم وعواطفها وقواها المختلفة ، وكيف حملتنا هذه الآية على أن نسيح في هذه العوالم فندرسها وكيف كانت هذه الأزهار التي تضمنتها الآية لها ارتباط بالكواكب العليا من حيث ان ضوء الشمس يساعد على نمو أشجارها فتزهو هي وتثمر ، وكيف نرى الله في نفس السورة : أى سورة الذاريات يقول : « وفي السماء رزقكم وما توعدون » ويقول : « والسماء بيناها بأيدينا ولما نمسسون » فهو نفسه كما ربط هذه الأزهار بالعوالم العلوية جعل الكلام على العلويات مرتبطا بالزوجين الذكر والأنثى ، لجعل كلامه كفعله ، فقول الصانع راجع لفعله . ثم قال : وههنا قد عرضت لى تذكرة ثان :

### التذكرة الأولى في اتجاه العقول الاسلامية قديما

إني ليدعشني هذه المفارقة ، فبينما القرآن يوجه العقول إلى النظام الجليل البديع ، وهذا النظام لا يعقل إلا بدرس الزهرات وأنواع النبات والجمال البديع في السموات والأرض اذا بشعراء الاسلام لا يتغنون إلا بما يثير الشهوات ، ويظن هؤلاء الغافلون النائمون الجاهلون أنهم سيروضون عقولهم لبلاغة القرآن فوا أسفاه فهل بلاغة القرآن وصدق القرآن وابداع القرآن لا يتم إلا بالتغنى بما يثير الشهوات .

أم والله نأمة ، هام شيوخها وهام شبانها بما ينجم العقول ويضيع الوقت ، ويرجع بالإنسان إلى الحال البهيمية ، فالقرآن في ناحية والمسلمون في ناحية .

لقد تقدم في هذا التفسير عند آية : « والشعراء يتبعهم الغاؤون » في سورة الشعراء كيف حكم العلماء في أوروبا بأن ضياع بلاد الأندلس إنما نشأ من اكباب العلماء على الشعر وترك العقول فارغة ، والأسبان في نفس الوقت يفكرون في تدمير المسلمين .

إن المسلمين في المستقبل غير هؤلاء السابقين في القرون المتأخرة ، هم سيكونون كالصدر الأول ويخرج جيل لا نظير له ، ويكونون تلاميذ الصحابة والتابعين الذين يعرفون من أين تؤكل الكتف .

فياليت شعري : أهذا الذي نراه من الجمال الرائع والابداع في نظام هذه العوالم الجليلة ، أم ما ينبغي به أطفال الرجال ولا يتعدونه في القرون المتأخرة الإسلامية ، فيقرءون نوححة الوزير أبي عبد الله بن الخطيب شاعر الأندلس والمغرب لعصره إذ يقول :

جاءك الغيث إذا الغيث هما \* يازمان الوصل بالأندلس  
لم يكن وصلك إلا حاملا \* في الكرى أوخلة المختلس  
إذ يقول الدهر أسباب المني \* تنقل الخطو على ما ترسم  
زمرا بين فرادى وثني \* مثل ما يدعو الوفود الموسم  
والحيا قد جلل الروض سنا \* فسنا الأزهار فيه تبسم  
وروى النعمان عن ماء السما \* كيف يروى مالك عن أنس  
فكساه الحسن ثوبا معلما \* يزدهى منه بأبهى ملابس  
في ليال كتمت سرّ الهوى \* بالدجى لولا شمس القدر  
مال نجم الكاس فيها وهوى \* مستقيم السير سعد الأثر  
وطر مافيه من عيب سوى \* أنه مرّ كالمح البصر  
حين لذ النوم منا أو كما \* هجم الصبح نجوم الحرس  
غارث الشهب بنا أوربما \* أثرت فينا عيون النرجس  
أى شيء لامرئ قد خلاصا \* فيكون الروض قد كفن فيه  
تنهب الأزهار فيه الفرصا \* أمنت من مكره ما تنقيه  
فاذا الماء تناجى والحصا \* وخلا كل خليل بأخيه  
تبصر الورد غيورا بدما \* يكتسى من غيظه ما يكتسى  
وترى الآس ليبيها فهما \* يسرق الدمع بأدنى فرس  
يا أهيل الحى من وادى العضا \* وبقي مسكن أتم به  
ضاق عن وجدى بكم رحب الفضا \* لا أبالى شرقه من غربه  
وأعيدوا عهد أنس قد مضى \* تنقدوا عائدكم من كربه  
وانقوا الله واحبوا مغرما \* يتلاشى نفسا في نفس  
حبس القلب عليكم كرما \* أفترضون خراب الحبس  
وبقي فيكمو مقترب \* بأحاديث المني وهو بعيد  
فرا يطلع منه المغرب \* شقوة المغرى به وهو سعيد

قد تساوى محسن أو مذنب \* في هواه بين وعد ووعيد  
 ساحر المقالة معسول الملى \* جال في النفس بحال النفس  
 سدّد السهم رسمى ورمى \* بفؤادى نهيه المفترس  
 ان يكن جار وخاب الأمل \* وفؤاد الصب بالشوق يذوب  
 فهو للنفس حبيب أول \* ليس في الحب لمحبوب ذنوب  
 \* أمره معتمل ممثّل \* في ضلوع قد براها وقلوب  
 حكم اللحظ بها فاحتكما \* لم يراقب في ضعاف الأنفس  
 ينصف المظلوم من ظلما \* ويجازى البرّ منها والمسي  
 ما قلبي كلما هبت صبا \* عاده عيد من الشوق جديد  
 كأن في اللوح له مكتبا \* قوله إن عذابي لشديد  
 جلب الهم له والوصبا \* فهو للأشجان في جهد جهيد  
 لا عيج في أضلعي قد أضرمنا \* فهي نار في هشيم اليبس  
 لم تدع من مهجتي إلا الدما \* كبقاء الصبح بعد الغلس  
 سلمى يا نفس في حكم القضا \* واعمرى الوقت برجعى ومتاب  
 واتركى ذكرى زمان قد مضى \* بين عتي قد تقضت وعتاب  
 واصر في القول إلى المولى الرضى \* ملهم التوفيق في أم الكتاب  
 الكريم المنتهى والمنتهى \* أسد السرح وبدر المجلس  
 ينزل النصر عليه مثل ما \* ينزل الوحي بروح القدس

فاذا كان الوزير هذا ديدنه يضع ذكاه في أمثال هذا النظم ، وليس لهذه النجوم ، ولا هذه الأزهار  
 في نظره إلا أنها ضرب أمثال للحبيب وابتهامته ، وأمة هؤلاء حكامها لابد من أن يعثورها الانحلال .  
 فقلت : هذا حق أيها الحبيب ، إن نسبة هؤلاء الذين لا يعرفون من الزهر والكواكب إلا ظواهرها ،  
 وذكري الحبيب بها إلى العارفين بهجائب الكواكب وبواطن الزهر كنسبة لون الكوكب والزهر ونحوها  
 إلى حقائق العوالم السماوية ونظامها وتركيب الزهرات وابداعها ، فالأول كطفل للثاني ، وهؤلاء الأطفال هم  
 أكثر شعراء الاسلام الذين يعيشون ويموتون ولاهم يذكر « والشعراء يتبعهم الغاؤون ، ألم تر أنهم في  
 كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون » وترى المتعلمين في الديار العربية على هذا المنوال في زماننا  
 إلا قليلا منهم وهم العقلاء .

وهذا الكتاب الذى نقلنا عنه نظام الأزهار لم يؤلفه إلا وزير المعارف في فرنسا ، فالوزير الفرنسى قلبه  
 معلق بنظام النبات والنجوم وغيرها ، والوزير الأندلسى مثلا ليس له من العلم إلا الحظ الأدنى وهو تحويل  
 العوالم الجميلة إلى مسألة التناسل التى تنقضى إذا حلّ الكبر واشتعل الرأس شيئا ، ثم ينظر الانسان فلا يجد  
 في عقله متسعا للحكمة وهو خال من كل فضيلة وكمال .

فقال صاحبي : هذه هي التذكرة الأولى ، أما التذكرة الثانية فأتى حينما سألتك في أول الأمر عن أمر  
 الأزهار وماعها أجبتني بجواب هوى أسلوبه أشبه شيء بما جاء فيما تقدم في الأجزاء السابقة في [ سورة  
 الزمر ] من حيث الكلام على انكسار الضوء فان الأسلوب هناك جميل كالأسلوب هنا ، والذي ذكرني به  
 تلميذ في المدرسة الحديوية في السنة الرابعة ، فانه لما قرأ انكسار الضوء هناك اغرورقت عيناه بالدموع وقال

هذا الأسلوب أسهل وأجل مما نعطاه في المدرسة ، لأنه بهيئة « سؤال وجواب » فلما سمعت الأسلوب هنا في مسألة الأزهار وجدت أنها تطابق ذلك الأسلوب . فقلت حياك الله إن المؤلف واحد .

فقال صاحبي : إذن أرجو أن تفصل الكلام على عالم السماء المذكور هنا في هذه السورة بهذا الأسلوب كما فصلته على أزهار النبات في آية : « ومن كل شيء خلقنا زوجين » ؟ فقلت أيها الأخ الذكي : إن المقام هنا قد طال جدا فسأوضح الكلام بهذا الأسلوب في [ سورة الملك ] على عالم السموات وعلى الأنوار ، وكيف نرى الضوء النازل من الشمس النافذ في حجراتنا يصطبج معه بحرارة ثم تحكم عقولنا بأن ذلك النور يجري على خط مستقيم ، وتحكم علومنا بأن سرعته في الثانية تبلغ نحو ١٨٥ ألف ميل ، ثم نضع أيدينا على ذلك النور فنحكم بالحرارة المصطحجة معه ، فهنا حكان : حكمنا باستقامة الخط بالبصر ، وبالحرارة باللمس ، ثم ننقل من هذا إلى أن الصور الواصلة من الخارج إلى حجراتنا معكوسة مقلوبة لتقاطع الأشعة الداخلة في حجراتنا وهكذا ندخل في أودية من العلم فيها أزهار وأثمار وحدائق وجنات ، فنرى أن هذا الضوء إذا عارضناه بمراءاتنا فأنها تعكسه على الحائط المقابل للضوء الداخل ، وتكون تلك الأنوار الساطعات على ذلك الحائط تابعة في ثباتها وذبذبتها إلى المرآة التي في أيدينا ، وتكون هناك زاوية للسقوط وأخرى للانعكاس بينهما ارتباط وثيق .

أليس هذا من أعجب العجائب : إن ما تقدم يفسر وضع صورنا في المرآة أمامنا ، فيميزنا موضوع في المرآة جهة اليسار والعكس بالعكس ، وهكذا نرى البعد الواقع بيننا وبين المرآة مماثلا للبعد الذي بين المرآة والصورة المصورة كما حصل لما عرّضنا المرآة للضوء وانعكس منها على الحائط المقابل ، وهكذا ننقل من المرآة الزجاجية إلى الماء فنجد مرآة أيضا ، وهو يتقبل الصور المحيطة به كما يتقبلها الزجاج ، وهناك نرى أن النور متى دخل في الماء حصل له ما يسمى بانكسار الضوء الذي وضعناه في [ سورة الزمر ] كما ذكرنا به أيها الأخ الذكي الآن ، وهذا الانكسار نعمة عظيمة في هذه العوالم ، ولولا انكسار الضوء ما كان صبح ولا مغرب ، وانكسار الضوء له حالان : فلما أن يسير الضوء من طبقة لطيفة إلى أخرى كثيفة ، فهناك ينكسر الضوء إلى ناحية خاصة وإذا كان العكس فانه ينكسر إلى الجهة الأخرى .

## العدسات والميكروسكوبات والتلسكوبات والمناظر

### وأضواء الشمس السبعة

هنالك هنالك يدخل العلماء في باب واسع من العلم ، وههنا يكون الكلام على العدسات ، وهي إما محدبات ، وأما مقعرات ، فالعدسات المحدبات زجاجات منتفخات من الجانبين ، فهذه تكبر الأحجام المنظورة من خلالها ، فإذا نحن وضعنا جلة من هذه الزجاجات متحدة بنظام خاص كان عندنا ما نسميه ميكروسكوب ( الآلة المعظمة ) وهذه قد تكبر الشيء ألف مرة بل أكثر ، وقد توضع تلك العدسات بهيئة خاصة أخرى وهي تسمى ( التلسكوب ) الآلة المقرّبة ، فهي تكبر الأجسام البعيدة فتري قريبة لنا ، فهذا سميت مقرّبة . وهل أنالك نبأ العدسات المقعرات اللاتي تفعل عكس العدسات المحدبات ، ان هذه تصغر الأجسام كما كانت التي قبلها تكبرها ، وههنا يدخل الضوء في علم الطب فتكون العدسة الصغيرة لصاحب النظر القصير والمكبرة لصاحب النظر الطويل .

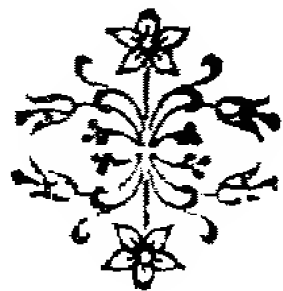


## للعَدَسَاتِ المَكْبَرَاتِ عَمَلُ آخِر

وذلك أنها تستعمل لاحداث حرارة وضوء على ما وراها من ورق مخصوص مثلا ، فههنا يدخل ضوء الشمس في العدسة ، ويستمرّ جاريا إلى ما وراها ، وهناك تكون بؤرة خاصة في بعد مخصوص : أى ان الحرارة في بعد مخصوص تجتمع في نقطة خاصة ، وهذه الحرارة قد تنقد بها النار ، بل إن ربان السفينة لما عنده من العلم اذا كان في الأقطار الشمالية التي ليس فيها إلا الثلج يقدر بذلك العدسة المكبرة للضوء المحذبة الوجهين أن يستعملها في إيقاد النار في الصوفان مثلا ، وذلك بأن يستعمل عدسة من نفس الثلج ، وهذا الثلج يجمع ضوء الشمس الضعيف في تلك الأقطار ، وفي البؤرة في البعد الخصوص يضع ذلك الربان ما يريد احراقه فيشتعل ، فيذهل من ذلك نوتية السفينة ، ويذهل سكان الأقطار الشمالية ( وهم الاسكيمو ) .

وههنا مباحث أخرى لا محل لتفصيلها الآن مثل أضواء الشمس السبعة وعجائبها ، ولعلنا نفصل الكلام على هذه العجائب في [ سورة الملك ] ان شاء الله تعالى بشرح أطول وصور بديعة تشرح الموضوع كما تشرح الصدور . ولعلنا أيضا نفصل الكلام ان شاء الله تعالى في [ سورة النبأ ] « عمّ يتساءلون عن النبأ العظيم » على أنواع النبات المتقدمة ، والفصائل بصورها وأشكالها بمناسبة قوله تعالى : « وأنزلنا من المعصرات ماء نجاجا ، لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا » كما نذكر بعض ما تقدم مجلا عند الكلام على قوله تعالى في [ سورة الحشر ] : « هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » لنبين أن هذه العجائب لا تفسر أسماء الله حقّ تفسيرها إلا بها ، وأن من أراد أن يفقه معنى البارئ والمصور ونحوهما فليس له إلا طريق هذه العجائب .

فلما سمع صاحبي ذلك قال : الحمد لله قد أثلجت صدرى بهذا البيان . فقلت الحمد لله رب العالمين . وإلى هنا عمّ الكلام على [ سورة الذاريات ] . كتب في ١٥ ربيع الثاني سنة ١٣٥١ هجرية .



# تفسير سورة الطور

هي مكة

آياتها ٤٩ - نزلت بعد السجدة

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ \* وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ \* فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ \* وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ \* وَالسَّجْفِ  
الْمَرْفُوعِ \* وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ \* إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ \* مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ \* يَوْمَ  
تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا \* وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا \* فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ \* الَّذِينَ هُمْ فِي  
خَوْضٍ يَلْعَبُونَ \* يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً \* هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ \*  
أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ \* أَصَلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا  
تُحْزَنُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ \* إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ \* فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ  
وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ \* كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ \* مُتَكَلِّفِينَ  
عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ \* وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ  
أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ \*  
وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ \* يُتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيمٌ \*  
وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ \* وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ \*  
قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ \* فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ \* إِنَّا كُنَّا  
مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ \* فَذَكَرْنَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا  
مَجْنُونٍ \* أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ \* قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ  
الْمُتَرَبِّصِينَ \* أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهِذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ \* أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ  
لَا يُؤْمِنُونَ \* فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ \* أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ

الْخَالِقُونَ \* أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ \* أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ  
 أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ \* أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ \*  
 أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ \* أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ \* أَمْ عِنْدَهُمُ  
 الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ \* أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ \* أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ  
 غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ \* وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ  
 مَرْكُومٌ \* فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ \* يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ  
 شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ \* وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ  
 لَا يَعْلَمُونَ \* وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ \* وَمِنْ  
 اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ \*

### هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأول في تفسير البسملة .

القسم الثاني في ذكر العذاب والنعيم ، ووصف أهل الجنة وأهل النار ، مبتدئا بذلك كله بالقسم بما في  
 العلويات والسفليات من أول السورة إلى قوله : « انه هو البر الرحيم » .  
 القسم الثالث في إلزام الكافرين بالحجة ، ومجادلتهم بالنبي هي أحسن في صدق النبوة ، واثبات الألوهية  
 من قوله تعالى : « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون » إلى آخر السورة .

### القسم الأول في تفسير البسملة

تنوعت الرجات في هذه العوالم التي أبدعها الله عز وجل ، وهذا التنوع يدعو إلى استيقاظ الأرواح ،  
 ونشاط النفوس التي خلقت في هذه العوالم ، موت وحياة ، وذل وعز ، وجهل وعلم ، وشقاء وسعادة ، ثم نار  
 وجنة ، وهذان هما المذكوران في هذه السورة ، كل مخلوق في هذه العوالم الأرضية يبدو في أول أمره  
 ناقصا ثم يأخذ في الاستكمال شيئا فشيئا حتى يصل إلى درجة الكمال كالزروع والحيوان والإنسان ، فالنقص  
 قبل الكمال ، والنار قبل الجنة « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ، ثم تنجي الذين اتقوا  
 ونذر الظالمين فيها جثيا » .

الإنسان يخرج من بطن أمه لا يعلم شيئا والعلم يبدو له قليلا قليلا ، وأكبر مذلة في هذه الحياة للأفراد  
 والأمم الجهل ، وأعظم سعادة بالعلم ، وأولهما مقدم على ثانيهما ، وفي هذه السورة نرى آيات العذاب جاءت  
 في أول السورة ، وتلتها آيات النعيم والجنات كما يتلو العلم الجهل والسعادة الشقاء ، ومن أجل الرجات وأبهج  
 السعادات أن تصل النفوس إلى مبتغاهها بعد حرمانها ، وإلى سعادتها بعد شقاوتها ، وتذكر ما كانت تعانيه  
 وتوازنه بما نالته من الهناء والسعادة ، ويشير لذلك إقبال بعض أهل الجنة على بعض يتساءلون ويتذكرون

أنهم كانوا يخافون العاقبة وسوء المقلب ، فنجوا من العذاب وتمتعوا بأنواع اللذات ، متسكئين على سرر مصفوفة وهم متزوجون بالهور العين .

ومن أبدع ما يستر النفوس و يشرح الصدور الحجج القيمة والبراهين المنتظمة ، كأن يقال : أهذا العالم خلق نفسه ؟ أم وجد بلا خالق ؟ وكلاهما باطل ، إذن له خالق وهو الله تعالى ، وهذا أيضا راجع للعلم بعد الجهل ، والعز بعد الذل ، فكأن الرجة في هذه السورة متجهة لمنهج واحد معبد [ بتشديد الباء ] وذلك على سبيل الفشوء والارتقاء ، فالإنسان قبل تمام الحجة جاهل بالنتيجة والجهل عذاب ، ورسوخ العقيدة بتمام الحجة نعيم كما أن الجنة بعد المرور على الجحيم ، ولقد جاء في [ اخوان الصفاء ] أن شقاء الناس تابع لجهلهم . وقال قبل ذلك سقراط فانه أبان أن الانسان لا يفعل المعصية إلا لظنه أنها نافعة له من وجه ، ولو أيقن أنها ضارة له لم يفعلها ، وأوضح ذلك الامام الغزالي رحمه الله تعالى فقال : لو أن طبيباً قال للمريض هذا الكوب فيه سم قد تخلل الشراب الذي يملؤه وهو واثق طبعاً بكلام الطبيب لم يشربه المريض ولم يقربه ، وفرت منه فراره من الأسد ، فلو أن الناس أيقنوا بمضرة الذنوب وثوقاً حقيقياً لم يذنبوا ولكن العلم الناقص لا يفيد ، إذن نقص العلم باب من أبواب جهنم ، والعلم التام باب من أبواب الجنة .

وليس ينال المرء كمالاً في هذه الحياة إلا بأمرين : الصبر عن الشهوات ، وعلى البلاء ، وفي الأعمال حتى تكمل ، ومن أجل الأعمال في هذه الحياة الدنيا الوقوف على سر هذا النظام ، وسرته أن كل شر في هذا العالم لم يقصد به إلا أنه مقدمة لخير ، فالخير والشر يتجهان معاً لنظام العالم نظاماً تاماً يستوجب الحمد ، ولذلك ختم السورة بهذه الآيات : « واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وادبار النجوم » .

في أول السورة ذكر العذاب والنعيم ، وفي آخرها اطمئنان النفس بالصبر وبالعلم وهما المقصودان من هذه الحوادث الانسانية في هذا الوجود ، التسبيح والتحميد معا سر هذه الحياة ، فالتسبيح كما شرحناه مراراً ملازم للتحميد ، إذ ترى سلامة عيوننا من المرض ملازمة لثمتنا بالنعمة الموجبة للحمد ، فتزیه الله عن العبث وعن الظلم بطريق البحث العلمي ملازم لحصول الحسرات لنا ، ولذلك كان التسبيح والتحميد ملازمين لأهل الجنة ، فهم هم الذين أدركوا سر هذا الوجود واطمأنوا بنور عقولهم إلى أن كل شر لم يقصد به إلا الخير بل أيقنوا أنه لا خير بلا شر ، ولا يمكن حصوله بدونه ، فالشر لابد منه لحصول الخير ، وهذه الطمأنينة نهاية سعادة هذا الانسان في الدنيا والآخرة ، فإذا لاحظ النجوم وسيرها وجاهاها فرح بحماها وجمال مبدعها ، وكان في هذه الحياة الدنيا في سعادة وحبور ، ومن أيقن بهذا بطريق العلم فهم معنى : « وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وادبار النجوم » انتهى الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة . كتب يوم الثلاثاء ١٦ أغسطس سنة ١٩٣٤ م

## القسم الثاني : في ذكر العذاب والنعيم

ووصف أهل الجنة ووصف أهل النار

### التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

( والطور ) طور سينين ، وهو جبل بمدين كالم الله موسى عليه السلام فيه ، والطور بالسريانية الجبل

(وكتاب مسطور) مكتوب ، يقال سطره رتب حروفه المكتوبة ، والكتاب المسطور كل ما كتب من القرآن أو التوراة ، أو بقية الكتب السماوية ، وما سطر في القلوب الانسانية من المعارف ، وما في نفوس الملائكة من الحكمة ، وما في اللوح المحفوظ ، بل كل ما دل على حكمة يرص له بالكتاب المسطور (في رقة منشور) الرق هو الصحيفة ، أو الجلد الذي يكتب فيه ، وأريد به هنا مجازا ما هو أعم ، والمنشور المفتوح لا ختم عليه (والبيت المعمور) أي السكبة المعمورة بالحجاج والمجاورين ، وقلب المؤمن الممتلئ بالمعارف والحكمة والاخلاص ، وهكذا كل مكان فيه عبادة كالذي ورد في الحديث الآتي ، وهو بيت في السموات العلى قدام العرش (والسقف المرفوع) أي السماء (والبحر المسجور) أي الموقد المحمى بمنزلة التنور المسجور كما قاله ابن عباس ، وهذا البحر هو الذي كشف في العصر الحاضر على سبيل الظن ، وقد أشارت له الأحاديث ، ولكن الأمم قديما لم تعرفه ، فعن عبد الله بن عمر : لا يركب رجل البحر إلا غازيا أو معتمرا أو حاجا فان تحت البحر نارا وتحت النار بحرا ، ولا جرم أن هذا البحر هو باطن الأرض الذي اتضح اليوم ، وعلم من الكشف أن الأرض كلها كبطيخة وقشرتها كقشرة البطيخة : أي أن نسبة قشرة البطيخة إلى باطنها الذي يؤكل كنسبة قشرة الأرض إلى النار التي في باطنها ، فنحن الآن نسكن فوق نار عظيمة : أي فوق بحر مملوء نارا ، وهذا البحر مغطى من جميع جهاته بالقشرة الأرضية المحكمة سدا عليه ، ومن وقت إلى وقت يتصاعد من ذلك البحر نار تظهر في البراكين أو بالزلازل كالزلازل اليابانية التي حدثت في سنة ١٩٢٥ وكبركان ايزدن بإيطاليا ، وهذا البحر المسجور الآن يعتبر من أكبر المعجزات للقرآن ، فانه لم يعلم به أحد من الأمم الاسلامية ، ولا غير الاسلامية بعد النبوة ، ومن عجب أن يذكر في الحديث أن تحت البحر نارا ، وهذا عجيب ! وأما كون النار تحتها ماء فعناه أن البحر فوق الأرض والنار في باطنها ، وفي الجهة المقابلة يكون البحر ، فالبحر في الجهتين المنقلبتين والنار محصورة بينهما . أقسم الله بهذه كلها وجواب القسم (إن عذاب ربك لواقع) لنازل (ماله من دافع) يدفعه (يوم تمور السماء مورا) تضطرب ، والمور تردد في الجوى والذهاب (وتسير الجبال سيرا) أي تسير عن وجه الأرض فتصير هباء (فويل يومئذ للكاذبين) يقول : اذا وقع ذلك فويل لهم (الذين هم في خوض يلعبون) أي يندفعون في الباطل والكذب كما قال تعالى أيضا في سورة أخرى : « وكنا نخوض مع الخائضين » (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا) يدفعون إليها بعنف بحيث تغل أيديهم إلى أعناقهم وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم ويقال لهم (هذه النار التي كنتم بها تكذبون) ولقد كنتم تنسبون لحمد أنه يسحر العقول ويغطي على الأبصار ، فهل هذا الذي هو مصداقه سحرا أيضا ، وهذا قوله (أفسح هذا أم أتم لا تبصرون) هذا أيضا كما كنتم لا تبصرون في الدنيا ما يدل عليه ، وهذا تقرير وتهكم (اصلوها فاصبروا أو لا تبصروا) أي ادخلوها على أي وجه شئتم من الصبر وعدمه (سواء عليكم) الأمران الصبر وعدمه ، ثم علل الاستواء المذكور بأن الجزاء لا بد منه فلا يتوقف على الصبر فقال (إنما تجزون ما كنتم تعملون) .

ولما فرغ من ذكر أهل النار شرع في الكلام على أهل الجنة فقال (إن المتقين في جنات ونعيم فأكبر من محبين بذلك ناعمين) بما آتاهم ربهم من الخير والكرامة (ووقاهم ربهم عذاب الجحيم) يقال لهم (كلوا واشربوا هنيئا) مأمون العاقبة من التهمة والسقم (بما كنتم تعملون) في الدنيا من إيمان وطاعة (متكئين على سرر مصفوفة) موضوعة بعضها إلى بعض مصطفة (وزوجناهم بحور عين والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان) هذا مبتدأ خبره (الحقنا بهم) أي نلحق بهم (ذريتهم) في إيمانهم ولو كان أولئك الأبناء مقلدين لأبائهم ، فالآباء إيمانهم نظري والأبناء إيمانهم تقليدي لا تبعاعهم الآباء ، فنحن نلحق الأبناء بالآباء في الإيمان ، ونجعل غير الناظرين كالناظرين المفكرين ، ويلزم من ذلك أن يدخلوا الجنة معهم (وما ألتناهم) وما نقصناهم (من عملهم من



شيء) بهذا الخلق (كل امرئ بما كسب رهين) بعمله مرهون عند الله تعالى ، والعمل الصالح يفكه والا هلك (وأمددناهم بفأكهة ولحم مما يشتهون) أى وزدناهم وقتا بعد وقت ما يشتهون من أنواع النعم الحسية والمعنوية (يتنازعون فيها كأسا) يتعاطون فى الجنة هم وجلساؤهم ويتجادبون خرا فى كأس (لألفوا فيها ولانائم) لا يتكلمون بلفوا الحديث فى أثناء شربها ، ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله ، بخلاف خرا الدنيا ، فالشارب لها كثير اللغو فعال للآثام (ويطوف عليهم) بالكأس (غلمان لهم) بمالك مخصوصون بهم (كأنهم) فى الحسن والبياض والصفاء (أولئى مكنون) مخزون مصون لم تمسه الأيدي ، وقد سئل عليه السلام فقيل له هذا الخادم فكيف المخدم ؟ قال فضل المخدم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب (وأقبل بعضهم على بعض يتسالمون) يسأل بعضهم بعضا فى الجنة أى يتذاكرون ما كانوا فيه من الخوف والتعب فى الدنيا (قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا) فى الدنيا (مشفقين) خائفين من المذاب (فمن الله علينا) بالمغفرة (ووقنا عذاب السموم) عذاب النار النافذة فى المسام نفوذ السموم (إنا كنا من قبل ندعوه) أى كنا من قبل ذلك فى الدنيا نعبده ونسأله الرحمة ووقاية العذاب فنقول «وقنا عذاب النار» ثم ان فى تجاذب الكأس بينهم واقبالهم بعضهم على بعض ، وعدم اللغو فى مجالسهم اشارات إلى لذات فوق لذات أهل الأرض كما قال ابن الفارض :

صفاء ولاماء ولطف ولاهوا \* ونور ولانار وسكر ولاخر

وقوله (إنه هو البر) أى المحسن (الرحيم) انتهى التفسير اللفظى للقسم الثانى من السورة .

### القسم الثالث فى الزام الكافرين بالحجة

ومجاداتهم بالتي هي أحسن فى صدق النبوة واثبات الألوهية

قال تعالى (فذكر) فمظ يا محمد بالقرآن كفار قریش ومن معهم (فما أنت بنعمة ربك) برحمته وعصمته وانعامه عليك بالنبوة ، أو بحمده وانعامه (بكاهن ولاجنون) الكاهن من يوهم الناس أنه يعلم الغيب ويخبر به (أم يقولون شاعر نتر بص به ريب المنون) أى بل أيقولون هوشاعر ، وريب المنون ما يلقى النفوس من حوادث الدهر ، أو نفس الموت ، يقال منه اذا قطعه (قل تر بصوا فإنى معكم من المتر بصين) أتر بص هلاككم كما تر بصون هلاكى (أم تأمرهم أحلامهم بهذا) أى بل تأمرهم عقولهم بهذا التناقض فى القول ، فالشاعر غير الكاهن غير المجنون ، وفرق عظيم بين مجنون العقل ومن يزن الشعر بحكمة ودقة ومن هو كاهن (أم هم قوم طاغون) مجاوزون الحد فى العناد (أم يقولون تقوله) اختلقه من تلقاء نفسه (بل لا يؤمنون) فيرمونه بهذه المطاعن كفرا وعنادا ، وفى قوله «بل» رد لما زعموا أى ليس الأمر كما زعموا (فليأتوا بحديث مثله) أى بحديث مخلق مثل القرآن (ان كانوا صادقين) فى زعمهم ، وفيهم الفصحاء ، ثم شرع بين فساد نظرياتهم فى الإلهيات بعد النبوات فقال (أم خلقوا من غير شيء) أى بل أخلقوا من غير خالق ، ومعلوم أن الحادث لا بد له من محدث ، أم هم أحدثوا أنفسهم ويلزم عليه أن الشيء مقدم على نفسه وهو مستحيل ، فهم باعتبار أنهم خالقون مقدمون على أنفسهم فى الوجود باعتبار أنهم مخلوقون ، وهذا هو قوله (أم هم الخالقون) أى بل أمهم (أم خلقوا السموات والأرض) أى واذا فرض أنهم خلقوا أنفسهم فهل هم خلقوا السموات والأرض المتين عليهما تتوقف حياتهم ؟ فان من يخلق شيئا يخلق أسبابه ، وأذن لا بد أن يخلقوا السموات والأرض ، وهذا معلوم كذبه طبعاً (بل لا يوقنون) اذا سئلوا من خلقكم ومن خلق السموات والأرض ؟ قالوا الله ، ولو أنهم أيقنوا ذلك ما أعرضوا عن العبادة (أم عندهم خزائن ربك) خزائن

رزقه حتى يعطوا النبوة لمن يشاءون ، ويصطفوا لها من يختارون (أم هم المصيطرون) الغالبون على الأشياء يدبرونها كيف يشاءون (أم لهم سلم) مرتقى إلى السماء (يستمعون فيه) كلام الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب حتى يعلموا ما هو كائن من تقدم هلاكه على هلاكهم وظفرهم في العاقبة دونه (فليأت مستمعهم بسطان مبین) بحجة واضحة تصدق استماع مستمعهم (أم له البنات ولكم البنون) سفه سبحانه أحلامهم إذ اختاروا لله البنات ولهم البنين ومن كان هذا رأيهم لا يعتد بهم (أم تسألهم أجرا) على تبليغ الرسالة (فهم من مغرم) من التزام الغرم (مثقلون) محملون الثقل فلذلك زهدوا في اتباعك (أم عندهم الغيب) اللوح المحفوظ المثبت فيه الغيبات (فهم يكتبون) ما فيه حتى يقولون لا نبعث ، وإذا بعثنا لم نعذب (أم يريدون كيدا) وهو كيدهم في دار الندوة برسول الله ﷺ (فالذين كفروا) أظهر في موضع الاضمار لتسجيل الكفر عليهم (هم المكيدون) هم الذين يحق بهم الكيد ويعود عليهم وبال كيدهم وقد تم يوم بدر (أم لهم إله غير الله) يعينهم ويحرسهم فيكفرون بالله ويلتجئون إلى ذلك الإله (سبحان الله عما يشركون) عن اشراكهم (وان يروا كسفا) قطعة (من السماء ساقطا يقولوا) من فرط طغيانهم وعنادهم هذا (سحاب مراكوم) تراكم بعضه على بعض ، وهذا جواب لقولهم : « فأسقط علينا كسفا من السماء » . يقول الله : لو عذبناهم بسقوط قطعة من السماء لقالوا أول ظهورها ليس بعذاب مكبرة كما هي عادتهم (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون) عند النفخة الأولى (يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئا) أى شيئا من الاغناء في ردّ العذاب (ولا هم ينصرون) يمنعون من عذاب الله (وان للذين ظلموا) من كل أمة وجيل (عذابا دون ذلك) أى دون عذاب الآخرة في الحياة الدنيا كقحط قریش وقتلهم يوم بدر ، وهكذا المصائب التي تحيط بالمسلمين اليوم باغارات الفرنجة عليهم وغير ذلك ، وكعذاب القبر (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ذلك (واصبر لحكم ربك) إذ أمهلهم وأوقعك في نصب معهم فذلك لأجل معلوم (فانك بأعيننا) في حفظنا ورعايتنا فنحن نراك ونكلك ، وجمع العين للمبالغة في الحفظ (وسبح بحمد ربك حين تقوم) من أى مكان قت ، ومن منامك ، وإلى الصلاة (ومن الليل فسبحه) فان العبادة فيه أشقّ على النفس وأبعد من الرياء (وادبار النجوم) وإذا أدبرت النجوم من آخر الليل : أى في أعقابها إذا غربت أو خفيت ، والمراد أن يقول « سبحان الله وبحمده » في هذه الأوقات ، وقيل التسبيح الصلاة إذا قام من نومه ، ومن الليل صلاة العشائين ، وادبار النجوم صلاة الفجر . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة

\*\*\*

وينبغي للإنسان أن يقول : سبحانك اللهم وبحمدك إذا قام من المجلس ، وزاد الترمذى : أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، فانها تكفر ما بينهما . وغيره يقول : ذكر الله بالليل من حين تقوم من الفراش إلى أن تدخل الصلاة . وقالت عائشة رضى الله عنها : كان صلى الله عليه وسلم إذا قام بالليل يفتتح بالتكبير عشرا والتسبيح عشرا والتهليل عشرا والاستغفار عشرا ويقول اللهم اغفرلى وارحمنى واهدنى وارزقنى وعافنى ، وكان يتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة ، وأيضا كان صلى الله عليه وسلم يفتتح الصلاة بقوله : سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، وجل ثناؤك ، ولا إله غيرك .

### لطائف هذه السورة

(١) في قوله تعالى : « والطور » الخ .

(٢) وفي قوله : « والبيت المعمور ، والسقف المرفوع ، والبحر المسجور » .

### اللطيفة الأولى في قوله تعالى : والطور

أقسم الله في هذه السورة بأعلى مكان وأشرفه وأكثره رجة وهو السماء ، وبأدنى مكان قد ملئ جحما وعذابا وهو البحر المسجور في باطن الأرض ، وبما بين ذلك من الكتب المسطورة ، والعلوم المنشورة ، والحكم المنشورة ، والآراء المبثوثة ، المقروعة في كتب الديانات ، وبدائع الآيات ، وحكم السموات ، ومعارف النفوس واشراق القلوب ، وبأما كن العبادات من البيت الحرام ، وغيره من أماكن في عوالم لا يعلمها أحد إلا الله .  
أقسم الله بالسموات العلى ، وبما تحت الثرى ، وبيوت العبادات في الأرض والسموات ، وبالعلوم المعقولات في الأرض وفي السماء .

أقسم الله بذلك كما أقسم بالذاريات ذروا ، هناك أقسم الله بالرياح وتصريفها ، وبالسماء وحسنها وجهها وهنا أوسع القسم إيساعا فلم يذر علما سماويا ولا أرضيا ، ولا موضع عبادة ، ولا مكان علم إلا أدخله في القسم وأشار إليه . انتهت اللطيفة الأولى

### اللطيفة الثانية في قوله تعالى : والبيت المعمور الخ

وأنجب ما أقسم به البحر المسجور الذى في باطن الأرض على ما يظن الناس ، والبيت المعمور ، والرق المنشور ، وقد روى أن الله تعالى يجعل البحار كلها يوم القيامة نارا فيزاد بها في نار جهنم ، فإذا أضفنا هذا الحديث إلى الحديث المتقدم وهو أن تحت البحر نارا يكون البحر الذى هو باطن الأرض منضما إليه البحر الملح فيتسع نطاق النار ، فاذن باطن الأرض نارا الآن ، والبحار يوم القيامة تصير نارا ، وهذا واضح لأن البحر المسجور الذى هو عبارة عن باطن الأرض إذا جاء أجل الأرض ووقع ماء البحر في باطن الأرض لم تكن البحار التى على وجه الأرض شيئا مذكورا بالنسبة للنار فتتحول نارا في لمح البصر ، فانا نشاهد أننا إذا أنزلنا الماء على النار ليطفئها وكان الماء قليلا تحول الماء الى نار ، وزاد في اشتعالها ، لأن الأكسوجين الذى فى الماء نار فينقلب الماء إليها ، وهذا من أعجب العلم والمعجزات فى القرآن .

وأما البيت المعمور الذى يقال له [ الضراح ] فيقال ان حرمة فى السماء كحرمة الكعبة فى الأرض . وقد جاء فى حديث المعراج من أفراد مسلم عن أنس أن رسول الله ﷺ رأى البيت المعمور فى السماء السابعة قال فإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه . وفى رواية أخرى : فاتميت إلى بناء فقلت لملك ما هذا ؟ قال بناء بناء الله لللائكة يدخل فيه كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون يسبحون الله ويقدسونه ، ولعل ذلك البيت فى عوالم مما لا يخطر بالبال ذكرها غابت عنا لبعدها ، ومن تأمل علم الفلك أيقن بما تقدم لاسيما ما روته روح الفيلسوف غاليلى لما أحضرت وطلب منها التكلم على العالم ذكرت أن هناك كواكب شمسنا بالنسبة لها كحبة بالنسبة لجبل ، وحياتهم ونظامهم أرقى من حياة أهل الأرض ونظامهم ، بل لا يخطر بالبال السعادة هناك والهناء والعظمة وأنواع المعيشة ، وهناك الشمس التوائم جمع توأم فان نظام أهلها لا يخطر بالبال ، ولم تسمعه أذن ، ولم تره عين ، بل هو فوق متناول الخواطر من البهجة والجمال ، ويقول : ان تلك العوالم كلها مسكونة وهى تعد بمئات الملايين ، فاجاء فى هذا الحديث وهذه الآية أصبح مما يقرأ فى العلم الفلكى والعلم الروحى بأوروبا .

وأما الرق المنشور الذى ذكر بعد الطور المتناول كتاب التوراة وكل كتاب سماوى وحكمى الخ فانه قد ظهر أنهم ظهور فى هذا الزمان ، إذ لم يكن النوع الانسانى ليعرف رقا منشورا كما نعرف نحن الآن ، فلقد أظهر الله فى سائر الأرض الجرائد والمجلات منشورة يقف بها الباعة فى الطرقات والحارات والشوارع ، وقد نشرها

في أيديهم وقراها الناس في كل مكان ، ولم يكن ذلك معروفا قبل هذا العصر عصر الورق ، والقرآن يسميه الرق المنشور .

فانظر كيف أقسم الله بالبحر ، وبالبيت المعمور ، وبالرق المنشور ، ولم يظهر بحر النار ، ولا أن هناك عوالم في السكواكب لا تنهاه ، ولا أن هنا في الأرض جرائد تنشر وتباع للعامة والخاصة ، ولا أن هناك تعليما عاما يشترك فيه الخاصة والعامة من كل الأمم إلا في هذا الزمان .

نشر الصحف على قسمين : أحدهما انتشار التعليم والتربية وهو التعليم العام الذي أخذ ينتشر انتشارا سريعا في الوقت الحاضر . وثانيهما ظهور الجرائد والمجلات منشورة في كل مكان ، ومن هذا الباب عموم التلفون والتلغراف ( البرق ) الذي له سلك والذي لاسلك له ، وهكذا المسرّة ( التلفون ) . كل هذه في معنى الرق المنشور ، فهذان القسمان من الصحف المنشورة لم يكن لهما وجود قبل هذا الزمان أخبر عنها القرآن .

لم يكن في الأرض أمة قط تعلم تعليما عاما أيام النبوة ، لم يكن في دولة الرومان تعليم إلا لأبناء الأشراف ، وهكذا دولة الفرس الذين يجعلون التعليم الطبقة معلومة ، جاء القرآن وقال : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق » .

كانت البراهمة تجعل الناس أربع درجات : ففهم من هم كالرأس وهم رجال الدين ، ومنهم من هم كالصدر وهم رجال الجيش ، ومنهم من هم كالبطن ، ومنهم من هم كالرجلين ، ومعنى هذا أن الرق لم يكن منشورا عاما بل كان خاصا ، جاء الاسلام وعمم العلم وقال : « في رق منشور » ولا نشر على الوجه الأكل إلا في هذا الزمان ، فهو يرمي لغرضين : الأول تعميم التعليم ، والثاني الاخبار عما حصل في هذا الزمان من قوهم : [ انتشار التعليم ] وقوهم [ تعميم التعليم ] وقوهم [ نشر الصحف ] وقوهم [ نشر المدنية والحضارة ] وقوهم [ نشر الكتب ] وما أشبه ذلك .

### نتائج هذه المعجزة القرآنية في النفوس

إن نتائج هذا المقال في العقول قسمان : القسم الأول ما يحصل في عقول بعض المؤمنين من أمتنا فيفرحون بهذا القول ويقولون الله أكبر : إن نبينا حق والاسلام حق ويفرحون ، وهؤلاء هم السكالي الغافلون الذين يقتصرون على الايمان وهم نائمون [ القسم الثاني ] هم أهل الحكمة والبصيرة الذين سيقروا بهذا الكتاب وأمثاله ويدركون بنور البصيرة مستقبل الاسلام فيقولون : لم يذكر الله ذلك ليريد مجرد الايمان كلا . وإنما يريد أن يحثنا نحن أبناء هذا الجيل على العلم والحكمة ، وأن نأخذ حظنا في الأمم ومركزنا في الحياة ، وهذا الفريق يقول : إن هذه الآيات حجة علينا ، فإذا كان الله نشر العلم في العالم الانساني ، وأبرز مكنون الحكمة كالبحر المسجور والبيت المعمور ، وإذا كان جلّ جلاله يقسم بما هو فوق السموات العلى ، وبما هو تحت الأرض السفلى ، وبما بينهما من العلم المنشور ، وقد أقسم قبل ذلك بعجائب الرياح والسحاب والمطر التي بها كان نظام حياتنا ، وذلك بعد أن لفت عقولنا للسماء والأرض في [ سورة ق ] . إذا فعل الله ذلك وكرره فليس له نتيجة إلا أن المسلمين اذا قصروا في معرفة علوم العالم العلوي والسفلي لاسما بعد ظهور الصحف المنشورة في عصر العلم والعرفان فانهم لا يستحقون الوجود ، وأن هذا الدين ينقل منهم إلى قوم آخرين ويسكن الله أرضهم قوما خيرا منهم لأنهم لا يصلحون للحياة ، فالناظر لهذه الأقسام من أرباب الفكر يجدون في ارتقاء أمتهم خائفين من ربهم اذا قصروا في العناية بما أقسم به .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولوالديّ والمسلمين والمسلمات ، وأسأل الله أن يفتح بهذا الكتاب بابا يلججه المسلمون للعلوم والعرفان ، وأن يكثر في هذه الأمة من رجال العلم العاملين ، وإلى هنا تم الكلام على « سورة الطور » والحمد لله رب العالمين . كتب في ٢٠ ربيع الثاني سنة ١٣٤٥ هجرية .

## تفسير سورة النجم

هي مكية

إلا آية : الذين يجتنبون كبار الإثم والفواحش إلا اللهم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى : فدية

آياتها ٦٢ - نزلت بعد الاخلاص

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ \* مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ \* وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ \* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ \* عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ \* ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ \* وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ \* ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ \* فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ \* فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ \* مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ \* أَقْبَارُوهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ \* وَلَقَدْ رَءَاهُ تَزَلَّةً أُخْرَىٰ \* عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ \* عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ \* إِذْ يَفِشُ السُّدْرَةُ مَا يَفِشُ \* مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ \* لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ \* أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ \* وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ \* أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ \* تِلْكَ إِذْ أَسْمَتُ ذُرِّيَّتِي \* إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ \* أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى \* فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ \* وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُعْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ \* إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ \* وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا \* فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا \* ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَىٰ \* وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ \* الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَارَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا



اللَّهُمَّ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَتُمْ فِي  
بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى \* أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى \* وَأَعْطَى  
قَلِيلًا وَأَكْدَى \* أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهوَ يَرَى \* أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى \*  
وَأِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى \* أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى \* وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى \*  
وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَى \* ثُمَّ يُخْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى \* وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى \* وَأَنَّهُ هُوَ  
أَضْحَكَ وَأَبْكَى \* وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا \* وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى \* مِنْ  
نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى \* وَأَنْ عَلَيْهِ النَّشْأَةُ الْأُخْرَى \* وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى \* وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ  
الشَّعْرَى \* وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى \* وَنَمُودَ فَمَا أَبْقَى \* وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ  
كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى \* وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى \* فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى \* فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ  
تَتَمَارَى \* هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى \* أَرْفَتِ الْأَرْفَةَ \* لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ  
كَاشِفَةٌ \* أَفِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعَجَّبُونَ \* وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ \* وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ  
فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا \*

### هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأول في تفسير البسملة .

القسم الثاني في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوحى إليه ، وفي قربه من ربه ، من أول السورة  
إلى قوله : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى »

القسم الثالث : تقرير المشركين على جهلهم وكفرهم بعبادة الأصنام ، ونسبتهم البنات إلى الله ، وأخذهم  
بالظن وبخلهم ، وفي حكم علمية ، وفي صفات لله عليه .

### القسم الأول في تفسير البسملة

إيضاح الرجة في البسملة في [ سورة النجم ] وبيان أن الرجة قد اكتنفت البسملة ، فإن  
في آخر السورة قبلها رجة كصلاة الليل ، وفي أول السورة بعدها إفاضة علمهم على الناس  
آخر سورة الطور وأول سورة النجم

خواطرى في صلاة الصبح يوم الخميس ٢٧ أغسطس سنة ١٩٣١

كتب هذا في يوم الجمعة ٢٨ أغسطس سنة ١٩٣١ م

كنت أقرأ في الركعة الثانية من صلاة الصبح أول سورة النجم ، فخطر لي في الصلاة وبعدها ما يأتي :

إن سورة الطور مختومة بقوله تعالى : « واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وادبار النجوم » إن آخر سورة الطور متصل بأول سورة النجم كأن الله يقول : أيها الناس قوموا الليل إلا قليلا ، تهجدوا في آخر الليل ، وسبحوا واحدا ، ثم أخذ يقسم بالنجم مذكرا المصلي بالنجوم التي تقارن صلاته آخر الليل ، أقسم بالنجم ليذكر المصلي والمسيح والنجوم في ادبارها آخر الليل ان الصلاة والتسبيح العاريتين عن الفكر ضعيفتا الأثر ، قليلتا الخطى ، لاهما في العبر ولا في النفي ، وهل يقسم الله إلا بما هو جليل وعظيم ! والجليل والعظيم والآيات الكبرى هي التي إليها تنجبه الأنظار وبها تطمئن القلوب :

(١) أقسم الله بالنجم وقال فيه : « وانه لقسم لو تعلمون عظيم » لماذا هذا ؟ لأنه يعلم قبل أن ينزل القرآن لأهل الأرض أن أمما وأمما ستظهر بعد نزول القرآن ، وتدرس النجم ، وتفتح لها أبواب السماء والأرض ، وذلك بعلم النجوم ، ذلك العلم الذي به أمكن الناس السير في المحيط الهادي والهندي والصيني والأطلسي والبحر الأبيض المتوسط وغيرها . ياسبحان الله : كيف يعرف الربان مكانه في وسط البحار اللجية إلا بواسطة الآلة الفلكية التي لا اعناد لها إلا على النجوم الثوابت والسيارات ، فاذا غفل ثانية طاح وضاع في وسط اللجج ولات حين مناص .

(٢) أقسم الله بالنجم اذا هوى ، لأن النجم في وسط السماء في خط نصف النهار ، لا يعرف اتجاهه ، لكنه اذا هوى ومال إلى الغروب عرف اتجاهه فهدي السارين في الصحراء ، أقسم بهذا النجم الموصوف بهذه الصفة أن محمدا ماضل وماغوى ، وكما أن النجم اذا هوى لا يصحبه في هذه الحال ضلال ، هكذا محمد ﷺ لا يصحبه ضلال ، بل هاد للناس كما يهدي ذلك النجم الربان .

(٣) أقسم الله بالنجم لأنه يعلم أن أمما وأمما تبحث في مقادير الكواكب وأعدادها ، وهذا من آيات الله العظيمة ليرشد المسلمين إلى تلك الآيات ، ان سير نور الكوكب ١٨٦ ألف ميل في الثانية أو ٣٠ ألف كيلومتر ، وهكذا الأمواج التي لاسلك لها وكلاهما يجري حول الأرض في سبع ثمانية مرة واحدة ، ويجرى حول الكون كله نحو مائة مليون سنة ، إذن نسبة محيط الكرة الأرضية إلى محيط ما عرف من الكون كنسبة سبع ثمانية إلى مائة مليون سنة ، وأيضا ان الأرض اذا صغرت فصارت مقدار حجم الجوهر الفرد بلغ حجم الكون الذي عرفه الناس بأقوى التلسكوبات على هذه النسبة حجم الأرض مرة واحدة ، وبلغ حجم الكون كله على ما هو مثل في مذهب النسبية ألف مليون أرض منتشرة حولها في الفضاء ، النظام الشمسي يشتمل على الشمس وتسعة سيارات تدور حول أكثرها أقمار ، وهذه الشمس وعالمها جزء من المجرة ، والمجرة فيها نجوم تبلغ ٣٠ ألف مليون نجم كلهم شمس كشمسنا أو أكبر أو أصغر ، ويقول الاستاذ [شايبلي] أحد أساتذة علماء الفلك في [هارفرد] انها مائة ألف مليون نجم ، وقطر المجرة الأطول ٢٢٠.٠٠٠ سنة ضوئية أعني أن الضوء الذي يسير في الثانية ١٨٦ ألف ميل يقطع المجرة في مائتي وعشرين ألف سنة بهذه السرعة ، وفي خارج هذه المجرة سدم لولبية أقربها إلينا يبعد عنا ٨٥٠.٠٠٠ سنة نورية ، والسديم الواحد فيه مادة تكفي لتكوين ألفي مليون نجم ، ويقول الدكتور [هيل] ان تلسكوب مرصد جبل ولسن الذي قطر مرآته العاكسة ١٠٠ بوصة يستطيع الوصول إلى مليونين من هذه العوالم الجزرية يبعد أحدها عن الآخر نحو مليوني سنة ضوئية ، وأبعدها عنا يبعد ١٤٠ مليون سنة ضوئية ، والمنتظر أنه متى تم بناء التلسكوب الجديد الذي سوف يكون قطر مرآته ٢٠٠ بوصة تمكن الراصدون من الوصول إلى ١٦ مليون مجرة من هذه المجرات بدلا من مليونين ، ويقدر



ترك هذه الجملة الأخيرة وتحذفها من نظام هذا المقام . فقلت حيالك الله أيها الأخ : لقد وقفت من الجملة على المبتدأ ولم تنتظر الخبر ، أوعلى الجملة ولم تصبر حتى ترى تفسيرها .

أيها الأخ : أما جعلت الذين في دائرة العرفان ثلاثة أقسام : قسم منهم مبتدئ ، وقسم منهم قد انتهى في التحصيل ، وقسم بعد اتمام التحصيل يعلم غيره . قال نعم . فقلت : ان المبتدئ في التعلم الآن في بلاد الاسلام يجب على القائمين بتعليمه أن يقرنوا العلم بالتطبيق سواء أكان ذلك في العلوم الرياضية أم الطبيعية أم الخلقية والأدبية ، أم في العبادة ، وأى أمة علمت تلاميذها الأخلاق بلا ممارستها ، أو الحساب بلا تطبيق ، أو النحو ومأمعه من علوم اللسان ، أو الدين بلا عمل ، فإن هذا التعليم لافائدة منه .

فعلى المسلمين في الأزهر ، وفي المعاهد الدينية ، وجميع مدارس الاسلام في الشرق والغرب أن يمرنوا التلاميذ من أول درس في كل علم ، وذلك التمرين يختلف باختلاف العلوم ، وفي الدين يكون بالعبادة كالصلاة وكالتفكير ليلاً ، وكالصدقات ، وكالصيام الخ .

فلما سمع صاحبي ذلك ظهرت عليه هيئة الانفعال والغضب ، وقال : ما هذا الذي تقوله ؟ أين هذه الأقسام الثلاثة ؟ أنت انما وصفت قسمًا واحدًا وهم التلاميذ ، ولكنك لم تسمعي من الآية شيئاً ، فأما هذه الآراء فانك تعرفها من المدارس ومن الكتب ، فأما الآية فما الذي فيها من هذا ؟ فقلت : إن الأقسام الثلاثة في هذه الآيات فإن في آخر سورة الطور التسبيح والتحميد ، وبعبارة أخرى قيام الليل ، وهذا من أعظم العبادات والعبادة تمرين على الايمان ، لأن الاستاذ يقول للتلميذ « الله خالق كل شيء » فإذا لم يكرر التلميذ هذه المعاني في الصلوات وغيرها حرم التمرين ، ومن حرم التمرين على النظريات عاش جاهلاً ، فن نشر التعليم الديني ولم يمرن المؤمنين على تلك النظريات بالأعمال الصالحة فدينه ناقص لا ثمرة فيه والتمرين في كل شيء بحسبه ، فأما في معرفة الله فبالعبادات كالصلوات ، وأما في الأخلاق فبالعود عليها كالعود على الصدق وعلى عدم اخلاف الوعد وعلى الاحسان ، ويبتدى ذلك من أول الدراسة من أول سنى التمييز ، إذن آخر سورة الطور يشير إلى التمرين على المعارف الاسلامية ، وذلك التمرين ضرب له مثلاً بالتسبيح والتحميد في كل وقت وفي آخر الليل هذا هو القسم الأول وهو القسم الابتدائي ، فإذا أخذ التلميذ في الترقى شيئاً فشيئاً في المعارف وقد أتقن الدور الأول بالتمرين على الطاعات فهو لاجرم يومئذ واصل إلى النهاية المشار إليها بقوله تعالى : « ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى » وأخذ يصف تلك السدرة بأنها غشياً ماغشياً ، فهل كان يغشها فراش من ذهب ، أو يغشها ملائكة كأنها الطيور ؟ أو غشها نور الله ؟ ونبقها كقلال هجر ، وأوراقها كأذان الفيلة ، أو هي تحمل الحلى والحلل والثمار من جميع الألوان ، والورقة منها لو وضعت في الأرض لأضأت لأهل الأرض وهي شجرة طوبى .

نحن لسنا في مقام أن الأحاديث حسنة أو صحيحة أو ضعيفة ، نحن في مقام عام ، ان هذه الأوصاف كلها اعراب عن العجائب الإلهية ، فلتكن أنوار ، وليكن فراش من ذهب ، أو لتكن حلى وحلل ، كل هذا عند حكماء الاسلام جلال الله وجلاله ، ولم يذكر في الأحاديث من جلاله وجلاله إلا ما تحتمله عقولنا ، فهذه المناظر غاية ما نسمح به مخيلاتنا الضعيفة فنخرج من هذا المقام بنعمة عظيمة ، وحكمة قديمة ، وآية مبينة ، ونعمة حديثة قديمة ، وهي أن المقام جلال وجلال وحكمة وبهاء ، وهذا كله ليس يدركه إلا الذين كان مبدؤهم العبادة كاللذكور في آخر الطور ونهايتهم العلم بجمال الله وكماله ، وهو المشار إليه بقوله تعالى : « وقل رب زدني علماً » فالنبي ﷺ في كل وقت يزيد علماً ، فلتكن سدرة المنتهى عظيمة جدا يسير الراكب في ظلها أوفى ظل منها مائة عام أو أكثر ، ولتكن الأنوار محيطة بها ، وليكن الفراش من الذهب حولها

وليكن الجال كل الجال فيها ، فالمنتهون في العلم لن يتقوا في معارفهم عند حد ، لأن الوقوف عن الرقي عذاب للواقفين .

إن نهاية كل امرئ أن يزداد علما في كل ساعة من الزمان كما ورد عن سيدنا علي كرم الله وجهه : « اذا طلعت شمس يوم ولم أزد فيه علما فلا بورك لي في ذلك اليوم » وهذا هو الحق الصراح ، إذن هنا مرتبتان : مرتبة المبتدئين ، وهي أن يتمرّنوا على الايمان والاسلام بالعبادات ، ومرتبة المنتهين في العلم ، وهم الذين درسوا هذا الوجود وأدركوا حقايقه بقدر طاقتهم .

وأما الدرجة الثالثة فهم أولئك المنتهون في العلم إذ أخذوا يفيضون على تلاميذهم وعلى الأمة مما امتلأت به صدورهم ، فهؤلاء يفيضون على الناس من العلم الذي أحزوه بالجهد ، وثبتوه بالطاعة ، فصارت العلوم عندهم ملكات أشبه بالعواطف فيلقونها على الناس بعد إلقاء الأنبياء العلم للناس بالوحي ، وللاشارة إلى هذه الدرجة جاء انه ماضل وماغوى ، وانه ما ينطق عن الهوى

ومن عجب أن وصف النبي صلى الله عليه وسلم بأنه يوحى إليه وأنه ما ينطق عن الهوى إنما ذكر بعد القيام بالليل مباشرة في السورة قبلها للاشارة إلى أن التمرين بالعبادة على قواعد الايمان هو الأس الذي يبنى عليه نهاية العلم أولا وافاضته على الناس ثانيا ، ولا جرم أن النبوة كانت على هذا المهيبة ، فانه صلى الله عليه وسلم كان يتعبد في غار حراء ، ثم أفيضت عليه العلوم بالوحي وأفاضها على الناس ، فهاتان المرتبتان مؤخرتان عن العبادات ، وهي التمرين العملي على القواعد الدينية .

فلما سمع صاحبي ذلك قال : هذه الآراء جيلة وهي من جهة أخرى غريبة ، فاذا أفضت فيها بشرح يكفل تبيينها بضرب أمثال تكون المنالة قد أثمرت وآتت أكلها باذن ربها . فقلت اسمع يا صاح زادك الله هدى وآتاك تقواك : ماذا يفعل الناس في تعليم النحو ؟ قال : يبتدئون بمعرفة الاسم والفعل والحرف ، ويركبون الجمل ، ويأتون بأقسام الأسماء والأفعال والحروف وما تفرّع منها ، ويدينون النصب والرفع والجر وهكذا . فقلت : والصرف ؟ فقال : يأتون بالمصادر ويستقون منها الأفعال وأسماء الفاعلين والمفعولين وهكذا . فقلت : وعلم المعاني ؟ فقال : يأتون بالخبر والانشاء والمسند ، والمسند إليه ، وحذفهما وذكرهما وتوابعهما وقصرهما والفصل والوصل ، والابجاز والاطناب ، والمساواة ، وهكذا . فقلت : والبيان ؟ فقال يأتون بالنشيد والمجاز والكناية وما أشبهها ، ويفصلون الكلام تفصيلا . فقلت : والبديع ؟ قال يأتون بالمحسنات اللفظية والمعنوية كالجناس وأنواعه والطباق والاستخدام وهكذا . فقلت : والحساب ؟ فقال : يجمعون ويطرحون ويقسمون ويضربون ، ويأتون بأبواب كثيرة مبينة على ذلك مثل الخطيطة الداخلية والخارجية ، وحساب الكسور ، وحساب اللوغارتم ، والقاعدة الثلاثية البسيطة والمركبة وهكذا . فقلت : والهندسة ؟ فقال يأتون فيها بالنقطة والخط المستقيم والمنحني والسطوح والأجسام التعليمية والمربعات والخمسات وهكذا ، والدوائر والكرات ، وسطوح الكرات ، والاسطوانة والمكعبات وهكذا ، والمنحروط وما أشبه ذلك ، ويبنون بعض هذه على بعض فالخطوط تكون منها الزوايا ، ومن الزوايا الثلاث تكون المثلثات ، ومن المثلثات يكون من كل اثنين منها مربع ، وبازدياد مثلث آخر يكون الخمس ، وهكذا يقال في مساحة محيط الدائرة ومساحة نفس الدائرة وسطح الكرة وحجم الكرة ( انظر هذا المقام موضحا أيضا تاما في سورة الروم عند قوله تعالى : « فطرت الله التي فطر الناس عليها » الخ ) . فقلت : والطبيعة ؟ فقال : يأتون بأقسام الجسم من حيث انه صلب أو سائل أو غاز ويأخذون في تقسيم هذه الأجسام كلها ، ويبحثون في خواصها ، وهي قسمان : خواص عامة لجميع الأجسام ، وخواص يختص بها أنواع من الأجسام ، فالمسام عامة في الأجسام ، وكذا عدم التدخل ، ومثل السرعة في



الضوء ، وسرعة الصوت وهكذا ، ويبحثون في الحرارة والضوء والصوت والكهرباء والمغناطيسية وهكذا ، فأما الكيمياء فانهم يبحثون فيها عن اتحاد الأجسام بحيث تصبح بعد تركيبها فاقدة خواصها الأصلية كما في تركيب الماء من الأكسوجين والادروجين فان خواص الماء وكذا خواص الحيوان والانسان والنبات غير خواص العناصر التي تركبت منها . فقلت : بناء عليه يكون علم الطبيعة أقرب الى علم المعاني ، ألا ترى رعاك الله أن الماء اذا صار ثلجا أو صار بخارا فانه يكون أشبه بالمعنى الواحد يذكر بطرق مختلفة مرة بالايجاز ، والمساواة أخرى والاطناب آونة فالمساواة كحال الثلج ، لأنه يكون أكبر من حجم الماء ، والماء كالايجاز ، والغاز كالاطناب ، وهكذا نرى علم البيان يقرب من الكيمياء فله بها نوع من الشبه بسيط لأننا نخرج عن اللفظ الحقيقي ونجتويز له بلفظ فهو أشبه بانقلاب العناصر إلى مركبات بخواص جديدة .

فقال صاحبي حسن ما تقول . فقلت : كيف أجبني حين سألتك عن هذه العلوم ؟ فقال : تلك الاجابة حضرت عندي لأنني صرنت على هذه العلوم . فقلت حسن جدا ، وهناك علم آخر يعوزه التمرين مثل هذه العلوم ، فاذا كان النحوى وعالم الحساب والهندسة لا يحسن أحدهم إفاضة هذه العلوم على الناس إلا اذا ثبتت تلك العلوم في نفسه بسبب التمرين وقتا بعد وقت فيركب جلا معربة أو مبغية ويصرف المشتقات ويأتى بعمليات الحساب ويحلها ويحل مسائل الهندسة والطبيعة ، ويدخل العمل بالمدرسة لأجلها ولأجل الكيمياء ، هكذا هناك علم آخر له تلاميذ يتعلمون ويصيرون أساتذة ، ولن يفيضوا العلم على الناس إلا بعد أن يثبتوا قواعد ذلك العلم بالتمرين ، ومن هم هؤلاء الناس ؟ هم هداة النفوس ، فأما العلماء المتقدمون فأنما يعلمون أمورا أقرب إلى الأجسام الحسية ، أما هداة النفوس فعلمهم وتمرينهم كلها نفسية ، وهؤلاء لن تعيش أمة في الأرض إلا بأن يكون هؤلاء منبئين بين أفرادها ، وعلم هؤلاء معرفة الله وتوحيده ، وتمرينهم هي الصلوات ، فاذا قرأ الناس دينا ولم يمتحنوا نفوسهم على صلواته فان هذا الدين لا يرفع هذه الأمة كما لا يرفع علم الحساب ولا علم النحو صاحبهما إلا اذا كانا قد تمارنا على هذين العلمين ، فاذا سمعنا الله يقول في آخر سورة الطور : « وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » قلنا هذا هو تمرين هذه الطبقة على قواعد علمهم كما يتمرّن النحوى على المرفوع والمنصوب ، فالنحوى يحفظ لسانه بذلك التمرين ، وهذا العالم النفسى الدينى يرفع نفسه بالصلاة وتصبح نفسه ذات صلة بخالقه لكثرة التكرار في الصلوات كما يتكرر حل مسائل الحساب فذاك يحل مشاكل الحساب بسهولة وهذا تتوارد المعاني على قلبه بسبب تكرار الصلوات والعبادات ، وهذا هو السرّ في ذكر الوحي بعد قيام الليل .

اسمعى يا أمة الاسلام : يجب تغيير المناهج الحالية ، أظهروا عواطف الاسلام ، لا تبتدئوا بعلم الفقه كرامة واحدة بخلافه ، بل يجب الابتداء بما يرقى القلوب ويصفيها ، فتذكرون صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجته وأخلاق أنى بكر وعمر وعثمان وعلى ، وليحذف من التعاليم كل خلاف شجر بين الصحابة ، ثم لتسمعوهم جلال الطبيعة المسمى بعلم الأشياء مقرونا بالآيات القرآنية ، وأنتم في ذلك تصلون معهم صلاة حاضرة فيها قلوبهم ، بل مروهم أن يقوموا بالليل كما كان يفعل صلى الله عليه وسلم فهذا التمرين لا بد منه حتى يثبت حب الله في قلبه ويمتزج بدمه ، ثم بعد ذلك ادرسوا علوم الفقه والاصول والعلوم الأخرى كما تشاءون .

### لماذا وجب المران في كل شيء

قد ظهر أن المادة ليست شيئا مذكورا ، اللهم إلا أنها أنوار متحركة اجتمعت وقد اختلفت مظاهرها باختلاف حركاتها (انظره في سورة النور عند آية : الله نور السموات والأرض) .

يا عجباً : إذن أجسامنا نور متسكاف ولكنه متحرك حركات سريعة جداً تبلغ نحو ستة آلاف مليون مليون حركة في الثانية ، ثم ان هذه الأجسام لا تظهر ثمراتها إلا بالحركات كأن ذلك الأجسام بهيئة خاصة فتكون الكهربية كأنها لما كانت دائمة التحرك أثبت أن يستخرج ما فيها من الأسرار إلا بحركات جديدة غير حركاتها الطبيعية ، العالم حركات منظمات لا غير في شيء سموه الأثير ، وان تستخرج كنوز المادة إلا بالحركة أيضاً ، ولو أمكن استخراج ما في الجوهر الفرد بأي عمل كان وخرج منه ما كان كامناً فيه لأخرج حرارة وضوءاً بهما تصبح الأرض مشتعلة جميعها . هذا كلام علماء زماننا .

الله أكبر : إذن نحن الآن في وسط عجائب وغرائب ، إذن جسمي أنا فيه من الكنوز ما لا حصر له ، وذلك في ذراته هو المادية ، وإذا كان جسمي على هذا النمط فكيف بأرواحنا ! تلك الأرواح التي لها صلة بما يصنع العالم ، وهو على طريق المجاز نور وشعاع من إبداعه فلها قرب ما ، ولكن ان يستخرج ما كمن فيها إلا بالعبادات لأنها تكرر وتكرر على القواعد الكلية للدين ، فيها يذكر اسم الله ، وتذكر نعمه ، ويتوجه العبد إليه ،

فإذا كان الجوهر الفرد باستخراج ما كمن فيه إن أمكن يقلب الأرض كلها ، فرجل واحد إذا استخرجت قواه بالصلوات والعبادات ، وكان ذا قلب سليم محباً للعلم مخلص فهذا يقلب نوع الانسان كله أو بعضه ، وهؤلاء هم الأنبياء ويتبعهم المخلصون المحققون من أممهم .

وملخص هذا المقام أن العلوم لا يتم الانتفاع بها إلا بالتمرين ، وأجل العلوم معرفة الله ، وهذه لا تتم إلا بالعبادات ، وهذه العبادات مثبتات لتلك المعرفة ، معينات على تلقي ذلك العلم إلى النهاية فيصل لربه ويصير مرشداً للأمم ، والنبى صلى الله عليه وسلم كان يصلي بالليل ، ورأى من آيات ربه الكبرى ، وأوحى إليه ، فهدى الناس ، وهكذا تابعوه المخلصون من هذه الأمة لكنهم لا يوحى إليهم بل يهتدون بهديه ويصلون ، وخواصهم يقومون الليل كما كان يقوم ، ويتعلمون ويفتح عليهم ، ويقرءون علوم الأمم حتى إذا ماسمعوها أن شجرة المنتهى يسير الراكب في ظل كل فنن من أفنانها مائة سنة ، أو يستظل بظلها مائة ألف ركب فانه يقول إن العلوم اليوم قربت هذه المسائل لأننا إذا رأينا في السدم المتقدم ذكرها وهي ألفا مليون مليون سديم ، وكل سديم منها فيه ألف مليون شمس على الأقل ، والضوء يجري في مجرتنا وحدها مئات الألوف من السنين فهذا معناه أن عالم المادة مدهش وعجيب فكيف بعالم الغيب الذي لا يعرفه إلا الأنبياء ، فأصبحت العلوم اليوم مفهومات ومقربات لمسائل الدين .

فلما سمع ذلك صاحبي قال الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وإلى هنا تم الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة . انتهى ليلة السبت ٢٩ أغسطس سنة ١٩٣١ م

### مقدمة في مناسبة هذه السورة لما قبلها

لقد ختمت السورة المقدمة بعبادات تقرب العبد من الله ، وأخلاق شريفة : كالصبر على ما يصيب الانسان ، وأن يقول المرء عند القيام من الليل ، وعند القيام إلى الصلاة ، وعند القيام من أى مجلس كان : « سبحانك اللهم وبحمدك » ونحوها ، وبالعبادة ليلاً كصلاة المغرب والعشاء ، وكصلاة ركعتين بعد الفجر إذا أدبرت النجوم ، وهما ركعتا الفجر قبل الفرض كما أن ادبار السجود الركعتان بعد المغرب ، فهذه العبادات مذكرات بالله ، مقربات العبد من ربه ، لأن كثرة الذكر تؤثر في النفس ، تستحضر المذكور استحضاراً تقرر به النفس على طول الزمان ، وذلك هو الذى يهيئ النفس الانسانية للإلهام في عامة الناس وللوحى في الأنبياء ،

ولقد كان صلى الله عليه وسلم يتعبد في غار حراء فأوحى إليه ، فهنا ذكر العباداة في آخر [سورة الطور] واتبعت بالوحى في [سورة النجم] تعليلها للأمة أن من أكثر من ذكر الله عند قيامه من النوم ، ومن مجلسه ، وللصلاة ، وصلى المغرب والعشاء بحضور قلب ، وفي بعض الليل ، وركعتي الفجر ، فانه أقرب إلى الإلهام من غيره .

ويبغى لمن يتصدى لارشاد الأمة أن يكون هذا خلقه ، فان لم يفعل ذلك كانت آثاره ضائعة في الأمة لأن النفوس التي لا تشرق بذكر الله لا تؤثر في الأمة ، وكأن الذي باقتراب قلبه من المذكور يتجلى عليه فيفيض العلم على قلبه فتحس النفوس بذلك الفيض فتقبله ، وفي ذكر إدبار النجوم وتعقبه بالنجم اذا هوى مناسبة لطيفة ، وكأنه يقول : أيها الناس : انه صلى الله عليه وسلم يقوم الليل ويصلى المغرب والعشاء ، ويذكر الله عند قيامه من النوم ، وعند قيامه للصلاة ، ويصلى ركعتي الفجر ، فهو في عبادة إلى مطلع الفجر اذا أدبرت النجوم فاستحق بذلك أن أفيض عليه العلم والوحى ، وذلك في :

القسم الثاني في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوحى إليه . وفي قرينه من ربه

### التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(والنجم اذا هوى) أى أقسم بحسب النجوم اذا غربت أو طلعت ، يقال هوى كهوى [بالفتح] اذا سقط وغرب ، وهوى [بالضم] اذا علا وصعد ، أو بالنجم من نجوم القرآن اذا نزل ، فالنجم السماوى عند شروقه وعند غروبه يشعر النفوس بجمال الابداع وحكمة الخلق وهكذا نجم القرآن وقد نزل القرآن في عشرين سنة ، أقسم الله بذلك وجواب القسم قوله (ماضى صاحبكم) ماعدل محمد صلى الله عليه وسلم عن الطريق المستقيم (وماغوى) وما اعتقد باطلا ، والخطاب لقريش (وما ينطق عن الهوى) أى بالهوى : أى لا يتكلم بالباطل ، وذلك رد لقولهم : ان محمدا يقول القرآن من تلقاء نفسه (إن هو إلا وحي يوحى) أى ما القرآن إلا وحي يوحى الله إليه (علمه شديد القوى) ملك شديد قواه وهو جبريل ، ويقال انه اقتلع قري قوم لوط وحملها على جناحه ، ورفعها إلى السماء ، ثم قلبها ، وصاح صيحة بنود فأصبحوا جائعين ، هذا هو الذى يقوله علماء التفسير رحيمهم الله ، وقد جاء في علم الأرواح الحديث أن للأرواح من القوى ما يجهز البشر ، وكلما ارتقت الروح كانت أعلم وأقدر على الأفعال العظيمة ، ولقد مرّ عليك في هذا التفسير في [سورة البقرة] ما رفعه خمسة عشر ألف نفس إلى مجلس الأعيان في الولايات المتحدة وقولهم : انا رأينا أنوارا وسمعنا أصواتا وشهدنا زلزلة وأمورا عظاما ، فهانحن أولاء جئنا إلى مجلسكم الموقر فاستجلى حقيقة الأمر في ذلك ، وهذا عند استحضار الأرواح الى آخر ما هناك وقد ذكرته هناك بلفظه فاربع إليه ، واذا كان هذا في الأرواح التي فارقت أرضنا فما بالك بالأرواح العلوية كجبريل ، فانظر للعلم الحديث كيف أظهر ما كان العقل لا يصدق وانما يؤمن الناس به إيمانا ، فالملائكة أقوياء الأجسام في عقولهم حصافة رأى وتدير وحكمة ، وهذا هو قوله (ذو مرة) ولعلك تذكر ما مرّ في هذا التفسير نقلا عن علماء الطبيعة في أوروبا لاسيما [أوليفر لودج] وقوله : « اننى أصبحت موقنا أننا نحيط بنا عالم نحن بالنسبة إليه كالمخل بالنسبة لنا وهم يساعدوننا ويحافظون علينا ويقول هذا وقفت عليه بطريق علمى يريد تحضير الأرواح ، ثم قال : فاذن ما قاله القديسون من أنهم رأوا الملائكة ، أو أنهم رأوا الله ، كل ذلك حق لا مريية فيه ، وهذا من عجائب القرآن ، إن سميعانه أصبحت اليوم تداع بين الناس بصفة علوم

روحية وكشف حديث ، وذلك هو قوله تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » فقوله « في الآفاق » راجع لما كشف حديثا كالبحر المسجور المتقدم ، وقوله « وفي أنفسهم » كقوله « شديد القوى ذو مرة » فان القوة الجسمية والعقلية للعالم الروحي قد ظهرت بطريق علم الأرواح ، وهذا يستحيل أن يعرفه الناس إلا بالاستحضار أو التنويم المغناطيسي ، وكلاهما لن يكون إلا بالأنفس البشرية ، فان التنويم المغناطيسي معناه انخلاع النفس عن البدن انخلاعا جزئيا أو كليا وهي به مربوطة وهناك تتصل بالعوالم الروحية ، فاذن معرفة العالم الروحي لم تتم إلا بواسطة أنفسنا ، ولعلك تذكر مامراً في [ سورة البقرة ] من تنويم المريض حتى اطلع على مرضه وعلى دوائه ، وبين أوقات المرض المقبلة بالدقة ، وبين الأدوية اللازمة ، وهذا كان أمام أ كابر الأطباء بفرنسا كما شرحته هناك ، وتم كل هذا بعد الامتحان الدقيق والحرص الشديد والانتباه التام ، فهذه النفوس الانسانية المتعلقة بأجسامنا هذا شأنها ، ومن شأنها أن تنطلق وتتكلم الأرواح الأخرى كما عرفت ، فهذا هو المقصود من إراءتنا آيات الله في الأنفس والآفاق ، ولقد تجلى لك في هذا التفسير أكثر ما تجلى في الآفاق من عجائب الطبيعة ، وما تجلى للأنفس من عالم الأرواح والملائكة ، وسترى بعد ذلك ما يظهر من العجائب ، فعلى المسلمين أن يفكروا فيها ، وأن يعلموها ، وقوله ( فاستوى ) وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ) أى استقام على صورته الحقيقية التى خلقه الله عليها حين أحب رسول الله ﷺ أن يراه فى صورته الحقيقية ، فظهر له فى الأفق الأعلى : وهو أفق الشمس ، فلا الأفق ، ثم أخذ جبريل يدنو من رسول الله ﷺ ويتدلى : أى يزيد فى القرب والنزول بقرب النبي ﷺ حتى كان منه مقدار قوسين ، والعرب تقدر بالقوس وبالرمح والسوط وبالذراع والباع : أى فكان مقدار مسافة قر به مثل قدر قوسين أو أقرب على تقدير كم ، وعلى مقدار فهمكم ، إذ تقولون قدر رحمن أو أنقص ، وليس بعد التدلى والقرب إلا الوحي ، فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحى ، عبر بذلك تفخما للوحي به ، مثل انه أوحى إليه « ألم يجدك يتيما فاوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى ، فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث » وهذا من عظام الأمور ، ولا جرم أن ظهور الأرواح فى صور مرئية أصبح الآن معروفا ، وقد قص علماء الأرواح عجائب ، إذ تظهر الروح فى صور بشرية وصور نورية وتخطيهم ، وذلك فى حال التنويم المغناطيسى ، وتحضر القواكه ، وقد تم ذلك فى جهات كثيرة من الأرض والمسلمون لا يعلمون ، وقد ذكرت كثيرا من هذا فى هذا التفسير فى مواضع كثيرة ، ظهر ذلك على يد الأمم الأوروبية من أرواح ليست فى شرف جبريل ، ولا هى مستنزلة على أنبياء ، بل على أناس امتازت قواهم بأنها مستعدة للتنويم المغناطيسى وان لم تكن قدسية كأرواح الأنبياء ، فاذا صح هذا بالنسبة لأحد الناس اليوم فليكن للأنبياء من باب أولى بطريق يناسب مقامهم ، إذ لا تتجلى الأرواح إلا بالمناسبة بين المتجلى والمتجلى عليه ، وههنا ظهر جبريل لنبينا ﷺ وتبدت صورته له صلى الله عليه وسلم وهذا راجع لقوله : « شديد القوى » لأن ظهوره فى صورة مرئية راجع لقوته وشدهتها ، وقوله : « فأوحى إلى عبده ما أوحى » راجع لقوته العلمية : أى قوله « ذو مرة » فهو على سبيل اللف والنشر المرتب ، ولما كان الانسان كثيرا ما يظن أنه قد تخيل ما رآه ويكذب قلبه ما ظهر له ، بل قال علماء الأرواح انهم لما خاطبوا الأرواح قالوا لهم : انكم كثيرا ما يظهر لكم عجائب روحية فتظنونها من الوهم وتفسونها إلى خداع الحواس ، فالناس فى أكثر أحوالهم يكذبون ما يقع لهم من غرائب الأرواح مع أن فيهم من هم أقرب استعدادا لتجليها ، فلما كانت هذه عادة الناس أعقبه الله بما يفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقم بنفسه ان هذا خداع الحواس ولأنه وهم فقال ( ما كذب الفؤاد ما رأى ) أى ما قال فؤاده لما رآه لم أعرفك كما يحصل

لبعض العامة بعض التجليات الجزئية فيظنونها وهما لأنهم ليسوا مؤيدين من الله ( أفتمارونه على ما يرى )  
أفتجادلونه على ما رآه بعينه تلك الليلة ، بل صدقه وحققه ( ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ) أى  
ولقد رآه مرة أخرى كما رآه هذه المرة فكان ظاهرا له بهيئته ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى محمد  
صلى الله عليه وسلم فما حصل فى الأولى حصل فى الأخرى ، ولم يكن ذلك فى الأرض ، بل كان عند شجرة  
نبق فى السماء السابعة عن يمين العرش ، وهى فى منتهى الجنة أى آخرها ولم يجاوزها أحد فى الرقى من  
الخلائق وعلم الملائكة ينتهى إليها ، وما وراءها غيب لا يعلمه إلا الله ، وأرواح الشهداء أيضا تنتهى إليها ، أوهى  
منتهى ما يخرج من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهى ما يهبط من فوقها فيقبض منها . وفى الحديث ان نبقها  
كقلال هجر ، وإن أوراقها كآذان القبلة ، وقد غشيها من نور الله ما غشيها فتغيرت فما أحد من خلق الله  
يستطيع أن ينعتها من حسننها ، ومن وصفها ان الراكب يسير فى ظل ألفين منها مائة سنة ، أو يستظل بظلها  
مائة ألف راكب فيها فراش الذهب ، ووصفها مقاتل أنها شجرة تحمل الحلى والحلل والقمم من جميع الألوان  
ولو أن ورقة وضعت منها فى الأرض لأضاءت لأهل الأرض ، وهى شجرة طوبى التى ذكرها الله فى [ سورة  
الرعد ] ولقد فهمت من هذا الملخص قوله تعالى ( عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ) أى رآه  
إذ يغشى السدرة ما يغشاها من الخلائق الدالة على عظمة الله وجلاله ، ومن الأنوار والاشراق والبهجة  
والحسن والنضارة ، ومن الملائكة ، ومن فراش الذهب ، من كل ما ورد فى الحديث ( مازاغ البصر ) أى  
بصر رسول الله صلى الله عليه وسلم أى ما عدل عن رؤية الجائب التى أمر برؤيتها ومكن منها ، وما مال  
يمينه ولا شمالا ( وما طغى ) وما جاوز ما أمر برؤيته ( لقد رأى من آيات ربه الكبرى ) أى والله لقد رأى  
الكبرى من آياته وعجائبه الملكية والملكوتية ليلة المعراج ، ومنها نور رب العزة الذى غشى السدرة فلم يزغ  
بصره ، بل ثبت فى ذلك المقام الذى تزل فيه الأقدام حافظا قواه ، والآيات الكبرى منها ما ذكر ومنها ما لم  
يذكر ، ومنها أنه رأى رفرقا أخضر سد أفق السماء ، وأنه رأى جبريل له ستائة جناح .  
ثم كأن الله يقول : هذا وصف ما رآه ، فماذا رأيتم أنتم أيها المشركون ؟ فهل ترون فى اللات والعزى ومناة  
من الجائب ما رأى محمد ؟ وكيف تحصرون نفوسكم فى العالم المادى وأصنامهم وتقطعون على أنفسكم طريق  
الوصول والارتقاء ، إن النفس لا ترقى إلا بما استعدت له ، فاذا وقفت نفوسكم عندهذه المادة وأصنامها لم يكن  
لها عروج إلى السماء :

### القسم الثالث : تقرير المشركين على جهلهم وكفرهم بعبادة الأصنام

ونسبهم البنات الى الله ، وأخذهم بالظن وبخلهم ، وفى حكم علمية ، وفى صفات الله عليه  
قال تعالى ( أفأرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ) هذه الثلاثة أصنام كانت لهم ، فاللات كان  
رجلا يلت السويق للحاج ، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه ، ثم صنعوا له صورة تعبد ، والعزى شجرة  
بغطفان كانوا يعبدونها فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فقطعها ، فجعل يضربها بالفأس ويقول :  
يا عزى ككفرانك لا سبحانه <sup>عزى</sup> إني رأيت الله قد أهانك  
ومناة صخرة كانت لهذيل وخزاعة ، أولئقيف ، وكانت دماء النساء تسمى عندها أى تراق ، وقوله الأخرى  
صفة ذم : أى المتأخرة الوضعية المقدار كما فى قوله تعالى : « وقالت أخراهم لأولاهم » أى وضعائهم لرؤسائهم  
وأشرافهم ، ولفظ الأخرى متعارف بين أبناء العرب المصريين بهذا المعنى فيقولون هو الآخر وهى الأخرى بمعنى  
الضعة ، وتأخر القدر والشرف .



ولما قرعهم على تنزل عقولهم لعبادة الأصنام ، وتناهيها في الجهالة ، وسقوط المنزلة عن المقام الأرفع عند سدرة المنتهى أخذ يذكّر جهالات أخرى من جهالاتهم فقال ( ألكم الذكر وله الأثني ) كانوا يزعمون أن هذه الأصنام هياكل للملائكة ، أو مواطن الجنيات نسكها ، والملائكة والجنيات بنات الله ، أفرايتم هذه الأصنام الثلاثة [ ألكم الذكر وله الأثني ] تقرعها لهم وتوبيخها ، إذ يجعلون هذه الهياكل لبنات الله من ملائكة أوجن ، وهم يأنفون من البنات ، ويصطفون الذكور . فكأن الله قد منحهم ما حرّمه على نفسه ، فقلوه « أفرايتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى » مفعوله الثاني « ألكم الذكر وله الأثني » كقلوه « أفرايتم ماتمنون أم تم تخلقونه أم نحن الخالقون » ( تلك إذن قصة ضيزى ) جائرة حيث جعلتم له ماتمنون فكفون منه وهى فعلى كفضلى من الضيز وهو الجور لكن كسرت فاؤه لتسلم الياء ( إن هى إلا أسماء ) أى ان الأصنام من حيث الألوهية إلا أسماء تطلقونها عليها وتقولون انها آلهة وليس فيها شيء من معنى الألوهية ( سميتموها ) أى سميتن بها ( أأنتم وآباؤكم ) بهواكم ( ما أنزل الله بها من سلطان ) برهان ( ان يتبعون إلا الظن ) إلا توهم أن ما هم عليه حق تقليدا وتوهما باطلا ( وما تهوى الأنفس ) وما تشتهيه أنفسهم ( ولقد جاءهم من ربهم الهدى ) الرسول أو الكتاب ( أم للانسان ماتمنى ) بل للانسان ما يتمناه : أى ليس له كل ما يتمناه ، إذن ليس لهم مطمع فى شفاعة الآلهة المخترعة وليس لهم أن يطمعوا حيث يقولون : « ونحن رجعت إلى ربى ان لى عنده للحسنى » ويقولون « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » وما أشبه ذلك ، ومثل هذا أمانى الانسان فى نفسه أو أمته ، فالتة هو المدبر ، وعلى الانسان العمل والجد ( فلتة الآخرة والأولى ) يعطى منهما ما يشاء لمن يريد وليس لأحد أن يتحكم عليه فى شيء منهما ( ولكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا ) أى وكثير من الملائكة لا تغنى شفاعتهم شيئا ولا تنفع ، فاذن أمر الشفاعة ضيق فان الملائكة مع قريتهم من ربهم وكثرتهم لوشفعوا بأجمعهم لأحد لم تغن شفاعتهم قط ولم تنفع إلا اذا شفعوا من بعد أن يأذن الله لهم فى الشفاعة لمن يشاء الشفاعة له ويرضاه ويراه أهلا لأن يشفع له ، واذا كان هذا أمر الملائكة الذين هم عالم ررحى أقرب إلى الرب من الأصنام وعباد الأصنام ، فكيف يكون الأمر إذن فى أصنام أرضية ميتة لا روح لها فى غاية البعد عن ذلك المقام الأقدس ، وبهذا فهمت قوله تعالى ( إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ) إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة أى كل واحد منهم ( تسمية الأثني ) بأن سموه بنتا ( وما لهم به من علم ) أى وما لهم بما يقولون من علم ( ان يتبعون إلا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شيئا ) فان الحق الذى هو حقيقة الشيء وما هو عليه إنما يعرف بالايقان لا بالظن والتوهم ( فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ) فأعرض عمن رأيتهم معرضا عن ذكر الله وهو القرآن ( ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك ) أى اختيارهم الدنيا والرضا بها ( مبالغهم من العلم ) منتهى علمهم ( إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ) يقول انه يعلم من استعدّ للهداية ومن ليس أهلا ، فلا تعب نفسك فى دعوتهم إنما عليك البلاغ ( ولله ما فى السموات وما فى الأرض ) خلقا وملكا وعبيدا يهتدى من يشاء ويضلّ من يشاء ( ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ) أى بعقاب عملهم ( ويجزى الذين أحسنوا بالحسن ) أى بالمثوبة بالحسن وهى الجنة على مقتضى النظام الذى وضعه بحيث يسير كل فى الطريق الذى قدره له الله على مقتضى الاستعداد . ثم وصف المحسنين فقال ( الذين يجتنبون كبائر الامم ) أى الذنب الذى يستحق صاحبه العقاب ( والفواحش ) جمع فاحشة ، وهى ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال ( إلا اللثم ) إلا ما قلّ وصغر من الذنوب أو مقاربة المعصية من غير موافقة ، فهذا مغفور من مجتنبي الكبائر ، والاستثناء منقطع ( إن ربك واسع المغفرة ) حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر ، وله أن يغفر ما يشاء من الذنوب صغيرها وكبيرها ، وإنما ذكرها هنا لئلا يئس صاحب الكبيرة

من رجة الله ، والكبيرة كل ذنب ختمه الله بنار ، أو غضب ، أو لعنة ، أو عذاب ، أو حد في الدنيا ، أو أقدم صاحبه عليه من غير استشعار خوف أو ندم ، أو ترتب عليه مفسد كبيرة ، ولو كان في نظر الناس صغيرا ، فمن أمسك انسانا ليقتله ظالم ، أو دل العدو على عورات البلاد ، فقد فعل كل منهما أمرا عظيما فيكون أكل مال اليتيم بالنسبة لهذين قليلا جدا مع أنه من الكبائر ، ولو كذب على انسان كذبا يعلم أنه يقتل بسببه فهذا من الكبائر أيضا ، فأما إذا كذب عليه وترتب على الكذب أخذ تفاحة منه فليس من الكبائر . يقول الله انه واسع المغفرة ( هو أعلم بكم ) أعلم بأحوالكم منكم ( إذا أنشأكم من الأرض واذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم ) أى علم أحوالكم ومصارف أموركم حين ابتداء خلقكم من التراب وحين صوركم في الأرحام ( فلا تزكوا أنفسكم ) تنسبونها الى زكاه العمل ، وتثنوا عليها بزيادة الخير والطاعات ، أو بالطهارة من المعاصي ، فدعوا الثناء عليها واهضموها ، إن الله علم الزكي منكم ، والتقى أولا وآخر قبل أن يخرجكم من صلب آدم ، وقبل أن تخرجوا من بطون أمهاتكم .

وسبب ذلك أن ناسا كانوا يعملون أعمالا حسنة ويقولون صلاتنا وصيامنا وحجنا ، وكان ذلك على سبيل الإعجاب والرياء ، وليس على سبيل الاعتراف بالنعمة فانه جائز ، والمسرّة بالطاعة طاعة ، وذكرها شكر ما لم تصبح كالحجاب على النفس فتمنع ما يرد عليها من الواردات كما تقدم منقولا عن الامام الغزالي في [ سورة آل عمران ] وهذه الآية كآية : « إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » فهناك يقول : كل شيء في كتاب فما جاءكم من نعمة أوفاتكم منها فينبغي أن لا يؤثر فيكم فرحا ولا تفرحا لأننا نحن كتبناه في كتابنا ، فهكذا هنا يقول : لا ينبغي تزكية النفس لأن ما عملناه مقدر . وملخص الآيتين أن الكامل لا يفرح بنعمة ، ولا يحزن بنقمة ، ولا يفتخر بفضل ، لأنه لا يعمل له ولا تقدير والعمل لله وحده ، وهذه مرتبة شريفة متى وصلها الانسان كان سعيدا ، وهذه هي التي نقولها في صلواتنا في الرفع والاعتدال : « أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد ، لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا راد لما قضيت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » فهذا الدعاء يقصد منه الاستكمال بهذه المنقبة الشريفة ، وقوله ( هو أعلم بمن اتقى ) أى يعلم التقى وغيره منكم قبل أن يخرجكم من صلب آدم ( أفرايت الذي تولى ) أعرض عن الايمان ( وأعطى قليلا وأكثرى ) قطع عطيته وأمسك ، وأصل ذلك أن الحافر تلقاه كدية أى صخرة عظيمة فيمسك عن الحفر ( أعنده علم الغيب فهو يرى ) أن الكفر والبخل من الأعمال النافعة عند الله ( أم لم ينبأ بما في صحف موسى ) أى بل ألم يخبر بما في صحف موسى وهو التوراة ( وإبراهيم ) أى وصحف إبراهيم ( الذي وفى ) أى وفى وأتمّ فما أمره الله بشيء إلا وفى به ولم يسأل مخلوقا ، فلما قذف في النار قال له جبريل : ما حاجتك ؟ فقال أما إليك فلا ، وأيضا صبر على نار النمرود وذبح ولده ، وقد كان يمشى كل يوم فرسخا يرناد ضيفا فان وافقه أكرمه والانوى الصوم . ثم ذكر الله ما فى صحفهما وهو ما يأتى :

- (١) أن لا يؤخذ الانسان بذنب غيره .
- (٢) ولا يثاب إلا على عمله .
- (٣) وأن عمله سوف يرى يوم القيامة في ميزانه .
- (٤) وانه يجازى عليه الجزاء الأوفر .
- (٥) وأن انتهاء الخلائق ورجوعهم إنما هو الى ربهم فيجازيهم بأعمالهم .
- (٦) وأن الله خالق الضحك والبكاء والفرح والحزن .
- (٧) والموت والحياة .

- (٨) وأنه خلق الذكر والأنثى من نطفة اذا تصب في الرحم .
- (٩) وهو الذى أعطى الغنى ، وأفاد القنية وهى أصول الأموال وما يدخونه بعد الكفاية .
- (١٠) وأنه هورب الشعري ، وهو كوكب يطلع بعد الجوزاء فى شدة الحر وكانت خراعة تعبدها فقال الله كلا انه هوربها ، وأول من سق لهم ذلك أبوكبشة من أشرافهم عبدها . وقال : لأن النجوم تقطع السماء عرضا ، والشعري تقطعها طولاً ، فهى مخالفة لها فعبدها ، وخراعة تبعه ، وتسمى الشعري أيضا [ كاب الجبار ] والشعري اثنتان : يمانية وشامية ، والمجرة بينهما ، واحدهما تسمى العبور ، والأخرى تسمى الغميصاء وهى أخفى من العبور ، والمراد هنا العبور .
- (١١) وأنه أهلك عادا الأولى القدماء لأنهم أولى الأمم هلاكا بعد قوم نوح .
- (١٢) وثمود فما أبقي الفريقين .
- (١٣) وقوم نوح من قبل عاد وثمود ، وقد كانوا أظلم وأظنى من الفريقين ، فلقد كانوا يؤذونه وينفرون عنه ويضربونه حتى لا يكون به حراك .
- (١٤) والمؤتفكة : وهى القرى التى اتفكت بأهلها : أى انقلبت ، وهى قرى قوم لوط ، أهواها الله وأسقطها ، فهو بعد أن رفعها قلبها (فغشاها ما غشى) فيه تهويل عظيم .
- هذه أربع عشرة مسألة مذكورة فى صحف موسى وإبراهيم وانما جىء بها لأن الذى تولى وأعطى قليلا وأمسك عطائه غافل عن علم الله وعن العلم الذى أنزل على أنبيائه ، ومن هذا العلم هذه المسائل ، ومنها أنه لا ينفعه إلا ما عمل من صالح كالعطاء فلماذا يمسكه ، والعطاء بدون إيمان لا ينفع فكيف يعرض عن الأصل وهو الإيمان وعن الفرع وهو العطاء ، وأكثر المفسرين رحمهم الله أنها نزلت فى الوليد بن المغيرة ، كان يتبع رسول الله ﷺ فغيره بعض المشركين وقال تركت دين الأشياخ وضللتهم فقال أخشى عذاب الله ، فضمن بعضهم أن يتحمل عنه العذاب ان أعطاه بعض ماله ، فارتد وأعطى بعض المشروط ثم بخل بالباقي ، فهذا يذكره الله بأنه لم يطلع على علم الله حتى يعرف حقائق الأشياء وأن فعله المذكور ليس مرضيا عند الله ، وأنه لا يؤاخذ أحد بذنب أحد فكيف ظن أن ذلك الرجل يتحمل عنه ذنبه يوم القيامة والآية عامة لا تختص بهذا السبب ولا بغيره كما رأيت .
- ولما عتد الله تلك المسائل وفيها عبر وحكم ، ومتى اعتبر بها الانسان صارت نعمة قال تعالى (فبأى آلاء ربك تتماارى) أى فبأى نعم ربك أيها المخاطب تتشكك أبما أولاك من النعم أم بما كفالك من النقم ؟ وكلها دالة على وحدانية ربك وربوبيته فبأيها تشكك مع أنها واضحة (هذا) أى حمجد (نذير) منذر (من النذر الأولى) من المنذرين الأولين ، أو الأولى على معنى الجماعة ، أو القرآن نذير من جنس الانذارات الأولى التى أنذرها من قبلكم . (أزفت الآزفة) قربت الساعة الموصوفة بالقرب فى قوله تعالى « اقتربت الساعة » (ليس لها من دون الله كاشفة) أى ليس لها نفس كاشفة أى مظهرة ومبينة متى تقوم إلا الله ، أو الكاشفة بمعنى الكشف كالعافية أى لا يكشف عنها ولا يظهرها إلا الله ، وهما يؤلان لمعنى واحد ، أو يقال ليس لها نفس قادرة على كشفها اذا وقعت إلا الله غير أنه لا يكشفها لأنه لا بد ماض فى جزاء كل بما يستحقه كما يقتضيه نظامه فى السموات والأرض ، فالمعنيان الأولان بمعنى بيانها ، والمعنى الأخير بمعنى كشف غمها اذا وقعت . ثم قال تعالى (أفمن هذا الحديث) القرآن (تعجبون) انكارا (وتضحكون) استهزاء (ولاتبكون) تحزنا على ما فرطتم (وأنتم سامدون) لاهون أو مستكبرون يقال سمدا البعير اذا رفع رأسه فى مسيره ، أو مغنون من السمود وهو الغناء لتشغلوا الناس عن استماعه (فاسجدوا لله واعبدوا) أى واعبدوه دون الآلهة . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

## لطائف هذه السورة

اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « والنجم اذا هوى » .  
 اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « وأنه هوأصحك وأبكي ، وأنه هوألمات وأحيا » .  
 اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة اذا تمنى ، وأن عليه  
 النشأة الأخرى » .

### اللطيفة الأولى في قوله تعالى : والنجم اذا هوى

لقد علمت مناسبة أول هذه السورة لما قبلها ، وأدركت السر في ذلك ، وأزبدك الآن وضوحاً فأقول :  
 لقد ختمت السورة السابقة بقوله تعالى : « وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وادبار النجوم »  
 والتسبيح بالحمد إما سبحان الله وبحمده ، وإما الصلاة ، ولا جرم أن التسبيح هو التنزيه ، والحمد هو الذكر  
 بالجميل على الجليل الاختياري : أي أن يشكر الإنسان النعمة ، ليس المقصود مجرد الألفاظ ، إنما يراد بالألفاظ  
 وتكرارها إيقاظ القلوب إلى نعم علام الغيوب ( وبعبارة أصرح ) أن يتعلقل الإنسان في معرفة النعم أي  
 أن يدرس هذا النظام الذي نعيش فيه ، فالإمامة يكتفون بالتسبيح والتحميد المفظيين المعينين على نور القلوب  
 واستعداده للفيض ، وحكام الأمة الإسلامية يسبحون ويحمدون ويكبرون لهظاً ، ثم يتغلغلون في الفكر  
 والحكمة والعلم ، ويوقنون بأن الذكر بالقلب واللسان لهما أثر في المعارف والمعلوم ، وعلى ذلك يجتهدون في  
 الحكمة ، ولعلك تقول : أين هذا في هذه الآيات ؟ أقول لك : انظر إلى سورة ق والى سورة الذاريات  
 والى سورة الطور ، ففي [ ق ] قرع الكفار ووجهم على أنهم لم ينظروا مافي السموات وما في الأرض ، وفي  
 الذاريات والطور جعل الرياح والسحاب والمطر مقسماً بها تعظيماً لشأن العلم بها ودراستها ، وفي الطور أقسم  
 بالعرش والفرش وبمعرفة ما بينهما ومعرفة ما بينهما ، ولما ختم السورة أمر بالتسبيح والحمد ، والحمد يرجع إلى النعم ،  
 والنعم إن لم تعرف فلا حمد عليها ، فأصبح أمر الحمد هو نفس أمر العلم ، والعلم بكل مخلوق في الأرض وفي  
 السماء بقدر الطاقة البشرية ، وما في الأرض والسماء مذكور أول السورة وما قبلها ، وابتدأ سورة النجم بأن  
 أقسم به افتتاً لنظر العبد إلى النجوم في أقباطها وادبارها ، واصباحها وامسائها ، حتى لا يعيش الإنسان في دار  
 وهو يجهل ما يحيط به فيها ، وفي ذكر النجم تذكراً بأشراق النجوم وبأشراق النفوس بالعلم وبالعبادة وبأشراق  
 القرآن ، وبأشراق الشرائع المنزلة ، وبأشراق نور النبوة ، وأن صاحبها صلى الله عليه وسلم دنا من ربه فتدلى إلى آخره  
 أودنا الله منه ، أودنا هو من جبريل ، هذه معان ثلاث رآها علماء آخرون جاءت في التفسير ذكرتها لنطاق  
 عليها حتى تنف على ما ذكره العلماء ، ولا تضيع وقتك في اقتفاء آثار الأقوال ، وإنما يهمننا الحكمة والعلم فنقول :  
 لما رأى صلى الله عليه وسلم من آيات ربه الكبرى كان هذا نوعاً من العلم ، لأن كل ما رآه الإنسان  
 ببصره أو بعقله فهو علم ، وهذا العلم يستوجب الحمد المذكور في آخر السورة السابقة . يقول الله : « فسبح  
 بحمد ربك حين تقوم » وهنا يقول : اني أطلعك على عجائب ملكي ، وعلى شجرة عظيمة ، وعلى فراش  
 من ذهب الخ وهذا العلم هو الموجب للحمد . فكأنه في السور السابقة شوق النفوس للمعارف ، ذلك لأنه أقسم  
 بالمخلوقات في السورتين السابقتين ، وهذا تشويق للعلم بها ، وذكر في سورة الطور البيت المعمور ، وهو في السماء  
 ففتح بهذا باباً للنفس ، وهنا يقول : انظر إلى عجائب خلقي ، ومتى اطلعت عرفت ، ومتى عرفت النعمة جدت  
 الله عليها ، فالحمد اللساني قليل الجدوى .

يقول الله : ان محمداً ماضٍ وما غوى ، ثم قل انه اطلع على علما وعجائبها ، فاذن يكون حمد المصحب

بالتسبيح في آخر السورة السابقة جدا مصحوبا بعلم ، فلاحدا إلا على نعمة ، ولا بد أن تكون معلومة للعاقد  
وهاهوذا قد اطلع على عجائبنا وحكمنا في خلقنا .

### ثمرة هذا المقام في امم الاسلام

مامن امرئ إلا وأحس في نفسه بقول خفي تحته به نفسه فتقول في وقت ما ما هذا الكوكب ؟  
ما هذا النبات ؟ ما هذا الشجر ؟ ما هذا الحجر ؟ ما هذا المطر ، ومن أين جاء البحر ؟ وما هذه الشمس ؟  
وما هذا النور ؟ وما أشبه ذلك ، ويود لو يقف على حقائقها ، ففي هذه السورة ابتداء بذكر النجم تشويقا  
لدراسته ، وجاء فيها اطلاع النبي صلى الله عليه وسلم على عجائب هذه الدنيا وغرائبها ، فلئن كان هذا  
للأنبياء من غير تعليم فليكن لنا بطريق التعليم : وليس عظمة الثروة عند الأغنياء إلا مشوقة لمن دونهم  
أن يكونوا على شاكلةهم ، فمن جلت صورته طبعاً ، ومن ورث الملك عن أبيه ، ومن هو حاد الذكاء من  
الناس قد كانوا قليلين في الناس ، وليس معنى هذا أن الناس لا يتولون الأحكام ما لم يكونوا ملوكاً ، ولا يدرسون  
ما لم تكن أذهانهم خارقة للعادة ، ولا يتجملون ما لم يكونوا آية في الجمال . كلا . فالأدنى يقلد الأعلى ، فإذا  
رأينا في أنفسنا شوقاً إلى الاطلاع إلى العالم فلنجد في العلم حتى نعرف ما نطبقه ، وإذا أطلع الله نبيه على آياته  
الكبرى وجعلها له نعمة فلندرس نحن بعض آياته المشاهدة في الطبيعة والفلك ، وإذا وجدنا أنه صلى الله عليه  
وسلم رأى البيت المعمور ، وأن هناك ملائكة يدخلون وهم كثير والعدد الخ فلندرس العلوم الفلكية ولنقرأ  
ما عرفه الناس فإن هناك عوالم عظيمة وكواكب تصغر شمسنا دونها ، وإذا رأينا أن سدرة المنتهى قد انتهت  
إليها علوم الخلائق فلا يعرفون ما وراءها فلنعلم أن ذلك يفتح لنا باب العلم فندرس ما في طاقنا دراسته حتى  
تقف عقول الناس ، إن الناس إلى الآن يزيدون علماً في معرفة الكواكب والأفلاك والطبيعة ولم يقف الناس  
وهم يزيدون كل يوم كشفاً وعلماً فلندرس علومهم لأنها في حيز الامكان (و بعبارة أخرى) لم تصل العلوم إلى  
سدرة المنتهى فلو أنها وصلت إليها لوقفت العقول وأعلن العلماء أن العلم لا يزيد ، ولكن العلم يزيد ، ولا يجوز  
للمسلمين أن يقولوا : إن العلم قاصر على الفرنجة ، فهاهوذا نبينا ﷺ يقول : إن للخلائق حداً في العلم ،  
وليس معنى هذا أن يكون العلم خاصاً بغير المسلمين فإن قدوتنا ﷺ هو الذي اطلع على آيات ربه الكبرى  
بالتعليم ، فلنطلع نحن على آيات ربنا بالتعليم لأننا من الخلائق ، ولا يصح أن نستثنى أنفسنا لأننا بهذا نكون  
قد جهلنا ديننا ولم نقصد بنينا الذي أمره الله أن يقول « رب زدني علماً » فليس يصح لنا ألا نقول ذلك  
يفتح لنا صلى الله عليه وسلم باب العلم ويقول انه رأى سدرة المنتهى ، وأن هناك علوماً ومعارف ، ويقول  
إن ما وراء سدرة المنتهى ممنوع عن الخلائق ، وكل هذا يؤخذ من « سبحان الله والحمد لله والله أكبر »  
فالتسبيح تنزيه الله ، والتحميد معرفة حق النعمة ، والتكبير الاعتراف بأنه أكبر مما نعلم ، فإذا كان التسبيح  
والتكبير والتحميد وراء الصلوات فهو من كبرنا بذلك ، مذكر لنا بأن تصفو نفوسنا أخلاقاً وآداباً ، وتتفرغ  
للعلم ، فتزويه الله عن المادّة ولو احققها يفتح لنا باب التفرغ للعلم وترك المألوفات ، والتبرّي من العادات ،  
لأن العلم لا يدخل إلا قلوباً لها حظ من التهذيب والتأديب ، وهذا نوع من التنزيه عن المادّة والعلم للنفوس  
المهذبة أقرب وهو المشار له بالجد ، والعلم أمدّه طويل ولا حد له ، فليجد الإنسان فيه يقرب من خالقه ، وعلى  
مقدار علمه يكون قرب به ، فما قرب ﷺ إلا قرباً علمياً ونحوه ، لا قرب الذات بل قرب المعنى ، ثم نعلم فوق  
ذلك أن الله أكبر من كل ما عرفناه وما يعرفه الخلق من ملائكة وجن وانس ، فالتسبيح والتحميد والتكبير  
في الاسلام فوائده لرفق المسلمين كما تراه في هذا المقام ، فلم يقصد ذكر اللسان وخلق الجنان ، ولو قصد ذلك ما ذكرت



سورة النجم بعد الطور التي ختمت بالتسبيح والتحميد ، بل جاء في سورة النجم التي في أولها المعارف والعلوم وأنه رأى من آيات ربه الكبرى ، فليقرأ المسلمون علوم العوالم المحيطة بنا ، فليقرءوا تلك الكواكب البعيدة المدهشة التي يصل ضوءها في مئات السنين ، بل في ألوف السنين ، بل في ملايين السنين ، واذن تكون شمسنا قريبة جدا ، بل تكون المسافة بيننا وبينها بالنسبة لغيرها أشبه بطول رمح صغير بالنسبة لمحيط الأرض عشرين مرات ، ويكون ضوءها وقدرها بالنسبة لغيرها ضعيفين جدا وقليلين ، فراجع ما تقدم في [ سورة آل عمران ] تجد ما نقلته هناك من أبعاد الكواكب عن أرضنا وفي سور غيرها كالأنعام وهكذا تقدم في هذا التفسير ما ذكرته روح غاليلي من العوالم البديعة ، والخلائق العجيبة ، التي تعيش عيشا لا يحلم به أهل الأرض والى هنا تم الكلام على اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « والنجم اذا هوى » والحمد لله رب العالمين .

### اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : « وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا ، وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة اذا تمنى ، وأن عليه النشأة الآخرة ، وأنه هو أغنى وأقنى وأنه هو رب الشعري ، وأنه أهلك عادا الأولى ، وثمود فما أبقى ، وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ، والمؤتفة أهوى ، فغشاها ما غشى ، فبأى آلاء ربك تمارى »

قال صاحبى الذى اعتاد مسامرتى في هذا التفسير : الله أضحك وأبكى ، الله أمات وأحيا ، الله أهلك عادا ، الله أهلك ثمودا ، وقوم نوح ، وأهوى المؤتفة ، وانتهت الآية ان هذه آلاء الله ، والآلاء النعم ، أمن النعم أن يبكى العيون ويهلك الأمم ؟ نعم هذا السؤال ورد كثيرا في هذا التفسير وكثرت الاجابة عليه ولكن النفس لاتزال تطالب بالمزيد ، فحدثني أليس الله أرحم الراحمين ؟ أليس الله قدوة لنا في أفعاله ، الله أهلك أمما وأبكى عيونا ، واذا قتل أحدا انسانا عمدا دخل جهنم ، الله يهلك أمما ، الله يسلط الميكروب على الأمم فيهلكها ، ويسلط الأمم القوية على الضعيفة فتذللها ، الله يسلط الوحوش على آكلات الحشائش فتأكلها ، كل هذا فعل الله ، لأن هذا نظامه ، ثم تشريعه لنا على خلاف ذلك ، فنحن بقتلنا انسانا عمدا نعذب في جهنم يوم القيامة ، ونحكم شريعتنا علينا بالقتل . واذا كان الله أرحم الراحمين هذا فعله فكيف بنا نحن الضعاف في الأرض ؟ هذه المعاني تتردد في نفسى صباحا ومساء ، وكل ما جاء في هذا التفسير من الأجوبة فيما مضى فانما هي أجوبة جزئية ، والجزئيات لاتغنى عن الكليات ، فأنا الساعة يوم الأربعاء ١٢ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية - ٢٠ يناير سنة ١٩٣٢ م أريد اجابة شاملة كاملة حتى لا أحتاج إلى سؤال بعدها في هذا الشأن . فقلت : ماذا تقول في آية : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » . فقال : وماذا تقول في آية : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط » فنحن الآن في مقام السير في طريق أدلى العلم الذين يشهدون ببصائرهم أن صانع العالم قائم في عمله بالقسط والعدل ، نريد أن نشهد ونحن في الأرض كيف كان الله قائما بالقسط في تدبير الخلق ، وفوق ذلك نريد أن نفهم كيف يمكن الجمع بين هذا الاهلاك والابكاء والتدمير وابادة الأمم واذلالها وبين اسمه [ الودود ] . ألم يقل الله [ وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد ، فعال لما يريد ] ولا جرم أن الودود يفعل ما يريد ، ولكن هل يلتقى وده إليهم ، ويكون فعله محبوبا لأنه أتى على سبيل المحبة ، وهو اهلك المدن ، وازالة الدول ، وابكاء العيون أي يكون ذلك ودا ، وأيضا جاء في القرآن آيات في سور كثيرة كلها دالة على تنزيهه في ذاته وصفاته وأفعاله ، وذلك بصفة التسبيح ، والتسبيح تنزيه ، وهذا المعنى جاء مصدرا وفعلما ماضيا وفعلما مضارعا وأمرا ، فهو مصدر في سور كثيرة مثل : « سبحان الذى

أسرى بعبدته ليلاً . « وسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون » وفي هذه السورة ، وفي آخر السورة قبلها : « ومن الليل فسبحه وادبر النجوم » وسيأتى فى [ سورة الحديد ] : « سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » وذكر الأحياء والاماتة هناك كما ذكرها هنا ، وفى آخر [ سورة الحشر ] : « يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » وفى آخر [ سورة المجادلة ] : « رضى الله عنهم ورضوا عنه » إن رضا العبد عن ربه وتنزيهه وحبه وودّه يعوزه الاطلاع على جمال الأفعال ، والأفعال الالهية المذكورة مشكلة مع أوصاف الحب والودّ والرضا الخ فأرجو الاجابة على هذا حتى لا أعود إلى السؤال كرّة أخرى . فقلت : سأسامرك ان شاء الله فى أوّل [ سورة الحديد ] فى هذه المعانى وهنالك تتجلى المعانى التى تريدها وان كان أكثر مما سأقصه عليك هناك قد مضى كثير منه متفرّقا فيما مضى من التفسير . وسأشرح :

- ( ١ ) النظام التكويني .
- ( ٢ ) والنظام التشريعى وأنهما متفقان .
- ( ٣ ) وأبين درجات التربية الست :
- ( ٤ ) تربية الأمّ لولدها .
- ( ٥ ) وتربية الأب له .
- ( ٦ ) وتربية المعلم .
- ( ٧ ) وتربية الحكومة للأفراد مع ما يتبع ذلك من نظام الجندية .
- ( ٨ ) التربية الالهية وأنواع الزلازل والحوادث العظيمة .
- ( ٩ ) وأن الأم حين تمنع ولدها ما يضرّه وهوييكي لم يمنع ذلك حبها له ، وقد ضربت مثلا لدرجات التربية التى بعدها ، وبمقدار ازدياد العلم تعرف حقائق تلك التربية ويزداد الحب للمربي .
- ( ١٠ ) وبيان أن العلم إما بهيئة سطحية كعلم الشعراء والأدباء ، وإما بهيئة حكمية فلسفية عالية كعلم الحكماء ، وايضاح ذلك وتفصيله من كلام [ كونفوشيوس ] فيلسوف الصين الذى توفى فى القرن الرابع قبل الميلاد .

- ( ١١ ) ثم بيان أن الحب على مقدار العلم .
- ( ١٢ ) بيان أن الله توارى عنا بحجبه واسكنه قذف لنا كرات جيلة لاحصر لعددتها ، وهى الشمس والكواكب ، وهوى قربها وبعدها ليجذبنا إلى حضرتها ، وجعل الشطرنج والنرد عند اللاعبين مثلا لذلك كما جعل الجمال والحب الأدنيين مثلين لجماله وحبّه الأعليين ، وصنع للناس فى الأرض عجائب لولا حوادث الموت والحياة ومزعجات الليالى لذهلت عقولهم ، فن سرج تجرى فى سقف مرفوع تدور حولهم ، ومن حدائق وحقول حولهم ومناظر بهجات ، وتارة يرسل لهم شهابا تقترب من أرضهم ليوقظهم إلى العلا ، ونسبة هذه الأعاجيب إلى صانعها كنسبة صفات الكرة والصولجان والنرد والشطرنج إلى مخترعها ، والتعجب يكون على مقدار اتقان الصنعة .

هذا ما سأذكره هناك ان شاء الله مع شذرات فى الآيات التى ذكرتها أيها الأخ الذكى . فلما سمع ذلك قال : إن هذا العجب ! وانى لى غاية الشوق إلى ما وصفت . انتهت اللطيفة الثانية .

### اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة اذا تمنى ، وأن عليه النشأة الأخرى »

بسم الله الرحمن الرحيم

الرحمة المذكورة في البسملة في أول هذه السورة وهي منبثة في أجزائها كما هي منبثة في أجزاء العالم الذي نعيش فيه الذي هو محل دراستنا كما أنه مناط حياتنا .

اللهم انك أنت الحكيم العليم الملهم الهادي ، نحمدك اللهم على الهداية ، وعلى الحكمة ، وعلى النور والعرفان ، العرفان الذي ابتهجته به يوم الأحد الماضي في تفسير هذه الآيات ، وذلك بتاريخ ١٤ مارس سنة ١٩٣٢ م في شهر شوال سنة ١٣٥٠ هـ

خرجت من القاهرة مع أهل بيتي لمشاهدة حقلنا الذي اعتدت في هذا التفسير أن أكتب خواطري فيه تلك الخواطراتي ترد في المزارع والحقول ، وقد امتزج المعقول فيها والمنقول ، نور والله على نور ، نور الوجود على نور الكتاب المبين ، نور الحكمة العلمية يزدان بكتابنا المقدس ، كتابنا الذي جاء به الوحي تفسره المناظر الطبيعية ، وتشرح تفسيره المباحج الحقلية ، ركبنا القطار من القاهرة ، آذن القطار بالمسير إذ ارتفع صفيحه ، وازداد شقيقه وزفيره ، وأخذ يطوى الأرض طيا من محطة الليمون عند القاهرة ميمما محطة المرج وهي التي منها نتوجه إلى حقلنا ، هنالك أخذ الفكر يحول في عالمنا الذي خلقنا فيه ، وخيل لي أن روحا علويا بجاني قد تمثل لي بشرا سويا ، وقد أخذ يخاطبني ، وما أجل الخطاب ، وما ألد حديثه المستطاب . إذ أخذنا نتجاذب أطراف الحديث من قديم وحديث ، هنالك نسبت القطار ومن فيه ، وخرجت من ضيق الأرض إلى فسيح السموات ، وغبت عن عالم الحس ، وارتقيت إلى عالم الروح والعقل ، وسموت إلى فسيح السموات تذكيرا وتفكيرا .

هنالك قال لي الروح : انظر إلى عجائب الشمس ، انظر إليها كيف ترسل ذرات النور متتاليات متتابعات في الجو ، وانظر كيف تسافر تلك الذرات في فسيح الجو جاريات منها إلى الأرض ، ما أسرع جريها ، انها تجري حثيثا من حين خروجها إلى أن تصل إلى أرضكم هذه في ٨ دقائق و ١٨ ثانية ، تجري وتلحقها أخرى بتقدير محكم ونظام عجيب ، وهذه الذرات الضوئية المشاهدة بحسبها الناس غير موزونة وهي موزونة (لقد تقدم في هذا التفسير أن علماء عصرنا قد وجدوا للضوء وزنا ، وأن الشمس تخرج في الثانية الواحدة منه ما يقدر بمئات الملايين من القناطير المنتظرة ، كل هذا واضح فيما تقدم بأجلى بيان ، ذلك لأن النور عبارة عن حركات ، والحركات طبعها ميل واتجاه ، وهذا الاتجاه له ثقل وان كان ذلك لا يكاد يشعر به أحد ، ولكن اجتماع الكثير الذي لاحصر له يوجب ثقلا عظيما كما قدمناه ) . ثم قال : وهذا الضوء الذي هذه صفته يجري في جو أثقل منه بما لا حد له (أقول : انظر ما تقدم في أول سورة الصافات ، فقد أثبت العلماء في عصرنا أن هذا الجو الفسيح يقطع النظر عن الهواء الذي هو فيه مملوء بما يسمونه [الأثير] والأثير عالم لا نحس به ، وقد قلنا انه أشبه بخيالنا نحن ، فكما أن خيالنا لا وزن له وهو موجود هكذا هذا الأثير يظن الانسان أنه لا وزن له بل لا وجود ، ولكن العلماء أثبتوا وجوده ووزنه معا ، ولكنه وزن مدهش إذ قالوا انه لو قدر وكان مادة محسوسة لكان أثقل من الحديد بمئات المرات ، وهذا المقام محقق هناك بقدر الامكان فارجع إليه ، ويقرب من ذلك أن الشمس والكواكب والأرض كلها متجاذبات ، والحبال التي تتجاذب بها وتمسك بها هذه الأجرام الكبيرة ، هو هذا الأثير فلنفرضه حبالا ، وهذه الحبال المعنوية بها تجذب الشمس الأرض والسيارات ، وتجذب الأرض القمر [وبعبارة أخرى] اننا نعيش في جو مشبع بالجذب ، فهذا الجذب

قوة ، وهذه القوة لو جسمت لكانت أثقل من الحديد والرصاص والأحجار بآلاف المرات ، وهذا الذي قلته الآن يسهل عليك أيها الأخ فهم مقال الروح لى ، ويزداد به فهم ما ذكره العلماء ونقلته فى أول [ سورة الصافات ] وذكرت هذا الإيضاح هناك ) .

ثم قال الروح بعد ذلك : انظر الطيور ، انظر الحشرات ، انظر الأشجار ، انظر هذا كله . قلت ثم ماذا ؟ قال : قد فهمت منظر الشمس ، وفهمت إخراجها لأنوارها ، وانها جاريات فى عالم قوى متين ، وهذا العالم القوى المتين هو الأثير ، ذلك الأثير القوى المتين الذى به عرفتم قوله تعالى : « وبنينا فوقكم سبعا شدادا » فكل كوكب يحيط به أثير ، والعيون تنظر الجوّ إلى أمد محدود ، وهناك ترى قبة منظورة واضحة لا يشك من رآها أنها سماء تظله كما لا يشك الرجال والنساء فى سقوف بيوتهم أنها تظلمهم ، وهذه السماء المنظورة عبارة عن أجزاء من الهواء منبثة فى أجزاء الأثير ، والأثير هو الأصل ، والأثير قوى متين قوة لا حد لها ، وهذا قوله تعالى : « وبنينا فوقكم سبعا شدادا » فالشدّة الآن واضحة أشدّ وضوح فى زمانكم ، وقوله بعدها : « وجعلنا سراجا وهاجا » بيان للضوء الجارى من الشمس فى ذلك الجوّ الشديد القوى المتين ، وهذا الجوّ القوى المتين هو العمود الذى لم تروه فى آية : « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها » فهذا الأثير عمود غير مرئية ، وهذه العمود قوية متينة ، وكيف لا تكون قوية متينة ، وقد رفع فوقها سماء شديدة [ وبنينا فوقكم سبعا شدادا ] .

ثم قال : اذا عرفت هذا فأنت الآن وجميع بنى آدم وكل حيوان ونبات تعيشون فى وسط واحد يغمركم جوّ الأثير ، ذلك العالم الخفى القوى المتين ، النور يشرق عليكم جميعا ، إذن هذا العالم جسم واحد ، وهذا الجسم يشرق عليه نوران : نور حسى ، ونور معنوى ، فالنور الحسى قد شرحناه ، والنور المعنوى هو الذى سنشرحه الآن ، فهذه الطيور لها غرائز وأنواع من الإدراك وهكذا الانسان ، بل النبات له نوع احساس ، وما ذلك كله إلا أنوار معنوية ، واذا كان للنور منبع وهو الشمس ، وقد سطع على كل برّ وبحر ، وعامر وقفر ، ونبات وحيوان وانسان ، فهكذا ذلك النور المعنوى المنبعث من عوالم أرقى من الشمس ، عوالم هي شمس العقول والإدراك ، عوالم أنتجت بقدرة الله وعلمه ، هذه الشموس هي أولى باسم الوجود ، هي أولى باسم النور ، هي أعمدة هذه العصافير الطائرات ، المفردات المربيات لتربيتها ، هي المعطيات لهذه الحشرات ادراكها وعالمها .

أيها الجوهري : ألا خبرنى رعاك الله ؟ ألم تقرأ ماجاء فى كشفكم الحديث فى أرضكم أن هناك فى المزارع التى تراها مادة تسمى [ الفيتامين ] وهى مادة الحياة ، والفيتامين المذكور يقوى فى الفواكه والخضر ، ويقلّ فى غيرها ، ويشدّ ظهوره فى البرتقال وما قاربه ، ويقلّ فى نحو الارز الذى فصل من قشره ، كما جربوا ذلك مع الفيران فى ألمانيا ، إذ رأوا ما أكلت الارز منها وهى فى الظلمة قد مرضت وهلكت ، وما أكلت البرتقال منها قويت وسمنت ، فعلموا أن البرتقال أخذ من مادة الحياة المنبثة فى ضوء الشمس المنبعث منها عليه أكثر مما أخذ الارز ، لأن القشر الذى كان عليه هو الذى تلقى ضوء الشمس ، فلما فصل منه أصبح هو قليل القوة والمتانة ، وأصبح آكله المقتصر عليه أضعف من آكل البرتقال ونحو البرتقال .

ثم قال : إذن هنا ضوء للشمس فيه قوة الحياة ، وهذه القوة منبعها الشمس ، وهذه القوة تكثرت وتقلّت بحسب القابليات ، فعلى مقدار القابليات تكون العطايا .

الله أكبر . جلّ الله : أليست هذه الحيوانات من حشرات وطيور ودابة وانسان قوايل لنور الفكر والعالم العلوى الملكى أشبه بشموس تنبعث منها الأنوار الفكرية ، وهذه الأنوار الفكرية تكون فى الانسان

أكثر من الحيوان ، وتختلف الأنوار الفكرية باختلاف القوالب الحيوانية ، إذن الأنوار الفكرية لا تزال تنبعث من عوالم نورية تسمى بلسان الشرائع ملائكة ، ولسان الحكمة عقولا ونفوسا ، اختلفت الأسماء ولكن المسمى أصبح معلوما لكم بطريق القياس ، لأننا نكلمكم على قدر عقولكم أيها الناس ، فهناك عوالم روحية نورية عقلية نسبتها إلى عقولكم وعقول حشراتكم ودوابكم كنسبة أجرام هذه الشمس والكواكب إلى أحجام أجسامكم ، وإذا كان للنور المحسوس أجرام عظيمة هي منابعه ، هكذا للنور المعقول منابع هي أصوله ، إذن المحسوسات جعلت أمثلة للعقولات ، وهل أدار الله الشمس حول أرضكم وأجراها جريا متتابعا بحساب إلا لتدرسوها ، ومن أجل دراستها أن تفكروا وتقولوا ها هي ذه أنواع الماء كل اختلفت قوة الحياة فيها قدرا ومنفعة ، حتى أن قشور الفاكهة والحبوب قد كُنت فيها قوة الحياة المستمدة من ضوء الشمس أكثر مما كُن فيهما وراء تلك القشور من لب الثمار ولب الحبوب البعيدة عن ضوء الشمس ، فكل تلك القشور ينال من قوة الحياة أكثر مما ينال آكل ماتحت تلك القشور .

ثم تقولون : وإذا كان ذلك كذلك في عالم الحس فليكن هكذا عالم الروح ، وأن النفوس لا تأخذ من العوالم الروحية إلا على مقدار ما استمدت له ، فإذا رأينا إنسانا وحشرات وطيورا ودواب ، فهذه لم تختلف في ادراكها إلا باختلاف قابليتها لما يرد عليها من العوالم الروحية التي تحيط بالشمس وبالثلوات وبالسيارات ، وإذا كان المسلمون اليوم في أنحاء الأرض أقل علماء من غيرهم في الأمم فما ذلك إلا لأنهم قد أصبحوا أشبه بما تحت قشور الحبوب والثمار والفواكه ، لأن الخرافات قد أحاطت بعقولهم ، وأضلهم بعض شيوخهم ، فنعوهم العلم ، ومنعوهم مواعيد عرقوبية ، وأفهموهم أن حظوظ الحياة وحظوظ الممات ليس مدارها على العمل ، واتسكوا على المغفرة المجانية ، ونسى كثير منهم أنفسهم وغرائزهم وعقولهم ، فلم يصل لهم من تلك العقول العالية إلا قليل كما لم يصل لما تحت قشور الحبوب إلا قليل ، فقلت مادة الحياة في الدقيق الناعم في نحو البر وكثرت في النخالة وفيما يسمى (بالسقم) وهو الذي يتركه الناس فلا يأكلونه ، وقد يطعمونه البهائم جهلا منهم ، وهو الذي فيه قوة الحياة والمنفعة .

إن نور الفكر منتشر انتشار ضوء الشمس ، نور مشرق على جميع هذه الكرة الأرضية كما ينتشر نور الشمس وجميع كواكب السماء ، لا مكان في الأرض ، ولا في الجو إلا وهو مشبع بأنوار لا حصر لها ، أنتم يا بني آدم لا تكادون تفهمون من الأنوار العلوية في أرضكم إلا نور الشمس والقمر ، مع أنكم في الحقيقة تشرق عليكم أنوار كثيرة جدا لا حصر لها ، فكل كوكب كشف أولم يكشف يسطع نوره الآن على الأرض وتصل منه آثار إلى أجسامكم كما تصل آثار من الشمس والقمر ، وتلك الآثار لها عمل فيها . إذن هنا أنوار كثيرة لا حصر لها تسطع على أجسامكم ، وأنتم لا ترونها ، وإذا كان ذلك محققا فعلا في نور محسوس فإن الأنوار العلوية المشرقة العلوية الروحية تحيط بكم ولا حصر لها من مشرقات عليا وهي عوالم الملائكة ونفوسكم تتقبل منها كما تتقبل أجسامكم أنوار الشمس والكواكب والأقمار .

فلتعرضوا لتلك الأنوار الروحية أيها المسلمون وإن كانت خافية فظيورها في الخفاء أضواء الكواكب البعيدة مع أنها محققة ، ولن يتم ذلكم لكم إلا ببذل الخرافات ودرس نفس هذا الوجود ونفس القرآن وليس يغني والله ما قرأتم في كتب أسلافكم الذين درسوا ما يناسب زمانهم ولم يتوسعوا في العوالم العلوية والسذلية توسع أهل زمانكم وإن كانوا لم يقصروا في ذلك ولحقوا تلميحا إلى ما ظهر في هذا الزمان ، إذن ههنا أصران اثنتان لا ثالث لهما : نور محسوس ، ونور معقول ، والمعقول أصل المحسوس ، هذا جسمك يا جوهرى تشرق عليه الشمس ويشرق عليه نور الفكر ، يشاركك في ذلك كل إنسان وحيوان ، بل النبات له حظ من الإدراك ،



وهذه العوالم كلها في المجموعة الشمسية ، والمجرة العاقمة والمجرات كلها جسم واحد متجاذب فلا فضاء إذن ، وهذا الجسم المتجاذب له قوى متعددة مختلفة ، خلقه الله وبث فيه أنوار الكواكب وأنوار العقول العالية ، فهو الخالق لتلك العقول العالية وتلك الشمس الكبيرة ، ولا تعجب أن تكون أنت الساعة لك اتصال بعوالم علوية مشرقة وأخرى تزجي الفكر ، وأنت وكل حيوان ونبات تستمدون من النورين وتسعدون بالاشراقين . الله عز وجل لا ترونه لأنكم الآن في حال التريبة ، وهذه العوالم هي الغطاء ، فالعوالم الحسية غطاء حسي ، والعوالم الروحية غطاء روحي ، هما غطاءان لو كشفنا لرأيتهم الله ، ولكهما ابن يكشفارحة بكم واحسانا واطفا ، لو أن الله كشف هذه الحجب ورفع الغطاء عن أعينكم الباطنية هل كنتم ولذبتهم ، ولكنه لرحمته العظيمة خلق لكم شموسا ظاهرة وشموسا أجمل منها باطنة ، وهي العوالم الروحية وقال لهما تعاونا في تربية كل انسان وكل حيوان فتعاونت أضواء الشمس مع أضواء العقول على تربية العالمين .

### حيرتي وفراقى لتلك الروح الجميلة

والكلام على الهواء والضياء والقوى الفكرية في الرئة وفي الغذاء وفي المنح

هنالك وصل القطار الى محطة المرج ، ومدة جريه نصف ساعة من الزمان ، فأفقت من غشيتي ، ورجعت إلى حسي ، وغاب عني حالا ذلك الروح الذي تمثل لي بشرا سويا ، فساورتني حيرة ، واعترااني هم ، ذلك أن ما تخيلته وأنا في القطار له قيمة علمية ، ولكن المقصود من تفسير الآية لم أصل إليه بعد ، لأنني أريد أن أفهم لماذا يذكر الله تعالى « النشأة الأخرى » بعد ذكر الزوجين الذكر والأنثى ؟ وما المناسبة بين الذكر والأنثى وبين النشأة الأخرى ؟ ثم لماذا نسمع الله يقول في [سورة الأنعام] « كتب ربكم على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة » ولا جرم أن جمعنا يوم القيامة يكون بالنشأة الأخرى ، فهل كون الانسان ذكرا وأنثى هو الرحمة التي جعلها الله مقدمة لتلك النشأة ؟ أم ماذا يكون ؟ فإذا رأينا الرحمة جعلت في مقابلة ذكر الزوجين وجعل ما بعد كل منهما هو النشأة الأخرى ، فاذن علينا أن نفهم هل في الذكورة والأنوثة مبادئ للنشأة الأخرى ، هذا هو الذي حارفيه فكروا ، هنالك نزلت من القطار ، ولكنني لم أمش في طريقي من المرج إلى مزرعتنا كما جرت عادتي لأنني اعتدت كما ذكرت في هذا التفسير مرارا أني أنزل من القطار وأمشي نحو ساعة حتى أصل الى الأرض وهكذا في الرجوع طلبا لرياضة البدن ، وفرحا بنعمة العلم ، واستنشاقا للهواء النقي ، فانه اذا كانت أجسامنا لا بد لها من غذاء وأهمه الفيتامين أي مادة الحياة الكامنة في الخضار والفاكهة والحبوب والاسماك في قشورها ، واذا كانت عقولنا لا بد لها من أنوار فكرية تصل لها اذا خلت من الشواغل الحسية والمعنوية ، وهذه الأنوار الفكرية يحصل عليها كل حيوان بحسب استعداداته ، وكل انسان بحسب قابليته ، هكذا الرئة لا بد لها من هواء يدخل بالشهيق ويخرج بالزفير ، وقد ظهر اليوم أن الانسان اذا استنشق بالشهيق مقدارا كبيرا وهو في الخلاء وعند شواطئ البحار ، وأخذ إذ ذاك يدخل النفس بلطف ويحبسه قليلا ثم يخرج بالتدرج بلطف فيدخله في نحو ٦ ثوان أو ٧ مثلا ويبقيه في مدة كذلك ثم يخرج في نحو هذه المدة بالتدرج ، ثم يبقيه خارجا كذلك ، يفعل ذلك آنا فآنا حتى يتعوده ، ثم يزيد في الزمن على مقدار الطاقة ادخلا واخراجا ، وحبسا للنفس داخلا وحبسا له خارجا ، فأنا هكذا كنت أفعل أثناء المشي كل مرة وأنا مع ذلك أدرس هذه الطبيعة الجميلة البهجة ذات الجمال .

أقول : ففي هذا اليوم لم أمش بل ركبت مع عائلتي سيارة وسرنا إلى أن وصلنا الأرض (مزرعتنا) عند كفر الباشا من أرض بركة الحج .

## منظر الأرض وتفسير الآيات في مزارع الحقول

أخذنا نجوس خلال الأرض ، وجلنا فيها جولات ، وجلسنا هناك إلى قرب صلاة العصر ، فكان منظر الحقل جيلا أي جمال ، حقل أمامه الجبل شرقا ووراءه المزارع الخضرة والنخيل وأنواع الحبوب والحشائش المختلفة غربا ، وقد هبت النسيمات فتذكرت الأثر الوارد : « اذا هبت الأرواح ، وقامت الأفياء ، فاذكروا الله فانها ساعة الأوابين » .

مناظر الأشجار المحيطة بالحقل فيها النخيل الكثير ، وهناك الاثل : أي العبل والطيور مغرّقات والحشرات مغنيات ، وأنواع الشعير والقمح والبرسيم والبقول وهي متميلات طربا وبهجة ، تهتز اهتزاز الوهين ، وتغنى مشية العروس بهجة للناظرين : والريح تعبت بالسنابل وتلعب بجريد النخل وأغصان الأشجار تقلبها ذات اليمين وذات الشمال .

ولهذه الأنواع أصوات موسيقية ، ورنات غنائية ، وهي موسيقى حقيقية لاجيالية [ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ] . وللحشائش من النعمات ما ليس للأشجار والنخيل والأعشاب ، العوالم كلها في طرب وبهجة وحبور ، ولكن هذا الانسان هو الذي حيل بينه وبين ذلك الطرب والحبور للجهل الفاشي في نوع الانسان . هذه هي الخواطر التي خطرت لي أثناء جولاني في وسط الحقول .

### حضور الروح الخيالي في الحقل معي وتفسيره لآية : وأن عليه النشأة الأخرى

وبينما أنا غارق في هذه الأفكار في الحقل إذ حضر الخيال الروحي الذي كان معي في القطار . فقال : ان ماذكرناه معك في القطار يجعل العقل الانساني كأنه ناظر إلى ربه ، إن الأمر أصبح واضحا ، انسان عاقل تحيط به أنوار ، ويدخله فكر ، هو في أنوار عقلية وأنوار حسية ، هي مرسلات له من الله ولكنه لا يزال في حال التريية ، وهو وان حجب بذلك عن أن يرى الله فانه اذا صفت بصيرته يرى أنه هو جزء من هذه العوالم التي أرساها الله ، وهذه العوالم جميلة جالا حسيا وجالا معنويا ، ألا ترى إلى جمال الحقول واختلاف الصور والنعمات ، ألا ترى إلى جمال العقول واختلاف إدراك العصفور والزنبور والنحلة وإدراك الانسان ، تلك مناظر ذات جمال وبهاء وسناء ، فلئن اختلفت شجر النخل وشجر العنب والرمان وأنواع البقول والقمح والشعير من حيث أشكالها ، ومن حيث نعمات الهواء المتخللة أوراقها وأغصانها فلتختلف آراء الانسان والحيوان من حشرات ودواب وطيور ، اختلفت الأحجام والأصوات والإدراكات ولكن الأخيرة هي الباقية أما الأصوات وأما الأجرام فهن كلهن ذاهبات وعالم الفكر هو الذي إليه تشد الرحال ، وبه يسعد الرجال . وبينما أنا كذلك إذ لاحظت مني التفاتة إلى تخلصين في الحقل أحدهما ذكر والأخرى أنثى ، فأردت أن أقول [ الكفرى ] (١) أي وعاء الطلع من النخلة ، فنعنتى السلام التي يحملها قحف الجريد المحيط بذلك الطلع ، هنالك تذكرت مامرا في هذا التفسير من أن تلك الشوكات الطامعات بجانب أوراق شجر السنط لم تخاف إلا للحفاظة على تلك الورقات لضعفهن ضعفا كثيرا ، فهذه الشوكات تساعدنا حتى نتحمل العواصف وتقلب الهواء في الأجواء والأوقات المختلفة ، ولذلك نرى ورق السنط مع ضفنه يعيش جنباً لجنب مع خوص النخل القوي المتين ، وخوص النخل لا يعوزه ما يقويه ، أما ورق السنط فهو ضئيل ضعيف ، أما ما هنا في النخلة فان هذا الشوك المنتظم على جانبي القحف لم يعمل إلا للحفاظة على الطلع في ذكر النخل ، وعلى خلق النمر

(١) بضم الكاف والفاء وتشديد الراء .

وربيته في أثناء ذلك ، إذن هذا الشوك أعرضني على لا أشك في أني قد أتيت من هذه النخلة التي أنتجته  
 لأنني استعملته فيما لم يخلق له ، على هذا الطالع لا يقع ثم النخلة قريبة أو بعيدة ، وفي حقله نخلة تقرب منه  
 أنتج جعل الله هذه السلاء ( جمع سلاء ) الطلع الأبدى العابد فلا يند إلى ، هذا الحظير به إلى أثناء  
 هذه المحاولة فجاء غلام صغير في الحقل ، وقال : إن هذا يشوكك فأبعد عنه ، وأنا أتوجه لك ، ففهم ليترج  
 ( الكافري ) فلم يقدر وقال : اني ان اترعه الكسبر ، ونحن نريد أن نعطي لك ساءا ، فيقول هذا العلم  
 ثم المرس الذي كنت أتكرفيه ، فجاء رجل من نفس الحقل ، وقال : لا يمكن قطعه إلا بركن حادة ، فقلت  
 في نفسي الآن : صحت الحق ، أنتي أن هذا الطلع لا يأخذ إلا من له به غاية ، ولا غاية إلا بمنفعة ،  
 والمنفعة هنا الاتجاج ، والاتجاج كثيرا ما يكون بيد الإنسان ، فيأخذ الطلع من الذي كور إلى الأمان ، وهذه  
 العناية الخاصة بهذا الإنسان لها حدة ، وهي آلة جديدة حادة ، بها يقطع ذلك الطالع .

هناك قلت لا يصح الوقت للبقاء وأشكرك ، وأنا الساعة أريد الرجوع إلى المنزل بالعمارة ، هناك خاطني  
 الروح قائلا : أنت الذي كنت تدرس في التطار ، إن له لصفة بهذا الموضوع الذي هو التعبير لهذه  
 الآيات ، فقلت : وكيف ذلك ؟ فقال : إن النخلات التي كور والآيات متصلات بنور الشمس الذي شرحناه  
 قريبا ، فهنا نفس ، وهناك نخل ، ولولا النظام الدقيق في حساب الشمس ما أثمر النخل ، هذا لو أن فصل  
 الربيع قد بقيت له أيام قليلة ، ولا جرم أن الشمس في هذا الفصل تأخذ في الاقتراب من بلادكم ، وبها تزدهر  
 الأشجار والنبوع ، وتكون الثمرات ، وتزاج الحيوان ، وتظهر الأنوار ، والجمال والحسن ، والعشق والعزم  
 وهذا ذكر ، وهذا أنثى ، وهذا سلاء شائكة حارسات هؤلاء الذكور وهؤلاء الآيات ، الشمس قربها  
 أرسلت نورا ، وذلك النور له آثار جعل الله في نماء النبات قريبا وبعدا ، وفي إنتاجه أنواع الثمرات ، وهذه  
 الشمس لولا حسابها الدقيق لم يكن شجر ولا ثمر ، لأن النماء لابد أن يكون بنظام ، وهذا النظام لابد أن  
 يسبقه نظام في حساب سير الشمس ، ولولم تكن الشمس جارية بحساب لم تر عينك اليوم هذا الطلع في  
 النخلة الصغيرة التي أمامك الآن ، ولو أن الشمس قربت وبعدت بغير نظام لم يكن شيء من هذا ، بل لم تكن  
 أنت موجودا في هذه الأرض ، ويقال لك : يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ، فترجعون إلى عالم الأموات  
 إذن بين هذا الطلع وبين نفس الشمس وبين حساب سيرها مناسبة تامة ، وإذا صح ذلك بالنسبة لنور  
 الشمس فليصح نظيره في مسألة ظهور السلاء على قحوف الجريد : جمع قحف كحمل ، فهل هذه السلاء بارزات  
 بهذه الدقة وهذه الغاية والمنفعة والحفاظة على تلك الثمرات وطلعها من تلقاء نفسها ؟ فإذا كان بروز الثمرات من  
 تلقاء نفسها ولم يكن بأسباب الضوء الجاري من الشمس بنظام وحساب فليكن هكذا بروز السلاء الشائكة على  
 قحوف الجريد بغير علة ، بل نظام بلا منظم ، ولكن الأمر ليس كذلك ، إن الثمر في ظواهر حاله تابع لمؤثر  
 ظاهري ، وهو ضوء الشمس قريبا وبعدا بحساب ، ولكن ضوء الشمس لا يعقل ولا يفهم أن هذا الطلع الضعيف  
 يعوزه سلاء تحافظ عليه فتمنعني أنا من أخذ الطلع ، إذن هناك تلك الأرواح التي ضربت لها الشموس مثلا  
 في الوجود ، وهن مرسلات أنوارا حكمية على كل بقعة ، فإن كانت في الإنسان فهي عقل ، أو في الحيوان  
 فهي السميات غرائز ، وإن كانت في النخلة ، أو في أجسام الإنسان والحيوان كان ذلك تنظيما واحكاما بحيث  
 يعطى كل ذي حق حقه .

فهذه السلاء أيتها الجوهرى التي أمامك نظمت بنور حكمي استمدت من أرواح عالية كما استمدت هذه  
 النخلة أنوارا من الشمس قريبا وبعدا ، وكما كان الحساب في سير الشمس ظاهرا الأثر في ظهور الطلع في إبانة هكذا  
 كان الحساب عند تلك الأرواح العالية ظاهرا الأثر في إبداع تلك الشوكات المختصات بثمر هذه النخلات .

أيها الجوهري : هذه الحكمة التي وضحت الآن تفسر هذه الآية تفسيراً جليلاً لم يسبق له في كتب المسلمين نظير .

انظر أيها الجوهري : انظر ، انظر في جسمك ، ألسنت الآن في آخر العقد السابع من حياتك ، انظر ألسنت ترى الرأس مشتعلة بالمشيب ، ألسنت ترى هذا الجسم قد أدبر شبابه وأقبل هرمه ؟ قلت بلى . قال : ماذا يقول هذا الجسم بلسان حاله ؟ السلاء في النخلة ها أنا ذا أسمعك قولها ، فهناك أسمعك أقوال جسمك الذي أدبر شبابه وقوته ، وأقبلت أيام هرمه وضعفه . يقول جسمك اليوم وجسم كل انسى على شاككتك : أنا لباس روحك ، تلك الروح التي تحيط بها أنوار حسية وأنوار عقلية ، تشرق عليها من عوالم الجمال والكمال ، كنت فتى وشاباً وكهلاً ، كل ذلك لتنمو وروحك في هذه الحياة وتجرب هذه الدنيا وتدرسها ، ولكن هذه الحال مقدمات ، والمقدمات لها نتائج ، فإذا أنا ضعفت اليوم فهذا الضعف مقدمة للزوال ، ومتى زلت عنك كشفت روحك هذا الوجود . فقلت للروح الذي تخيلته : أنا إلى الآن لم أفهم المراد ، ولم أعرف سر الآية ؟ فأقول أنا أوضح ذلك :

### ايضاح تفسير الآية بمسألة الذكور والاناث

هناك أخذ الروح يسألني : هل ترى أن الذكورة والانوثة واستقلالهما ضروري في الحيوان والنبات ؟ قلت لا . قال ولم ؟ قلت : لأن من النبات ما يتوالد بغير ذكر كما ترى من الأغصان التي نأخذها من شجرات ونزرعها فتكون شجرات كأمهاتها ، وذلك كثير في الأشجار وهكذا :

[ المحار ] : من أنواع الحيوان ، أن المحارة الواحدة تلد الالوف بهيئة بيض ، وهذا البيض يبقى فيها أمداً حتى يفقس ومتى فقس عاش حولها في البحار ، وتربى وهو صغير بهيئة الذرة كأنه مادة تلون الماء ( هذا المقام واضح في سورة صريم فافترأ هناك ) فهذه المحارة فيها الذكورة والانوثة معا ، فلا عشق ولا غرام ولا هجر ولا فراق ، بل هناك ولادة بغير هذه التكاليف كلها ، فلا طلاق ولا خلع ولا نفقة ولا عدة ولا أحكام شرعية ، ولا حقوق لزوجة ، ولا حقوق لرجل ، بل كل هذا استغنى عنه المحار ، إذن هذا كله لا ضرورة له في خلق الحيوان . فقال : إذن ما الحكمة في هذه التكاليف والغرام والهيام ، والوصل والفراق ؟ فقلت : أنا لأعلمها . فقال : أنا بذلك عليم . اعلم أن كل ما هو حولكم وما يحيط بكم دورس لكم ، ولا جرم أن مافي نفوسكم أقرب إليكم مما حولكم ، ومع كونه أقرب إليكم مما حولكم ترونه أبعد عنكم ، فانكم لا تفقهون نفوسكم إلا بعد دراسة ما حولكم لتشابه العالمين ، درسنا معك السلاء والطلع ، وعرفنا أن هناك أسباباً ونتائج هكذا الأسباب هنا لها نتائج ، وذلك أن العشق والغرام والجمال والحسن ، كل ذلك جعل مقدمات لما بعده من حصول الزوجة أولاً والولد ثانياً ، فهناك جمال ينبع شوق له فزواج ووصال ، وهناك قد تحصل نتيجتان : أولاهما هناء الحياة بقدر الامكان بين الزوجين ، ثانيتهما انتاج الذرية ، إذن جمال أجسامكم في حال الشباب له نتيجتان : احدهما قاصرة على الزوجين وهي هناء الحياة ، وثانيتهما متعديّة وهي انتاج الذرية الباقية بعد موت الأبوان ، إذن انفصال الذكر عن الأنثى في الانسان الذي يهمننا الكلام فيه ، وحصول الهجر والوصل ، والأحوال المختلفة ، والمسرات والأحزان ، كل ذلك مقدمات لنتائج والنتائج هي تعاون الزوجين في أمور الحياة وانتاج الذرية الباقية بعد الممات ؟ اذا صح ذلك في ذكورة الانسان وأنوثته فانما ذلك جعل مقدمة لما نحن فيه الآن .



## النفوس الانسانية في شوقها للعلوم أشبه بالشبان في شوقهم إلى الشابات

إن هذه الأجسام الحاملة لأجسامكم اليوم تقوم بأود الروح وتحملها وتحفظها الى يوم الموت وهي في أيام الشباب غارقة في مهمات الحياة ، ولكنها اذا أقبلت أيام المشيب تفتح لبعض العقول أبواب الفكر والبحث ، وتستاق شوقا على مقدار همتها إلى الاطلاع على هذه العوالم ، وكلما ارتقت في العلم ازدادت ولوعا ، ولا تزال في ازدياد حتى تعاني ما يعانيه الشبان من الهجر والفراق ، وخير أيام الفكر أيام كبر السن ، فتذكرت ماقاله الدكتور [ شاهين باشا ] رئيس الأطباء في مصر اليوم في خطبة خطبها في العام السابق ( سنة ١٩٣١ م ) إذ قال : « إن الدم يتحول إلى المخ في زمن الشيخوخة ، فليفتز تلك الفرصة الشيوخ ، وليفكروا في تلك السن » . أقول : ولكن ليس معنى هذا أن كل الشيوخ يقدرّون على ذلك ، فان كثيرا من الشيوخ ضعفت قواهم العقلية في زمن الشباب بالانهماك في اللذات ، فجاءوا الى زمن الشيخوخة وهم مقلون فلا يفكرون ، بل يرجعون كالأطفال .

ثم قال الروح : إن هذه العوالم المحيطة بكم غذاء لأرواحكم ، وكما أن من يجلس ليلا وهو فارغ من الهمّ يحسّ بسعادة في منظر النجوم وجالها هكذا أرواحكم المحبوسة الآن اذا خلت من هذه الأجسام ورجعت الى عوالم الأرواح تحسّ بسعادة لاحد لها ، وليس المثل كالمثل له بل هو مجرد تنظير والا فأرواحكم تصبح اذا فارقت الجسد وعندها استعداد لعالم الجمال سعيدة سعادة مطلقة مغمورة بالجمال ، إذن انقسام الناس إلى ذكور وإناث فيكون شوق وتوق وهجر ووصال ، كل ذلك ممهدا هو أعلى ، فأنتم في أيام حياتكم تشاققون إلى المعرفة والعلم ، والمعرفة والعلم في الحقيقة غذاء لأرواحكم ، تلك الأرواح المستعدة للبقاء ، وهي تغتذى بتلك المعارف التي هي زادها وتفيد الأرواح التي هي أقلّ منها هناك علما ومعرفة ، فاذن هناك فوائد قصيرة على الروح ، وفوائد متعددة ، فهمى بالعلوم تستلذ وتغتذى ، وهي بها تقيد غيرها علما ومعرفة كما يفعل ذلك الزوجان ، فهما بعد الشوق بداعي الجمال والهجر يتصلان فيكون هناك سعادة زوجية بينهما ، وذرية هما يسعدان بتربيتها ، وهكذا تسعد الأرواح بعد الموت بالاطلاع على هذه العوالم الجميلة فتغتذى بها كما تغتذى الأجسام اليوم بالحبوب والثمار وتفيد أرواحا صغيرة فوائد تكون سعادة لها أيضا كما سعدت بتربية الذرية وأحست بلذة في هذه الحياة ، إذن ظهر السرّ لك الآن أيها الجوهرى ، وبان لك واتضح أن الجمال والعشق التابع له ، والهجر والفراق وما مائله ، كل ذلك مقدمات لما هو أهمّ وهو أن المحارة التي لم يتميز فيها الذكر من الأنثى ليست أهلا للمعارف التي سقناها أرواحكم بعد الموت ، فلم تعذب في الحياة الدنيا بالهجر والخلع والطلاق والفراق ، بل حلت وولدت بلا كافة من هذا النوع لأنه تعذيب لا نتيجة له ، أما التعذيب في الانسانية فان له ثمرة ، لأنه يعلم النفس ماهو الجمال ، وما هو الحب ، وما هي السعادة مع الاخوان ، وما هي السعادة في منح الغير هبات وعطايا كالذرية . حتى اذا ارتقت النفس واشتاق للعلوم والمعارف وأغرمت بها ، هنالك تبحث وتجد ، وكلما كبرت وعرفت الحقائق اشتاقت لخنت وأنت وبكت واشتكت ، حتى اذا فارقت هذا البدن المانع لها من عالمها حصل لها الهناء والفوز بحصول المطلوب والعزّ المرغوب ، فتصبح مغمورة في جو من الجمال والحكمة والنور لا يدركها أحد في هذه الحياة ، وهنالك يفهم المسلمون لماذا يقول الله في القرآن : « فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا » وذلك لأن الله لا بد أن يكون حاضرا بعلمه وقدرته والشمس تقرب وتبعد وتشرق وتأفل بدليل أن بعدها أورش البرد في دياركم ، وقربها أورش بروز طلع النخل في حقلكم



ولكن الله ليس كذلك ، ألا ترى أن السلاء الطامعة في قحف الجريد المذكور آنفا ، وها هو ذا أمامك معتنى به ليلا ونهارا ، فإن نمت كل نام لا يقف ليلا ولا نهارا ، أى ان النمو مستمر واحكامه وتديره وتقديره مستمر ليلا ونهارا ، وهذا من عالم روحى « يسبحون الليل والنهار لا يفترون » فعوالم الأرواح لاتنام كإينام الانسان ولا تغيب كما تغيب الشمس ، وعالم الأرواح أقرب إلى الحضرة العلية من عالم الحس فلذلك اعتفت بهذه السلاء في ظهور الشمس وفي أفولها ، إذن عالم الأرواح أقرب إلى ربه ( المنزه عن كل مخلوق ، المتعالى عن كل مسبب ) من عالم الأجسام ، وكل محسوس فلقربه منه وكثرة استمداده منه دام إقباله ولم يغيب كما تغيب الشمس ، ولو غابت تلك القوى الحافظة للعالم لحظة هلك كل شيء ، وانصدمت هذه السلاء طبعا ، فإذا كانت القوى الروحية المحيطة بكم مشرقة لا تغيب فكيف بالله عز وجل ! فهو إذن أكثر منها ظهورا بما لاحد له ، فإذا ارتقت نفوسكم فانها يوما ما ستعرف ربها ، وهذا سر الحديث الوارد فى انكم سترون ربكم كما ترون الشمس ليس دونها سحب ، وفى رواية أخرى : جاء ذكر القمر على حسب اختلاف مراتب الناس من علماء بهذه العجائب ، ومن عباد محجوبة أفكارهم فلا يدركون من كمال الله إلا قليلا كما يدرك الناس من أنوار الشمس على ما انعكس منها على القمر ثم أشرق على الأرض .

هذا هو السر أيها الجوهرى فى قوله تعالى : « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة اذا تمنى ، وأن عليه النشأة الأخرى » فى الذكورة والانوثة تمهيد للشوق والغرام والعشق الحاصلات لكثير من الشبان والشيوخ فى هذه الدنيا ، وهى نفوس مصطفاة لا يخلو منها زمان ولا مكان ، يعيشون فى أرضكم وفيهم هذا الشوق ، واذا ماتوا تنعموا بنعيم العالم الروحى ، بل كثيرا ما يحسون فى هذه الحياة كأنهم غرقوا فى بحر لجى من جبال الأرواح ، وكأن ربهم يخاطبهم ، وكأنهم يرونه وان كانوا لا يرونه فعلا لضعف مراتبهم وللحوائل الكثيرة ، وهذه النفوس هى المنعشات للأمم جيلا جيلا وآنا فآنا ، وهذه النفوس تقول فى هذه الحياة : لو كشف عني الغطاء ما ازدت يقينا . فالنشأة الأخرى التى مقدمتها الموت لها مقدمة وهو عشق العلوم ، وعشق العلوم له مقدمة وهى بهجة المناظر ومحاسنها التى تفرم بها بعض النفوس .

فإذا كانت آية الأنعام جاء فيها أن الرحمة أعقبها أن الله يجمعنا ليوم القيامة ، فى [ سورة النجم ] كانت الرحمة المودعة فى انقسام الناس إلى ذكور وإناث متبوعة بالنشأة الأخرى ، لأن الذكورة والانوثة مرتبت النفوس على الغرام فالوصول إلى آخر ما تقدم ، فهكذا هنا غرام وحب ثم هجر وبعد ، ثم خلوص النفس بالموت فتصل إلى السعادة الأبدية . هذا هو السر الذى يمكن أن ألقيه إليك الآن لتشره فى نوع الانسان ، وكم فى القرآن من أسرار : « وفوق كل ذى علم عليم » .

كل ذلك وأنا واقف أمام شجرة النخل اذا قائل يقول لى : لقد أزف الوقت لأن موعد صاحب السيارة أن يوافينا الساعة الرابعة ، ولم يبق إلا دقائق ، فاستعددت للرجوع ، وأخذت أهلى ووصلنا إلى المكان الذى أمكن السيارة أن تقف فيه ، فتأخر ذلك السائق مدة ، وكنا لم نعطه أجرا حتى يكون ذلك حاملا له على الرجوع إلينا ، ثم حضر ، وما وصل إلينا حتى قال : أنا أعلم أنى قد أخطأت ، ولكن اتسكن المغفرة . فقلت لابأس ، ثم ركبنا السيارة ورجعنا إلى محطة المرج ، وسار بنا القطار إلى محطة القاهرة ثم المنزل ، وذلك يوم الأحد ١٥ مارس سنة ١٩٣٢ م وإلى هنا تم الكلام على [ سورة النجم ] والحمد لله رب العالمين .



# تفسير سورة القمر

هي مكة

إلا ثلاث آيات وهي : أم يقولون نحن جميع منتصر ، سيهزم الجمع ويولون الدبر ،  
بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر : فدية

آياتها ٥٥ — نزلت بعد الطارق

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَفْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ \* وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ \*  
وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّهُمْ أُمِرٌ مُسْتَقِرٌّ \* وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ \*  
حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ \* فَتَوَلَّى عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَكْرٍ \* خُشَعًا  
أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ \* مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ  
الْكَاغِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ \* كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ  
وَأَزْدُجِرَ \* فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ \* فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ \* وَفَجَّرْنَا  
الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ \* وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوَاحِ وَدُسِّرَ \* تَجَرَّى  
بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ \* وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّيرٍ \* فَكَيْفَ كَانَ  
عَذَابِي وَنُذُرٍ \* وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّيرٍ \* كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ  
كَانَ عَذَابِي وَنُذُرٍ \* إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ \* تَنْزِعُ  
النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَجْحَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ \* فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرٍ \* وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ  
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّيرٍ \* كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ \* فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا  
إِذَا لَنِي ضَلَالٍ وَسُومٍ \* أَهْلَقْنَاهُ أَكْثَرُ عَلَيْهِ مِنْ يَنِينَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ \* سَيَعْلَمُونَ  
غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ \* إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَأَرْتَقِبْهُمْ وَأَصْطَبِرْ \* وَنَبِّئْهُمْ

أَنْ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ \* فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ \* فَكَيْفَ  
 كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ \* إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيِّحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ \*  
 وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلَّذِي كَرِهَ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ \* كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذْرِ \* إِنَّا أَرْسَلْنَا  
 عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ \* نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ \*  
 وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذْرِ \* وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ صَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا  
 عَذَابِي وَنُذْرٍ \* وَلَقَدْ صَبَّحَهُمُ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ \* فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ \* وَلَقَدْ  
 يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلَّذِي كَرِهَ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ \* وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذْرُ \* كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا  
 كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ \* أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكَكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ  
 فِي الزُّبُرِ \* أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ \* سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُوثَلُونَ الدُّبُرُ \* بَلِ السَّاعَةُ  
 مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ \* إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ \* يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي  
 النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ \* إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ \* وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا  
 وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ \* وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ \* وَكُلُّ شَيْءٍ  
 فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ \* وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ \* إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ \* فِي مَقْعَدِ  
 صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ \*

### هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأول في تفسير البسملة .

القسم الثاني : مذكرات بالساعة وعذاب الدنيا بالهلاك من أول السورة إلى قوله « فأخذناهم أخذ

عزيز مقتدر » .

القسم الثالث : توبيخ قريش ، وقياس حالهم على حال الأمم الماضية ، وأنهم سيهزمون كما هزم الأولون

ويدخلون النار كما دخلوا ، من قوله تعالى : « أ كفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر » إلى آخر السورة

### القسم الأول في تفسير البسملة

يجب الانسان من أمر آي القرآن ، وكيف كانت الرحمة المجسمة في الشمس والقمر والنجوم قد ذكرت

في القرآن بهيئة لم يعهد لها العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، يذكر الله الشمس فيقول : [ والشمس وضحاها ]

ويدكر النجم فيقول : [ والنجم اذا هوى ] ويدكر القمر فيقول عطفًا على [ والشمس وضحاها ] ، والقمر

إذا تلاها [ رجة عامة ظاهرة واضحة مجسمة ، لذلك يكرر الرجة في أول كل سورة ليلفت نظرنا إلى رجحات مجسمة وغير مجسمة ، ومن غير المجسمة ما جاء في هذه السورة من العبر والحكم والمواعظ والآيات اليبينات . سبحانك اللهم وبحمدك جعلت الرجة تحيط بنا من بين أيدينا ومن خلفنا ، وعن أيماننا وعن شمائلنا . الله أكبر . الله أكبر : رباه : ظهرت أنوارك ولكنها غشت على عقولنا لأنها أنوار لا حد لها ولا نهاية ، شمس وقر ونجوم وجمال وبهاء وعجائب تنلونها عجائب ، ولكن لما كانت العقول خامدة ، والنفوس جامدة ، منحها نعماً على قدر طاقتها ، وهى عبر التاريخ وبدائع السير ونظام الأمم ، فأخذ يتحدثنا بتاريخ من قبلنا ، فذكر تلك الأمم البائدة التى قرعت أسماع العرب من قوم نوح وعاد وقوم لوط وآل فرعون أخذ يتحدثهم بما يعرفون وليس مما ينفعهم أو يؤثر فيهم أن يذكر لهم أمم الصين ، أو أهل استراليا ، أو أهل أوروبا ، فهو لاه لا علم لهم بتلك الأمم فلم يكن هناك بد من تذكيرهم بما يأتون ، وإعلامهم بما يفعلون .

فسبحانك اللهم جعلت السابقين عبرة اللاحقين ، والأولين نبراس الآخرين ، إن ذكر هذه الأمم فتح لباب علم التاريخ ، يرشد الله المسلمين إلى الاعتبار بتاريخ كل أمة من الأمم السابقة واللاحقة شرقاً وغرباً ، فليس ذكر قوم نوح وعاد وثمود بقيد في علم التاريخ كما لم يكن ذكر الإبل وخلقتها والسماء ورفعتها والجبال ونصبها ، والأرض ونظامها مقيداً للأمم الاسلام بهذه المخلوقات ، بل إن هذه أمثلة ونماذج لعلم التاريخ والاتعاظ والائناس بحوادثه المختلفة ليعتبر الخلف بالسلف ، ويقنطدى الآخرون بالأولين ، واللاحقون بالسابقين ، ومتى درسوا هذه الدنيا عرفوا أنها منتظمة ، وأن كل شئ موزون بميزان لا يخس فيه ، وعلى ذلك النظام ستهزم الجوع الكافرة كما انهزم من قبلهم أمام جيوش الأنبياء السابقين « سبهزم الجمع ويولون الدبر » .

ونتيجة ذلك النظام كله أن يقرب الناس من ربهم متى عرفوا أن عمله متقن وأدركته عقولهم ، وذلك القرب بالعلم والمكاتب لا قرب بالمكان ، والنهاية أن يكون الانسان فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وهذه نهاية السعادات فى الحياة الدنيا والآخرة ، فأما فى الدنيا فإن الناس جميعاً فى حيرة مغمورون إلا طائفة واحدة وهى التى أدركت هذا النظام وأعجبت به ، ولن يكون فى حضرة الملك القدوس إلا هذه الطائفة ، أما بقية الناس فانهم إما فى جنة ولا يرون الله إلا على مقدار ما عرفوا ، وإما فى نار وهم عنه محجوبون ، والحمد لله رب العالمين . انتهى الكلام على القسم الأول فى تفسير البسمة . كتب ظهر يوم الثلاثاء ١٦ أغسطس سنة ١٩٣٢ م — ١٥ ربيع الثانى ١٣٥١ هـ

## القسم الثانى : مذكرات بالساعة وعذاب الدنيا بالهلاك

### التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(اقتربت الساعة وانشق القمر) أى سينشق يوم القيامة ، وأنه قد انشق كما روى عن أنس أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر مرتين : أخرجه البخارى ومسلم [ وكيفية ذلك ] أنه انشق فلقين : فلقه فوق الجبل ، وفلقه دونه ، ومعنى هذا أنه يقول سبحانه : قربت القيامة ، وها هو ذا القمر انشق من الآن كما تقول : أقبل الأمير وقد جاء البشر بقدمه ، فإن انشقاق القمر دلالة على ما سيؤول إليه حال العوالم العلوية والسفلية فإن ما لها الانحلال واليبوار . يقول الله : انظروا أيها الناس ، انكم تظنون السكواكب والشمس والقمر لا يعثر بها البلى ، إن القمر يقبل الفناء ، والدليل على ذلك انشقاقه

الذي استبان لكم ليدلكم على أنه سيبيد من الوجود كما تبديد أرضكم ، والممكنات بأسرها تقبل القضاء .  
يقول المؤلف : ومن عجب أن علماء الهيئة في العلم الحديث لم يذكرُوا أن شيئاً اشتق من الأرض إلا القمر ، ويقولون أنه أثناء دورانها قديماً انحلت عنها ودار حولها ، وهذا أيضاً نوع من الانشقاق ، ولكنه انشق من غيره ، وانشقاق القمر من الأرض دليل على أن الأرض تبدل غير الأرض والسموات ، فاذن يكون انشقاق القمر في القرآن من المعجزات العلمية لأم من حيث أن قرىشا رأوه منشقا وجبل حراء بين فلقتيه على رواية ابن مسعود فحسب ، بل إن هذا الذي حصل زمن النبوة تذكرة باشتقاقه من الأرض وانفصاله عنها ، فكما انشق القمر نصفين هكذا كان هو مع الأرض سابقا وانشقت الأرض فانفصل عنها القمر ، ومعنى هذا تجزؤ المادة وفناؤها وذهابها وتبدلها ، هذا ما تشير له الآية والأفلاذ خاصة القمر بالانشقاق ؟ ولماذا لم يختر الله له الشمس أو كوكبا من الكواكب ذلك لهذه السكنة وهو أن القمر هو محل البحث الحديث ، وأن له انشقاقا عن غيره ، فانشقاقه شقين على الجبل ودونه يشير إلى ما كان له قبل ذلك من اشتقاقه من الأرض ، ويكون ذلك من دواعي العلم والكشف والبحث ، فانظر كيف جاء في هذه السور : البحر المسجور تحت الأرض ، والقمر المنشق من الأرض ، والرق المنشور إشارة لعصر الورق وعصر المدنية والعلم ، والبيت المعمور إشارة إلى العوالم التي كشف الناس بعضها ، كل ذلك تذكرة للمسلمين الناعمين الآن ، المستيقظين في مستقبل الزمان ، فهذه كلها محرمات على العلم مشوقات له ، وسيقوم بهذه العلوم أبناء أمة الاسلام في مستقبل الزمان ، انشقاق القمر فتح لباب العلم والبحث في أصل الأرض وأصل القمر ، وكل ذلك واجب على أمة الاسلام (وان يروا آية يعرضوا) عن تأملها (ويقولوا سحر مستمر) مطرد ، وذلك أنهم رأوا آيات متتابعات فلم يعيروها التناغا (وكذبوا) النبي ﷺ (واتبعوا أهواءهم) وهو ما زين لهم الشيطان من رد الحق الظاهر (وكل أمر مستقر) كل شيء ينتهي إلى غاية تناسبه فأمركم ينتهي إلى غاية من الخذلان والعذاب في الآخرة ، وأمر محمد صلى الله عليه وسلم ينتهي إلى نصر في الدنيا وجنة في الآخرة ، وكل حركات الأفلاك ، ونظام العمران ، وأعمال الأمم ، ونظام الانسان والحيوان والنبات ، كل ذلك داخل في هذه القاعدة ، فلكل من هذه غاية ينتهي إليها ، وهذه من جوامع الحكم وعجائب الحكم ، فقضية النبي ﷺ وقضية المشركين داخلتان في هذه القاعدة العامة ولذلك أعقبها بقوله (ولقد جاءهم من الأنبياء) أي جاءهم في القرآن من أنبياء القرون الخالية وأنبياء يوم القيامة (ما فيه مزدجر) اردجار من تعذيب العاصين يوم الدين وهلاك دولهم في الدنيا ، وأبدل من [ما] قوله (حكمة بالغة) غايتها لاخلل فيها ، والمخلص أن كل أمر ينتهي إلى غاية ، ومن تلك الامور المنتهية إلى غاياتها ما يتلى في كتاب الله من العذاب الذي يزجر من يعتبر ، ومن الحكمة المنتهية إلى غايتها مصداقا لما ذكر من أن كل شيء ينتهي إلى غاية تناسبه ، ومع ذلك لم يتعظوا وهو قوله (فما تنع النذر) أي فأى غنى تغنى النذر ، جمع نذير بمعنى المندر ، اذا علمت أن الانذار لا يفيدهم (فتول عنهم) واذكر (يوم يدع الداع) أسقطت الياء اكتفاء بالكسرة والدعاء هنا بمعنى الأمر كقوله تعالى «كن فيكون» أو الداعي اسرافيل (إلى شيء نكر) فظيع تنكره النفوس لأنها لا عهد لها بمثلها ، وهو أهوال يوم القيامة (خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث) أي يخرجون من قبورهم ذليلا أبصارهم من الهول ، فخشعا حال من الواو ، وتقول خاشعا أبصارهم كما تقول يخشع أبصارهم ، وقرئ خاشعة أبصارهم ، وأما قراءة خشعا أبصارهم فهي على لغة أكلوني البراغيث كأنك قلت : يخشعن أبصارهم ، وقوله (كأنهم جراد منتشر) في كثيرهم وتموجهم وانتشارهم في الأمكنة (مطعين إلى الداع) مسرعين ماذى أعناقهم إليه مقبلين (يقول الكافرون هذا يوم عسر) صعب (كذبت قباهم قوم نوح) قبل قومك (فكذبوا عبدا) نوحا عليه السلام ،



وهذا تفصيل بعد اجمال (وقالوا مجنون) أى هو مجنون (وازددجر) أى وزجر عن التبليغ بأنواع الأذى (فدعاريه أنى) بأنى (مغلوب) غلبنى قوى (فانتصر) فانتقم لى منهم ، وذلك بعد أن يثس منهم (ففتحننا أبواب السماء بماء منهمر) منصب ، وهذه الجملة مبالغة وتمثيل لكثرة الأمطار وشدة انصبابها (وجفنا الأرض عيوننا) أى وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون متفجرة ، وفى هيئة الاعراب عند النجاة يقال أصلها جفنا عيون الأرض فعدل عنها إلى ما يفيد المبالغة (فالتقى الماء) ماء السماء وماء الأرض وقرىء الماء ان (على أمر قد قدر) على أمر قد قدره الله وهو هلاك قوم نوح بالطوفان (وجملناه على ذات ألواح ودسر) هذا من فصيح الكلام وبديعه إذ جعلت الصفة القائمة مقام الموصوف نائبة عنه فأدّت مؤداه ، وذكر الصفة التى على هذا المنوال أبلغ من ذكر الموصوف ، فقولا قيصى مسرودة من حديد أبلغ من قولك قيصى درع ، فهكذا هنا ذات ألواح ودسر [جمع دسار ، وهو المسار من الدسر وهو الدفع لأنه يدفع منفذه] أبلغ من سفينة ، وقوله (تجرى بأعيننا) أى تجرى حال كونها محفوظة بنا ، لأنها إذا كانت بمرآنا فهي فى حفظنا ، وإنما فعلنا ذلك (جزاء لمن كان كافر) وهونوح ، لأن النبى نعمة من الله ورحمة ، فاذن نوح نعمة مكفورة (ولقد تركناها) أى السفينة ، أو الفعلة أى جعلناها (آية) يعتبر بها إذ شاع خبرها واشتهر أمرها (فهل من مدكر) معتبر (فكيف كان عذابى ونذر) جمع نذير وهو الانذار : أى فانظر يا محمد كيف كان عذابى ، وكيف كان حال انذارى هؤلاء الذين أنذرهم نوح ؟ ألم يتم نصرى لنوح الذى أنذرهم وهلاكى لهم لكفرهم ، وذلك من الحكمة السابقة « وكل أمر مستقر » فهكذا ستكون الأمم وأحوالها ، وهكذا عواقب أمورها (ولقد يسرنا القرآن) سهلناه (للدكر) أى ليتذكروا ويعتبر به (فهل من مدكر) أى متعظ بمواعظه (كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر) وانذارى لهم بالعذاب قبل نزوله ، ألم يتم ، ألم يكن مهولا ؟ وكأنه يقال ما هذا العذاب فقال (إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا) باردة أوشديدة الصوت (فى يوم نحس) شؤم (مستور) أى استمر شؤمه فاستمر عليهم حتى أهلكهم (تنزع الناس) تقلعهم من أماكنهم حال كونهم (كأنهم أعجاز) أصول (نخل منقر) منقلع من مغارسه ساقط على الأرض ، وإنما شبهوا بالأعجاز لأن الريح طيرت رؤسهم وطرحت أجسادهم ، والنخل اسم جنس جمى يذكر ويؤث ، فلذلك جاء فى القرآن : « أعجاز نخل خاوية » وجاء هنا « أعجاز نخل منقر » ونظير ما هنا « إليه يصعد الكم الطيب » (فكيف كان عذابى ونذر) كثره لانهويل ، ولأن لهم عذابين : أحدهما فى الدنيا ، والثانى فى الآخرة ، وجاء فى قصتهم « لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى » (واند يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ، كذبت ثمود بالنذر) بالانذارات والمواعظ التى جاء بها صالح (فقالوا أبشرا منا) من جنسنا أو من جملتنا (واحدا) منفردا (ننبهه إنا إذا لى ضلال وسعر) الضلال الخطأ والسعر الجنون ، ومنه ناقة مسعورة وهذه الكلمة مستعملة اليوم عند العامة فى أمتنا المصرية بهذا المعنى (والقى الذكر عليه من بيننا) وكيف يكون كذلك وفيما من هو أحق منه به (بل هو كذاب أشر) حمله البطار على الترفع علينا بادعائه الوحي فقال الله تعالى على لسان صالح عليه السلام (سيعلمون غدا) عند نزول العذاب بهم فى الدنيا ويوم القيامة (من الكذاب الأشر) الذى حمله أشره على الاستكبار عن الحق وطلب الباطل أصالح أم من كذبه ؟ (إنا مرسلوا الناقة) مخرجوها وباعثوها (فتنة لهم) استحانا لهم لأننا نمتحن بالنعيم والنقم (فارتقبهم) فانظرهم وانظر ماذا يصنعون أيشكرون أم يكفرون (واصطبر) على أذاهم (ونبئهم أن الماء قسمة بينهم) مقسوم بينهم ، وفيه تغليب العقلاء على غيرهم فللناقة يوم ولهم يوم (كل شرب محتضر) أى محضور يحضره صاحبه فى نوبته ، يحضر القوم الشرب يوما وتحضر الناقة يوما كفاى آية أخرى « لها شرب ولكم شرب يوم معلوم »

ثم سثموا النعمة (فنادوا صاحبهم) قدار بن سالف أحيمر ثمود (فتعاطى) فاجترأ على تعاطى الأمر العظيم غير مكترث له (ففقّر) الناقة، أو فتعاطى السيف الخ (فكيف كان عذابي ونذر، إنا أرسلنا عليهم) في اليوم الرابع من عقرها (صيحة واحدة) صاح بهم جبريل (فكانوا كهشيم المحتظر) أى كالحشيش اليابس الذى يجمعه صاحب الحظيرة لما شيته . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : هو الرجل يحظر لغنمه حظيرة من الشجر والشوك دون السباع فما سقط من ذلك فداسته الغنم فهو الهشيم ، والمعنى أنهم صاروا كيابس الشجر اذا بلى وتحطم (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر، كذبت قوم لوط بالنذر، إنا أرسلنا عليهم حاصبا) أى الحصباء وهى الحجارة دون الكف ، وقد يراد بالحاصب الرامى : أى أرسلنا عليهم عذابا يحصبهم أى يرميهم بالحصباء (إلا آل لوط نجيناهم بسحر) أى فى سحر ، وهو آخر الليل (نعمة من عندنا) أى انعامنا (كذلك نجزي من شكر) نعمتنا بالإيمان والطاعة (ولقد أنذرهم) لوط (بطشنا) أخذتنا بالعذاب (فتماروا بالنذر) فشكوا بالانذارات ولم يصدقوا (ولقد راودوه عن ضيفه) أى طلبوا منه أن يسلم إليهم أضيفه لما يقبض فعليه (فطمسنا أعينهم) فمسحناها وسويناها كسائر الوجوه ، وذلك لما دخلوا داره عنوة ، أو طمس الله أبصارهم فلم يروا الرسل فقالوا لقد رأيناهم حين دخلوا فأين ذهبوا ؟ قال تعالى (فذوقوا عذابي ونذر) أى ما أنذرهم به لوط من العذاب (ولقد صبحهم بكرة) أى جاءهم وقت الصبح (عذاب مستقر) أى دائم : أى استقر فيهم حتى أفضى بهم إلى الهلاك (فذوقوا عذابي ونذر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) تكرار هذه وتكرار أمثالها فى القرآن كما فى [سورة الرحمن] الآتية للايقاظ والتنبية وهذا كثير فى كلام العرب كقوله :

قرّبا مربط النعامة منى \* لفتح حرب وائل عن حبالى

قرّبا مربط النعامة منى \* شاب رأسى وأنكرتنى عيالى

وهى طويلة على هذا النسق ، وهذا التكرار يكون فى الأمر العظيم كما هنا ، فقوله ، « ويل يومئذ للكاذبين » ، وقوله : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » عند النعم فى الأول ، والنعم فى الثانى من هذا القليل وذلك لتكون العبرة حاضرة عند السامع مصورة فى الأذهان ، وكذلك تكون صور النعم غير منسية . ثم قال تعالى (ولقد جاء آل فرعون النذر) وفرعون أيضا من باب أولى (كذبوا بآياتنا كلها) وهى الآيات التسع (فأخذناهم أخذ عزيز) لا يغلب ولا يغالب (مقتدر) لا يعجزه شئ . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثانى من السورة .

### القسم الثالث : توبيخ قريش وقياس حالهم على حال الأمم الماضية

وأنهم سيهزمون كما هزم الأولون ويدخلون النار كما دخلوا

قال تعالى (أ كفاركم) يامعشر العرب (خير من أولئكم) أى أقوى وأشد من الذين أحالت بهم نعمتى مثل قوم نوح ومن بعدهم (أم لكم براة) من العذاب (فى الزبر) أى فى الكتب أنه لن يصيبكم ما أصابهم (أم يقولون) أى كفار مكة (نحن جيع) جماعة أمرنا مجتمع (منتصر) ممتنع لانزام ولا نضام ، أنذر الله الأمم السالفة وتم ما أنذره هكذا هنا يقول سبحانه (سيهزم الجمع ويولون الدبر) أى الادبار فكل واحد يولى دبره ، وهذا من دلائل النبوة فانهم هزموا يوم بدر وما بعده ، ولم يكن له صلى الله عليه وسلم فى مكة جيش بل كان أتباعه مشردين فى الآفاق ومعذب بعضهم . قال عمر رضى الله تعالى عنه : لما نزلت لم أعلم ماهى ؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس الدرع

ويقول « سبهم الجمع » فعلمته . أقول : وليس ذلك قاصرا على يوم بدر بل استمر انهمامهم (بل الساعة موعدهم) موعد عذابهم الأصلي ، وعذاب الدنيا كالقدمة لعذاب الآخرة (والساعة أدهى) أشد وأعظم داهية من الأسر والقتل يوم بدر وما بعده ، والداهية أمر فظيع لا يهتدى لدوائه (وأمر) مذاقا من عذاب الدنيا (إن المجرمين في ضلال) عن الحق في الدنيا (وسعر) ونيران في الآخرة (يوم يسحبون في النار) يحرقون فيها (على وجوههم) ويقال لهم (ذوقوا مس سقر) أي ذوقوا حر النار وألمها ، فإن مسها سبب للتألم ، وسقر علم على جهنم ، تقول سقرته النار وصقرته إذا لوحته (إنا كل شيء خلقناه بقدر) أي مقدرًا مرتبا على مقتضى الحكمة ، وهذا يقرب من قوله فيما تقدم : « وكل أمر مستقر » وأتبع تلك الحكمة بقصص الأمم وختمها بانذار أهل مكة ، ولما أتم ذلك ذكر النتيجة . فقال : إن كل شيء مرتب على مقتضى الحكمة ، فالأول كأنه قضية يراد الاستدلال عليها ، ولما ذكر قصصهم وانذار مشركي مكة ذكر الحكمة إشارة لسطوع البرهان وظهور النتيجة ، وهذا كقوله تعالى : « ما نرى في خلق الرحمن من تفاوت » فالعوالم متشابهة ، وأحوال الأمم متشابهة ، فالصلحون كلهم نافذة منصورون ، والفسدون مقهورون معذبون ، ثم أعقبه بأن هذا يسير عليه فقال (وما أمرنا إلا واحدة) فعلة واحدة ، وهو الإيجاد بالامعالة ومعانة ، أو إلا كلمة واحدة (كلح بالبصر) في اليسر والسرعة ، ومنه أمر الساعة فهو كل مع البصر ، وإذا ثبت لديكم أن كل أمر مستقر ، وأن كل شيء خلقناه بقدر ونظام وحكمة بما قصصناه عليكم من أمر الأمم فكيف تغفلون ولا تنتظون بعد ثبوت هذه الحكمة ؟ وهذا قوله (واقدا أهلكنا أشياعكم) أشباهكم في الكفر كما قصصناه (فهل من مذكر) متعظ (وكل شيء فعلاه في الزبر) مكتوب في كتب الحفظ (وكل صغير وكبير) من الأعمال (مستطر) مسطور في اللوح (إن المتقين في جنات ونهر) كسب أي أنهار ، وإنما وحده لموافقة رموس الآي ، وهي أنهار الجنة المتقدمة في [سورة القتال] وقرئ كجنب جمع نهر (في مقعد صدق) في مكان مرضى ، أوفى مجلس حق لا لغوفيه ولا تأنيب ولا كذب لأن الله صادق فن وصل إليه امتنع عليه الكذب فهو في مقعد صدق (عند ملك مقدر) مقررين عند من تعالى أمره في الملك والاقدار ، وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » فهؤلاء هم الذين يحظون بالقرب من ربهم . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

### لطائف هذه السورة

اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « واقدا يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » .

اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » .

اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « وما أمرنا إلا واحدة كلح بالبصر » .

اللطيفة الأولى في قوله تعالى : ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم إنا نحمدك على ما منحتنا من العلم ، وحبوتنا من التيسير ، وأفضت من الخير علينا وعلى المسلمين في سائر الأقطار في هذا الزمان الذي به أشرق نور الاسلام وازدهر ، وظهر نوره وانتشر ، وأشرقت أرض الاسلام بنور ربها ، وأظهرت أسرارها من الفرقان وعلومها من العرفان لأمة الاسلام تناسب حالها ، وتنشأها من هديتها ، وتوقظها من غفلتها ، وترفعها من كبوتها ، وتطلقها من عقابها ، ونهديها إلى سواء الصراط .

أقصى اليوم السبت ١٢ ديسمبر سنة ١٩٣١ م قصص ما كان بيني وبين صديقي العالم الذي اعتاد أن يحدثني في هذا التفسير ، إذ حضر الليلة وأفاض على من الأسئلة ، وكانني فوق طاقتي من المباحث ، ولكني والحمد لله استعنت به سبحانه وأجبت به قدر طاقتي « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » وسيظهر في الأمم الإسلامية بعدنا أناس لهم قدم صدق وخبرة وحكمة في كل زمان بحسبه ، فالله لا يظهر الحكم والعلوم إلا مناسبة لزمان ظهورها .

قل صديقي العالم : إني قرأت اليوم [ سورة القمر ] فوجدت الله تعالى يقول في سفينة نوح : « ولقد تركناها آية فهل من مدكر » . ويقول : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » وهكذا يقول في آخر قصة فرعون وعاد ، وفي قصة نوح ، وفي قصة قوم لوط ، ثم أعاد آية : « فهل من مدكر » عند قوله « ولقد أهلكنا أشياعكم » كرر التذكير وطلبه سبع مرات بهيئة الاستفهام المقصود به الأمر ، وهذا أبلغ في طلبه ، والقرآن جاء هدينا نحن ، وإذا نحن أمرنا أن نفكر في سفينة نوح وأن الله تركها لنا آية ، وفي هلاك من كذبوا من أمته ، وفي قوم فرعون وهلاكهم ، وقوم عاد وثمود ولوط وجيع الأمم التي كذبت ، وهذه كلها غائبة عنا وتذكيرنا بها نافع ، أفليس هذا يكون داعيا حثيثا بالأولى أن نفكر فيما هو محيط بنا .

الله أكبر : إن هذه السورة فتحت لنا من العلم أبوابا ، فتحت لنا أبواب العلم على مصراعها ، جل الله جل الله ، إن كل ما فيها تاريخ قديم ، والتاريخ القديم اتبعه ما بعده وامتد الأمر إلى زماننا هذا ، إن الله عز وجل هو الذي أمرنا بالاعتبار بتاريخ الفراعنة وهلاكهم بعد قوم نوح وهلاكهم ( وبعبارة أوضح وأبين ) أن المسلمين في زماننا يجب عليهم أن يعتبروا بقدماء المصريين ويدرسوا تاريخهم ، وتاريخهم تقدم منه شيء في هذا التفسير ليكون أنس لقراءته ، وفيه عجائب دول المصريين القدماء من حيث تطوار أحوالهم من الأحسن إلى الحسن إلى الرديء ، وقد كانت كبوتهم وزوال ملكهم تابعين لانحرافهم وسوء سلوكهم ، وهذا تقدم في سور كثيرة ومنها سورة غافر عند آية مؤمن آل فرعون ، وهكذا بلاد حضرموت التي تقدم وصفها في سورة الأحقاف ، وكيف كان بها قوم عاد ، وأن آثارهم باقية ، وهناك قبر هود عليه السلام ، والمسلمون جميعا مقصرون لأنهم لم يرسلوا من يفك تلك الرموز التي في ذلك القبر كما أخبرني بذلك من شاهده هناك ، وكذلك قبر صالح عليه السلام في تلك البلاد ، فهذه الأمم التي بقيت آثارها يجب استقصاؤها بالدرس لمعرفة علومها والاتفاع بها ، وكيف تدهورت واضمحلت حتى نجتنب نحن ما وقعت فيه تلك الأمم بالتفصيل ، أما الاجال فلاخير فيه ، فالادكار المذكور في الآية يستحيل أن ناله إلا بالتفصيل ، أما الاجال فهو مقفل الأبواب معطل الحكمة ، والتفصيل هو الخير وهو العلم والحكمة .

هذه الآراء أذكرها الآن لأني فهمتها من سابق هذا التفسير ، فإن ماضى من التفسير يجعلني أفهم هذه الآية على هذا الوجه ، وأقول : إن أم الإسلام المستقبلية ستكون فيها جماعات مختلفات موزعات على العلوم لكل طائفة منها جماعة تدرسها ، هذا هو الذي سيكون ، وإنما قلت أنه سيكون لأن ذلك تكرر مرارا في هذا التفسير والمسلمون يقرءونه ، فهم لا جرم سيقومون بهذا الأمر وهو توزيع العلوم على جماعات مستعدات للدرس الخاص ، فأنا من هذه الوجهة مطمئن على تلك الأمم الإسلامية المستقبلية ، إنما الذي أريد أن أسأل فيه اليوم [ أمران : الأمر الأول ] ما أشاهده في مصر من أن المسلمين قد جعلوا قراءة القرآن ذات هيئة خاصة في ولائهم وأعراسهم وختان أبنائهم ، وكذلك إذا استهلّت أطفالهم بالولادة ، أو مات أحياؤهم ، فاني أراهم قد جعلوا أناسا اختصوا بالقراءة في هذه الأحوال بأجر معين ، فالولادة والموت ووليمة العرس والختان وغيرها كل هذه يقرأ القرآن فيها أناس مختصون ، فالقراءة حرفتهم والناس يسمعونها لاسيما إذا كانت تلك

بصوت حسن ، فهل هذا من الذكر المذكور في الآيات ؟ هذا هو الأمر الأول . أما الأمر الثاني فهو ما نسمعه عن الصوفية أو نقرؤه في كتبهم من ذكر آيات أشبه برمز لبعض المعاني الدقيقة ، فهذا أيضا من الذكر المذكور في الآية إذ يقول : « فهل من مدكر » وكيف يكون ذلك الذكر ؟ وإذا كنا مأمورين أن نذكر آل فرعون وعاد وثمود وغيرهم من الأمم البائدة أفلا نتذكر ونتدبر أمر هؤلاء الأولياء الذين هم أقرب إلينا وكتبهم بين أيدينا ومن هم أحياء الآن وهكذا قراءة القرآن المتقدمة في الأمر الأول فيجب علينا أن نتذكر ونتدبر في أمر هذه كل بحسب حالها فما كان منها ضارًا اجتنبناه ، وما كان منها نافعًا قبلناه ، ومما قرأته من كلام هؤلاء الصالحين ما جاء في كتاب [ درر الغواص ، على فتاوى سيدي الخواص ] تأليف الشيخ عبد الوهاب الشعراني ، فهذا الكتاب وغيره يقرؤه المسلمون ويجدون آيات لا مناسبة بينها وبين المعاني التي سبقت الآية لأجلها ، فهل هذا إذ كرام هو أمر لا يليق بكتاب الله ؟ فهنا يجب تمحيص الحقيقة لأن هذا الزمان زمان مبدأ ظهور الحقائق ، ومن ذلك ما يقوله الصالحون ، ومنه ما هو مشاهد في عمل العامة في الأمر الأول ، فالذي نشاهده في مصر من قراءة القرآن يجب درسه ، والذي نسمعه عن الأولياء يجب تمحيصه بقدر الامكان ، ولقد جاء في كتاب [ درر الغواص ] ما خواه :

(١) أولا : ان الشيخ الشعراني سأل الشيخ الخواص الذي كان رجلا أميا لا يقرأ ولا يكتب عن الخواطر القبيحة هل تقع للخواص كما تقع للعوام ؟ فقال له . كلا . إن الخواص لا يشاركون العامة في خواطرهم التي تطرقهم ، ووصف أكل الخواص بأنه له النصيب الأتم من مقام العبودية لأنه منزّه من أن ينحصر في وصف دون آخر من حال أو مقام ، قال تعالى : [ يا أهل يثرب لا مقام لكم ] . هذا كلام الخواص للشيخ الشعراني ، ثم استمر صاحبي في حديثه قائلا : أين الآية وأين الكلام في وصف العارف ؟ هل معنى الآية ينطبق على ذلك ؟ والآية في واد ووصف العارف في واد آخر هل هكذا يكون الذكر ؟ وهل هذا تفسير القرآن للذكر ؟ وهل يكون ذكر القرآن بأمر هو براء منها ؟ فأين الثريا وأين الثرى ؟ مدينة يثرب معروفة ، والآية سبقت لأحوال العارف ، والقصة في غزوة الأحزاب ، وفي سورة الأحزاب ، كل هذه أمور متناقضات لابد من تمحيصها حتى نفهم هذه السورة وكيف يقول الله : [ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ] . أهكذا يكون تذكر الخواص من أمتنا ! .

(٢) يقول الشعراني : سألته رضى الله عنه عن قوله صلى الله عليه وسلم : [ الجنة تشاق إلى أربع : عليّ ، وعمار ، وسلمان ، وبلال ] ما حكمة تخصيص هذه الأربعة ؟ فأفاده الخواص بأن العلوّ والعمارة والسلامة من الآفات والبله ، وهي برد القلب من خطور زوال ذلك النعيم ، هذه المعاني الأربعة هي أركان نعيم الجنة ، وانهم لا يتم نعيمهم إلا بها ، وهؤلاء الأربعة هم الموكلون بالأنهار الأربعة التي هي مظاهر العلوم والأعمال المكسوبة والموهوبة .

(٣) ثم قال : ويوضح ذلك [ وان الدار الآخرة لى الحيوان لو كانوا يعلمون ] فأين عليّ وعمار وسلمان وبلال .

(٤) وأين أنهار الجنة والعلوم والمعارف والأعمال المكسوبة والموهوبة ؟ وأين هؤلاء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وآية : [ وان الدار الآخرة لى الحيوان ] أمور متباعدة قرنت معا .

(٥) وسأله عن حقيقة الشجرة التي أكل منها آدم عليه السلام فقال هي الأفعال المقابلة لما عليه الأنبياء وكل ورثتهم من كمال الأفعال والأخلاق ، والسر في ذلك اظهار منة الله على العبد ، وحلمه عليه



لاغير ، والكل منه واليه ، لكن لا يخفى تفاوت الناس في الذنوب ، فربما كان ما تقرب به عبد يتوب منه عبد آخر ، فأين الشجرة التي في الجنة ؟ وأين أفعالنا نحن المغايرة لأخلاق الأنبياء ؟ وكيف يجعل الأكل من الشجرة نفس ذنوبنا نحن وأعمالنا ؟ هذا أمر غير ما يقول القرآن ، فهل هذا ذكر ؟ وهل هذا ينطبق عليه قوله تعالى : « فهل من مذكر » فأين الذاكر هنا ؟ .

(٦) وسأله الشعرائي : أيصغى لمدح من يمدحه ؟ فأجاب بقوله : لا تركن قط إلى من يمدحك فان النفس تألف ذلك وأنت لا تشعر ، وكل شيء ألفته نفسك تخلفت به عن الحقوق والتخلق بأداب العبودية اتى من شأنها فقرك دائماً وغنى ربك دائماً ، إذ لا كمال يدعيه الانسان إلا وهو في الحقيقة لله وهو في ذلك منازع لأوصاف الربوبية من حيث لا يشعر ، فخاله كحال فرعون والفرزد وسواه ، حيث ادعى ماليس لهما من صفات ربهما ، وكان ذلك سبباً لهلاكهما ، وقد وقع التوبيخ الإلهي لمن يدعى ماليس له بقوله تعالى : « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » . وقال : « يامعشر الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السموات والأرض فانفذوا » كل ذلك جاء اعلاماً للعبيد أن ينتبهوا لأنفسهم ويعترفوا بالعجز والذل والمسكنة ، وأن لا يتعدوا صفات العبودية التي خلقوا لها ، والله أعلم اه — ثم قال صاحبي : فأين آية يأمرنا الله فيها بالعبادة وترك مدح المادحين ؟ أفليس هذا اتساع في معنى الآية غير مألوف .

(٧) ثم قال : وقد سأله بلسان الافتقار عن الأحدية السارية في الوجود ، ولشدة ظهورها مع صفاتها ( ظهور الأحدية وصفاتها قد ظهر بعض سرتها في سابق هذا التفسير ) فأجاب بقوله : [ أها ] ثم سكت وقال [ كم ] ثم [ التكاثر ] ففهمت ، فأين آية [ أها كم التكاثر ] ومعنى سرّ الأحدية التي ظهرت في كل مخلوق ، ولكن غفل عنها أكثر الناس مع أن الآية واردة في التكاثر في الأموال والأولاد ، ووحدة الله السارية في الوجود المشرقة للخواص أمر آخر غير الوارد في الآية .

(٨) ثم سأله عن سبب تنوع طرق الأولياء وكثرتها مع ان المطلوب عند الجميع واحد لا تصح فيه القسمة ولا يقبلها . فقال : إنما تعددت الطرق لتعدد القوابل والاستعدادات لأنه لا يدرك الاثنان بصفة واحدة أبداً ، ومحال أن يوجد الحق عند واحد ويكون مفقوداً عند آخر كما أشار إلى ذلك قوله تعالى : « كل يوم هو في شأن » واليوم هو الزمن الفرد الذي لا يدرك ، وكذلك أشار إليه قوله تعالى : « ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما » فان الرحمة غير الذات والعلم صفتها ، فآية : « كل يوم هو في شأن » واضحة في نظام هذه العوالم ، أما تنوع المعارف على حسب الاستعداد فذلك مسلك آخر .

(٩) ثم سأله عن خشوع الذاكرين الذي يذهب حالا بعد تمام الذكر ، لماذا يذهب سرّياً ؟ فأجابه بجواب واسع أدخل فيه مسألة كرامات الأولياء ، وأن كثيراً منهم تميل نفوسهم إلى الكرامات ليرتفعوا على أبناء جنسهم ، وهذا من حب النفس ، والحق لا يدرك لمحبة النفس وتكبرها وتلصصها على مراتب الأولياء وإنما يدرك تعالى به فضلاً ، ومنه : « هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم » ، فسأله ما ملة أئبنا ابراهيم ؟ قال التسليم والتفويض لله رب العالمين ثم قال له : ان ستر حالك عنك الآن خير لك ، لأن من أعطى شيئاً من محبوبات النفوس في هذه الدار نقص رأس ماله وخرج من الدنيا بخسارة ، اللهم إلا أن يعطيه الحق ابتداء من غير ميل للنفس ، فذلك محمول عن صاحبه ، إلى أن قال : فإياك أن تميل إلى شيء تألفه النفس فان السمع

معه ، ولا يعين السم إلا النفس ، وانظر إلى قوله تعالى : « ولا تقربا هذه الشجرة » مع علم آدم عليه السلام بها حال تعليمه الأسماء ، فلما أراد نفوذ قضائه وقدره ألف بينه وبين من كان سببا لأكله من الشجرة وابست إلا حواء الخ .

قال صاحبي لي : فأين ميل النفس إلى الكرامات ؟ وأكل آدم من الشجرة ، وأين آية « هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج » الخ من مسألة ميل النفس إلى الكرامات وظهورها للناس ، هذا ما أردت سؤالك عنه اليوم فأرجو الإجابة ؟ فقلت غدا إن شاء الله عسى الله أن يأتي بالفتح من عنده وهو الفتح العليم .

\*\*\*

حضر صاحبي في العد وأخذ يطالبني بالإجابة على ما سبق في المجلس السابق فقلت له : إن سؤالك أمس يرجع لأمرين : الأول قراءة القرآن المعروفة اليوم بين المسلمين في الطرقات وفي المنازل والمقابر وفي الختان والولادة والموت وما أشبه ذلك ، وجوابه أن أقول :

أيها الأخ الذكي : لقد كنت أيام الشباب أقف وأنا مدرس بمدرسة الجيزة الأميرية على شاطئ ترعة هناك وسط المزارع الجلية ، وأفكر في أمر الديانات واختلافها وكثرتها ، ثم في أمر الفرق الإسلامية وتشعبها وأقول : كيف يكون من الديانات ما يحصر الفكر ويضرب العقل ، ومنها ما يسرع برقي الأمم ، ومن الديانات ما هو أرفعها وأصلحها ولكن أهلها جاهلون فيرجعون لطريقتهم ، ويجعلونه على حسب مألوفهم ، فما كنت أتم ذلك حتى رأيت الجواب في الحقول ، وكأن الزرع والشجر تخاطبني قائلات : اتنا نحن ثلاثة فرق : فرقة للغذاء وفرقة للدواء وفرقة للهلاك ، فأكثرنا غذاء ، وأندرنا للهلاك بالمواد السمية ، والقليل للدواء . القمح للغذاء الخروع للدواء ، المواد السمية للهلاك ، ولكل منا منزلة خاصة لفائدة شريفة ، وحذف أحدا من الوجود نقص في الطبيعة وخلل في النظام .

ثم انظر إلى هذه البرك والمستنقعات : ألسنت ترى فيها حشرات وهوام وحشائش قدرة في مأنها الراكدة ومع ذلك تكون هذه الحشائش مأوى لتلك الحشرات وتلك البرك وما فيها زينة لتلك الحشرات ومصرع وغذاء ومتاع إلى حين ، إن البرك ماؤها ضار ولكن أصله من ماء النيل السعيد المبارك ، فما مثل الديانات إلا كمثل النباتات اختلافا ، فلكل أمة عقائد ألفتها وإن كانت باطلة ، ونحل ورنثها وإن كانت عاطلة ، ومثل اعتنقتها وإن كانت منحرفة ، وهذه العقائد كلما كثرت فيها مناهج الأخلاق كانت أقرب إلى إصلاح تلك الأمم ، وكما كثرت الخرافات والضلالات والتواكل كانت أقرب إلى الإهلاك والتدمير ، فأولى أشبه بالقمح ، والثانية أشبه بالسم في النبات ، وهذه نتائج في النظام العام العقلي كالنتائج المرتبة على النظام النباتي ، والنظامان متناسبان المادى والعقلي .

وأقول الآن : مماثل قراءة القرآن في الطرقات وعلى المقابر وفي حال الختان والولادة والموت وولائم العرس إلا كمثل تلك المستنقعات والبرك التي انقطع النيل عنها وتكاثر فيها أنواع الميكروبات والحشائش والمياه القذرة وصارت تنفع لأدنى الحشرات واطعام الميكروبات ، وإذا أكلت منها الدواب استضرت بالأكل منها وأهلكت بعضها ، فهذه فيها منافع للحشرات ولبعض الحيوانات وللإنسان فإنه يصطاد منها السمك ويقتات به ، ولكن سوائه قد تعرض للخطر بالأكل من تلك الحشائش ، حتى إن الفلاحين في بلادنا المصرية يقولون [ فلان جاموسته مغشوشة ] يريدون بذلك أنهم يجدون بعد ذبحها في بعض أحشائها أنواعا من الدود والحيوانات الرخوة ، كانت تهلك جثانها في حال حياتها ، فهؤلاء الفلاحون إذا ظفروا بكفين على ما هم عليه والذي ألفوه فانهم يأخذون في الانقراض والذل والخضوع ، ولكنهم إذا أصلحوا ترعهم وقناطرهم ،

وسارعوا إلى ادخال ماء النيل في مزارعهم فان الوباء يخف ، والضرر يزول ، وتصلح أرضهم للزراع ، وعقوبهم إلى العلم ، ونسلهم إلى الكمال ، هكذا هذه العادات الموروثة عند بعض أمم الاسلام كأمتنا المصرية فانها اتبعت دين الاسلام الذي نزل في جزيرة العرب ، وجملة أجدادنا ، وعملوا بقوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » ورفع دولهم أيام الصحابة والتابعين ، ولما زال ملك الأمويين وحل محلهم العباسيون ، وحل القرآن أم غير عربية كالغرس والترك ، وذل الناس وخضعوا للانهات ، وتقلص ظل الدين ، وأصبح رسوما مرسومة ، وأقوالا محفوظة ، وطرائق مخصوصة ، ونزع لبها ، وحفظ قشرها ، هنالك أخذ الناس يقلدون الآباء وهم يجهلون علومهم ، ويحفظون القرآن بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير .

فقال صاحبي : إذن أنت تقول ان قراءة القرآن على هذه الشرائط وفي تلك الأحوال المعتادة في أمثال بلادنا المصرية غير مجردة ؟ قلت : انى قد أوضحت بضرب المثل ، وأقول أيضا : إن قراءة القرآن على هذا النمط لها نفع ما ، فان الأموات اذا أحسوا بأن الأحياء يذكرونهم حصل لهم مسرة بذلك ، واذا قرئ القرآن لأجلهم زادت مسرتهم ، هذا حسن ولكن يظهر لى أن هذه الأمة نسبت أصل دينها ، دينها إنما نزل لتذكرا الأحياء وتعليمهم ، وترقيهم واصلاح شئونهم لا إلى الأموات ، وغاية الأمر أنهم لما ماتت نفوس الأحياء حوّلوا القرآن وقراءته للأموات ، فقد فعلوا في أنفسهم ما حكاه لى أحد نظار المكاتب المصرية قبل الاستقلال الداخلى لبلادنا المصرية فى أيامنا هذه ، إذ دخل مفتش انجليزى المدرسة الأولية ، وأخذ يسأل هل عمل ناظر المدرسة بتعليماته ؟ وماهى تعليماته ، انهم فى ألعابهم يمثلون الميت مخمولا على النعش وهم يضحكون ويفعلون قدام نعشه ووراءه مثل ما يفعله الفقهاء من الترتيل والأقوال المعلومة تدريبا لهم على الاستخذاء والاستجداء والذل والمهانة ، واتباع الجنازات ، وتعليمهم أن يكون ما يحفظونه من القرآن وسيلة لطلب الرزق من هذه الناحية إحياء للذل والجهل وامانة للنخوة والعلم ، فهذا تدريب لهم فى حال الصغر منه يضحكون لينشطوا فى دروسهم ، حتى اذا كبروا لم يعوزهم كبير عناء فى الاستباق الى اتباع النعش ، وتحصيل أجور المشى فى تشييع الأموات إلى قبورها ، ومقاضاة الأحياء فى أجورها ، وهذا قصد جميع المستعمرين ، والمستعمرون على قسمين قسم هذا شأنه وهو ظاهر فيما تقدم ، وقسم آخر استعماره خفى ، وهو استعمار الجاهل الذى حاق بالأمم الاسلامية دهورا ، وأناخ بها قرونا ، فأذل الأبناء وأضر البلاد ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، وهذه الطوائف بقيت فى مصر مثلا جعلها الله لنا تذكرة كما جعل اللغة الهيروغليفية عند الأقباط بمصر فى أديرتهم ومحال عبادتهم ، يقرءونها تعبدًا لأجل دينهم ، وهم منهمكون فيها حتى اذا جاء [شامبليون] العالم الفرنسى وحل هذه اللغة وألغازها ، وأعانه على ذلك هؤلاء العباد ( بتشديد الباء ) ففشرها فى العالم كله ، وانتفعت نفس مصر بهذا العمل ، هكذا هذه العادات الموروثة وقراءة القرآن على هذا النمط انما أبقاها الله إلى أيامنا هذه لنفعل ما فعلته بلادنا المصرية إذ ردمت المستنقعات ، وروت البلاد بماء النيل ، وحوّلت تلك البرك إما إلى مزارع نضرة يسقيها ماء النيل ، وإما إلى بيوت وحدائق وجنات وأغاب وفواكه ، فسيحوّل المسامون بعدنا تلك المقارئ وعاداتها إلى أن يقيموا فى تلك الأوقات وعاطا فضلاء ، مدرّبين على إلقاء المواعظ الحسنة ، فيقفون وسط الجوع فى ولائم أفراحهم ، وختان أطفالهم ، وأيام الولادة والوفاة ، ويلقون لهم المواعظ مستشهدين بالقرآن الذى ألفوا سماعه فذلك خير وأبقى ، وذلك كما حوّل أهل بلادنا انبرك إلى مزارع وحوّل شامبليون الفرنسى اللغة الهيروغليفية المحفوظة فى هياكل العبادات إلى لغة تحلّ بها الرموز وتظهر بها الكنوز العلمية ، والأسرار الحكيمة ، المودعة فى النواويس المخبوءة فى المقابر والبرابي والاهرامات ، وفى صناديق الأموات وعلى حيطانها ، والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .

فقال صاحبي : الله أكبر ، إني رأيت اليهود والنصارى يفعلون ذلك في محافلهم ومجتمعاتهم ، فيقوم خطيب واعظ يذكّرهم بمآل النوراة والانجيل . فقلت : إن هذه أمم قد ترقّت في العلم قبلنا في هذه الأيام ففعلوا ذلك بعقولهم ، وقد كانوا في غفلة مثلنا ولذلك ارتقوا عنا وإن كان دينهم منسوخا ، ونحن بعون الله سنرتقي سريعا ، ويكون ارتقاؤنا أسرع من ارتقاؤهم ، لأن ديننا أرفع الأديان ، وهو النسخ لها إلى آخر الزمان « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

فقال صاحبي : إن هذا المقام جميل وبديع ، وهذا التشبيه الذي بنيت عليه الجواب بديع قد أظهر الموضوع وجلاء فأصبح واضح الحيا جميل المظهر بديع الخبير ، والحمد لله على نعمة العلم والحكمة ، إنه هو السميع المجيب وأرجو الشروع في الإجابة على الأمر الثاني وهي الحكم الملقاة على ألسنة الصالحين والأولياء . فقلت : قد تقدّم الكلام على ذلك في هذا التفسير في [ سورة يونس ] عند آية : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » الخ فارجع إليه هناك إن شئت .

### اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : إنا كل شيء خلقناه بقدر

#### القضاء والقدر (١)

لهج الناس في كل زمان ومكان بذكر القضاء والقدر ويقولون إن الله يقول : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » وإذا كان كذلك فلم العذاب ولم العقاب والعقاب ؟ ثم انه رحمن رحيم ، فأين الرحمة للمعذبين ؟ وأين السعادة للظالمين ؟ وإن هم في عذاب الجحيم ؟ .

هذه حال الانسان على أى ملة كان ، وأى دين في مشارق الأرض ومغاربها ، حيرة لاحد لمداها ، وأسئلة لاجواب عليها إلا من أناس صفت نفوسهم وعلت عقولهم ، فيكونون في نوع الانسان أشبه بالعميان ، هذه صورة منطبقة على أهل هذه الأرض أجمعين ، فهناك أيها الذكي فاستمع ما ألقيه الساعة إليك بقلب صاف ونفس واعية وتدبر فانه لهذا الداء دواء ، ولمرض الحيرة في القلب شفاء ، وكن من المستبصرين .

لأضرب لك أولا مثلا برجل مهندس عبقري في الهندسة ، عزم على أن يبني بيتا ، وهو بأنواع البيوت عليم ، ففكر في صورها بعقله وانتزع منها صورة صورها في نفسه واصطفاهما لمسكنه ، ثم رسم ما اختاره وبناء وشاده على أحسن منوال وأجل مثال ، وفي البيت فرش مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمازق مصفوفة ، وزرابي مبثوثة ، وعلى حيطانه أنواع الصور المختلفة الأشكال ، البديعة الجمال ، ويحيط به بستان تفرّ به عيون الناظرين ، ويسرّ بمرآة جمهور الزائرين ، فدخل البيت زائرون منهم العميان ومنهم المبصرون ، ولما كان هذا المهندس كريم الشيم ترك للزائرين الحرية أن يدوروا في البيت كما يشاءون ، ويتفرّجوا على فرشته ونمازقه وأشجاره وهم آمنون ، فانطلق أحد العميان في المنزل ، فاصطدم في أرض الحجرات بالأرائك ، فخرّ على الأرض كالصريع ، وما كاد يقف حتى لطمته الألواح المعلقة فأدمت أنفه ، وما كاد يمسه أو يغسله وقد مشى خطوات حتى سقطت رجله في المرحاض فتعدّ حزننا كئيبا وأخذ يقول : إن رب هذا البيت رجل عظيم ورحيم ، فكيف خاب ظني فيه ؟ فأين الهندسة والنظام ؟ وأين الكرم والرحمة للزائرين ؟ ولم يزل كذلك حتى جاءه رجل مبصر فأخذ يشرح له دقائق البيت ومافيه من الجمال وحسن الاتقان ، ففرح أشدّ الفرح

(١) هذا المقال نشر في [ مجلة المعرفة ] بقلم المؤلف .

وقال هذا هو النظام ، وهذه هي الرحمة والاحسان . هذا أيها الذكي هو المثل الذي ضربته لبيان هذا المقام . إن [ علم المهندس ] بنظام البيوت واصطفاه منها واحدا هو أجلها ضرب مثل للقضاء ، فالقضاء راجع لما ثبت في العلم القديم للمكونات ، وإبراز البيت على ما قدره المهندس في نفسه على أحسن منوال ضرب مثل للقدر لأنه راجع لظهور المخلوقات على ما سبق به العلم القديم .

[ العميان ] ضرب مثل لجميع الجهلاء على أي دين كانوا ، ولطائفة الملحدون والمتعلمين تعلما ناقصا في مدارس الشرق والغرب أجمعين [ والمبصرون ] ضرب مثل لأناس جادت قرائحهم ، وزكت نفوسهم ، واشتد شوقهم للعلم والبحث فلم يكونوا كأولئك العميان يهرفون بما لا يعرفون ، فدرسوا هذه الدنيا دراسة متقنة من الرياضيات والفلك والطبيعات ، وأدركوا بصفاء عقولهم جمالها وبهاءها ، ثم رجعوا إلى إخوانهم وأخذوا يخاطبونهم بما يفهمون ، ويكلمونهم بما يعقلون ، وسعدوا بسعادة لاحد لدأها وكانوا من الفائزين ، وهؤلاء يقال لهم : « يا أيها النفس مطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » فإذا سمعوهم يتحدثون في القضاء والقدر يخاطبونهم قائلين : أيها الأعزاء : ليس لامرئ أن يقصر في عمله محتجا بالقضاء ، فلك حجة الكسالى الغافلين ، فإذا ما أتمه على حقيقته واجتاحتها الجوائح فهناك يقول : القضاء سلوة المنكوبين وراحة البائسين ، إن هذه المسألة ليست بنت اليوم ، ألم تروا كيف يقول الله حكاية عن كفار العرب أيام النبوة : « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء » فرد الله عليهم مهتدا بالوعيد فقال : « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تنبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون ، قل فله الحجة الباطلة فلو شاء لهذا كم أجمعين » ونقول : كما قامت حجة المهندس رب البيت على الأعمى ، هكذا تقوم حجة الله على من يخوضون في القضاء والقدر وهم جاهلون ، إن الأم التي فتحت على نفسها باب القضاء والقدر هي التي قد استعدت للفناء وبات بالوبال ، ونسيت عقولها ، وعدتها حلا ثقيلا عليها ، لأنهم على الشهوات عاكفون ، وفي غمرة الجهالة ساهون ، وكيف يفتحون هذا الباب وهم يجهلون ؟ وأنى للعميان أن يدركوا محاسن الجلال في الفتيات والفتيان ؟ إن المسلم الذي شغله القضاء والقدر وهو بعد لم يدرس نظام الدنيا وعالمها حري به أن ييؤ بالخسران ، فهذه الطائفة في الدين أشبه بأولئك الذين يجلسون في أماكن الشرب العامة ببلادنا المصرية ، ويدور كلامهم على سياسة الدول وأسرارها وهم يجهلون سياسة منازلهم وأمتهم ، فهم في ذلك مغرورون . إن الناس ثلاث طبقات : عامة مصدقون ، وحكام محققون ، ومتوسطون بين هذين مذبذبون متحيزون فالفریقان الأولان مطمئنون ، والفریق الثالث جعلت حيرته مهمازا يسوقه إلى البحث ، فإذا قصر فهو في ضلال مبين ، وكيف يخوض في القضاء والقدر من يجهل تشريح جسمه وبدائع تركيبه ، وأن في كل عين من عينيه سبع طبقات وثلاث رطوبات ، ومن الطبقات السبع طبقة تسمى الشبكية ، وهي لا تزيد في سمكها على سمك ورقة الكتابة ، وهذه وحدها فيها ثلاثة ملايين مخروط وثلاثون مليون اسطوانة ، وهذه كلها مبينة بالتصوير الشمسي واضحة ، وبهذه الملايين يكون الاحساس والنظر . بعد كتابة ما تقدم في هذا المقال وجه إلى أحد الأصدقاء اعتراضا جاء فيه ما يأتي :

إن هناك فرقا بين المثل والممثل له فان المهندس رب البيت ليس مسئولا عن العمى فليس من حق الأعمى الذي حصل له الألم بشج رأسه أن يقول له لم كنت أعمى ؟ لأن المهندس لاسلطان له على عين الأعمى ولكن الممثل له غير ذلك ، فان الذي أصبح متشككا متحيرا هو نفسه من صنع الله ، واذن فالاشكال باق ، والمسئلة على حالها ، والمثال لا يجدينا نفعا ، فأتم الحاضرون على كلامه . فقلت : لا اشكال



لا اشكال ، فقال الحاضرون : أين أين البرهان ؟ فقلت : هناك أسرتان : أسرة كبرى وهى نوع الانسان ، وأسرة صغرى وهى المعروفة ، ألتسم ترون فى الأسرة الصغرى أن صاحب المنزل هو الذى يديره ، وأن الخدم لا اعتراض لهم عليه فى الغالب ، وأن أطفاله لا يفقهون شيئا مما يفعل أبوهم إلا بالتدريج ؟ قلوا نعم . قلت : فهل وجود الأطفال مع جهلهم المطبق بنظام المنزل يعتبر عند العقلاء خللا وظلما ؟ قالوا . كلا . بل الأطفال نعمة وعدم وجودهم يعتبر نقمة . فقلت : إن العامة فى العالم الانسانى يمثل لهم بالخدم ، لأنهم يعملون ولا يفكرون إلا قليلا ، وأما رب البيت فهو ضرب مثل لصانع العالم ، وأما الأطفال فيمثل لهم بالطبقة الوسطى من المتعلمين الذين ارتقوا عن العامة قليلا وفكروا فى نظام هذه الدنيا ، فهؤلاء أطفال الانسانية ، والأطفال خلقوا ليجلسوا محل آبائهم وهؤلاء هم المتعلمون تعلمنا نقصا ، فهؤلاء اذا أحسوا بحيرة فهذه الحيرة نعمة لانقمة لأنها تدفعهم إلى استيعاب العلوم ليصيروا حكماء فاذا كسلوا وناموا كما هى الحال عند كثير من المتعلمين الحاليين فانهم لاجرم يحبون حياة كلها اضطراب ، ويرجعون القهقري ، وتكون الشهوات سلوتهم الوحيدة ، وهذا هو السر فى تأخر بعض أمم الشرق التى كثرت العلم فيها ولكن لا استقلال لها لأن الرجال القائمين بأمرها يبنون حياتهم على أساس علمي غير مكين ، فهل وجود أطفال الأمم خلل فى النظام ؟ قالوا . كلا . لأنهم يبحثون عن الحقائق كأطفالنا . قلت : إذن العميان فى مثل المهندس رب البيت ضرب مثل هؤلاء باعتبار نقصهم ، وخلق الناقص المستعد للكمال حالا أو مالا عدل وحكمة وكمال ، فقالوا نعم ، فقلت الحمد لله إذ عرفتم الحقيقة . انتهى

هذا ما كتبتة فى [ مجلة المعرفة ] تفسيرا لقوله تعالى : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » وان أردت أيها الذكى الزيادة فاقرأ ما كتبتة فى [ سورة الفرقان ] عند آية : « وخلق كل شيء فقدره تقديرا » وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الثانية ، والحمد لله رب العالمين .

### اللطيفة الثالثة

فى قوله تعالى : وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر

يقول تعالى خلقنا كل شيء مقدرًا مرتبا منظما على مقتضى الحكمة ، وقد كان مكتوبا قبل ذلك فى اللوح المحفوظ معلوما عندنا ، ففى أردنا أمرا ما من أمورنا التى قررتها فى علمنا ، وقدرةنا فى لوحنا المحفوظ فإنا نفعله فعلة واحدة ، ونوجده بلامعالجة ولا معاناة ، فقدرةنا سابق ، وقضاؤنا لاحق ، ولا قضاء إلا وهو مرتب على القدر السابق ، وقولنا [ كن ] هو القضاء . واعلم أن فى أمم الاسلام السابقة قوما يقال لهم القدرية ، وهؤلاء يقولون : « إن الله لا يعلم الأشياء قبل وقوعها ، وكل ما فى الوجود مستأنف لم يعلمه الله فيما مضى ، ولكنه يعلمها بعد وقوعها لا غير » فهم سموا قدرية لانكارهم القدر ، وقد قال أصحاب المقالات من المتكلمين : إن هذه الفئة قد انقرضت ، ثم قالت طائفة بعدهم : الخير من الله والشر من غير الله ، وهؤلاء كالجبوس الذين ينسبون الخير إلى [ يزدان ] والشر إلى [ اهرمن ] والخير يرجع إلى النور ، والشر إلى الظلمة .

### جمال هذا المقال

اعلم أن الله عز وجل علم قبل خلقنا أننا لا يتسنى لنا الوقوف على حقيقة التكوين ولا بدائع القدرة ، جعلنا نحن شبه بمثل مضروب لذلك ، ألا ترى رعاك الله أن هنا [ ثلاث مراتب : المرتبة الأولى ] العالم كله [ المرتبة الثانية ] الانسان الواحد [ المرتبة الثالثة ] القوى الذهنية فى الانسان .

هذه هي المراتب الثلاث في الوجود ، فالمرتبة الأولى والمرتبة الثانية من فعل الله عز وجل ، أما المرتبة الثالثة فهي من فعله بواسطة أنفسنا .

جلّ الله ، الله أكبر : المرتبة الأولى العالم كله من العرش إلى الفرش هيكلا واحداً ، وهذا الهيكل نشاهد فيه أجسامنا وصوراً شتى لا قبل لنا بحصرها ، وهذه الكواكب التي لا يحصرها العد ، والمجرات والسدم التي أصبحت تعد بالملايين ، وكل مجرة وكل سديم يحوى من الشمس ومما هو في حكم الشمس ما يعد بالملايين ، وتلك الشمس إما كشمسنا أو أكبر منها أو أصغر ، وكل هذه نشاهد لها حركات منتظمة ، وهكذا كل ما على أرضنا ، وما في جونا ، وما في بحارنا من المخلوقات كلها ذوات أفعال منتظمة مقدرات منظمات باعتبار خلقها ، ولا جرم أن هذه الأفعال والصفات والأصباغ إنما كانت بفعل عقل وحكمة فلنفس ذلك عقلا عاماً ، وهذا العقل العام لا يمكن إنكاره ، لأننا نشاهد آثاره المنظمة وأفعاله الجيلة .

أما المرتبة الثانية فهي الأجسام الحيوانية والنباتية ، وأخص ذلك كله جسم الانسان ، فله أفعال إرادية وله جسم كما أن العالم كله جسم وروح .

أما المرتبة الثالثة وهي قوانا العقلية التي تحت تصرفنا نحن فانها تصوّر لنا ما شاهدناه أو علمناه .

يا عجباً ياربنا وألف عجب ! لا تكاد نفسى تتوجه للمجرات ، ولا للشمس ، ولا للحبيب ، ولا لعدو حتى يحضر فيها كالمح البصر ، فلندرس هذه القوى التي فينا فانها كافية لنا في فهم لغز الوجود ، وأنا أحسن بصور لا عدد لها ، صور تضارع صور هذا العالم المشاهد ، فأرى الشمس في مخيلتي مثل ما رأيتها عيني ، وهكذا الأرض والسماء ، ومتى تصوّرت صورة حسنة أو قبيحة أو مؤذية أو نافعة ظهرت في نفسى آثارها ، وقد أتصور انساناً يؤذيني فأشعر في الحال بغم وتجديد عداوة وحقد وضغن ، وقد يتصور المرء صورة ذات جمال فتتبع شهوته ، إذن الصور الخيالية الحادثة في أذهاننا تبعث نارة على الشهوة ونارة على الغضب ، وهذان عالمان لا منبغ لهما إلا خيالنا ، وهناك عوالم أخرى في الذهن ، ولكن من جهة أخرى أحسن في نفسى بعالم آخر أرقى من هذه العوالم ينهى النفس ويقول لها : اطردي صور الأعداء ، واطردي صور الشهوات ، ويتحكم في هذه الصور ويقرب ويبعد .

إن في الذهن لصوراً كثيرة من فريق الغضب والشهوة والجمال والشجاعة وأضرابها ، وهذه الصور خاضعة لتأثير مؤثر نسميه القوة المفكرة أو العقل وهكذا ، إذن هنا أمران : أمر هو كالصورة الجسمية ، وأمر هو كالروح ، فالذي هو كالصورة هي الخيالات ، والأمر الذي هو كالروح هو الفكر . ثم ننظر فنرى هذه القوى الذهنية لها السلطان المطلق على الحواس ، ومن الحواس البصر ، والبصر يرى الصور على الشبكية فالشبكية هي التي تقيد الصورة وتوصلها إلى القوة الباصرة في الدماغ فيراها الانسان ، وما الذي رآه ؟ هو لم ير إلا صورة مرسومة دلت على صورة في الخارج ، فالمرئى حاصل داخل العين ، وهذه الصورة أقرب إلى الروحانية ، وهي دالة على الصورة الجسمية الخارجية : أى ان ما في النفس مطابق لما في الخارج ، إذن المعلوم ماملكته النفس فيها وما في الخارج مطابق له ، إذن البصر في لمح يرى صورة أقرب إلى الروحية دلت على ما يطاقها ، وهي الصورة الخارجية في لحظة صغيرة من الزمان ، فلننظر في سير هذه الصورة فنراها أصبحت في الخيلة ، وصارت إحدى الصور التي وصفناها بأنها صورة مؤذية أو سارة أو شهوية أو غضبية ، ولكنها بعد أن كانت أشبه بالروح وهي في العين أصبحت الآن في الخيال كالجسم ، وأصبحت القوة المفكرة كالروح . وهذا الجسم وهذه الروح اخترعهما أرواحنا بعناية ربها ، اخترعهما من العدم ، ليس عند روحى مادة لتصوير صورها ، ولا مادة ألطف لتصوير أفكارها ، هكذا فعل الله في عالمه الكبير ، ولا يعزب عن ذهنك

ماقررناه غير مرتبة وبيناه في [ سورة انور ] أن هذا العالم لامادة فيه . كلا . إنما العالم حركات في أمر يشبه خيالاً سميناه الأثير ، وما هو الأثير ؟ هو خيال الكون ، خيال الفضاء ، وهذا الخيال قوى متين أمتن من المادة ، والحركات فيه تحدث تنطاً كهربائية ، والنقط الكهربائية باختلافها كما وكيفاً تتكاثف بنسب مختلفة لاحتصارها فتظهر لحواسنا على هذه الصور المشاهدة ، والا فالحقيقة أن هذه العوالم ما هي إلا نور مضغوط مكبوس تبدى لعيوننا على هذا المتوال ( وبعبارة أخرى ) العالم حركات لا غير ، وهذه نظرية [ انشتين ] والحركات تنقلب نورا ، وهذا النور هو هذه الدنيا ، وبتنوع النور يكون جمال لاحد له ذوهجة ، وهذه الصور الحادثات في العوالم منها ما ينفعنا ومنها ما يضرنا على قياس الصور الذهنية . وملخص هذا المقام ما يأتي :

- ( ١ ) كما أن الصور الذهنية لامادة لها هكذا الصور التي في خيال الفضاء .
- ( ٢ ) وكما أن الفكر مظهر إلا من أرواحنا بلا واسطة هكذا الأرواح منبعثة من الأعضاء الإلهية خلقاً أولياً ، ونظيره في ذلك أفكارنا .
- ( ٣ ) وكما أن الصور في الأولى منها ما يضرنا ومنها ما ينفعنا ، هكذا الصور الظاهرة في خيال العالم وهو هذا الفضاء .
- ( ٤ ) وكما أننا نحن نتصرف في الصور الخيالية بواسطة عقولنا ، هكذا نحن نتصرف في عوالم المادة من أنواع ما يعطينا منفعة وما يورثنا مضرة كالنحل والزناير .
- ( ٥ ) وكما أن فكرنا له الحرية المطلقة في إصلاح الصور الحاصلة في الذهن أو محوها واحداث غيرها محلها ، كذلك نحن نفعل في أعمالنا المعتادة في الأرض .
- ( ٦ ) تشابه العالمان : عالم الأذهان ، وعالم العيان .
- ( ٧ ) ومثل ما رأينا في هذين العالمين يحصل في العالم العام .
- ( ٨ ) ففي هذه العوالم نفوس وعقول نسبتها إلى هذه العوالم المادية كنسبة أفكارنا إلى صورنا الخيالية وكنسبة عقولنا وقوانا المنتصرة إلى أعضائنا العاملة كاليد والرجلين والحواس .
- ( ٩ ) وكما أن نفوسنا وأفكارنا نتصرف في صور الخيال التي لانهاية لها ، وفي صور المادة التي لاحد لها فيما حولنا ، هكذا تلك النفوس والأرواح العالية تفعل بنظائرها في هذه العوالم العلوية والسفلية بقوانين منظمة مترتبة بقدر وحكمة ويمتد من تلك الحكمة فروع تصل إلى عقولنا فتهدى بها إلى صراطها المستقيم .

( ١٠ ) المادة كلها أنوار بل حركات مضغوطات ومكبوسات ، فأجسامنا وأجسام ما حولنا ما هي إلا أنوار ذات جمال حجبت عنه ، وهذه الأنوار حركات في الأثير كما أن الصور المرسومات في أذهاننا أيضا حركات أو أنوار في الأثير ، فنحن نور يعيش في نور .

( ١١ ) خلاصة الخلاصة أن هذا الموضوع كله توطئة لفهم قوله تعالى : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » والمقصود الأصلي سرعة الإيجاد بعد ارادة الفعل ، وأدى ذلك إلى البحث في أمر الصور الذهنية ، فالصور الجسمية ، فالأرواح والأجسام ، فاللائكة والعوالم كلها ، وفي غضون ذلك برزت صور من علم الأخلاق ومحاربة القوة العاقلة قوى الغضب والشهوة ، وتنظيم صور لانهاية لها كما ينظم العقل العام صوراً لانهاية لها في العوالم كلها ، وبجهادنا للخلوص من علائق المادة نصل إلى النور الأسنى ، والحمد لله رب العالمين وهو حسبنا ونعم الوكيل . انتهى صباح يوم الخميس ١٩ نوفمبر سنة ١٩٣١ م

## نور على نور

حضر صاحبي العالم الذي اعتاد مناقشتي في هذا التفسير فقال : إن هذا المقال حسن ، فقد كان قوله تعالى : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » وحصر التمثيل بلمح البصر في الآية وتقريب المعاني البعيدة بما نألفه سببا أثار هذه العجائب ، وكان لممح البصر وما يرتب عليه من صور ذهنية وأخرى خارجية مخرجا لما استكن من العلم ، وموجبا الارتقاء في الأسباب طبقا عن طبق حتى وصلنا إلى مستوى يسمع فيه الأنبياء والملائكة صرير الأقلام المسطرات مقادير العوالم في الألواح المحفوظة ، ولكن ألا تذكر أن هذا المقام له ارتباط وثيق وائتلاف ، بل تكميل لما تقدم في [ سورة القتال ] عند آية : « فاعلم أنه لا إله إلا الله » فقد ذكرت هناك رأى أفلاطون وفيه الكلام على المثل المسماة مثلا أفلاطونية ، وأن هذه المثل نبذها أرسطاطاليس بعده وقال إن العلم لا يعتمد إلا على ثابت ولا ثبات إلا المادة وصورتها ، وأن الرواقيين الذين جاءوا بعده وكان رئيسهم [ زينون ] في القرن الثالث قبل الميلاد ردوا عليه كما رد هو على أستاذه وقالوا : أنت لم تبين لنا كيف يكون ارتباط هذه المادة بصانع العالم الذي أنت توقن به ، وما المناسبة بينهما ؟ ثم انك تقول : إن المادة مجردة امكان محض ، وتقول أنها تشتاق للصورة ، وهذا كلام لا دليل عليه لأنها إذا كانت مجردة ما كان فأن عشقها للصورة الذي تدعيه ، وهل هي تعقل ؟ .

فلما رأى ذلك الرواقيون وبعدهم العلماء الذين جاءوا بعد الميلاد وهم الفرع الاسكندري ، والفرع الشامي والفرع اللاتيني نظروا في آراء الحكيمين ، فقوم عنهم أكبوا على العلوم الطبيعية كالطب ، وقوم أكبوا على الرياضية ، وهؤلاء أكثرهم من الرقيقين ، ثم إن هذه الفروع الثلاثة بعد الميلاد وفقوا بين الآراء واستخلصوا خلاصة ، واليههم ينسب كل ما وصل إلى علماء الإسلام كابن سينا والفارابي والصوفية ، فهذه الحيرة التي فيها وقع القوم بعد الحكيمين سببها أنهما لم يوفقا لاتخاذ خطة بها يصلان إلى الطريق التي بها يعرفون كيف توجد هذه العوالم من إله لاصلة بينها وبينه ، فلا أفلاطون قدراً يبين ، ولا أرسطاطاليس كذلك ، وهما السبب في اختلاف الأحزاب فيما بعد ذلك . وقد نقلت من كلام [ الاستاذ سفتلانه ] المكتوب بخطه في كتابه [ تاريخ الفلسفة العربية ] أن حكماء أوروبا لم يبرعوا في الفلسفة ولم ينالوا من العلم إلا ما كان من قبيل العلوم الجزئية كالطبيعات والرياضيات ، فاخترعوا وزرعوا وطاروا وحاربوا ، أما العالم الأعلى وعجائب النفس وأصل التكوين التي لأجلها وضعت الفلسفة ، والتي هي المقصود الأصلي لنوع الإنسان من أبحاثه فهم فيها ليسوا بالنسبة لسقراط وأفلاطون إلا كنسبة البقرة إلى الفيل ، وانهم لو عرفوا ذلك مثل هذين الحكيمين لم يكونوا إلا ملائكة .

هذا كله تقدم في هذا التفسير في مواضع كثيرة ، وأنت قد رفعت صوتك عاليا وقلت : إلى نوع الإنسان كله شرقا وغربا : أيها الناس إذا كان [ أفلاطون وسقراط ] قد ضربا مثلين لأصل العوالم ، واختلاف الأحزاب من بعدهم ، وإذا كان الاستاذ [ كانت ] الألماني قد خالف طريقةهما لما رآها وعرة المسالك ، صعبة المرتقى ، بعيدة المسال ، مربكة العقول ، عرج على أن يصل الإنسان لصانع العالم من طريق علم الأخلاق وأبان أنه إذا لم يكن هناك إله يكون المجرم كالحسن ، فأثبت الإله من هذه الجهة الضعيفة ، وقد نقلت أنت ذلك عن مترجم [ كتاب الأخلاق ] لأرسطاطاليس من اليونانية إلى العربية ، وذكرت أنت أن هذا المترجم الفرنسي ( كما تقدم في سورة حم فصلات وهي حم السجدة عند آية : إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا الخ ) جعل أفلاطون في الدرجة العليا والاستاذ [ كانت ] في الدرجة الوسطى ، وأرسطاطاليس في أدنى الدرجات ، كل هذا ذكرته أنت وأثبتته في غير ما موضع .

ههنا رفعت أنت صوتك عاليا وقلت في [ سورة القتال ] في رسالة مرآة الفلسفة مامعناه ما يخصا موضحا مشروحا بعبارة أوسع .

أيتها الانسانية : اسمى اسمى : إن أفلاطون وأرسطاطاليس لم تكن الأمم في زمانهما لتعقل الحقيقة واضحة ، فأعطيا العلم للناس على مقدار استعدادهم ، وأعطى كل منهما صورة للناس يظن أنها تقبل عندهم ومضى ٢٥ قرنا انتقلت فيها العقول وارتقت الأفكار فاستعدت لقبول الحقيقة .

أيتها الأمم . أيتها الأمم . اسمى اسمى : إن أفلاطون لم يقل المثل الأفلاطونية وهو نائم أو ساه . كلا . انه لما رأى أن المعقولات هي الفألة والمؤثرات وماعداها لاجراك له قل مقالته ووضع قاعدته ، ولكن أنا أنبشكم بالحقيقة ، الحقيقة هي أنا لا يتسنى لنا معرفة العوالم الغائبة عنا إلا بما نشاهده في أنفسنا ، وسبب ذلك أن أنفسنا أكل هذا العالم ، هي أرقاء لأنها جمعت العوالم الجسمية والعوالم الروحية ، ولنا صور ذهنية وهذه الصور نحس بها ، هي موجودة ، نحن لانكرها ، وهذه الصور لم تكن لها مادة تخلق منها ، ولا وجود لها إلا من أنفسنا ، فلا واسطة بينها وبين نفوسنا ، أفلا نقول هكذا في العوالم ، إن العوالم حركات في ضمير الكون وخيال الفضاء ، كما أن صورتنا الذهنية حركات في خيالنا ، فهنا انحل الاشكال ، وفك العقال .

هذا معنى ما تقدم في غير ما موضع لاسيما [ سورة القتال ] فهل لك أن تفيض في هذا الموضوع هنا ليم المقام وينظم شمله ؟ فقلت له : حياك الله أيها الأخ وبياك : ألم تر ما كتبته الآن ، ألم أذكر لك عشر رجل هي خلاصة ما ذكرته في هذا المقال هنا زيادة عما سبق . فقال بلى ولكني أريد زيادة تحقيق ، نعم انك في [ سورة القتال ] لم تذكر إلا الصور الذهنية الخيالية ، وهنا ذكرت الخيالية والفكرية وشرحتهما ، فلتفصل لي المقال بعبارة أوضح وقول أبين ، فقلت : إن كل ما نزاوله من أفعالنا ، ونصنعه في مدتنا وحقولنا وليلنا ونهارنا لا يصدر إلا عما قررناه في نفوسنا .

الله أكبر : لاعمى للانسانية إلا الفكر ، لوسلب الانسان العقل لسمينه مجنوننا ، فيصبح ذا غريزة كالحيوان فيأكل ويشرب ويتناسل ، وهو صنو الحيوان لا فكر عنده ولا تمييز .

الله أكبر : الأرض وما عليها لا تساوى شيئا مذكورا في نظرنا لولا ادراكنا لها ، إذن الادراك والتعقل هما أصل كل شيء عندنا ، اذا عقلنا فهناك الوجود ، واذا لم نعقل فهناك العدم ، جرد المرء من شهوة الطعام إذن لا يعأ به ، جرده من شهوة الغضب إذن لا يحارب العدو ، جرده من العقل لا يدري شيئا ، فالادراك هو الأصل ، وماعداه تبع ، فالوجود كله لاعمى له إلا إذا أدركناه ، نحن علماء بالادراك ، نحن جهلاء بعدمه العالم موجود عندنا لأننا أدركناه ، غير موجود اذا لم ندركه ، لا وجود للألوان اذا لم تكن عيون ، أو كان الانسان أعمى ، لا وجود للأصوات اذا كان الانسان أصم ، لا وجود لهما اذا كان أصم أعمى ، لا وجود لهذا العالم لمن لم يحس بالحواس ، بعض الموسوسين ، والمرضى بالأمراض العصبية ، ومرضى [ الهستيريا ] يسمعون أصواتا ويرون صوراً لا وجود لها ولكنها تفعل فعلها فيهم وتضرهم ضرراً بليغا ويموتون ، وأنا شاهدت بعضهم ، وبعضهم يرى صوراً في الظلام ، ومن شدة خوفه يرى صوراً تزججه وهو مستيقظ ولا يشك في وجودها ، يحلم الانسان بصور وأشكال ، وجمال وقبح ، وصديق وعدو ، وحقل وجبل ، وهي عنده حقائق لا يمارى فيها ، ولها في ذهنه آثار ، ولها في نفس حياته في اليقظة بعض الآثار ، فبعضها يورث الفرح وبعضها يورث الحزن الخ دلالة على أن لها وجودا ، والشمس قدر المنخل باعتبار ما وصل إلينا بالعين لا بحسب الواقع ، إذن الوجود كله الذي أدركناه يرجع إلى ما وصل إلينا في أنفسنا وما قبلته وتصوّرتة لا غير وان خالف الحقيقة ، فاننا اذا أثبتنا المنفى لما أدركناه ، ونفيينا المثلث لما لم ندركه ، نحن في نومنا نوقن بما ليس بموجود لما



أدركناه ونذعن بعدم ما هو موجود تبعاً لما تصوّرناه ، فالعبارة بأنفسنا لاغير ، ففيها سعادتنا وفيها شقاؤنا ، وإذا تبدى لنفس ما يسعدها فهي سعيدة ، وإذا تبدى لها ما يشقيها فهي شقية ، والعالم الخارجي أمر آخر غير نفسى فهو صالح للأمرين ، ولو أن الانسان عاش أمداً وأبداً ، وحياته كحياة النائم الذى يرى أنه فى روضات الجنات ، فهذا النائم سعيد سعادة حقيقية ، وإن كان كل ما رآه لاحقيقة له ، وإن رأى حيات وعقارب وسعيرا وزمهريرا ودام إلى الأبد فهو الشقيّ شقاء أبدياً ، فنفسنا لايسعدها إلا ما أدركت ، ولا يشقيها إلا ما لديها مما هو مؤلم ، فالنفوس إذن أصل الموجود عندنا ، أليس هذا أيها الأخ الذكيّ هو السرّ الذى وصل إليه قول [أفلاطون] فى أن أصل العالم هو العالم العقلى ، فإذا كان ذلك هو دأب نفوسنا وهي فروع لنفوس أكبر تدبر هذا العالم أفلا نقول : إن النفوس التى اشتقت منها نفوسنا هي على هذا النمط ، فهي أصل لوجود العوالم ، والمدار على تلك النفوس لاعلى ما تفرّع منها من العوالم ، وما هذه العوالم إلا صور لما فى تلك النفوس العالية لأن المدار عليها كما أن المدار فى الوجود وعدم الوجود إنما هي عقولنا وإرادتنا وهي الحقيقة عندنا لاغير ، فإن كان فى المنام فالحقيقة ما رآه ، وإن كان فى اليقظة فالحقيقة ما شاهدته ، وأصل الوجود هو الأثير والحركات فيه ، واختلفت المناظر باختلاف أحوال الناظر فيها ، وإذا كانت عقولنا ونفوسنا هذا دأبها فلنقل هكذا دأب العقول التى اشتقت عقولنا منها ، وتلك العقول الأولى منزلاتها من صانع العالم منزلة أفكارنا من أنفسنا وإن كان هذا مجرد تشبيه لاغير وليس موضعاً للحقيقة ، والتشبيه ما هو إلا ضرب مثل لاغير ، وهذا الذى عوّلنا عليه إيضاح وتبيان للسرّ الذى ذكره أفلاطون ، وبهذا الايضاح سيزول اشكال الأثم فى أصل وجود العوالم العلوية والسفلية ، والله هو الوليّ الحميد .

### مسامرتان

ولأذكرك هنا مسامرتين : الأولى عن الامام الغزالى . الثانية عن [باسمرك] يقول الامام الغزالى : لو أنك خبأت كنزاً ثميناً وفيه أموال عظيمة فانك تجد نفسك به فرحاً مغتبطاً ، ولو أن اسراً سرق ذلك الكنز وأنت لم تعلم به سنين عديدة لم يؤثر ذلك فى فرحك بل فرحك به دائم مادامت معتقداً وجوده وأنه ملكك . انتهت المسامرة الأولى .

### المسامرة الثانية

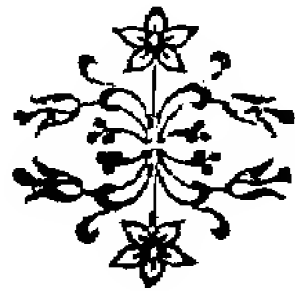
ما جاء فى كتاب [مختارات الترجمة] باللغة الانجليزية تحت عنوان « لقافة التبغ التى تمتع بها باسمرك من غير أن يدخنها » وذلك أنه كان فى [كونيكارتز] وقد حى وطيس الحرب واشتد الكرب ، وشمرت الحرب عن ساقها ، وعمّ ضررها ، ولم يبق لديه إذ ذاك لقافة تبغ واحدة ، قال هو بنفسه ما يأتى : « إن قيمة لقافة التبغ لا تعرف اذا لم يكن لديك سواها وكانت آخر ما تملك من هذا القبيل ، ولم يكن هناك سبيل لنيل غيرها ، وفى [كونيكارتز] لم تكن عندي إلا لقافة تبغ واحدة ، لحفظتها فى أمتعتى ، وحافظت عليها حفظ البخيل على كنز ماله مدة الحرب كلها ، وقد قرّرت فى نفسى أن العقل يقضى ببقائها وليس من الحكمة تدخينها ، ولقد كنت أحسّ بأجل السعادات ، وأبهى المسرات ، وأعزّ الساعات ، بعد أن وضعت الحرب أوزارها حينما أتمتع بالنظر إليها وأشاهدها وهي قرّة عين لى ببقائها ، ولكن وأسفاه قد وقع ما ليس لى فى الحسبان ، ذلك أن فارساً قطعت يدها أثناء الحرب أخذ يهمس ملتصقاً ما يسلى نفسه

المسكينة وينعش فؤاده الحزين ، فأخذت أفنش في حقيبتى ، فوجدت فيها النقود الذهبية ، ولكنها لاتغنيه شيئاً مذكورا ، ولاتنعش قواه المنهكة : فقلت له اجلس أنا أعطيك لفاقة التبغ العريضة لدى ، والتي هي سالوتى مدة الحرب ، فأشعلت النار فيها ، ووضعت فيها بين شفتيه الواهتين ، هنالك تبسم ذلك المسكين فرحا مسرورا شاكرا ، أنا لم أتمتع بلفافة تبغ مدة حياتى كهذه اللفاقة التى تمتعت بها ولم أدخنها . انتهى

هاتان المسامرتان أيها الأخ الذكى تلقيان شعاعا على موضوعنا ، شرح الله صدرك للحكمة وأثار بصيرتك بالعلم ، وزين صدرك باليقان ، ومماثل هاتين المسامرتين إلا كمثل نور المصباح يلقى شعاعه على أصل الموضوع الذى أختمه بما يقوله الفلاسفة : « إن الانسان يمشى على الحائط فيقع وما أوقعه إلا وهمه ، وهو يمشى على الأرض فى أقل من عرض الحائط » ، فالصور الذهنية مبدأ الشقاء والسعادة ، فكأن الفكر أصل أعمالنا ، والعالم الملكى الأعلى أصل عوالمنا ، فأصل الوجود للعقول وجيع العوالم إن هى إلا نابعات ، والعوالم كلها أشبه بشجرة ، وهذه الشجرة فيها زهرات كثيرات ، والزهرات هى الأبصار التى ضرب بها المثل فى القدر فقال : « وما أمرنا إلا واحدة كلح بالبصر » فلمح البصر كترنح الأزهار على الأغصان ، ووراء الزهرات الثمرات ، كما أن وراء العين العقول والنفوس الأرضية والسماوية وترتيب القضاء والقدر ، أفلا تعجب من سرّ القرآن .

فقال صديقى : إن هذا البيان عجب ! ولم أسمع مثل هذا السرّ فى هذا التفسير . فقلت الحمد لله رب العالمين . انتهت اللطيفة الثالثة فى (١٠) جمادى الأولى سنة ١٣٥١ هجرية — (١١) سبتمبر سنة ١٩٣١ ميلادية . انتهى تفسير [سورة القمر]

( تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الثالث والعشرون من كتاب « الجواهر » فى تفسير القرآن الكريم ، ويليه الجزء الرابع والعشرون ، وأوله تفسير سورة الرحمن )



## ( الخطأ والصواب )

غلبنا التصحيح ففاننا سقط وأشياء أخرى يدركها القارىء بلاتنبية . وهذا جدول مما عثرنا عليه من ذلك وهاهوذا :

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
٧	٧	تخطبتهم	تخطبتهم	٦٣	١٢	قدرى	ندى
١٠	٣٥	حققو	الحقوق	٦٤	٢٠	الاوربار	الاوربار
١٤	٢٣	السمان	السماق	٦٥	٢٥	حكيت	حا كيت
١٤	٣٥	التمره	التمره	٦٧	٢١	فوعدته	قبل أن يبعث وبقيت له بقية فواعدته
١٥	١	ز يريه	ز يريه	٦٨	١٦	ومن نيته	وفى نيته
١٥	٨	التمره	التمره	٧٠	١	واما	وانما
١٥	١٤	ز يريه	ز يريه	٧١	١٦	عزمت على تركه	فعزمت على تركه
١٥	١٨	ملترقه	ملترقه			فهمنا	فسمعت
١٥	١٨	شحنهاحبوب	شحنهاحبوب	٧٢	٨	لما	بل لما
١٧	٩	التمره	التمره	٨٣	١٠	على غيره	لغيره
١٧	١٢	للتمره - للشمه	التمره - التمره	٨٤	٩	لوجه	الوجه
١٧	١٤	للتمره	للتمره	٨٧	١٣	مفتايا	مفتايا
١٧	٢١	الكائنات	الكائنات	٨٨	٦	متى	حتى
١٧	٢٢	التمره	التمره	٩٧	١٧	يستجبرون	يستجبرون
١٧	٢٧	واماى	واماى	١٠٨	٢	الغنى	الغنى
١٩	١٦	وراضى	وأراضى	١٠٩	١	بدواء	بدواء
٢٤	١٤	فالعلوم	يفيدان العلوم	١١٢	٥	خير	خير
٣٤	١٤	العصبات	العيدان	١٢١	٦	يزينها	يزين
٣٥	٣	١٤	٢٦	١٢٦	٢٤	في انحاء	في انحاء جسمه
٣٥	٤	٢٦	١٤	١٢٨	١	درجته	درجة
٣٧	٩	من	في	١٣٠	٢٦	والاعضاء الرئيسيه	.....
٣٨	١	واذا	واذ	١٣٠	٣٤	لاتبرز بطونهم	نبرز بطونهم
٣٩	٣٠	ولعرفه	ولعرفة	١٣١	٢٨	نعتبر	ان نعتبر
٤٦	٥	جاعة - جاعه	فوج - فوج	١٣٣	١٨	معنى	معنى هذا
٥٧	١	قوادم	خوادم	١٤٦	٢٢	١٢	١٢٨
٥٨	٢٨	ان كما يفعل	ان تسبيح	١٤٨	٥	مضارب	.....
		تسبيح المخلوقات	المخلوقات باللفظ	١٤٩	٦	١٣	١٦
		باللفظ ونحن	كما يسبح العقلاء	١٥٥	١٠	ألف متر	ألف كيلومتر
		لانسع	ونحن لانسمع				

صفحة	سطر	خطاً	صواب
١٥٦	٦	ويكون	ويكون
١٥٨	١	خارجاً حول السن المريض	خارج حول السن المريضة
١٥٩	٢٨	لأرق	الارق
١٦١	٣٥	في كتابي	وفي كتابي
١٦٢	١٤	ترك	ترك
١٦٣	١٨	والمقياس	والمقدار
١٦٢	٢٥	الدولة	.....
١٦٥	٩	هكذا	جعل
١٦٥	٩	جعل	..
١٧٠	١١	والافتناء	والاقتناء
١٨٠	١٢	بالمعروف	المعروف
١٨١	١٩	ولكنه	.....
١٨٣	٢٢	ولباس	وريشا ولباس
١٨٤	٧	متاحبات	متحابات
١٩٥	١٢	تقبل	تقبل
١٩٦	٢٣	وحلّ	وجلّ
١٩٩	٢١	النور	الثور
٢٠١	٢١	ونعيم	ونعيا
٢٠٣	٢٩	التمر	التمر
٢٠٤	٧	الزهرات	.....
٢٠٥	٤	الذكر واللاتي	الذكر واللاتي منه
٢٠٥	١٧	الجلبات	والجلبان
٢١٠	٥	بقدر	يقدر
٢١٣	٨	قبل	مثل
٢١٤	١٤	يزدن	يزوف
٢٢١	٢٨	ماتني	ماتين
٢٢٨	٣٣	لتجليها	لتجليها
٢٣٥	١	في سورة	بسورة

( نمت )

# فهرس

## الجزء الثالث والعشرون

### من كتاب

### الجواهر في تفسير القرآن الكريم

صفحة

- ٢ تقسيم [ سورة ق ] .
- ٣ السورة مكتوبة مشكاة كلها .
- ٤ المبحث الأول فيه ثلاث مقامات : تفسير البسملة ، ومعنى ق وتفسير الآيات من أول السورة إلى قوله « بل هم في لبس من خلق حديد » .
- ٥ وجه الترجمة هنا .
- المقام الثاني في معنى [ ق ] وأن المسلمين علم الله قبل أن يخلق العالم أنهم سينامون عن العلوم غفلة وجهالة فرمز لهم هنا بحرف [ ق ] إشارة إلى القرآن .
- ٧ تفسير الآيات [ ق ، والقرآن المجيد ] الخ .
- ٨ الكلام على أنه لاخللاء عند القدماء والمحدثين .
- ٩ المبحث الثاني في الكلام على الموت وسكرته الخ .
- ١٣ في هذه السورة ثلاث لطائف : اللطيفة الأولى والثانية في عجائب الأرض والنبات .
- ١٤ حديقة فيها ٢١ نوعاً من الشجر ، وأفانين العبر ، مختلفة الثمر : النخل ، الرمان ، النبق ، الجوز ، اللوز ، التين ، العنب ، الأجاص ، الشمس ، الخوخ ، الأترج ، النارج ، الليمون ، الحبة الخضراء ، الفستق ، السماق ، حب الصنوبر : البلوط ، العفص ، السرو ، الاهليلج .
- ١٥ هاك عشرين حكمة في الشجر والنبات : الحب ، الشجر ، نسج الورق ، الحجم والنوى ، صلابة النواة قشر الحب والنوى ، الحب والنوى ، تقسيم الغذاء على أجزاء الشجر ، نظام الأوراق ، الثمرة في غلافها موازنة بين الثمار وبين الأجنة ، اعتبر ذلك في أم الأرض ، حب الرمان المرصع ، غذاء الحب في الرمان في حب الرمان أيضا الحلاوة ، عود الرمان ، البطيخ ومأمعه .
- ١٩ شذرات علمية .
- اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد » .
- ٢٠ اللطائف العامة في هذه السورة .
- ٢١ اللطيفة الأولى في سر [ ال م ] في قوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » . وتبيان أننا ذكرنا في أول [ سورة آل عمران ] المعاني الإشارية التي أوردها المتقدمون في هذه الحروف التي في أوائل السور ، وأن [ ال م ] في أول سورة [ آل عمران ] خاصة تشير إلى ما هناك من قصة اليهود الذين حرقوا التوراة وكتبوا العلم فأباد الله ملكهم وسلط المسلمين عليهم فاستولوا على ملكهم ، وذلك في قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب » الخ وهناك ظهر أن المقصود من هذا أن يعتبر المسلمون بما حلّ باليهود ، إذ أتكفوا على أن الله وعد آبائهم أنه



لا يعذبهم إلا تحلة القسم ، وأن آباءهم سيشفعون لهم عند الله يوم القيامة ، فهذا كله قد حصل فعلا عند المسلمين فكسلوا بعدما جاهدوا المقصود من معنى شفاعة الشافعين ، خروف [ ا ل م ] تشير إلى المسلمين الحاليين أن أفيقوا من غفلتكم والا حلّ بكم ما حلّ باليهود إذ ذاك ، إذن [ ا ل م ] في أول [ سورة البقرة ] مفتاح خزائن علوم كثيرة ، لأن القرآن مبتدأ بالبسملة وفيها الرحمة ، وهي مقدمة للفتحة ، والفتحة مقدمة للقرآن ، والقرآن في أوله [ ا ل م ] و [ ا ل م ] في أول البقرة فتحت بها خزائن علوم الصبر على مكاره القتال ، وعن الشهوات في آية : « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت » الخ فهنا صبر عن شرب الماء وصبر على الحرب ، والخزانة الثالثة في سورة آل عمران وهي ترك الأمانى والأباطيل كما تقدم ، وهناك خزانة رابعة ، وهي أن يعرف المسلمون تواريخ الأمم التي سكنوا ديارها « أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » ولقد قرأ المسلمون ذلك ولكن لم يقوموا بدراسة تلك الأمم فحلّ بهم ما حلّ بالفرس والروم اللتين سكن المسلمون ديارهم ، وهناك خزائن من العلم أخرى ، ومنها خزائن علوم السموات والأرض المذكورات في هذه السورة إذ يقول الله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم »

٢٤ وهنا ورد اعتراض على المؤلف ، وهو أن هذا القول لم يسبقك به أحد ، فانه يؤخذ من كلامك أن المفسر يجب عليه أن يعرف علم الفلك والطبيعة ونحوهما ، وها هو ذا صاحب الاتقان قد ذكر (١٥) علما ليس منها ما ذكرته أنت ، إذن أنت مبتدع [ وجوابه ] أن قول الله كفعله ، وهو قد أبدع السموات والأرضين ، وجعل كل عالم كأنه زهر لما قبله من الأنهر والمجرات والسيارات والأشجار والأزهار ، فهذا الانسان له زهر وزهره هي الحكم التي تلقى على قلبه ، لأنه قد اختص بأنه دائما بين خطتي الخير والشر وعقله يحكم ويعمل بحكمة ، فتكون علومه ثمرات جده ، وهذه هي علم الموهبة الذي في كلام [ صاحب الاتقان ] وقال به ابن أبي الدنيا الخ فالتقدمون سهلوا لنا سبل العلوم اللفظية ، ولكنهم تركوا لنا العلوم التي تورث الموهبة المذكورة ، إذن هذه العلوم تفيدنا الموهبة التي ذكروها ، فأما التفسير بالرأى والهووى فتل تفسير الروافض : إذ يفسرون البحرين في آية : « مرج البحرين » بعلى وفاطمة الخ . ثم ان هذه العلوم التي تشير لها هذه الحروف كلها فروض كفايات ، واكتفاء المسلمين بقولهم : « الله أعلم بمراده » ينافي قول الله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » ، عجبا للمسلمين كيف ناموا عن دراسة أمم الفرس والروم وغيرهم بعد أن سكنوا ديارهم ، ومن أعجب العجب أن ملوك الاسلام استفادوا من هذه الحروف وأسرارها ، فهذا [ محمود خان الغزنوي ] لما أرسل خطاب تهديد إلى الخليفة العباسي أجابه الخليفة يقول [ ا ل م ] ولم يزد على ذلك ، فخار أهل الديوان في ذلك ، فقال القهستاني أنتم هددتموه بالفيلة وهو يقول [ ا ل م ] مشيرا إلى : « ألم تركيب فعل ربك بأصحاب الفيل » الخ هنالك ارعوى [ محمود خان الغزنوي ] وتأدب مع الخليفة ، وإذا كان لفعل الله زهرات كما تقدم من أن كل عالم كأنه زهر لعالم قبله ، هكذا نقول ان قول الله له زهرات كفعله ، وزهرات القرآن هذه الحروف التي بها تفتح خزائن القرآن وقد فتحت فعلا والحمد لله .

٢٦ اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » وذكر مسامرة بيني وبين صديق لي أذكرني بما شرحت من عجائب العين وغيرها فيما تقدم ، وتبيان أناني هذه الدنيا محبوسون عن منظر هذا الجمال الباهر ، لأننا لو أدركناه لزال عنا كل حزن ، ولكن

الجمال نعرفه شيئا فشيئا ، وذلك بالدرس وحده ، فلندرس الدنيا ولنخص بالدرس أجسامنا ، ولندكر الآن عجائب العين التي بها نرى السماء .

٢٨ العين ومنفعتها ، وأن الناس يستعملونها ولا يعقلونها ، وبيان كيف ركبت طبقات العين ، وكيف جعلت تلك الطبقات بهيئة موسيقية عجيبة جدا ، وكيف عرفنا الصور والأحجام بهذه الآلة ، نحن لانعرف آلة إلا بتفصيل أجزائها ، وأجزاء العين نعرفها بدراسة عين البقرة من عند القصاب ( الجزار ) ومتى نظرناها عرفنا أنها كرة فيها حبل أبيض خارج من خلفها في داخل العين يوصل الى المخ ، ثم لندرس الطبقات طبقة طبقة .

٢٩ وههنا ( شكل ١ ) قطعة من العين الانسانية وفيها وضحت ١٥ قطعة من داخل العين مثل الصلبة والقرنية والملتحمة وغطاء المشيمة ، وآخرها الرطوبة الزجاجية .

٣٠ ثم ( شكل ٢ ) فيه أجزاء العين مفصلة ، ولكن شرحها قد تقدم في [ سورة المؤمنون ] فلم يذكر هنا وهو معلوم ، جال العين وبهجتها وعجائب اتقانها ، وذكر أهم أجزاء العين وهي القرنية : الرطوبة البيضية ، البلورية ، الزجاجية ، الشبكية ، وهذه تفهم بشكل ( ٣ )

٣١ وهي تجربة تبين منفعة أجزاء معلومة من العين ، فترى المصباح يمثل ضوء الشمس مثلا ، واللوح الأبيض المثقوب يمثل القزحية ، والزجاج المائي يمثل البلورية ، واللوح نمره ٤ القابل للصورة يمثل الشبكية وبهذا ظهرت قيمة القزحية فهي المساعدة لتمام الصورة على الشبكية ، الكلام على المنشورات البلورية القائمة مقام الزجاج المملوء ماء ، إن الزجاج المتقدم يعرفها الخاص والعام وهي تمثل البلورية ، ولكن العلم يعوزه ما هو أعظم من ذلك وهي أجسام زجاجية مضلعة ( شكل ٤ ) قطعة من بلوريتين محدبتين وجزء من منشورين .

٣٢ تحليل الضوء إلى ألوانه السبعة : سير الضوء في منشورين قاعدة أحدهما ملتصقة بقاعدة الآخر فصار أبيض في الوسط ، والأشعة الزرقاء أسرع فاجتمعت أولا ، والحمراء اجتمعت بعد ذلك ، وإذا وضعنا بلوريتين معا كما وصفنا رأينا نفس هذا السير في الضوء ، إن للقزحية إذن فائدتين : أولا لها الفضل في ظهور الصورة على الشبكية ، ثانيا أنها تحفظ الضوء من أن يكون أزرق أو أحمر برتقاليا عند حافته ، فان ذلك نقص يعوق النظر ، ولقد احتال العلماء بوضع ستارة حلقيه في الآلة البصرية [ التلسكوب ] فذهبت هذا العائق ، وهكذا فعل القزحية فهما سواء في ذلك .

وظائف القزحية والبلورية والشبكية : فالأولى لحفظ الصورة واضحة ، والثانية ترسلها ، والثالثة توصلها إلى الدماغ ، والشبكية عشر طبقات مفصلات في ( شكل ٦ )

٣٣ وآخر طبقة منها فيها ثلاث ملايين مخروط وثلاثون مليون اسطوانة ، وصورة هذين النوعين في صفحة ٣٤ ( شكل ٧ )

٣٤ يقول المؤلف : إن كثيرا من الشبان سيعشقون هذه العجائب ، تأثير الضوء في النبات والحيوان والجماد المبحث الثاني من اللطيفة الثانية في عجائب السماء والكواكب ، وههنا الكلام الاجمالي على السيارات وعلى الشمس الكبيرة والمجرات ، والشمس تبعد عن سطح المجرة ٥٠٠٠٠٠ خمسين ألف سنة نورية ، وهي تسير مع شمس أخرى بسرعة مليون ميل في اليوم .

٣٨ وظهر ١٩ نجما جديدا من سنة ١٣٤٤ ق م إلى الآن ، إن النجم الصغير المسمى [ درواس ] يبعد عنها

١٢ ألف سنة نورية ، وضوءه أكثر من ضوء شمسنا ٦٠٠ ألف مرة ، وبعض النجوم ضوءها ألمع من ضوء شمسنا من ١٥ ألف إلى ٦٠ ألف مرة ، ونجم القطب اشراقه أكثر من اشراق شمسنا ١٠٠ مرة وهكذا نجوم أخرى تقل عنه ، شمس الشمس هو [ العيوق ] وهو الذي يقال ان نجوم المجرة كلها البالغة ٣٠ ألف مليون نجم تدور حوله ، وهو أكبر من الشمس مليوني مرة و ٢٠ ألف مرة ، واشراقه أكثر منها نحو ٥٠ ألف مرة . قطار المجرة ٣٠٠ ألف سنة نورية ، وقطر بعض السدم ٢٠ ألف سنة نورية ، وأخفى السدم يبعد عنا عشرة ملايين سنة نورية .

٤٠ تطبيق أقوال الصلاة على عجائب البصر وعجائب السموات ، يقول المسلم في الرفع « ربنا لك الحمد مل السموات » الخ وهل معنى هذا الامتلاء إلا بأن يمتلئ القلب بالاعجاب بذلك الجمال فيكون الحمد إذ ذاك عن حب باعث له ، وقول المصلي في سجوده « سجد وجهي للخالج » جاء فيه ذكر السمع والبصر ، وههنا يسجد ويقترب ، لأن الدقة واضحة في السمع والبصر ، والنظر للسماء مقدمة للنظر في النفس ، فالمسلم مبتدئ في الرفع ومنته في السجود لشدة اقترابه بمعرفة دقة صنع نفسه ، ليس المدار على عظمة المصنوع بل المدار على دقته .

٤١ تسبيح المخلوقات وشرح الكلام في القزحية وأنها تضبط النور ، وهكذا ذكر ألوان الآساد وغيرها ، وأنها وضعت لحكمة حفظها ، وهذا هو المقصود الحقيقي من التسبيح ، فكل شيء يسبح بهذا الاعتبار ، والناس يجهلون هذه الدقائق ، فهم لا يفقهون تسبيح المخلوقات والله حلیم عليهم . سر من أسرار حكم العين وقزحيتها .

٤٢ اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « والأرض مددناها » الخ وفيها مقالتان : المقالة الأولى في قوله تعالى : « وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » النبات إما وحيد الخلية ، وأما كثير الخلايا ، والخلية لها جدار صلب شفاف في داخله مادة لزجة لها صفات الحياة الست مثل القدرة على تمثيل الغذاء الخ وفي داخل هذه الخلية نواة قد تكون في داخلها (نوية) وهذه الخلية تنقسم انقساماً مباشراً في النباتات الدنيئة ، وانقساماً غير مباشر في النباتات المرتقية ، ههنا شكل ٨ وشكل ٩

٤٥ شكل ١٠ فيه نوع الخلايا وهي هنا ستة أنواع : مثل الخلايا المرتسيمية الخ ، ثم إن النبات ذا الخلية الواحدة تقدم في سورة حم فصلت ، وأما المركب من خلايا كثيرة فهو إما ذوفلقة واحدة ، وأما ذوفلقتين ، فالأول مثل البصل والثوم والكرث البلدى والصبار والنخل والقمح والارز والذرة الشامي وقصب السكر الخ — وذو الفلقتين مثل الكرنب والقنبيط والفجل والتفاح والطماطم الخ .

٤٧ شرح الساق في النبات ذي الفلقتين مثل [ الكيوتين ] ومثل البشرة تحته ، وهكذا إلى سبع طبقات ، وآخرها أشعة نخاعية (انظر شكل ١١) و (شكل ١٢) و (شكل ١٣) و (شكل ١٤) و (شكل ١٥)

٤٩ امتحان الساق في ذي الفلقتين يظهر في الحلبة والملوخية بسهولة ، شرح ساق النبات ذي الفلقة الواحدة وفهم (شكل ١٦ و ١٧ و ١٨) : الفرق بين نمو الساقين أن أحدهما يزداد في السمك عاماً بعد عام وهو ذو الفلقتين وبالعكس ما كان ذا فلقة واحدة كالنخل

٥١ وهنا (شكل ١٩) فيه الحلقات السنوية .

٥٢ شكل الخشب في أشجار مختلفة (شكل ٢٠) و (شكل ٢١) لبيان الجذور ، وأشكال ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ لأصل النباتات الحزازية .

- ٥٤ (شكل ٢٥) للنباتات السرخسية ، ويلبها (شكل ٢٦) الكلام على النباتات المعراة البذور والمغطاة البذور .
- ٥٥ الموازنة بين النباتات ذوات الفلقة وذوات الفلقتين وهي خمس فوارق .
- ٥٥ المقالة الثانية في قوله تعالى « تبصرة » والتبصرة باستنتاج ١٤ حكمة مما تقدم هنا مثل أن الكيوتين لمنع الماء من البخر الخ وهذا الاتقان عام في كل نبات ، وعدد النباتات ربع مليون .
- ٥٧ المقالة الثالثة في قوله تعالى : « وذكرى لكل عبد منيب » وإيضاح هذا المقام أن أغذية الأجسام معلومة وأغذية الأرواح ترد عليها من الصور الخارجة الواردة على الحواس الخمس في كل زمان وهذا غذاء روحيّ والناس لا يعلمون ، فإذا فارقوا الأبدان دامت تغذيتهم به .
- ٥٨ التسبيح والتحميد : والكلام على التسبيح والتحميد من المخلوقات أهو باللفظ أم بالمعنى ؟ والحق أن الاختلاف راجع لجهل الحقيقة ، إن الإعجاب بتلك الحكمة العالية في العوالم هو نفس التسبيح فهاهو القول إذن ؟ والتسبيح يلزمه التحميد ، وليس يمنع هذا قول الشيخ الدباغ : ان المخلوقات تسبح ، وقد سمع هو تسبيحها ، فهذا ليس أعلى التسبيح .
- ٦١ جمال العلم وبهجة الحكمة في الكلام على وادي الموت بأمريكا ، فكل من دخله مات من حرارته وعلى غور الشيطان بأمريكا أيضا وعمقه ١٧٥ مترا ، وذلك بسبب جرم سماويّ صنعه ، ثم الكلام على الجليد والقمح القطبي .
- ٦٢ ههنا ثلاث جواهر : في آية : « وأنبطنا فيها من كل زوج بهيج » . وفي آية : « وذكرى لكل عبد منيب » . وفي آية : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » وفي الأولى ان تلقيح النبات ذي المسكنين يمكن أن يكون من مكان بعيد ، وفي الثانية أربع عجائب في خلق النبات ، وفي هذه الثانية إتمام الكلام على آفات اللسان ، مثل السخرية والاستهزاء ، وذلك من كتاب [ إحياء علوم الدين ] للإمام الغزالي ، ومثل إفشاء السرّ ، ومثل الوعد الكاذب ، ومثل الكذب في القول واليمين .
- ٧٢ بيان ما رخص من الكذب ، كمن يكذب للصالح بين اثنين .
- ٧٤ بيان الحذر من الكذب بالمعارض .
- ٧٦ الغيبة والنظر فيها طويل .
- ٧٩ بيان معنى الغيبة وحدودها .
- ٨٠ بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان .
- ٨٢ بيان الأسباب الباعثة على الغيبة .
- ٨٥ بيان تحريم الغيبة بالقلب .
- ٨٧ بيان الأعذار المرخصة في الغيبة .
- ٨٨ بيان كفارة الغيبة .
- ٩٠ النعمة .
- ٩١ بيان حد النعمة وما يجب في ردّها .
- ٩٣ كلام ذي المسائين .
- ٩٥ آفة المدح .

- ٩٦ بيان ماعلى الممدوح .
- ٩٧ الآفة التاسعة عشرة : الغفلة عن دقائق الخطأ فى خوى الكلام .
- ٩٨ الآفة العشرون : سؤال العوام عن صفات الله تعالى ، وعن كلامه ، وعن الحروف أهى قديمة أم محدثة ؟ .
- ٩٩ وههنا شذرات من كتابنا [ جوهر التقوى ] من الحسد وأسبابه .
- ١٠١ الثبات والعزيمة ، والصبر وأنواعه ، والعفة والشجاعة ، وكتم السر وأفشائه ، والقناعة والشره .
- ١٠٧ (١٣) سؤالاً للتطبيق على الأخلاق المتقدمة ، الكرم والبخل .
- ١٠٩ اللطيفة الخامسة فى قوله تعالى : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » وأن هذه الآية معجزة فى البلاغة ، فان أحد المستشرقين مع أديب مصرى عجزاً أن يأتيا بما يضارعها فى وصف جهنم ، وهذا عجب عجاب ! وههنا موازنات بين علم الأدب عند طبع هذا التفسير فى بلاد الاسلام ، وبين الأدب أيام تعلمنا بالجامع الأزهر ، وأن علم الأدب ارتقى اليوم جداً .
- ١١٣ ﴿ سورة الذاريات ﴾ مكتوبة مشكلة كلها .
- ١١٤ تفسير البسملة ، وبيان غفلة الانسان فى هذه الأرض .
- ١١٦ القسم الثانى من السورة فى تفسيرها اللفظى من أولها إلى قوله « لعلمكم تذكرون » .
- ١١٩ القسم الثالث من السورة فى تفسير الآيات من قوله تعالى : « ففرّوا إلى الله » إلى آخر السورة .
- ١٢٠ لطائف هذه السورة ثلاث : اللطيفة الأولى والثانية فى مبحث علمى ومبحث أدبى ، والعلمى يرجع إلى أن [ ق ] جىء به مذكراً للمسلمين بعد غفلتهم فى زماننا ، والأدبى يرجع إلى الموازنة بين أقسام العرب وأقسام القرآن فان أقسام القرآن عجيبة لم يقلها عربى .
- ١٢٥ اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : « فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون » .
- اللطائف العامة فى هذه السورة ، وأولها فى قوله تعالى : « وفى الأرض آيات للموقنين » الخ . محاورات بينى وبين صديقى العالم الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير .
- الفصل الأول فى ملخص ما تقدم فى ﴿ سورة الفتح ﴾ لمناسبة قوله تعالى : « وفى السماء رزقكم وما توعدون » .
- الفصل الثانى فى علاقة أجسامنا بعالم السموات ، وما يتبع ذلك من طول العمر وقصره ، وفى التعبير وأسبابه ، وفى هضبة الحياة والعوامل التى تعمل فيها ، وفى منحدر الحياة ، وفى أسباب الشيخوخة والموت ، وفى منذرات الشيخوخة ، وفى العدد التناسلية ، وفى تجديد الشباب ، وفى وسائل التجديد وإطالة العمر ، وفى هذا المقام شرح الجهل الذى كان فاشياً قديماً عند رجال الطب الذين كانوا يأمرّون الشيوخ بكثرة التغذية فظهر أن ذلك قاتل لهم ، وشرح الحمام الشمسى وفوائده ، وغير ذلك من الفوائد التى يجب الاطلاع عليها والعمل بها لتكون الحياة سعيدة ، ومن أهم تلك التدابير النافعة كثرة التنفس العميق فى الهواء الطلق ، فانه يحدث قوّة لكل عضو من الأعضاء .
- ١٤١ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » وما بعدها ، وبيان بدائع الحساب من الجذر والتربيع والجمع والطرح فى الأعداد ( ١ - ٢ - ٣ - ٤ الخ ) وكيف كانت أنواع الحساب المذكورة فيها يستخرج بسببها مشاثات قائمة الزوايا بينها تلاؤم ونظام عجيب كأنها جنات فيها نخيل وأعنان ،



وهناك يساوى مربع الوتر مربع الضلعين الآخرين ، وهذه من عجائب نفوسنا ، وهذه الكلام على النسبتين العددية والهندسية ، وكيف أمكن أن يجعل من كل منهما وفق بحيث يكون جمع أو ضرب أى صف أفقى أو رأسى أو قطرى مساويا لباقي الصفوف الرأسية والأفقية والقطرية ، وهذا غاية العجب وكل هذا من عجائب نفوسنا ، وهكذا يستبين العدد الكامل والناقص والزائد والأعداد المتحابة ، وذلك كله باعتبار مضارب الأعداد ، فإن سادت المضارب نفس العدد فهو كامل ، وإن زادت فهو زائد ، أو نقصت فهو ناقص ، وإن سادت مضارب عدد عدا آخر وكانت مضارب ذلك العدد مع العدد الأول كذلك سعى العددين متحابين .

١٤٨ إن أمر نفوسنا عجب ! انها عرفت أن من الكسور مالا نهاية له ، ومنها ماله نهاية ، والأول كسر دائر مركب أو بسيط ، والثاني ليس بدائر ، وسير الكواكب كالكسر الدائر المركب ، وعدم نهاية أجزاء المادة كالكسر الدائر ، وكذلك عدم تناهى العوالم ، وهذه تعجب المؤلف من المثلثين المتقدمين ونظامهما العجيب ، ويقابل ذلك كله التشریح ونظام الأمم .

١٥٠ الفصل الثانى فى حدائق العلوم التى تفتى الناس ظلالها من علم الفلك والطبيعة ، وظهور غاية الدهش من حساب الأحجار الساقطة فى نظام سرعتها ، وكيف دخل فيها الجذر والتريع الخ وهكذا نظام أوراق النبات .

١٥٢ (شكل ٢٧) و (شكل ٢٨) يمثلان نظام أوراق أمثال شجر التفاح الذى يرجع إلى كسر بسطه عدد (٢) ومقامه عدد (٥) والأول للأشكال الخزونية فى الدائرة الواحدة ، والثانى لعدد أوراقها ، وكيف كانت الورقات الخمس فى الدائرة بينها مسافات متساوية ٧٢ درجة من محيط الساق وهو دائرة تامة

١٥٣ الفصل الثالث فى أن الأمم وإن استظلت بظلال تلك العلوم فى حياتهم لم تجن ثمراتها .

١٥٤ الإنسان لم يدرس حقائق السياسة كما درس أحوال الحياة .

لطيفة فى قوله تعالى : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

١٥٥ [ الشذرة الأولى ] فى كريات الدم الحمراء [ الشذرة الثانية ] فى بعض المنافع الطبية والمحافظة على الأسنان وتنظيفها ونحو ذلك ، وأن الأسنان الذهبية قاتلة لنوع الإنسان ، وأن الأسنان لابتة من نسويكها ، واللثة لابتة من تنظيفها بالأصبع لا بالسواك .

١٦٠ الشذرة الثالثة فى أمر النفس وعجائبها ، وبيان أن الحقول هى الكلية الأولى لعلم النفس ، ذلك أنى كنت أفكر فى أمر النفس وأنا فى الحقل ، ولم يكن أمامى إلا السماء من فوق والأرض من أسفل والناس حولى ، فهى هكذا : عالم علوى ، وعالم سفلى ، ونفس الإنسان ، وجميع المخلوقات على الأرض ملحق بها ، ثم قرأت علوم الأزهر ونظرت فى كتب الفلاسفة المتقدمين ، ثم فلاسفة أوروبا ، فوجدت المتقدمين جعلوا العلوم هكذا : رياضيات ، طبيعيات ، إلهيات ، والطبيعيات هى سماع الكيان والسماء والعالم ، والكون والفساد ، والآثار العلوية ، والمعادن ، والنبات ، والحيوان ، والإنسان . ثم هم يقولون إن للنفس ثلاث قوى ، ثم يأتون بعد ذلك بالعلم الأعلى وهو خمسة علوم ، وهذه كلها مع الرياضات ومع تهذيب الشخص ونظام الأسرة ونظام الأمة تبلغ ١٧ علما ، ولها فروع كثيرة ، وجاء [ يكون ] فقال أنا أجعل مبدأ التقسيم نفس الإنسان مخالفا مذهب المتقدمين ، فاعتبر القوة الخيالة والفكرة والحافظة وجعل نظام الطبيعة ونفس الإنسان والذات العلية للقوة العاقلة ، ونحو الشعر للقوة الخيالة ، ونحو التاريخ

١٦٠ للقوة الحافظة .

الكلام على آراء [ اخوان الصفاء ] في هذا المقام ، وعلى ما في جمهورية أفلاطون فيه ، وهو مفهوم في مواضع كثيرة من هذا التفسير وينحون نحو هذا الترتيب بعينه [ كوفشيوس ] الصيني .

١٦٨ فصل فيما جاء في علم النفس الحديث .

١٦٩ نظرة عامة في علوم النفس عند القدماء والمحدثين ، والكلام على كتاب [ سلوك المالك ] في تدبير الممالك [ مثل أن الرذيلة لها دواء كالشره والعجب وأنه لا فرق بين دواء المرض بضده ، ومداواة الرذيلة بضدها تبصرة وتذكرة في آية : « وفي الأرض آيات للموقنين » الخ وههنا ( شكل ٣٠ ) للمخ الانساني ، وأنه منقسم إلى قسمين كل قسم منهما أربعة فصوص وكل فص من هذه الثمانية ينقسم إلى أقسام أخرى على حسب التلايف .

١٧٣ ( شكل ٣١ ) مقطع جانبي للمخ يبين الألياف الرابطة ، وبيان الألياف الضامة والألياف المصدرة والألياف الموردة ، ويوضح ذلك أيضا ( شكل ٣٢ ) .

١٧٤ ( شكل ٣٣ ) مقطع في المخاء .

١٧٥ وظائف المخ ، مناطق اللحاء ، وههنا مناطق عجيبة موزعة على أعضاء الحس وعلى أعضاء الحركة ، فترى للسمع والبصر والشم والذوق مناطق في مؤخر الدماغ ، ولكن حاسة اللمس لها منطقة موازية لشق ( رولندو ) من خلفه موزعة على ظواهر الجسم من القدم إلى اللسان في الوجه من الظاهر إلى داخل المخ ، وفي مقابل هذه المناطق الموزعة على ظواهر الجسم من الناحية الأخرى من شق رولندو مناطق أخرى لتحريك وترتيب المقابلة لها التي للاحساس ترتيبا تاما ، وهناك ثلاث مناطق في المقدم والوسط والمؤخر قد جعلت لنظام تلك الحواس ، فهي أشبه بالحكام في المدن .

١٧٧ مراكز اللحاء في المخ أربعة : مراكز الكلام والكتابة ، وإدراك الألفاظ المسموعة ، والألفاظ المكتوبة وبين هذه الأربعة اتصال ، وكلما كانت كلهما متعاونة كان الفهم أسرع ، وذلك نافع في علم التربية في المدارس .

١٧٨ المخيخ : وظيفته تنظيم حركات الجسم ، ومنى عطل كانت حركات الانسان غير مضبوطة ، فهو نظير المناطق الثلاثة في المخ التي تحكم بين الحواس المختلفة وتنظمها .

نظرة عامة على هذه المشاهد في علم النفس : أعلم أن أعصاب الحس وأعصاب الحركة مشابهات للتيارات البحرية من حيث التعاون والاتحاد في العمل والمصلحة ، وكما أن الانسان لا سعادة له إلا بانتظام هذه الأعصاب وأنواع الاحساس والحركة بسبب انتظام مخه وحسن تقسيمه هكذا النوع الانساني لا سعادة له إلا بانتظام جميع قوى عقوله المختلفات وتعاون الجميع .

١٨٠ والمسلمون خير أمة أخرجت للناس ، فعليها أن تقوم بإسعاد الأمم كلها بهذه السعادة ، وههنا يظهر للعاقل أن هذا الكون كله كلمات الله ، لأن كل ضوء ، وكل مادة ، وكل حيوان ونبات ، والسماء والأرض ماهي إلا حركات في الأثير فان كانت الحركات ضعيفة كحركات صوت الانسان لم تعرف إلا بأسماعنا ، وتبلغ في نهايتها ( ٣٢ ) ألف حركة في الثانية وان كانت الحركات أقوى حدث بسببها إماضوء وذلك بسبب ٤٠٠ مليون مليون حركة في الثانية إلى ٧٠٠ مليون مليون حركة في الثانية ، وأما موادنا نشاهدها ، وذلك بسبب ٦ آلاف مليون مليون حركة في الثانية الواحدة ، إذن الحركات الضعيفة تحس بها آذاننا ، والحركات القوية تحس بها بقية حواسنا ، إذن الكون كله حركات ، وهذه الحركات كلمات ، وههنا حديث طريف ، ذلك

أن الطفل في لعبه يحكى أعمال أجداده ومستقبل عمله كما أن الجنين يمرّ على أدوار كل حيوان تقدّمه من أول خلية إلى أعلى حيوان .

١٨٢ جوهرة في آية : « ومن كل شيء خلقنا زوجين » وبيان أن القرآن يسمع المخاطبين ما تقبله عقولهم ولبست الأمثلة التي فيه حاضرة لما يجب علينا ، وعلى العقول التفكير في كل شيء ، وبيان ما شاهدته من العنات ، وأن ذبواطن مرفوعات ، والله منع الذكر بالغريرة أن يقرب الأثني بعد الضراب ، فالإنسان حرّ لأنه سهل له سبل كل شيء ، وعقله هو الذي يحكم ، وكما أن الرجل لا يترك الشهوة إلا بعقله ، والتيس ترك ضراب العنز بالغريرة ، هكذا الأمم الأمريكية والانجليزية الذين يمنعون السود أن يجلسوا معهم في مكان واحد يعوزهم عقل يرشدهم ، ودين يذكّرهم ، وهذه العنات أحبّ الأبيض منها الأسود وغيره بالغريرة ، فالإنسان في سياسته الشخصية وسياسته العامة يعوزه مقوم من الخارج

١٨٥ أقسام المملكة الحيوانية وأنها إما وحيدة الخلية وأما كثيرة الخلايا ، ولكل منهما أقسام وهي أربعة في الأولى ، وأقسام كثيرة في الثانية مثل الفقريّة وأقسامها الخمسة ، والخامس منها ثمانية أقسام مثل اللاقريّة وأقسامها الثمانية .

١٨٦ الأميبا ( شكل ٣٥ )

١٨٧ القسم الثالث من وحيد الخلية : البوجلينا ( شكل ٣٦ ) الحيوانات الجرثومية .

١٨٨ حوصلات الملاريا المعدة ( شكل ٣٧ ) و ( شكل ٣٨ ) حيوان الاسفنج .

١٨٩ اسفنج الحمام ( شكل ٣٩ ) . ( شكل ٤٠ ) أخطبوط

١٩٠ ( شكل ٤١ ) نجم بحري يفترس محاراً .

١٩١ ( شكل ٤٢ ) قطاع عرضي في الذراع .

١٩١ ( شكل ٤٣ ) الدودة الكبدية الكاملة .

١٩٢ ( شكل ٤٤ ) دودة البلهارسيا ( شكل ٤٥ ) دودة الانكاستوما .

١٩٣ القسم السادس من الحيوانات عديدة الخلية ، والقسم السابع منها وهي التي لا فقرات لها ، وهنا شكل ٤٦ و ٤٧ و ٤٨ و ٤٩ و ٥٠ و ٥١ أما ٥١ فذلك في القسم الثامن من الحيوانات عديدة الخلايا وهو القوقع الروماني و ٥٢ في بلح البحر مدفوناً .

١٩٥ بهجة الحكمة في هذه المناظر الحيوانية . يقول المؤلف : إن هذه الرحلة لاحد لها ورحمتنا نحن جزء منها ، وههنا يذكر المؤلف تلك الخلايا في أوراق الأشجار كما تقدم في [ سورة يس ] ويدكر أن خلق نوعين من الحيوان ضارّ ونافع معناه أننا أحرار في عملنا ، فلولم يخلق غير النافع لم تكن لنا حرّية ، فالحرّية تنبع خلق الضدين ، وهذه ميزة هذا الإنسان .

١٩٩ زيادة إيضاح « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » . يقول المؤلف : إن الدنيا جال ونحن محجوبون عنه ، فكأن الناس عمى أمام الغادات الحسان ، صمّ لا يسمعون أبهى النغمات ، ويقول المؤلف : انه يحسّ عند كتابة هذا الموضوع بسعادة لاحد لها .

٢٠٢ مسامرة في آية : « وفي السماء رزقكم وما توعدون » وفيها الكلام على تقسيم النبات أيكون بالشجرات والشجيرات والأنجم ؟ أم يكون بأنه ذوسنة أو سنتين أو سنين ؟ وكلاهما لا يفيد بل المفيد أن يكون التقسيم بالزهر ، إن المدهش أن يكون ثبات النظام الزهري هو الذي كان به التقسيم كما كان

- ثبت سير المشرقات العلوية سببا في تقسيم الزمان .
- ٢٠٤ وهذا معنى هذا العنوان : « الزهرات تنوب عن النجوم في بعض آثارها » .
- ٢٠٥ ومن الفصائل الفصيحة الحضرية كالقول وجميع أوراق زهرها خمس لا غير ، وهي من ذوات الفلقتين التي لا يخرج ساقها عن أن تكون مخروطية الشكل ، فأما ذوات الفلقة الواحدة كالنخل فان ساقها اسطوانية الشكل .
- ٢٠٥ الكلام على الفصيحة الوردية ، وفيها التفاح والبرقوق الخ فالكأس خمس والتويج خمس ولكن أعضاء الذكور كثيرة جدا ، بخلاف ما قبلها فعدد من عشر لا غير .
- ٢٠٦ الكلام على اتجاه العقول الاسلامية ، فانك ترى موشحة الوزير أبي عبد الله بن الخطيب شاعر الأندلس هكذا : جادك الغيث إذ الغيث هما الخ فهو لاء في ناحية والقرآن في ناحية .
- وزير فرنسي يؤلف في عجائب صنع الله ، وناظيره في الأندلس يقصر شعره على الوصل والهيام .
- ٢٠٩ ويتبع هذا الكلام على العلويات الآتية في ( سورة الملك ) وذلك أنه يستخرج من ضوء الشمس وسيره هناك كيف ترى الصورة في المرآة معكوسة ، ولماذا هذا ؟ وكذلك تعرف هناك العدسات والمكروسكوبات والتلسكوبات والمناظر وأضواء الشمس السبعة ، وكيف يمكن استخراج النار بالعدسات الثلجية في الأقطار الشمالية .
- ٢١١ تفسير سورة الطور ، هي مكتوبة مشككة .
- ٢١٢ تفسير البسملة : ان اتجاه الرحمة هنا أن الكمال بعد النقص كالجنة بعد ذكر النار ، وكوضوح الحجة بعد المقدمات .
- ٢١٣ القسم الثاني : ذكر العذاب والنعيم في التفسير اللفظي لهذه السورة إلى قوله : « انه هو البر الرحيم »
- ٢١٥ القسم الثالث من أول « فذكر » إلى آخر السورة .
- ٢١٦ لطائف هذه السورة .
- ٢١٧ اللطيفة الأولى في قوله تعالى « والطور » .
- اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « والبيت المعمور » وبيان أن هذه الأقسام كلها تمت بصلة إلى مانحن عليه الآن من العلوم المنشورة ، واشراق القلوب ، وظهور نار في باطن الأرض كشفها الناس الآن ، وهي البحر المسجور ، والكلام على « الضراح » الذي يقال ان حرمة في السماء كحرمة الكعبة في الأرض ، وأن هناك ملائكة يصلون إليه كل يوم ولا يعودون أبدا ، ومن عجائب هذه الآيات انتشار التعليم اليوم شرقا وغربا ، وكذلك [ الراديو ] والتلغراف السلكي والذي لاسلك له ، وانتشار الجرائد وهكذا ، فهذا كله يومئذ إليه الرق المنشور .
- ٢١٨ نتائج هذه المعجزة القرآنية في بعض النفوس ، فالجهلة والكسالى يفرحون بأنهم عرفوا أن ديننا حق ويقفون عند ذلك الحد ، والعارفون وأرباب النفوس الكبيرة هم الذين يأخذون بيد هذه الأمة إلى رقيها فيما تشير إليه هذه الآيات .
- ٢١٩ تفسير سورة النجم ، وهنا كتبت كلها مشككة .
- ٢٢٠ تفسير البسملة ، وبيان أن الله أقسم بالنجم وأعظم أمره فقال : « وانه لقسم لو تعلمون عظيم » لأنه يعلم قبل نزول القرآن أن النجوم هي التي عليها مدار سير السفن في وسط البحار الكبيرة بعلوم

الفلك التي لا يفقهها على حقيقتها غير ربان السفينة ، وبيان أن النجم في وسط السماء لا يدل على طريق ولكنه إذا هوى يدل دلالة صادقة ، وبيان أن ذلك ارشاد لأكثر المسلمين الساهين اللادين ليدكرهم بما ظهر الآن من عظمة النجوم وسرعة ضوئها ، وأن سرعة الأمواج التي لاسلك لها تجرى كجرى النور حول الأرض في سبع ثمانية مرة واحدة ، وتجري حول الكون كله في مائة مليون سنة ، وقد علم أن الأرض لو صغرت كجوهر فرد لصار الكون كله مصغرا مثل الأرض ، وعلى مذهب الفسيية يكون ألف مليون أرض ، وفي المجرة (٣٠) ألف مليون نجم ، ويقول [هارفرد] مائة ألف مليون نجم ، والسدم اللولبية أقربها إلينا بعده ثمانمائة وخمسون ألف سنة نورية ، وفي السديم الواحد مادة تكفي ألفي مليون نجم . ويقول [هيل] : « إن التلسكوب الآن يستطيع معرفة مليونين من العوالم الجزرية وكل واحد يبعد عن الآخر مليونين سنة ضوئية ، ولكن إذا تمّ التلسكوب الجديد يصل المعلوم منها ١٦ مليوناً بديل مليونين ، وههنا بيان عمر الشمس ، وعمر الأرض ، وعمر الحياة عليها ، وعمر الانسان الذي عاش عليها ٣٠٠ ألف سنة ، وبيان أن جميع الكواكب تبلغ ٢ على يمينها ٢٤ صفراً .

محاورة بيني وبين عالم ، وفيها الكلام على أن كل علم لابد له من تمرين ، والتمرين على علم الدين بالعبادة المذكورة في آخر ﴿سورة الطور﴾ ثم تمام العلم المذكور في ﴿سورة النجم﴾ : « ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى » ومتى انتهى الانسان في العلم أفاض على غيره ، وهذا قوله : « ماضٍ صاحبكم وما غوى » .

٢٢٥ لماذا وجب المران في كل شيء ؟ وبيان أن المادة نفسها عبارة عن حركات كثيرة انضمت فصارت مظاهر مختلفة ، فإذا كان أصلها الحركة فلن يستخرج نتائجها إلا بالحركات ، وذلك هو التمرين .

٢٢٦ مقدمة في مناسبة السورة لما قبلها ، وبيان أن التصدي لارشاد الأمة يفبغى له أن يقوم بالليل ويفعل ما هو مذكور في آخر سورة الطور ليقبل الناس قوله .

٢٢٧ القسم الثاني في التفسير اللفظي للآيات من أول السورة إلى قوله تعالى : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » .

٢٢٩ وههنا تفسير الآيات من قوله : « أفرأيتم اللات والعزى » إلى آخر السورة .

٢٣٣ لطائف هذه السورة .

لطيفة في قوله تعالى : « والنجم إذا هوى » وههنا مذكرة واسعة النطاق بالآيات التي في آخر سورة الطور ، وبما في أول سورة النجم ، وبيان أن الحمد المذكور في آخر الأولى لن يتم إلا بالمعارف ، وهذه المعارف ظاهرة فيما رآه صلى الله عليه وسلم في السماء من آيات ربه الكبرى ، فهكذا فلنكن حياتنا نسبح ونحمد ولكن نجتد في المعارف حتى يكون جدنا حقاً الخ .

٢٣٤ ثمة هذا المقام في أمم الاسلام ، وبيان أن هذه المعارف التي لا يتم الحمد إلا بها تكون للأنبياء بلا تعليم ، ولكنها لا تكون لنا بغير تعليم ، رأى صلى الله عليه وسلم سدرة المنتهى ويقول إن ما وراءها لا يعرفه أحد ، إذن المعارف الشائعة الآن في الشرق والغرب مباحة ولم تقف فلماذا تقتصر فيها ، ونبينا صلى الله عليه وسلم قدوة في جميع المعارف ، لأنه وصل إلى نهايتها ، ونحن قد نمنا في أولها .

٢٣٥ اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « وأنه هو أضحك وأبكى » الخ ، وههنا سؤال ورد على المؤلف ، وهو كيف يهلك الله الأمم ونحن يحرم علينا قتل رجل عمداً فندخل به النار المؤبدة ؟ وهل إهلاك الأمم



هو الودّ الذي اتصف به [ودود] وبيان أن الجواب على هذا سيأتي في ﴿سورة الحديد﴾ وهناك ستقرأ النظام التكويني والتشريعي ، ودرجات التربية ، وتربية الأمّ لولدها ، وتربية الأب له والمعلم والحكومة ، وتربية الإله ، واحداثه الزلازل في الأرض كما تمنع الأم ولدها عما يشتهي وهو يضرّه ، وبيان أن العلم إما سطحي كالشعر وأما حقيقي ، وأن الحب على مقدار العلم ، وأن الله توارى عنا ولكنه قذف لنا كرات نراها كل صباح وكل مساء .

٢٣٧ اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى » وفي هذا المقام وصف ما شاهدته المؤلف وهو خارج من القاهرة إلى مزرعته بقرب المرج ، وأن روحا تمثل له في خياله وأخذ يقصّ عليه قصص عوالم الأثير الذي تجري فيه الكواكب والأضواء ، وأنه عالم يحمل من الأثقال ما لا تحمله أى مادة مع أنه هو ليس مادة ، وبيان أن كل إنسان وحيوان ومغمورون في جبال بديع لا يعرفون كنهه ، وأن الشمس والكواكب ترسل الأنوار ، وهكذا هناك عوالم روحية وهم الملائكة يرسلون أنوارا عقلية وتعلما لكل حشرة ولكل حيوان وإنسان ، إذن النور حسي ومعنوي ، وليست تأخذ النفس من العالم العقلي إلا على مقدار طاقتها كما لا يأخذ الجسم من الأضواء إلا على مقدار مساحته .

٢٤٠ حيرتى وفراقى لذلك الروح الجيلة ، والكلام على الهواء والضياء والقوى الفكرية وفي الغذاء والمخ الخ وبيان أنى لما أفقت من غشيتى تذكرت أن تفسير هذه الآية لم يتمّ فإذا أصنع ؟ ذلك لأنى إلى الآن لا أفهم لماذا يذكر الله الفشاة الأخرى بعد ذكر الزوجين الذكر والأنثى وأى مناسبة ؟ وإذا كان الله في ﴿سورة الأنعام﴾ يقول : « كتب ربكم على نفسه الرحمة » وأعقب ذلك بأنه يجمعنا يوم القيامة ، فهل الذكورة والانوثة رحمة ؟ وكيف تكون رحمة ونحن نرى المحار في البحار تلد الواحدة منها الآلاف والآلاف بلا هجر ولا نفقة ولا عدة ، بل نفس الذكر هو نفس الأنثى ، ونحن نرى بنى آدم معذبين بهذه الذكورة وبهذه الانوثة ، فهل هذا العذاب ينتج لنا رحمة . وجواب ذلك أن الذكورة والانوثة مدرسة لتعليم الجمال والحب والوصل والفراق حتى تتمّ النفس على درس الجمال ودرس الحب وإن تتمّ السعادة بعد الموت إلا بعشق وشوق وغرام إلى الجمال الأعلى ، وبهذا ترتقى النفوس شيئا فشيئا ، إذن هذا درس مبدئى لنوع الإنسان ، وفي هذا الدرس تمرين على الصبر والصّد والفراق ، وذلك يعطى النفس قوة فترتقى في ذلك العالم الجليل ، وفي هذا المقام مازاوله المؤلف من قطع [الكفرى] من النخلة وكيف منعه السلاء عن ذلك ، وكيف كانت الذكورة والانوثة هنا تمت بصلة إلى موضوع الآية ، وبيان أن الله حفظ الذكورة في النخل بالسلاء كما حفظ ورق السنط بالشوكات معها .

٢٤٦ ﴿سورة القمر﴾ مكتوبة كلها مشككة .

٢٤٧ تفسير البسملة وبيان أن الأنوار ظهرت بالشمس والقمر والنجوم فلم يفقه مغزاها أكثر الناس ، فأعطاهم نماذج من التاريخ كقوم عاد ونوح الخ حوادث الأولين هداية للآخرين ، ومتى درسوا نظام هذه الدنيا أدركوا معنى آية « إنا كل شيء خلقناه بقدر » وأقرب الناس إلى ربهم العارفون ، وسواهم لهم مراتب على مقدارهم .

٢٤٨ التفسير اللفظى للسورة كلها .

٢٥٢ اطائف هذه السورة : اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر »

٢٥٨ اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » فيها معنى القضاء والقدر .

٢٦٠ اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » .